هكـذا آمنت

(٢)

مـذكرات

في

نبوة النبي (ص)

محمد علي باقري

دار المحجة البيضاء

المحتويـــات

الصفحة	الموضوع
-٧	**المقدمة (تنبيهات)**
-٩	**قصة مؤمن**
-٩	دوافع غريزية
-١٠	العدل والصدق
-١١	... يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ
-١٤	لا أكون وحدي
-١٤	**الأساس والمنطلق**
-١٦	**الإيمان بالنبي (ص)**
-١٦	لا ريب في الآخرة
-١٧	اليقين والظن
-١٩	عود وتأكيد
-٢٠	خلاصة المراد
-٢٠	بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ
-٢١	الإعجاز ...
-٢٢	واقع الإعجاز وحقيقته
-٢٣	لقاء النبي
-٢٤	استبشار وتحسر
-٢٥	حب معه حذر وتعقل
-٢٦	معرفة النبي

الصفحة	الموضوع
-٢٧	المقال نوعان
-٢٩	تحليلان
-٢٩	الإيمان المتدرج
-٣١	البحث عن نبي أم اكتشافه
-٣٢	واقع النبوة
-٣٤	ولكن ...
-٣٥	النبوة منصب خطير
-٣٦	استقراء وطاعة...
-٣٧	أرجو الهدى...
-٣٨	إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي ...
-٣٨	ثلاث خصائص
-٣٩	الأمي لا يجزئ ما يسمعه
-٣٩	لا بد من استماعه ممن يتلوه
-٤٠	التغني بالقرآن
-٤٢	التلاوة
-٤٣	يمكن الاستماع للأقل علما
-٤٤	موالاة ومعاطاة
-٤٥	أثر الاستماع
-٤٦	لا أجد اختلافا

٤٧- أسئلة وأجوبة
٤٩- وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ...
٥٠- لا بد من الطلب
٥٠- لا جبر ولا تفويض في ...
٥٢- التساؤل وما يؤول إليه
٥٤- شوق ومعرفة
٥٥- ولاية مجربة
٥٥- المحجة قد تنكرت
٥٦- أوصياء لا ولاة
٥٧- **إقامة التوراة والإنجيل**
٥٧- وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً
٥٩- فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ
٦١- وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ...
٦٢- توضيح وتأكيد
٦٣- ... بل بُشرى ...
٦٤- تصديق القرآن للذي بين يديه
٦٨- الخلاصة
٦٩- ماذا تعني الإقامة ؟
٧٠- هل القرآن يحتاج مصدقا؟
٧١- لم يكن التعليم عاما
٧٢- القرآن يصدق النبي سليمان
٧٤- ... لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ...
٧٥- مسلمتان خاطئتان
٧٦- معنى الآية الكريمة
٧٧- تأكيد وتوضيح
٧٩- وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ
٧٩- تبدل الطبيعة
٨١- **الأميون**
٨٢- هل الأمية نقص ؟
٨٢- هل الأمي من لا يقرأ ؟
٨٤- لماذا كانوا أميين ؟
٨٥- لولا كونهم أميين
٨٦- الطاعة
٨٨- **لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ...**
٨٩- الأصل عموم النبوة
٩٠- لا بد من التدرج
٩١- **مرحلتان**
٩٣- تأكيد
٩٥- لِمَ لم يحقِّر الشهوات ؟
٩٦- السجع ...
٩٧- لماذا الإعلان ؟
٩٨- ملة أبيكم إبراهيم
١٠٠- كانت الدعوة عامة
١٠١- **المرحلة الثانية**
١٠٢- وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ
١٠٣- الأمر بالمعروف و ...
١٠٤- المعروف والمنكر
١٠٦- خلاصة

سيرة الإنسان الفطري -١٠٨
واقع المعجزة -١٠٨
أمور لا بد منها -١٠٩
ذكر اللّه يضبط ويهدي -١١٠
مشاكل مقلقة -١١٠
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا... -١١١
الخلافة وسيلة لا غاية -١١٣
وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ... -١١٥
عود إلى جندب -١١٦
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ -١١٧
مسائل وأفكار أم... -١١٨
عود آخر إلى جندب -١١٩
المسلمون ثلاثة أصناف -١٢٠
خطأ النبي ، وتخطئته -١٢١
الاتباع والتخطئة لا يجتمعان -١٢٢
مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ -١٢٣
الاتباع لن يتبعض -١٢٤
العَود إلى الصنف الثاني -١٢٧
الصنف الثالث -١٢٧
لئن وليتهم لتحملنهم على... -١٢٨
رفع الصوت وخفضه -١٢٩
ألف باب من العلم -١٢٩
موضع الولاية -١٣٠
أعلنه (ع) سلطانا -١٣١
مولى روحي وعلمي -١٣٢
ولاية شاملة -١٣٣
عود إلى الفئة الثالثة -١٣٥
الحكم -١٣٧
نظريتان -١٣٧
أربعة فروق -١٣٨
تصديق بلا انتظار -١٣٩
عود إلى ... -١٤١
تأكيد وتوضيح -١٤٢
مرحلتان -١٤٤

بســـم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

تنبيهات

١- هذا فصل من مذكرات في كيفية الإيمان...، حاولت فيه التعرف على النبي صلى اللّه عليه وآله والاقتراب منه والإيمان به بطريقة واقعية ميسرة خالية ـ قدر الإمكان ـ عن مسائل فنية معقدة تحتاج تخصصا أو ثقافة معينة لا تتوفر إلا لمن يسمون (الخواص[١])، واعتمدت في ذلك إمكانيات الناس العاديين، وذلك بملاحظة نفسي ونفوس أناس من أمثالي

٢- مما ينبغي الإشارة إليه هو أن القارئ قد يستصعب فهم بعض ما جاء في هذه الأوراق، لا لكونه مبتنيا على أمور (فنية) قد لا يكون القارئ ملما بها ...، بل ولخطأ الكاتب أو قصوره في التعبير عنه ...، فبإمكان من واجه صعوبة في فهم شيء مما في هذه الأوراق أن لا يقف عنده ولا يركز عليه فإني أرجو أن لا يضر ذلك بفهمه لمجمل ما ذكر فيها

٣- الذي أتوقع أن تنفعه هذه الأوراق هو من يريد البحث عن النبوة لنفسه ...، وأما من يهدف إلى ما يثبت النبوة، أو ما يحتج به ...، فإنه لا بد وأن يطلب ذلك من كتب ومقالات متخصصة معروفة

٤- يتكرر في هذا القسم، بشكل أو آخر، ما ذكر في الأقسام الأخرى من هذه المذكرات، وسبب ذلك أمران رئيسيان: الأول أن الكاتب يعتمد التكرار ...، والثاني أنه قد يعيد ثبت ما كان قد سجله في موضع آخر ونسيه ...

٥- ما سيلاحظه القارئ من استكثار الكاتب من ذكر الأقوال والآراء ليس لأنه استند إليها واعتمدها أساسا في ما ذكره في هذه الأوراق، بل ذكرها للاستيناس والتأنيس ...

هذا مضافا إلى رغبة الكاتب في إطلاع القراء على آراء مخالفة لرأيه ليكونوا على بصيرة من أمرهم قادرين على الاختيار الذي لا بد منه في التدين الصالح ...

وأخيرا لقد عُرضت هذه الأوراق على أناس (غير مختصين) بغية رصد أثرها في واقع النفوس العادية غير المتأثرة بثقافة خاصة ...، فلهؤلاء الشكر على ما أبدوا من ملاحظات نافعة ...، وجزاهم الله عني خيرا كثيرا

ومما جربه قسم من هؤلاء الأحبة أن كثرة التعليقات وطول كثير منها شوش أذهانهم وأثر في تركيزهم ...، ولكني لم أجد مندوحة لي عن ذلك ...

هذا، ومما لا بد من الإشارة إليه هنا هو أني أحب (الحوار) في المسائل العقائدية، بل وأرى أن بالمحاورة وحدها يمكن الاعتقاد بمعرفة ...، أو ـ على الأقل ـ إنها الوسيلة الفضلى للتعرف على الحق الذي يؤمَن به ...، لذلك قمت بصياغة ما ذكرته في هذه الأوراق (حوارا) ...

ملاحظة: ربما غفل الكاتب عن تحديد طبعة الكتاب الذي نقل عنه شيئا، وربما نقل نصا في مورد عن طبعة معينة من كتاب، ونصا في مورد آخر عن طبعة أخرى منه، ولم يتسن له توحيد طبعة الكتاب ...

وما يهوّن الأمر سهولة مراجعة النصوص المنقولة عن طريق الموسوعات الآلية المتوفرة جدا بلا حاجة إلى معرفة مسبقة لمكان النص

محمد علي باقري

شهر صفر من عام ١٤٣٣

قصــة مؤمن

أفترض أني أطلب ممن أرمز إليه بـ(الزين)[٢] أن يبين طريقة واقعية يمكن انتهاجها للإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله، فيقول: أحاول ذلك بافتراض قصة كأنها قد حدثت لي ...، فأقول:

منذ وقت مبكر من طفولتي أبدأ بالتنسيق مع أولياء أمري[٣] وأقلدهم[٤] في عامة سلوكي ثم آخذ بالاحتكاك بالناس خارج نطاق أسرتي وأنسق معهم[٥]، فما كان من طريقتهم مخالفا لطريقة أهلي يوجب فيّ شيئا من الصراع ... فبميلي إلى التوسع والانطلاق والتغيير والتحديث والتجديد ...، ينتصر نزوعي إلى اتباع الناس فأنصبغ بصبغتهم[٦]، ولكن لا مطلقا حيث أظل متأثرا ـ بدرجة أو أخرى ـ بما كنت قد تلقيته من أسرتي[٧] ...

دوافع غريزية

لا يقتصر تنسيقي مع أولياء أمري ومن ثم المجتمع الأوسع واتباعي لهم على سلوكي العام واهتماماتي وطريقة تلبيتي لدوافعي الغريزية، بل يتعدى ذلك إلى تلك الدوافع نفسها فيجعلني أولي بعضها اهتماما أكبر، وأن أحترم بعضها وأحتقر بعضها الآخر وأسعى إلى كبته وإبعاده عن حياتي ...

و(أفترض) أني، منذ وقت مبكر، أبدأ أحس في باطني، ويظهر ـ بشكل أو آخر ـ في تصرفاتي، ما يشير إلى أني لست مجرد مادة خام تصيغها البيئة فقط[٨] ...، فمثلا إن صادفت ظلما استقبحته بدرجة أو أخرى وإن لم ينكره أحد[٩]، واندفعت إلى نصرة المظلوم[١٠] وإن لم أجد ناصرا، ووجدت الكذب ذميما ونفرت منه[١١] واجتنبت الكاذب، واستحسنت الصدق ورغبت فيه، وانجذبت إلى الصادق ونزعت إلى الكون معه والانتماء إليه، فصدق إنسان هو أهم ما يجذبني إليه ويربطني به ...

العدل والصدق

(**المراقب**)- مقاطعا - : انجذاب النفوس إلى العدل أشد من انجذابها إلى الصدق، لذلك يُضرب المثل لما يستحسنه العقل بـ(العدل)[١٢]، فلماذا لا تنجذب إلى العادل فتنتمي إليه؟

(**الناصر**)- متطوعا - : (العدل) وإن كان أشد جذبا للنفوس من (الصدق)، أي أن انجذاب النفس إلى العدل يكون أقوى من انجذابها وميلها إلى الصدق، فإذا وجدَتْ عدلا نزعت ـ بدرجة أو أخرى ـ إلى نصرة من صدر منه[١٣]، وليس الصدق كذلك إلا أن يكون مصداقا للعدل ومؤشرا إليه ...، غير أن (العدل) حيث لا يكون إلا بين شيئين فأكثر فمعرفته تتوقف على العلم بحدودهما وحقوقهما، فلذلك، ولأسباب أخرى، يكثر الاختلاف في (العدل) رغم أن الجميع يرغبون فيه ويدّعونه[١٤]، ويكرهون الظلم ويتبرأون منه ...، ذلك لأن شوق الناس إلى العدل يجعل أكثرهم يستعجلون فيعتبرون شيئا (عدلا) بمجرد أن يبدو لهم فيه ملمح للعدل[١٥] ...، وهذا مما يوفر للمسرفين ومتبعي الأهواء مجالا لاستغلال الناس بالتركيز على معلم من معالم العدل وتضخيمه وسوقهم ـ عمدا أو جهلا ـ إلى ما هو باطل[١٦]، وهو ما يمكن في جُلّ الأشياء لولا كلها[١٧]

وعلى فرض تمكن الإنسان من تشخيص (العمل العادل) يصعب عليه أن يستدل بصدوره من أحد على كون الفاعل (عادلا)، فإن ذلك بحاجة إلى كثير من الدقة والفحص والعلم ...، فلهذا وذاك، فرغما عن شدة انجذاب النفوس إلى العدل، لو بدا لها كون فعل عدلا تمهلت في اعتبار فاعله (عادلا)

وأما الصدق فتشخيصه أسهل، وكذلك معرفة الصادق والاطمئنان من اتصافه بالصدق فلا يواجه الإنسان صعوبة في معرفته، ومعرفة الشخص مما لا بد منه فيما تنزع إليه النفس من التعامل مع الناس ومصادقتهم والانتماء إليهم ...، وقد يشير إلى

هذا قول اللّه عز وجل (المؤمنون: ٦٩): (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)[١٨] ...

هـذا، وبالإمـكان القـول: إن انجـذاب الإنسـان إلـى الصـدق إنمـا هـو ـ فـي حقيقتـه ـ انجـذاب إلـى العـدل باعتبـار أن الصـدق يشـير إليـه ويجسـده ...

وعلى أي حال فمقصودنا بالصادقين ليس هم الذين يصدقون ولا يكذبون لسبب أو آخر كحب الصدق أو الطاعة للّه عز وجل الذي نهى عن الكذب، والتي يمكن أن تتحقق بالصمت إلا في الضرورة ...، فإنا لا نرى هؤلاء ممن يندفع المرء إلى الكون معهم، وإن استحسن سيرتهم وارتاح إليهم، خاصة وأن النفوس تعرف بالفطرة والتجربة أن صفة الصدق في أحد يلازمها عادة اتصافه ببعض الخصال التي ترتاح إليها النفوس كالوضوح والانكشاف، وكذلك الخلو عن (المكر) الذي تحذره النفوس وتتنفر منه، فإن وجدتْه في أحد ـ بل وحتى لو احتملته فيه ـ حذَرَته وتجنبته ...

... يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

فمن نقصـدهم بالصادقين الذين تنجذب إليهم فطرة الإنسـان حقيقة وتدفعه إلى الكـون معهـم هـم الذيـن كانـوا صادقـين في حاق نفوسـهم، ولن يكونوا كـذلك إلا أن يكـون الصـدق ممـا يتطلبـه أمرهم الذي هم هادفون إليه وقائمـون به ومتعهدون له ...

الإنسـان وإن لا يعلـم ـ علـى الأغلـب ـ سـرّ انجذابـه الفطـري إلـى الصادقيـن واندفاعـه للكـون معهـم، أو لا يكـون منتبهـا إلى ذلـك، ولكن بإمكانه أن يعلم شـيئا مـن ذلـك، ففـي موردنـا يعلـم الإنسـان إجمـالا بغريزتـه أن لكل إنسـان هدفا يسـعى إليـه وأن المـرء لا يكـون صادقـا حقـا إلا أن يكـون هادفـا إلـى تحقيق الحـق بتذكير الناس به وبيانه لهم ودعوتهم إليه وأمرهم به ليقوموا بالقسط، وعلى هـذا كان الأنبيـاء عليهم السـلام المصاديق الأكمل للصادقين، وهـذا الصدق هو ما أمر بـه اللّه تعالى نبيـه (ص) بقولـه (الإسراء: ٨٠- ٨١): (وَقُـل رَّبِّ أَدْخِلْنِـي مُدْخَـلَ صِـدْقٍ وَأَخْرِجْنِـي مُخْرَجَ صِـدْقٍ وَاجْعَـل لِّي مِن لَّـدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا . وَقُلْ جَاءَ الْـحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)، وهو ما رغب إبراهيم عليه السلام في تحققه في الآخرين فقال (الشعراء: ٨٤): (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ) وهو ما تقوم به الأمة التي قال عنهم الله عز وجل (الأعراف: ١٨١): (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)، أي إنهم (أمة) لا أشخاص منفردون، شأنهم (التواصي بالحق)، والعدل بالحق، وهذا هو الذي يجمعهم ويجعلهم أمة ...

(المراقب)- مقاطعا -: ورد في الكافي (٤١٤/١) عن أبي عبد الله عليه السلام أن المراد من الأمة المذكورة في الآية الكريمة هم الأئمة عليهم السلام . ولا بد أن يكونوا هم مصاديق الآية، فإنهم الوحيدون – بعد النبي (ص) – الذين يعلمون الحق ويتبعونه فيهدون به وبه يعدلون، كما قال السيد الطباطبائي – في تفسيره لقوله تعالى: (وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) – «... لو حملت على حقيقة معناها من الهداية بالحق والعدل بالحق لم يتيسر لغير النبي والإمام أن يتلبس به ... »

(الناصر)- : في كتاب البرهان (٦١٩/٢ – نقلا عن كتاب كشف الغمة) عن علي عليه السلام أنه قال – في الآية –: « وهم أنا وشيعتي »، وروى العياشي عن أمير المؤمنين أنه قال بشأنها: « يعني أمة محمد (ص) »، وحتى إذا كانت الآية نازلة فيهم (ع) فإن من تبعهم كان صادقا أيضا بكونه منهم (ع) وإن لم يكن مثلهم (ع) تماما، كما قال إبراهيم عليه السلام (سورة إبراهيم: ٣٦): (فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي)

ومهما يكن من أمر الآية الكريمة، فما أردت قوله، هو ما أشرتُ إليه قبل قليل، وهو أن ما يجذب الإنسان – في الحقيقة – ليس نفس (الصدق)، بل ما يلازمه ويدل عليه وهو الحق والعدل، وبما أن الإنسان لا يكاد يعرف كون امرئ على الحق وقائما بالعدل إلا من خلال مظاهر أبرزها الصدق، فإن لمحه في أحد أقبلت عليه نفسه تلمسا للحق والعدل وأملا في ذلك، وكلما وجده كذلك ازداد تعلقا به

وتوليا له، فالحقيقة ـ كما أشرنا إليه سابقا ـ إن ما يدفع المرء للكون مع الصادقين ليس مجرد كونهم صادقين، بل كونهم قائمين بأمر يتطلب الصدق ويستلزمه وهو الحق والعدل

ومما لا بد من الإشارة إليه هنا هو أن الإنسان، كما في نهج البلاغة (الخطبة١): « ... ثم نفخ فيها (التربة) من روحه فمثلت إنسانا ذا أذهان ... ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل ... »، فلولا علمه الإجمالي الغريزي بالحق لم يتمكن من معرفة من يهتمون به ويتحرونه، فلم يعرف الصادقين إلا أن يُفترض كونه عالما بجميع الأشياء، أو بجلها، فيجدهم صادقين فيها ...، ولا يخفى مثالية هذا الفرض

أجل، إن الصادقين الذين تحن إليهم الفطرة هم الذين أشرت إليهم، وأما الصادق في قوله فقد يُعتمد قوله إن عُلم ـ بطريق أو آخر ـ أنه صادق فيه، وأما اعتماد قوله الذي لم يُعلم صدقه بعدُ فإنما يكون بالاعتماد على نفس القائل، وذلك بأن يكون قد عُلم مِن صدق أقواله أن سيرته الصدق فيُصدّق إذَن في قوله الذي لم يُعلم صدقه، وقد يُعَد قوله صدقا وإن لم يُعرف بعدُ كونه صادقا، بأن يُسمع لأول مرة مثلا ...

(**المراقب**)ـ مقاطعا ـ : كيف، والمعروف أن الخبر يحتمل الصدق والكذب؟!

(**الناصر**)ـ : ذلك الوصف الذهني للخبر، وأما القلب فيميل إلى تصديق الخبر، بل مطلق القول[١٩]، إن كان مما يحتاجه، وإلا فلا يبالي به ...، وليس ميله إلى التصديق بسبب الحاجة فقط، بل وأيضا لاندفاعه الفطري إلى (الانتماء) المستلزم للتنسيق والاتباع ...، ولنسمع الأخ ـ وأشار إلى من سميته (الزين) ـ ليكمل قصته الافتراضية

لا أكون وحدي ...

(الزين) : أجل، كما قلت، أستحسن الصدق وأرغب فيه وأنجذب إلى الصادق فأكون معه[٢٠]، فيتحقق بذلك حاجتي إلى (الانتماء) الصالح فأجد (الأمن) الصادق. وإحساسي بالأمن يؤهلني للقيام بالقسط في التعامل مع نفسي فأستطيع تلبية رغبتي الغريزية في النظر إليها[٢١] بما فيها من دوافع فطرية[٢٢]، إذ لولا انتمائي إلى الصادق، ومن ثم الصادقين[٢٣]، لن أكون قادرا على (العدل) بين ميولي النفسية في النظر إليها ومعرفتها قبل (العدل) بينها في أداء حقوقها ...، إذ بذلك أجد ما لا بد لي منه في قيامي بالقسط من الاستناد النفسي و(الأمان)، وأيضا (العون) ...

ذلك لأني وإن أتكلم في هذه القصة الافتراضية كأني وحدي لكني لست كذلك، بل أكون منتميا إلى (جماعة) وإن كانت صغيرة ...

الأساس والمنطلق

لما أنظر إلى نفسي وأفعالي الباطنية والخارجية أجد في صميم نفسي أن اللّه ربي قد هيّأ ويهيئ لي كل ما أحتاجه، وأن ما بي من نعمة فمنه[٢٤]، وأني متكل عليه في أموري كلها، فحينما أقوم ـ مثلا ـ فإنما أفعل ذلك اعتمادا عليه وأنه هيأ لي ما يمكّنني من القيام، وشاء أن أشاء ذلك، فلو لم يشأ أن أشاء القيام لم أرده فلم أقم[٢٥]، ولو لم يمكّني من القيام لم أقدر عليه ...، وكذلك حينما أريد النوم مثلا أجدني إنما أفعله بمشيئة اللّه ربي، وأبني على حقيقة كامنة راسخة في نفسي وهي أنه سيوقظني[٢٦]، ولولا توقعي ذلك لم أطق النوم، فأجد في منامي آية أن اللّه ربي[٢٧]

وأرى كل الناس في هذا مثلي: متكلين على ربوبية اللّه المغروزة في نفوسهم ويتصرفون اعتمادا عليها، وإن كان أكثرهم لا يعلمونها ولا يذكرونها حتى فيما هو

بيّن[٢٨]، ولا ينتبهون إليها إلا إذا واجهتهم مشكلة مستعصية[٢٩]، وأما العاقلون الشاكرون فإنهم يعلمون أن ربهم هو الذي خلقهم ويهديهم بخلقه فيهم حب الهدى وفطرهم على معرفته، وتهيئته ما يهتدون به، كما جعلهم **يحتاجون** الطعام والشراب والدواء **وهيأ** لهم ما يحتاجونه وخلق فيهم الدافع إلى طلبه ومكّنهم من استعماله[٣٠]

وعلى أي حال فما أشرت إليه كاف لينبهني إلى أن لي ربا هو اللّه، وأنه عالم قادر حكيم رحيم قريب مني ...، فيطمئن بذلك قلبي[٣١]، وأجد فيه الشكر والحمد له وحبه والرغبة في الخضوع له والتوكل عليه

أجل، أجد واقع ربوبيته تعالى[٣٢] في نفسي وأشهَدُه فيها قويا راسخا لا يتأثر بالناس والبيئة والتربية ...[٣٣]، ولأنه ربي أجد له في نفسي الأسماء الحسنى[٣٤]، فأحبه وأندفع إلى التحبب إليه والتقرب منه وأحب أن يحبني ويرضى عني، وأخشاه، وأخاف ما يبعده عني فأتجنب ما يسخطه ...

لذلك أجدني أنزع إلى (النبي) فأطلبه، وإذا لقيته عرفته[٣٥]، وأرغب في اتباعه. ولو لم أكن عارفا بما في نفسي من ربوبية اللّه تعالى ولوازمها ـ التي منها رجاء رحمته والخوف من عذابه في الآخرة[٣٦] التي لا ريب فيها[٣٧] ـ، فلو صادفت نبيا فقد أهتم به وأقبل عليه لأمر أو آخر كالاستقواء به[٣٨] أو الانتماء إليه، خاصة بعدما يعلو شأنه ويعظم أمره، بل وقد أتبعه لما أجد في أقواله وأفعاله تلبية لبعض رغباتي الفطرية ...، لا بأن أؤمن به حبا للّه سبحانه ورغبة في حبه لي وسعيا إليه، وإن تحققت باتباعي له حاجتي إلى الانتماء والاستقواء وغيرها من مطالبي الطبيعية أيضا

الإيمان بالنبي صلى اللّه عليه وآله

كما أجد أنه ليس بإمكاني أن أزيل واقع ربوبية اللّه الموجود في حاق نفسي حتى لو كنت ـ فرضا ـ ممن يريدون ذلك فيكفرون بها ويسترونها عن وعيهم ولا يؤمنون بها، كذلك أجد أن نفسي تتوقع واقع ما يسمى (النبوة)، فإني أجدني أتوقع أن هناك (غيبا)، وأن له تأثيرا فيّ وفي الكون[٣٩]، وأتوقع أن هناك من يعلم الغيب ...، لذلك إن أخبرني أحد بأني سأواجه في يوم معين حادثة مهمة ـ شرا كانت أم خيرا ـ فلا يمكن أن أعامله بإهمال تام كأن لم يكن[٤٠]، فلو سمعت أحدا يقول: إنه نبي: يخبره اللّه بما يحبه ويبغضه، وأنه أمره بأن يبلغ الناس ذلك فإنه سوف يلفت نظري ويستقطب اهتمامي، وتستيقنه نفسي، أي تندفع إلى تأكيده والتأكد منه[٤١]، وإن (تكلفت) ـ لسبب أو آخر ـ عدم الاكتراث به، بل ورفْضَه[٤٢] وجحْدَه بلساني ...

(أنا)ـ مقاطعا ـ : يخبر النبي (ص) عما يقع في الآخرة، فقياس ذلك بالإخبار عن حوادث دنيوية قياس مع الفارق، فإنه ليس يقين الناس بالآخرة واهتمامهم بها كيقينهم واهتمامهم بالدنيا

لا ريب في الآخرة

(الناصر)ـ : صحيح أن أكثر الناس لا يهتمون بالآخرة، وسبب ذلك هو أن اهتمام هؤلاء بالعاجل يكون عادة أشد منه بالآجل[٤٣] حتى لو كان في الدنيا ولم يكن بعيدا جدا[٤٤]، وإلا فإن الآخرة لا ريب فيها لكونها موجودة في القلب ...

(أنا)ـ : هل الآخرة يقينية؟ ...

(المراقب)ـ : يكفي الظن بها[٤٥]، بل واحتمالها[٤٦]

(الراصد)ـ : كيف وقد قال اللّه تعالى: (وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)؟[٤٧]

اليقين والظن

(الناصر) : بغض النظر عما ذكره الأخ - وأشار إلى (المراقب) - اعتمادا على ما قيل، وعلى فرض أن يكون (الظن) في الآية الكريمة بمعنى الاحتمال الراجح ... أقول: إن الظن ليس مما يثبت به الشيء فيُحكَم عليه أنه (حق) لمجرد كونه مظنونا، وإنما يثبت بـ(اليقين) به بمعنى (وجدان) النفس له، ذلك لأن واقع اليقين إنما يوجد فيها، فإن الذهن لا يعرف اليقين، وإنما يسمي (يقينا) ما يدرِك حضوره في النفس(٤٨)

ثم إن واقع اليقين في النفس ليس محددا ثابتا لا يزيد ولا ينقص(٤٩)، ولا يقبل الزوال والوهن كما يفترضه الذهن(٥٠) وذلك لأن حضور الأشياء في النفس متفاوت شدة وضعفا، كما وأن حضور شيء واحد في النفس يختلف من حال إلى حال(٥١)

يتحقق اليقين بأمرين: الأول وجود المتيقَّن في النفس واستيقانها له، وهذا فطري ليس اختياريا للإنسان، والثاني: تذكره والإحساس به، وهذا وإن لم يكن - بنفسه - اختياريا كذلك ولكنه اختياري باختيارية السعي إليه وترسيخه في النفس ...

فالآخرة التي نحن بصددها موجودة في النفوس وإلا لما تمكن الإنسان من تذكرها وإن حصّل العلم بها(٥٢) لكن الناس يتفاوتون في الإحساس بها وتذكرها فمنهم من يكفر بما أودعه اللّه في قلبه من الاهتمام بالآخرة واستيقانها وعدم إبطالها، ويهملها إلى أن ينساها(٥٣) ...، فإما رغب في إبطالها فكذّب بها(٥٤)، أو نظر إليها بذهنه (بحياد) فإما ظن بعدمها(٥٥) وظل ظانا، أو شك فيها، وظل شاكا فيها(٥٦)، فإن حب الإنسان لشيء واهتمامه به هو الذي يجعله يعبُر الشك فيه أو الظن به، والذهن يفتقد الحب والاهتمام ...، فلا يستيقن الآخرة، أي لا يطلب اليقين بها ...

ومنهم من كان واعيا لما في قلبه من الإحساس بالآخرة وبالخوف منها، وانتمى إلى من يذكره بها فآمن بها وأيقن بها

وهذا هو الموقن بالآخرة وحاصلا على يقين لو حلل ذهنيا وحُدد لم يكن ذلك اليقين الذي ليس وراءه يقين والذي يفترضه (الذهنيون) ويرونه قسيما للظن الذي يعرّفونه بالاحتمال الراجح وإن كان قويا جدا ما لم يكن بالغا مبلغ البت والجزم ...

فاليقين بالآخرة لا ينافيه ما يسمى ظنا، بل ولا يكون غير الظن ما دام قابلا للزيادة ....، لكنه ظن معه (استيقان)، و(إيقان) موجب لآثار اليقين[٥٧]، فهو مختلف عن الظن العقلي الواقف[٥٨]، وكذلك ما نقله القرآن عن المجرمين بقوله (الجاثية: ٣٢): ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾، فإن هؤلاء إذ كفروا بالحاجة إلى الآخرة التي كان اللّه قد فطر نفوسهم عليها والاندفاع إلى الإيمان بها[٥٩]، وجمدوا ما في فطرة نفوسهم من (الاستيقان) بالآخرة، فبدلا من أن يوقنوا بها فيكون لهم درجة من يقين متزايد، كان حالة جامدة باطلة[٦٠] ...

بذلك اختلف ظن هؤلاء عن ظن المؤمن بلقاء ربه[٦١]، فإن ظنه ليس ميتا بلا حراك ....، بل ظن محفوف بالحب والرجاء[٦٢] فكان يقينا

ثم إن المؤمن كما لا يعتمد الظن في الحكم على شيء بأنه حق أو ليس بحق، لا فقط لأن الظن لا يغني من الحق شيئا، بل وأيضا لأنه ليس بصدد إثبات شيء أو نفيه..، كذلك لا يتبع الظن، وإنما يتبع الحق الذي يجده في نفسه وتدفعه إليه فطرته[٦٣] خلافا للكافر فإنه حيث لا يعترف بهذا الحق فلا يجد إلا الظن لمعرفة الحق واتباعه[٦٤]، ولأن الظن لا يحقق الحق فما يتبعه الكافر هو الظن الذي لا يغني شيئا، بل ولأن الظن ليس مما يُتبع بنفسه فلا بد إذَن من أن يكون مما تهواه الأنفس[٦٥]

عود وتأكيـد

أعود إلى ما كنت قد أشرتُ إليه من أن النفس مفطورة على الاستيقان بالآخرة فأقول: لقد أخبر اللّه تعالى في القرآن الكريم بأن يوم القيامة (لا ريب فيه) وأكد ذلك وكرره[٦٦]، ولتسهيل الأمر نفترض صحة ما تسالم عليه المفسرون من اعتبار (الريب) بمعنى الشك[٦٧]، أو قريب منه[٦٨]، فأقول: كيف نفى القرآن مطلق الشك في القيامة وهي معرضة للشك كما لا يخفى، بل وقد قال اللّه تعالى (سبأ: ٢٠-٢١): (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)؟! ...

(**المراقب**)ـ مقاطعا ـ : لا معنى للشك في المعاد وقد ثبت بأدلة قاطعة[٦٩]، فحتى لو كان هنالك شك فسيزول بالدليل[٧٠]

(**الناصر**)ـ : على فرض أن يكون الدليل قادرا على إثبات المعاد وإزالة الشك فيه[٧١]، فإن الحاجة إلى إثباته بالدليل ينافي كونه (لا ريب فيه) ...

(**الراصد**)ـ مقاطعا ـ : تتضمن آيات كثيرة الاستدلال على المعاد[٧٢]، فماذا عن ذلك؟

(**الناصر**)ـ : الظاهر أن ما اعتمده القرآن الكريم بشأن الآخرة ليس (الاستدلال)، وإلا لما كرر وصفها بأنها (لا ريب فيها)، وما يبدو استدلالا فهو احتجاج على المجادلين فيها وإفحام لهم ودفعهم عن طريق المؤمنين، لا إثبات لها فإن الواجدين لها في قلوبهم يكفيهم ما يذكرهم بها[٧٣]، فلا يحتاجون إلى الاستدلال عليها، ومن كان قد خسر نفسه فلم يجدها في قلبه لم يطلب اليقين بها ولم يؤمن فلم ينفعه شيء[٧٤] كما قال تعالى (الأنعام: ١٢): (... لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)[٧٥]

خلاصة المراد

خلاصة هذا الكلام الذي طال أزيد مما ينبغي هي أن النفس تعلم المعاد بفطرتها، فلا تجد فيه ما يريبها ويشككها، ولا تحتاج إلى أن يثبت لها ذلك، وهو راسخ فيها بحيث لا يمكن أن يزيله شيء منها تماما فيجعلها تطمئن بعدمه

ومن الشواهد على هذا ما هو شائع جدا من معاملة الناس للميت كحي: يخاطبونه وينادونه(٧٦) ويزورون قبره ...، ولا يكاد يقتنع أحد ويطمئن بأنه ـ أي الميت ـ قد تحول بالموت إلى جماد(٧٧)، فالخوف من الموتى الذي كاد أن لا يخلو عنه أحد ليس إلا لكون الإنسان مفطورا على عدم اعتبار الموت فناءا وانعداما للميت، بل انتقالا له إلى وضع مختلف غير معروف، فلا يمكن التنبؤ بما قد يصدر منه ...، فيُتوجس منه خيفة

وهذا الوجدان الفطري راسخ بحيث لن يزول من قلب الإنسان حتى لو لم يكن قد رأى أو سمع من أحد ما يدل عليه ويؤيده ...

أجل، إن القلب يعرف الآخرة ولا يجد فيها ما يريبه ويشككه، وإذا ارتاب منها فإنما هو لحصول زيغ فيه، فيصبح في شك منها، كما قال اللّه تعالى (التوبة: ٤٥): (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ)

وقال تعالى (النمل: ٦٦): (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ)(٧٨) ...

لقد طال إيقافنا لحديث الأخ ـ وأشار إلى من سميته (الزين) ـ ، فهلا يعود إليه

بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (القيامة: ١٤)

(الزين)ـ: ذكرت سابقا أني أتأثر بالناس، وخاصة بالطائفة التي أنتمي إليها، وأقلدهم وأنسق معهم حتى في معتقداتي ولكني مع ذلك أجد في قرارة نفسي

حقيقة قول اللّه عز وجل (الأنعام: ١٦٤): (وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)، فرغم ما يظهر لي من وضع الذين أنتمي إليهم أنهم لا يشعرون بالحاجة إلى بحث المسائل العقائدية، وفيهم متدينون مخلصون ومثقفون، تراودني أسئلة في العقيدة، بما منها (النبوة)، فتقلقني، وحتى لو أردت إهمالها فإنها لن تتركني، فلأن (أؤمن) نفسي وأزيل عنها القلق أجدني محتاجا إلى الاهتمام بتلك الأسئلة والبحث عما يرضيني في جوابها

هذا الذي أشرت إليه كافٍ ليدفعني إلى البحث عن (النبوة)، ولا أحتاج لذلك إلى ما أقرأ وأسمع أن من المتسالم عليه ضرورة كون الاعتقاد عن استدلال[٧٩]

(أنا)ـ : ألا تخاف البحث عما حير كثيرين[٨٠]؟

(الزين)ـ : كلا، فإني أجد في قرارة نفسي حقيقة قول اللّه تعالى (العنكبوت: ٦٩): (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

الإعجاز ...

أقرأ وأسمع أن الدليل الوحيد على النبوة هو المعجزة ...، ولكني أجدني عاجزا عن إدراك المعجز، ولا أستطيع العلم به بمراجعة خبير[٨١] ...، وبما أني افترضتُني قد اعتمدت قلبي منطلقا، ووثقت به مرجعا، فلم يؤيسني عجزي عن إدراك المعجز من وجود سبيل آخر يناسبني[٨٢] ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : (التقليد) هو السبيل المناسب للعاجز، فما حاجتك إلى البحث؟!

(المراقب)ـ : لا يجوز التقليد في العقيدة، وهذا أمر مسلم معروف

(الراصد)ـ : من الفقهاء من جوز التقليد للعاجز[٨٣]، بعد الاعتراف بوجود العاجز[٨٤]، بل ومنهم من أوجبه على بعض الناس[٨٥]، ومنهم من جوزه مطلقا[٨٦]،

وكـذلك قـال بعـض الصوفيـة[٨٧]، بل ومن الفلاسـفة مـن رأى ضرورته لغير فئة خاصـة مـن الحكماء[٨٨]

(**الناصر**)ـ متدخلا ـ : ذكر الأخ ـ وأشار إلى من سميته (الزين) ـ قبل قليل أنه يشعر في نفسـه بـ(تسـاؤل) طبيعي بشـأن العقائد لا يسـتطيع إهماله، ولا يرغـب في ذلك، فهـو لـن يقـدر على التقليد، ولا يحـب ذلك ...، ولندعـه يكمل حديثه

(**الزين**)ـ : لا يكون عجزي عن إدراك المعجزة هو العامل الوحيـد الذي يجعلني لا أركز عليهـا في بحثي عن النبوة، بل وأيضا لأني لا أشعر بالحاجة إلى معجزة[٨٩]، فلا أطلبها[٩٠] ...

(**الناصر**)ـ موضحا ـ : لا يخـفى أن الأخ ـ وأشار إلى (الزين) ـ ليـس بصـدد نفـي (المعجـز)، بـل ولا إنـكار أن يكـون للنبي (ص) معجـز غيـر القـرآن، كمـا زعـم ذلك بعض الناس[٩١]، وما يقوله بصدد المعجزة ليس إلا وصفا لحركته الإيمانية الشخصية، ولا ينكـر أن يعتمـد آخرون الإعجـاز للإيمـان بالنبي، ولا يعترض عليهـم، تلـك هي طريقتـه كمـا لا يخفى

واقع الإعجاز وحقيقته

بـل الحقيقـة أنـه ـ أي الأخ (الزين) ـ إنمـا يؤمـن بالنبي صلى الله عليه وآله بوجدانه القـرآن مـا يمكـن تسـميته واقـع الإعجـاز وحقيقتـه، إلا أن وجدانـه لـذلك إنمـا يكون متزامنـا لإيمانـه بـه، لا قبـل ذلـك، فـإن مـا يدفعـه إلى الإيـمان بالنبي (ص) ليسـت معجزتـه، بـل دافعـه الفطـري، فلمـا يُقبـل عليـه (ص) بقلبـه ويهتم بقرآنه طلبـا للإيمان بـه يجـد أثـره خارقـا ...، لكنـه لـن يقـدر على إثبـات كـون ذلـك معجزا، ولـن يكون بصـدد ذلك ...

وليس خافيا أن هذا ليس هو الإعجاز المصطلح الذي (يفترض) أنه لابد من ثبوته لمدعي النبوة قبل الاهتمام به، والذي (يفترض) أن يكون قابلا للتداول والإثبات ...

(**المراقب**)ـ مخاطبا (الزين) ـ : تـطرُق باب نبوة النبي (ص) بالطريقـة التي كان قـد أشـار إليها السـيد محمـد باقر الصدر[٩٢] مثـلا، أليس كذلك؟

(**الناصر**)ـ : مـا أفـاده السيد الصدر هو الآخر استـدلال بأمر خـارق (معجز)، ومعتمـدو الإعجاز لا يقصرونـه على شيء معين[٩٣]، بل يرون أن كل مـا كان خارقا شـاهدا على نبـوة النبي فهـو معجز[٩٤] وإن لـم يعـد معـجزة اصطلاحـا لـخلوه عـن التحـدي[٩٥]، ومـا ذكره قـد أشـار إليه غيره أيضـا كالسـيد الطباطبائـي[٩٦] مثلا وإن لم يركـز عليـه مثله

(**الزين**)ـ : أنـا لا أجدنـي بحاجـة إلـى مـا (يثبـت) لـي النبـوة ...، فقـد كررنـا القـول[٩٧] بأنـي لا أريـد إثبـات مـا أؤمـن بـه، بـل وأتجنـب ذلـك ...، وإنمـا أطلـب مـا تدفعنـي إليـه حاجتـي الفطريـة..، وأجـد فـي نفسـي أنـه علـى فـرض تمكنـي مـن الاسـتدلال علـى نبـوة النبـي (ص) وإثباتهـا، فإن ذلك لن يجعلني أؤمـن بهـا[٩٨]، فإني لا أحتـاج (الإثبـات)، ومـا لا أحتـاجه لا أفتقـده فـلا أشـعر بالقلـق مـن دونـه لأطلبـه فأؤمـن بوجدانـه[٩٩]

أجـل، إنـي فـي بحثـي الفطـري عـن نبـوة النبـي صلـى اللّه عليـه وآله قـد أمر علـى شـيء ممـا ذكـره السـيد (ره) أو غيـره[١٠٠]، ولكـن لا بـأن أركـز عليـه حسـبما يتطلبـه (الإثبـات)، بـل بطريقـة عفويـة كمـا فـي أي سـعي فطـري آخـر

وقد أحتاج إلى الاسـتدلال بذلك، ولكن لا لنفسـي، بل لدفع إشـكال، أو للفت نظر مَـن كان اندفاعـه خامـلا كمـا تقـدم فـي قول اللّـه عز وجل: (قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ)[١٠١]

لـقـاء النبي ...

وعـودا إلـى مـا كنـت بصدده أقول: إن نفسـي، بدفعهـا لي إلـى البحث عن نبي، تجعلنـي أقبـل علـى مدعـي النبـوة وأهتـم بدعوته إلى أن يتبـين لي بطـلان دعواه، فإني

لـن أستـطيع إلا أن أكـون كـذلك، فلـو لـم أندفـع إليه لاندفعت إلى غيـره، ولو لم أنتَمِ إليـه لانتميت إلـى سـواه . هـذا إذا كنت لـم أجد بعدُ نبيـا لأؤمن به[١٠٢]

وبتعبير آخـر أدق إنـي لا أُقبِـل علـى مـن يسـمى نبيا بخصوصـه، وإنـما ألتقي به في طريقـي الـذي أنـا سـائر فيـه، ولـو لـم ألتـق بـه فأتبعـه لالتقيـت بغيـره فكنـت معـه واتبعتُه[١٠٣]

(الناصر)ـ مقاطعا ومخاطبا (الزين) ـ : هـذا ممـا يفـرق بيـن مسـلكك وبيـن الطريقـة المتبنـاة نظريـا، حيـث أنهـا تسـتـلزم الدعـوة إلـى عـدم الاهتمـام بدعـوى مدعـي النبوة حتـى يثبـت صدقـه بالمعجـزة أو غيرهـا[١٠٤] ...، أليـس كذلـك؟

استبشار، وتحسر ...

(الزين)ـ : أنا لا أتحدث إلا عما أفعله فأقول: بما أن في قرارة نفسي ما يدفعني إلـى مـن يتمثـل فيـه واقـع مـا يُعبر عنـه بـ(النبوة)، و(أحـب) أن أعثر عليـه ...، فكلما وجدت ما يشير إلى كونه كذلك فعـلا استبشـرت وأحسسـت بأمن بدرجة أو أخرى، وبالمقابـل تأسـفت وتحسـرت لـو لـم أجـد مؤشـرا إلـى ذلـك أو واجهنـي مـا يبطل ما تهفو إليه نفسي

(أنا)ـ : هل أنت كذلك تجاه كل من يدعي نبوة؟

(الزين)ـ : لا، فإنـي إن وجـدت نبيـا وآمنـت بـه قـلّ جـدا اهتمامـي بدعـوى نبـوة أخرى فلا أطلبها من تلقاء نفسي ...، بل أود أن لا تكون ـ أي دعوى النبوة الأخرى ـ صحيحة، ذلك لعلم كامن في نفسي بأن كثرة النبوات في وقت واحد تربك النفوس، وتثير الفرقة ...، فلا أرجوها ولا أتوقع حدوثها إلا في مناطق متفرقة متباعدة مفصولة عـن بعضهـا تـماما كمـا كان العـالم سـابقا، أو تكـون متعاضـدة خاضعـة لولايـة فعلية واحـدة كنبـوة موسـى وهارون، وإبراهيم ولوط (عليهم السـلام) ...

(الراصد)ـ مخاطبا (الزين) ـ: قلت: إنك تجد في قرارة نفسك ما يدفعك إلى من يتمثل فيه واقع ما يعبر عنه (بالنبوة)، و(تحب) أن تعثر عليه، فما دمتَ مندفعا وتحب أن يكون من تسعى إليه نبيا وأن لا يبطل سعيك فإنه سوف يكون نبيا (لك)، وبالأحرى: إن حبك هو الذي يجعله نبيا وإن لم يكن كذلك في الواقع ...، أليس كذلك؟

حب معه حذر وتعقل

(الزين)ـ : ليس كذلك، فأولا لأن لحبي أساسا ضابطا وهو ذكر اللّه عز وجل وما يستلزمه من خشيته وخوف الآخرة ورجائها، فهو لذلك لا ينفلت ولا يطغى[١٠٥]، وثانيا لأن ما في نفسي من رغبة شديدة في العلم والبصيرة يجعلني منتبها واعيا، وهو الذي يدفعني للإيقان به[١٠٦]، ويمنعني عن أن أكون (إمعة) ...

(الراصد)ـ : التعقل يتطلب التفكير، وقد أشرت قبل قليل إلى أنك تبحث عن النبي لتتبعه، فكيف تستطيع أن تتبع النبي وأنت تفكر؟

(الزين)ـ : إني لما أفكر لا أركز على ما أقوم به من التفكير، بل ولا أنتبه إليه، وإلا لكان تفكيري متكلفا فلا أعلم به شيئا على حقيقته، وكنت قد أشرت في وقت سابق إلى أني أفكر ولكن لا بـ(استخدام الفكر)[١٠٧] ...، فلأن يكون تفكيري صالحا يجب أن لا أركز على نفس التفكير لأراقبه وأخضعه لمقياس خاص، فإني لو فعلت ذلك لانقلب (تفكيري) من كونه وسيلة وآلة إلى غاية في نفسه ...

وأجد أن تفكيري لن يكون منتجا إلا أن يكون (طبيعيا)، ولن يكون كذلك إلا أن أحس بمقدار كاف من طمأنينة صادقة، ولن أكون كذلك إلا بـ(ذكر اللّه)، ولن أقدر على ذكر اللّه إلا بأن أنتمي إلى من يذكرون اللّه وأكون معهم[١٠٨]، هذا مضافا إلى أني ـ قبل كل شيء ـ بحاجة إلى ولاية وسند ...، وهذا ما أرجو أن يوفره لي النبي الذي أطلبه، مضافا إلى أمور أخرى بها أعرفه وأؤمن به فإني لا

أجدني أعرف إلا ما تعرفه نفسي إجمالا[١٠٩] ولا أؤمن إلا بما يزيل الخوف والقلق عن نفسي[١١٠]، وإلا فكما قلت سابقا: حتى لو افتُرِض إمكان أن يثبت لي (ذهنيا) نبوة نبي لم يكفني ذلك لأؤمن به ...

وعليّ أن أؤكد هنا أن هذا الذي أشرت إليه إنما هو صورة ذهنية لما هو موجود في نفسي لا حقيقته وواقعه ...

(المراقب)ـ مقاطعا وموضحا ـ: والصورة الذهنية حتى لو كانت دقيقة فإنها لن تكون إلا تناوشا من بعيد للحق الذي مقره النفس، فهي لا تغني منه شيئا كما لا تغني صورة الماء عن واقعه، فلا تروي عطشانا، ولا تبل شيئا، ولا تسقي زرعا[١١١] ...

معرفة النبي ...

(الزين)ـ مكملا ـ: فكما أن ما هو متمكن في نفسي من حب اللّه وخشيته[١١٢] وخوف الآخرة[١١٣] ... يدفعني إلى ما تتحقق به النبوة فكذلك أعرفها بما هو موجود في نفسي، فإذا ذكرني به من يفترض كونه نبيا، وأنا أريد ذلك، تذكرتُه[١١٤] ووجدته حقا ...، فنفسي التي تكون منطلقي ودافعي إلى من يسمى نبيا هي المعيار لمعرفته[١١٥] فإني أرجو أن تجد نفسي في (رسالة) من تطلبه ما تنجذب إليه وتطمئن به[١١٦]، فإذا وجدت فيها ـ أي في رسالته ـ قدرا كافيا لما أحبه آمنت به[١١٧]، ولم يمنعني عن ذلك ما لا أفهمه منها أو ما لا تتجاوب معه نفسي، بل وما قد تنكره بدوا ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ: كيف تؤمن بمن تنكر بعض ما في رسالته، وما الفرق إذَنْ بينها وبين المقالات الأخرى والتي لا أظنها ـ كذلك ـ تخلو عن شيء ما تنجذب إليه النفوس بفطرتها[١١٨]، ثم وماذا تقصد بـ(المقدار الكافي)، وكيف تعرف أنه كاف؟

المقـال نوعـان:

(الناصر)ـ : أنـا أجيبـك عـن هـذا فأقـول: المقالات نوعان رئيسـيان: نوع يتكفل بيان المسائل وإثباتها موضوعيا[١١٩]، ومن لوازم هـذه الطريقة اعتبار كل مسـألة ذات قيمـة مسـتقلة لا تتأثـر بغيرهـا، فلـو كان المقـال متضمنا لثـلاث مسـائل مثلا، وكانت إحداهـا مفهومة وصحيحـة، والثـانية غير مفهومة، والثالثة باطلة فيفترض أن حالة كل من المسـألتين الثـانية والثـالثة لن تقـلل من قيمـة المسـألة الأولى، كما ويفترض أن لا تؤثـر صحتهـا فـي وضـع الأخريـن وفي موقـف القارئ ـ أو المسـتمع ـ منهما ...

مـن خصـائص هـذا النوع مـن المقـال أن بعضـه لا يُغني عن بعضـه الآخر، ولا يشـفع له ...

وأرى أنـه لـو أمكـن العمـل[١٢٠] بمـا نسـب إلى أميـر المؤمنيـن عليـه السـلام من أنـه قـال: « انظـر إلـى مـا قـال، ولا تنظـر إلـى مـن قـال » فهو إنمـا يختص بهـذا النوع

والنـوع الثاني مـا يسـتهدف هداية الإنسـان إلـى أمـر، وبما أن الهدى مشـي في طريـق فمـا يقصـد بالـمقال هـو بيـان معالـم الطريـق لمـن يقصـد هـداه، ودفعـه فيـه، وإعانته على سـلوكه، فخـلافا للنوع الأول، حيث يتعاطى مع مسـائله بتجزئتها وفصل بعضهـا عـن بعـض والتركيـز علـى كل منهـا وفهمـه بانفـراد أوّلا، ثـم ربطهـا بغيرهـا مـن المسـائل إن أريـد ذلـك، يُسـعى فـي النـوع الثاني إلى أن يتلقى شـيئا واحـدا ذا أبعاض مترابطـة متعـاونة فـي تحقيـق مـا قيـل لأجـله، فلـو حللهـا المتلقي بجعلهـا (مسـائل) كمسـائل النـوع الأول[١٢١] فإنـه بـدلا مـن أن يمشـي بهـا توقـف عنـد كل مسـألة ...

ونـرى أنـه بالرغـم مـن تعـاون جميـع أجزاء هـذا النـوع مـن المقـال فـي هداية المهتـدي لا يتوقـف هـداه علـى جميـع أجزائـه، فـلا يضر أن لا يفهـم بعضها، بل وأن ينكر ما يبدو له من بعضـه مـا لم يجزم ببطـلانه[١٢٢]، إلا أن يكون من معـالم الهـدى المنشـود التـي لا بديـل لها

وبعبارة أخرى إن المتلقي وإن مشى واندفع بما جاء في المقال فكما لن يكون تفاعل نفسه مع جميع أبعاضه على مستوى واحد، فقد لا تنجذب إلى بعضه، بل وقد تنكره بدرجة أو أخرى، دون أن يؤثر ذلك على تحركه بالمقال ...

(الواصد)- مقاطعا - : كيف ينكر شيئا من المقال من دون أن يؤثر ذلك في حركته بالمقال؟!

(الناصر)- : لأن المستهدي بمقال مكتوب أو ملفوظ إنما يتلقاه بقلبه فهو - كما قلتُ آنفا - لا يحلل ما يحصل له، فلو أنه ركز عليه بذهنه وحلله لأوقفه عن الحركة إنكاره لشيء منه، بل وإنه لا يحلله إلا بعد أن كان قد توقف عن الحركة ...

فمن خصائص هذا النوع من المقال أن المستهدي قد يجد في بعضه ما يكفيه دليلا على الهدى ومؤشرا إليه، فلا يضره إن لم يهتدِ ببعضه الآخر وإن لم يتقبله إلا أن يكون مؤشرا محكما إلى جهة مختلفة[١٢٣]

هذا بالنظر إلى هذا النوع من المقال بشكل عام، وأما القرآن الكريم فحتى لو أنكر المؤمن شيئا منه فإنه لن يكون إلا إنكارا بدويا أو إحساسا بذلك يزول سريعا، لا فقط لعلمه الإجمالي بقصوره عن إدراك معاني جميع ما جاء فيه بالضبط[١٢٤]، بل وأيضا لعلمه إجمالا بأن القرآن الكريم قد يتعمد قول ما لا يستوعبه الفهم كما مرت الإشارة إليه في إحدى الجلسات[١٢٥]

(المراقب)- متدخلا - : من الشواهد على هذا أن النسخ الذي لم يكن يؤثر في تفاعل المؤمنين مع القرآن ومشيهم به ...، أصبح مشكلة بعد أن أخذ المفسرون يتعاطونه بالتحليل ...

تحـلـيــلان ...

(أنا)- مخاطبا (الناصر) -: ذكرتَ أن المستهدي بمقال لا يحلل ما يحصل له ...، ولكن ما تفعلونه أنتم تحليل أيضا، أليس كذلك؟ ...

(الناصر)- : أجل، ولكننا لا نستهدف بالتحليل العلم والهدى، بل نتوسل به إلى التحرر والتحرير من طغيان التحليل[١٢٦]، فلذلك يختلف نمط تحليلنا ومقداره عن نمط ومقدار تحليل من يعتمدون (التفكير الفني)، وأما ما نسعى إليه من العلم الحقيقي والهدى فإنما نطلبه بالتعقل الطبيعي الذي إنما نقدر عليه بـ**(الولايــة)**

(الراصد)- مخاطبا (الزين) -: هب أنك وجدت في القرآن ما التقته فطرتك، بل ووجدته حقا وهدى، فكيف دلّك ذلك على أن من جاء به نبي مبعوث من اللّه؟

الإيمان المتدرج

(الزين)- : خلافا للاعتقاد المبني على المعجزة، حيث يفترض حصوله بغتة فور ظهورها على يد مدعي النبوة، إن اعتقادي به إنما يحصل بالتدريج: يبدأ بانجذابي واندفاعي[١٢٧] إلى من ألحظ فيه واقع[١٢٨] ما يشير إلى كونه مهتديا، فكما قال اللّه عز وجل (فصلت: ٣٣): (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) تطلب فطرتي (الهدى) المتمثل في قول من دعا إلى اللّه، وعمل صالحا، وقال: إنني من المسلمين، فإن صادفتُه انجذبت إليه واتبعته ...

(الناصر)- موضحا -: ذلك لأن النفس تجد ـ بفطرتها ـ قول من يدعو إلى اللّه ويعمل صالحا ويقول: إنني من المسلمين أحسن الأقوال فتطلبه، وأما الذين لا يدعون إلى اللّه فإن الإنسان وإن وجد في أقوالهم[١٢٩] ودعواتهم بعض ما يستحسنه بفطرته لكنه لن يجد مقالهم أحسن مقال إلا إذا كان ممن كفر بربه وأشرك به غيرَه وخسر نفسه وفطرته[١٣٠] ...، وكذلك إذا كان الداعي يدعو إلى اللّه ولكن لا بـ(قول) متماسك قابل للتعقل ومن ثم الاتباع ...، أو كان يدعو إلى اللّه، وكان

يبدو قوله متماسكا ولكنه لا يعمل صالحا، أو لا يقول: إنه من المسلمين، فإن كل ذلك وإن وجدت فيه ما تستحسنه النفوس ـ بفطرتها ـ لكنها لا تجده أحسن ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : لماذا قيّدتَ (الأحسن) بأن يكون في النفوس؟ فقد يكون المقصود به ما كان كذلك عند اللّه تعالى

(الناصر)ـ : ليس خافيا أن الأحسن لا وجود له إلا عند من يجده كذلك(١٣١)، وعلى فرض أن يكون متعقلا استحسان اللّه ـ تعالى ـ حقيقة، لا تجوزا، فإن الاستفهام الإنكاري في الآية الكريمة يدل على أن المقصود هو استحسان الإنسان، والمفروض أن ما يستحسن أمرا ليس ذهن(١٣٢) المرء بل قلبه

(أنا)ـ : ماذا يعني قوله في الآية الكريمة: (وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)؟

(الناصر)ـ : يبدو أنه يدل على أن من شروط الأحسن قولا أن يكون منتميا إلى المسلمين صابرا نفسه معهم، وأن يصرح بذلك ويعلنه(١٣٣) ...، لا أن يتميز عنهم كما هو ديدن أصحاب الفكر(١٣٤) مثلا ...، فإن قول هذا النمط من الناس لن يكون الأحسن في النفوس وإن بدا أعظم في الأذهان أو في بعضها ...

وعلى أي حال فإن هذا أنسب مما قيل بهذا الصدد(١٣٥)، ولنستمع إلى الأخ ـ وأشار إلى من سميته (الزين) ـ ليكمل ما كان بصدد قوله

(الزين)ـ : كنت أريد أن أقول: إني حيث أجد من ذكرته الآية الكريمة أحسن قولا فإني أنجذب إليه ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : لماذا تنجذب إليه لا إلى قوله، هل ذلك لأن الآية الكريمة ركزت على صاحب (القول)؟

(الزين)ـ : أجد في الآية الكريمة تأييدا لما أمارسه بطبيعتي من النظر إلى القول من خلال قائله، فمن لم أطمئن إليه لا أهتم بقوله ولا أقبله إلا أن أكون محتاجا إلى

معرفة القائل فقد أستمع قوله إذَنْ للتعرف عليه . هذا حتى في المسائل الذهنية، فكيف بما يستدعي الاتباع كالنبوة ...

البحث عن نبي، أم اكتشافه؟

ومهما يكن من أمر فإني لا أجدني أبحث عن شخص ذي صفات معينة محددة يسمى (نبيا)، وإنما أتدرج في حركتي الفطرية، فأجد في بعض الناس ما أستحسنه فأنجذب إليه، وفي بعضهم ما أستقبحه فأتجنبه، وإذا سمعت لأحد ما استحسنته فإن وجدته يدعو به إلى اللّه ازداد قوله حسنا في نفسي، وإن وجدته يعمل صالحا مما تعرفه نفسي كعبادة اللّه عز وجل ومناهضة الظلم ـ مثلا ـ زاد ذلك حسن قوله في نفسي، وإذا وجدته متواضعا واضعا نفسه مع عامة المسلمين معلنا نفسه منهم أصبح (قوله) في نفسي أحسن قول فأحببت القائل واتبعته، ووجدته وليا للّه قريبا منه وعالما به وبما يرضاه، ووجدت قوله حقا، ووجدت له كرامة خاصة[١٣٦] ...، وإذا قال: إن له ارتباطا باللّه وأنه يلهمه الصلاح ...، فإني لا أستنكر ذلك ...

(**الراصد**) ـ مقاطعا ـ : لي إشكالان على ما ذكرت، الأول: على ما أشرت إليه من أن لتواضع القائل دخلا في اتباعك له، فبغض النظر عن أن الآية الكريمة غير صريحة على ما فسرتها به فإن ما ذكرتَه لا يبدو طبيعيا، فإن الناس لا يطيعون عادة إلا من يفرق عن عامة الناس ولم يكن مثلهم، لذلك فإن الراغبين في أن يطاعوا يسعون إلى إظهار أنفسهم مميزين عن الناس العاديين، ولا يختص هذا بأهل الدنيا، بل وأيضا يفعله بدرجة أو أخرى الذين يستهدفون من وراء طاعة الناس لهم تحقيق غاية صالحة

وإنك بنفسك قد أشرت إلى ذلك حيث اعترفت بأنك تجد لمن وصفتَه كرامة خاصة وميزة على الناس ...

والإشكال الثاني أعرضه بصيغة استفهام استنكاري فأقول: لو أنك وجدت من أشرت إليه وادعى النبوة فهل تصدقه لمجرد أنك وجدت قوله الأحسن وأحببته؟!

(الناصر)ـ : أنا أرد عليك فأقول: وجدت في كلامك خلطا بين الطاعة الاختيارية، أي الانقياد القلبي، وبين الطاعة عن الخوف أو الانبهار، وكذلك بين ما يكون عليه، ويقوله، من كان قوله أحسن وبين ما يجده المؤمنون ويعاملونه به، وأيضا بين نظر المؤمنين إليه في حضوره، وبين نظرهم إليه في غيابه ...

ما يقوم به الناس عادة ليس الطاعة الاختيارية بمعنى (الاتباع) الناتج عن الحب الحاصل بدوره عن مقدمات اختيارية، وما يجده ويقوم به المؤمنون تجاه من يرونه وليا للّه ليس بمعزل عما يكون عليه الولي ويقوله ويفعله، فإن لتواضع الولي تأثيرا أساسا في تعديل نظرتهم إليه ومنعها من الطغيان والانفلات[١٣٧]، إذ لولا تواضعه وتصديه للمتعاملين معه[١٣٨] لغلوا في نظرهم إليه ...

واقع النبوة

وأما سؤالك الاستنكاري فجوابه: أن النبوة وإن كانت منصبا استثنائيا خاصا يصطفي اللّه له أناسا خاصين[١٣٩]، والأخ ـ وأشار إلى (الزين) ـ في قصته (الافتراضية) لا يختلف عن باحثي النبوة بالفكر في البناء على أن هناك أنبياء ...، ولكن بفارق أن أصحاب الفكر يسعون لإثبات ذلك بما يسمونه (قاعدة اللطف)[١٤٠] ...، وأما الأخ فيكتفي بما يجده في نفسه، فحتى لو أمكن إثباته فإنه لا يرى نفسه بحاجة إلى ذلك، بل ويتجنبه[١٤١]

ما يفعله عقليو المسلمين بصدد النبوة هو تعريفها وبيان خصائصها، ثم الاستدلال عليها وإثباتها نظريا، وأما النبوة التي يسعى إليها الأخ فهي مجموعة خصال تندفع إليها نفسه وتطلبها ولكن لا كأمور محددة، فإن النفوس ـ ولنقل: نفس من افترضه الأخ ـ لا تعرف إلا واقع تلك الخصال لا مفاهيمها، وبالأحرى:

إن معرفة النفس لشيء ليس سوى انجذابها إليه، وما تستحسنه النفس وتنجذب إليه ليس خصالا محددة بل متفاوتة شدة وضعفا فإن ما تستحسنه النفس مراتب ودرجات، والنفس لا تنجذب إلى الفرد الأكمل من الخصال الحسنة فحسب، بل إنها تلتفت إلى كل ما تجده حسَنا وتميل إليه وإن كان حسْنه ضعيفا، فإن كان مما تحتاجه تعلقت به إلى أن تجد ما هو أحسن منه

فبما أن النفس تستحسن ما يتجسد في النبي من أقوال وأفعال وصفات(١٤٢)، وتحتاجه، أي تنشد إليه وترغب فيه، فهي تُقبل على كل من تلمح فيه شيئا منه

وبما أن اللّه عز وجل كان قد بعث نبيا فإن النفس بهذه الطريقة المعروفة عنها في تعاملها مع واقع النبوة تلتقي بذلك النبي المعين من اللّه وتعرفه وتؤمن به بلا حاجة إلى أن تثبت لها نبوته (ثبوتا ذهنيا) أو ما يعرّفها بها بطريقة خارقة، وهذا في أساسه نفس المسلك الذي تسلكه النفس في التعامل مع (الصالحين)، فمن وجِدَت فيه شيئا مما عبرنا عنه بواقع النبوة أقبلت عليه وتوقعت أن يكون له ارتباط خاص باللّه تعالى وقدرات استثنائية، وهذا من أكثر التوقعات الإنسانية شيوعا بين الناس بما فيهم الأغلبية الساحقة من مخلصي المؤمنين، ومن هنا يلجأ المؤمنون إلى ولي من الأولياء عندما تصيبهم بلية في الدنيا، ويلتمسون منه الدعاء والشفاعة بل ويطلبون منه دفع الهمّ وحلّ المشكلة، وحتى لو لم يفعلوا ذلك ـ لسبب أو آخر ـ فإنهم يتوقعون أن يكون له كرامة عند اللّه سبحانه تؤهله للقيام بما لا يقدر عليه عامة الناس

ولنفس الحالة المركوزة في النفوس يلاحظ بوضوح أن الناس ـ بما فيهم كثير من المؤمنين ـ يتوقعون أن يدافع اللّه عن وليّه في هذه الدنيا، ويكبت أبدا عدوّه ويهلكه، وقلّ من يتوقع البلاء لولي اللّه في الدنيا رغما عما تزخر به حياة أولياء اللّه من مصائب ...، ورغم ما في القرآن والحديث من أن ذلك من شؤون

الأنبيـاء والأولياء[١٤٣]

وكما أشار إليه الأخ ـ وأشار إلى (الزين) ـ : لو ادعى رجل صالح أن له اتصالا بالله وأنه (تعالى) يأمره ويخبره ببعض الأمور ... فإنه سيلقى اهتماما، بل وقبولا بدرجة أو أخرى، وما ينتشر بين الفينة والفينة من لجوء مجموعة من الناس إلى كهوف مثلا تأثرا بادعاء شخص أنه أخبر بقيام القيامة دليل على واقعية ما أشرت إليه[١٤٤]

وخلاصة الأمر: لا تختلف طريقة الناس في التعامل مع النبي، في **أساسها**، عن طريقتهم في التعامل مع من يرونه من العباد (الصالحين) ...، فـ(**واقع النبوة**) منتشر، بشكل أو آخر، وبدرجة أو أخرى ...

ولـكــن ...

ولكن هنالك فرق رئيسي بين النمط الذي اعتمده الأخ ـ وأشار إلى (الزين) ـ في قصته وبين غيره من سائر الناس الذين يفعلون ما أشرنا إليه بلا تعقل فإن لمحوا في دعوة أحد مؤشرا إلى الحق اغتروا به وأقبلوا عليه غريزيا فحسب، ولم يفكروا في حقيقته وأصله[١٤٥]، وانتموا إليه وتعلقوا به واتبعوه، وتعصبوا له ...، إلا أن يكونوا منتمين إلى داع آخر، دنيوية كانت دعوته أم أخروية، فلا يلفت إِذَن أنظارَهم شيء في غيره وإن كان حقا، ذلك لأن دافعهم الأساس إلى اهتمامهم بدعوته إنما هو الانتماء الناتج عن دافع الغريزة وحدها ...

وأما الذي افترضه الأخ ـ وأشار إلى (الزين) ـ فلكونه عاقلا واعيا ...، يعلم، ولو إجمالا، بأن (الانتماء) أعظم الأشياء خطرا في حياة الإنسان، فبه يهتدي ويكون في أحسن تقويم، وبه يضل ويُردّ أسفل سافلين، فهو ـ إِذَن ـ يكبح رغبته في الانتماء إلى أن يجد مَن هو على حق، لا من يلمح في قوله وفعله شيئا من الحق، لا فقط لعلمه إجمالا أن جميع الناس كذلك، بل ولعلمه بأن هناك من يتعمد ذلك ويتظاهر بقول شيء من الحق وبفعله للتأثير على الناس ونيل مآرب خاصة[١٤٦]

النبوة منصب خطير

ومن هذا الباب إنه رغم انجذابه إلى خصال يتكون منها واقع النبوة وانفتاحه على المتصف بها .. فإنه سوف لا يتفاعل مع (**دعوى النبوة**) ولا يصدقها لمجرد كون مدعيها متصفا بتلك الخصال، ذلك لما هو كامن في نفسه من العلم بخطورة منصب النبوة وما يترتب عليها من نتائج، فدعوى النبوة تثير في نفسه حذرا شديدا يمنعه عن تصديقها إلى أن يتأكد له صدقها ...

(**أنا**)ـ : كيف يتأكد من كونه نبيا؟

(**الناصر**)ـ : بأن يجد فيه من الخصال ما لا يمكن لقلبه أن لا ينجذب إليه، وفي دعوته ما لا يمكن لنفسه أن تهمله، وحيث نفترضه معنيا بأمره طالبا للهدى فإنه يعلم إجمالا أن اللّه الحكيم راض بذلك وإلا لم يزوده بما لا يمكنه الامتناع عن الإقبال عليه إلا بعناد وتكلف، ذلك لما هو راسخ في فطرته بأنه إن أراد الهدى فإن اللّه سيهديه ولا يضله ...

(**أنا**)ـ : أليس هذا هو الاستدلال بالمعجزة، من جهة، وبقاعدة اللطف، من جهة أخرى، وكان الأخ ـ وأشرت إلى (الزين) ـ قد صرح بأنه لا يبني قصته الافتراضية على دليل الإعجاز، وقد استُشكل في قاعدة اللطف وعلى الأصل المبتنية عليه[١٤٧]؟

(**الناصر**)ـ : ما أشرتُ إليه حقيقة نفسية، وأما ما يعرف بدليل الإعجاز، أو قاعدة اللطف فمفهوم ذهني، والمفهوم الذهني وإن كان صورة عن حقيقة موجودة في النفس، فإنه يختلف عنها في كونه ـ كأي مفهوم ذهني آخر ـ جامدا لا حياة له ولا حَراك فيه ولا يثمر بنفسه ثمرا ولو أمكن إثباته والاقتناع به ...، وأما الحقيقة الموجودة في النفس فإنها حية فاعلة نامية لن تتوقف عن الحركة حتى لو كان الإنسان جاهلا بوجودها في نفسه، بل وحتى لو كفر بها، غير أنها ستضل إذن

فما هو موجود في فطرة الإنسان من أن على اللّه الهدى[١٤٨] هو الذي يدفعه

إلى البحث عن الهدى، ويمنحه القوة والأمان لتعقل ما يلتقيه من معالم الهدى، ويشعره بالقدرة على معرفته والاهتداء به، وهذا ما أرى أن إبراهيم عليه السلام قصده بقوله (الشعراء: ٧٨): (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)، وبقوله (الزخرف: ٢٦-٢٨): (إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

أي أنه عليه السلام كان ينبه نفسه ويذكّرها بما كانت مفطورة عليه وهو أن الله الذي (خلقه) و(فطره) يهديه، فعليه أن يعتمد ذلك أصلا أساسا في بحثه عن الهدى، إذ لولاه لم يطلب الهدى، ولم يمكنه البحث عنه ولم يتمكن من معرفته ...، وبما أن الله تعالى كان قد آتاه (ع) رشده[١٤٩] وإن لم يجعله إماما للناس بعدُ فجعل ما اعتمده كلمة باقية في عقبه الذين يتبعون ملته[١٥٠]، أملا في أن يرجعوا إليها، أو إلى أنفسهم، في طلبهم الهدى والبحث عنه[١٥١] ...، ولم يكن يريد الاستدلال على شيء، أو الاحتجاج على أحد[١٥٢] ...

استقراء وطاعة ...

وعلى أي حال فجواب سؤالك ـ وأشار إليّ ـ باختصار: أن ما أودعه الله في ذات الإنسان من دوافع وإمكانيات يكفيه للتعرف على النبي والتأكد من صدقه في دعواه، فمثلا مما هو مودع في ذاته ـ مضافا إلى ما يدفعه إلى طلب النبي والبحث عنه ... ـ الاندفاع إلى الاستعانة بالناس، لا بجميعهم، بل بالصادقين منهم، حيث يفترض أنه مفطور على معرفتهم والانجذاب إليهم والاقتراب منهم والكون معهم ...، فهذا مما يؤكد له نبوة النبي بنفس الملاك الذي يوجب اليقينَ كل من التواتر والاستقراء ...

هذا مضافا إلى أن ما فيه من الاندفاع إلى الطاعة يجعله يطيع الصادقين فيتوفر له بذلك سبب آخر من أسباب اليقين، بل أهم أسبابه ...، كما تكرر

الـكلام عنهـا ويتكرر

ولنعد إلى الأخ ـ وأشار إلى من سميته (الزين) ـ ليحدثنا عما افترضه من سيرة إيمانية

أرجو الهدى ...[١٠٣]

(الزين)ـ : أعـود إلى مـا كنـت في صـدده فأقـول: بمـا أنـي ـ مـن جهـة ـ أحب واقـع النبـوة وأرجوهـا، وـ مـن جهـة أخـرى ـ أعيـش فـي المسـلمين وأكـون منتميـا إليهـم، فأحـب أن أجـد فـي نبـوة محمـد صلـى الله عليه وآلـه ما يحقـق رجائي ويؤكد انتمائي[١٠٤] ...، ولـما قـلت ـ قبـل هـذا ـ من أني أعجز عن الاستـدلال على نبوتـه (ص) بالطريقـة المتعهـدة رسـميا أحـاول التثبـت منهـا بطريقـة تناسبني وترضيني ...

أتوقـع وأرجـو أن يتضمـن قولـه ودعوتـه (ص) مـا أعلم به أنه هـدى، وما أعرف به معـالمه، وما يدفـعني ويحثني بالتبشير والإنذار إلى سـلوكه، وما يجـعلني قـادرا على ذلـك[١٠٥] ...، فإنـي أرى أن أبعـاض (المقـال الهـادي) عبارة عما يذكّر الإنسـان من جهـة بمـا هـو موجـود فـي نفسـه مـن كـون الهـدى الـذي يتعهـده المقال حقـا، ومن جهـة أخـرى يعرِّفـه معالـم طريـق الهـدى، ويدفعه لسـلوك الطريق من جهـة ثالثة، ويبين لـه كيفيـة سـلوك الطريق من جهـة رابعة

ذلـك أدنـى مـا أحتـاجه لمعرفـة رسـالة النبي ومن ثم معرفتـه، وهو وإن كان كافيـا لأن أعتقـد نبوتـه وأؤمـن بـه لكنـي بموجـب ميولـي الفطريـة إلـى الاسـتزادة سـوف لـن أكتفـي بهذا المقـدار ...

وعلى أي حـال فإن فطرتي ـ حسبما افترضت ـ تكفي لدفعي إلى الاهتمام بنبوة النبي صلى الله عليه وآله ومحـاولة الإيمان به، فإني أحب بفطرتي وأرجو أن تتحـقق بغيتي وينجح سـعيي[١٠٦] بأن تثبت وتتأكد نبوته (ص) في نفسـي ...

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (الإسراء: ٩)

أسمع وأقرأ أن من تدبر القرآن الكريم ـ أي فكر فيه[١٥٧] ـ لم يشك في أنه حق، وأنه من عند اللّه[١٥٨] ...، ولما أنظر فيه أجدني عاجزا عن فهمه[١٥٩]، فأحاول الاستعانة بالتفاسير فأعجز عن الاقتناع بها، خاصة وإني أجدها مختلفة[١٦٠]

ثلاث خصائص

أعلم أن الناس في عهد النبي (ص) كانوا يؤمنون به بسماعهم القرآن، لذلك كان الذين كفروا يدْعون إلى عدم سماعه واللغو فيه[١٦١] ...، وأحتمل أن ذلك (على سبيل مانعة الخلو) إما كان لخاصية في الذين بعث فيهم النبي (ص)، أو لخاصية في سماعهم، أو لخاصية في قراءة النبي (ص) وتلاوته للقرآن، لا لكونها معجزة خارقة[١٦٢] بل لما هو قابل للرصد من أن لنطق المتكلم تأثيرا كبيرا لا فقط في السامع، بل وفي بيان مقصوده[١٦٣] أيضا ...

أقرأ في القرآن المجيد قول اللّه تعالى (الأنفال: ٢): (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ...)، وقوله تعالى (العنكبوت: ٥١): (... أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، وقوله (آل عمران: ١٠١): (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، وغير ذلك مما يثير ببالي ما لا يقل عن احتمال أن ما كان يجعل الناس يؤمنون بالنبي (ص) هو (تلاوة آيات الكتاب عليهم) لا مجرد اطلاعهم عليها[١٦٤]

لا أكون بحاجة إلى بذل كثير من الجهد لأعرف أن أثر قراءة شيء مسطور ليس كأثر سماعه من أحد[١٦٥]، وأن لتلاوة النبي (ص) للقرآن كان الأثر في بيانه، وأن لمن بُعث فيهم النبي كانت خصوصية تميزهم عن غيرهم، وأجد أن تلك الخصوصية هي ما كان قد ركز عليه في القرآن الكريم، وهي كونهم (أميين) أي

غير مثقفين[١٦٦]، وأجد بالتجربة أن الذين يسمون العوام أقرب إلى الفطرة[١٦٧] من المثقفين أصحاب البحوث والمقالات والكتب[١٦٨] ...

الأمي لا يجزئ ما يسمعه ...

بملاحظتي لنفسي وللناس أجد أن استماع (الأمي) لقول ـ وكذلك قراءته له[١٦٩] ـ يختلف عن سماع المثقف، فإن المثقف إذ يبحث عن (أفكار) و(معارف)... يجزّئ ما يسمعه ويجعله جملا قابلة للتحليل والقياس المنطقي الذهني ...، فقد يجد فيما يسمع ـ أو يقرأ ـ فكرة صحيحة وأخرى باطلة فيهتم بما يراه صحيحا ويهمل ما يراه باطلا[١٧٠]، ومن آثار هذه الطريقة أن الفكرة الصادقة في نظره، وإن كانت دينية، تظل مجرد فكرة في ذهنه، ولا تعبره إلى قلبه ليكون (إيمانا)[١٧١] ...، وأما (الأمي) فهو إن سمع قولا سمعه بقلبه فإن وجد فيه مؤشرا إلى ما يرغب فيه تفاعل معه واهتم بكل ما يقوله قائل القول ...

يبدو لي أن المؤمنين في عهد النبي (ص) كانوا كذلك، فلم يكونوا يركزون على شيء مما كان يتلى عليهم من الكتاب دون شيء، بل كانوا يؤمنون بكله[١٧٢] ...

أقرر أن أهيئ لنفسي وضعا مماثلا للذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وآله فأحاول أن أكون أميا شبيها بالأميين الذين كان بعث فيهم النبي (ص)، وذلك بتحرير قلبي وتخليته عن أي شيء آخر غير ما هو موجود فيه فطريا، فما تجاوب معه قلبي من حاق ذاته واستحسنه اعتمدته[١٧٣]، والمفروض أني بصير بنفسي واع لفجورها وتقواها[١٧٤]

لا بد من استماعه ممن يتلوه ...

من الطبيعي أن تكون لي تصورات دينية مستوحاة من البيئة، وهي ـ وإن لا تكون واسعة متعمقة ـ كافيةٌ لمنعي عن التعامل مع القرآن بقلبي كما كان يفعله المؤمنون في عهد النبي (ص) لكني أنتبه إلى أني حينما أستمع ـ مثلا ـ موعظة

ممن أثق به فإني لا أدقق فيما يطرق سمعي، بل وأتأثر بكل ما أسمعه[١٧٥]، وأتبع ـ عفويا ـ أحسنه ...، فأرى أن علي فعل أمرين: الأول الإقبال على القرآن طلبا للموعظة والهدى ...، لا بحثا عن الأفكار والمعارف والحقائق[١٧٦]

والثاني استماعه ممن يبدو أنه (يتلوه) بأن يتعقله ويتدبره[١٧٧] ويؤمن به فيرتله ترتيلا، أي يبينه ـ بقراءته ـ تبيانا[١٧٨] (للقلب)، لا قراءة تدل على أنه في صدد حقائق ذهنية لإثباتها أو الاستشهاد عليها، فيقرأه كما تُقرأ كتب المعارف والحقائق الفكرية، فيقف عند كل كلمة، بل وكل حرف، فيدقق فيها[١٧٩] ...، أو قراءة تدل على أن القارئ لا يريد غير الثواب فيقرأه كلمات متناثرة[١٨٠] ...، أو قراءة من يريد التغني به ...

التغني بالقرآن

(**الراصد**)ـ مقاطعا ـ : ورد في بعض الأخبار الأمر بترجيع الصوت بالقرآن وبالتغني به وبقراءته بصوت حسن[١٨١]، وقد ركز عليه واعتمده بعض العلماء[١٨٢]، وتؤيد ذلك ظاهرة السجع[١٨٣] البارزة في القرآن، أليس كذلك؟

(**المراقب**)ـ متطوعا ـ : الأخبار التي أشرت إليها ضعيفة، وقد اختلف في معنى (التغني) الوارد في بعضها[١٨٤] بالإضافة إلى أن ظاهرها الأمر بـ(تكلف) طريقة معينة في قراءة القرآن الكريم ...

(**الناصر**)ـ : لا يعني الأخ ـ وأشار إلى من رمزت إليه بـ(الزين) ـ هذا، ولا يضر ما هو بصدده الآن لو افترض كون التغني بالقرآن مطلوبا، وأن من حسنات القرآن تقبله لنغم مختلفة[١٨٥]، فإن ما ينشده ويسعى إليه ـ حسب الفرض ـ إنما هو الإيمان بالقرآن لا التأثر بالصوت الذي يقرأ به القرآن ...

(**الراصد**)ـ متدخلا ـ : ولكن القلب لا يؤمن إلا بالتأثر ...، أليس كذلك؟

(الناصر)ـ : التأثر الذي لا بد منه في الإيمان هو ما لا يضر بتعقل ما يؤمَن به، بل ويساعد على ذلك، ومن المعروف أن الغناء بإطرابه الإنسان يخرجه عن طوره ويؤثر في تعقله، فلذلك قد يقوم بما لن يفعله عاقل[١٨٦]، وليس صحيحا ما ذكره بعض العلماء أن من الغناء ما يثير الأحاسيس اللطيفة الرفيعة في الإنسان فيقوي عقل الإنسان وينيره ...[١٨٧]، لا فقط لما هو معروف من أن العواطف تضر بالتفكير المنطقي[١٨٨] الذي يرون أن (تدبر القرآن) المطلوب[١٨٩] لا يتم إلا به[١٩٠]، بل لبداهة أن الغناء يهيج الإحساس ويطغيه فيلهي المرء عن الاهتمام بميوله الفطرية الأخرى ...، فتختل بذلك موازنات النفس التي لا بد منها في التعقل، ولعل لهذا عُد الغناء من اللهو[١٩١]

وليس هدفنا الآن البحث عن معنى (الغناء) لمعرفة حكمه الشرعي كما يفعل الفقهاء[١٩٢]، بل ما نحن بصدده التنبيه إلى أن قراءة القرآن بصوت مهيج للإحساس يمنع الإيمان به، سواء سمي ذلك غناء أم لا ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : من قرأ القرآن جهرا وبصوت فإنه لا بد وأن يقرأه منغما بشكل أو آخر وبدرجة أو أخرى، خاصة وأن ما في كثير من الآيات من سجع خاص يستدعي قراءتها بنغم ...، والنغمة تهيج الإحساس في القارئ قبل غيره، فلا يمكن القول إن مطلق هيجان إحساس قارئ القرآن يمنعه عن الإيمان به، فلابد إذَنْ إما تقييد (الهيجان المانع) بالدرجة العالية منه، وإما تقييد الإحساس بـ(الشهواني) مثلا كما فعل ذلك بعض العلماء[١٩٣]، فبماذا تقيده أنت؟

(الناصر)ـ : نحن نرى أن المانع عن الإيمان بالقرآن هو هياج الإحساس الناتج عن قراءة يقصد بها إثارة الأحاسيس، ومن استمع لها فهو أحد رجلين: إما أنه إنما يطلب ذلك فهو لا يؤمن بها ولا يهتدي، سواء أثار بها إحساسه أم لا، وذلك لأنه لم يطلب الهدى ...، ورجل لم يطلبها ولكنه صادفها فهاج بها إحساسه فإن

الهياج الحاصل له يمنعه عن الهدى المطلوب

أجل، إن التأثر بالقرآن والتفاعل القلبي معه وإن كان لا بد منه في الهداية، لكنه سيضر بها إن ركز عليه فإنه إذَنْ سيطغى ويمنع الاهتمام بميول أخرى لا يتحقق الإيمان الصادق إلا برعايتها جميعا كما هو مجرب ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : أليس هذا يثير في نفس طالب الهدى وسواسا يجعله يتجنب مطلق الصوت الحسن مخافة أن يضر بإيمانه المطلوب؟!

(الناصر)ـ : إن طالب الإيمان الصادق الشامل[١٩٤] (لا طالب التأثر فقط) يفرق بين القراءة المهيجة المؤثرة سلبا على إيمانه وبين القراءة المؤثرة المساعدة على الإيمان والهدى، إذ المفروض أنه معني بأمره واع لما يحصل في نفسه، والمفروض كذلك أنه ليس فردا، بل هو جماعة وأمة وإن كان بمفرده، فله إخوان مهتمون بشأنه ...

لقد طال وقوفنا هنا، فلنعد إلى الأخ ـ وأشار إلى من سميته (الزين) ـ ليكمل ما كان بصدده

التــلاوة ...

(الزين)ـ : أجل، لا أجدني أستفيد من الاستماع لمن يتغنى بالقرآن، أو من يقرأه سردا طلبا للثواب فحسب، أو من يقرأه كما يقرأ ما يسمى كتب المعارف والحقائق الفكرية ...، وأجدني أتأثر بقراءة خاصة أسميها (تلاوة) ...

(أنا)ـ مستوضحا ـ : ماذا تقصد بـ(التلاوة)؟

(المراقب)ـ متطوعا ـ : يقصد بالتلاوة قراءة الكتب المنزلة لاتباعها، أي العمل بها، فهي أخص من القراءة[١٩٥]

(الناصر)ـ : التلاوة نمط قراءة يُتبع فيها المقروء، أي ينساق معه وينقاد به

ولا يُتبع إلا أن يكون مما يعظمه القارئ ويمجده، فيظهر ذلك على كيفية نطقه للحروف والكلمات فتكون قراءته بـ(لحن) لا تخلو عنه قراءة كتاب نازل من عند اللّه حتى لو كانت كالتي نقلها الكافي (٢/٦٠٦) عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من أنه (إذا قرأ فكأنه يخاطب إنسانا)

ويبدو أن بعض أهل الكتاب كانوا يستغلون هذه الظاهرة العامة كما قال اللّه تعالى (آل عمران: ٧٨): (وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ...)، وكذلك كان يفعل الشياطين كما قال تعالى (البقرة: ١٠٢): (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ...) فإنهم كانوا يتظاهرون بقراءة مقالهم بلحن خاص كالذي تُقرأ به الكتب المقدسة كالتوراة مثلا، للإيحاء إلى الناس بأن ما يقرأونه هو نازل من اللّه[١٩٦]

فتلاوة القرآن ـ أو ما نقصده بها ـ هي أن يقرأه القارئ بلحن ينشأ عفويا عن تعقله[١٩٧] ـ إجمالا ـ لما يقرأ وتدبره له وتأثره به، إذ لا بد لكل متكلم بشيء أن يؤديه بلحن، لا فقط يساهم في بيان مراده[١٩٨]، بل ويتأثر بحالته النفسية أيضا . فتلاوة القرآن ليست القراءة المتأثرة بالإحساس كيفما اتفق، بل بإحساس خاص لا ينافي التعقل، بل ويساهم في تحققه إذ لولاه لم يكن (تعقل)[١٩٩] ...

فلحن التلاوة طبيعي غير متكلف، لا فقط بلحاظ درجته بل بلحاظ كيفيته[٢٠٠] أيضا، لكونه تابعا للمقروء وناتجا مما يتطلبه قراءته، بدلا من أن يكون هو القائد للمقروء والمتصرف في كيفية أدائه، كما هو في لحن (الغناء) ...

يمكن الاستماع للأقل علما

(أنا)ـ مخاطبا (الزين) ـ : من تستفيد من تلاوته للقرآن يجب أن يكون أعلم منك، أليس كذلك؟

(الزين)ـ : كلا، لا مانع من أن يكون أقل مني فهما للقرآن[٢٠١]، فإني وإن

كنت أحب أن يكون أعلم مني، حيث يكون إذَنْ أكثر نفعا، إلا أن ما أحتاجه للإيمان بالقرآن ليس علمه فقط، بل الكون معه والانتماء إليه الأمر الذي لولاه لم أقدر على اتباع القرآن[٢٠٢] وتدبره[٢٠٣]، ويكفيني لذلك أن يكون ملما باللغة العربية بدرجة تؤهله لفهم ظاهر القرآن بإجماله فيستطيع أن يتعقل ما يقرأه منه ويتدبره، بأن يبدو لي كذلك

هذا مضافا إلى أن تلاوة من يظهر لي أنه يؤمن بالقرآن تدفعني ـ بدرجة أو أخرى ـ إلى الإيمان بالقرآن وتشجعني على ذلك، فإني لست ممن يجدون الحق بالبرهان[٢٠٤] بل أجدني محتاجا إلى أن يشهد عليه من أثق به ويقول: إنه حق[٢٠٥]

(أنا)ـ مقاطعا ـ: إنه لن يستطيع تلاوة القرآن بصورة صحيحة إلا أن يكون مؤمنا به، فهو إذَنْ أعلم به منك حيث افترضتَ أنك لست مؤمنا به بعدُ، أليس كذلك؟

(الزين)ـ: اندفاعه للإيمان ـ مضافا إلى إلمامه باللغة ـ يكفي ليكون (قرآنه)[٢٠٦] قابلا لأن أتبعه وأتدبره، فإني أجد تلاوة من يؤمن بالقرآن، أي يطلب الإيمان به[٢٠٧]، مختلفة عن قراءة من يبطله بقراءته[٢٠٨]، ولا يعرقل اتباعي له في قراءته أن أجد له أخطاءا في قراءته للقرآن ناتجة عن خطئه في فهمه له ما كانت قراءته (تلاوة) بالمعنى الذي كان قد أشير إليه، وما لم تخرجه الأخطاء عن الوجهة التي تعرفها نفسي

(أنا)ـ: فعلى هذا كان من تستمع (قرآنه) هو الآخر بحاجة إلى استماع تلاوة القرآن، أليس كذلك؟

موالاة ومعاطاة ...

(الزين)ـ: أجل، ولكن مع ذلك فقد ينفعه اهتمامي بقرآنه واستماعي له[٢٠٩] فإن المتكلم والمستمع يتعاطيان ويتبادلان التأثير والتأثر[٢١٠] ...، فأتوقع أن يُشعره استماعي له بالأمان والطمأنينة ـ بدرجة أو أخرى ـ وأن يجعله أكثر تفاعلا مع ما

يتلوه[٢١١] وأقدر على اتباعه وتدبره والإيمان به ...

أثر الاستماع ...

وعلى أي حال فعودا إلى ما كنت بصدده أقول: أجد تلاوة من افترضت أني أستمع له مؤثرة، ومبينة للقرآن[٢١٢]، وموجبة لقناعة لم يكن بإمكاني الحصول عليها لو قرأته بنفسي حتى لو أمكنني فهمه وأنا بمفردي[٢١٣]، ومضافا إلى ذلك أجدني قادرا على المشي عبر الآيات واتباع أحسنها[٢١٤] ...، ولولا استماعي للقارئ وكوني معه واتباعي له في قراءته[٢١٥] لتجزأ القرآن في ذهني وتحولت آياته إلى قطع مستقلة لفت نظري بعضها أكثر من غيره لما يبدو لي من أن له معنى راقيا، أو لكونه غامضا ـ متشابها ـ فأجدني محتاجا إلى الاهتمام به وبحثه إرضاء لتطلع نفسي إلى الظهور بفهم خاص متفرد فأفتتن بذلك نفسي وغيري ...، أو رغبة في تأويله واكتشاف معناه الحقيقي وما يؤول إليه، أو جدلا ودفاعا عن الآية[٢١٦] ...، وهو ما لم أكن قادرا على مقاومته وتجنبه بمفردي، وأنا بعدُ في بداية الطريق

(**أنا**) ـ مقاطعا ـ : أليس معنى ذلك أن ما حصل لك هو الاقتناع الذي ينتج مما يطلقون عليه الخطابة؟ وهو مما لا يمكن أن يقدم إيمانا صحيحا للإنسان حقا حسب قول بعض الباحثين[٢١٧]

ثم إن ما فسرت به (الفتنة) يختلف عما ذُكر في مجلس سابق[٢١٨] ...

(**الناصر**) ـ : أنا أجيبك عن هذا فأقول: إن كان المقصود بالخطابة ما يؤثر في النفس ويقنعها فلا ضير فيه، شرط أن لا يكون فيه خداع بإطغاء بعض ميول النفس على حساب بعضها الآخر، بل وإنه مما لا بد منه، لا لفئة من الناس[٢١٩] بل للجميع[٢٢٠]، فإن الإنسان ليس بذهنه، وإنما بلُبّه وقلبه، ولا يخفى أن القلب لا يعرف البرهان وإلا لتفاعل معه وآمن به ...، ولهذا يتبنى (العقليون) ـ نظريا[٢٢١] ـ تحييد القلب[٢٢٢] ...

وأمـا (الفتنـة) فـي قـول اللّـه تعالـى (آل عمران: ٧): (فَأَمَّـا الَّذِيـنَ فِي قُلُوبِهِـمْ زَيْـغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَـاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَـاءَ تَأْوِيلِـهِ) فهي قابلة للتفسـير بـ(المحص)، كمـا كنـت أنـا قـد فسـرتها بـه سـابقا، وقابلـة للتفسـير بمـا ذكـره الأخ ـ وأشار إلى من رمزت إليه بـ(الزين) ـ وهمـا فـي الواقـع متلازمـان عـادة ...

ولنعد إلى الأخ ليكمل حديثه

(الزين)ـ : مـن الطبيعـي أن محاولتـي لا تجعلنـي كالمؤمنيـن فـي عهـد النبـي (ص) ...، كمـا وأن صاحبي لـن يكون كمصعب بن عميـر ولا قراءتـه كقراءته التي كانت تدخـل الإيمان في قلـوب أهـل المدينة كالذي نقل عن (أسـيد بـن حضير) و(سـعد بـن معـاذ)[٢٢٣] مثـلا ...، لكـن التجربـة تجعلنـي أدرك إمـكان الاهتـداء بالقرآن، إذ يذكّرني برغبـاتي الفطرية الكامنـة، ويهديها بدرجة تكفينـي دافعا وباعثا، وأيضا مؤشـرا إلى جهـة الهدى

لا أجـد اختـلافا

مما أجـده بالتجربة التي أشرت إليهـا أن تترابط آيات القرآن عفويا وتتعاضد[٢٢٤] في هدايتها لنفسـي إلى صراط مستقيم الذي أجـد عليه ربي[٢٢٥]، ولا فقـط لا أشعر باختـلاف فيهـا، بـل ولا أحـس بـأي تلكؤ في حركة نفسـي عنـد استمـاعي لهـا حتى مـا كان يبـدو منافيـا للمقاييس الذهنيـة أو العـلمية (التجريبيـة)[٢٢٦]، أو ما لا يكون له معنـى واضـح فـي ذهنـي ...، فإنـي آخذ بتلقـي الآيات، لا جمـلا **(وصفية)** ليواجهني بشـأنه مـا ذكـر، بـل (دافعـا نفسـيا) في طريق، فكل آية تسـتقي قيمتها مـن تأثيرها في نفسي ...

وهـذا مـن أهـم الأمـور التي تجعـلني أؤمن بكـون القرآن من اللّـه عز وجل، حيث يهـدي قلبي إلى جهـة واحـدة بتصريف آياتـه المتنوعـة[٢٢٧]، فإني لا أكاد أحتمل أن يكـون لبشـر القـدرة على أن يجعـل جميـع كلماتـه (دائمـا) متعاونـة في هدايـة الناس

على صراط واحد مستقيم مؤد إلى غاية محددة هي أن لا يُعبد إلا اللّه ولا يُتخذ من دونه أربابا[٢٢٨] ...، فلو كان القرآن من عند غير اللّه لوجد فيه متدبروه اختلافا كثيرا مانعا عن تدبره والإيمان به كما قال اللّه تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)[٢٢٩] ...

(أنا)ـ مقاطعا ـ : هلا توضح هذا

(الناصر)ـ : أنا أوضحه لك فأقول: تقدم[٢٣٠] الكلام عن (التدبر) وأن معنى تدبر القرآن هو جعله ذا عاقبة، وأن العاقبة المطلوبة لآيات القرآن هو واقع الإيمان والهدى، لا ما فسروه به مما يسمى التفكر العقلي ...، وأقول الآن: إن ما كان قد تحقق للمؤمنين من الهدى لم يكن يحصل لو لم يكن القرآن من عند اللّه تعالى فإنهم كانوا يجدون إذَنْ اختلافا كثيرا[٢٣١] في آياته التي تشير إلى الهدى وتدفع إليه، أي كانوا يجدون آية تشير وتدفع إلى جهة، وبطريقة معينة، وأخرى تشير وتدفع إلى جهة ثانية، أو بطريقة مختلفة، وثالثة تشير وتدفع إلى جهة ثالثة، أو بطريقة مغايرة، وهكذا ...، إذ لا يمكن لأي إنسان ذي دعوة أن يستمر في دعوته تماما كما خطط لها وبدأها[٢٣٢]، وهذا مما لا يخفى على عاقل ...، وبغض النظر عما للتخبط من التأثير السلبي في نتائج الدعوة خارجا[٢٣٣] فإنه يربك النفوس ويؤثر في إيمانها فإن النفس لا تؤمن إلا في الصراط المستقيم[٢٣٤] ...

أسئلة وأجوبة

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : ما قلته يثير ثلاثة أسئلة مترابطة: الأول كيف تثبت ما ادعيته من عدم إمكان خلو الدعوات البشرية من التخبط ...، والثاني: ما هو الفرق بين ما لا ينكر من النسخ في القرآن[٢٣٥] وبين ما يقوم به أصحاب الدعوات من تصحيح دعواتهم وإصلاحها؟

والثالث: كيف يمكن إثبات أن الناس لا يجدون في القرآن اختلافا كثيرا؟

(الناصر)ـ : أما السؤال الأول فجوابي عنه أننا نعرفه من أنفسنا[٢٣٦] ...، لكننا لا نملك ما يثبته لغيرنا، وأما السؤال الثاني فجوابه أن القرآن ليس كتابا لبيان حقائق ليكون (النسخ) فيه تصحيحا لشيء، بل هو تثبيت للذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين، فمثلا من الممكن أن كان قد شرع حكم تقديم الصدقة بين يدي نجوى الرسول (ص) لتنبيه المسلمين وهدايتهم إلى أهمية نجوى الرسول (ص)، ولتدريبهم على القصد والجد، وقد تحقق ذلك بمجرد تشريع الحكم المذكور، فنسخه اللّه تعالى لأن استمراره كان من الممكن أن يخرجه عن حده ليكون مجرد شعيرة مضافا إلى أن يساهم ذلك في تميز الغني عن الفقير ...

فكان تشريع الحكم المذكور تبصيرا للذين آمنوا ...، ونسخه حماية لذلك الهدف وتثبيتا للذين آمنوا وهداية لهم، وبشرى للمسلمين بأن اللّه رحيم بهم ...

ويكفي جوابا لسؤالك الأخير أمثال قول اللّه تعالى (الزمر: ٢٣): (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ)، فإنهم لو كانوا قد وجدوا فيه (اختلافا) لم يجدوا الهدى الذي ذكرته الآية الكريمة وغيرها، والذي لا يُشك في وجدانهم له، كما لا ريب في أن المؤمنين حينذاك كانوا (يتدبرون) القرآن ويستقبلونه بقلوبهم، ولو وجدوا فيه اختلافا كثيرا لم يقدروا على (تدبره) إذ (مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) وهو ما لا يخفى على المهتم بنفسه والمراقب لما يجري فيها ...

لقد أطلنا الوقوف هنا، فلنعُد إلى الأخ ـ وأشار إلى من رمزت إليه بـ(الزين) ـ

(الزين)ـ : أجد أني باستماعي القرآن ـ حسبما أشرت إليه ـ أتغير من داخلي، ويُشعرني ذلك بالرضى والاعتزاز، ويكفيني ذلك لأعلم ـ إجمالا ـ أن ما أجده من التغير إنما هو نموّ صالح، وإني طالب للإيمان، معني بأمري، وواع

لما يجري في نفسي[٢٣٧] ...

وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ ...

أهم وأحسن ما ينميه استماعي القرآن ويرسخه في قلبي هو اللّه المستجمع لجميع صفاته الكمالية، بل (اللّه رب العالمين) الذي له الأسماء الحسنى[٢٣٨]، حيث تكرر آيات القرآن الكريم[٢٣٩] تذكيري به ـ سبحانه ـ وبصفاته[٢٤٠]، فأجده عزيزا حكيما، متكبرا، متعاليا، قدوسا، ...، قريبا، سميعا، عالما، بصيرا، مجيبا لدعائي، غفورا، رحيما، توابا، شاكرا حليما ...، كما أجده شديد العقاب ...، فيكون اللّه بذلك كما قال (الحديد: ٣): (هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ...، لا بـ(الإملاء والتلقين) بل بـ(التذكير)، لعلمي بأن ذلك كامن في نفسي فيثيره القرآن وينميه بترداده، أي أن القرآن يعرّفني بربي الذي نفسي مفطورة على معرفته[٢٤١] فيطمئن قلبي[٢٤٢] وأحس بالأمن والعز والقوة، وأسمو وأكبُر على الأشياء فأجدها مسخرة لي بدلا من أن يطغى في نفسي شيء منها فيفتنني فأذِلّ له وأتبعه ...

أراني غنيا عن التنبيه إلى أن (إحساسي) بما أشرت إليه، وبأشياء أخرى، لا يكون إلا كإحساس المرء في يوم شات بدفء الشمس من وراء سحاب كثيف ...

وعلى أي حال فإني أجد أن ما حصل لي حق وهدى ...

(**الراصد**)ـ مقاطعا ـ : كيف تعلم أن ما تجده في نفسك حق وهدى؟

(**الناصر**)ـ متطوعا ـ : كما يعلم الناس أن ما يجدونه (في أنفسهم) حق ...، وقد سلف الكلام عن هذا[٢٤٣]

لا بد من الطلب[٢٤٤]

(الواصد)ـ : ذكرتَ قبل قليل: إنك (طالب للإيمان ...)، فلو لم تكن طالبا للإيمان فكيف يمكنك الإيمان بالنبي (ص)؟

(الناصر)ـ : أنا أجيبك عن هذا فأقول: سبق الكلام[٢٤٥] عن أن طلب الإنسان للإيمان فطري[٢٤٦]، ولا يؤمن من لا يطلبه كما عن أبي عبد اللّه عليه السلام (الكافي: ١٦٦/١) أنه قال: « إن اللّه عز وجل إذا أراد بعبد خيرا نكت في قلبه نكتة من نور وفتح مسامع قلبه ووكل به ملكا يسدده، وإذا أراد بعبد سوءا نكت في قلبه نكتة سوداء وسد مسامع قلبه ووكل به شيطانا يضله » ثم تلا هذه الآية: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

(الواصد)ـ : يفهم من ظاهر الرواية (الجبر)، وأما الآية الكريمة فقد استُدل بها على ذلك[٢٤٧]، فكيف يمكن الاستناد إليها؟

(الناصر)ـ : ذكرتُ الرواية للاستيناس بها، لا للاستناد إليها ...، ثم هي لا تدل على الجبر، لا لما حاولوا دفعه به فإني لا أظنه يندفع بذلك، إذ أن ما ينفيه يعارضه ما يثبته كما أكد ذلك الرازي[٢٤٨] وإن انتقده وطعن فيه صدر المتألهين[٢٤٩]، ثم حتى على فرض نجاح المحاولات لدفع الجبر وتفسير النصوص بما لا ينافي الاختيار سيبقى سؤال آخر بلا جواب، وهو: لماذا تكلم اللّه عز وجل، وكذلك المعصومون، بما يظهر منه الجبر فيحتاج إلى تأويل؟

لا جبر ولا تفويض في طبيعة الإنسان

أقول: لا تدل الرواية والآية وما شابههما من النصوص على الجبر، لا لما ذكر، بل لأن الإنسان يجد نفسَه في حاق ذاته حرا ويتصرف كذلك، فهو لذلك لن يستطيع أن يلغي حريته في التعامل مع الأمور . وبما أن اللّه عز وجل قد

وجه النصوص[٢٥٠] إلى الإنسان وهو الذي خلقه كذلك فهو يعلم أن الإنسان إذ لا يمكنه تقبل ما ينافي حريته فهو لا بد وأن يتصرف[٢٥١] في النص الموجه إليه ويفهمه حسب طبيعته ...، وفي الحقيقة إن ما يحدد معنى النص الديني هو الطبيعة البشرية، أي أن الشارع لم يقصد مما خاطب به الإنسان إلا ما يناسب طبيعته التي خلقها اللّه تعالى، واللّه يحب ما خلقه فلا يبطله ...، فطبيعة الإنسان منظورة له تعالى فيما أراده مما أنزله إليه ليذكره بما في نفسه[٢٥٢]

لذلك نجد أن المسلمين المشافَهين بالقرآن لم يواجهوا مشكلة بصدد الآيات التي ادعي بعدئذ كونها نصا في الجبر لأنهم كانوا يتلقون القرآن بطبيعتهم وقلوبهم لا بأذهانهم وحدها، وكان يؤهلهم لاعتماد طبيعتهم ولاية النبي صلى اللّه عليه وآله التي أحيت نفوسهم وأقامت وجوههم ...، وأما الذين كفروا بطبيعتهم وستروها وأهملوا قلوبهم وخسروا أنفسهم فهم لا فقط لم يكونوا يؤمنون بل كانوا يَعجبون من إيمان المؤمنين فيرونهم سفهاء أو مسحورين[٢٥٣]

أعود فأقول: إن معنى نص إذا عامله إنسان بطبيعته يختلف عما إذا عامله بذهنه فقط، فالذهن يثبّت ما يرِدُه ويحلّله كما هو[٢٥٤]، والقلب يتصرف فيما يتلقاه ويعدله ...، وكان المسلمون في ظل النبي (ص) يستقبلون النصوص بقلوبهم فلم يكونوا يجدون فيها ـ أي في النصوص ـ ما وجده الناس بعدئذ[٢٥٥]حيث فقدوا الولاية فخسروا أنفسهم فانفلتت أذهانهم وغزتها أسئلة افتراضية غير ما طلبته نفوسهم ...

وكما أن المسلمين إذ كانوا (أميين) لم يكونوا يجدون جبرا في النصوص التي فُهم ذلك منها فيما بعد، كذلك ـ وبنفس الملاك ـ لم يكونوا يجدون تفويضا فيما فُهم منه ذلك فيما بعد، بل وإن الطبيعة الإنسانية لم تزل تتعامل مع هذه المسألة كما كانت رغما عما قيل ويقال في صددها، ولا يشذ عن ذلك أحد[٢٥٦] حتى العرفاء المعتمدين (للعين الثابتة)[٢٥٧]، ولولا هذه الخاصية المتأصلة في نفس الإنسان لم

يمكن حل معضلة الجبر للأغلبية الساحقة من الناس[٢٥٨] بل لجميعهم ...، فمثلا عن أبي عبد اللّه عليه السلام (الكافي: ١/١٥٤) أنه قال: « قال اللّه عز وجل: أنا اللّه لا إله إلا أنا، خالق الخير والشر، فطوبى لمن أجريت على يديه الخير، وويل لمن أجريت على يديه الشر، وويل لمن يقول: كيف ذا؟ وكيف هذا؟ »، فلولا ما أشرنا إليه من أن للطبيعة البشرية طريقة خاصة في التعامل مع النصوص ... لم يمكن التوفيق **(ذهنيا)** بينه وبين القول بـ(الاختيار)[٢٥٩] ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ: وفي الرواية توجد مشكلة عويصة أخرى وهي أنها عدت التساؤل جريمة تستوجب الويل، فكيف للمرء الهروب من التساؤل؟!

(المراقب)ـ: ما يستوجب (الويل) ليس مجرد التساؤل عما ذكر، بل إنكاره كما نقل ذلك الكافي عن (يونس) الذي وقع في أحد أسناد الرواية، قال: « قال يونس: يعني من ينكر هذا الأمر بتفقه فيه »، فالرواية تشبه إذن ما عن أبي عبد اللّه (ع) أنه قال (الكافي: ٢/٣٩٨): « لو أن قوما عبدوا اللّه وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه اللّه أو صنعه النبي صلى اللّه عليه وآله: ألا صنع خلاف الذي صنع؟ أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) »

التساؤل وما يؤول إليه

(الناصر)ـ: لا دليل من ظاهر الرواية على أن المقصود به الإنكار، وقرأ بعض المفكرين كلمة (بتفقه) الواردة في كلام يونس بـ(ياء) أي بصيغة الفعل المضارع فقال: « فأراد به أن من كان في نفسه إنكار هذا الأمر، أي مذهب أهل الحق، يجب عليه أن يتفقه فيه حتى يعلم أنه الحق وإلا لاستحق الويل والعذاب الدائم » ثم

قال: « وهذا وإن كان صحيحا في نفسه لكن الذي ذكرناه أشمل وأفيد ... »[٢٦٠]

فالمقصود ـ كما يبدو لي ـ أن التساؤل المذكور إنما يؤدي إلى الويل والهلاك لا لخاصية فيه، بل لما يؤول إليه هذا النمط من الأسئلة، ولمشكلة في وضع السائل الذي يتجه ذهنه إلى أسئلة كهذه ...

(الراصد) ـ مقاطعا ـ : هل أنت مطلع على ما قاله صدر المتألهين ـ مثلا ـ في هذا الصدد، فهل تقصد بالمشكلة ما أشار إليه[٢٦١]؟

(الناصر) ـ : أجل، إني مطلع على ما أشار إليه، ولكني لا أقصد ذلك، فإني لا أجدني قادرا على أن أقسم رحمة اللّه وأن أخصها بأناس وأحرم منها آخرين ...، بل أقصد ما قال اللّه عز وجل (الأنبياء: ٢٢-٢٣): (فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) على أن يكون قوله تعالى: (لا يُسْأَلُ ...) ـ وكذلك ما قبله ـ إخبارا عن حقيقة مودعة في فطرة الإنسان[٢٦٢]، لا إنشاءا[٢٦٣]، أو وصفا له سبحانه كما هو في نفسه[٢٦٤]

فمن يأتي بباله السؤال عما يرجع إلى اللّه تعالى إنما هو أحد رجلين: رجل لا يؤمن به سبحانه فليس في قلبه له تعالى من الوقار والجلال والكبرياء ... ما يمنعه ويوقفه عن تناوله بذهنه ووصفه ...، ورجل ضعيف لا ثقة له بما في نفسه فيلجأ إلى ذهنه ويحلل ما لا ينبغي تحليله ...

والظاهر أن من وُعد بالويل هو الرجل الأول لكفره بما هو مغروز في النفس من (سبوحية اللّه وتعاليه)[٢٦٥] ...

(الراصد) ـ مقاطعا ـ : ولكن (في الكافي: ١٠٨/٨) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « ثلاثة لم ينج منها نبي فمن دونه: التفكر في الوسوسة في الخلق ... »، وكما في الكافي (٤٢٤/٢) عن محمد بن حمران أنه قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن الوسوسة وإن كثرت؟ فقال: « لا شيء فيها، تقول: لا إله إلا اللّه »[٢٦٦]

(الناصر)ـ : الوسوسة ليست سؤالا ...[٢٦٧]

(الواصد)ـ : هب أن النصوص التي ظاهرها الجبر لا توجب ذلك في الإنسان بلحاظ طبيعته، فلا تثير إشكالا، ولكن السؤال هو: لِمَ قيلت يا ترى؟!

(الناصر)ـ : ذلك لحاجة الإنسان إلى أن يذكَّر بما هو مغروز في فطرته من أن اللّه هو القاهر فوقه[٢٦٨]، وأنه ـ سبحانه ـ معه أينما كان[٢٦٩]، وأقرب إليه من حبل الوريد[٢٧٠]، ويحول بينه وقلبه[٢٧١] إلخ ...، فإنه لو لم يذكر اللّه (تعالى) كذلك لم يطمئن قلبه إن كان على طبيعته[٢٧٢]، وهذا مجرب لا ريب فيه[٢٧٣]، فمثلا قول اللّه تبارك وتعالى (الإنسان: ٣٠): (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)، بدلا من أن يثير في نفس المؤمن مشكلة ...، إنما يذكّره بربه الرحيم وبعنايته سبحانه وتعالى، الأمر الذي لولا إحساسه (إجمالا) بحقيقته في نفسه لم يشعر بالقوة المطلوبة لأن يشاء شيئا، كما أن الطفل ـ مثلا ـ لا يقدر على أن يشاء إلا أن يحس بوجود أمه في مشيئته، بل وفي كل ما يجري في داخل نفسه، فلذلك إن صراخها عليه، إن أخطأ، وتهديدها له وإن كان يخيفه، لكنه في نفس الوقت يشعره أيضا بما هو محتاج إليه من أنها ترعاه رحمة به، فخوفه إياها لا فقط لن يبعده عنها بل يجعله أشد التصاقا بها، ولكن مع شيء من الرهبة والإجلال ...

أجل، إن طبيعة الإنسان لأن تؤمن وتهتدي لا تستغني عن النصوص التي احتار الذهنيون الجدليون بشأنها، فافترضوا فيها مشكلة تحتاج إلى حل، فتبرعوا بما يؤدي إلى إسقاط النص وإفراغه عن مضمونه وتحريفه عن موضعه ...

ولْنَعُد إلى الأخ ـ وأشار إلى (الزين) ـ

شوق ومعرفة

(الزين)ـ : ما أجده بسماعي القرآن كاف ليلفت نظري إلى عهد النبي صلى اللّه عليه وآله ويجعلني أشتاق إليه[٢٧٤]، وأن يؤهلني لمعايشته وتخيل نفسي موجودا

آنـذاك[٢٧٥]، ويسـاعدني علـى ذلـك مـا لـي مـن معلومـات متفرقـة عـن سيرته (ص) وسيرة المؤمنيـن مـن حولـه، فأجدنـي راغبـا فـي الاسـتزادة منهـا، وفي تجذيرهـا وربط بعضهـا ببعـض لتكويـن صـورة موحـدة ... فـأزداد معرفـة وإيمانا[٢٧٦]

ولايـة مجربــة

وأهـم مـا أجـده بالانتمـاء إلـى ذلـك العهـد هـو الإحسـاس بالعـز والقـوة، الأمـر الـذي لـولاه لـن أقـدر علـى شـيء..، ولا أحتـاج إلى بـذل جهد كبير لأعلم أن سـبب إحساسـي بالعـز والقـوة هـو وجداني لولاية النبي بامتدادها المتمثـل في ولاية المؤمنين الذين أجدهم حاضرين في قلبي مهتمين بشـأني وقائمين بأمري ...، ومما يسـاعدني أن أكـون كذلـك، وأن أعيـه، هـو مـا أجربـه مـن انتمـاء إلـى أنـاس يشـيرون بإيمانهـم وعلمهـم ـ وإن مـن بعيـد ـ إلـى المؤمنـين الذيـن كان اللّه قـد رضـي عنهـم ورضـوا عنه بـأن كان النبي (ص) فيهـم يتلـو عليهـم آياته ويزكيهم ويعـلمهم الكتـاب والحكمة ... فأجـدني فـي وضـع لا أكاد أقـدر علـى وصفه ...

المحجة قد تنكرت

(**الراصد**)ـ : مـاذا تفعـل الآن وقـد غُيـر مـا جـاء بـه النبـي (ص)[٢٧٧]، فـكاد أن لا يجـد المـرء فيمـا نقـل عنـه ـ بـل وفـي القـرآن وإن لم تحـرَّف ألفاظـه ـ حقا واضحا يُعـرف ويؤمَـن بـه، ويعمـل، فمـا هو الفرق بيـن نبوته (ص) وبين نبوة عيسـى (ع) التي أنهاهـا اللّـه تعالـى ببعثـه محمـدا صلى اللّـه عليه وآله بعدما لم يعد يجد الإنسـان فيها الهـدى المطلوب؟

ومعـروف أن رسـول اللّـه صلـى اللّـه عليـه وآلـه كان بنفسـه يحـذر المسـلمين من ذلـك فيقـول ـ مثـلا ـ : « لتتبعـن سـنن مـن قبلكـم شـبرا بشـبر وذراعـا بـذراع حتـى لو دخلـوا جحـر ضـب لتبعتموهـم »، فلمـا سـئل: هـل يقصـد اليهـود والنصـارى؟ قـال: «فمـن؟»[٢٧٨]

(الناصر)ـ : أنا أجيبك عن هذا فأقول: بغض النظر عما هو معروف من أن نبوة النبي صلى اللّه عليه وآله أتم وأكمل النبوات ... فإنها ـ أي نبوته (ص) ـ تضمنت ما جعل الإيمان بها ميسورا دائما، وهو (الولاية) المتمثلة في عترته (ص) ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : في بعض الأخبار أنه كان للأنبياء السابقين أوصياء(٢٧٩)

أوصياء لا ولاة

(الناصر)ـ : يبدو أن أولئك الأوصياء كانوا مبلغين ومؤدين عن الأنبياء، ولم تكن لهم الولاية الخاصة التي جعلها اللّه لأوصياء نبينا (ص)(٢٨٠)، وذلك لسببين مترابطين: الأول أن عيسى عليه السلام بعث إلى بني إسرائيل ليحررهم مما كان قد فرضه عليهم أحبارهم بتحريفهم التوراة أو مما كان قد أمرهم به أنبياؤهم لأسباب خاصة(٢٨١)، فالإنجيل وإن كان فيه هدى(٢٨٢) لكن لا لعامة الناس، بل لبني إسرائيل ...، لذلك لا يجد فيه غيرهم إلا (مواعظ) وشيئا مما يجب أن يُعتقد أو يُعمل ...

والثاني أن عيسى (ع) وإن كان اللّه قد وصّاه بأن يقيم الدين(٢٨٣)، إلا أن حقيقة ما كان قد جاء به لم تتجسد في الواقع كسنة واضحة بولاية قائمة يرثها ويمارسها أوصياؤه، أو أن يشيروا إليها، ذلك لما أشرت إليه من أن قسما مما قام به إنما كان لعلاج مشاكل اليهود ...، وتمييزُ ما كان من شريعة عيسى (ع) ناظرا إليهم وإلى مشاكلهم عما كان أساسا لإقامة الدين مطلقا وإن كان ممكنا ولكن (نظريا) وللراسخين في العلم فقط، وهم الذين كانوا ينتظرون تحققه فلما سمعوا ما بعث به النبي صلى اللّه عليه وآله علموا أنه نفس الحق الذي كان في زبر الأولين(٢٨٤) ووجدوه تصديقا للتوراة والإنجيل فيما تضمناه من دين الحق الذي كانوا يميزونه بعلمهم فآمنوا به(٢٨٥)

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : القرآن الكريم كذلك تصدى لأهل الكتاب، وخاصة اليهود

وبيّن كثيرا من انحرافاتهم ...، أليس كذلك؟

(الناصر)ـ : أجل، ولكن النبي (ص) قد أرسل إلى الناس كافة ...، وما ذكره القرآن الكريم بشأن أهل الكتاب ـ ولا سيما اليهود ـ إنما هو في الأساس لدفعهم عن طريق المؤمنين(٢٨٦)، ولبيان الهدى مقارنة بممارساتهم الضالة، لا طمعا حقيقيا في هدايتهم(٢٨٧) ...

إقامة التوراة والإنجيل

(أنا)ـ : ولكن القرآن أشار إلى إمكان إقامة التوراة والإنجيل، قال اللّه تعالى (المائدة: ٦٦-٦٨): (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ...

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

(الناصر)ـ : من الجائز أن يقال: إنه حتى لو فرض أن الكتابين ظَلاّ ـ بقدرة قادر ـ سليمين بألفاظهما فإن من الطبيعي أن تتأثر معانيهما بما كان يفهم منهما، وأن يروج في المتدينين بهما ما كان يفهمه منهما أناس معينون، وأن يرتبط الكتابان ـ بالتدريج ـ بفهوم هؤلاء وآرائهم ...

وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا

وبما أن الذي كان قابلا لأن يقام إنما هو التوراة والإنجيل و...، لا الذي كان مع اليهود والنصارى وقت نزول القرآن ...، فإقامة التوراة والإنجيل و... كانت ـ قبل كل شيء ـ بحاجة إلى ما يخلصها ويحررها مما اكتنفها وأقحم فيها من تصورات وفهوم وآراء ...، وكان ذلك هو القرآن الذي من رسالته الأساس تصديق

الـذي بيـن يديه ...

(المراقب)ـ : مـن الـممكن أن يكـون المقصود بالتصـديق التصـديق العملي، أي الإقامـة، فإن هـذا هو مـا يفهم مـن التصديـق إن عُـدّي بنفسـه أو باللام كمـا في قول اللّه عز وجـل (الصافات: ١٠٤- ١٠٥): (وَنَادَيْنَـاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيـمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَـا إِنَّـا كَذَلِـكَ نَجْـزِي الْمُحْسِنِينَ)، وغيـره[٢٨٨]، كمـا أن كـون تصديـق القـرآن للكتب السـابقة بهـذا المعنى، أي بمعنى كونه حقيقـة تلك الكتب ومصداقهـا، لا فقط يجعـل الآية ٤١ من (البقـرة) وما شابههـا واضحة، بل تتحـرر بذلك كثير من آيات القرآن مما فرض عليهـا فتكـون آيات بيّنـات هاديات بدل أن تكون عقبات في الطريق لا يمكـن اجتيازهـا إلا بكثير مـن الحيلة والعنـاء[٢٨٩] ...

(الناصر)ـ : ذلـك جائـز، بـل متعيـن، إن نسـب (التصديق) إلـى النبي (ص) كما فـي قـول اللّـه عـز وجـل (الصافات: ٣٧): (بَـل جَـاءَ بِالْحَقِّ وَصَـدَّقَ الْمُرْسَـلِين)، لا إلى القـرآن، كمـا لا يخفى

(المراقب)ـ : ولكـن القـرآن لـن ينفصـل عـن النبي صلى اللّه عليـه وآله، ولا قرآن مـن دونـه أو مـن عيّنـه اللّه ليبلغ عنـه ويقوم مقامه

(الناصر)ـ : لتصـديق الكتابيـن مرتبتـان: الأولى تصـديقهما عقليـا[٢٩٠]، وهـو مـا حصل بالقرآن وإن كان بتلاوة النبي صلى اللّه عليه وآله أو من يقوم مقامه[٢٩١]، فمن كان مـن أهـل الكتـاب واستمع للقـرآن لوجد أنـه يصدقهمـا ...، والثـانية: تصديقهما واقعيا، أي تحقيقهما عمليا وإقامتهما، وهو ما قد حصل بولاية النبي (ص)[٢٩٢] التي أقامت القرآن[٢٩٣]، ومـا سيتحقق وقت (القيام) بصورة أدق وأجلى وأشمل ...، وهذا التصديق هو الذي جعل التصديق العقلي إيمانا في قلب من شاء أن يؤمن، كما وإنه لـولا التصديق العقلي لـم ينتج التصديق العملي البصيرة المطلوبة، فكان لا بد من كلا التصديقيـن، لا فقـط بخصـوص الكتابيـن بـل في بلا غ الدين مطلقا[٢٩٤] ...

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُم

(الراصد)ـ : ماذا يفهم من التركيز الشديد للقرآن الكريم على كونه تصديقا لما بين يديه[٢٩٥]؟

(الناصر)ـ : لئلا تطول المسألة وتتشعب أصادر هنا القول بأن هوية القرآن وشأن نزوله هو أنه (مصدق) مطلقا[٢٩٦] أي أنه يجعل الأشياء كلها صادقة[٢٩٧] ...، وأولى ما كان عليه جعلُه صادقا هو ما لدى من يؤمنون باللّه وباليوم الآخر وبكتاب نازل من عند اللّه ...

فأقول: هنا مسألتان، الأولى ما أشير إليه من تأثر النبوات السابقة بظروف خاصة تمنعها عن أن تكون صادقة حقا في هداية جميع الناس، فبنو إسرائيل كانوا الأنسب لأن يبعث اللّه منهم وفيهم نبيا ويُظهر بهم دينه، ففضلهم اللّه على العالمين واختارهم لتحمل أمره، فبعث إليهم موسى (ع) وآتاه الكتاب والفرقان لعلهم يهتدون[٢٩٨]، وأراد أن يورثهم الأرض ويستخلفهم فيها[٢٩٩]

ومن الطبيعي أن يوجب اضطهاد فرعون الشديد لـ(بني إسرائيل)[٣٠٠] حقارة وخنوعا في نفوسهم ...، فيخصهم اللّه تعالى برعاية خاصة لاستنهاض هممهم وإحياء نفوسهم، فيفعل ما فعل ويُنزل إليهم ما أنزل مما اعتبره كثير منهم، لا علاجا لما كانوا بحاجة إليه لأجل القيام بأمر، بل ميزة لهم لكونهم بني إسرائيل فحسب، فكانوا يرون من حقهم عليه تعالى أن يهيئ لهم ما يشتهونه بلا أن يكلفهم، فمثلا ليذهب موسى وربه فيقاتلا ويهيئا الأرض لهم[٣٠١]

كان أنبياء بني إسرائيل، وخاصة موسى (ع)، يتصدون لضلال توقعاتهم، ففي حضور الأنبياء كان ذلك التوقع يظل أحاسيس وأماني ومواقف عملية مبتورة ...، وأما بعدهم فكان من الطبيعي أن يُتبنى ذلك ويُتعهد ويؤسس عليه

كذلك أصبح بنو إسرائيل أولياء اللّه وأبناءه[٣٠٢]، بل وأُدخل في التوراة أن اللّه

ـ تعالى ـ اعتبر أباهم ابنه البكر[٣٠٣] ...، وكان من الطبيعي أن تترتب على ذلك آثار كالذي نقله عنهم القرآن (آل عمران: ٧٥): (... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وأن لا يمنعهم عن ذلك شيء وإن كان قد نص عليه التوراة[٣٠٤] مثلا

أجل، إن اللّه عز وجل كان قد فضّل بني إسرائيل على العالمين وأنعم عليهم ليعبدوه، وأورثهم الأرض ومكّنهم فيها ليقيموا فيها دين اللّه[٣٠٥]، ولكنهم ـ حيث افتقدوا (الولاية)، أو كفروا بها وأهملوها بمعصيتهم لأنبيائهم ـ بدأوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويكفرون بنعم اللّه[٣٠٦]، ويعدّونها (كرامة لهم) خاصة، فإن ذلك هو شأن الإنسان[٣٠٧] إلا من هداه اللّه ...

تلك كانت إشارة مقتضبة جدا إلى تأثير خصائص بني إسرائيل وظروفهم على التوراة وشريعة موسى عليه السلام، وليس خافيا على الملم بالأمور ما عاناه أنبياء بني إسرائيل[٣٠٨]، بل وموسى (ع)[٣٠٩] لردع بني إسرائيل عن الانحراف، وإصلاح ما كانوا يقومون به من تحريف الدين، وتحجيم من كان يبتغي الحياة الدنيا كـ(قارون) وإبراز أبناء هارون[٣١٠] ...

إن الذين كانوا يؤمنون حقا بالتوراة كانوا يجدونها صادقة بعلمهم إجمالا بمواضع الكلم فيها، وباعتمادهم (ولاية) موسى عليه السلام، وببشارتها بما يصدقها بأن يكون مهيمنا عليها فيقوم بتحريرها من أمور طارئة من جهة وبالحفاظ على محكماتها التي بها كانت نورا وهدى من جهة أخرى، وإعادة الكلم إلى مواضعه التي حُرّفت عنه

لولا أهم ما حُرف الكلم عن مواضعه فمن أهمه ما أشرت إليه من أن التوراة التي كان اللّه عز وجل أنزلها لإخراج بني إسرائيل من الظلمات إلى النور ليكونوا مثالا للهدى[٣١١]، جعلت ميزة لهم ومحققة لمصالحهم

أنزل اللّه تعالى القرآن ليصدق التوراة برفعها إلى مكانتها كتابا سواءا بين اليهود وبين غيرهم، وإنزال بني إسرائيل من موقعهم الكاذب كأبناء اللّه وأحبائه إلى موقعهم الحقيقي الذي هم فيه كسائر الناس[٣١٢]، بل (مَثَلُهُمْ) حيث حُمِّلُوا (التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)، كما قال اللّه تعالى (الجمعة: ٥)... فكذلك نجد أن القرآن الكريم يذكر التوراة ويصفها بما تتوقعه النفوس من كتاب نازل من اللّه (رب العالمين)، لا من رب خاص ببني إسرائيل، بل ومن (خادم) لهم، تعالى اللّه عن ذلك ـ في النفوس ـ علوا كبيرا. ومن جهة أخرى يبين مساوئ بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم مركزا على ذلك ...

... وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم[٣١٣]

والمسألة الثانية هي أنه لا يخفى على من له إلمام بالنفوس وخصائصها وميولها الفطرية ما أشرت إليه قبل قليل من أن مجيء مصدق للتوراة مما كان يأمله ويترقبه وينتظره المؤمنون بها، وهو ما كانت تؤكده (البشارة)

فما كان يبشر به موسى (ع) ـ وكذلك عيسى والأنبياء (عليهم السلام) ـ المؤمنين إنما هو الذي كانوا يأملونه وينتظرونه، فلذلك كان الإخبار بمجيء مصدِّق سمي (بشارة)، أي بشارة لهم، لا مجرد إخبارهم بمجيء نبي، فما كانت تحتاجه نفوسهم وتترقبه ولا تطمئن إلا به هو مجيء مصدِّق لما لديهم، وهو ما وعدهم اللّه به، وزادهم طمأنينة بأن شخّص (المصدق) وأن اسمه أحمد (صلى اللّه عليه وآله)

هذا مضافا إلى ما أراه واضحا من أنه لولا تشخيص المصدِّق وتحديده لضلوا، ذلك لما لا يخفى من أنهم كانوا يحبون المصدّق ويترقبونه فكانوا يسرعون إلى من تصوروه محققا لما كانوا يأملونه وينتظرونه[٣١٤]

ومهما يكن من أمر فما كان قد بُشر به المؤمنون بالتوراة ـ وكذلك الإنجيل ـ هو النبي صلى اللّه عليه وآله لكونه المصداق للمصدق الذي كانت ترغب فيه نفوسهم

وتترقب مجيئه

توضيح وتأكيد

ولمزيد توضيح لهذه المسألة المهمة المغفولة وتأكيدها أقول:

لا أظن يخفى على من له الاهتمام بهذا النوع من المسائل والمام بطبيعة النفوس أن من استمع قول نبي من الأنبياء، فحتى لو بدا له صالحا بظاهره، فإنه لا يكاد يؤمن به إلا إذا توقع أن يكون ذلك مما يؤمن به أناس غيره وإن كانوا قليلين[٣١٥]، وأن يستمر الإيمان به، ويرى أن ذلك مما لا بد منه فيما يدعو إليه النبي، ويجده متعهدا به وإن لم يصرح بذلك[٣١٦]

فانتظار انتصار الأنبياء والمؤمنين أساس في دعوة الأنبياء، فمثلا في القرآن الكريم (غافر: ٥١): (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ)، و(البقرة: ٢١٤): (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) ...

أجل، ما أعرفه من ملاحظة نفسي ونفوس أخرى أن ما لا بد منه في الإيمان بنبي ونصرته ـ بل وفي الاستجابة لأي دعوة ـ أن يُتوقع ويُنتظر انتصار دعوته وتحققها ولو في المستقبل البعيد ...

وبعبارة أخرى إن توقع المرء وانتظاره لتحقق دعوة النبي وقيامها كاف لأن يؤمن به، إن وجد في نبوته تلبية لتطلعات نفسه الفطرية المؤمنة بالله ...، وأما أن تتحقق دعوة النبي في حياته أو في حياة المؤمن به فهو ليس مما يتوقف عليه إيمان المؤمن به

لذلك كان كافيا لقوم عابدين (من بني إسرائيل) وعد الله تعالى إذ قال

(الأنبياء: ١٠٥-١٠٦): (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ)[٣١٧]، وقد فسر (البلاغ) بالكفاية وما تبلغ به البغية

ليس مجرد إخبار بل بُشرى

فالنبي والمؤمنون به وإن كانوا يعتقدون تحقق الدين وظهورهم وانتصارهم في حياته[٣١٨]، ولكن لا بصورة مطلقة، وإنما بدرجة تكفي للإيمان بدعوته، إذا كانوا يتوقعون تحققه الكامل في المستقبل، وإن كان بعيدا . هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان النبي وعقلاء المؤمنين به يعلمون أن بموته سوف يفقد دينه قوامه، علما منهم بأن أهم ما يجعل الدين قائما هو (ولاية) النبي [٣١٩]، فهم كانوا محتاجين إلى أن يخبرهم اللّه عز وجل بمجيء من يحقق دعوتهم ويصدقها[٣٢٠] فيستبشرون به وينتظرونه ويستندون إليه في إيمانهم بما لديهم من دين، وأيضا في الاحتجاج على الكفار بدعوة النبي كما كان يفعله اليهود حسبما يبدو من قول اللّه تعالى (البقرة: ٨٩): (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)، فلولا ذلك لم ير الناس (كتبهم) إلا (قراطيس)[٣٢١] متضمنة لأماني[٣٢٢]

فالقرآن كان تصديقا لما كانوا يتوقعونه فآتاهم اللّه سؤلهم الفطري فبشرهم به، لا مجرد تصديق لما أخبروا به من قدوم نبي بمواصفات شخصية معينة، لا فقط لأن ذلك لم يكن يُعَد بشارة بل لأنه لولا تعلق نفوسهم بما يأتي به وحبهم لمجيئه لم يبالوا به ولم ينتظروه[٣٢٣]، ولو عرفوه لم يؤمنوا به كما قال اللّه تعالى (الأنعام: ٢٠): (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) ...

ويبدو لي أن لهذا الذي أشرت إليه لم يركز القرآن على وصف النبي صلى اللّه

عليه وآله بالمصدقية مثلما ركز على وصف القرآن بذلك[٣٢٤] ...

(الواصد)ـ مقاطعا ـ : قلتَ: إن الإخبار بقدوم نبي بمواصفات شخصية معينة لا يُعَد بشارة فماذا عما حكاه القرآن الكريم عن عيسى (ع) حيث قال (الصف: ٦): (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)؟

(الناصر)ـ : يبدو لي من قول اللّه تعالى: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ ...) أن بني إسرائيل لا فقط كانوا ينتظرون من يصدّق لما معهم فعلا، بل، وانطلاقا من حاق نفوسهم، كانوا يأملون أن يستمر تصديقه ويزداد عمقا وشمولا بمجيء رسول مستقبَلا، فذلك ما بشرهم به عيسى (ع)، وإلا فإني لا أجد سببا لإخبارهم بمجيء النبي (ص) فكيف باعتباره ذلك بشرى لهم، إذ لا يكون الإخبار عن أمر بُشرى إلا لمن يحبه وينتظره، ولم يكن شخص النبي (ص) يهم بني إسرائيل، فلم يكونوا يتفاعلون مع من يخبر عن مجيئه ولم يكن يؤثر ذلك في إيمانهم، والذي كانوا يحتاجونه ويؤمنون به هو مجيء من يحقق آمالهم ويصدّق لما معهم ...، فكان الإخبار عنه بشرى لهم ولافتا لأنظارهم وفاتحا لقلوبهم على المخبر، خاصة إذا عيّن ذلك المصدّق فإنه إذَن كان أوفق لفطرة النفوس وأدعى إلى الإيمان[٣٢٥]، فالأساس في (البشرى) ليس هو شخص النبي (ص) لنركز على اسمه الذي ذكر في الكتب أو على لسان عيسى عليه السلام[٣٢٦] مثلا ونقوم بمناقشته ...

تصديق القرآن للذي بين يديه

على ضوء قول اللّه تبارك وتعالى (يونس: ٣٧): (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) يمكن القول: إن الهدف من نزول القرآن العزيز أمران مترابطان هما تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب ...، وأنه بذلك لا يمكن أن يفترى من

دون اللّه، توضيح ذلك:

التعبير عما صدقه القرآن بـ(الذي بين يديه) و(ما معهم) و... يُشعر بأن المقصود به ليس خصوص التوراة والإنجيل أو الكتب السابقة[٣٢٧]، بل كل الذي كان مع أهل الكتاب وبين يدي القرآن من الكتب الإلهية وما كان يكتنفها من تفاسير وشروح قام بها أناس لشرح ما جاء فيها وتبريره وإزالة ما كانت تواجه من مشاكل ...، ذلك لجعلها ـ بزعمهم ـ صالحة للقبول، وأظن هذا واضحا ...

وبناءا على ما هو مجرب وملاحظ لا يخفى أيضا أن محاولات مفسري تلك الكتب وشراحها لا فقط لم تكن تنجح، بل وكانت تزيد الطين بلة والإعضال إعضالا

فما فعله القرآن الكريم هو جعل تلك المحاولات صادقة بتحقيق مبتغى الذين كانوا يقومون بها، وبهداية النفوس التي كانت تعاني[٣٢٨]، وتدرك بفطرتها أن هنالك مشكلة، فلا هم قادرون على التخلي عما عندهم[٣٢٩] ...، ولا هم يجدون ما يصلحه ويجعله (صادقا) مقبولا

فكذلك نزل القرآن ليصدق ما كان بين يديه مما مع أهل الكتاب بتنظيمه وترتيبه فيعرف الصادق منه من الكاذب، وتيسيره لأجل العمل ...

(الراصد)ـ : وماذا عن غير أهل الكتاب؟

(الناصر)ـ : ما قد نزل القرآن لتصديقه إنما هو الرغبات الفطرية للمؤمنين بالأنبياء المتمثلة في محاولاتهم المدونة في كتبهم أو المتداولة بينهم، لا لتصديق رغبات من لا يؤمن باللّه واليوم الآخر والنبيين ...

وعلى أي حال فما كنت بصدده هو أن من كان مؤمنا بنبي وكتاب بحق فلابد وأنه كان يبحث عما يصلح الدين الذي معه ويصدقه، فوجد القرآن محققا

لما كان ينتظره ومفصلا للكتاب الذي تعرفه نفسه بفطرتها وتؤمن به ولا تجد فيه ريبا[٣٣٠] ...، فأيقن أنه نازل من عند اللّه الذي كان قد أنزل التوراة والإنجيل، وعلم أنه لو كان من عند غيره لكان كتابا مختلفا لا تعرفه نفسه ...، فلا يمكن إذَن أن يكون القرآن مما يفترى من دون اللّه

(الراصد)ـ : ما هو الذي يثبت هذا؟

(الناصر)ـ : ما أراه هو أن من كان ملما بالنفوس وبأنها إنما تعمل بالاستيقان والإيقان[٣٣١] والوجدان، لا بالاستدلال والإثبات[٣٣٢]، فإنه يجد هذا ويؤمن به، وإلا فلا ينفعه شيء ...

(الراصد)ـ : لا بأس، ولكن لو قيل: إن أهل الكتاب لم يجدوا القرآن تصديقا لما عندهم وإلا لآمنوا به، فما هو الرد على هذا؟

(الناصر)ـ : يكفي ردا عليه ما ذكره القرآن من أن بعض أهل الكتاب وجدوه حقا فآمنوا به[٣٣٣]، ولم يكن متوقعا أن يؤمن به إلا قليل منهم قبل أن يصبح المسلمون أمة حاكمة فيكون الانتماء إليها أسهل من الاستمرار على الانتماء إلى جماعة دينية مختلفة، فيبدأون بالدخول في الإسلام أفواجا ...، ذلك لأن أكثرهم كانوا أميين متكلين على أحبارهم[٣٣٤] الذين كانوا كما قال اللّه عز وجل (التوبة: ٣٤): (لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) ...

وعودا إلى ما كنت بصدده أقول: ما صدقه القرآن الكريم ليس خصوص التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب النازلة من عند اللّه، ولا البشارات بالنبي صلى اللّه عليه وآله[٣٣٥] ليستشكل عليه بأن القرآن يكون، إذَنْ، مصدَّقا (بفتح الدال) لا مصدِّقا (بكسر الدال)، والذي من البعيد أن يندفع بأن يقال ـ مثلا ـ : إن الإيمان بالقرآن يجعل تصديق الكتابيين بالتوراة والإنجيل آكد، أو أن إيمانهم بالقرآن يكون تصديقا لهما[٣٣٦]، ولا بما قيل بأن المراد بالتصديق هو التحقيق العملي[٣٣٧] ...،

فإنـه وإن كان رأيـا بديعـا إلا أنـه يـرد عليه أن (البشـارات) لم تكـن كل ما كان مع أهل الكتـاب فـلا داعي لتقييـده بها ...

بـل إن مـا قـد صدّقـه القـرآن الكريم هو كل ما كان مع أهل الكتاب، لا كمسـائل متفرقـة، بـل كأمـور متعـاونة متعاضـدة لجعـل العبـادة للّـه لا شـريك لـه وعـدم اتخـاذ أربـاب من دونـه تعالى

هـذا، ويظهـر مـن الآيـات التي ذكـر فيهـا تصديـق القـرآن لمـا بيـن يديـه أنهـا استـهدفت ـ في المرتبـة الأولـى ـ علمـاء أهـل الكتـاب[٣٣٨] فإنهم كانـوا الأكثر تأهلا لأن يدركـوا أن مـا عندهـم باسـم الديـن لا تقبلـه النفـوس الفطريـة ...، وأنـه بحاجـة إلـى مـا يصدقـه ويجعـله صادقـا قابـلا لتقبـل النفـوس ...، ولكـن قسـما منهـم لـم يقفـوا عنـد ذلـك ولـم يبالـوا بالنفـوس ومـا لهـا مـن ميـول فطريـة، وكفـروا بنزوعهـا إلـى (التعقـل) ...، فتعصبـوا لـما لديهـم[٣٣٩] وغالـوا فيه، فروّجـوا ـ مثـلا ـ مـا حكـاه القرآن الكريـم عنهـم بقولـه (البقرة: ١١١-١١٣): (وَقَالُـوا لَـن يَدْخُـلَ الْجَنَّةَ إِلا مَـن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ... وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَـتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَـتِ الْيَهُودُ عَلَـى شَيْءٍ..)، ومـن الطبيعـي أن يكـون لهـذا القسـم السيـادة والظهور فـي نظر عوام أهـل الكتـاب، فلـو فـرض وجـود عالـم بالكتابيـن وبمواضـع الكلـم فيهما، وقـادر على (تفصيلهما) بتمييز محكماتهمـا عن متشابهاتهما، ومنسوخهما عن ناسخهما، وأراد أن يبينهمـا، قبـل أن يحـاول إقامتهمـا، فإنـه كان يجابَـه بإنـكار عـام عـارم ...

ومـن الطبيعـي أن نتوقـع وجـود طائفـة أخرى لـم يتعصبوا لـما كان لديهم، فأخذوا يسعون أن ينقّـوا كتبهـم ممـا كان قـد أدخـل فيها من بـدع ...، وأن يميـزوا بين ثوابتها وبيـن مـا فيهـا مـن أمـور متأثـرة بظـروف متغيـرة ...، ومـن الطبيعـي أنهـم لـم يكونـوا ينجحـون فـي ذلـك تمامـا، كمـا وأنهم لـم يكونوا يقـدرون على ترويج ذلـك في الناس الذيـن أكثرهـم لا يعقلـون، ولـو أن أحدهـم قدر على فعل شيء من ذلـك فإنه ما كان

يستمر كما لم يكن يدوم ما كان يحكم بالتوراة النبيون و...[٣٤٠]، فبموت الحاكم سرعان ما كانت تعود التوراة متشابهة

إن أقصى ما كان يقدر عليه هؤلاء هو السعي والاقتصاد[٣٤١] والانتظار لما يصدّق التوراة والإنجيل، لا فقط لتبشيرهما بمجيء ذلك، بل ولأنه مما لا تشك فيه نفس إذا آمنت بشيء[٣٤٢]، ولم يكونوا يقدرون على التأثير، لا فقط في أصحاب المصالح من الأحبار والرهبان[٣٤٣]، بل وأيضا في غيرهم فإنهم وإن كانوا مدركين للمشكلة وراغبين في حلها كانوا آيسين من أن يقدر أحد من بينهم على شيء مهم وأساس ...، فكانوا يجابهون أي إشكال يوجه إلى ما لديهم بالجدال ومزيد من التبرير، خوفا عليه من أن ينهار بلا بديل يوثق به[٣٤٤] ...

الخلاصة

خلاصة الكلام هي أن بالقرآن وحده أصبح ما مع أهل الكتاب (صادقا) ...، وأرى أن تركيز القرآن على كونه مصدقا لما بين يديه كان تلبية لما كان يرغب فيه وينتظره الذين مدحهم القرآن الكريم[٣٤٥]، واحتجاجا على غيرهم من علماء أهل الكتاب فإنهم وإن كانوا لا يؤمنون بالقرآن، بل وكان يزيدهم نزوله عنادا وطغيانا[٣٤٦] كانوا يعلمون أن القرآن حق[٣٤٧] فلا بد وأن يحجمهم ذلك ويكسرهم في باطنهم ويضعف تصديهم للنبي صلى اللّه عليه وآله ويؤثر في قدرتهم على إثارة الناس ضد القرآن، فإني أتوقع أن كثيرا منهم، وخاصة النصارى، ـ حتى لو لم يسمعوا بما بشرت به كتبهم، أو لم يعتقدوا بأن النبي (ص) هو من بشرت به ـ كانوا يحسون، بدرجة أو أخرى، مما كانوا يسمعونه من القرآن، أنه يصدق ما معهم ويجعله شرعة ومنهاجا، ويضع عنهم القيود والأغلال التي لا بد وأنهم كانوا يقاسونها في تدينهم[٣٤٨]، وأتوقع أن هذا كان يحصل لهم وإن لم يؤمنوا بالقرآن لسبب أو آخر

هذا، وأيضا من الطبيعي أن يكون لوصف اللّه تعالى القرآن ـ وكذلك النبي

صلى اللّه عليه وآله ـ بكونه مصدقا لما بين يديه تعريفا للمسلمين بمكانة القرآن ودوره، وتثبيتا لإيمانهم ...

وعلى أي حال فإقامة التوراة والإنجيل، قبل أي شيء، بحاجة إلى ما يصدقهما، لا أن يعترف بهما[٣٤٩] فإن معنى تصديق الشيء: جعله صادقا وحقا[٣٥٠]، فتصديقهما: جعلهما صادقين قابلين لأن تقبلهما النفوس وتؤمن بهما، كما أشرنا إليه قبل قليل، وهذا ما قد حققه القرآن الكريم

كذلك تمر إقامة التوراة والإنجيل عبر القرآن بلا إشكال[٣٥١] ...

ماذا تعني الإقامة؟

(الراصد) ـ : لِمَ لا يكون معنى إقامة الكتب « *حفظ العمل العام بما فيها من شرائع اللّه تعالى، والاعتقاد بما بين اللّه تعالى فيها من معارف المبدأ والمعاد من غير أن يضرب عليها بحجب التحريف والكتمان والترك الصريح ...* » كما ذهب إليه السيد الطباطبائي[٣٥٢]، أو العمل بما فيها من الوفاء بعهود اللّه فيها ومن الإقرار باشتمالها على الدلائل الدالة على بعثة النبي صلى اللّه عليه وآله، كما قال الرازي[٣٥٣]، وكما فُسرت به (إقامة الصلاة)[٣٥٤]، وقد يؤيد ذلك ما في القرآن من الإشارة إلى إمكان الحكم بالتوراة كقول اللّه تعالى (المائدة: ٤٤): (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ...)؟

(الناصر) ـ : إقامة الشيء: جعله قائما، فلا يبدو صحيحا ما فسروا به إقامة الكتب ...، وأما الصلاة فتفسير إقامتها بأدائها إن كان متفهما ممن لا يعتمد (الإمامة)، لا يكون متفهما من الإمامي إذ يفترض كونه منتبها إلى أن من يقيم الصلاة للمصلي إنما هو إمامه الماكن في قلبه، وإن كان له ـ أي المصلي ـ أيضا دور في إقامتها[٣٥٥] ...، ولا دليل على أن (الحكم) في الآية ٤٤ من المائدة بمعنى

الإقامة، فقد يكون بمعنى القضاء

ثم على فرض أن يكون (العمل) بالشيء (إقامة) له، فهناك ما يشهد على أن مجرد العمل بالتوراة والإنجيل و... ليس هو المقصود في الآية ٦٦ من سورة المائدة، وسأشير إلى ذلك إن شاء اللّه حينما أعود إلى الآية الكريمة للبحث عن معناها

وعلى أي حال فلا يضر ما نحن بصدده أن يكون معنى إقامة الكتب اعتقادها والعمل بها، إذ لا يخفى عدم إمكان اعتقادها حقا[٣٥٦] إلا بالتمييز، لا فقط بين حقها وباطلها، بل وأيضا بين محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها ...، وتكوين صورة (صادقة) عما جاء في تلك الكتب، ولا يخفى على من يتعقل الأمور أن ذلك لم يكن ممكنا إلا بكتاب جديد ...

هل القرآن يحتاج مصدّقا؟

(الراصد)ـ : كان القرآن في عهد النبي (ص) تصديق الذي بين يديه، لكنه بعد وفاته أصبح حمالا ذا وجوه قابلا للتفسير بالرأي كما لا يخفى، فإن قيل: إن ذلك يعني أنه صار محتاجا إلى كتاب جديد يحرره ويصدقه ويجعله حقا ...، فبماذا ترد؟

(الناصر)ـ : ما جعل القرآن الكريم كتابا مصدقا لكتب الأنبياء ومحققا لدعوتهم هو النبي (ص) بتلاوته له وقيامه به، فبمجموع ما أنزل اللّه عليه (ص) من الكتاب والحكمة[٣٥٧] تمت كلمة ربه صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته[٣٥٨]، والكتاب هو ما في أيدي الناس، والحكمة هي ما كان النبي صلى اللّه عليه وآله مارسه في حياته وورثه علي وأولاده الأئمة (ع) بعد وفاته ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : لي على قولك مؤاخذتان: الأولى أن اللّه كان قد آتى أنبياء سابقين أيضا كتابا وحكمة[٣٥٩] ...، والثانية أن النبي (ص) كان قد علّم المسلمين

الكتـاب والحكمـة لكنهـم رغـم ذلـك تفرقوا من بعده (ص) شـذر مذر كما لا يخفى

(الناصر)ـ : أمـا أن اللّه عـز وجـل آتـى الأنبيـاء السـابقين الحكمـة فهـو ممـا لا ريـب فيـه، لا فقـط لمـا نـص عليـه القرآن الكريـم، بل ولما لا يخفـى مـن الملازمة بين النبـوة والحكمـة، لكـن حكمـة الأنبيـاء تختـلف باختـلاف نبواتهم، فمـن كانت نبوته خاصة بطائفة معينة كبني إسرائيل فعـلمه بالـحكمة وإن كان مطلقـا[٣٦٠]، إلا أن مـا كان يحكـم بـه منهـا كان مقيـدا بظـرف خـاص فلـم يكـن قابـلا للتطبيـق فـي ظـروف أخـرى مختلفـة إلا مـن قِبـل العالـم بالحكمـة المطلقـة، والقـادر علـى الحكـم بها

لم يكن التعليم عاما ...

وأما عن مؤاخذتك الثـانية فإننـا لا ندعي أن تعـليم النبي (ص) الكتاب والحكمة أحـدا كان يعصمـه مـن الزلـل، وإنمـا ندعـي أن تعليمـه (ص) إياهمـا النـاس قد أوضح الدين بحيث أمكن لمن تعلمهما أن يعرفه وأن يدعو إليه، ولا يمكـن ادعاء أن جميع هـؤلاء الذيـن علمهـم (ص) إياهمـا قد تركوهمـا، بل ولا يخفـى أنه (ص) لم يقم بتعليم جميـع المسـلمين الكتـاب والحكمـة ...، فـلا بـد إذَن من القول بأنـه (ص) إنما كان يعلمهمـا بعـض المؤمنيـن، وهـم الذيـن كان يفتـرض أن يحتاجـوا العلـم بهمـا لإقامـة الكتـاب بالحكمة

وعلـى أي حـال فمـا كنـت بصـدده هـو أن لا نبـوة مـن النبـوات السـابقة كانـت عالميـة، ومـا لا يكـون عالـميا لـن يكـون أبديـا، ومـا كان عالميـا كان مؤهـلا لأن يكـون أبديـا ...، أللهـم بلـى كان النبي إبراهيـم عليـه السـلام استثناء بكونـه على ملة حنيفـا[٣٦١]، حيـث لـم تكـن نبـوته تتـضمن غير الـدعوة إلى اللّه وحـده لا شـريك له، وكان فـي عمـله (أمـة) خلافـا لأنبيـاء آخريـن فـإن أحدهـم وإن كان أمـة فـي معرفتـه وإيمانه لكن ربـما كان ظرفه الاجتمـاعي يؤثر في ظـاهر أعماله ومواقفه فيجعلهـا تبدو غيـر متوافقـة تمامـا مـع دعوتـه كنبي، كالـذي نقل في (العهـد القديم) عن (سـليمان)

عليه السلام من مظاهر الاهتمام بالدنيا[٣٦٢] ...

(أنا)ـ مقاطعا ـ : جاء في القرآن الكريم أيضا ما يشير إلى أن حياة النبي (سليمان) كانت منعمة جدا بدرجة لم تتخيله ملكة سبأ[٣٦٣]، وأن ملكه كان خارقا، وأنه كان قد سأل اللّه تعالى ذلك قائلا (ص:٣٥): (وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي) ...

وعلى أي حال فلماذا ـ يا ترى ـ ذكر القرآن قصة سليمان مركزا عليها ...؟

(المراقب)ـ : ذكر بعض الباحثين أن اللّه قد ذكرها عبرة وعظة للنبي (ص) لئلا تغريه الدنيا كما لم يمنع (سليمان) حبه الخيل من أن يضرب سيقانها وأعناقها ندما على الانشغال بها عن وقت صلاته[٣٦٤] ...، وأيضا للدلالة على أن سعة ملك أحد لا يدرأ عنه الهلاك[٣٦٥]

(الناصر)ـ : صحيح أن العاقل يجد في ذلك عبرة[٣٦٦] ولكن لا يظهر من القرآن أنه ذكرها لذلك ...، ولا مبرر لتأويل (المسح بالسوق والأعناق) إلى (ضرب سوق الخيل وأعناقها)[٣٦٧]، أو الوضوء بمسح السوق والأعناق، كما في تفسير الميزان ...

القرآن يصدق النبي سليمان (ع)

وأرى أن هناك تساؤلين: الأول كيف يُتعقل أن تكون حياة نبي بتلك الصورة؟، والثاني: لماذا ركز عليها القرآن؟

للإجابة على التساؤل الأول بالإمكان القول: إن ذلك مما كان يتطلبه الجهاد في سبيل اللّه لظروف خاصة نجهل تفاصيلها، ولا أجد حاجة إلى معرفتها، وقد يشير إليها إسلام ملكة سبأ تأثرا بفخامة قصر (سليمان)، كما قال تعالى (النمل: ٤٤): (فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ

إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، ولا يضر ذلك في نبوة مؤقتة..

وللإجابة على التساؤل الثاني يمكن أن يقال: حيث من المعلوم أن ذكر القرآن لمواقف سليمان (ع) لم يكن (لهوا)، ولا إشادة بملك (سليمان)، إذ من الضروري أن الإسلام إنما يدعو إلى الزهد في الدنيا لا إلى البذخ والترف فيها ...، فيبدو لي أن ذكر القرآن لمواقف سليمان كان (تصديقا) لها . توضيح ذلك:

مما لا يخفى أن سليمان كان من أبرز الشخصيات الإسرائيلية وأعظمها في نظر اليهود، ومما لا يخفى أيضا أن اهتمامهم به ليس لكونه نبيا، بل لكونه ملكا ذا قدرات خارقة وحكمة عظيمة لأجل (الحكم)[٣٦٨]، فهم يعتزون به وبما شاده لهم من مجد كبنائه (الهيكل)[٣٦٩] وغيره، وكان مقياس عظمته في نظرهم المظاهر المادية حتى فيما يرجع إلى الدين[٣٧٠] ...

فما يبدو لي هو أن القرآن أراد أن (يصدّق) ما كان مع اليهود بصدد (سليمان) ويجعله مما لا يعيق حركة النفوس ...، وذلك من خلال التذكير بعدة أمور، منها كون سليمان عليه السلام نبيا من الأنبياء الذين كانوا يدعون إلى عبادة اللّه والإيمان بأن الآخرة خير[٣٧١] ...، فكان ملكُه مُلكَ نبي، لا ملك مِلك كما هو عند أهل الكتاب، والنفوس تجد في ملك الملك ما لا تجده في ملك من تعتقد نبوته، فإنها لا تتعامل مع الأفعال بمعزل عن فاعليها[٣٧٢] ...

ومنها أن سليمان (ع) كان يرى ملكه (بلاء) من اللّه[٣٧٣]، ويبدو أنه رغب فيه وطلبه من اللّه ليجاهد به، وكان يعلم أنه **لا ينبغي لأحد من بعده** إذ لم يتوقع أن يتوفر لغيره الظرف الذي تهيأ له (ع)، فلم يكن ملكه لأجل التنعم والاستمتاع وإن تنعم به ظاهرا، خلافا لما عند اليهود بهذا الصدد[٣٧٤]، إذ يظهر منه أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ جازاه ذلك ليتميز ويتمتع به

والأهم من هـذا وذاك أن من كان يتـلو قصص سـليمان المذكـورة في القرآن هو رسـول اللّه صلى اللّه عليه وآله الذي كانت حياته بسيطة جدا، وكان مسـجده عريشـا كعريش موسى[٣٧٥]، ولا يخفـى تأثيـر ذلـك فـي تحجيـم ملـك سـليمان وضعضعتـه وجعلـه صادقـا لا يصـدم فطرة النفـوس، بـدلا مـن التصـدي لـه وكسـره كمـا نقـل عن عيسـى بـن مريم عليه السـلام[٣٧٦]

ومهمـا يكـن مـن أمـر فمـا أردته مـن الكلام عن (سـليمان) عليه السـلام هو بيان مثـال آخـر لمـا كنـا بصـدده من كيفيـة (تصديق) القرآن لمـا بين يديه

... لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ

أعود إلى الآية ٦٦ من سـورة المائدة، فأقول: أرى أن الآية ظـاهرة ـ إن لـم تكن صريحـة ـ فـي أن إقامـة أهـل الكتـاب للتـوراة والإنجيل و... هي التي توجب (أكلهم مـن فوقهـم ومـن تحـت أرجلهم)، وأنهـا تخبر عن عـلاقة طبيعيـة بيـن الأمرين، لا عن وعـد إلهـي كمـا قـد يبـدو[٣٧٧] مـن قـول اللّـه تعالـى (نوح: ١٠-١٢): (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا)، وقولـه تعالـى (الجن: ١٦): (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا)

فعلى هذا لا يكاد يصح ما اتفق عليه من أن معنى (إقامة التوراة والإنجيل و...) العمـل بهـا[٣٧٨]، إذ مـن الواضـح أن مجرد العمـل بهـا لا يسـتلزم الجـزاء المذكـور في الآية والذي يمكن التعبير عنه بـ(سهولة المعيشة)، ويكفي دليلا على ذلك أن معيشة النبـي صلى اللّـه عليـه وآلـه لـم تكـن كذلـك رغـم كونه عاملا بهـا، وكان لأهل الكتـاب ـ لا سيما اليهـود ـ أن يحتجوا بهـذا، كمـا لا يخفـى

لا يقـال: إنما يتحقق ذلك إذا كان يعمل بهـا جميع أفراد المجتمع، لأنه يقال: لا شـاهد في الآية على هـذا القيـد، ولا معنى له مـا دام (العمل) ممكنـا للفرد بمعزل

عن غيره، ثم إنه تعليق لذلك بالمحال، إذ لا يمكن أن يوجد مجتمع يعمل كل أفراده بشرع اللّه بدقة وجدّ

فالمراد بـ(الإقامة) المذكورة في الآية الكريمة ليس مجرد العمل، بل هو عمل لا يتقوم إلا بجماعة خاصة

مسلّمتان خاطئتان

أرى أن المشهور لا فقط أخطأوا تفسير (الإقامة) في الآية بـ(العمل)، بل وأخطأوا أيضا مصادرتهم أمرين واعتمادهما:

أما الأمر الأول فهو معنى كلمة (مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَبِّهِمْ) حيث تسالموا على أن المراد بها (الكتب)، أو ما هو قريب منها، فاحتاروا في تعيينها[٣٧٩]

لو أنهم تمعنوا في الأمر لوجدوا عدم إمكان إقامة التوراة والإنجيل والكتب النازلة إليهم ـ بل وحتى العمل بها ـ فكيف يمدحها القرآن؟! ...، كان المفروض أن يدفعهم هذا إلى التدقيق في معنى الكلمة المذكورة، أملا في أنها قد تعني ما به يمكن إقامتهما، أو العمل بهما

لو لم يكن ذلك متوقعا من المخالفين الجاهلين بـ(الولاية) ومكانتها فلا يكاد يتفهم عدم انتباه الإمامي إلى أنها لا بد وأن تعني (الولاية) التي كان اللّه تعالى قد (**أنزلها**) إلى الرسول صلى اللّه عليه وآله وأمره بتبليغها في الآية التي تلتها مباشرة حيث قال: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّك ...)، إذ لولا ذلك لم يُعقل لها معنى ولم يُفهم مبرر لذكرها[٣٨٠] فلا يُحتاج لذلك إلى نص خاص كالذي في الكافي (٤١٣/١) عن أبي جعفر عليه السلام ـ في قول اللّه تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ) ـ قال: « الولاية »[٣٨١]

ومسلّمتهم الثانية: اعتبارهم (الأكل من فوقهم و...) بمعنى (وفور النعم ...)،

فمثلا قال السيد الطباطبائي: « والآية من الدليل على أن لإيمان هذا النوع أعني نوع الإنسان وأعماله الصالحة تأثيرا في صلاح النظام الكوني من حيث ارتباطه بالنوع الإنساني فلو صلح هذا النوع صلح نظام الدنيا من حيث إيفائه باللازم لحياة الإنسان السعيدة من اندفاع النقم ووفور النعم »

وهذا الذي قد صرح به ـ بشكل أو آخر ـ مفسرون آخرون أيضا[٣٨٢] لا فقط غريب ومناف لما لا يخفى من أن النعم لم تغمر المسلمين الذين أقاموا القرآن في عهد النبي صلى اللّه عليه وآله، بل يبتني على اعتبار (النعم) خيرا، وهذا ما ناهضه القرآن الكريم جدا[٣٨٣]

معنى الآية الكريمة

(أنا)ـ : فماذا تعني الآية الكريمة؟

(الناصر)ـ : أرى أن الآية الكريمة تشير إلى حقيقة مهمة جدا خلاصتها: أن إقامة الدين المتمثل بالكتاب والولاية ستغير الإنسان وتضعه في مقامه الطبيعي، فيكبر على الأشياء، وتقل حاجاته وتخف مؤونته، فيكفيه أيسر ما في الدنيا كما في الكافي (٢/١٣٨) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يقول: « ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك »

فالذي ينمو ويعظم هو الإنسان، لا الأشياء ...

(الراصد)ـ : ماذا تقول في قول اللّه عز وجل (الأعراف: ٩٦): (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)؟

(الناصر)ـ : لا شك في أن اللّه سبحانه قد يعذب أناسا بذنوبهم، وينعم على

أناس بإيمانهم ولكن لا قاعدة مشهودة لهذا وذاك، وكما أشرت إليه: ظاهر الآية التي نحن بصددها أنها تتحدث عن حقيقة شهودية، وحتى لو لم تكن ظاهرة في ذلك فإن من طبيعة الإنسان الميل إلى فهمه كذلك حتى لو كان الأمر غيبيا

فالمعنى المتفهم للآية التي ذكرتَها هو أنه لو آمن أهل البلاد[٣٨٤] واتقوا لفتح اللّه عليهم (بركات)..، أي جعل لهم في كل شيء بركة فوجدوه نافعا كافيا، لا أنه يزيد لهم النعم[٣٨٥]، فإن من المجرب أن زيادة النعم تزيد الإنسان إحساسا بالحاجة كما في الكافي (٣١٩/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « ما فتح اللّه على عبد بابا من أمر الدنيا إلا فتح اللّه عليه من الحرص مثله »[٣٨٦]، فطلب أكثر من حقه، قال اللّه عز وجل (الشورى: ٢٧): (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)

وفي المقابل مجرب أيضا أن المؤمن يجد في نعمة قليلة بركة عظيمة[٣٨٧] ...

تأكيد وتوضيح

أجل، إننا وإن كنا نؤمن بكون اللّه فعالا لما يشاء[٣٨٨] لكننا نجد أيضا ـ وفي نفس الوقت ـ أن في الكون (نظاما)، وبالأحرى نجدنا ننزع إلى تفسير الأمور وفهمها كذلك[٣٨٩] ...، وهذا ما نفعله في معرفة الدين حيث نتوقع أن تكون مسائله مترابطة فنحاول البحث عن تلك الروابط ومعرفتها

وهذا مما يدفعنا إلى أن ندقق فيما نحن بصدده من قول اللّه تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ...) فنجد أن (الأكل) الذي أشير به إلى المعيشة[٣٩٠] يختلف باختلاف الناس فمنهم من يؤمن باللّه واليوم الآخر ... فيجد في نفسه أن للمعوزين من السائلين والمحرومين حقا في ماله[٣٩١]، وأن للمستضعفين حقا في (نفسه)[٣٩٢] ...، فيعظم همه، ويصبح زاهدا في الدنيا، راغبا في أن يكتفي

من الدنيا بأقل ما يكتفى به[٣٩٣]، وأن يتخذ الأرض بساطا والتراب فراشا والماء طيبا[٣٩٤]، ويحن إلى من يشاركونه همه[٣٩٥] فيكون معهم: يستند إليهم ويسندهم، فيكونون (أمة مقتصدة)[٣٩٦] قادرين على تعقل الأمور ومن ثم العلم بمكانة الإنسان وبحاجاته وبأن الله جعل في السماء والأرض ما يكفي لتلبية حاجات الناس إن قنعوا بالكفاف ولم يسرفوا[٣٩٧]، وعلموا أنه لو أقام الناس ما أنزله الله إليهم من الكتاب والولاية لأصبح المؤمنون بحيث يدخل أحدهم يده في كيس أخيه فيأخذ حاجته فلا يدفعه[٣٩٨]، ولم يجد رجل منهم يومئذ موضعا لصدقته ولا لبره، لشمول الغنى جميع المؤمنين[٣٩٩] ...

هذا بخلاف ما عليه متبعو الشهوات الذين أشار إليهم القرآن بقوله (محمد: ١٢): (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ ...) ذلك لأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم التي من ركائزها الاهتمام بالناس والقيمومة على العالم[٤٠٠] ...، فضلّت أهدافهم وسفهت أحلامهم، وضاقت معيشتهم[٤٠١] ...

وعلى أي حال فما أشرت إليه كأقرب معنى للآية الكريمة هو من أبرز معالم (العدل)، لولا أبرزها، باعتباره مجسدا لمكانة الإنسان وقيمومته على الأشياء التي سخرها الله له، وهو الذي تمثل في مؤمني الأنصار الذين وصفهم الله بقوله (الحشر: ٩): (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[٤٠٢]

كانت تلك لمحة خاطفة وتناوشا من بعيد لأمر عظيم يُدرَك ولا يوصف، فأرجو أن لا يتشوه بذلك[٤٠٣] ...

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ ...[٤٠٤]

(الراصد): إن قيل: أرسل اللّه تعالى النبي محمدا صلى اللّه عليه وآله في الأميين وهم قومه من العرب من قاطني أم القرى ومن حولها[٤٠٥]، فلم تكن نبوته عالمية ...، فبماذا ترد عليه؟

(الناصر): بعْثُ اللّه النبي (ص) في الأميين من العرب لا فقط ليس دليلا على كون نبوته خاصة بهم، بل دليل على عموم نبوته مكانا وزمانا، توضيح ذلك:

بما أن اللّه عز وجل قد بعث الأنبياء لهداية الناس حسب ما فطرهم عليه، وبما أن فطرة الناس واحدة، فالأصل في النبوة أن تكون عامة، أي أنها إن هدت قوما هدت أقواما آخرين

وبما أن اللّه عز وجل حكيم فهو ـ وإن كان قادرا[٤٠٦] ـ لم يبعث نبيا لقوم إلا إذا لم تكن تكفي لهداهم نبوة النبي المبعوث لطائفة أخرى، أو في زمان سابق، وإلا فلم تكن لهم الحاجة ومن ثم الحجة على اللّه[٤٠٧]

تبدل الطبيعة

ولكن اللّه تعالى قد أرسل إلى كل مجموعة من الناس نبيا[٤٠٨]، وذلك إما لتفرق أماكنهم وانفصال قراهم عن بعضها ...، وإما لتبدل طبيعتهم الأولية الواحدة في الناس والموحدة لهم إلى طبيعة أخرى تصنعها عوامل أخرى أهمها، بل أساسها، الثقافة[٤٠٩] لا سيما الدينية منها، فإن بها وحدها يتحول ما يشتهيه الإنسان وما يصادفه، إلى ثوابت مبررة يُتدين بها فلا يجوَّز المساس بها ومناقشتها كما لا يخفى على عاقل [٤١٠] ...

من أمثلة ذلك التعمق في الدين الذي عُدّ حسنه من المسلمات التي لا يستساغ الشك فيها والذي قُسم الناس على أساسه إلى فئات منفصلة عن بعضها[٤١١]،

وجعل ما بعث به النبي (ص) خاصا بمن هو من الفئة العالية[٤١٢] ...

فكما يظهر من قوله تعالى (البقرة: ٢١٣): (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) أن الذين أوتوا الكتاب اختلفوا فيه ـ أي في الكتاب ـ بغيا بينهم[٤١٣]، وذلك ـ كما أرى ـ أن أخذوا يحللون الكتاب ويفسرونه بحثا عن تأويل ما ذكر فيه، بدلا من الاهتداء بالكتاب والهداية به فكانوا بذلك في خلاف بعيد عن رسالة الكتاب كما يظهر لي من قول اللّه عز وجل (البقرة: ١٧٦): (... وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)، فكل يدعي أن قوله هو ما قصده اللّه تعالى مما أنزل في الكتاب، ويعتقد ذلك، فينحرف الكتاب عن مساره الذي كان قد وضعه اللّه إلى ما فسروه به[٤١٤]

(المراقب)ـ مقاطعا ـ: من المعروف أن من أسباب تدرج النبوات من النقص إلى الكمال[٤١٥] تطور الإنسان وزيادة فهمه وإدراكه[٤١٦] وتعقد حياته وتعدد حاجاته وتنوعها ...

(الناصر)ـ: ما ذكروه مبني على مصادرتين: الأولى أن أهم ما يتعهده الدين بيان الحقائق، والثانية أن ما استجد في حياة الإنسان مطلوب[٤١٧]، أو أنه مما لا مناص عنه ...، وقد تكرر أن ما يتكفله الدين هداية الناس، لا بيان الحقائق، وطبيعة الإنسان التي بها يهتدي تظل ثابتة، إذ (لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) ...

والمصادرة الثانية كذلك ليست صحيحة فإن كثيرا مما استجد في حياة الإنسان ليس مما يحتاجه وإن اشتهاه، فما يتعهده الدين ليس قضاءه، بل القضاء عليه بإغناء الإنسان عنه[٤١٨]، وبعبارة أخرى: إن الدين لا يساير رغبات الإنسان كما هي في الواقع، بل يهدف إلى تزكية الإنسان فتنمو رغباته الفطرية التي منها الرغبة في الحرية والتسامي عن الشهوات[٤١٩] ...

(الراصد)ـ : ما هو الذي جعل نبي الإسلام مختلفا عن غيره ليكون خاتم النبيين؟

(المراقب)ـ متدخلا ـ : لأن نبينا هو أفضل الأنبياء وأشرفهم وسيدهم، وسائر الأنبياء كانوا نوّابَه، حسب قول ابن عربي[٤٢٠] ...

الأميــون ...

(الناصر)ـ : كون النبي صلى اللّه عليه وآله الأفضل لم يكن يكفي ليكون خاتم النبيين ما لم تكن رسالته قابلة لأن يهتدي بها الناس جميعا في كل وقت ومكان، فإن ما يستوجب بعثة الأنبياء هو حاجة الناس إلى (الهدى)، ومما منع عامة الناس عن الاهتداء بالنبوات السابقة أن كلا منها كانت موجهة إلى قوم لهم خصائص تفرقهم عن الأقوام الآخرين ...، ولولا ذلك لكانت كل منها مؤهلة لأن تكون عامة دائمة، لما قلنا من أن الأصل في النبوة أن تكون عامة، وإذا كانت نبوة عامة كانت دائمة

لأن تكون نبوة النبي مطلقة من حيث الزمان والمكان، ويكون ما بعث به (دين الحق) والهدى لجميع الناس[٤٢١] فلا بد من أن يبعثه اللّه عز وجل في أمة تكون أقرب إلى الطبيعة الإنسانية البدائية التي يشترك فيها الناس جميعا، وأن لا يكونوا قد تأثروا بثقافة صبغتهم بصبغة خاصة تفرقهم عن الأمم الأخرى، وتفرق بينهم وتجعلهم طرائق قددا ...، فيضطر النبي إلى مجاراتهم في أهوائهم (المبرَّرة بالثقافة) ليجادلهم فيها بغية تحريرهم منها[٤٢٢]، فتتأثر دعوته بالجدال، بل ويصبح الجدال هو الدين ...

وبما أنه (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)[٤٢٣] ما عدا أمة العرب الذين لم يتثقفوا بثقافة[٤٢٤] ولم يقرأوا كتابا إذ لم يتدينوا بدين غيرهم، وما أُنذر آباؤهم[٤٢٥] فظلوا (**أميين**) ...

هل الأمية نقص؟

(**الراصد**)ـ مقاطعا ـ : (الأمي) ـ كما في تفسير الميزان (٣/١٢٢) ـ : « هو الذي لا يقرأ ولا يكتب »، فهو إذَنْ صفة نقص يوصف بها الجاهل[٤٢٦]، حاشا النبي (ص) حيث أن وصف اللّه تعالى له بـ(الأمي) كان للدلالة على (إعجاز)[٤٢٧]، أو لأن الكتابيَن كانا قد وصفاه (ص) كذلك[٤٢٨] ...، وقد وصف القرآن الذين بعث فيهم النبي (ص) بكثير مما يدل على الجهل والعناد وعدم الفقه[٤٢٩] ...

ثم إن الأمية مما وصف بها بعض أهل الكتاب أيضا[٤٣٠]، فهي ـ إذَن ـ لم تكن خاصة بالعرب ...

هل الأمي من لا يقرأ؟

(**الناصر**)ـ : لا دليل على أن (الأمي) كان يطلق على (من لا يقرأ ولا يكتب)، والأرجح أن العرب وصفوا بالأميين لعدم كونهم من (أهل كتاب)[٤٣١]، أي لخلوهم عن الثقافة الدينية الناتجة من (قراءة كتاب)، أو عن أية ثقافة متفلسفة[٤٣٢]، ولا دليل على وجود فرق واضح بين العرب وغيرهم في العلم بالكتابة والقراءة[٤٣٣] ...، وإنما الفرق بينهم وبين الأمم الأخرى في العالم المعروف حينذاك ... أنها كانت مثقفة إما بقراءة كتاب أو باتباع قراء الكتاب ...

ثم لا دليل على أن للقراءة والكتابة قيمة ذاتية لتكون الأمية بمعنى عدم القراءة والكتابة منقصة، ويبدو أن سبب التسالم على ذلك[٤٣٤] التأثر بالعرف المتأخر عن عهد النبي (ص)، فلو كانت القدرة على الكتابة وقراءتها فضيلة في نفسها لدعا إليها النبي صلى اللّه عليه وآله، ولو فعل لبان وشاع في المسلمين ...، وما نُقل من أنه (ص) جعل فداء بعض أسرى بدر تعليم أولاد الأنصار[٤٣٥] ثم ركز عليه أخيرا من قبل بعض الكتاب[٤٣٦] ...، فلو صح ذلك[٤٣٧] فهو لا يدل على أكثر من وجود الحاجة إلى الكتابة آنذاك

وأرى أن ما برروا به (أمية) النبي صلى اللّه عليه وآله هو الآخر بني على ذلك الأصل الخاطئ الذي تسالموا عليه

وأما أنه كانت للعرب آنذاك صفات ذميمة فهو صحيح لكن ذلك لم يكن بسبب جهلهم بالقراءة، فإن مجرد قدرتهم على القراءة لم يكن يؤثر في تلك الخصال

(المراقب)ـ مقاطعا ـ : لو كان هؤلاء يقرأون لاطلعوا على أقوال الناس المودعة في الكتب، فيؤثر ذلك في أفكارهم وطريقتهم الغريبة المتمثلة في عبادة الأصنام، وفي اتباعهم لآبائهم وتقليدهم لهم تقليد أعمى، وفي تعصبهم الشديد؟!

(الناصر)ـ : لا ملازمة بين قدرة أحد على القراءة وبين أن يكون مثقفا، إلا أنه كانت هنالك علاقة بينهما لأهل الكتاب حيث أن من كان يقرأ لا بد وأنه كان يقرأ الكتاب الذي يتدين به، هذا مضافا إلى أن المكاتب التي كانت تتولى تعليم القراءة، لكونها دينية ...، كانت تعلّم أساسا قراءة (الكتاب)، ما عدا الأميين حيث كانوا فاقدي كتاب فكان تعلم القراءة فيهم عملا فرديا من جهة، ومن جهة أخرى من كان يتعلمها إنما كان يتعلمها لأغراض أخرى ...

ثم إن الثقافة وإن كانت تؤثر في بعض مظاهر تلك الخصال إلا أنها كانت تخرجها من بساطتها وتحولها إلى مواقف مفلسفة، فلم يكتفوا إذَن بأن يقولوا ـ مثلا ـ (ص: ٥ ـ ٦): (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)، أو (أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) ...، فـ(أميتهم) هي التي جعلت ضلالهم منكشفا واضحا صريحا، فهم وإن كانوا على شر دين وفي شر دار[٤٣٨]، لكنهم ـ لبساطة ضلالهم وخلوه من تبرير متفلسف ـ كانوا أقرب الأمم إلى الطبيعة الإنسانية التي يشترك فيها الناس جميعا[٤٣٩] ...

هذا، وأما وصف بعض أهل الكتاب بالأميين فهو لا يدل على أكثر من أنه

لم يكن جميع أهل الكتاب مثقفين سواء أكانوا قادرين على القراءة أم لا، فهم وإن كانوا بسيطي التفكير ولكن لكونهم متعصبين (**تدينـا**) كانوا يفرقون عن (الأميين) العرب . هذا مضافا إلى أنهم لم يكونوا يشكلون ظاهرة إذ أن الظهور إنما كان للمثقفين فإنهم كانوا أهل الكتاب حقيقة، كما ـ وفي المقابل ـ كان في العرب بعض المثقفين مثل (ورقة بن نوفل) و(النضر بن الحارث) مثلا من دون أن تؤثر ثقافتهم في أمية العرب

لِماذا كانوا أميين؟

(**الراصد**)ـ : كان الأميون يعلمون أن هناك من كانوا قد ادعوا النبوة، وأن طوائف كبيرة من الناس تعتقد بهم و...، فلِمَ لم تدفعهم فطرتهم إلى الإيمان بهؤلاء الأنبياء؟

(**المراقب**)ـ : أنا أرد على هذا فأقول: أصادر أن دين الأنبياء السابقين عليهم السلام كان قد حُرف فلم تكن تجد فيه الفطرة بُغيتها[٤٤٠]، فالأميون كانوا يجدون، مثلا، أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه، وأن النصارى كانوا يقولون: إن عيسى إله، فلذلك كانت قريش يقارنون بينه وبين آلهتهم[٤٤١] ...

وأما (الكتابيون) فقد تكلف الأكثرية الساحقة منهم الرضى بالدين الموجود على عِلاته فأسكتوا بذلك فطرهم[٤٤٢] ...، وأما القليل الذين كانوا يتلون الكتاب ـ التوراة والإنجيل ـ حق تلاوته، وكانوا مؤمنين به حقا، فقد وجدوا في النبوة الجديدة تصديقا للكتاب ـ حسب تلاوتهم ـ وتحقيقا لما كانوا ينتظرونه[٤٤٣] ...

وعلى فرض أن لم يكن قد حرف دينهم فإن مجرد وجود دين صحيح مسطور في كتاب لن يهدي الناس إلا أن يكون دعوة، ولا يكون كذلك إلا بداع، ويبدو أن إلى هذا يشير قول اللّه تبارك وتعالى: (وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ...)[٤٤٤] ...

(**الناصر**)ـ : صحيح أن (الكتابين) قد تعرضا للتحريف والتشويه والإبطال،

بصورة أو أخرى، لكنهمـا ـ رغما عن ذلك ـ كانا يتضمـنان مؤشرات إلى الحق، فلو كان في الأميين من يرغبون في الإيمان لوجـدوا فيهما ـ وخاصة الإنجيل ـ شيئا مما يجـذب نفوسـهم فتقربـوا بـه إلى اللّه كمـا ينقـل ذلـك عن (ورقة بـن نوفل) مثلا، ولم يركزوا على ما فيهمـا من تحريف، شـأنهم في ذلك شـأن أي مهتم بأمر ومنـدفع إليـه حيث (يتبـع أحسن القول) ...، ويؤيد هذا أن الإسلام لم يفرض على أهل الكتـاب التـدين بدين الحق مـا أظـهروا الخضوع للولاية التي صـدّقت مـا كان معهم من دين وأقامتـه[٤٤٥]، الأمـر الـذي لـم يكونوا قادرين عليه بأنفسـهم

كما لا يعقل خلو الدينين، ولا سيما المسيحية، من دعاة صادقين[٤٤٦] ...

ومن جهة أخرى لولا في نبوة موسى وعيسى عليهما السـلام إنذار للعرب أيضـا لواجهنا إشكالا لا مفر منه، وهو أن اللّه الذي كان قـد بعث إلى كل قرية وأمـة نذيرا كيف استثنى العرب فلم ينذر آباءهم[٤٤٧]؟!

فمـا يبـدو لـي إجابـة صحيحـة على التسـاؤل المذكـور هـو أنهـم وإن لـم ينـذَروا بكونهـم أمـة خاصـة لكـن كان بإمكانهـم الإيمـان بالكتـابين، وخاصـة الإنجيل حيث كان يُنظـر إلـى التـوراة كتابـا قوميـا خاصا باليهـود ...[٤٤٨]، لكنهـم (أي العرب) كانوا متعصبيـن وشـديدي الانغـلاق علـى أنفسـهم[٤٤٩] فلذلـك ظلوا أميين ...

لولا كونهم أميين ...

ومهمـا يكن من أمر فإن العرب الجاهليين رغم احتكاكهم بـجيرانهم لا فقـط لم يتأثـروا بحضـارة هـؤلاء وبدينهـم، بل وكأنهم عصوا الطبيعـة البشـرية الداعيـة إلى التغير والتغيير، فكاد الأبنـاء يحيون نفس محيا آبائهم ويتبعون نفس طريقتهم[٤٥٠]، فلو أتى أحـد بأمـر جـديد عجبـوا منـه وأنكـروه وحاربـوه[٤٥١] ...، فهم كانوا من الأمـم النادرة، بـل الأمـة الفريـدة التـي كانـت قد تَمثل فيهـا ما يشـترك فيه الناس وهو الطبيعة البشـرية

قبل أن تغزوهم (**الثقافة**) فتفرقهم إلى أمم وطوائف، والمجتمع إلى طبقات

مما ساهم في أن تظل للعرب الجاهليين خصوصيتهم النادرة أن أهملتهم الفرس والروم رغما عن سعي كل منهما إلى احتلال أكبر قدر من البلاد والأراضي وتَقاتُلهما لذلك ...، ومهما كان السبب فإنهم الوحيدون الذين لم يتأثروا بثقافة الروم والفرس وبحضارتهما خلافا لجميع الأمم الأخرى في المنطقة بما منها عرب آخرون كاليمنيين، والمناذرة في الحيرة، والغساسنة في الشام ...

تلك إشارة سريعة إلى ما كان عليه العرب الجاهليون في الجزيرة العربية من حالة استثنائية سُموا بها (أميين)[٤٥٢]، وهي التي أهّلتهم ليبعث اللّه عز وجل فيهم النبي الخاتم، وذلك لما أشرت إليه من كونهم (أمة وسطا) في خصالها وفي موطنها ...، فتأهّلوا ليجعل اللّه منهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس[٤٥٣]، وليكونوا (خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)[٤٥٤] ...

الطاعة

مما كان له السهم الأوفر في تأهيل الأميين ليكونوا خير أمة، وليكونوا شهداء على الناس هو ما كانوا يمارسونه من (الطاعة) ...

(**الراصد**)ـ مقاطعا ـ : الطاعة مما لن تخلو عنها أمة، بل ويمارسها جميع الناس ...، فهي لم تكن خاصة بالأميين، أليس كذلك؟

(**الناصر**)ـ : ما كان يمارسه العرب الأميون من الطاعة كان طبيعيا بسيطا أقرب إلى أمر غريزي، مقارنة بطاعة أقوام آخرين لملوكهم وأمرائهم وسادتهم ... الذين كانوا يستضعفون أتباعهم ورعاياهم بالثقافة والدين كما فعله فرعون مثلا[٤٥٥]

وبعبارة أوضح: إن طاعة العربي الأمي لعشيرته ورئيسها كانت لهدف واضح معروف لجميع أفراد العشيرة ومتبنى منهم لكونه محققا لمصلحة كل فرد منهم، وهو

حماية العشيرة والدفاع عنها وإعلاء شأنها ...، فكان المطيع عالما بطاعته وواعيا لها وراغبا فيها ...، خلافا للأقوام الآخرين حيث كان أغلبهم إنما يساقون إليها بلا وعي ورغبة حرة منهم ...

... لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَهَا

(الراصد)ـ :ألّف شخص[٤٥٦] كتابا سماه (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) أصر فيه على أن النبي لم يبعث إلا إلى العرب الأميين، ومما قال في (فصل من النبي الأمي إلى النبي الأممي) ص٩١: « *ولئن يسّر اللّه كتابه إلى الأمة الأمية باللسان الذي يسّره به فلأن هذه الأمة هي حصرا تلك التي تتموضع جغرافيا في (أم القرى ومَن حولها)، وذلك طبقا لمنطوق الآيتين التاليتين (وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) (الأنعام: ٩٢)، (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (الشورى: ٧) ...* »[٤٥٧]

ورأى أن من (سماهم) المؤولين للنص القرآني هم الذين حولوا النبي من النبي الأمي إلى النبي الأممي، قال في ص٩٥: « *... فجميع المؤولين الذين أرادوا تحويل النبي (الأمي) إلى نبي (أممي)، أي نبي أمم الأرض كافة وليس فقط نبي الأميين العرب المرسل بلسانهم ومنهم وإليهم، ما استطاعوا أن يفوزوا في آي القرآن الستة آلاف ونيف جميعها إلا بآية واحدة هي الآية الثامنة والعشرون من سورة سبأ: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)* »، ثم حاول تفنيد دلالة كلمة (كافة) و(الناس) على ذلك

(المراقب)ـ : كيف ذلك وفي القرآن آيات أخرى دلت على عموم نبوة النبي صلى اللّه عليه وآله، وقد أشار إلى ذلك المفسرون ولم يكونوا بصدد (الفوز) بما يدلهم على عموم نبوته (ص)، لا لشيء إلا لكون ذلك مسلما لهم ...، ومن تلك الآيات قول اللّه عز وجل (الأنعام: ١٩): (... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ...)، وقوله تعالى (الأنعام: ٩٠): (قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)، وقوله (الأنبياء: ١٠٧): (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)، وقوله (الفرقان: ١): (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

وقوله ـ تعالى ـ (الأعراف: ١٥٧-١٥٨): (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) ....؟!

(أنا)ـ : يبدو أن الرجل راعى مشاعر المسلمين بنسبته القول بعموم نبوة النبي (ص) إلى (المؤولين)، لا إلى النبي نفسه كما فعل بعض آخر حيث نقل صاحب (في ظلال القرآن) عمن عبر عنهم بأعداء الإسلام من المستشرقين أنهم « *يقتطعون هذه الآية* (أي الآية ٩٢ من الأنعام) *من القرآن كله، ليزعموا أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان يقصد في أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها . وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذي ما كان خياله يطمح في أول الأمر إلى أوسع منه فتوسع في الجزيرة كلها، ثم همَّ أن يتخطاها .. لمصادفات لم يكن في أول الأمر على علم بها! وذلك بعد هجرته إلى المدينة، وقيام دولته بها!..* »

ثم قام بالرد عليهم وتفنيد زعمهم[٤٥٨] كما فعل غيره، ومما قالوه في هذا الصدد هو أن (مَنْ حَوْلَهَا) ـ في قول الله تعالى: (لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) ـ معناه جميع أهل الأرض[٤٥٩]، فالآية الكريمة، لا فقط لا تنافي عالمية نبوة النبي (ص)، بل تدل على ذلك[٤٦٠]

عموم النبوة هو الأصل

(الناصر)ـ : هنا مسألتان: الأولى أن عموم نبوة لا يحتاج إلى دليل، فلا يأتي ببال من سمع بها أنها ربما تكون خاصة بأناس معينين غيره، فعليه أن لا يهتم بها،

ومن هذا الباب قوله تعالى (الأحقاف: ٢٩-٣٠): ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ...﴾ ولم أذكر الآية الكريمة لأستدل بها على عموم نبوة النبي (ص)، ولا لأفند دعوى الرجل بأن النبي (ص) لم يكن يرى نفسه إلا رسولا إلى قومه فقط، بل كمثال لما هو غير خاف من أن النبوة ـ بل وجميع الدعوات الإصلاحية ـ لن تتحدد بأناس كانت قد ظهرت فيهم، وأنها لن تحتاج إلى دليل على عدم اختصاصها بأول المخاطبين بها ...، فحتى لو فُرض (جدلا) تصريح النبي بأنه لم يُبعث إلا إلى فئة خاصة، فلا يحق لأحد غيرهم أن يؤمن به! لم يُطَع في ذلك ...

لا بد من التدرج

والمسألة الثانية أن الالتزام بكون النبوة العامة يجب أن يكون جميع خطابها، منذ ظهورها، موجها إلى كافة الناس التزام بما لا يلزم، فلا مانع من أن يبعث الله نبيا في قوم وإن كانت نبوته عامة، فيبدأ منهم ...، بل ولا أكاد أتصور غير ذلك، وهذا ما أحاول توضيحه قدر المستطاع

قال في تفسير الميزان (١٦١/٤): « أمره الله تعالى بعد القيام بأصل الدعوة أن يبدأ بعشيرته فقال: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ... فامتثل أمره وجمع عشيرته ودعاهم إلى ما بعث له ...

ثم أمره الله سبحانه أن يوسع الدعوة لقومه على ما يظهر من قوله: وَكَذلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًا لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَهَا ... وقوله: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ... وقوله: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، وهذه الآية من الشواهد على أن الدعوة غير مقصورة عليهم، وإنما بدأ بهم حكمة ومصلحة

ثـم أمـره اللّـه سبحانه بتوسـعة الدعـوة للدنيا من جميـع المليين وغيرهـم كما تدل عليـه الآيـات السـابقة كقوله تعـالى: (قُـل يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُـولُ اللَـهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وقولـه: (وَلَكِـنْ رَسُـولَ اللَـهِ وَخاتَـمَ النَّبِيِّينَ) وغيرهمـا ممـا تقدم »

مرحـلـتـان

أرى أن مـا قـاله السيد (ره) صحيـح بإجمالـه، فأبني عليـه، وأضيف إليه أن دعوة النبي الخاتم (ص) مرت بمرحلتين رئيسـيتين . بدأت الأولى بإنذاره عشيرته الأقربين، ثـم أم القـرى ومـن حولهـا، فـكان ينـزل مـن القـرآن ما يهم هـؤلاء ويمسـهم ويؤثر فيهم حسـب خصـائصهم وإن كانـت ناتجـة عـن ظـروف حيـاتهم الخاصـة بهـم ...، ذلك ليتـدرج بهـم ويؤهلهـم ليكونـوا (أمـة) تتمثل بهم النبـوة الخاتمة ...

أرى أن لذلـك بـدأ القـرآن الكريـم بالـنـزول إلـى أهـل أم القـرى ومـن حولهـا، لا فقط بلسـانهم الـذي لم يكونوا يفهمون ويعقـلون إلا بـه[٤٦١]، بل وبدفـعهم للإيـمان عبـر تبشيرهم بـما كانـوا يعرفونـه ويحبونـه، وتخويفهم ممـا كانوا يعرفونـه ويرهبونه ...، فـأرى صحيحـا مـا أشـار إليـه (الشـاطبي) بقـوله[٤٦٢]: « *وأُخبـروا (أي العرب) عن نعيم الجنـة وأصنافـه بمـا هـو معهود في تنعمـاتهم فـي الدنيا لكن مبرأ مـن الغوائل والآفات التـي تـلازم التنعيـم الدنيـوي كقـوله: (وَأَصْحَـابُ الْيَمِيـنِ مَـا أَصْحَـابُ الْيَمِيـنِ . فِـي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْـدُودٍ . وَمَـاءٍ مَّسْكُوبٍ . وَفَـاكِهَـةٍ كَثِيرَةٍ . لا مَقْطُوعَـةٍ وَلا مَمْنُوعَـةٍ . وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا)*، وبيـن *مـن مأكـولات الجنـة ومشروباتهـا مـا هو معـلوم عنـدهم كالـماء واللبن والخمـر والعسـل والنخيـل والأعناب وسـائر مـا هو عندهم مألـوف*، دون *الجوز واللوز والتفـاح والكمثرى وغيـر ذلـك مـن فواكـه الأريـاف وبـلاد العجم*، بل *أجمـل ذلك في لفظ الفاكهـة* »[٤٦٣]

فليـس مـن الضـروري أن يكـون جميع ما ذكره القـرآن الكريم آنذاك من (تفاصيل)

نعم الجنة مفهوما ومرغوبا لجميع الناس أينما كانوا، إذ يكفي أنها كانت مما يشتهيه ـ أو يرهبه ـ أهل مكة ومن حولها، فتركيز القرآن عليه ووعدُ اللّه المؤمنين بما كان يُشتهى وتوعيده الكافرين بما كان يُخاف ويُرهب قد كبّر الآخرة في النفوس[٤٦٤]، وصغّر الدنيا ونعيمها وجعله قليلا[٤٦٥] فخف الاهتمام به، كما وقلل من التأثر بالمترفين الذين كانوا يتنعمون بأطعمة وأشربة لذيذة، ومجالس ومساكن مريحة، وملابس غالية ناعمة من سندس وإستبرق..، ويتظاهرون بلبس ما يدل على ترفهم كأساور من فضة وذهب ولؤلؤ[٤٦٦] ...، فتلتفت إليهم الأنظار وتثور في النفوس الحسرة وتمني العيش مثلهم، فاللّه عز وجل ـ مضافا إلى بيان حقارة نعيم الدنيا وزخارفها ... ـ، قد وعد المؤمنين بأن يؤتيهم في الآخرة ما يشتهون خالية عن المنغصات التي لا يكاد يخلو عنها نعيم الدنيا، وبلا خوف من أن ينفد أو يحاسبوا عليه[٤٦٧] ...، ولم يعدهم اللّه بها ابتداءا ـ لأمر أو آخر ـ وهم لا يعرفونها، أو لا يرغبون فيها

وأما من لم يشته ما اشتهاه هؤلاء فله ما أراده وطلبه، فإن اللّه سبحانه ذكر تلك النعم لا لكونها خيرا بنفسها يجب الاهتمام بها والإقبال عليها والتنافس فيها ...، بل لأنها من مظاهر رضوان اللّه[٤٦٨] فمن رغب فيها ـ أو في شيء منها ـ وهو يعلم أن اللّه هو الذي يجازي بها عباده الصالحين، أي أنه وجد فيها ثواب اللّه ورضوانه فسعى إليه فهو على خير، بل وكان من الأبرار كما في سورة الإنسان (الآية الخامسة وما بعدها)

ومن لم يرغب في النعم المذكورة، ولم يرَ أن رضوان اللّه يتمثل فيها وحدها، ووجد أن له مظهرا آخر (أو مظاهر أخرى) خيرا منها، أو مثلها، فاتبعه، فهو على خير كذلك، ولا أرى سببا معقولا يدعوه إلى الطعن في طالبي تلك النعم وتحقيرهم، كما عن بعض الأعلام المتأثرين بالعرفان[٤٦٩]، فإنه كما قال اللّه تعالى (الإسراء: ٨٤):

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً)

تـأكـيـد

تأكيدا لما ذكرته أقول: إن ما ذكره القرآن الكريم من نعيم الآخرة هو ما كان يشتهيه ويرغب فيه العرب الأميون من أهل مكة ومن حولها حين بعثة النبي (ص)، فالتبشير به كان يدعو المؤمنين ـ أو يدفع بعضهم ـ وينشطهم للإيمان والعمل بالدين، وليس من الضروري أن يظل ذلك مرغوبا لكل الناس في جميع العصور والظروف، بل وليس ذلك طبيعيا لا لاختلاف ظروف الناس المؤثرة في ميولهم وتطلعاتهم ...، بل ولما هو المتوقع من أن الذين آمنوا، ممن بدأ بهم النبي (صلى اللّه عليه وآله)، قد تغيروا بالتدريج فتغيرت تطلعاتهم، فلم يعودوا ينشدون بعض ما كانوا يرغبون فيه من بعض تفاصيل نعيم الآخرة التي أشار إليها القرآن الكريم، ولا أرى مانعا من أن يكون هذا من مصاديق (الإنساء) الذي ذكره اللّه تعالى بقوله (البقرة: ١٠٦): (مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، بأن يقال: بعدما كان اللّه قد أنزل آيات ذكر فيها بعض نعيم الآخرة، وكان ذلك ضروريا آنذاك بالنظر إلى رغبات الذين بعث فيهم النبي صلى اللّه عليه وآله، فأخذوا يهتمون بها ويتفاعلون معها ويؤمنون بها ...، وكان من الطبيعي أن يتبدل ـ بالتدريج ـ نظرهم إليها، فيزول اهتمامهم بها، أو يخف، فـ(ينسيهم اللّه) الآيات المتضمنة لتلك النعم، وإن لم يزالوا يتلونها ويؤمنون بها، ولكن لا بأن يركزوا عليها و(يتبعوها) مثلما كانوا يفعلون حين نزولها، ذلك بعد أن آتاهم اللّه خيرا منها أو مثلها[٤٧٠] ...

(أنا)ـ : ما دام الأمر كذلك فالمفروض أن يكون اللّه تعالى يؤتيهم خيرا مما أنساهم، فماذا يعني قوله: (أَوْ مِثْلِهَا)؟

(الناصر)ـ : قد يكون المراد به ما كان متوقعا من أن رغبات المؤمنين إما

كانت من النوع الذي ينتج عن طبيعة الإنسان كما في الأمور الراجعة إلى ما يسمى (الجنس)، فلم يكن يتوقع أن تتبدل، فلم يكن اللّه ينسي المؤمنين الآيات التي قد تضمنت الوعد بتحقيق هذا النوع من الرغبات، وإما كان متوقعا أن تتغير إلى الأفضل كالرغبة في الكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بدلا من الرغبة فيما وعد اللّه تعالى بقوله (يس: ٥٥-٥٦): (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُون . هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ) على أن يكون معناه ما فسروه به[٤٧١]، لا ما فسره به (ابن عربي)[٤٧٢] مثلا ...، وإما ـ يتوقع ـ أنها كانت قد تبدلت إلى أمثالها كبعض (المشتهيات) من المطعومات والمشروبات والملبوسات مثلا ...، والمشتهيات بما هي مشتهيات أمثال

أجل، إن اللّه عز وجل قد وعد بتلك النعم من يرغب فيها، ولم يعِد بها كل أحد من المؤمنين وإن لم يرغب فيها، بل وعده ما يشتهي ويتمنى ويشاء[٤٧٣]، فلا مورد لما تمحله الرازي ـ مثلا ـ بقوله في تفسير قول اللّه تعالى (الإنسان: ٢١): (وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ): «*السؤال الثاني: السوار إنما يليق بالنساء وهو عيب للرجال، فكيف ذكر اللّه تعالى ذلك في معرض الترغيب؟*

الجواب: أهل الجنة جرد مرد شباب فلا يبعد أن يحلوا ذهبا وفضة وإن كانوا رجالا، وقيل: هذه الأسورة من الفضة والذهب إنما تكون لنساء أهل الجنة وللصبيان فقط، ثم غلب في اللفظ جانب التذكير

وفي الآية وجه آخر وهو أن آلة أكثر الأعمال هي اليد وتلك الأعمال والمجاهدات هي التي يتوسل بها إلى تحصيل المعارف الإلهية والأنوار الصمدية فتكون تلك الأعمال جارية مجرى الذهب والفضة التي يتوسل بهما إلى تحصيل المطالب، فلما كانت تلك الأعمال صادرة من اليد كانت تلك الأعمال جارية مجرى سوار الذهب والفضة، فسميت الأعمال والمجاهدات بسوار الذهب والفضة

وعبر عن تلك الأنوار الفائضة عن الحضرة الصمدية بقوله: (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُورًا)، وبالجملة فقوله: (وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ) إشارة إلى قوله: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)، وقوله: (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُورًا) إشارة إلى قوله: (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) ...

فهذا احتمال خطر بالبال، والله أعلم بمراده »

لِمَ لم يحقر الشهوات؟

(الراصد)ـ مقاطعا ـ: لماذا لم يعمد القرآن إلى تحقير الشهوات مطلقا وتحرير الناس عنها كما يفعل ذلك العرفاء، بدلا من التركيز عليها وتزيينها والوعد بتحقيقها فيثير إشكالا كالذي أشار إليه الشيخ مرتضى المطهري ـ مثلا ـ[٤٧٤]؟

(الناصر)ـ : يبدو لي أن ذلك كان لمجموع أمرين، الأول: أن الله هو الذي جعل الشهوات للإنسان، ولا تبديل لخلق الله[٤٧٥]، فلا يحاربها الدين، وإنما يقننها ويهديها، بصورة مباشرة وغير مباشرة ...، والثاني: أن الذين كان الرسول صلى الله عليه وآله قد بدأ دعوته منهم لم يكونوا مهيَّئين <u>**بعدُ**</u> ليدعوهم إلى عبادة الله حبا له ولكونه أهلا للعبادة[٤٧٦] فحسب، فدعاهم بما كان أنسب إليهم وإلى تطلعاتهم ...، كما في رواية الكافي (٢/١٢٠) عن أحدهما (ع) أنه قال: «...، وإنه (أي الله تعالى) ليريد تحويل العبد عن الأمر فيتركه عليه حتى يحوله بالناسخ كراهية تثاقل الحق عليه »

وكما أفاد العلامة المجلسي بقوله[٤٧٧]: « *حاصله: أنه (أي الله تعالى)* يريد إزالتهم عن أمر من الأمور، لكن يعلم أنه لو بادر إلى ذلك يثقل عليهم فيؤخر ذلك إلى أن يسهل عليهم ثم يحولهم عنه إلى غيره فيصير الأول منسوخا كأمر القبلة فإن الله تعالى كان يحب لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم التوجه إلى الكعبة، وكان في أول وروده صلى الله عليه وآله وسلم المدينة هذا الحكم شاقا عليهم لألفهم بالصلاة إلى بيت المقدس فتركهم عليها، فلما كملوا وأنسوا بأحكام الإسلام وصار سهلا يسيرا عليهم حولهم إلى الكعبة »[٤٧٨]

السـجـع ...

يبدو لي أن بهذا أيضا يمكن فهم وجود (السجع) في القرآن الكريم، الأمر الذي أثار القيل والقال، فمثلا في كتاب (الإتقان ...: ٢/٢٦٥) للسيوطي: « ...

وهل يجوز استعمال السجع في القرآن (يقصد: تسمية ما في القرآن سجعا)؟ خلاف: الجمهور على المنع لأن أصله من سجع الطير فشرّف القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في وصفه بذلك، ولأن القرآن من صفاته تعالى فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها

قال الرماني في إعجاز القرآن: ذهب الأشعرية إلى امتناع أن يقال في القرآن: (سجع)، وفرقوا بأن السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحال المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها، ولذلك كانت الفواصل بلاغة والسجع عيبا، وتبعه على ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني، ونقله عن نص أبي الحسن الأشعري وأصحابنا كلهم(٤٧٩)

قال: وذهب كثير من غير الأشاعرة إلى إثبات السجع في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة كالجناس والالتفات(٤٨٠) ونحوهما

قال: وأقوى ما استدلوا به: الاتفاق على أن موسى أفضل من هارون، ولمكان السجع قيل في موضع: (هَارُونَ وَمُوسَى)، ولما كانت الفواصل موضع آخر بالواو والنون قيل: (مُوسَى وَهَارُونَ) »(٤٨١)

فالذين نفوا السجع عن القرآن، أو أثبتوه له ولكن رأوا أن سجعه غير مقصود في نفسه أو غير متكلف، بنوا على ما هو معروف من أن القرآن إنما يتعهد بيان الحقائق فقط، وأما إذا قلنا: إن ما قد تعهده القرآن أول نزوله هو التأثير في الذين

نـزل عليهـم بغيـة تحريرهـم ومـن ثم تأهيـلهم ليكونـوا (خير أمة) الأمر الـذي كان لا بد منـه لديمومـة نبـوة النبي صلى اللّه عليه وآلـه ...، فهو ممـا كان لا بد منه

(أنا)ـ مقاطعا ـ : ألا يعني هـذا أن مـا نـزل مـن القـرآن آنـذاك إنمـا كان للإثـارة والتأثير، وقد قال اللّه تعالى (الإسراء: ١٠٥): (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)، بـل قـال (الأعراف: ١٨١): (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)؟!

(الناصر)ـ : مـا يثيره القرآن موجود في النفس، فهو حق ...، وإثارته لـه لا فقط لن تؤدي إلى إبطـال شيء من مكونات النفس ونزعاتهـا، بل وتعدلهـا وتـمنعها عن الطغيـان ...، وأهـم مـا كان يحقـق ذلـك أمران: الأول أن للقرآن دعوة: يدعو للقسـط ويدفـع النـاس إليـه ويهـدي للتي هـي أقـوم ...، ولا يدعـو إلـى مـا يثير الإنسـان، بل يدعـو بـه ...، والثانـي وجـود الولايـة التي كان القرآن قد اقتـرن بها(٤٨٢)

لمـاذا الإعـلان؟

(أنا)ـ : يراودنـي هنـا تسـاؤل، هـو: الـذي كان لا بـد منه هو أن يبـدأ النبي (ص) مـن أهـل القـرى ومـن حولهـا، فيتـدرج بالذيـن آمنـوا منهـم ...، ولكـن ما هو السـبب لإعـلان ذلـك في القـرآن الكريم؟

(الناصر)ـ : يبدو لي أن إعلان ذلك كان أشد لفتا لأنظارهم وأقوى تأثيرا عليهم مما لو لم يُفعل ذلك ...، وهذا لا أظنه يخفى على طالب العلم، ويبدو لي أن لهذا لم يكتفَ بنزول القرآن بالعربية، بل وأعلن القرآن عروبته وركز على ذلك، فإنهم ـ كما قلنا سابقا (فصل لِماذا كانوا أميين؟) ـ كانوا شديدي الانغلاق على أنفسهم، فلم يكونوا يقبلون ما لم يكن عربيا، ولا سيما إذا كان دينا، قال اللّه تعالى (الشعراء: ١٩٨- ١٩٩): (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ...)

فيبـدو لـي أنهـم (فـي البـدء) كانـوا يحملون أمثال قولـه تعالـى: (وَلِتُنـذِرَ أُمَّ الْقُرَى

وَمَنْ حَوْلَهَا) على أن النبي (ص) مبعوث إليهم وحدهم، وإلا لم يبالوا به ولم يستجيبوا له، وأنهم بالتدريج انتبهوا إلى أن النبي (ص) مبعوث إلى عامة الناس، وأن اللّه تعالى كان أمره بإنذارهم للبدء بهم والانطلاق منهم ...، ذلك بعدما أخذوا يتعقلون الأمور من جهة، ومن جهة أخرى كان بالتدريج ينزل من القرآن ما يدلهم على ذلك

أجل، بما أن اللّه الحكيم كان عالما بخاصيتهم التي أشرت إليها فيبدو لي أنه تعالى لم ينزل (في البدء) ما خالف فهمهم، فلا أرى صحيحا (السعي) لجعل خطاب القرآن عاما منذ بدء نزوله، كما نجد ذلك في تفسيرهم (القرى) في قول اللّه تعالى: (وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا) بجميع بلاد الأرض، كما -مثلا- في (مجمع البيان) إذ قال: « (وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) يعني بأم القرى مكة، ومن حولها أهل الأرض كلهم، عن ابن عباس ...، وإنما سميت مكة أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها فكأن الأرض نشأت منها . وقيل: لأن أول بيت وضع في الدنيا وضع بمكة فكأن القرى تنشأت منها، عن السدي، ... »[٤٨٣]

ملة أبيكم إبراهيم

ويبدو لي أن لهذا ذكّرهم اللّه تعالى بأن ما يأمرهم به ويدعوهم إليه هو ملة أبيهم إبراهيم، قال (الحج: ٧٧-٧٨): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

أجل، إن ما يبدو لي هو أن الآية خاطبت الذين آمنوا من العرب الأميين، لا عامة المسلمين، لأنه يواجه، لا فقط الإشكال بأن إبراهيم (ع) كان أبا العرب، لا

جميع المسلمين[٤٨٤]، بل وأيضا إرباكا لقوله: (اجتباكم)، فإن ظاهره أن اللّه تعالى كان قد اختار أناسا معينين ليكونوا شهداء على الناس، لا جميع المسلمين

فما يبدو لي بشأن الآية الكريمة أنها نزلت في (أواخر) المرحلة الأولى حيث كان المؤمنون بدأوا يتأهلون لأن يعوا رسالتهم التي كانت تنتظرهم، وهي أن يكونوا (فعلا) خير أمة تخرج للناس ...، قوامين بالقسط، شهداء على الناس ...، فأخذوا يخاطَبون بأمثال قول اللّه تعالى (آل عمران: ١٠٢-١٠٤): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْكُنْتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

فهم كانوا بحاجة ليبين اللّه لهم آياته ليعرفوا الهدى والاهتداء رجاء أن يهتدوا، وأن يذكرهم بأن عليهم – ليكونوا مهتدين مفلحين – أن يكونوا (أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

ومما يجعل المعنى الذي ارتأيناه أقرب إلى الآية أن ظاهرها الدفع إلى (الشهادة) المطلوبة وتحقيقها، وأنها لا تتحقق إلا بما أمروا به في الآية، أي أن اللّه كان يريدهم أن يقوموا بما أمرهم به ليكونوا شهداء على الناس بتأهلهم لذلك من جهة، وبهوي أفئدة الناس إليهم من جهة أخرى، ويكون الرسول شهيدا عليهم بصيرورتهم كما قال اللّه تعالى (الأحزاب: ٦): (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ...)[٤٨٥] ...

كانت الدعوة عامة

مما ينبغي تأكيده هنا هو أن الدعوة لم تكن خاصة بالعرب الأميين، وإنما كانت في بدئها موجهة إليهم، وبالأحرى: إن ما كان موجها إليهم هو خطاب القرآن وأما دعوته فلم تكن خاصة بهم، وأقصد بدعوته ما يستهدفه ويدعو إليه من الإيمان باللّه واليوم الآخر، وعبادة اللّه ...، وأن يكون الناس أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(٤٨٦) ...، ويمكن تلخيصها بأن يقوم الناس بالقسط كما قال اللّه عز وجل (الحديد: ٢٥): (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ(٤٨٧) لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)، فما يظهر لي من الآية الكريمة أن ما كان الأنبياء عليهم السلام يدعون الناس (إليه) هو (القيام بالقسط)، وأما البينات والكتاب والميزان فهي مما كانوا يدعون (به)، وكذلك الحديد فإنه مما يحتاجه الدين ...، هذا مضافا إلى ما له من منافع للناس

أجل، كانت دعوة القرآن عامة كما في تفسير الميزان (١٥٩/٤) ـ مثلا ـ حيث قال: « *فمن المعلوم أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كان مبعوثا إلى كافة البشر من غير اختصاص دعوته بقوم دون قوم، ولا بمكان دون مكان، ولا بزمان دون زمان (و مرجع الأخيرين إلى الأول في الحقيقة) البتة، قال تعالى: (قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ)، وقال تعالى: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)، وقال تعالى: (وما أَرْسَلْناكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ)*

على أن التاريخ يحكي دعوته صلى اللّه عليه وآله وسلم اليهود وهم من بني إسرائيل، والروم والعجم والحبشة ومصر وليسوا من العرب، وقد آمن به من المشاهير سلمان وهو من العجم ومؤذنه بلال وهو من الحبشة وصهيب وهو من الروم، فعموم نبوته صلى اللّه عليه وآله وسلم في زمانه لا ريب فيه، والآيات السابقة تشمل بعمومها الأزمان والأمكنة أيضا ... »

المرحلة الثانية

وبدأت المرحلة الثانية، لا بهجرة النبي (ص) إلى المدينة كما قد يُتصور، بل من حيث أظهر اللّه الهدى ودين الحق الذي كان قد أرسل به رسوله على الدين كله ...، بأن كان المؤمنون خير أمة ...، وبعد أن جاء نصر اللّه والفتح، وأخذ الناس يدخلون في دين اللّه أفواجا، فوضعت الحرب أوزارها كما قال اللّه عز وجل (محمد: ٤): (فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) ...

فما أفهمه من الآية الكريمة، وأستفيده منها، أنه كانت للحرب أوزارها التي لا تنفك عنها عادة، لا فقط في نفوس الذين كان يقاتلهم المؤمنون ...، بل وأيضا عند المؤمنين أنفسهم ...، فكما كانت تمنع هؤلاء عن النظر في الدين، كانت تمنع المؤمنين عن كثير مما كان لابد منه لقيامهم بالقسط[٤٨٨]، وكان اللّه العزيز قد شرّع الحرب وحث عليها (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ)، ولينتهي أئمة الكفر عن التصدي للمؤمنين والصد عن سبيل اللّه، كما قال (التوبة: ١٢): (فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ) ...، فيتبين الرشد، ويدخل المؤمنون في السلم كما قال اللّه تعالى (البقرة: ٢٠٨): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)، على أن يكون (السلم) بمعنى الصلح والسلام، لا بمعنى الإسلام أو الطاعة كما فسروه بذلك

فالغلظة المذكورة في الآية الكريمة من ضرب الرقاب وشد الوثاق لتضع الحرب أوزارها، أي تصبح بلا أوزار مؤثرة، كما في القتال لدفع البغي ـ مثلا ـ ...

كما، وأفهم من الآية الكريمة أن الحرب لا فقط كانت ضرورية (ليثخن النبي

في الأرض)[٤٨٩]، بل وأيضا ليبلو اللّه المؤمنين فيتخذ منهم شهداء كما قال عز وجل (آل عمران: ١٤٠-١٤١): (... وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ

وعلى أي حال فما أريد قوله هو أن في المرحلة الثانية أصبح خطاب القرآن عاما يدعو كافة الناس إلى الإيمان ...، بعد أن كان يخاطب العرب الأميين، وبالأحرى إن المرحلة الأولى هيّأت ما يسّر القرآن لذكر الناس كافة فأمكن أن يخاطبهم ويدعوهم، ولم يكن ذلك ممكنا إلا بأمرين مترابطين، الأول أن تكون للنبي سنة وطريقة واضحة قائمة يمكن معرفتها برؤيتها والتأسي به في اتخاذها طريقا والاهتداء بها[٤٩٠]، وأقصد بسنته (ص) نهجه[٤٩١]، لا مجرد أقواله وأفعاله، فإن أقواله وأفعاله وحدها لا تهدي كما لا يخفى، وأما سنته (ص) وطريقته فإنها ـ بإجمالها ـ مما تعرفه النفوس وتحبه وتقبل عليه وتؤمن به ...

وثاني الأمرين أن يكون هناك (دائما) من يذكّر بها ويدعو إليها ...، ولولا ذلك لم يمكن الإيمان بالنبي والاهتداء به صلى اللّه عليه وآله

أجل، أرى أن اللّه عز وجل أراد أن يحق الحق ويبطل الباطل، ويُظهر ما أرسل به نبيه على الدين كله ...، فاختار العرب الأميين وتدرج بهم ليبلغ بالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات حيث كان قد وعدهم وقال (النور: ٥٥): (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)، وباعتبارهم حاملي راية الدين الخاتم زادهم فقال: (وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[٤٩٢] فيتحقق ـ بدرجة كافية للبلاغ[٤٩٣] ـ ما كانوا قد أُمِروا بالقتال لأجله، وهو ما ذكره اللّه تعالى بقوله (الأنفال: ٣٩): (وَقَاتِلُوهُمْ

حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ...)

وتحقق ما كان يريده اللّه تعالى مما أنعم عليهم ويذكرهم به، وهو أن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(٤٩٤)، فكان كما قال (آل عمران: ١١٠): (كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...)(٤٩٥)، فتم بذلك ما كان لا بد منه في النبوة الخاتمة، وكما قال اللّه تعالى (الأنعام: ١١٥): (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، أي عُلم صدق القرآن بتحقق ما أنزل فيه، ولُمس عدله بتمثله في الواقع ...

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(أنا)ـ مقاطعا ـ : رأى السيد الطباطبائي في تفسيره أن الآية تمدح حال المؤمنين في أول ظهور الإسلام من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وعلى أي حال فإني لم أجد فيما نظرت إليه من أقوال المفسرين ما يجيب على تساؤلي بشأن ما يبدو من وجود علاقة بين كونهم خير أمة وبين قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٤٩٦)

(الناصر)ـ : قبل أي شيء ينبغي أن أنبه إلى أني لا أستند فيما أرتئيه إلى الآية وإنما آنس بها ...، فلا يضره لو صح رأي السيد (ره)، ولكن يبدو لي أن سياق الآيات ـ ولا سيما قوله تعالى: (وَلْتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ ...) ـ لا يساعد على قبول ما ذهب إليه

وأما العلاقة بين الأمرين فأحاول توضيحها فأقول:

لا يخفى أن الإنسان موجود اجتماعي لا يقدر على أن يكون وحده، وحتى لو أجبر على ذلك، أو تكلفه لسبب أو آخر، فهو في قرارة نفسه لا بد وأن ينتمي إلى أناس فيكون معهم (أمة)(٤٩٧)

وبما أن الناس يختلفون فيما يستهدفون فكل يطلب من يشاركه في نزعته[٤٩٨]، فتتكون منهم أمم وجماعات مختلفة ...، وخيرها الذين جمعهم هدف نبيل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان باللّه أنبل الغايات، والنزوع إليها أسمى النزعات، لا فقط عند اللّه تعالى، بل وعند الآمرين بالمعروف أنفسهم، وعند الناس أيضا

أما عند أنفسهم فيكفي أن كلا منهم يجد في نفسه، لا فقط حبا لإخوانه، بل وكرامة لهم ...، كما ويجدون أنهم يمارسون أنبل ما يمكن للإنسان أن يمارسه، فمن جهة يسعون لإقامة الناس بالقسط بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ومن المعروف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيأمرون بهما، ومن جهة أخرى يؤمنون باللّه ...

وأما عند الناس فمن الواضح أنهم يعظمون القائمين بالمعروف، فمثلا لو وجدوا إنسانا يدفع الظلم وينصر المظلوم فإنه يكبر في نظرهم، وإذا رأوا جماعة قائمة بذلك وجدوها من أكرم الجماعات وأشرفها[٤٩٩]، فكيف بما إذا وجدوا قوما اجتمعوا، لا فقط على نصرة المظلوم، بل على أن يأمروا بنصرة المظلوم وينهوا عن الظلم؟

أجل، إذا رأى إنسان أمة وجماعة يأمرون بما (يعرفه قلبه) ويستحسنه، وينهون عما (ينكره قلبه)، أو سمع بها، وجدها خير أمة له وللناس[٥٠٠] ...

المعروف والمنكر

(**أنا**) ـ مقاطعا ـ : هذا إذا كان معنى المعروف والمنكر في الآية ما أشرت إليه، لا ما كاد أن يكون متسالما عليه من اعتبار (المعروف) فيها بمعنى (الواجب)، و(المنكر) بمعنى (الحرام)، لذلك اعتبروا الأمر بالأول والنهي عن الثاني واجبا كفائيا[٥٠١] ...، أليس كذلك؟

(**الناصر**)ـ : ما يبدو لي هو أن ما فعلوه مبني على مصادرة ...، وأن المعروف والمنكر في الآية استعملا في معناهما اللغوي، وبما أن الآية لم تحدد ظرف المعروف والمنكر، فالأنسب ما أشرنا إليه من أن المعروف ما هو معروف لمطلق الإنسان، والمنكر ما يكون منكرا له، أي أن (القلب) يعرف الحق والباطل ويميز بينهما[٥٠٢] ...

وأرى أن الآية ذكرت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إخبارا عن صفات الذين هم خير أمة، لا تشريعا لوجوبهما، ولا أرى حاجة إلى تشريع ذلك فإن إيمان الأمة الذي يدفعهم إلى الأمر والنهي كاف لقيامهم بهما، وإن كانوا بحاجة إلى التذكير ...

(**الراصد**)ـ : ليكن المعروف والمنكر في الآية ما كان معروفا ومنكرا عند المسلمين كما في تفسير الميزان مثلا[٥٠٣]

(**المراقب**)ـ متطوعا ـ : لا دليل على كون لام المعروف والمنكر للعهد كما أفاد (ره)، فيبدو أن القرآن استعملهما في المعنى الذي استعملهما فيه في عدة موارد منها حكايته لقول لقمان (لقمان: ١٧): (يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)، وقوله تعالى (آل عمران: ١١٣- ١١٤): (لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ)

(**الناصر**)ـ : أرى صحيحا أن لام المعروف والمنكر للعهد، وأن المعروف ما تحقق في حياة المسلمين فعرفوه حقا، لا فقط لكونهم مسلمين، بل لأن اللّه قد جبل قلب الإنسان على معرفة الحق وإنكار الباطل ...، فمن كان قلبه على فطرته ورأى ما أقامه المسلمون، أو سمع به، عرفه ووجده حقا، وعلم أن ما يخالف ذلك منكر[٥٠٤]

تلك هي إشارات مقتضبة إلى بعض جوانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين كانا خصلتين بارزتين من خصال الذين وصفهم اللّه عز وجل بـ(خير أمة)...، والتوسع في ذلك يتطلب التطرق إلى مسائل كثيرة، منها أن المتصفين بتلك الخصلة ـ أي خصلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ لا بد وأن يكونوا (أمة) لها إمام ...، ومنها أنها (أي الخصلة المذكورة) إنما يقوم بها المؤمنون، لا طاعة للّه تعالى وتعبدا له، أو لحكم العقل به[٥٠٥]، بل بدافع غريزي مهتد ...، وأنها تلبية لحاجة أساسية للآمرين يتوقف عليها إيمانهم[٥٠٦]، ولحاجة المأمور النفسية إلى من يتصدى له ويتعهده، قبل أن تكون دافعا له للإيمان ...، وأمور كثيرة قد أشير إلى بعضها سابقا، وسنتطرق إلى بعضها مستقبلا إن شاء اللّه تعالى[٥٠٧]

خلاصة

خلاصة ما كنت في صدده من كل هذا الحديث هو أن اللّه عز وجل جعل نبوة النبي صلى اللّه عليه وآله عامة دائمة خاتمة بأن تدرج بالأميين فأخرج منهم للناس خير أمة تجسدت فيها سنة النبي (ص)، فرآها الناس ووجدوا فيها ما عرفته نفوسهم وحنت إليه، فرغبوا في الانتماء إليها، فدخل الناس في دين اللّه أفواجا[٥٠٨]

ولو أنهم لم يتأهلوا ليكونوا كذلك لكان على اللّه تعالى أن يأتي بـ(قوم) آخرين تتوفر فيهم خصال لا بد منها في خير أمة كما قال (محمد: ٣٨): (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم)، وقال تعالى (المائدة: ٥٤-٥٦): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) ...

ثـم ضمـن استمرارها بـأن اختـار أئمـة يذكـرون النـاس الذيـن يجيئـون مـن بعدهم بسنة النبي ويدعونهـم إليهـا، ويُسـمعون النـاس دائمـا مـا تتجـاوب معـه قلوبهـم، فلـم يكـن يضـر اللّـه شيئا مـن ارتـد وانقـلب علـى عقبيـه بمـوت النبي صلـى اللّـه عليـه وآلـه[٥٠٩]، وهـو مـا يحتـاج إلـى حديـث طويـل[٥١٠]

لقـد أطلنا الوقوف هنا، ولنعد إلى الأخ ـ وأشار إلى (الزين) ـ ليكمل حديثه الذي كان بصدده

(الزين)ـ : قلـت: إنـي بحبـي للإيمـان الـذي أشـم رائحتـه فيما أستمع من القرآن أحـب النبـي صلـى اللّـه عليـه وآلـه وأرغـب فـي اتّبـاعه والكـون معه، فأجـدني معه ومع المؤمنيـن الذيـن كان نـداء النبـي (ص) قـد قـرع آذانهـم فرغبوا فيه واستمعوه، فوجـدوه حقـا[٥١١] وآمنـوا بـه (ص) واتبعـوه وكانـوا بذلك مع الأنبيـاء[٥١٢] ...

كذلك أجدني موجودا، أو أكاد، حين بعثة النبي صلى اللّه عليه وآله، ومندمجا فـي المؤمنيـن آنـذاك، حاسّـا بمـا كان يطرأ لهم ومنفعلا بانفعـالاتهم[٥١٣]، بل وشـاعرا بما كانوا يجـدونه ويعـانونه في جاهـليتهم[٥١٤] ...، فأستطيع أن أسـايرهم وأتابعـهم فـي حركتهـم الإيمانيـة، وهـذا مـا يشـاركني فيه الإخوة، فأرجو من الأخ ـ وأشـار إلى من رمـزت إليـه بـ(الناصـر) ـ أن يتكفل وصفها

(الناصر)ـ : لا بأس، فإني أحـاول الإشـارة باختصـار شـديد إلى ما أحس به من حركـة المؤمنيـن الإيمانية آنذاك مـن خلال مثال، فأقول:

سيرة الإنسان الفطري (جندب)

أفترض أن هناك رجلا اسمه (جندب)، فهو ـ كغيره ـ ينتمي إلى طائفة من الناس ...، فيتبعهم في شتى مظاهر سلوكه، بما منها تدينه وكيفيته، ولكن لا بأن يتعمد ما هم عليه من الكفر ويتعهده ليكون من الذين وصفهم اللّه تعالى في الآيات ٦ ـ ٢٠ من سورة البقرة مثلا

أصادر هنا ما ينبغي أن يكون معروفا، وقد أشير إليه سابقا، وهو أن جندبا مفطور على أن له ربا، وأن هناك آخرة ...، فهو رغم غفلته عن نفسه وعدم تعهده لما هي مفطورة عليه، فلأنه لم يكن قد قام بخنق ما في نفسه والكفر به، فلا بد وأن تدفعه نفسه إلى الاهتمام بدعوة النبي (ص) واستماع قوله، فيجد أن تلاوته القرآن[٥١٥] تذكّره بـ(ربه) الذي يعرفه قلبه[٥١٦]، وتدعوه وتدفعه إلى أن يتخذه ربا ولا يشرك به أحدا ...، وتذكّره بالآخرة التي كان يتوقعها في قرارة نفسه وتجعله يخافها[٥١٧] ويرجوها[٥١٨]، وتدفعه إلى الإيمان بها بالإقبال عليها والاهتمام بها ...، بدلا من تكلف تجنبها والتشكيك فيها وإنكارها والكفر بها ...

واقع المعجزة

يمكنني القول: إن ما يحصل في قلب جندب من استماعه القرآن الذي يتلوه النبي (ص) هو (واقع المعجزة)، أي ما لو انتبه إليه لعلم أنه ليس مما يقدر عليه أحد غير اللّه عز وجل، لكنه لا يحس بالحاجة إلى ذلك فلا يركز عليه ...

(أنا)ـ مقاطعا ـ : هلا توضح هذا

(الناصر)ـ : أفترض أن جندبا، كجُلّ الذين آمنوا بالنبي (ص) ـ لولا كلهم ـ لم يطالب النبي (ص) بمعجزة قبل أن يؤمن به، بل ولم ينتظر حصولها مسبقا، بأن لا يؤمن بالقرآن إلا بعد أن تنزل منه سورة كاملة، فيقوم بدراستها ومقارنتها بغيرها، أو يرجع لذلك إلى المختصين، فيعلم أنه (لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا

بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُـرْآنِ لا يَأْتُـونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كَانَ بَعْضُهُـمْ لِبَعْضٍ ظَهِيـرًا)، فيؤمن به ...، بل إنـه ـ حسبما أرى ـ يندفـع فطريـا إلـى استماع مـا يتلوه النبي (ص)، لا شـكا فيه، بل رغبـة فـي الإيمـان بـه، فيبـدأ الإيمـان فـي قلبه نكتة ثـم يزداد شيئا فشيئا[٥١٩] إلى أن يصبـح كشجرة طيبة ويكـون (مـا يسـمعه) كتابـا ـ فـي قلبـه ـ لا ريـب فيـه نـازلا مـن عنـد اللّه

وكمـا أن جندبـا لا ينتـظر ثبـوت كـون القـرآن معجـزا قبل أن يستـمع له وينصت، فكـذلك لا يحتـاج (لنفسه) النظر إلى ما يحصـل في قلبه بالتـدريج ـ والذي سمينـاه (واقـع المعجـزة) ـ لأجـل العلـم بـه وإدراكه، بل ويتجنب النظـر إليه خوفا غريزيا من أن يؤثـر ذلـك سـلبا علـى إيمانـه[٥٢٠] ...، وإن اضطـر إليـه للفت نظـرٍ، أو للجدال بالتي هـي أحسـن مثـلا، فإنـه يفعل ذلـك بحذر وفي حـدود الضرورة

أمور لا بد منها ...

وممـا ينبغـي الإشـارة إليـه بهـذا الصـدد هـو أن إيمان جنـدب وإن توجبـه ـ في الأسـاس ـ (تلاوة) النبي (ص) للقرآن، ولكنه يتأثر بعوامل أخرى أيضا، منهـا خصاله (ص) وطريقتـه، فلـولا أن يـرى جنـدب صبـر النبي (ص) وتحملـه الأذى وجهاده ... لـم يجعلـه القـرآن مؤمنـا بـه وإن تـلاه النبـي (ص)، ولو لـم يجـده (ص) جنـدب ليّنا لـم يألفـه ولـم ينتـمِ إليـه[٥٢١]، ومـا لـم يكـن معه لم يؤمـن بـه[٥٢٢]، ولـولا كونه (ص) منكشـفا واضحـا[٥٢٣] لـم يعرفـه جنـدب فلـم يطمئـن إليه ولـم يقدر علـى الكـون معه واتباعه[٥٢٤] ...

ومـن أهـم مـا يتأثـر بـه إيـمان (جنـدب) بالنبـي صلى اللّـه عليه وآله هو اسـتجابة النـاس لدعوتـه وإيمانهم برسـالته ...[٥٢٥]

وعلى أي حال فإن أهم ما تثيره تلاوة النبي صلى اللّه عليه وآله للقرآن في نفس جندب وترسخه فيهـا ما هو كامن في نفسـه من ربوبية اللّه واليوم الآخر[٥٢٦]، فيؤمن

باللّه ويطمئن قلبه بذكره[٥٢٧]، وبدلا من أنه لم يكن يدعوه إلا عند الاضطرار[٥٢٨] (يحيا) في نفسه ويكون رب العالمين، فيبدأ يسعى إليه ويتعهد ربوبيته بالإكثار من ذكره ودعائه مخلصا له الدين[٥٢٩] ...

وبدلا من اهتمامه بالدنيا وزينتها وسعيه لها وإعجابه بأهلها واعتبارهم ذوي حظ عظيم يجدها ـ في نفسه ـ لهوا ولعبا، والآخرة هي الحيوان

ذكر اللّه يضبط ما في النفوس ويهديه

ما يحصل لجندب من الإيمان باللّه واليوم الآخر يكون الأصل والمنظم الهادي للأمور الأخرى التي تذكره بها ـ أيضا ـ دعوة النبي (ص)، ولا سيما تلاوته القرآن، فيؤمن بها، فمثلا لمّا يسمع النبي (ص) يتلو (النحل: ٩٠): (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) يجده حقا وصدقا لأنه يذكره فعلا بما هو مفطور عليه من استحسان العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وإنكار الفحشاء والمنكر والبغي ...، ولكن ما يضبطه وينظمه ويهديه في نفس جندب إنما هو إيمانه باللّه واليوم الآخر، ولولا ذلك لطغى بعض ما في ذاته على بعض[٥٣٠]

أجل، فكما يجد جندب فيما يتلوه النبي (ص) من القرآن تذكرة له بربه، فيجد فيه أيضا صدى لما في قلبه من ميول وحاجات فطرية لو لم تلبَّ لظل قلقا ...، فيجده حقا فيخشع له قلبه[٥٣١]، ويقشعر منه جلده ثم يلين جلده وقلبه إلى ذكر اللّه، ويعلم أنه هدى اللّه[٥٣٢] ...

مشاكل مقلقة

كانت تلك لمحة سريعة إلى إيمان جندب، ولكنه مما حصل له من إيمان يبدأ يواجه ما يقلقه ويمنعه الإحساس بالأمن الكامل، منه ما يشاهده من تعرض المسلمين للفتنة والاضطهاد والعذاب والشماتة والسخرية والسباب ... من الكفار

الأمر الذي لا يتحمله أناس ممن كانوا قد أسلموا ففُتنوا[٥٣٣] ...، فذلك مما يؤثر في سكينته[٥٣٤]، بل ويستفزه ويخرجه عن طوره ويجعله يتحمس لمقاتلة الكفار ...[٥٣٥]

هـذا مضـافا إلى أنـه يجـد بمعرفته لنفسـه أن مـن حقها ـ ومن حـق الناس ـ عليه أن يكـون (قوّامـا بالقسـط)، فيجـده محتاجـا جـدا إلى مـا يمكّنـه مـن القيـام بذلـك الـدور خارجـا وعمليـا، وإحساسـه الشـديد بالحاجـة يمنعـه الطمأنينة والسـكينة[٥٣٦]

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ...

ووعْدُ اللّهِ بأن ارتداد من يرتد لن يؤثر على الدين[٥٣٧]، وأنه تعالى سيمكن المسلمين دينهم ويبدلن خوفهم أمنا[٥٣٨] ... وإن كان يمنح جندبا أمنا لكنه يثير في نفسه توقعات وأسئلة كالتي حكاها القرآن الكريم عن الذي مر على قرية خاوية على عروشها، وعن إبراهيم عليه السلام[٥٣٩] ...، إلى أن يقوم الدين فيطمئن، ولكن ...

(**الراصد**) ـ مقاطعا ـ : ولـكن مـا ذكر في الآية الكريـمة من تمكين الدين وتبـدل الخوف ... خاص بالأئمة (ع) أو بالمهدي (ع)، وقد أكده الشيخ الطبرسي فقال: « وعلى هـذا إجمـاع العترة الطاهـرة، وإجماعهم حجة لقول النبي صلى اللّه عليه وآله وسـلم: (إنـي تـارك فيكـم الثقليـن كتـاب اللّـه، وعترتي أهل بيتـي، لن يفترقـا حتى يردا علـي الحوض) »[٥٤٠]

(**المراقب**) ـ : الآية الكريمـة ظاهـرة، بـل وكادت أن تكـون صريحة، في أن الذين وعدهـم اللّـه عـز وجـل بالاسـتخلاف ... هـم الذين آمنـوا من المشـافهين بالخطاب، وهذا يؤيد مـا ذهب إليـه الشيخ الطوسي في رده على بعـض المخالفين[٥٤١] ...، فلا بـد مـن شـمول الآيـة الكريمـة لهـم وإن شـمل غيرهـم أيضـا، كمـا قيـل[٥٤٢]، ولا أدري لماذا استند الشـيخ الطبرسـي إلى إجمـاع الأئمـة عليـهم السـلام على كـون الآية في المهـدي (ع) وإلـى حجيـة إجماعهـم، وإلـى الاسـتدلال على ذلك بحديـث الثقلين؟

وعلى أي حال فلم ينقل الكافي غير حديثين في أن الآية الكريمة في المهدي عليه السلام[٥٤٣]، فماذا تقول أنت ـ وأشار إلى (الناصر) ـ ؟

(الناصر)ـ : أرى أن الذين وعدهم اللّه تعالى هم المؤمنون عاملو الصالحات حين نزول الآية، وقد أنجز وعده[٥٤٤] فاستخلفهم ومكّن لهم دينهم، لا فقط بما كان قد تحقق فعلا، بل به وبما كانوا ينتظرونه ...[٥٤٥]

(أنا)ـ مقاطعا ـ : كيف تقول إن وعد اللّه تعالى بتبديل خوف المؤمنين أمنا قد تحقق وقد قال (الأحزاب: ١٠ـ ١١): (إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا)؟

(المراقب)ـ : قال اللّه تبارك وتعالى (الأحزاب: ٢٢): (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)، فهو يدل على أن المراد بالمؤمنين في هذه الآية ليس من سموا المؤمنين في الآية السابقة[٥٤٦] فحتى لو كان (الوعد) المذكور في الآية الكريمة بالمعنى الذي ذكروه[٥٤٧] لا مصداقا للآية (٥٥) من سورة النور فالآية صريحة في أن المؤمنين الذين ذكرتهم لم يُزلزَلوا بل ازدادوا إيمانا وتسليما، فهذا دليل واضح على أنهم كانوا يجدون في أنفسهم أن اللّه تعالى استخلفهم في الأرض وجعلهم شهداء على الناس، وكانوا يجدون الأمن مما كانوا يخافونه من قبل، فكانوا يعبدون اللّه ولا يشركون به شيئا، ولذلك كانوا يقاتلون في سبيل اللّه والمستضعفين ...[٥٤٨] ولئلا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه[٥٤٩] ...، فعلى هذا لا مانع من أن يكون هؤلاء من الذين وعدهم اللّه بأن يستخلفهم ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ...، ولا مانع من أن يصدق الوعد المذكور على كل مؤمن صادق قائم بأمر منتظر لتحققه ...

(الراصد)ـ : إن كان المقصود من استخلاف الذين آمنوا جعلهم سنام الأرض

وحكامها[٥٥٠] فلا مناص من حصره في الذين اتصفوا ويتصفون بها بصورة أو أخرى فلا يكون المراد بهم كل مؤمن وإن كان مظلوما مستضعفا غير قادر على ممارسة رغباته وتطلعاته الفطرية لتسكن نفسه وترضى وتأمن

الخلافة وسيلة، لا غاية

(الناصر) ـ : أنا أتكلم، نيابة عن الأخ ـ وأشار إلى (المراقب) ـ ، فأقول: نحن نرى أن خلافة المؤمنين وسيلة لتحقيق هدفين: الأول بيان الدين بتمثله في الأفراد وفي المجتمع، علما منا بأنه لو لم يكن قد جُرِّب الدين وطبّق[٥٥١] لم يكن ممكنا أن تتضح معالمه ويتم (البلاغ المبين) ويكون الإسلام دينا، ذلك لأن الإسلام بلحاظ كونه منهجا متكاملا لـ**(عبادة الله)** لم يكن يمكن أن يؤمَن به إلا بأن يمارَس فيُرى ....، بل ولم يكن يفهم إلا بأمثلة حقيقية ملموسة ....، ولذلك ضرب الله في القرآن أمثالا واقعية[٥٥٢]

والهدف الثاني: تحقيق الحق والعدل ورفع الظلم

أما الهدف الأول فقد تحقق بما حصل في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله من أمثلة حقيقية، فمثلا لم تكن تصبح أخوة المؤمنين وتكافؤ دمائهم حقيقة حية لولا قصة (جويبر)[٥٥٣]، وتزويج النبي (ص) مقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب[٥٥٤] مثلا، ولم تكن تحيي وتهدي الآيتان (٢٣ـ ٢٤) من (سورة التوبة)[٥٥٥] لولا أمثال موقف (محيصة) بن مسعود مع أخيه (حويصة)[٥٥٦]، وموقف مصعب بن عمير من أخيه حين أسر في بدر[٥٥٧]، وموقف (عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول) من أبيه[٥٥٨] مثلا، ولولا حقائق واقعية كثيرة كانت قد ساهمت بدورها في قيام هؤلاء بالقسط الذي ترسخ في نفوسهم لم يكن يصدر منهم ما زاد الحق تحققا ...

(الراصد) ـ مقاطعا ـ : ولكن وقائع وأحداثا كثيرة، والتي يشير إليها القرآن الكريم،

تنافي ما تدعيه من تحقق الدين، فمثلا في القرآن (الجمعة: ١١): ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ...﴾

(الناصر)ـ : ما جُسد آنذاك إنما كان مثالا للدين، لا تمام ما شرعه الله وحث عليه ...، ولم يكن ممكنا غير ذلك، لا فقط لاستحالة التطبيق الكامل له[٥٥٩] ...، بل لأن الظروف لم تكن مواتية لذلك[٥٦٠]، فلم يكن ممكنا بيان هذا الأمر المهم جدا إلا من خلال تطبيقٍ كافٍ للإشارة إلى الدين الحق، والتنبيه إلى أن ما يحدث ليس هو الدين بحذافيره ...[٥٦١]، فمثلا كان في المسلمين أناس يبخلون[٥٦٢]، بل وكان فيهم من يأمرون الناس بالبخل[٥٦٣] ...، وفي المقابل كان منهم أناس يؤثرون على أنفسهم[٥٦٤] ...

(أنا)ـ متدخلا ـ : يبدو أن ذلك لم يكن خاصا بالمسلمين في عهد النبي (ص) ففي جميع التجمعات الإنسانية يوجد النمطان المذكوران، أليس كذلك؟

(الناصر)ـ : ذلك صحيح، وسره أن الفطرة هي ما يدفع الإنسان للاهتمام بغيره، بدرجات متفاوتة وبصور مختلفة، فلو توفر ما يعينه على ذلك فعله[٥٦٥] ...، ولكن الفرق أن ما تحقق في عهد النبي صلى الله عليه وآله أن **(الإمامة)** كانت للإيثار لا للبخل المذموم ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ : البخل غريزي في الإنسان فكيف يكون مذموما[٥٦٦]؟

(الناصر)ـ : المذموم هو البخل الضال، أو فقل: ما يطلق عليه البخل إنما هو إيثار ضال، أي إيثار الإنسان للمال الذي لا يستحق منه الإيثار، أو فقل: إيثار المرء لشهوته على دوافعه الأخرى التي بها يكون إنسانا ...، و(الإيثار) الذي حصل في عهد النبي (ص) كان البخل المهتدي لو صح التعبير ...، ولنعد إلى ما كنا بصدده فأقول:

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا

فـ(الإيثار) ـ مثلا ـ أصبح آنذاك حقا وإن لم يعم، و ـ مثلا أيضا ـ زهق (البخل) وكان باطلا وإن كان موجودا، وذلك بثلاثة عوامل متلازمة وهي الكتاب وسنة النبي (ص) وولايته، فبها أصبح المؤمن عالما بأن (الإيثار) ـ مثلا ـ حق متجذر في نفس الإنسان[٥٦٧]، لذلك (يستطيبه) الناس ويعظمون فاعله وإن لم يفعلوه، بل وإن منعوا منه، فهو فرع طيب لشجرة طيبة، وأن البخل ـ مثلا ـ فرع شجرة خبيثة مجتثة من فوق أرض النفس، زهوقٌ وإن دام واستمر[٥٦٨]

كذلك أصبح (الإيثار) مظهرا من مظاهر دين الحق الذي قد أظهره اللّه تعالى على الدين كله كما قال (التوبة: ٣٣): (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)، وكان (الإيثار) مثالا للحق الذي أحقه اللّه عز وجل، و(البخل) مثالا للباطل الذي أبطله، وكانا مصداقين لما نستظهره من قول اللّه تعالى (الأنفال: ٧ـ ٨): (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)، بأن يكون معناه: أن لل(حق) ثلاث درجات: الأولى ما هو موجود في النفس[٥٦٩]، والدرجة الثانية هي إحقاقه في العقل والوعي، وهذا ما لم يكن يتم إلا بـ(كلمات) اللّه التي هي القرآن الكريم[٥٧٠]، والدرجة الثالثة هي إحقاقه بإقامته

ومن أمثلة هذا المعنى الذي هو الأقرب إلى الآية الكريمة[٥٧١] (الإيثار) الذي كان حقا في النفوس فأراد اللّه عز وجل أن يجعله حقا في العقول بكلماته التي أنزلها في القرآن، ولم يكن يتم ذلك إلا بأن يحس المسلمون بسكينة وأمن، وإلا فلم يقدروا على الاهتمام بالحق وطلبه ومعرفته من خلال كلمات اللّه[٥٧٢] ...، فالظاهر أن لذلك أراد اللّه أن يكون قتال ـ في بدر ـ وأن ينصر فيه المسلمين إحقاقا للحق المركون في نفوسهم

وكما يتوقف تعقل (الحق) ومعرفته على وجوده في النفس ...، يتوقف كذلك إقامة الحق على تصوره ووعيه، بل إن العمل بالحق والقيام به يؤثر ـ سلبا وإيجابا ـ في وجود الحق النفسي والعقلي[٥٧٣]

وبما أن المقصود الأساس هو العمل بالحق، لا وجوده في النفس والوعي، فيبدو أن لذلك قال اللّه تعالى: (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُون)، أي أن إحقاق اللّه الحق ـ الموجود في النفس ـ بكلماته كان لأجل إقامته وجعله حقا ممارسا ومشهودا، فهنالك فقط يبطل الباطل، إذ أن بوجود الحق في النفس والوعي لا يبطل الباطل كما لا يخفى ...

هذا بلحاظ الهدف الأول الذي هو (بيان الدين ...)

وأما الهدف الثاني، أي تحقيق الحق والعدل ورفع الظلم، فإن الدين وإن استهدفه ودعا إليه واهتم به جدا[٥٧٤]، بل ـ كما تقدم قبل قليل ـ ذلك هو المطلوب الرئيس في الدين[٥٧٥]، لكن اللّه تعالى لم يتعهده إلا بمقدار ما احتاجه الهدف الأول، أي بيان الرشد من الغي، وهذا ما أفهمه من قول اللّه تعالى (الروم: ٤٧): (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)، وقوله تعالى (غافر: ٥١): (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ) ...

أجل، لقد تعهد اللّه عز وجل تحقيق العدل الشامل ولكن في المستقبل، وذلك لأن الإيمان به وانتظاره مما لا بد منه للتمكن من التدين بالدين المبلَّغ ...[٥٧٦]

عود إلى جندب

(**الناصر**) ـ مكملا ـ: على أي حال كان (جندب) من المؤمنين الذين استخلفهم اللّه في الأرض، وكان ممن علمهم النبي (ص) الكتاب والحكمة[٥٧٧]، وكان ممن جعل اللّه له نورا يمشي به في الناس[٥٧٨] ...، فبتعقله للأمور وربط بعضها ببعض

ووضعهـا مواضعهـا وإحكامهـا يجـد أن أسـاس مـا قـد تحقـق إنمـا هـو (**ولاية**) النبي صلـى اللّـه عليـه وآلـه، وأن بهـا كان القرآن كتابا[٥٧٩] وكانت أقواله (ص) وأفعاله سنة، وكان للمؤمنيـن عـز وولاية ودعـوة[٥٨٠] ...

(**أنا**)- مقاطعا - : ماذا تعني بولاية النبي صلى اللّه عليه وآله؟

(**الناصر**)- : أقصـد بـ(الولاية) ما أرى أن النـاس جميعـا يمارسونه، فإن كل واحـد منهـم يحـب أن يطـاع فـي أوامره، بل وفي رغبـاته قبل أن ينطق بهـا ويطلبها بصورة أو أخـرى ...، فـإن كان متوليـا لشـهواته ومتبعـا لهـا أحـب أن ينسـق معه النـاس ويطيعوه في اتجاه شهواته ولتحقيقها ...، وإن كان له هدف أكبر من شهواته أحب أن يتبعه النـاس فـي اهتمـامه بـه ودعـاهم إليـه وحثهـم عليـه وأمرهـم به وأمّهـم إليه ...، كـذلك أرى أن الولايـة مـا يمارسـه كل النـاس، وإن كان أكثرهـم لا يعلمون أن ما يفعلونه ولاية وإمامة

وبـما أنه كان للنبي صلى اللّه عليه وآله أمر وقضيـة ظاهرة في كافة أبعـاد حيـاته الشـريفة[٥٨١] فـكان يدعـو النـاس إلـى اتباعه في ذلك[٥٨٢]، وكما قلـتُ: يدرك جندب أن ولايـة النبـي صلـى اللّـه عليـه وآلـه هـي الأسـاس فيمـا يتحقـق ...، وأنهـا هـي التي تنظـم الأمـور لتكـون دينـا فيُعـرف[٥٨٣]، بـل ـوقبـل ذلـك ـقـد وجد الذين آمنوا فيهـا ما لبى حاجتهم إلى الانتماء والائتمام[٥٨٤] فاسـتقرت نفوسـهم فقـدروا على أن يعرفوا الديـن ويؤمنـوا بـه ...

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

وبـما أن جندبـا يتوقـع مـوت رسـول اللّـه صلى اللّـه عليه وآله، حتى لو لـم يؤكـده القـرآن[٥٨٥]، فيـرى مـا لـم يكـن يخفى علـى عاقل من أن موته (ص) سيُفقـد الدين ما بـه قوامـه[٥٨٦]، وهـو وإن ليـس ممـن ينقلـب بموتـه (ص) علـى عقبيـه تـماما، كالذين ذكرهـم القـرآن[٥٨٧] لكـن ذلـك يقلقـه جـدا ويؤثر فـي إيمانه لا فقط بعـد مماته (ص)

بـل وفـي حياتـه أيضـا، فإنـه ـ لكونـه مهتما بالدين باحثا فيه عن الأمـن والرضا ـ يفكر في مستقبل أمره وأمر المسلمين، فلن يزول قلقه بأن يقول ـ مثلا ـ : « إنما الأمر للّه والديـن دينـه بـاق ببقائـه »[٥٨٨]، لأنـه يجـد أن إمامـة النبي (ص) من الديـن، فبعدمها لن يكون هناك دين ليُفترض بقـاؤه، وحتى لو (تكلف) افتراض اسـتمرار الدين سليمـا تاما واضحـا بعـد وفاته (ص)، واستطاع الاقتناع به، فإنه يعـلم أن مجرد وجود الدين لـن يكفـي للإيمـان إلا بوجود ولـي وإمام ...

(**المراقب**)ـ مقاطعا ـ : حتـى لـو غضضنـا الطـرف عـن الإمامـة، وافترضنـا الديـن مجـرد نصـوص، وافترضنـا اكتمالهـا فـي حياة النبي (ص) ...، فمـع ذلك لم يكـن من الممكـن للعـاقل أن يؤمـن بالنبي كخـاتم النبيـين، ذلـك لأنـه لا بد وأن يتوقـع تعرض النصـوص للتغيـر، ومـن ثـم تشـوه الديـن بعـد وفاتـه (ص)، فـلا يجد الأجيـال القادمة مـا يؤمنـون بـه، مثلمـا تشـوه مـا جـاء به عيسـى (ع) فلم يعـد يلبي كثيرا مـن حاجـات الإنسـان الفطريـة ...، وهـذا معنـى قـول اللّه عـز وجـل (المائدة: ٦٧): (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَـا أُنـزِلَ إِلَيْـكَ مِـن رَّبِّـكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَـلْ فَمَا بَلَّغْـتَ رِسَـالَتَهُ)[٥٨٩] ...

مسائل وأفكار، أم هداية ومسار؟

(**الناصر**)ـ : مـاذا تقصـد بالنصـوص الدينيـة التـي كان يتوقـع تعرضهـا للتغيـر الموجـب لتشـوه الديـن؟، فـإن قصدت منها ما تضمن أحكاما شـرعية فإن تبدل ذلك كان يحصل حتى في حضور الشـارع ...، ولم يكن بذلك يتشـوه الدين، كما أنه لو أمكـن افتـراض سـلامة النصـوص الدينيـة فإنهـا لـن تنفع شيئا مـن دون إمامة

وممـا يسـاعد علـى فهـم هـذا الأمـر الانتبـاه إلى أن مـا كان يفعـله اللّـه عز وجل مـن نسـخ آيـة مـن القـرآن الكريـم بتبديلهـا بآية أخـرى[٥٩٠]، أو إبقائهـا وإنسـائها بعد أن كانـت ركيـزةً وفـي الواجهـة وقـت نزولهـا[٥٩١].. لا فقط لم يكن يضـر بدعوة القرآن وهدايتـه، بـل كان ذلـك حقـا لا بـد منـه لتثبيـت الذين آمنـوا [٥٩٢] ...، ولبحث هـذا

مجال آخر، وقد أشير إليه سابقا[٥٩٣] ...

(أنا)ـ : هذا غريب، هلا توضحه

(الناصر)ـ : أما أنه لم يكن ممكنا تجنب تشوه النص تماما حتى عند حضور الشارع عليه السلام فلِما لا يخفى من إمكان أن يُتعمد الكذب عليه[٥٩٤]، أو أن لا يستوعب السامع ما يسمعه[٥٩٥]، أو أن يخطئ فهمه[٥٩٦] ...

وأما أن سلامة النصوص الدينية لن تنفع من دون إمامة فلأن الإنسان لن يكون بلا إمام وإمامة، أي أنه من جهة يكون مؤتما بإمام وإن لم يعرف إمامه ولم يكن منتبها إلى أنه (مؤتم)، ومن جهة أخرى إنه يمارس الإمامة بأَمّ غيره إلى جهة إمامه وإن لم يكن واعيا لذلك

ومما يتأثر بإمامة الشخص فهمه للنص، خاصة إذا كان دعويا، فإن كان إمامه من اللّه، وكان المؤمنون أولياءه فكان معهم في تفكيره وفهمه، اتخذ مع الرسول سبيلا[٥٩٧]، وإلا اتبع (في تفكيره) غير سبيل المؤمنين وولاه اللّه ما تولى[٥٩٨] ...، وحتى لو كان النص نصا في معنى فإن ما يوجهه ويجعله ذا وجهة خاصة هو إمامة الشخص، ولا يخفى أن ما يجعل النص الديني هاديا إنما هو وجهه[٥٩٩]، والنص بنفسه ميت، وإنما يحييه ويجعله ذا وجه من يتناوله، فإنه هو الذي يوجهه بإمامته في اتجاه إمامه[٦٠٠] ...

عود آخر إلى جندب

أعود إلى قصتنا الافتراضية فأقول: بما أن جندبا يتعقل الأمور ويعرفها فإنه لا يتوقع أن تستمر الحكومة التي قامت للنبي (ص) قبل أن يذكر القرآن ذلك[٦٠١]، ولم يكن يؤثر ذلك على إيمانه، رغم أنه كان يحب استمرارها[٦٠٢]، لعلمه بأن ما تم من ولاية ظاهرية للنبي (ص) قد حقق هدفه الأساس وهو البلاغ المبين و(لئلا

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) ...، فأمكن الإيمان بما بلّغ شرط أن يُضمن بقاؤه ...

فخلاصة الكلام أن جندبا وإن يجد في نبوة النبي (ص) تلبية لما في نفسه من مطالب فطرية رئيسية فيؤمن بها ولكن يظل في نفسه ما يقلق إيمانه خاصة وأنه يجد النبي (ص) يكثر الإشارة إلى فتن المستقبل(٦٠٣)

يجد في تلاوة النبي (ص) للقرآن الكريم(٦٠٤) وفي أقواله وأفعاله ما يؤكد نبوته وأنه بعين اللّه(٦٠٥)، ويعلم (إجمالا) أن اللّه غالب على أمره ... لكن ذلك لا يكفي لمنحه الاطمئنان في قضية واقعية هي قضيته(٦٠٦)، لا مسألة تعبدية يكفيه تكلف قبولها أو تنفيذها، أو مسألة نظرية يكفيه كونها مفهومة له ذهنيا

لا يحتمل جندب أن يهمل اللّه هذه المشكلة الواضحة ويبقيها بلا حل فيبطل دينه ويعطل رسالته، فإنه سبحانه تعالى عن ذلك علوا كبيرا في نفسه ...، ذلك مضافا إلى أنه يجد فيه خنقا لنزوعه الفطري إلى الإيمان ...

كذلك **يعجل**(٦٠٧) جندب ويسارع إلى التفكير في هذه المسألة وكيفية حلها، كما يسارع إلى الجهاد في سبيل اللّه، شأنه في ذلك شأن أي مسلم أصبح الإسلام دينه وقضيته

يعلم أن في المدينة منافقين، وهذا يخيفه، خاصة وأنه لا يعرفهم(٦٠٨)، إذ من المتوقع أنهم يتظاهرون بالإيمان جدا(٦٠٩) ...

المسلمون ثلاثة أصناف

يلاحظ جندب أن المسلمين في نظرهم إلى النبي صلى اللّه عليه وآله، وفي تعاملهم معه، ثلاثة أصناف: صنف لا يلمح فيهم ما يشير إلى أنهم **يتعلمون الكتاب والحكمة** اهتماما بالدين وقياما بأمره، وإن كانوا ـ بدرجات متفاوتة ـ عاملين بأحكام

الديـن ومطيعيـن للّـه تعالـى فيمـا يشـرع وللرسـول (ص) فيمـا يأمـر به وينهـى عنه ...، ومنهـم الأعـراب الذين قالـوا: (آمَنَّا)[٦١٠] ...

من الطبيعي أن لا يتوقع جندب قيام أحد من هؤلاء بالأمر بعد وفاة النبي صلى اللّه عليه وآله، لكنه يخاف عليهم لتوقعه أنهم لحاجتهم إلى (الانتماء) من جهة، وعدم علمهم بالكتاب والحكمة من جهة أخرى سيلتفون حول من يتولى الأمر وإن لم يكن مستحقا للولاية، ويكونون قاعدة وسندا له وإن لم يتعمدوا ذلك ...

وصنف يجدهم جندب طموحين ونشطين ومبادرين ... ولكنه يستشف من مواقفهم أنهم ليسوا ممن يعرفون (ولاية) النبي صلى اللّه عليه وآله ويعترفون بها، فلا يتبعونه في غير ما كان يوحى إليه بزعم أنه قد يخطئ في مواقفه الراجعة إلى آرائه ...

خطأ النبي، وتخطنته

(**الراصد**)ـ مقاطعا ـ : لا يكاد يُتوقع أن كل ما كان يقوله ويفعله النبي صلى اللّه عليه وآله كان بوحي أو إلهام، وفي الكافي (٢٩١/٤) أنه (ص) قال: « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت مثل ما فعل الناس »، و أنه سها في الصلاة[٦١١]، وجوز ذلك بعض كبار العلماء[٦١٢] وعدّ بعض العلماء إنكار ذلك من الغلو[٦١٣] ...، فما هو الإشكال فيما لو أن أحدا لم يجد صائبا بعض ما يصدر من النبي (ص) من أقوال وأفعال كان قد عُلم أنه لا يستند فيها إلى وحي ...؟

(**المراقب**)ـ : كان رسول اللّه (ص) مسددا موفقا مؤيدا بروح القدس، لا يزل ولا يخطئ في شيء مما يسوس به الخلق[٦١٤]، وليس صحيحا حصول (السهو) له، واعتبر الشيخ المفيد القول به ضلالا ...[٦١٥]

لا يجتمع (الاتباع) مع تخطئة المتبوع

(الناصر)- : على فرض أن تكون للنبي صلى اللّه عليه وآله مواقف قولية وفعلية غير مستندة إلى وحي أو إلهام، وعلى فرض أنها ربما كانت تخطئ - بشكل أو آخر[٦١٦] -، وأن المؤمنين كانوا يشخصون ذلك ...، فإنهم كانوا يتبعونه ويطيعونه حتى فيما قد يخطّئونه[٦١٧]، لا لأن ذلك من لوازم الانتماء[٦١٨]، بل لأنهم لم يكونوا يفرقون في اتباعهم له بين ما هو رأيه - على الفرض - وبين ما كان يوحى إليه، وبالأحرى إن المؤمن حتى لو تصور قولا من أقوال النبي، أو فعلا من أفعاله، غير صائب فإن ذلك إنما يحصل في ذهنه، وأما في قلبه فهو يجد كل ما يصدر من النبي مرضيا للّه عز وجل ومن عنده، ذلك إن كان مؤمنا به حقا، وكان يتصرف بطبيعته ووفق فطرته

أجل، الطبيعي هو أن من أحب النبي واعتقد نبوته أحب أن يتبعه في كل شيء، ولم يفرق بينه وبين اللّه، أي بين ما هو رأيه وما كان اللّه قد أوحى به إليه، بل واتبعه (عفويا) حتى في أموره الخاصة كمشيته - مثلا - كما نقل عن فاطمة عليها السلام أن مشيتها كأنها مشية النبي صلى اللّه عليه وآله[٦١٩]، لا بأن (يتكلف) ذلك[٦٢٠]

وأما التفريق بين اللّه ورسوله[٦٢١]، بأن يُقبَل ما يخبر النبي أنه من عند اللّه، ويُتعبد به، وما يخبر أنه من عند نفسه لم يتقيد به لكونه بشرا يخطئ ويصيب[٦٢٢] ...، فإنه مخالف للطبيعة البشرية فلا يكون إلا بتكلف، بل ولن يكون ممكنا حتى فيما إذا صرح النبي بأن ما قاله أو فعله إنما هو من عنده أو من عند اللّه فكيف بما إذا لم يصرح به، وذلك لا فقط لإيجابه وسواسا شديدا، بل ولأن الاتباع لن يتجزأ ولن يقبل قيدا إن كان اتباعا قلبيا حقيقيا، لا اتباعا ظاهريا، أي تنسيقا ومسايرة لهدف معين، فإنه لا فقط يقبل القيد بل ولا يكون إلا به ...، ذلك كاتباع (موسى) لعبد اللّه الذي آتاه من لدنه علما[٦٢٣] - مثلا -، لذلك لم يستطع معه صبرا، لا سيما وكان يصدر عنه ما ظاهره منكر عظيم ...

مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ

ويبدو لي أن إلى هذا التعامل المتكلف يشير قول اللّه عز وجل (النساء: ٧٨- ٨٠): (... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)

وأوضحه بالإشارة إلى أمور:

الأول: المقصود بالذين أشارت إليهم الآية الكريمة هم المسلمون الذين ذكروا في الآية السابقة، ولا معنى لأن يرجع الضمير في قوله: (تُصِبْهُمْ) إلى غيرهم من اليهود أو المنافقين[٦٢٤] ...، هذا، وأرى صحيحا تفسيرهم الحسنة والسيئة بما يعُدّه الناس خيرا وشرا ...

الثاني: في القرآن الكريم آيات كثيرة من قبيل قول اللّه عز وجل (الأعراف: ١٨٨): (قُل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[٦٢٥]، فهناك أناس كانوا يفهمون منها أن اللّه يريد أن يبين للناس أن النبي بشر يخطئ فيمسه السوء، فعليهم أن يفرقوا بين ما يوحى إليه وبين ما يصدر منه كبشر

الثالث: بما أن النبي (ص) لم يكن يخبر الناس فيما كان يأمرهم وينهاهم أنه من عند اللّه أو من عند نفسه فالفئة المذكورة هم الذين كانوا يحددون ذلك حسبما كان يترتب على أمره ونهيه من أثر، فإذا كان الأثر حسنا وخيرا ـ بمقياسهم ـ عدّوه من عند اللّه، وإن وجدوا الأثر سيئا وشرا عدّوه من عند النبي وناتجا ـ بزعمهم ـ عن خطئه صلى اللّه عليه وآله

بل وحتى إذا كان الأمر والنهي من عند اللّه، بأن يكونا في القرآن ...، فلو ترتب

على تطبيقه من قِبَل النبي (ص) أثر سيّء ـ حسب مقياسهم ـ عدّوا التطبيق خاطئا

الرابع: أرى أنهم لو تدبروا القرآن، بأن وجهوه إلى قلوبهم، ولم يكن عليها أقفالها[٦٢٦]، لذكّرتهم الآيات المشار إليها بما هو أساس الدين، وهو أن الأمر كله للّه[٦٢٧] وليس للنبي من الأمر شيء، وأنه ليس إلا رسولا يهدي الناس إلى صراط مستقيم[٦٢٨] ...، ولولا تذكيرهم بذلك لالتهوا بالنبي عن اللّه واتكلوا عليه واتخذوه ربا من دون اللّه تعالى ...

الاتباع لن يتبعض

الخامس: بما أن ما زوده اللّه عز وجل بإمكانية فقه الأمور[٦٢٩] هو القلب، فما يسمعه المرء أو يبصره إن كان مما يهتم به قلبه فقِهَه وقبِله إن وافق الضوابط المودعة فيه[٦٣٠]، وناسب طريقته في التعامل مع الأشياء، وبالأحرى إنه يتصرف فيه، بتلقائية غير ملحوظة، ليتفق مع خصائصه الذاتية، وإن لم يمكنه ذلك أنكره ورفضه ...

ومن طريقة القلب أنه إذا آمن بالنبي أحب كل ما فيه ووجده أولى بنفسه من نفسه[٦٣١] واتبعه في جميع شؤونه ولن يكون قادرا على أن يجزّئ اتباعه له، فلو صادف ما قد يُفهم منه خطأ النبي فإن ذلك لن يؤثر سلبا على اتباعه له، بل ويجعله أكثر إحساسا بالقرب منه وأشد اتباعا له[٦٣٢] ...، كما ـ ومن جهة أخرى ـ يوجد في قرارة نفسه، وإن لم يكن واعيا له، حقيقة أن اللّه ما بعث الرسول إلا وقد رضي بأن يُتبع[٦٣٣] وأذن بأن يطاع[٦٣٤] بلا قيد وشرط ...

كذلك يفقه المؤمن ما يسمعه من كلام اللّه وحديثه بشأن النبي، بل وبهذه الطريقة يفقه كل إنسان الأمور بما منها ما يسمعه بصدد أمر يهمه، فما كان يفعله هؤلاء القوم من التفريق بين اتباع الرسول وطاعة اللّه كان غريبا عن طبيعة الإنسان في فقهه للحديث، فيصح أن يوجَّه بهذا قول اللّه عز وجل: (فَمَالِ هَـؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) وإن لم نجزم بأن ذلك هو المقصود

(**الراصد**)ـ : فماذا عن قول اللّه عز وجل: (مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ)؟

(**الناصر**)ـ : الظاهر أن ذلك تذكير للنبي (ص) بحقيقةٍ لولا تذكيره بها لأمكن أن يتكل ـ ولو قليلا ـ على ما كان اللّه قد ذكر قبلها من كون السيئات الناتجة عن أفعال الرسول وأقواله من عنده تعالى فيقل انتباهه وحذره فيما يقدم عليه من قول أو فعل

(**المراقب**)ـ مقاطعا ـ :كيف ذلك والنبي صلى اللّه عليه وآله معصوم؟!

(**الناصر**)ـ : النبي صلى اللّه عليه وآله معصوم بكونه بعين اللّه عز وجل: يرعاه ويحميه بما منه التحذير[٦٣٥]، فتحذير اللّه للنبي لا فقط ليس منافيا لعصمته، بل كان من موجباتها، كذلك نفهم خطابات القرآن المحذرة للنبي صلى اللّه عليه وآله كقول اللّه تعالى (البقرة: ١٤٧): (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)، وقوله (الأنعام: ٣٥): (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)، وقوله (الأحزاب: ١): (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) إلخ ...

أعود إلى ما كنت بصدده وأكمله فأقول: وكان أيضا تذكيرا للمسلمين بأن كون جميع ما يصيبهم هو من عند اللّه لا يعني أن كل ما يصدر من النبي إنما هو من اللّه، بلا أن يكون له (صلى اللّه عليه وآله) أي دخل في ذلك، فلا مانع من أن يصدر عنه (ص) ما قد يعدّ سيئة له وإن لم تكن سيئة لغيره[٦٣٦]، فيستغفر منه[٦٣٧]، فهو إذاً لن يؤثر في رسالته وفي اتباع الناس له ولن يترتب عليه أثر سيّء، وما يزعمونه سيئة كما حدث في (أحُد) ـ مثلا ـ فإنه كان من عند اللّه ولم يكن سيئا وإن بدا كذلك[٦٣٨] ...

هذا، وإن التذكير بأن ما يصيب الناس من سيئة ــ باتباعهم النبي ــ فهو من عند اللّه، وأن ما يصيب النبي (ص) من سيئة فمن نفسه لأن اللّه قد أرسله للناس رسولا، (وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) على النبي (ص) حيث خلقه متمكنا من معرفة السيئات والسعي إلى تجنبها، وعلى الناس حيث أنهم ليسوا قادرين على التفريق بين اللّه وبين النبي وهم يتبعونه كرسول منه تعالى، فلو أنهم ركزوا على بشريته (ص) كما كان يفعله المبطلون لم يمكنهم اتباعه[٦٣٩]، فإن (مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ...

ذلك ما أفهمه مما ذكر من الآيات، وأجده أنسب إليها مما قيل بهذا الصدد[٦٤٠] ...

العَود إلى الصنف الثاني

ولأعُد إلى ما كنت بصدده فأقول:

كما قلنا سابقا، يلاحظ (جندب) أن هذا الصنف - أي ما عبرنا عنهم بالصنف الثاني - لا يرون النبي (ص) معصوما في آرائه فلا يتعهدونها، وإنما يعتمدون أفهامهم واجتهادهم[٦٤١]، بل ويلاحظ أن منهم من يسعون لإملاء آرائهم على النبي صلى اللّه عليه وآله..[٦٤٢]، وحتى لو أراد جندب تبرير بعض مواقف هؤلاء وأمكنه ذلك[٦٤٣]، أو سمع من بعضهم عجبه من بعض ما صدر عنه من مواقف معينة تجاه النبي[٦٤٤]، وفسر جندب العجب بالاستغراب والإنكار، لا بالارتياح لنزول القرآن بما وافق رغبته و..[٦٤٥] . أقول: حتى على فرض ما ذُكر فإن (جندبا) يجد في تلك المواقف ما يدل على أن هؤلاء سوف لا يجدون أنفسهم ملزمين بأن يحكموا وفق طريقة النبي صلى اللّه عليه وآله

أجل، يبدو لجندب من أفعال وأقوال من أشير إليهم أنهم لا يجدون النبي (ص) مصونا عن الخطأ، على الأقل في غير ما يرجع إلى تلقي الوحي وتبليغه[٦٤٦] ...، فلا يشك أن هذا الصنف سوف لا يخضعون بعد النبي (ص) لولاية أحد، ويتصدون لها، إلا أن تكون لمن يشركهم فيها[٦٤٧]، ويسعون إلى العمل باجتهادهم وآرائهم، فيتوقع أن تختلف ولايتهم عن ولاية النبي صلى اللّه عليه وآله وطريقته ...، فمن الطبيعي أن ينكرها جندب ويوجس منها خيفة ...

الصنف الثالث:

والصنف الثالث هم الذين وصفهم اللّه عز وجل بقوله (الأحزاب: ٦): (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)، ومن كان مصداقا لقوله: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[٦٤٨] ...، فيحب (جندب)، ويتمنى، أن يتولى الأمر بعد النبي صلى اللّه

عليه وآله شخص من هذه الفئة على أن يكون على بصيرة بأمره (ص) قائما به مأمونا عليه ...، ويتوقع أن يكمل اللّه دين المسلمين[٦٤٩] بمن كان كذلك

لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء[٦٥٠]

بهذا اللحاظ لا يطمئن جندب إلى أحد كاطمئنانه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، إذ يجد له خصائص مميزة[٦٥١] من كونه أقرب الناس إليه (ص) وألصقهم به وأطولهم به عهدا، وتزويجه النبي ابنته سيدة النساء عليها السلام[٦٥٢] ... فيتوقع أن يكون هو المرشح لتمثيل ولاية النبي من بعده، خاصة وأنه يجده (صلى اللّه عليه وآله) يشير إلى ذلك كثيرا، كقوله له ـ مثلا ـ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[٦٥٣] ...

(أنا)ـ مقاطعا ـ: القرابة بالنسب والمصاهرة لا تستدعي خلافة النبي (ص) مثلما تستوجب الولاية من قبل الملوك، ذلك ما قاله ابن تيمية[٦٥٤] مثلا

(الناصر)ـ: بغض النظر عما في الكلام المشار إليه فإن ما يهم جندبا ليس أن يلي أحد الحكم بعد النبي (ص) حفظا لنظام أمر المسلمين مثلا، بل ولا مجرد أن يحكم بالكتاب والسنة ...، وما يهمه في الأساس هو أن يكون هناك هاد[٦٥٥] تهتدي به النفوس كما اهتدت به (ص)، وأن تجده نفوس الذين يؤمنون (مولى)...، ولا شك في أن لقرابة النبي (ص) كان التأثير في فتح النفوس على قريبه، كما أن بغض الظالم يسري إلى القريبين منه

هذا مضافا إلى ما لا يُشك فيه أيضا من التوقع بأن يكون القريب أكثر دراية بطريقة قريبه وأشد تأثرا بخصاله واهتماما بأمره[٦٥٦] إلا أن يثبت خلاف ذلك[٦٥٧]، فليس واقعيا ما تصوره جلال الدين البلخي من أن اتصاف الإمام القائم بخصال حسنة يغنيه عن نسب خاص[٦٥٨] ...

(الراصد) ـ : فسر مخالفو الشيعة ما ورد عن النبي (ص) بشأن علي (ع) تفسيرا مخالفا لما قلت، فمثلا استند العلامة الحلي[٦٥٩] إلى ما تضمن عشر فضائل لعلي (ع)، فقام ابن تيمية بالرد عليه ورأى أنها لا تدل على خلافته[٦٦٠]، هذا مضافا إلى أنهم رووا في المقابل فضائل لصحابة آخرين[٦٦١] بل وادعوا النص على خلافة أبي بكر، وذكره كذلك ابن تيمية في رده على العلامة[٦٦٢]

(المراقب) ـ : فيما رد به ابن تيمية على العلامة ما لا يخفى غرابته الصارخة ...، ويكفي ردا عليه ما قاله الشيخ الأميني في الجزئين الثالث والخامس من كتابه (الغدير)

رفع الصوت وخفضه

ثم إن بعض ما عُدّ فضائل لبعض الصحابة دليل على عدم العلم بولاية النبي (ص)، أو على عدم الالتزام بها، فمثلا ادعى ابن تيمية أن بعض الصحابة كان يفتي ويأمر وينهى ويقضي ويخطب بمحضر النبي (ص)، واعتبر ذلك دليلا على كونه أفضل من علي (ع)[٦٦٣]، فبغض النظر عما في تفاصيل دعوى الرجل[٦٦٤]، فإن ما ذكره بخصوص (الأمر والنهي) معروف ثابت، وهو يدل قبل كل شيء على الجهل بأن للنبي صلى اللّه عليه وآله الولاية والإمامة فلا يقدّم بين يديه (ص)...، حتى لو لم يمنع القرآن عن ذلك[٦٦٥]، كما كان عليه أمير المؤمنين عليه السلام ... [٦٦٦]

ألف باب من العلم ...

(الناصر) ـ : لقد أحسنت، وتكميلا لما كنت بصدده أقول: وهناك جانب آخر مهم لهذه المسألة، وهو أن (جندبا) يعلم ـ إجمالا ـ أن (الولاية) بلحاظ كونها منصبا خطيرا وملكا عظيما[٦٦٧] فلا بد من أن تتوفر في من ينالها خصال مميزة تؤهله للقيام بحقها، أهمها العلم لا بدقائق الدين فقط، بل وبالنفوس وكيفية هدايتها ...، ويعلم جندب أن هذا لن يتم إلا بـ(تعليم) خاص، فيلفت نظره ما يلحظ من أن النبي (ص) يتعهد تعليم علي عليه السلام ويخصص له لذلك مدخلين بالليل والنهار[٦٦٨]،

فيمنحه ذلك الأمن والاطمئنان ...

وعلى أي حال فما يهم جندبا في الدرجة الأولى هو (المولى) أي الأولى بالنفوس ومؤمّنها وهاديها من بعد النبي صلى اللّه عليه وآله لا مجرد الأقدر على الحكم..[٦٦٩] فإنه يجد نفسه عاجزا عن تشخيص الأصلح للحكم فقط لعلمه بأنه ليس لذلك مقياس واحد محدد، وأن صلاحه يختلف باختلاف الغاية منه[٦٧٠] ...

(أنا)ـ مقاطعا ـ : ماذا تعني بـ(المولى)؟

موضع الولاية ...

(الناصر)ـ : باختصار شديد أقصد بـ(المولى) محل الولاية، وهذا هو معناه اللغوي ...، وأقصد بـ(الولاية) السلطان، فمولى المرء من كان له السلطان عليه ...

(المراقب)ـ مؤيدا ـ : كما بين ذلك العلماء[٦٧١]

(الناصر)ـ : ما أقصده ليس هو السلطان الظاهري الذي منحه اللّه عز وجل لأمير المؤمنين عليه السلام، وفرضه على الناس كما هو معروف، والذي قد أشرتَ أنت إليه، أو السلطان على الكون الذي يثبته له (ع) العرفاء ـ وغيرهم ـ ... بل السلطان الذي كان للنبي صلى اللّه عليه وآله على نفوس المؤمنين، والذي لا تخلو منه نفس إنسان فإن النزوع إلى الاتباع والطاعة من أهم خصائص الإنسان[٦٧٢] وأعظمها تأثيرا في هويته، وقد تكررت الإشارة إلى هذا باعتباره الأساس الذي نعتمده في التدين ...

ولأعد إلى ما كنت بصدده فأقول: ما يهم جندبا في الدرجة الأولى هو (مولى) بعد النبي بل وفي حياته ولكن في طوله (ص)، إذ أنه ـ أي جندب ـ يعلم أن الدين يدور مدار الولاية لا الحكومة، فقد جرب أن المؤمنين الذين آمنوا بالنبي (ص) حقا إنما آمنوا بولايته قبل أن يكون حاكما، بل وفي فترة حكمه (ص) أيضا ...

وعلى أي حال فالذي يبحث عنه جندب في قرارة نفسه ليس الحاكم بعد النبي (ص) بل وارث ولايته (ص)، فيتوقع أن يكون علي عليه السلام ذلك الوارث، بل ويعلم ذلك تدريجيا بما يجد فيه (ع) من خصائص ....، وما يصدر عن النبي (ص) من قول أو فعل بشأنه (ع) ....، فلا يحتاج جندب لنفسه إلى مزيد من التأكيد وإن أحب ذلك، وإنما يتمنى أن يُبلّغه النبي صلى اللّه عليه وآله إلى جميع المسلمين، ولمّا يعلن ذلك في (الغدير) يزول قلقه ويجد الأمان الذي يسعى إليه ....، ولولا ذلك لمنعه القلق من أن **(يؤمن)** إلا ببشارة من اللّه بإتيان رسول من بعده (ص) ....، أو بأن يلهي نفسه بتضخيم بعض الأمور والتشدد فيها كما فعل ـ أو أراد ذلك ـ أناس من المسلمين[٦٧٣]

كذلك كان إعلان النبي (ص) عليا مولى إكمالا لدين جندب وإتماما لنعمة اللّه عليه، وأصبح به الإسلام دينا، وكان من الطبيعي أن جندبا لم يكن وحده الذي تحقق له ذلك، بل كان معه مؤمنون مهتمون بالدين[٦٧٤] وإن كانوا قليلين[٦٧٥] ...

(المراقب)ـ متدخلا ـ : كسلمان وأبي ذر والمقداد الذين لم يرتدوا كما هو معروف ومروي[٦٧٦]

(الناصر)ـ : الروايات في هذا الباب مختلفة[٦٧٧]، وفيها ما يدل على أن ما حدث لكثير من الناس لم يكن ارتدادا[٦٧٨]، ويبدو هذا أكثر واقعية إذ من البعيد أن لا يعرف حق علي عليه السلام ولا يواليه من جميع هؤلاء المسلمين إلا ثلاثة أشخاص فقط ....، فأرى أن المسلمين آنذاك كانوا بهذا اللحاظ ثلاث فئات:

أعلنه (ع) سلطانا

فئة فهمت من خطبة النبي صلى اللّه عليه وآله يوم الغدير وغيرها أنه قد أعلن عليا (ع) حاكما بعده، فلأنهم لم يكونوا يرون للنبي غير سمتين هما النبوة والحكم بمعناه المعروف الآن أي (السلطان والإمرة)، وبما أنهم كانوا متكلين عليه

صلى اللّه عليه وآله مكتفين بطاعته فقط فيما يأمر به وينهى عنه، وبما أنهم لم يروه (ص) قد قام في حياته بفرض علي (ع) ـ عمليا ـ سلطانا [٦٧٩] ...، ووجدوا أناسا ركزوا على أن ذلك إنما هو مجرد اقتراح واجتهاد منه (ص) فلا يجب الأخذ به ...

أو ـ على سبيل مانعة الخلو ـ زعموا أن ما أعلنه صلى اللّه عليه وآله هو وجوب طاعة علي (ع) إن كان له سلطان، أي أن وجوب الطاعة كان مشروطا لا مطلقا ...

أو ـ وأيضا ـ رأوا أنفسهم عاجزين عن مواجهة التيار المناهض ...

وهذه الفئة، وبالأحرى كثير منهم، كانوا يتولون النبي (ص) في حياته وربما يهتدون وإن كانوا غافلين عن ذلك[٦٨٠] ...، وأما بعد وفاته (ص)، فبتوليهم ولاية غير مهتدية هادية، مشوا على القهقرى كما ـ مثلا ـ في البخاري (الفتن، الحديث ٧٠٤٨) أن النبي (ص) كان قد أخبر بذلك

مولى روحي وعلمي

وفئـة قد علمت أن النبي (ص) مضافا إلى كونه نبيا وحاكما كان أيضا مرجعا روحيا وعلميا للمسلمين، وزعموا أنه (ص) قد ورّث ذلك عليا (ع) لكنهم لم يكونوا يرون ملازمة بين كونه مرجعا كذلك وبين كونه حاكما ...

وهؤلاء كذلك مشوا على القهقرى بعد وفاة النبي صلى اللّه عليه وآله باتباعهم إمامة مختلفة عن إمامة النبي صلى اللّه عليه وآله، إذ أن الذين تولوا الحكم بعده (ص) كانوا يدعون أن حكمهم إنما هو امتداد لحكم النبي، فهو حكم شرعي كحكمه صلى اللّه عليه وآله وأن طريقتهم في الحكم هي طريقته فيه، فمن خضع لهم اتخذهم أئمة ما لم يكن رافضا لحكمهم في قلبه، ولم يكن يقدر على ذلك إلا من كان له إمام عالم عادل حاكم لقلبه ...

(الراصد)- مقاطعا -: لماذا قصر الرفض على من كان له إمام حق؟ فقد يرفض

ذلك من لا إمام له من اللّه، كما نقل عن أبي سفيان[٦٨١] ـ مثلا ـ

(الناصر)ـ : نحن في صدد وصف المسلمين الذين كانوا مؤمنين بالنبي صلى اللّه عليه وآله ...

ولاية شاملة

وفئة ـ وهم أهل البصائر من المؤمنين ـ كانوا يعلمون أن أهم سمة النبي (ص) بعد نبوته هي أنه كان (مولى) المؤمنين، بل وهذه الخصلة هي التي جعلته (ص) نبيا في نفوس الناس ...

(أنا)ـ مقاطعا ـ : كيف؟ هلا توضح هذا

(الناصر)ـ : تكررت الإشارة إلى جوانب لهذه المسألة المهمة جدا، وبما أننا لا نبوّب المسائل فأكتفي الآن كذلك بإشارة إليها فأقول: من المجرب جدا أن الإنسان محتاج إلى أن يتولى أحد أمره، وإلى أن يتولى أمر غيره ...، فهو لذلك يسعى إلى أن يطيع ويتبع ...، ويأمر وينهى ويحب أن يطاع ...، وأن هذه الحاجة مغروزة في أعماق ذاته فلا يمكنه غير ذلك ما دام إنسانا ...، وبكثير من الاختزال ـ بل القفز على كثير من المسائل ـ أقول: ليس للإنسان (الفرد) هوية مستقلة[٦٨٢]، وإنما تتحدد هويته بإمامه وقائده

(المراقب)ـ مقاطعا ومؤيدا ـ : يبدو أن إلى هذه الحقيقة يشير قول اللّه تعالى (الإسراء: ٧١): (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) الذي اضطربت بصدده أقوال المفسرين[٦٨٣]، أليس كذلك؟

(الناصر)ـ : صحيح ذلك ...، والذي كنت بصدد قوله هو أن الإنسان وإن كان مجبولا على الطاعة فلا يمكنه أن لا يطيع[٦٨٤] لكنه قادر على أن يختار

مطاعه، وقادر على أن يعرف الـولي الصـالح ومزود بالاندفـاع إلى الكون معـه، فإن لم يكفر بهـذا الاندفاع الفطري فإنـه يجـدّ في البـحث عن (ولي)، وبالأحرى إنـه يتحرك في هـذا الاتجـاه بعـزم وهو واع لحركتـه، ولعل إلى ما أشـرتُ إليه مـن الجِدّ والاهتمام تشير كلمـة (اليميـن)[٦٨٥] فـي الآيـة الكريمة التـي ذكرهـا الأخ ـ وأشار إلى المراقب ـ، بـأن يكـون معنـى قولـه تعالـى: (فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ...): (فَمَن) كان فـي الدنيا معنيـا بأمـره وعلـى بينـة مـن ربه[٦٨٦] قائما بـه متعاملا معه بجدّ وآخـذه بقوة فهو يدان كمـا دان[٦٨٧] فيرحَّـب بـه ويُهتَـم بـه في الآخرة ويقبَل عليه وكان من أَصْحَـابِ الْيَمِينِ و(أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) فيُحيّـا بسـلام[٦٨٨]، وبمـا أنهـم كانـوا يرجـون حسـابا (فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُـمْ)، بـل ويدعـون الناس إلى قـراءة كتابهم[٦٨٩] ...

كمـا ويبـدو أن إلـى اللامبـالاة فـي الائتمـام يشير قـول اللّـه تعالـى (الإسراء: ٧٢): (وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً)، حيث أن الأعمى لا يدقـق فيما يقدم عليه ولا يختاره، وإنما يُقبل على أول ما تدفعه إليه غريزته فيتمسـك به ...

ومهما يكن من أمر فإن هذا الدافع هو (الباب) لدوافع الإنسان الفطرية المختلفة، بمعنى أن أول ما يندفع إليه الإنسان ـ بعد قضاء ما تتطلبه بعض الغرائز[٦٩٠] ـ هو الكون مع أحد من الناس والانتماء إليه، ولا يقر له قرار حتى يجده، وإذا وجده سعى عفويا إلى كسب ودّه وجعْلِه يهتم به، وقام بإطاعة أوامره، بل بادر إلى العمل بكل ما احتمل أنه يحبه، والابتعاد عن كل ما احتمل كرهه له ...، ذلك لوجدانه الفطري أنه محتاج إلى من يقوده ويأمره وينهاه، فإنه لو لم يجد ذلك لم يتطوع إلى ما أشرت إليه، فإنه لا أحد يفعل شيئا إلا لذاته[٦٩١] ...

ولا يختلـف النـاس فيمـا ذكـرتُ، إلا أن منهـم من يكون واعيـا بالإجمال لدوافعه ومـا يترتـب عليهـا، لا سيما هـذا الدافـع، فـإن ما يترتـب عليه لن يخفـى على أحد

فإن لم يكن قد أبطل[٦٩٢] اندفاع نفسه الفطري، ولم يكفر به فإما أنكرت نفسه النبوة المدعاة بما أودع اللّه فيها ـ أي في نفسه ـ من إمكانية المعرفة فلم تجد فيها بغيتها الفطرية، وإما عرفتها فتجاوبت معها فكان النبي مولاه الذي احتاجته ذاته ودفعته إليه فطرته، ولولا ذلك لم يطلب نبيا، ولو تكلف طلبه لم يقدر على الإيمان به ولم يتبعه ولم يكن معه ...

أجل، إن نبوة النبي (ص) قد لبّت جميع حاجات الإنسان الفطرية الضرورية ...، أهمها حاجته إلى (مولى)، فكان النَّبِيُّ (أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ...) (الأحزاب:٦)

عود إلى الفئة الثالثة

أعود إلى ما كنت بصدد بيانه من أن الفئة الثالثة من المسلمين ـ التي افترض أن جندبا منها ـ كانت تعلم أن أهم خاصية النبي (ص) بعد نبوته كونه (مولى) المؤمنين، وكانوا يعلمون ـ بدرجات متفاوتة ـ أن هذه الولاية هي أساس الإيمان وملاكه سلبا وإيجابا، وكانوا يعلمون ـ وبدرجات متفاوتة أيضا ـ مقومات ولاية النبي صلى اللّه عليه وآله المذكورة وأنها لم تكن معجزة إلهية خاصة بالنبي من حيث أنه نبي[٦٩٣]، أو نتاجا طبيعيا لخصال خاصة به (ص)، منها سلطته الروحية على الأشياء والنفوس[٦٩٤]، بل حصلت بقانون إلهي حاكم على النفوس البشرية قابل للرصد والمعرفة بإجماله، فمن ذلك ما في القرآن الكريم ـ مثلا ـ: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)[٦٩٥]

أجل، إن هذه الفئة كانت تعلم أن أساس الدين وبابه كان ولاية النبي في نفوس المؤمنين، فبها كانت تلاوته (ص) تجعل القرآن (قرآنا)[٦٩٦] يهدي للتي هي أقوم، وتجعله (كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) كما قال اللّه تعالى (الزمر: ٢٣)، وبها كانت سنة

النبي (ص) (سنة)[٦٩٧]، فلولاها لـم يُهتـم بسنتـه ولـم تُعرف ولم تتُخـذ سبيـلا، ذلك لوضـوح أن القلـب لا ينفتـح علـى أحـد إلا بـأن يستند إليـه بدرجـة أو أخـرى، ومـن لـم ينفتـح عليـه قلـب الشخـص لم يُقبل على ما ينـادي لـه[٦٩٨]، وإن اهتم بشـيء منه لغـرض آخـر غيـر طلـب العلم والهـدى ...

الـحُـكـم

(الواصد) : إن النبي (ص)، مضافا إلى خاصيتيه اللتين ذكرتهما، كان سلطانا وحاكما أيضا، بل والمتسالم عليه أن هذا كان أهم أدواره (ص) بعد نبوته، لذلك فسرت كلمة (المولى) في خطبة الغدير بما يدل على السلطان، فعلى ذلك ما ورّثه النبي (ص) عليا والأئمة عليهم السلام هو ولاية الحكم[٦٩٩]، وهذا ينافي ما بدا من كلامك من أن دور الأئمة عليهم السلام الأساس هو الولاية على النفوس لا الحكم

(الناصر) : قبل كل شيء يجب الانتباه إلى أن ما أقوله هو أن الحكم من شؤون الإمام عليه السلام ولكن لا كيفما اتفق بل إذا توفرت له ولاية فعلية على نفوس عدد من الناس كاف لنصرته لأجل القيام بالحكم وتحقيق العدل[٧٠٠] ...

هذا، وقد أشرتُ سابقا إلى أنه كان واضحا أن الحكم الذي أقامه النبي (ص) ينتهي بموته، وأنه (ص) كان يؤكد ذلك بنفسه، وإن كان هذا مما لا يحتاج إلى نص خاص، فلو رُبط الدين بالحكومة لانتهى بانتهائها، لولا بموته صلى اللّه عليه وآله مباشرة فبعد فترة[٧٠١] ...

نظريتان

كانت حكومة النبي (ص) أساس الدين، وهذا مما لا يشك فيه مسلم، وقد رأى القسم الأكبر من المسلمين أنها كانت كذلك لا لكونها حكم النبي (ص) بل لكونها حكما بما أنزل اللّه تعالى، شأنه في هذا شأن أي شيء آخر مما فعله (ص) أو بلغه الناس، فكما أن الصلاة مثلا استمرت ركنا للإسلام كما كان في عهده (ص) فكذلك الحكم[٧٠٢]

ومن زاوية أخرى: رأى هؤلاء أن ما كان قد قام به النبي صلى اللّه عليه وآله كان أمرين، الأول: تبليغ ما كان قد أوحي إليه (ص) متمثلا في الكتاب وفي السنة بمعنى أقواله وأفعاله، والثاني: الحكم ....، وأما الكتاب فقد تم في حياته (ص)،

وهـو المعـروف المحفـوظ فـي الصدور وفيمـا كتبه كتّـاب الوحي[٧٠٣]، وكـذلك تمت السـنة، وهي ما كان يعلمهـا الصحابة بشـكل عام وإن لم تكتب[٧٠٤]، وأن هـذا هو معنى قـول اللّـه عـز وجـل (المائدة: ٣): (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا)[٧٠٥]

ولـم يبـق ممـا كان يقـوم بـه النبي صلى اللّه عليه وآلـه إلا الولاية بمعنى (الحكم)، فقـام بـه أنـاس كخلفـاء للنبي وباعتبـار أن حكمهـم كحكمـه: يحكمـون بالكتـاب والسـنة مثلمـا كان يفعـل (ص)، فكمـا كان الخـروج علـى حكـم النبـي (ص) كفـرا وارتـدادا فكـذلك الخـروج علـى حكمهـم[٧٠٦] ...، بـدلا مـن أن يعتبـروا حكمـهـم محـاولة لإحيـاء سنـة الرسول ومنهاجه وسعيا إلى (العدل) المطلوب، كما يفترض أن يفعـل ذلـك الإمامـي لـو (أُلجئ) ليحكـم، وكمـا كان ذلـك شـأن أمير المؤمنيـن عليه السلام[٧٠٧]

(**الواصد**)-مقاطعا -: ولكـن مـا نقـل عـن الخلفـاء أنهـم لـم يدعـوا ما أشـرت إليه، وأنهـم أيضـا كانـوا معترفيـن بالقصـور[٧٠٨]، فمـا هـو الفـرق إذَنْ بينـهم وبيـن علي عليه السـلام بهذا اللحاظ؟

أربعـة فروق

(**الناصر**)ـ: الفـرق ـ أولا ـ أن عليـا عليـه السـلام لـم يكـن يرى نفسـه قـاصرا عن الحكـم، بـل كان يـرى النـاس مقصريـن، لذلك كان يعـاتبهم ويلومهـم[٧٠٩]، وهو ما لم يكـن يحـق للآخريـن أن يفعلـوه، لا عنـد أنفسـهم، ولا عنـد اللّه، ولا عنـد الناس، بعد أن كانـوا قـد سـعوا إلـى الخلافـة وبذلـوا لنيلهـا كل جهد كمـا هو معروف

وثانيـا: إن لازم ادعـاء هـؤلاء القصـور فـي الحكـم أن الدين لم يكن قـد كمل ولم يصبح قـابلا لأن يعمـل به ويطبَّق إلا ناقصـا، لأن مدعي القصور إما كان قـد اختـاره النبـي صلـى اللّـه عليـه وآله كما قيل[٧١٠]، وإما اختاره المسـلمون باعتباره الأفضل[٧١١]

والأولى بخلافة النبي، فقصوره يعني أنه لم يكن في المسلمين من يطبق الدين كاملا كما كان في عهد النبي صلى اللّه عليه وآله

وثالثا: إنهم لم يكونوا يعترفون بمثال للحكم الحق يُسعى إليه ويُعرف به النجاح والخيبة ...، ولم يكونوا يلفتون الأنظار إلى ذلك، فكان من الطبيعي إذَن أن تُتخذ طريقتهم في الحكم هي المثال والمقياس[٧١٢] وإن اعترفوا بالقصور والعجز

ورابعا: على فرض أنهم كانوا يعرفون سنة النبي وطريقته في الحكم ويهتمون بها ويسعون إلى العمل وفقها ...، فإن هذا لم يكن يكفي ما لم يركزوا على مثال آتٍ للدين ليأمله الناس وينتظروه مثلما كان قد فعله القرآن والنبي[٧١٣] ...، فلولا ذلك لم يكن شيء يمنع الناس عن الاستسلام للوضع القائم واعتباره هو الإسلام ...، أو رفضه والخروج عليه طيشا ولجاجا بلا معرفة وبينة[٧١٤]، أو الرهبنة والاعتزال والتفرد بمسلك خاص[٧١٥]

أجل، لا يمكن لأحد أن يتدين بـ(التقية) ـ أي بأن يساير في ظاهره الوضع الفاسد ويخالفه في باطنه ـ إلا بأن يكون (منتظرا) لوضع صالح ...، ولن يقدر على الانتظار إلا بأن يكون له إمام يذكره به ويدعوه إليه، كما كان يذكر النبي وأمير المؤمنين[٧١٦] والأئمة (عليهم السلام) الناس بظهور المهدي في آخر الزمان ...

تصديق بلا انتظار ...

(الراصد)ـ مقاطعا ـ: المخالفون أيضا يعتقدون بظهور المهدي[٧١٧]

(الناصر)ـ: صحيح ذلك، ولكنهم لا يؤمنون به وبانتظاره، وإنما يعتقدونه كما يعتقدون حدوث فتن كان النبي (ص) قد أخبر بها ...، خلافا للإمامية حيث بانتظارهم للمهدي عليه السلام يؤمنون بما يؤمنون به ...

وبتعبير آخر: يحب المخالفون أن يظهر المهدي ليأمر بالمعروف وينهى عن

المنكر وينشر في العالم العدل (المرغوب) ....، أي ليقوم بما يعجز عنه غيره، بينما يعتقد الإمامي أن ما سوف يقوم (ع) به لا فقط يكون مؤثرا في حينه، ويرغب فيه المؤمن قبل ظهوره، بل وإن المؤمن يحتاجه لأن يكون مؤمنا في غيابه[٧١٨]

هذا بغض النظر عن أن المخالف ليست لديه صورة واضحة عن العدل الذي سيتحقق، أو المعروف الذي سيأمر به (المهدي)، خلافا للإمامي فإنه يعرف (إجمالا) العدل الذي سيملأ به المهدي (ع) الأرض، فيكون بذلك قادرا على انتظاره ...

(المراقب)ـ مقاطعا ـ : فيما رواه المخالفون أيضا ما يشير إلى صورة العدل الذي سيتحقق، كالذي رواه أحمد في مسنده (٣/٣٧) عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أنه قال: «*أبشّركم بالمهدي يبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلازل، فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، يقسم المال صحاحا، فقال له رجل: ما صَحاحا؟ قال: بالسوية بين الناس*

قال: ويملأ اللّه قلوب أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم (كذا) غنى ويسعهم عدله، حتى يأمر مناديا فينادي فيقول: من له في مال حاجة؟ فما يقوم من الناس إلا رجل فيقول: ائتِ السدان (يعني الخازن) فقل له: إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالا

فيقول له: احث، حتى إذا جعله في حجره وأبرزه ندم فيقول: كنت أجشع أمة محمد نفسا! أوعجز عني ما وسعهم؟! قال: فيردّه فلا يقبل منه فيقال له: إنا لا نأخذ شيئا أعطيناه ... »

(أنا)ـ : العدل محبوب للإنسان ...، فلو كان الحديث المذكور يلمح إلى العدل لركزوا عليه واستبشروا به وترقبوه، أليس كذلك؟

(الناصر)ـ : إنهم لم يهتموا بهذا النوع من الحديث، لا لخلوه عن الإشارة إلى العدل، بل لأن أئمتهم وحكامهم ما كانوا يركزون عليه ويلفتون أنظار الناس إليه ويدْعونهم إلى الاهتمام به، بل وكانوا يدفعونهم لأن يعتقدوا بأن ما يفعله الحاكم هو الحق كله ...، فأهمله الناس ولم يفكروا فيه، ولو فعلوا ذلك لوجدوا في جملة (ويملأ اللّه قلوب أمة محمد غنى ...) ـ مثلا ـ آية للعدل المرغوب فأيقنوا بها[٧١٩] بالتفكير في موجباتها ونتائجها ومتزامناتها، واعتمدوها وآمنوا بها[٧٢٠] وانتظروها ...، بدلا من قبولها لورودها عن النبي (ص)[٧٢١]، بلا افتقاد لها، واستبشار بها، وانتظار لها

عـود إلى ...

لقد طال بنا الوقوف هنا، فما كنت بصدده هو أن (العامة) يرون، بل لا مناص لهم من أن يروا، أن كل من يقول: إنه يحكم بالكتاب والسنة **فهو خليفة رسـول الله** صلى اللّه عليه وآله بلا فرق بين من يُوصفون بـ(الراشدين)[٧٢٢] وبين غيرهم ما لا يوجد مقياس واضح محدد للتفريق بينهم، فليس فقط يجب طاعته بل ولا بد من اعتماده واعتبار حكومته إسلاما كاملا إذ لا بديل لذلك..

وأما نحن فنعتقد أن الدين الذي بعث به النبي (ص) لم يكن فقط الكتاب والسنة وحكمه بهما، بل كان ـ قبل كل شيء ـ ولايته على القلوب، وهي التي أورثها اللّه عليا (ع) وأمر نبيه بتبليغها يوم الغدير، وأنزل لذلك قرآنا لم ينزل في أي أمر آخر مثله في تشديدٍ فُهم منه (التهديد)[٧٢٣]، والوعد بـ(العصمة)[٧٢٤] ...، ومُهد لتبليغها ما لم يمهد لتبليغ غيره، و(لم يناد بشيء كما نودي بها)[٧٢٥]، وإذا كان المقصود بـ(الرسالة) في قول اللّه تبارك وتعالى (المائدة: ٦٧): (وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ...) مجموع الدين[٧٢٦] فالولاية بالمعنى المذكور هي المصداق الوحيد المتصور لما يتوقف عليه تبليغ الدين كله إذ لولاها لم يبْلُغ شيء من رسالة اللّه تعالى أحدا[٧٢٧] فيؤمن به ويعمل، فقد قال تعالى (النساء: ٨٠): (مَّن يُطِعِ

الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)، وقال (آل عمران: ٣١): (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...)...

وأما الولاية بمعنى الحكم الظاهر فإنها رغما عن مكانتها العظيمة في الدين وأثرها الكبير في الإيمان فليست بحيث لو لم تبلّغ ما بلغ شيء من الدين، فلذلك احتيج في تطبيق الآية عليها إلى عناية[٧٢٨]

(**الواصد**)ـ مقاطعا ـ : لا بأس، ولكن النبي (ص) كان قد بلغ الدين بولايته، فماذا يعني (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه)؟

(**الناصر**)ـ : كانت رسالة اللّه التي بعث بها الرسول صلى اللّه عليه وآله الرسالة الخاتمة الدائمة، فتبليغها لم يكن يتم إلا بولاية مستمرة، بل ونرى أن تبليغها لم يتم في عهده (ص) إلا للذين كانوا يتوقعون استمرارها، ويطمحون إلى من تتمثل فيه، ويجدون ما يشير إلى ذلك ويؤكده، كما تقدم في قصة (جندب) ...

تأكيد وتوضيح

وعلى أي حال فنحن نرى أن ما أمر اللّه عز وجل نبيه بتبليغه يوم الغديرلم يكن تشريعا مباشرا لولاية الحكم، بل كان بيانا لولاية النفوس التي تستلزم ولاية الحكم وتستوجبه، وهذا ما كنت قد أشرت إليه، وها أنا أوضحه وأؤكده بأن أقول:

لو كان المراد بـ(الولاية) التي أمر اللّه نبيه (ص) بإعلانها لأمير المؤمنين (ع) ولاية الحكم خارجا، فمضافا إلى عدم تحقق وعد اللّه تعالى بعصمة النبي (ص) من الناس وكيدهم[٧٢٩] ...، لم يكتمل دين المؤمنين لعدم ممارسته (ع) لها في الواقع، فإنها لن تكون أساس الدين إلا كذلك، لأن ما هو (ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى الطاعة للإمام بعد معرفته)[٧٣٠]، والطاعة عمل، ولم يتيسر ...

(المراقب)ـ مقاطعا ـ : يتحمل مسؤولية ذلك الذين تولوا الحكم بدلا عن آل محمد عليهم السلام[٧٣١] ولا حجة للناس على اللّه تعالى بعد أن أمر الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بتبليغه، قال تعالى (الكهف: ٢٩): (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(الناصر)ـ : أنا أقصد، لا هؤلاء، بل المؤمنين الذين كانوا يرغبون في طاعته عليه السلام، فلو كان المراد بالولاية التي أعلنها النبي صلى اللّه عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام الحكومة والسلطان الظاهري، وكانت هي مفتاح أركان الدين فبعدم تحققها لم يتحقق للمؤمنين ما بني عليه الإسلام من دون أن يكون لهم دور في عدم تحققه، فإنهم لم يكونوا قادرين على إقامة الولاية له عليه السلام وللأئمة من بعده[٧٣٢]

ثم من المعروف أن بعض الأئمة عليهم السلام لم يسع إلى الحكم ولم يطلبه ....، وكان بعضهم صغيرا حين توليه الإمامة ...

(المراقب)ـ مقاطعا ـ : شأن الأئمة عليهم السلام في هذا شأن عيسى بن مريم (ع) الذي آتاه اللّه الكتاب والنبوة وهو صبي[٧٣٣]

(الناصر)ـ : ذلك صحيح في الإمامة العلمية، لكن القيام بدور الوالي والحاكم يحتاج توفر خصال ظاهرية فيمن يقوم بذلك منها (السن) كما يشير إلى ذلك ما روي عن أبي جعفر عليه السلام[٧٣٤]

وحتى في المسائل العلمية التي كان لا بد منها في الاعتقاد والعمل، فإن ما فعله الأئمة السابقون (ع)، ولا سيما الصادقان[٧٣٥]، أخرج للشيعة فقهاء عالمين بمعالم دينهم[٧٣٦]، قادرين على الدفاع عنه بلا حاجة إلى أن يراجعوا الإمام (ع) في ذلك ويعرضوه عليه ويسألوه عنه مثلما كانوا يفعلون قبلئذ ...

(أنا)ـ : ما هو الفرق بهذا اللحاظ بين كون الإمام (ع) حاكما وبين كونه مولى؟

(الناصر)ـ : يبدو لي أن بينهما ـ بهذا اللحاظ ـ فرقين رئيسيين: الأول أنه لا يمكن ـ عادة ـ لجميع رعية الإمام الحاكم أن يعتقدوا إمامته، فكثير منهم إنما يتعاملون معه كحاكم فقط ...، وأما الذي يتخذه مولى فإنه لن يكون إلا من آمن به

والثاني أن الولاية الحكمية ممارسة ...، خلافا للولاية النفسية فإنها لا تتطلب أزيد من أن يتجسد في المولى ما تحن إليه النفوس وتسكن إليه ...

(الراصد)ـمقاطعا ـ : مما لا بد منه في التولي أن يكون للمولى إمامة ودعوة، فكيف وهو لا يمارس شيئا ...؟

(الناصر)ـ : يستند المولى في دعوته إلى ما عمله النبي (ص) وأمير المؤمنين (ع) من جهة، ومن جهة أخرى إلى ما يُنتظر تحققه مستقبلا

مرحلتان:

بلحاظ (الحكم) مر الإسلام بمرحلتين رئيسيتين:

الأولى ما حصل في عهد النبي صلى اللّه عليه وآله من حكومة ظاهرة[٧٣٧]، وقد كانت من مقومات الدين، إذ لولاها لم تتضح معالمه ولم يتم (البلاغ المبين) ولم يكن الإسلام دينا ...

أهم ما كان قد تحقق بـ(حكم) النبي صلى اللّه عليه وآله أن كان القرآن كتابا[٧٣٨] ومن ثم تبيانا لكل شيء[٧٣٩]، وكانت أفعاله (ص) وأقواله (سنة)[٧٤٠] فكانت أهدى السنن[٧٤١]، وكان النبي صلى اللّه عليه وآله إماما ...، وهي أمور مترابطة لا يمكن تجزئتها ولا الاستغناء عن شيء منها

ولولا أن كان له (ص) الحكم والولاية الظاهرية لما تحقق شيء منها، لذلك كانت حكومته من أصول الدين فمن لم يعترف بها أو رفضها خرج عن الإسلام، إذ لم يكن ممكنا الإيمان إلا بها ومن خلالها

والمرحلة الثانية بدأت قبيل وفاة النبي (ص) حيث كمل الدين المتمثل في الأمور الثلاثة المذكورة فأنزل اللّه تعالى: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا)[٧٤٢]، فاستغنى الدين عن الحكم الظاهري وانفصل منه واستقل عنه، فلم يعد الحكم ضروريا وأساسا للمعرفة والإيمان، كما كان في عهد النبي صلى اللّه عليه وآله، فصدق قول اللّه تعالى (العنكبوت: ٥٦): (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)، فأمكن معرفة الدين والإيمان بالكتاب وإمام ومولى وانتظار حكمه الذي عُرفت معالمه بحكم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وبسنته، فمن كان له إمام من اللّه وكان عارفا به قدر على التدين بـ(**التقيـــة**)[٧٤٣]، ولم يضره تقدَّم قيام إمامه بالحكم أو تأخر[٧٤٤]

(**أنا**)ـ: تقدم في بعض المجالس السابقة توضيح أن الكتاب لا يكون كتابا إلا بمولى وتلاوته[٧٤٥]، فشأنه بهذا اللحاظ شأن السنة، فلِمَ خُص بالذكر يومَ الغدير؟، ثم ما وجه كون الكتاب أكبر الثقلين؟

(**الناصر**)ـ: يبدو أن الفرق بينهما بهذا اللحاظ هو أن السنة بالنظر إلى كونها طريقة النبي ـ بلحاظ كونه إماما ومولى ـ لا يمكن فصلها عنه (ص) ومعرفتها واتباعها بمعزل عنه، أي لا يمكن معرفة سنة النبي واتباعها إلا بمعرفته (ص) واتباعه، أو باتباع إمام عالم به (ص) وبسنته متبع له ...، وأما كتاب اللّه فهو مستقل عن النبي (ص) قد أنزل عليه[٧٤٦] قابل لأن يُعلَم ولكن بتعليم النبي صلى اللّه عليه وآله[٧٤٧] من خلال عمله به وتطبيقه له[٧٤٨]، وقابل للاتباع ولكن مع النبي واتباعه، والنبي يهدى إلى صراط مستقيم يُسلك بالكتاب[٧٤٩] ...

وأما وجه كون الكتاب أكبر من العترة فيبدو لي أن ذلك لأن اللّه تعالى كان قد جعلها مع القرآن وجعل القرآن معها لا يفترقان[٧٥٠]، ولا يتصور ذلك إلا باتباعها

للقرآن[٧٥١]، والمتبوع أكبر من التابع

ولولا عصمتهم (ع) عن الجهل والذنب لافترقوا عن القرآن حتى لو (اعتبروه) نازلا من اللّه تعالى، ونظروا إليه لمعرفة الحقائق الموضوعية، وأخضعوه لمقاييسهم وتابعا لها، فكانت أنفسهم أكبر منه وإن استفادوا منه وازدادوا به علما، كما لا يخفى ...

(المراقب)ـ : خطر ببالي سؤال بهذا الصدد، وهو: ما دام المولى ـ المتمثل بالعترة ـ يحفظ الموازنة المطلوبة ويتبع الكتاب فلِمَ أعلن ذلك النبي (ص) على الملأ؟

(الناصر)ـ : يبدو أن ذلك للفت الأنظار إلى أهمية الكتاب، لئلا يغفل عنها ويُتكل على المولى، ويبدو أن لهذا أنزل اللّه عز وجل آيات كقوله (الغاشية: ٢١-٢٢): (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ) لتتلى، بدلا من أن يُذكّر بها النبي فقط

وأرجو أن يزيد هذا وضوحا مستقبلا بتناولنا لمزيد من دور الإمام ومكانته

والحمد للّه أولا وآخرا

شواهد
و
تعلیقات

(١) تقسيم الناس إلى (الخواص والعوام) شائع جدا في عرف مثقفي المتدينين...، ويقسم كثير منهم الخواص إلى خواص الخواص وعوام الخواص، والعوام إلى خواص العوام وغيرهم، فمثلا بعدما بين الخواجة نصير الدين الطوسي في كتابه (أساس الاقتباس ص٣٨٥) أن الهدف من الخطابة هو إيجاد التصديق في النفوس، بخلاف الجدل الذي يستهدف به الإلزام ومن ثم التدقيق، قال ـ ما ترجمته ـ : « وأما استفادة التصديق من الجدل لاشتمال مواده لما يقتضي التصديق من الصادقات البرهانية والمقنعات الخطابية، فهو لمن كان وسطا بين طائفتين، أي يكون من خواص العوام، وعوام الخواص ...، ولأن مقتضى التصديق بالذات إنما هو البرهان للخواص، والخطابة للعوام ... »

وقال الملا هادي السبزواري في هامش كتاب (الأسفار: ١/٧١): « القائل بالتوحيد إما أن يقول بكثرة الوجود والموجود جميعا، مع التكلم بكلمة التوحيد لسانا واعتقادا بها إجمالا، وأكثر الناس في هذا المقام، وإما أن يقول بوحدة الوجود والموجود جميعا، وهو مذهب بعض الصوفية، وإما أن يقول بوحدة الوجود وكثرة الموجود، وهو المنسوب إلى أذواق المتألهين، وعكسه باطل، وإما أن يقول بوحدة الوجود والموجود جميعا في عين كثرتهما، وهو مذهب المصنف (قده) والعرفاء الشامخين

والأول توحيد عامي، والثالث توحيد خاصي، والثاني توحيد خاص الخاص، والرابع توحيد أخص الخواص... »

وفي شرح ما رواه الكافي (١/٩١) عن الرضا (ع) أنه قال: « كل من قرأ (قل هو اللّه أحد) وآمن به فقد عرف التوحيد ... » قال صدر المتألهين في كتابه (شرح أصول الكافي): « اعلم أن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، وكذلك هذه السورة ـ سورة التوحيد ـ ظاهرها توحيد العوام، وباطنها توحيد الخواص، وباطن باطنها توحيد أخص الخواص، ... »

---

(٢) أُشير في بداية القسم السابق إلى ما افترض من أن اسم راوي القصة (بشر)...، وأنه صادف أربعة أشخاص، سمي أحدهم (الزين) باعتباره مظهرا لما في أمالي الصدوق ص٤٨٤ عن الصادق عليه السلام أنه قال: « معاشر الشيعة، كونوا لنا زينا، ولا تكونوا علينا شينا، قولوا للناس حسنا، واحفظوا ألسنتكم وكفوها عن الفضول وقبيح القول »، وسمي الثاني (الناصر) باعتباره ناصرا للدين بالاحتجاج والجدال بالتي هي أحسن، وسمي الثالث (الراصد) باعتباره

راصدا لما يجري من كلام بغية الإشكال عليه وانتقاده لأجل (محصه)، وسمي الرابع (المراقب) باعتباره حارسا للمعايير الدينية ...

هذا، وإن كلا من (الزين) و... يشير إلى بُعد من أربعة أبعاد افترض توفرها في شخص واحد وتعاونها في ما بينها بتأدية كلٍّ دورا لا بد منه في الإنسان المؤمن البصير بدينه ...

---

(٣) جاء في (علم النفس الثقافي: ماضيه ومستقبله، ص٢٧٨ - ط دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٢): « ما يكاد المولود الجديد يحل في الجماعة حتى يكون الشرط الأساسي والأسبق لاستمرار نموه هو أن يندمج هذا القادم الجديد في الحياة اليومية للجماعة. هذا الاندماج يستلزم حدوث توافق وتنسيق بين الأطفال وبين القائمين على رعايتهم بحيث يكون بمكنة الراشدين حشد إمكانات كافية لاستيعاب القادم الجديد ... يجب على الراشدين أن يحسبوا حسابا للطفل ... وعلى الطفل أن يسد هذا الفراغ بأن يجعل نفسه مقبولا وجديرا بالترحاب » ...

وجاء في ص٢٨٠ من الكتاب المذكور: « يعد تغيير الحفاض نموذجا أوليا مبكرا لروتين بينفردي . وعلى الأطفال أن يكونوا متعاونين لدرجة الاستلقاء بسكون كاف بحيث لا يدع الدبوس ينغرز في جلدهم بدلا من الحفاض . ومن جهة أخرى إذا رفع المربي الطفل بطريقة غير مألوفة لديه فقد يتلوى الطفل بسبب ارتيابه في ما سيحدث . ومن شأن الوتيرة أن تتعطل إذا فشل أي طرف في اتباعها لأنها تعتمد على ربطهما لسلوكهما معا بطريقة سلسة ... »

وكتاب (علم النفس الثقافي: ماضيه ومستقبله) ترجمة الدكتورين: كمال شاهين وعادل مصطفى لكتاب بقلم (مايكل كول) حاز على الجائزة السنوية التي تقدمها مطبعة جامعة هارفرد للإصدارات الممتازة في حقلي التعليم والاجتماع

---

(٤) قال الدكتور عبد العزيز القوصي في كتابه (علم النفس: أسسه وتطبيقاته ص١٥٤): « فالإنسان منذ أول وجوده يتأثر بما حوله، وعند ولادته يتأثر بميراث اجتماعي قوي، ويتكيف تبعا لمعاملة من حوله، وتبعا لما عنده من ذكاء وعوامل أخرى، لهذا كانت عملية الفصل بين هذه العوامل المتعددة أمرا عسيرا ... »

وبعنوان (**الطفل يبكي بلغة أمه**) كتبت صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠٠٩/١٢/١٥ ما يلي:

هل تعلم أن الأطفال يلتقطون لكنات أمهاتهم وهم في أرحامهن قبل الخروج للحياة، ولذلك يبكون بلكنة لغة أمهاتهم!

هذا ما يقوله باحثون فرنسيون وألمان في دراسة أجريت على أطفال رضّع في فرنسا وألمانيا، كما ذكرت الوكالة الألمانية للأنباء (د ب أ)

ويضيف الباحثون أنه حتى في الأيام الأولى القليلة بعد خروجهم إلى الحياة يبكي الأطفال الفرنسيون بطريقة مختلفة عن الأطفال الألمان . ففي حين أن المواليد الفرنسيين الجدد في الغالب لا يخرجون صرخات ذات طبقة آخذة في الارتفاع فإن الأطفال الألمان يميلون إلى الصراخ بطبقة صوت آخذة في الانخفاض . ويفترض أن السبب في ذلك هو نماذج طبقات الصوت المختلفة في اللغتين وهم لا يزالون أجنة في الرحم ثم بعد ولادتهم في وقت لاحق . ومن ثم يبدأ اكتساب اللغة حتى قبل الولادة طبقا للدراسة

فعندما يكون الأطفال في الأيام القليلة الأولى من حياتهم جوعى أو عطشى، أو ببساطة يتوقون إلى أمهاتهم، فإنهم يعلنون عن ذلك عن طريق البكاء . وكان العلماء هناك بأجهزة تكبير الصوت (الميكروفونات) مستعدين لتسجيل الشكاوى . وكتبت كاثلين فيرمك، رئيسة مركز تنمية مرحلة ما قبل الكلام واضطرابات التطور في قسم تقويم الأسنان في مستشفى جامعة فورتسبورغ الألمانية، « إن الأطفال قادرون على التعرف على أصوات أمهاتهم وتمييز لهجتهن من أي لغة أجنبية في آخر ثلاثة شهور من الحمل . ومن الواضح أيضا أنه حتى في الشهور القليلة الأولى من حياتهم فإن المواليد الجدد يجيدون التقنيات المطلوبة لإنتاج مسارات لحنية بسيطة وطبقات صوتية مختلفة في بكائهم »

وركز العلماء لأغراض دراستهم على المواليد الجدد الألمان والفرنسيين لأن هناك اختلافا كبيرا بشكل خاص بين اللغتين في ما يتعلق بطبقات الصوت ومن ثم التنغيم والإيقاع . فعلى سبيل المثال ينادي الأطفال الفرنسيون بكلمة (بابا) بالضغط على المقطع الثاني، بينما نظراؤهم الألمان ينادون على آبائهم (بابا) بالضغط على المقطع الأول

وجاء في صحيفة (الأنباء) الكويتية في ٢٠١٠/٢/٢١ ما يلي:

الجنين يتعلم اللغات في بطن أمه!

فانكوفر - يو بي آي: قال باحثون كنديون وفرنسيون إن سماع الأجنة لغتين وهم في رحم أمهاتهم يمكن أن يؤدي إلى ولادة أطفال يفهمون لغتين.

ووجدت كريستا بايرس هاينلاين وجاني ويركر من جامعة بريتيش كولومبيا في فانكوفر وترايسي برنز من منظمة التعاون الاقتصادي والنمو في فرنسا أن الأطفال المولودين من أمهات إنجليزيات يتحدثن لغة واحدة كانوا أكثر اهتماما بالإنجليزية من لغة (...) المحكية في الفلبين

لكن الأطفال المولودين من أمهات تحدثن لغتين هما الإنجليزية و(تاغالوغ) خلال الحمل كانوا يبدون اهتماما باللغتين

وخلصت الدراسة أيضا إلى أن الأطفال الذين يتكلمون لغة واحدة أو اثنتين قادرون على التمييز بينهما

واستخدم الباحثون طريقة تعتمد على ردة فعل الطفل التلقائية تجاه (المص) والإفراط به يعني اهتماما أكبر بما يحيط به

وقال الباحثون في الدراسة التي نشرت في مجلة علم النفس أن (نتائج هذه الدراسات تظهر أن جذور ثنائية اللغة أعمق مما كان متصورا وتمتد إلى فترة ما قبل الولادة)

وتُنظر صحيفة (القبس) الكويتية فقد نقلت الدراسة في ٢٠١٠/٢/١٨ عن (أ ف ب) بتفصيل أكثر

هذا، وفي ٢٠١٠/٥/٧ نقلت صحيفة (القبس) الكويتية عن (يو بي أي) الدراسة التالية:

يقلد الأطفال الأشخاص البالغين حتى لو كان ما يقومون به ليس له دلالات منطقية أو معنى

وقال باحثون في جامعة كوينز لاند في أستراليا إن الأطفال الذين لم يبلغوا سن الدخول إلى المدرسة بعد يميلون إلى تقليد ما يقوم به البالغون حولهم بشكل تام

ولاحظت الدراسة، التي أعدها هؤلاء، أنه على عكس ذلك لا تقلد قردة الشامبانزي مثلاً غيرها إذا رأت عملاً (غير ملائم) أمامها وتركز على أمور قد تحدث فعلاً في ما بعد

وطلب مارك نيلسون ورفاقه من بالغين فتح صندوق بطريقة معقدة أمام أطفال لم يبلغوا بعد سن الدخول إلى المدرسة وأمام نظراء لهم يعيشون في البراري الاسترالية، ولكنهم رغم ذلك أتاحوا لهم فرصة البحث عن طرق أسهل لفتحه .

وتوصل فريق البحث إلى أن بعض الأطفال يقلدون كل شيء يقوم به البالغون أمامهم

(حتى لو كانت هناك أسباب تشير إلى أن ذلك غير ملائم) . وأضاف هؤلاء في الدراسة « إننا نعلم أن بعض القردة لا تفعل ذلك »، مشيرين إلى (عدم فهم الأسباب التي تجعل الطفل يقلد البالغين في كل ما يقومون به) . وخلصوا إلى أنه (ربما قد يكون لذلك علاقة بتقاسم الثقافات بين جيل وآخر)

---

(٥) قال الدكتور (جوزايا رويس) في كتاب (فلسفة الولاء ص٤٦، ط١، ٢٠٠٢): « وتبدأ عملية تقليد الآخرين منذ نعومة أظافرنا وتستمر مدى الحياة . فنتعلم اللعب والكلام والتعامل مع العالم الاجتماعي، وممارسة أدوارنا في الحياة الإنسانية ولئن كان هذا النشاط الاجتماعي القائم على المحاكاة، يعود إلى غرائزنا بوصفنا كائنات اجتماعية إلا أن الأنشطة الاجتماعية بدورها هي التي تتجه في البداية إلى تنظيم كل غرائزنا، وتحقيق الوحدة لعواطفنا ودوافعنا، وتحيل حالة الفوضى التي تكون عليها رغباتنا الطبيعية إلى نوع من النظام فتجعل لنا نسقا خاصا لجمعها، حتى وإن كان عادة نسقا غير مكتمل

إن وجودنا الاجتماعي، بوصفنا كائنات مقلدة، يقدم لنا كل أنماط الخطط الحياتية التي قد نكتسبها عندما نحترف مهنة ما، أو نمارس عملا في الحياة، أو عندما نكتشف مكانتنا في العالم الاجتماعي »

وقال المترجم في مقدمة الكتاب: « إن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي، ولا يحيا بدون العواطف الاجتماعية، والتواجد مع الآخرين، الأمر الذي يتطلب منه دائما التضحية بالذات للتوافق معهم »

وجوزايا رويس (١٨٥٥- ١٩١٦) فيلسوف أمريكي معروف، والكتاب ترجمة الدكتور أحمد الأنصاري، المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة،...، ط ٢٠٠٢

وقال (رالف بارتون بيري) في كتابه (أفكار وشخصية وليام جيمس) ـ ترجمة الدكتور محمد علي العريان ص٢٢٣ ـ : « وقدر له ـ أي لجوزايا رويس ـ أن يصبح واحدا من أعظم علماء هارفارد شهرة وذيوع صيت » . و(بيري) ـ كما في مفتتح الكتاب ـ ولد عام ١٨٧٦ ...، وفي عام ١٩١٣ عين أستاذا للفلسفة بجامعة هارفارد

وفي مقال بعنوان (الانتماء) في مجلة (العربي) الكويتية ـ العدد١٢٤، مارس ١٩٦٩ ـ قال الدكتور فخري الدباغ (من الموصل): « **والانتماء الروحي والعقلي**.. هو عين ما قصده العلماء

في قولهم إن الإنسان اجتماعي بطبعه. فالإنسان يستمد أسلوب تفكيره وأنماط سلوكه وحدود حرياته ومعالم القيود والمحرمات والتقاليد والمثل...، يستمدها رويدا رويدا من أبويه وأسرته وحلقته الاجتماعية في البيت والشارع والقرية والمدينة والمجتمع الأكبر . ويتلقن الفرد تلك التعاليم سطرا سطرا، ويحتسي الثقافة المحلية جرعة جرعة... ويتدرج في العادات الجارية خطوة تلو الأخرى . وتبدأ حياكة المجتمع للفرد منذ أيام الطفولة الأولى .. »

---

(٦) أغرب ما اطلعت عليه في هذا الصدد ما نقلته صحيفة (القبس) ـ الكويتية ـ في ٢٠٠٢/١٢/٩، و(بروجيكت سينديكيت) عن البروفيسور (ليرُوي هود) حيث قال: « ...، وقد نشرت المسودة الأولى للجينوم البشري في فبراير ٢٠٠١، حيث وفرت أربع ملاحظات أساسية: ....

والملاحظة الرابعة توضح كذلك الترابط القائم بين كافة أنواع الحياة، فعلى سبيل المثال فإن كتاب الحياة الخاص بالبشر يحتوي على حوالي مئتي جين مستخلص من كائنات حية، وهو ما يناقض الرأي الذي ظل سائدا لفترة طويلة والقائل أن جيناتنا يجري انتقالها بطريقة رأسية من أجدادنا إلى آبائنا، ثم إلى أطفالنا . ويبدو كذلك أن عملية النشوء والتطور تتم في سياق أفقي، يقوم خلاله أي مخلوق حي بإضافة معلومات من الكائنات الحية المحيطة به »

و[هود]: رئيس معهد النظم البيولوجية ب[سياتل]، وأحد الرواد في مجال مشروع الجينوم البشري، وحاصل على جائزة كيوتو لعام ٢٠٠٢ في مجال التكنولوجيا المتقدمة، وعضو في الأكاديمية الوطنية للعلوم، والجمعية الفلسفية الأمريكية، والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، ومعهد الطب ...

---

(٧) روى ابن بابويه في كتاب (علل الشرائع: ٣٧٦/٢) عن فضيل بن عثمان أنه قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: ما من مولود ولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه . وإنما أعطى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله الذمة وقبل الجزية عن رؤوس أولئك بأعيانهم على أن لا يهوّدوا ولا ينصّروا ولا يمجّسوا، فأما الأولاد وأهل الذمة اليوم فلا ذمة لهم

ورواه، أيضا، البخاري ومسلم وغيرهما عن النبي صلى اللّه عليه وآله

ونقل في كتاب (البحار: ٢٨١/٣) عن السيد المرتضى أنه قال في كتاب (الغرر) ـ في تفسير الرواية ـ : « وإنما خص الأبوين لأن الأولاد في الأكثر ينشئون على مذاهب آبائهم ويألفون

أديانهم ونحلهم »

---

(٨) قال جوزايا رويس في (فلسفة الولاء ص٦٨): « ...، وعلى أية حال النهج الذي تنتهجه سيكون شيئا قد تعلمته من النظام الاجتماعي الذي تحيا فيه . وبالتالي تعد كل الخطط في تفكيرك، من الناحية العملية، تابعة أو شيئا لاحقا، بالنسبة للخطة العامة، بأن تحيا في نوع من العلاقة المتسامحة والمتسقة مع نظامك الاجتماعي . لأنك بالفعل كائن اجتماعي

فإذا أجبت قائلا: حسنا، إذن سوف أحيا، كما يتطلب النظام الاجتماعي مني أن أحيا. فمرة أخرى، وكما قد شرحت من قبل، تجد نفسك، ليس لديك أي طريقة محددة تعبر بها عن ذاتك الخاصة وتفردك . لأنه إذا لم يكن النظام الاجتماعي، تعمه الفوضى التي تعم الأنشطة التي تقوم بها، أو من طبيعة مثل طبيعتك، فإنه لن يكون قادرا بذاته، على أن يفعل أي شيء، أكثر من أن يجعلك، بطريقة أو بأخرى، حلقة في آلته، فردا واحدا من أفراد قطعانه العديدة، أو مجرد وسيلة آلية، ينفذ بها أغراضه المتعددة . **بوصفك كائنا أخلاقيا، لن تقبل بهذا الوضع، وتثور عليه ...** »

وليُنتبَه إلى أن تعريض بعض الكلمات مني

---

(٩) قال سعدي الشيرازي:

بنی آدم اعضای یك پیکرند — كه در آفرينش ز يك گوهرند
چو عضوی بدرد آورد روزگار — دگر عضوها را نماند قرار
تو کز محنت دیگران بی غمی — نشاید که نامت نهند آدمی

بنو آدم أعضاء لجسد واحد، إذ أنهم مخلوقون من جوهر واحد، إن آلم الدهر عضوا لم يبق قرار لسائر الأعضاء . إن كنت لا تهتم بمحنة الآخرين فلا ينبغي أن يسموك إنسانا

وبعنوان (**الرضع يراقبون الكبار ويفضلون المتعاونين**) كتبت صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠٠٧/١١/٢٣ ما يلي:

يشعر الأطفال منذ الشهر السادس بانجذاب إلى الأشخاص الذين يساعدون الغير أكثر من الذين يضعون العقبات في طريقهم كما أظهرت نتائج دراسة نشرت هذا الأسبوع في مجلة

(نيتشر) العلمية البريطانية

ولاحظ ثلاثة باحثين في كلية الطب النفسي في جامعة (يال) الأميركية أن « الأطفال من سن ستة أشهر إلى عشرة أشهر يلاحظون تصرفات الشخص حيال الآخرين ويقيمونه كشخص جذاب أو منفر ». فقد جعل الثلاثة وهم كيلي هاملين وكارين واين وبول بلوم عددا من الأطفال الرضع يشاهدون عدة مرات على شاشة شخصا يحاول جاهدا أكثر من مرة تسلق تل . وفي المحاولة الثالثة يتدخل شخص آخر ليساعده أو على العكس ليمنعه من تحقيق هدفه . وعندما دعي الأطفال إلى الاختيار بين المساعد والمعرقل اختاروا جميعا الأول من خلال مد أذرعتهم نحوه للإمساك به سواء كانوا في الشهر السادس أو العاشر

واستنادا إلى هذه الدراسة فإن « هذه النتائج تقدم الدليل على أن الأطفال الصغار الذين لم يبدأوا النطق بعد يقيمون الأشخاص تبعا لموقفهم من الغير »

وفي مرحلة ثانية قام الباحثون الثلاثة بمتابعة رد فعل الأطفال أثناء اقتراب المتسلق مرة من (الشخص الطيب) وأخرى من (الشخص الشرير) ليلاحظوا أن الانتباه الناتج عن الدهشة عندما يقترب المتسلق من (المعرقل) يستمر لفترة أطول لدى الأطفال في الشهر العاشر أكثر منه لدى الأطفال في الشهر السادس

وعلى الأثر قام الباحثون بتكرار التجربة مع أشياء مجردة (بلا رأس وبلا عينين) ليلاحظوا عدم وجود تفضيل لهذا الشخص أو ذاك ليخلصوا إلى أن التفضيل ليس مرتبطا بالمشاهدة البصرية (نحو الارتفاع أو الانخفاض) وإنما بالسلوك الاجتماعي

وأيضا نقلت صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠١٠/٥/١٢، عن قناة (الجزيرة الوثائقية) التلفزيونية بعنوان: **الأطفال يميزون (خيركم) من (شركم)** ما يلي:

خلصت دراسة علمية إلى أن الأطفال يستطيعون إصدار أحكام على السلوكيات عندما يبلغون ستة أشهر من العمر، وربما يملكون القدرة على التمييز بين الخير والشر منذ ولادتهم

فقد نجح الأطفال الذين يبلغون من العمر عاما واحدا ـ بناء على طلب الباحثين ـ في استبعاد الحلوى عن الدمية (المشاكسة)، وانهالوا عليها بالضرب على الرأس

وجاءت نتائج البحث الذي أجراه فريق من المتخصصين في علم النفس بمركز الإدراك

في جامعة ييل بولاية كونيكتيكت الأميركية، منافية للاعتقاد بأن الإنسان يبدأ حياته بصفحة أخلاقية بيضاء، وتتشكل تدريجيا من قبل الأبوين والبيئة الاجتماعية المحيطة

ففي إحدى التجارب، أجرى الباحثون فحصا على أطفال أقل من عام وهم يلعبون مع دمى الحيوانات المحبوبة، فعندما لم يستطع الأطفال الضغط على الأزرار للإيحاء بما يفضلونه، قام الباحثون بقياس مقدار الوقت الذي يحدق فيه الأطفال في شيء معين، فوجدوا أن هؤلاء الأطفال يحدقون فترة أطول في الأشياء التي تسرهم

وفي اختبار آخر شاهد مجموعة من الأطفال ـ تتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وعام ـ فيلما من الأشكال الهندسية المتحركة، بحيث تحاول كرة حمراء ذات عينين التسلق إلى التلة، ويقوم المربع الأصفر من خلفها بدفعها لمساعدتها على التسلق، في حين أن المثلث الأخضر يدفعها في الاتجاه المعاكس لمنعها من ذلك . ولدى مشاهدة الأطفال لهذا الفيلم بين ست مرات وأربع عشرة مرة، طلب الباحثون منهم التمييز بين (الخير) المتمثل في المربع والشر المتمثل في (المثلث) فما كان من الأطفال إلا اختيار الشخصية النافعة (المربع) بنسبة ٨٠٪ دون الشخصية الشريرة (المثلث)

ونسبت الصحيفة إلى معد تقرير البحث كايلي هاملين قوله « نقضي وقتا طويلا ونحن قلقون بشأن تعليم الأطفال التمييز بين الخير والشر، ولكن يبدو أنهم يتمتعون بهذه القدرات منذ ولادتهم »

×××××××××××××××××××××××××××

ويبدو أن هذا لا يختص بالإنسان، فقد جاء في موقع (BBCARABIC.Com) في ٢٠٠٣/٩/٢١ ما يلي:

القردة تميز بين العدل والظلم

تقرير د. ديفيد وايتهاوس: محرر بقسم الشؤون العلمية بالبي بي سي نيوز أونلاين

تستطيع القردة التمييز بين العدل والظلم حيث تبدي اعتراضها عندما يتم إعطاء قرود أخرى مكافأة أكبر على أداء نفس العمل أو نفس الحركة

فقد علم باحثون القرود المقلنسة تبادل الهدايا المختلفة والطعام . فتشعر القردة عادة بالرضا عندما تستبدل (النقود) بالخيار

لكن إذا رأت القردة أن قردا آخر حصل على كميات أكبر من الطعام فإنها تبدي بعض مظاهر الاعتراض، فيرفض بعضها القيام بأي حركات فيما يأخذ البعض الآخر الطعام لكنه يمتنع عن تناوله

وخلص العلماء من هذه الملاحظة إلى أن الإحساس الإنساني بالعدل والظلم هو إحساس فطري متوارث وليس ناجما عن تفاعلات اجتماعية

تجربة الخيار والعنب

وأجرى البحث الأخير كل من سارة بروسنان وفرانس دي وال في جامعة إيموري بالولايات المتحدة الأمريكية، وتم نشره في دورية (نيتشر)

وقالت سارة بروسنان في حديث للبي بي سي نيوز أونلاين: « أنا مهتمة جدا بتطور التعاون ... ومن أكثر الأمور المثيرة نظرية ظهرت مؤخرا مفادها أن التعاون الإنساني يتم بصورة أفضل إذا كان هناك إحساس بالعدل »

وأرادت سارة أن تعرف ما إذا كان إحساس الإنسان بالعدل هو سلوك تطور لديه منذ نشأته أم أنه نتاج حضاري تمخض عن القواعد والتفاعلات الاجتماعية . وأجرت سارة وزملاؤها تجربة على القردة المقلنسة لاكتشاف ذلك الأمر

وقالت سارة بروسنان: « اخترت القردة المقلنسة لأنها متعاونة جدا كما أنها تعيش وسط بيئة مليئة بالتسامح فيما بينها »

ومضت سارة قائلة: « أجرينا تجربة بسيطة للغاية لمعرفة ما إذا كانت القردة سترد على التفرقة في المكافآت والمجهود »

يذكر أن القردة المقلنسة تحب تناول الخيار، إلا أنها تعشق العنب . وعلى هذا الأساس، تم تقسيم القردة إلى أزواج بحيث تم التفريق في المعاملة بين زوجي كل مجموعة عند أدائها نفس المهمة أو الحركات

وقالت سارة: « لم يتم التفرقة بين تلك القردة في المكافآت من قبل... ووضعنا كل زوجين معا، وكان يحصل أحدهما على الخيار كمكافأة مقابل أدائه حركة ما »

واستطردت سارة بالقول: « في بعض الأحيان كان يحصل القرد الآخر على نفس الخيار كمكافأة، كما كان يحصل على العنب في أحيان أخرى حتى دون أن يقوم بأي شيء

يجعله يحصل عليه »

سلوك غير معتاد

وأوضح الباحثون أن رد فعل القردة كان مثيرا للغاية . وقالت سارة تعقيبا على ذلك: « كنا ننتظر رد فعل موضوعيا، حصلنا عليه بالفعل. فقد رفضت القردة أداء أي مهمة أو حركة كانت تكلف بها »

وأضافت: « في بعض الأحيان كانت تقوم بالمهمة لكنها ترفض المكافأة، وهو ما يعد سلوكا غير معتاد... وفي بعض الأوقات كانت تتجاهل المكافأة، وفي أحيان أخرى كانت تلتقطها ثم تلقيها بعيدا » ولم يندهش الباحثون من إحساس القردة بالعدل والظلم، لكن ما أثار انتباههم هو رفض القردة للمكافآت التي تحبها

وقالت سارة: « لم تبد القردة أي رد فعل تجاه شركائها من القردة التي كانت تتلقى معاملة أفضل فلم تحاول القيام بأي تصرف تبدي من خلاله عتابها لشركائها »

وتعقيبا على تلك الدراسة، أفاد خبراء متخصصون في هذا المجال في لقاءات مع البي بي سي نيوز أونلاين بأن فكرة ارتقاء الإحساس بالعدل منذ زمن بعيد مثير بحق

وفي المقابل، أكد أولئك الخبراء أنه يجب القيام بمزيد من الأبحاث أكثر شمولا

والسؤال الآن: هل غريزة الإحساس بالعدل سبق ظهور الإنسان على سطح الأرض؟

وردا على هذا السؤال قالت سارة: « ربما ترجع غريزة الإحساس بالعدل إلى ما قبل ظهور الإنسان مشيرة إلى أنه من المقرر إجراء مزيد من الدراسات لمعرفة إلى أي مدى توجد غريزة الإحساس بالعدل في الحيوانات الأخرى »

ومضت قائلة: « نقوم حاليا بإجراء دراسة مماثلة على الشمبانزي الذي يعد من رتبة القردة العليا لمعرفة إلى أي مدى تطورت غريزة الإحساس بالعدل... أعتقد أن بعض الحيوانات الأخرى التي تعيش في بيئات تتميز بالتعاون والتسامح ستبدي نفس السلوك »

هذا، وبغض النظر عن (العدل) فإن ظاهرة التعاون والاهتمام بالغير والتعاطف معه، بل وتكفله موجودة كذلك في عالم الحيوان، أو بعضه، فمثلا جاء في صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠١٠/٢/٤ ما يلي:

الشمبانزي يتبنى الأيتام!

أكدت دراسة أن الشمبانزي أكثر استعدادا لمساعدة الآخرين عندما يكون طليقا في الغابة أكثر منه داخل قفصه في حديقة الحيوان

وراقب علماء معهد ماكس بلانك المعني بدراسة نشأة الإنسان وتطوره كيف تم تبني ١٨ قردا يتيما من الشمبانزي في حديقة تاي الوطنية في ساحل العاج وأن نصف هذه القردة اليتيمة تم تبنيها من قبل قردة ذكور

وأكد العلماء في دراستهم التي نشروا نتائجها في مجلة (بلوس ون) العلمية، أن هذه الملاحظات تختلف عن ملاحظاتهم للشمبانزي في حدائق الحيوانات وأن تعاون قردة الشمبانزي التي تعيش في حدائق الحيوانات فيما بينها محدود للغاية

وأشار الباحثون إلى أن العلماء كانوا يعتقدون أن القدرة على التعاون بين غير الأقرباء من المجموعة نفسها من أجل المصلحة العامة وليس فقط من أجل المصالح الذاتية شيء خاص بالإنسان

وفسر فريق الباحثين هذه المعلومات المفاجئة التي رصدوها والتعاون بين القردة التي تعتبر الحيوان الأكثر شبها بالإنسان بكثرة المخاطر التي تحيط بها في حياتها البرية

وجاء في نتيجة الدراسة أن عدم تقاسم القردة التي تعيش في حديقة الحيوان طعامها فيما بينها ليس مفاجئا « لأن جميع الحيوانات تحصل على ما يكفيها من الغذاء هناك.. ولكن هناك خلافا لذلك الكثير من المواقف التي يتوقف بقاء القردة فيها على استعداد أفراد المجموعة للتعاون فيما بينهم »

وأكدت دراسة أخرى هذه النظرية حيث راقب الباحثون تزايد حالات التبني بين القردة في حديقة تاي الوطنية المفتوحة مقارنة بعمليات التبني بين القردة في غابات دول شرق أفريقيا . ورجح الباحثون أن يكون سبب ذلك هو أن القردة في حديقة تاي الوطنية تتقاسم بيئة معيشتها مع الكثير من النمور . وقال الباحثون الألمان: « يبدو أن الخطر المستمر الذي تمثله هذه القطط الكبيرة على حياة القردة قد عزز من التماسك والتضامن بين مجموعة القردة »

هذا، وفي يوم ٢٠٠٩/١٢/٢٥ نقلت صحيفة (القبس) عن صحيفة (ديلي تلغراف) أن الطبيب النفسي ستيوارت دير بشاير من جامعة برمينغهام في بريطانيا أجرى دراسة شملت

١٢٣ تلميذا جامعيا، أظهرت أن واحدا من أصل ثلاثة أشخاص يتألم حين يشاهد شخصا آخر يتعرض لأوجاع

وقد تشرح النتائج التي توصل إليها السبب الذي يجعل بعض الأشخاص أكثر حساسية لمعاناة الآخرين

وقد عرض الطبيب أمام المشاركين في الدراسة مشاهد فيديو تظهر لاعب كرة قدم تكسر قدمه، أو لاعب كرة مضرب يلوى كاحله، أو مريض يُحقن في ذراعه

وقال التلاميذ إنهم تأثروا لمشاهدة واحد على الأقل من تلك المشاهد، وشمل ذلك الشعور بالحزن أو الانزعاج أو الخوف . غير أن واحدا من أصل ثلاثة قال إنه شعر بألم حقيقي في المنطقة عينها من الجسم التي تعرضت فيها الضحية للإصابة

وقد شعر البعض بوجع أو وخز، أما البعض الآخر فشعر بألم عميق، وقال البعض إن الألم مرّ بسرعة، في حين قال البعض الآخر إنه استمر لثوان

وقد قارن الباحثون بين النشاط الدماغي لدى مجموعة الأشخاص التي لم تشعر بشيء عند رؤية هذه المشاهد والمجموعة التي شعرت بالألم، وأظهر التحليل أن النشاط الدماغي في المنطقة المعنية بالشعور بالألم ارتفع لدى الأشخاص الذين شعروا بالوجع

وأيضا نقلت صحيفة (القبس) الكويتية، في ٢٠١١/٤/١٥، عن (د ب أ) ما يلي:

الاستحياء شعور مؤلم

هل تعلم أن الاستحياء من الغرباء ينعكس بشكل واضح وملموس في المخ، بحيث يمكن رصده بالأجهزة المتخصصة؟!

فبحسب دراسة ألمانية أجراها زورين كراخ وفريدر باولوس من جامعة ماربورغ، فإن مشاهدة الآخرين في مواقف محرجة تُفعّل المنطقة نفسها بالمخ التي تنشط عند مشاهدة الآلام الجسدية لإنسان آخر. واعتمد الباحثان في دراستهما على فحص نشاط المخ لدى ٣٢ شخصا أثناء مشاهدتهم رسوما لأشخاص في مواقف محرجة . وكانت دراسة اعتمدت على استبيان لرأي ٦٠٠ شخص أكدت نتيجة أخرى لهذا الفحص، وهي أن ظاهرة الاستحياء، نيابة عن الآخرين، تتوقف على ما إذا كان الإنسان المعرض للموقف يعتبر هذا الموقف محرجا، حيث ان الشعور بالاستحياء نيابة عن الآخرين لا يظهر عندما يمشي شخص بسروال

مفتوح على الرصيف من دون أن يلاحظ هو نفسه ذلك . وأكد الباحثون أن ظاهرة الاستحياء للآخرين تظهر جليا لدى رؤية مشاهد تلفزيونية يتعرض فيها أشخاص لمواقف حرجة أمام جمهور المشاهدين

وأرى أن من هذا الباب ما أثبتته دراسة من أن (بكاء الرضيع الأكثر إزعاجا)، فلا معنى لمقارنة ذلك بأصوات الآلات المزعجة ...، وفيما يلي الدراسة كما نقلتها صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠١١/٦/٢٧:

أكدت دراسة علمية صحة ما كان يفترضه كثير من الأشخاص، وهو أن صوت بكاء الأطفال الرضع الأكثر إثارة للإزعاج، حتى أنها أشارت إلى أن صراخ الصغار أكثر إزعاجا من صوت المنشار الكهربائي الكبير المستخدم في المشاغل الصناعية

واعتمدت الدراسة على اختبار يقوم على الطلب من أشخاص حل مسائل رياضية معقدة خلال الاستماع إلى أصوات مختلفة، بما في ذلك صوت صراخ الأطفال

وبنهاية الاختبار تبين أن الذين استمعوا إلى بكاء الأطفال قدموا أسوأ النتائج في العمليات الحسابية، وقال سوكول شانغ، الباحث بعلم النفس في جامعة (نيو بالتز) بولاية نيويورك: « عندما يستمع المرء لصوت بكاء الأطفال فإنه لا يعجز عن القيام بالكثير من الأعمال فحسب بل يقوم بها بشكل خاطئ »

---

(١٠) **في ص١٣٧** من كتاب (فلسفه چيست ـ ما هي الفلسفة ـ) قال (منوچهر بزرگمهر) ـ ما ترجمته ـ: « ...، إن رأيت أحدا يجبر شخصا أو يعتدي عليه نهضت بالطبع وحسب فطرتك السليمة لنصرة المظلوم وحمايته . أنا أعترف بهذا لكن انتصارك للمظلوم سوف يتوقف إذا كان فيه ضرر عليك، وإلا تجمدت الفطرة السليمة، وغلبتها غريزة حفظ النفس »

أقول: ما ذكره الرجل ليس صحيحا دائما، فالأمثلة للتضحية بالنفس لنصرة المظلوم ليست قليلة، إلا أن ما ذكره هو الأغلب، وعلى أي حال ففي هذه الصورة أيضا ستظل النزعة إلى العدل هي الغالبة في النفس يعكسها الإحساس باللوم ...

هذا، والرجل كان ذا اتجاه علماني، متخصصا في الفلسفة، ومؤلفا فيها ...

وعلى أي حال نقلت صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠٠٩/٥/٤ عن (سي أن أن) ما يلي:

السعادة.. من أين تنبع؟!

بعد أن حيرت مصادر السعادة البشر منذ الأزل، بينت دراسة حديثة أن ثلاثة عوامل قادرة على حل هذه المعضلة وإظهار العوامل التي تولد الفرح عند الإنسان

فوجدت الدراسة، التي قام بها جوناثان هايت وجنيفر سيلفرز، بعد متابعة ردود أفعال الأمهات على شريط فيديو بث على برنامج (أوبرا) التلفزيوني، أن التواصل والتعاطف بين البشر يقوي من إفرازات الأوكسيتوسين ويفعل من آثارالعصب الرئوي المعدي المحفزين للسعادة

وحول عملية وصول الإنسان إلى السعادة، أوضح هايت، أن السعادة البشرية تنبع من عملية التفاعل بين جسم الإنسان ومحيطه، حيث أشار إلى وجود ثلاثة عوامل من شأنها تحسين حالة الإنسان النفسية

فمن جهة يعد التواصل مع الآخرين، والشعور معهم ومع إنجازاتهم عاملا أساسيا، وبالمقابل فإن الإنسان يجب أن يسعى نحو الوصول إلى هدف (أسمى منه) مما يعطيه دافعا للاستمرار بالحياة

ولاحظت الدراسة أن عملية التطوع لخدمة الآخرين من شأنها أن ترفع من معنويات البشر وتشعرهم بنوع من الرضا الشخصي عن ذاتهم، بحيث تشتد هذه الظاهرة وقت الأزمات ...

ووفقا لعدد من الأبحاث تبين أن السعادة مرتبطة بهرمون الأوكسيتوسين، والذي يعرف باسم (هرمون الحب) لأنه يفرز أثناء الاجتماع واللقاء مع الأحبة، كما أنه مرتبط بحالات الشعور بالثقة والوفاء

ومن ناحية أخرى لاحظ خبراء أن السعادة ترتبط أيضا بالعصب الرئوي المعدي، وهو العصب الوحيد الذي ينشأ من الدماغ وينتهي بالجهاز الهضمي، رابطا عضلات الوجه بالقلب والرئتين ... »

وأيضا نشرت صحيفة (القبس)، بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/٢٦، المقال التالي بقلم الدكتور مهدي السعيد:

ترويض (جين) الأنانية عند البشر

في الآونة الأخيرة أثارت مجموعة من العلماء موضوع (الأنانية) عند البشر، واستخلصت هذه المجموعة رأيا جديدا يختلف عن القناعات العامة التي سادت لفترة طويلة من الزمن،

مفاده، أن الإنسان في وقتنا الحالي قد بدأ يتراجع في تقديم العون الإيجابي لنظيره في الخلق، ولهذا التراجع أسباب كثيرة، ربما نأتي على ذكر بعض منها

ويتطابق هذا الرأي مع بعض ملاحظات واستنتاجات ريتشارد دارون حيث أشار إلى وجود (جين) الأنانية عند فصيلة الإنسان

وحسب دارون فإن استثمار الوقت والطاقة لمساعدة أي إنسان آخر حتى في إطار الأسرة الواحدة، إنما يكتسب صيغة تبادل المنافع

فإذا أرسى أي شخص من الأشخاص علاقة منفعية فإن هذه الوسيلة لا تعدو أن تكون شكلاً من أشكال التبادل

فإذا ساعدنا على صياغة نوع من التعاون بين الأقارب مثلا فإننا بذلك نحاول أن نوجه جين (الأنانية) وجهة أخرى تعاكس خصائصه الذاتية، فيصبح بدلاً من جين للأنانية إلى جين للتعاون والمساعدة، لأن جين الأنانية في طبيعته يفرق بين البشر، ولا يوحدهم، وهذه التفرقة تقود إلى المزيد من المشاكل أو الخصومات التي من الممكن أن تتحول في بعض الحالات إلى دوافع عدوانية خطيرة

ويشير العلماء إلى أن أجدادنا الأوائل، كانوا قد تخطوا تأثير جين (الأنانية) من خلال اعتمادهم على نمط معيشي خاص، هو نمط (الانغلاق) القبائلي أو العشائري، ومن ثم الانغلاق الأسري، الذي كان يتطلب تعاون جميع أفراد القبيلة أو العشيرة أو الأسرة في الصيد أو العمل أو تربية الأطفال، وما إلى ذلك من خصائص اجتماعية أخرى

في ذلك الحين كان تأثير جين الأنانية ضعيفا للغاية، أو معدوما بصورة جذرية لكنه في مراحل لاحقة بدأ يصارع للظهور، ولكن بفضل قوانين الطبيعة وما ساعد من ظروف في المجتمعات الأولى، فإنه كان إلى حد ما مكبوحا، إلا أنه بقي كامنا لكنه أخذ يستجيب للمتغيرات المحيطة التي طبعته بخصائصها الحياتية المتعاقبة

وبعد تقدم البشرية واندثار التشكيلات الاجتماعية البدائية واتساع حجم الحاجات والاحتياجات الذاتية للإنسان مع تقليص المصادر الطبيعية المتاحة، بدأ جين (الأنانية) ينمو ويظهر بصورته الحقيقية، التي نعرفها عنه في الوقت الراهن

طبعا هذا الأمر لا ينسحب على جميع البشر، فهناك محاولات ذات طابع إنساني وديني

وأيضا تقليدي موروث، للإبقاء على سلوك التعاون والتكافل الاجتماعي، إلا أن زحف جين (الأنانية) وخاصة في المجتمعات الصناعية العصرية قد أخذ يتسارع بصورة ملفتة للنظر

هناك رأي آخر لدى بعض العلماء يؤكد أن طابع الثقافة العامة، ربما يكون هو المسؤول عن اتساع تأثير عامل (الأنانية) بين البشر أو العكس

هذا، وفي القسم التالي من هذه المذكرات حيث نتطرق إلى (فطرية الانتماء) سيأتي الكلام عن هذا

---

(١١) نقلت صحيفة (الأنباء) الكويتية بتاريخ ٢٠١٠/١٠/٨، عن (يو بي آي) أنه اكتشف باحثون أمريكيون أن الحاجة إلى تنظيف (الفم الكاذب) أو (اليدين القذرتين) هي أمر حقيقي فعلا

وقال سبايك لي من جامعة ميتشيغان في آن أربور أن الأم كانت محقة عندما كانت تقول أنه لا بد من غسل الفم بعد الكذب بالصابون

وأصدر لي بيانا قال فيه إن « الإشارة إلى اليدين القذرتين أو الفم القذر في الكلام اليومي تعني أن الناس يفكرون بمسائل غير ملموسة بشأن الطهارة الأخلاقية بطريقة ملموسة مرتبطة بالنظافة الجسدية »

ووجد لي وعالم النفس نوربرت شوارز من معهد الأبحاث الاجتماعية في كلية روس للأعمال في الجامعة أن الذين يكذبون عند الحديث عبر الهاتف يشعرون برغبة قوية بغسل فمهم أكثر من الذين يكذبون عبر البريد الالكتروني في حين أن من يكذبون في الرسائل الالكترونية هم الأكثر ميلا لاستخدام منظفات الأيدي

وشملت الدراسة ٨٧ طالبا طلب منهم الكذب على شخص عبر الهاتف أو البريد الالكتروني ومن ثم تحديد رغبتهم باستخدام عدة منتجات من بينها غسول الفم أو مطهر اليدين

وقد أوردت صحيفة (القبس) الكويتية أيضا الخبر، وأضافت في آخره أن نتائج الدراسة نشرت في مجلة (علم النفس) الأمريكية

---

(١٢) مثلا، قال السيد محمد باقر الصدر في مقدمة كتابه (الفتاوى الواضحة ص٤٩): « كلنا نؤمن ـ بعقلنا الفطري البديهي ـ بقيم عامة للسلوك وهي القيم التي تؤكد أن العدل حق وخير، والظلم باطل وشر، وأن من يعدل في سلوكه جدير بالاحترام والمثوبة، ومن يظلم ويعتدي جدير بعكس ذلك، وهذه القيم بحكم الاستقراء والفطرة هي الأساس الذي يوجه سلوك الإنسان ما لم يكن هناك ما يحول دون ذلك من جهل أو ترقب نفع، فكل إنسان إذا واجه خيارا بين الصدق والكذب في حديثه مثلا، أو بين الأمانة والخيانة فإنه يختار الصدق على الكذب والأمانة على الخيانة ما لم يكن هناك دافع شخصي ومصلحة خاصة قد تغريه بالانحراف في سلوكه عن تلك القيم »

وفي تفسير الميزان (٧٣/٧): « فإن الإنسان بفطرته السليمة يستحسن أمورا هي العدل في نفسه أو غيره، ويستقبح أمورا هي الظلم على نفسه أو غيره ثم الدين الإلهي يؤيدها ويشرح له تفاصيلها »

---

(١٣) اندفاع نفس الإنسان إلى نصرة من يصدر عنه العدل لا يستلزم القيام بنصرته خارجا، فقد يمنع عن ذلك مانع ...

---

(١٤) من أمثلة ذلك ما في البخاري (كتاب الأدب/ باب ٩٥ / الحديث ٦١٦٣) عن أبي سعيد الخدري قال: بينا النبي صلى اللّه عليه وسلم يقسم ذات يوم قسما فقال ذو الخويصرة ـ رجل من بني تميم ـ: يا رسول اللّه اعدل!، فقال: ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟! ...

هذا، وإن ما نقل في هذه الأوراق من كتاب (البخاري) فهو حسب طبعة (بيت الأفكار الدولية) بالرياض، في ١٤١٩ هـ

---

(١٥) يبدو أن إلى هذا يشير ما رواه الكافي (٤٥٣/٦) عن العباس بن هلال الشامي ـ مولى أبي الحسن عليه السلام ـ أنه قال: قلت له: جعلت فداك ما أعجب إلى الناس من يأكل الجشب ويلبس الخشن ويتخشع ...

ولا يضر عدم اعتبار الرواية في كون القول المذكور مؤشرا إلى خطأ الناس في تشخيص العدل، إذ لا شك في أن أحدا من الرواة قد قالها، ولم يكن يقولها إلا وأنه كان قد تصور سيرة

الإمـام مخالفـة للعدل ...

وفـي نهـج البلاغـة (الخطبة ٩٢): ومن كلام لـه عليـه السـلام لما أراده النـاس على البيعـة بعـد مقتل عثمان:

دعوني والتمسـوا غيري، فإنا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم لـه القـلوب، ولا تثبت عليـه العقول، وإن الآفـاق قـد أغامت، والمحجـة قـد تنكرت، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم مـا أعلـم ولـم أصـغ إلى قـول القـائل وعتب العاتـب، وإن تركتـموني فأنا كأحـدكم ولعلي أسـمعكم وأطوعكـم لمـن وليتمـوه أمركـم، وأنـا لكـم وزيـرا خيـر لكـم مني أميرا

---

(١٦) لعل إلى هـذا يشير قوله تعالى (الأعراف:١٨١): (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)، فقد يكـون العـدل بالحـق وقـد يكـون بالباطـل كمـا فعلتـه (الشـيوعية) مثلا

ولا يخفـى علـى أحـد مـا حـدث (ويحـدث) كثيرا أن شـخصا يستغل معاناة النـاس من مظهر معين (أو مظاهر معينة) للظلـم، فيركز عليه، فيتفاعل النـاس مـع دعوتـه، فينـال بذلـك مآربـه...، وقـد يحـدث أن يـزول ذلـك المظهـر البـارز المركز عليه دون أن يتغير شـيء، وذلـك لأن مـا ركـز عليه ليس إلا مظـهرا (أو مظاهـر) للظـلم، لا أساسـه، فالعدل المنشـود كان كالحرية التي اشتـهر أن خوطبـت مـن قبـل بعـض روادهـا بالقـول: « أيتهـا الحريـة! الحريـة! كـم مـن الجرائـم قـد اقترفـت باسـمك »، نقلـه المحامـي الدكتـور صبحـي الحمصـاني في كتابـه (أركان حقوق الإنسـان ص٧١) عـن (مـدام رولان)، وقـال في الهامـش: « ذكـره ماكـولي في مقالتـه عـن ميرابـو »

---

(١٧) يبـدو لـي أنـه لا يخلـو ـ أو قلمـا يخلـو ـ شـيء مـن معلـمٍ للعدل يمكـن التركيز عليه وإبرازه ودفعـه إلى الواجهـة والدعـوة إليـه باعتبـاره عـدلا ...، بـل وقـد يـرى شـخص فـي شـيء ملمحـا مـن ملامـح العـدل، فيستقطـب نظـره، فيبـدو لـه الشـيء المتضمـن لـه عدلا، فيقوم بالدعـوة إليـه ...

---

(١٨) قد يكون معنى المعرفة والإنكار في الآية معرفة النفس لخصال الرسـول (ص) وإنكارها لهـا...، وليس مـا أصّلناه مستندا إلى الآيـة الكريمة، بل مبنيـا على مـا هو ملاحظ ومجرب جدا، فحتى الكلاب والقطط، بل وسـائر الحيوانات تتجنب ما لا تعرفه وتحذره وتهرب منه

وعلى أي حال ففيما يلي بعض ما ذكروه في معنى الآية الكريمة:

في تفسير الرازي (٢٨٦/٢٣): « ثم إنه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بأن بين أن إقدامهم على هذه الأمور لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة: أحدها: ...

وثالثها: أن لا يكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) نبّه سبحانه بذلك على أنهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الأمانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والأخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين »

وفي تفسير الميزان: « قوله تعالى: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) المراد بمعرفة الرسول معرفته بنسبه وحسبه وبالجملة بسجاياه الروحية وملكاته النفسية من اكتسابية وموروثة حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو إليه مؤيد من عند اللّه، وقد عرفوا من النبي (ص) سوابق حاله قبل البعثة، وقد كان يتيما فاقدا للأبوين لم يقرأ ولم يكتب ولم يأخذ أدبا من مؤدب ولا تربية من مرب ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأي ولا طمعا في ملك أو حرصا على مال أو ولعا بجاه، وهو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادي للفلاح والسعادة ويندب إلى حقائق ومعارف تبهر العقول ويدعو إلى شريعة تحير الألباب ويتلو كتابا

فهم قد عرفوا رسولهم (ص) بنعوته الخاصة المعجزة لغيره، ولو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذرا في إعراضهم عن دينه واستنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه، ومن المعلوم أن إلقاء الزمام إلى من هذا شأنه مما لا يجوزه العقل »

وفي التفسير الأمثل (٤٧٧/١٠): « وفي المرحلة الثّالثة تقول الآية: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ، أي إذا كانت هذه الدعوة صادرة من شخص مجهول ومشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأنّ كلامه حقّ، إلا أنّ هذا الرجل مشكوك وغير معروف لدينا، نخدع بكلامه . ولكنّهم يعرفون ماضيك جيدا، وكانوا يدعونك محمّدا الأمين، ويعترفون بعقلك وعلمك وأمانتك، ويعرفون جيدا والديك وقبيلتك، فلا حجّة لهم! »

ومهما يكن من أمر ففي نهج البلاغة (الخطبة ٢٣٩) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « هم - أي آل محمد (ص) - عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم

عن باطنهم ... »

ورواه أيضا في روضة الكافي ص٣٩١

---

(١٩) يبدو لي ـ وربما قيل ولم أطلع عليه ـ أن الإنسان يعامل الإنشاء كالخبر فيرتب الأثر على الأمر والنهي مثلا انطلاقا مما هو كامن في نفسه من أن لهما أثرا وأنهما في الحقيقة إخبار عنهما ولكن بصيغة الإنشاء ...

هـذا، وفـي قـول اللّه عز وجل (العنكبوت: ١٢): (وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ) قرأت في (التفسير الأمثل): « هنا ينقدح السؤال التالي .. إنّ الصدق والكذب هما في موارد الجمل الخبرية في حين أن هذه الجملة إنشائية (ولنحمل خطاياكم) وليس في الجملة الإنشائية صدق أو كذب، فلم عبّر القرآن عنهم بأنّهم (كاذبون)؟! والجواب على هذا السؤال يتّضح من البيان الذي ذكرناه سابقا، وهو أن الجملة الأمرية هنا تتحول إلى جملة شرطية، ومفهومها أنّه إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم وآثامكم، ومثل هذه الجملة تقبل الصدق والكذب »

وقال في الهامش: « لدينا طريق آخر على الجواب على هذا السؤال، لأنّنا نعتقد وجود الصدق والكذب في الجملة الإنشائية أيضا، ويلاحظ هذا في التعبيرات العرفية أيضا ... لأنّ الشخص ـ مثلا ـ إذا أمر بشيء ما فهو دليل على تعلقه به، وحين نقول: إنّه يكذب فمعناه أنّه لم يطلبه (فلاحظوا بدقّة) »

---

(٢٠) يبدو لي أن إلى هذا يشير قول اللّه عز وجل (العنكبوت: ٩): (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)...، لا إلى ما ذهبت إليه التفاسير فإني أراها قد أخطأت معنى هذه الآية، كما أخطأت معنى (العلم) في الآية السابقة أي قوله تعالى: (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)، إذ فسروه بالعلم الحاصل عن البرهان، لا بالعلم الوجداني الفطري، كما في قوله تعالى (مريم: ٦٥): (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) ...

وأيضا يبدو لي أن على هذا يدل قول اللّه تعالى (آل عمران: ١١٢): (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ

أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ...)، وأن المقصود بـ(حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) ما يشد الإنسان إلى المؤمنين بما لهم من إمام ...، لا ما تكُلف في التفاسير ...

---

(٢١) يبدو لي أن إلى غريزية هذا الدافع يشير التعبير بـ(أَفَلا تبْصِرُونَ) في قول اللّه عز وجل (الذاريات: ٢٠-٢١): (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تبْصِرُونَ)

---

(٢٢) في تفسير الميزان (٢٦٢/٥) قال السيد الطباطبائي: « ...، فإن الإنسان حينما يوجد بهويته يوجد شاعرا بذاته وقوى ذاته وبعلله عالما بها علما حضوريا، ومعه من القوى ما يبدل علمه الحضوري إلى علم حصولي ... »

---

(٢٣) لا يخفى أن الكون مع (صادق) يستلزم الكون مع الصادقين، وستأتي الإشارة إلى هذا في القسم اللاحق من هذه المذكرات، في فصل (**أئمــة، لا إمام منفرد**)

---

(٢٤) قال اللّه عز وجل (النحل: ٥٣): (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)

لقد أجاد السيد الطباطبائي شرح الآية الكريمة، وإن لم يخل كلامه عن استدلال عقلي و...، قال: « وقوله: (وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) الكلام مسوق للعموم وليس مجرد دعوى غير مستدل فقد بين ذلك في الآيات السابقة . على أن السامعين يسلمون ذلك ويقولون به ويدل عليه جؤارهم واستغاثتهم إليه عند مسيس الضر بفقدان نعمة من النعم

فالمعنى: أن جميع النعم التي عندكم من إنعامه تعالى عليكم وأنتم تعلمون ذلك ثم إذا حل بكم شيء من الضر وسوء حال يسير رفعتم أصواتكم بالتضرع وجأرتم إليه لا إلى غيره، ولوكان لغيره صنيعة عندكم لتوجهتم إليه، فهو سبحانه منعم النعمة وكاشف الضر، فما بالكم لا تخصونه بالعبادة ولا تطيعونه؟!

والاستغاثة به تعالى والتضرع إليه عند حلول المصائب وهجوم الشدائد التي ينقطع عندها الرجاء عن الأسباب الظاهرية ضرورية لا يرتاب فيها، فإن الإنسان ولو لم ينتحل إلى دين ولم

يؤمن باللّه سبحانه فإنه لا ينقطع رجاؤه عند الشدائد إذا رجع إلى ما يجده من نفسه، ولا رجاء إلا وهناك مرجو منه فمن الضروري أن تحقق ما لا يخلو من معنى التعلق كالحب والبغض والإرادة والكراهة والجذب ونظائرها في الخارج لا يمكن إلا مع تحقق طرف تعلقها في الخارج فلو لم يكن في الخارج مراد لم تتحقق إرادة من مريد، ولو لم يكن هناك مطلوب لم يكن طلب ولو لم يكن جاذب يجذب لم يتصور مجذوب ينجذب، وهذا حال جميع المعاني الموجودة التي لا تخلو كينونتها عن نسبة

فتعلق الرجاء من الإنسان بالتخلص من البلية عند انقطاع الأسباب دليل على أنه يرى أن هناك سببا فوق هذه الأسباب المنقطع عنها لا تعجزه عظائم الحوادث وداهمات الرزايا ولا ينقطع عنه الإنسان، ولا يزول ولا يفنى ولا يسهو ولا ينسى قط

هذا شيء يجده الإنسان من نفسه وتقضي به فطرته وإن ألهاه عنه الاشتغال بالأسباب الظاهرة وجذبته إلى نفسها أمتعة الحياة وزخارف المادة المحسوسة لكنه إذا أحاطت به البلية وأعيته الحيلة وسدت عليه طرق النجاة وانهزمت الأسباب الظاهرة عن آخرها وطارت الموانع عن نظره ولم يبق هناك مله يلهيه ولا شاغل يشغله ظهر له ما أخفته الأسباب وعاين ما كان على غفلة منه فتعلقت نفسه به، وهو السبب الذي فوق كل سبب وهو اللّه عز اسمه »

---

(٢٥) يبدو أن إلى هذا يشير قول اللّه عز وجل (التكوير: ٢٩): (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) ...

---

(٢٦) قال اللّه تعالى (الأنعام: ٦٠): (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

---

(٢٧) يبدو لي أن هذا مؤدى قول اللّه تعالى (الروم: ٢٣): (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)

---

(٢٨) كالتي ذكرها اللّه تبارك وتعالى بقوله (إبراهيم: ٣٢ـ ٣٤): (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي

الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)

---

(٢٩) قال اللّه تعالى (الأنعام: ٤٠ـ ٤١): (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)

وقال (عز وجل) (الإسراء: ٦٦ـ ٦٧): (رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا)

وقال تعالى (الأنعام: ٦٣ـ ٦٤): (قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) ...

---

(٣٠) في القرآن الكريم (الشعراء: ٧٥ـ ٨٢) أن إبراهيم (ع) (قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

وستأتي الإشارة إلى هذا

---

(٣١) قال اللّه عز وجل (الرعد: ٢٨): (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

---

(٣٢) لا يخفى أن ما هو موجود في النفس واقع الربوبية، لا مفهومها وصورتها الذهنية...

---

(٣٣) قال اللّه عز وجل (الأعراف: ١٧٢ـ ١٧٤): (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا

عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

وخلاصة ما أفهمه من الآيات الآنفة أن اللّه عز وجل أخذ من أصلاب بني آدم ذريتهم، أي أخذ من كل صلب نسله وأطلعه على نفسه وأراه أنه تعالى فيها ربه، فقال ـ تكوينا ـ : ألم ترني فيها ربك؟ فقال: بلى، أي كان يعي معرفة نفسه لربها ويعرفها، مفترقا بذلك عن البهائم مثلا حيث يوجد لها واقع تلك المعرفة فحسب كما في الكافي (٥٣٩/٦) عن أبي حمزة أن علي بن الحسين (عليهما السلام) كان يقول: « ما بهمت البهائم فلم تبهم عن أربعة: معرفتها بالرب ومعرفتها بالموت ومعرفتها بالأنثى من الذكر ومعرفتها بالمرعى عن الخِصب »

هذا، وقال الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (مفاهيم القرآن ص٣٣٠): « إن قوله سبحانه: (...) مما اضطرب فيه كلمات المفسرين في تبيينها وذهب كل إلى مذهب ورأي. ولكن الإمام الصادق عليه السلام فسرها بوجه واضح ينطبق على ظاهر الآية، فعندما سأل عبد اللّه بن سنان عن قول اللّه عز وجل: (فطرة اللّه التي فطر الناس عليها) ما تلك الفطرة؟ قال: « هي الإسلام، فطرهم اللّه حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال: (ألست بربكم) وفيه المؤمن والكافر » . وقد فسر الإمام آية الذر بآية الفطرة، وبين أنه لم يكن هناك أي كلام عن الاستشهاد والشهادة اللفظيين . وجاء في رواية أخرى رواها أبو بصير قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام كيف أجابوا وهم ذر؟ قال: « جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه » وبذلك أعرب الإمام عن مفاد الآية وبين أن الآيتين تهدفان إلى معنى واحد وهو أن كل إنسان في بدء تكونه وظهوره ينطوي فطريا تكوينيا على السر الإلهي، أعني التوحيد، منذ أن كان موجودا ذريا صغيرا في رحم أمه، وكأن أول خلية إنسانية تستقر في رحم الأم تنطوي على هذه الوديعة الإلهية، وهي الشعور الطبيعي باللّه، والانجذاب إليه، وكأن جينات الخلية لدى كل إنسان تحمل بين جوانحها هذه الخاصية الروحية، وأن هذه الخاصية تنمو وتتكامل مع تكامل الخلية ونموها . وبهذا البيان أغنى الإمام الأمة عن كثير من الوجوه المذكورة في الآية التي لا تنطبق على ظاهرها، وأوضح أن المفاد هو كون الإنسان مفطورا على التوحيد »

وفي كتاب (معرفت شناسى در قرآن ـ علم المعرفة في القرآن ـ ص٢٧٤) قال الشيخ عبد اللّه الجوادي: « ذكر في ذيل الآية الراجعة إلى أخذ العهد من ذرية آدم أن ذلك العهد مضمر في نفس كل إنسان وكل من لم يكن غافلا عن نفسه يسمع الآن أخذ ذلك العهد والجواب بـ(بلى) للعهد بربوبية اللّه وعبودية الإنسان، وأما الغافل عن ذاته فهو يطلب من تفاسير الآخرين ما هو

مسجل في قرار نفسه ... »

وفي ج١ ص٢٠-٢٢ من كتاب (الأمالي) للسيد المرتضى: « ...، وقد ظن بعض من لا بصيرة له ولا فطنة عنده أن تأويل هذه الآية أن اللّه استخرج من ظهر آدم جميع ذريته وهم في خلق الذر فقررهم بمعرفته وأشهدهم على أنفسهم، وهذا التأويل مع أن العقل يبطله ويحيله مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه لأن اللّه تعالى قال: (وإذ أخذ ربك من بني آدم)، ولم يقل من آدم وقال من ظهورهم، ولم يقل من ظهره وقال: (ذريتهم)، ولم يقل ذريته

ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا: إنهم كانوا عن هذا غافلين أو يعتذروا بشرك آبائهم وأنهم نشأوا على دينهم وسنتهم، وهذا يقتضي أن الآية لم تتناول ولد آدم لصلبه، وأنها إنما تناولت من كان له آباء مشركون، وهذا يدل على اختصاصها ببعض ولد آدم، فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويله

فأما شهادة العقل ... »

---

[٣٤] تقدم في القسم السابق الكلام عن قول اللّه عز وجل: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)، وأن (الحُسن) مما يجده القلب بحبه له وانجذابه إليه، ولا يدركه العقل بالدليل والبرهان، وكما قال ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية (٣٢٢/٢): « ...، ولو بقينا مع الأدلة العقلية التي دلت في زعم العقلاء على العلم بذاته بأنه ليس كذا وليس كذا ما أحبّه مخلوق ... »

وعلى أي حال فإن (النفس) هي الباب الوحيد لمعرفة الرب عز وجل، ويبدو لي أن إلى هذا يشير ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « من عرف نفسه فقد عرف ربّه » والذي نقله السيد الطباطبائي في تفسير الميزان (١٦٩/٦) قائلا: « في الغرر والدرر للآمدي عن علي عليه السلام قال:...

ثم قال: **أقول:** ورواه الفريقان عن النبي أيضا، وهو حديث مشهور ... »

وقد ذكره (ره) للاستشهاد به على رأيه في تفسير قول اللّه عز وجل (المائدة: ١٠٥): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

أجل، أرى أن المعنى الأقرب للحديث هو ما أشرت إليه لا ما ذُهب إليه، فإنه يصدق إذن ما نقله في نفس الصفحة قائلا: « وقد ذكر بعض العلماء أنه من تعليق المحال، ومفاده:

استحالة معرفة النفس لاستحالة الإحاطة العلمية باللّه سبحانه »، وما رواه عن النبي للرد عليه من أنه صلى اللّه عليه وآله قال: (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) يؤيد المعنى الذي ارتأيناه

هذا، وقال صدر المتألهين في تفسيره (٢/٢٩٩): « اعلم أن هذه الآية (الآية ٣٠ من البقرة) إشارة إلى معرفة النفس الإنسانية وشرح ماهيتها وإنيتها وكيفية نشوئها من الأرض وسر خلافتها، وذلك لأن معرفة النفس أم الفضائل وأصل المعارف كما جاء في الوحي ...، وفي كلام النبي صلى اللّه عليه وآله: (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) »

وفي تفسير الرازي (١/٩١): « ...، ثم من الكلمات النبوية قوله عليه الصلاة والسلام: (من عرف نفسه فقد عرف ربه)، والمعنى: من عرف نفسه بالضعف والقصور عرف ربه بأنه هو القادر على كل مقدور، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالفضل والعدل، ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربه بالكمال والجلال »

وأيضا في تفسير الرازي (٩/٤٦٠): « وقوله عليه الصلاة والسلام: (من عرف نفسه عرف ربه) معناه: من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم، ومن عرف نفسه بالإمكان عرف ربه بالوجوب، ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء »

وأيضا في تفسير الرازي (٢١/٥١٨): « ...، ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر »

---

[٣٥] في الكافي (١/١٦٨) عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: إن اللّه أجلّ أن يعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون باللّه، قال: صدقت . قلت: إن من عرف أن له ربا فينبغي له أن يعرف أن لذلك الربّ رضا وسخطا وأنه لا يعرف رضاه وسخطه إلا بوحي أو رسول، فمن لم يأته الوحي فينبغي له أن يطلب الرسل، **فإذا لقيهم عرف أنهم الحجة وأن لهم الطاعة المفترضة ...**

فقال: **رحمك اللّه**

لا يخفى أن تسويد بعض الكلمات مني

---

[٣٦] قال اللّه عز وجل (الإسراء: ٥٧): (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ

أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)، على أن يكون معنى الجملة الأخيرة أن الإنسان كما يجد فطريا أن له ربا كذلك يجد في نفسه الحذر من عذابه، أي أن الحذر من عذابه موجود في فطرة الإنسان، وهذا المعنى أقرب وأظهر مما فسروها به إن لم يكن متعينا ...، وكذلك قوله ـ عز وجل ـ (المعارج: ٢٧- ٢٨): (وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)

---

(٣٧) سيأتي الكلام عن هذا قريبا إن شاء الله

---

(٣٨) في سيرة ابن هشام (٢/٢٨٩) نقل عن ابن إسحاق عن الزهري أنه قال: « أتى ـ أي النبي (ص) ـ بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له: بيحرة بن فراس...: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء

قال: فقال: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه ... »

وإن شئت فقارنه بما في كتاب (سيرة النبي: ٢/٣٠٢) لابن هشام ـ مثلا ـ إذ قال: « قال ابن إسحاق: ... قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ـ إلى أن قال ـ: قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا (عن كابر)

قال: فاعترض القول ـ والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها ـ يعني يهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم

وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم

قال ابن هشام: الهدم الهدم (يعني الحرمة): أي ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم »

---

[٣٩] نقلت عدد من الصحف العربية عن صحيفة (ديلي ميل) البريطانية دراسة ننقلها كما جاء في صحيفة (القبس) الكويتية يوم الأربعاء: ٢٠٠٩/٩/٩:

الإيمان مطبوع في عقولنا

الإيمان باللّه ينبع من برمجة معينة في عقول البشر . هذا ما يشير إليه البروفيسور بروس هود، من جامعة بريستول في انكلترا، في دراسة حديثة استعرضتها صحيفة (ديلي ميل) البريطانية .

وقال البروفيسور هود في دراسته إن الإيمان باللّه وغيره من الاعتقادات الخارقة للطبيعة، بالإضافة إلى الخرافات والسحر، « مطبوعة في عقول البشر منذ الولادة » .

ويستند هود في دراسته إلى أبحاث أخرى وجدت أدلة تربط المشاعر الدينية بمناطق معينة في الدماغ، إذ أشارت إلى أن البشر مبرمجون للتمتع بشعور روحاني انطلاقا من نشاط كهربائي في مناطق معينة في الدماغ

وتناقض هذه الدراسة نظريات ملحدين مثل ريتشارد دوكنز الذي ألف كتاب (وهم)، والذي أشار فيه إلى أن الإيمان ينبع من سوء التربية وفرض عقيدة معينة على الأولاد .

ووجد هود أن لا فائدة من دعوة الناس إلى التخلي عن إيمانهم لأن ذلك مطبوع فيهم. وأشار إلى أن هذه الدراسة أثبتت أن الأطفال يتمتعون بطريقة طبيعية وغرائزية في التفكير تقودهم إلى الاعتقاد بالخرافات . وحين يكبرون يستبدلون الخرافات بالمنطق، غير أن بعض الميول الخرافية قد تبقى ولا تزول

وقد أشار إلى أن بعض الملحدين يؤمنون بالخرافات أيضًا، إذ ذكر أن البعض منهم رفضوا تلقي أعضاء قاتل حتى لا تنتقل إليهم شخصيته .

وأعلن هود أنه قام بتجربة على مجموعة من الأشخاص، وذلك بأن حمل ثوبا أزرق وعرض جائزة على من يتطوع لارتدائه . فتطوع عدة أشخاص، غير أن هذا العدد انخفض كثيرا بعدما أعلن أن القاتل السيئ السمعة فريد ويست ارتدى هذا الثوب من قبل، مما يثبت أن معظم

الأشخاص العقلانيين قد يتصرفون بطريقة غير عقلانية .

وفي تجربة أخرى طلب من بعض الأشخاص قصّ صورة عزيزة عليهم، وسجل فريق الدراسة نسبة إنتاج العرق لدى هؤلاء الأشخاص (النسبة ذاتها التي يقيسها كاشف الكذب)، وتبين أنها كانت مرتفعة جدا، فيما لم تظهر هذه النتيجة حين طلب منهم تدمير شيء لا قيمة معنوية له عندهم . (بروس هود هو عالم نفس كندي، ولد في كندا في ١٩٥٠)

---

(٤٠) من نتائج هذا التوقع المتجذر في النفوس ما لا يخفى من تفشي الاهتمام بما يسمى بالتنبؤات الغيبية بشتى أنواعها من الفأل والتنجيم والسحر

فمثلا لما أشيع أن الرئيس الأمريكي الأسبق (ريغان) كان يستشير عرّافا في اتخاذ القرار للسفر وغيره، وما أشيع عن الرئيس الروسي الأسبق (يلتسن) من لجوئه إلى عرافة...، لم يكن استهجان الناس لهذا وذاك استنكارا منهم لأصل التوقع، وإنما للاعتماد على تنبؤات عراف واتخاذ القرار على أساسها

وعلى أي حال ففيما يلي أمثلة عما أشيع بهذا الصدد:

نقلت صحيفة (الأنباء) الكويتية في (٢٠٠٠/٦/٢٥) عن ا.ف.ب (وكالة الأنباء الفرنسية) أنه: قررت المنجمة الفرنسية الشهيرة اليزابيت تيسييه نشر تسجيلات المكالمات الهاتفية التي تمت بينها وبين الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران بين ١٩٩٠ و١٩٩٥ لإظهار دور الفلك في السياسة

وأوضحت تيسييه: « أردت الرد على بعض التلميحات التي تلقي الشكوك على العلاقات المهنية المحضة التي كانت قائمة بيني وبين ميتران »

لكن مازارين بينغو ابنة الرئيس الفرنسي الراحل قالت: إن والدها « لم يكن ينتظر آراء اليزابيت تيسييه ليتخذ القرارات المهمة »

وكتبت صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠٠٠/٨/٤:

الجنرال شارل ديغول يستقي معلوماته من «منجم»

باريس ـ أ.ف. ب ـ ذكرت مجلة (لو نوفيل اوبسيرفاتور) الفرنسية أن الجنرال شارل ديغول كان يستشير منجما بين ١٩٤٤ و١٩٦٩ هو الكومندان موريس فاسيه البالغ من

الـعمر الآن ٨٥ عامـا

ويروي موريس فاسيه الـذي كان عسـكريا محترفـا للمجـلة كيف درس عـلم التنجيم في دكار عـام ١٩٤٠ بعدمـا تعرض لإصابة

وكانـت البـداية عندمـا التقـى للمرة الأولـى الجنـرال ديغـول فـي طـولـون (جنـوب شـرق) فـي أغسـطس ١٩٤٤ عندمـا كان يدير الفرقـة الموسيقية للفرقـة التاسـعة فـي سـلاح المشـاة، ودعـي فاسيه مـن جـانب مسـاعد ديغـول إلى لقـاء الجنـرال فسـلمه حينهـا (خريطـة طالعه) ونظـر إليهـا ديغـول ووضعهـا فـي جيبه وقـال ببسـاطة (شـكرا فاسـيه) . وقـال فاسـيه للمجلـة « لا يمكنني أن أفصح عن أي شـيء لأن علي كتمان السـر بصفتي عسـكريا ومنجما (...) لكني أكتفي بالقول أني أقمـت علاقـات متواصلـة مـع الجنرال وكنـت أطلعه على المعلومات التي أراها عنه ». ومضى يقـول « ديغـول كان رجـلا متسـلطا عبوسـا بعـض الشـيء ومسـتقلا للغاية، كان يأخـذ فـي الاعتبـار أحيانـا المعلومـات التي كنت أنقلهـا إليه، لكـن بعد أزمة مايـو ١٩٦٨ عندما توجهت إلى الإليزيه حيـث استقبلني، نصحته بعـدم إجـراء اسـتفتاء لأنـي كنت أرى أنه سـيخسـر فلـم يصدقني حيـث كان قـد اتخـذ قـراره ومـا مـن شـيء كان ليجعله يغيـر رأيـه »

وكتبت صحيفة (الرأي العام) الكويتية يوم الجمعة ٢٠٠٠/٨/١١:

المنجمون يقررون مصير ١٠ ملايين فرنسي، وعدد من القادة العرب يستشيرون (الكسي)

باريس ـ من (...):

لم تكن وفاة الرئيس الاشتراكي الفرنسي فرانسوا ميتران عادية أو مفاجئة، فهو أعد كل شيء قبل رحيله .... مات مطمئنا إلى كل شيء. ولكن...

ولكـن مـا لـم يكـن يعرفـه مواطنوه هـو أن الزعيـم الاشـتراكي الـذي يتـعمق فـي علـوم الفلسـفة والاجتمـاع والديانتيـن المسـيحية واليهوديـة (بينمـا معرفتـه بالإسـلام كانـت ضئيلـة جـدا)، لـم يكـن يتـوان عـن الاسـتماع إلـى رأي المنجميـن ...

هـذا على الأقل مـا كشفتـه السـيدة **Elizabeth Teissier** التي تعتبر أشـهر منجمة فرنسية لكونهـا نـجحـت فـي الكـشـف عن بضعـة حـوادث عـالمية وفرنسـية ومنهـا علـى سـبيل المثـال حـرب الخليج

وتقـول إن الرئيـس الراحـل لـم يكـن يعتـرف إلا لمامـا بأنـه يسـتشيرها ليعـرف شـيئا مـا، وكان

يوحي لها دائما بأن استماعه إليها إنما ينجم عن فضوله لكل العلوم، وأراد بداية أن يعرف مثلا الفرق بين علم النجوم و(التبصير) ليس إلا . وتضيف « إن ميتران كان يستشيرني كما يستشير جاك اتالي (أحد أبرز مستشاريه وهو من أصل يهودي سكن أهله مصر) وذلك لكي تكون كل الأوراق ملك يديه »

وتروي المنجمة أنها كانت أرسلت إلى ميتران مرة مداخلة لها تنبأت فيها باحتمال وقوع انقلاب في موسكو عند حلول ٢٠ أغسطس، وهذا ما حصل بالفعل عام ١٩٩١، ما دفع الرئيس السابق إلى إرسال جواب إليها يعبر فيه عن إعجابه بها، وكان يقول لها بين الحين والآخر: إني عملت بنصيحتك

طبعا من يعرف ميتران، يدرك أن الرجل (البارد) (إلا مع بضعة أصدقاء مقربين جدا منه) والواثق من نفسه إلى حد (التسلط الديموقراطي) إذا صح جمع الكلمتين، لم يكن ليعترف بسهولة بأنه يستشير عرافين، لكن واحدا من آخر الكتب التي وضعها مع الكاتب الفرنسي اليهودي الشهير ايلي فيزيل الحائز على جائزة نوبل، وكان بعنوان (ذاكرة بصوتين) أوضح كم أن ميتران كان يطرح أسئلة ماورائية، وأنه وبالرغم من اعترافه بضعف إيمانه إلا أن الموت كان يشغله

فرح اليمين التقليدي بالخبر . بات لديهم ممسك مضحك على خصمهم اللدود السابق . غير أن الفرحة لم تكتمل، فما كاد بعض هذا اليمين يبدأ بالتندر بروايات ميتران وعرافته، حتى جاءته رواية تمسه بعقر داره، فأبو الدوغولية ومؤسسها الرئيس الراحل شارل دوغول نفسه كان يستشير هو الآخر منجما، وأما اللافت والطريف فهو أن منجمه كان في الوقت نفسه ضابطا عسكريا برتبة عالية: قائد فرقة الموسيقى لفرقة المدفعية واسمه **Maurice Vasset**، فهو كان في أوج صباه مقاوما ضد النازية، وحين جرح انتقل إلى السنغال حيث درس علوما عديدة وبينها علم الفلك والنجوم وتعرف على دوغول عام ١٩٤٤ أي مع بداية التحرير الشهير . وارتبط الرجلان بعلاقة دامت طويلا، ولا يزال يحتفظ فاسييه ببطاقة مكتوبة بيد صانع تحرير فرنسا تقول « يا سيد فاسييه، أنت لست فقط جنديا جيدا ولكن أيضا منجما جيدا » . وحين سألته الكاتبة والصحافية جوزيت عاليا في مجلة (لونوفيل اوبسرفاتور) ليخبرها أكثر، ذكرها بأن مبدأ « التحفظ » العسكري يمنعه من البوح بهكذا أسرار

ويبدو أن الزعيمين الاشتراكي واليميني! لم يكونا الوحيدين في فرنسا اللذين يستشيران العرافين أو يستمعان إليهم، فالجمهورية الفرنسية الثالثة (نحن اليوم في الخامسة) عرفت أيضا

السيدة فرايا التي أثرت كثيرا بقادة على غرار جان جوريس واريستيد بريان وجورج كليمانصو وريمون بوا نكا ريه

وتقول جوزيت عاليا (اسمها قادم من أصولها التونسية، اليهودية) أن رئيس وزراء بريطانيا السابق أيضا ونستون تشرشل كان يستشير المنجمة باربارا هاريس، وستالين نفسه استند إلى نبوءة المنجم والف ميسان لاختيار ستالينغراد بغية وقف التمدد النازي

ووفق الإحصاءات الفرنسية فإن ما يقرب من ١٠ ملايين فرنسي يستشير عرافا أو منجما أو يقرأ ما تقوله له الأبراج صبيحة كل يوم، كما أن مصلحة الضرائب تجمع سنويا ما يقارب ٩ مليارات فرنك فرنسي من أولئك الذين يمارسون هذا النوع من الأساليب لقراءة مصائر الناس أو شفاءهم من مشاكلهم اليومية ...

واخترت أن أتصل ببعض الإعلانات المنشورة في الصحف الفرنسية للتأكد أكثر مما يقال، فكان أن فوجئت بأمرين لافتين، أولهما أن منجمة تمارس مهنتها في مكتبها الفخم في الدائرة السادسة عشرة لباريس (واحدة من أرقى الدوائر) واسمها (ناديج)، تتقاضى ما يقارب ٨٠٠ فرنك فرنسي (أي نحو ٥٣١ دولارا) على الجلسة الواحدة وحين زرتها للاطلاع على ما تقوم به (بدعوة منها أقسم لكم) وجدت عندها سيدة أكدت أنها تستشيرها بمعدل مرتين في الأسبوع منذ ١٠ أعوام وذلك لأنها غالبا ما تخبرها بأشياء صحيحة . (ربما تستخبر عنها مسبقا)، أما الأمر الثاني فهو أني اكتشفت منجما واسمه الكسي كان ولا يزال منجما لعدد من القادة العرب . (...) . ويقال إن (...) لم يكن يستقبل ضيوفه أو يذهب إلى اجتماع دون استشارة عرافه، وأن ذلك سبب له مرارا مشاكل مع بعض قادة العالم . واللّه أعلم . (ولينتبه أنه ذكر إسم القائد فحذفناه وأثبتنا مكانه نقاطا بين قوسين)

---

(٤١) تقدم في القسم السابق ـ ويأتي إن شاء اللّه في القسم المعنون بـ(**هكذا آمنت بإمام الزمان عليه السلام**) ـ توضيح أن (الاستيقان) في قول اللّه تعالى (النمل: ١٤): (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) يعني طلب اليقين، لا وجود اليقين كما فسروه بذلك ...، وأن الميسور للإنسان هو الإيقان بما تستيقنه النفس، لا (اليقين) ...

---

(٤٢) فصحيح، وإن لم يكن ثابتا، ما في تفسير ابن كثير (١٣٤/٢) حيث قال: « وذكر

محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم من الليل، هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق، ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوها إلى الصباح، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء به، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا أن صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة واللّه لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت! قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه؟! واللّه لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال: فقام عنه الأخنس وتركه »

---

(٤٣) قال اللّه تعالى (القيامة: ٢٠ـ ٢١): (كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ)
وقال تعالى (الأعلى: ١٦ـ ١٧): (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

---

(٤٤) إذَن ليس دقيقا ما قاله (رسل) في كتاب (لماذا لست مسيحيا؟ ـ الترجمة الفارسية ـ ص٢٤): « الناس إنما يغتمون لما هو دنيوي ...، لكن لا أحد في الحقيقة يغتم جديا بالتفكير فيما يحدث بعد ملايين من السنين ... »

---

(٤٥) في تفسير صدر المتألهين في قول اللّه تعالى: (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ): « وهاهنا وجه آخر، وهو إنّ العلم بكيفية المعاد وبأنّ أفراد الإنسان وغيرهم

ملاقون ربّهم يرجعون إليه بالحقيقة علم شريف غامض لا يحصل لأحد على وجه اليقين إلا للكمّل من العرفاء، وليس لعامّة أهل الإيمان إلا مرتبة الظنّ به على سبيل التخيّل والتسليم

ولأجل غموضه وعلوّ سمكه عن مدارك العقول كرّر ذكره في القرآن، وكثر المنكرون له في كلّ زمان، حتّى أنّك ترى كثيرا من العقلاء القائلين بوجود الصانع للعالم وتوحيده منكرين للمعاد وحشر الخلائق إليه تعالى، فالظنّ به حاصل لكلّ مؤمن خاشع للّه، وذلك الظنّ كاف في أن يبعث له على الصبر والصلوة وسائر العبادات

وأمّا مرتبة علم اليقين بلقاء اللّه والرجوع إليه فهو ثمرة العبادات وغاية الصبر والصلاة »

هذا، وقد مرت إشارات أخرى إلى هذا في ملف (**قصة بشر١**)

---

(٤٦) في تفسير الميزان: « وقوله: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل) إلخ ...

وقد رتب الأخذ بالدين على رجاء المعاد دون القطع به لأن احتماله كاف في وجوب التحذر منه لوجوب دفع الضرر المحتمل، وربما قيل: إن المراد باللقاء لقاء الكرامة وهو مرجو لا مقطوع به »

---

(٤٧) سورة النجم: ٢٨، وقبلها: (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى . وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ)

---

(٤٨) اليقين هو حضور الشيء في النفس ووجدانها له...، ودور الفكر بهذا الصدد ليس الحصول على يقين مفتقد أو إيجاده في النفس، وإنما هو البحث عما يزكي القلب ويرجعه إلى فطرته وسلامته، وما ينقي الحق من الشوائب المانعة عن وجدان النفس له ...

---

(٤٩) قال الشيخ أبو الحسن الشعراني في مقدمة كتاب (شرح أصول الكافي ص٩) للمولى محمد صالح المازندراني: « ...

وأيضا اعتقادنا فيه (أي في الإيمان) أنه لا يزيد ولا ينقص بنفسه، لأن اليقين هو عدم احتمال الخلاف، فإن احتمل الخلاف لم يكن إيمان، وإن لم يحتمل كان اليقين حاصلا،

وليس لعدم احتمال الخلاف مراتب كمراتب الظن، وإنما يكون الزيادة في الأدلة والمعتقدات والآثار، مثلا يعرف أحدنا إمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام بدليل واحد ولا يحتمل الخلاف، ويعرفها آخر بألف دليل ولا يحتمل الخلاف، فهذا الاختلاف في الأدلة لا في نفس اليقين، وأيضا يعرف أحد أن اللّه تعالى واحد لا شريك له ويعلم ذلك يقينا لا يشك فيه أصلا، ويعرف آخر أسماءه وصفاته ومعاني كل واحد، وما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز بالأدلة وغير ذلك مما لا حصر له، فهذه الكثرة في المعتقدات ... »

والشيخ أبو الحسن الشعراني كان من علماء طهران البارزين في الحكمة وفي الورع، وكان أستاذ الشيخ عبد اللّه الجوادي، وقد كرر ذكره في كتبه المختلفة، فقد عبر عنه في هامش (تحرير تمهيد القواعد ص٨٣) بقوله: « الحكيم والرياضي آية اللّه... رضوان اللّه تعالى عليه »، ووصفه في كتابه [رحيق مختوم: ٩٢/١] بالأستاذ العظيم الشأن قدس سره، و...

والشيخ عبد اللّه الملقب بالجوادي الآملي عالم معروف جدا، يقطن مدينة [قم] المقدسة، من تلامذة السيد محمد حسين الطباطبائي، من أبرز الحكماء المتألهين المعاصرين لولا أبرزهم ...

---

(٥٠) في تفسير الميزان (٢٤٩/٢): « واليقين: هو اشتداد الإدراك الذهني بحيث لا يقبل الزوال والوهن »

وقال الدكتور أحمد عبد الحليم عطية (من قسم الفلسفة، كلية الآداب القاهرية) في مقال له في الموسوعة الفلسفية العربية، باسم **[اعتقاد]**:

والاعتقاد الجازم الراسخ الثابت هو اليقين، وهو على ثلاث مراتب: علم اليقين ويحدث بالبرهان والتواتر، وعين اليقين بالمشاهدة، وحق اليقين وهو يحصل بالشيء بعد اتصاف العالم بذلك الشيء. وتفصيل ذلك يتلخص في العلاقة بين الاعتقاد والواقع . فمطابقة الواقع للاعتقاد حق ومطابقة الاعتقاد للواقع صدق . قال التفتازاني في (شرح العقائد النسفية): « الحق هو الحكم المطابق للواقع يطلق على العقائد والأديان والمذاهب، ويقابله الباطل والمطابقة بين الواقع والاعتقاد تسمى حقا »

هذا، وقال صدر المتألهين في تفسيره (١٧٦/٢): « ... لأن الإيمان الحقيقي عبارة عن اعتقاد يقيني حاصل بالبرهان، وكل اعتقاد يقيني حاصل بالبرهان فهو غير قابل للزوال... »

وقـــال الخواجة نصير فـي (تلخيـص المحصـل ص٥٧، ط٢، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥): « وأمـا زوال الاعتقـاد بوقـوع الشـك فـي بعـض المقـدمات فذلـك إنمـا يكـون لغيـر المتيقـن كالمقلديـن ومـن يجـري مجراهـم، وذلـك أن اليقيـن لا يمكـن أن يـزول »

---

(٥١) في الكافي (٢/ ٤٢٠) عن أبي بصير وغيره قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: إن القلب ليكون الساعة من الليل والنهار ما فيه كفر ولا إيمان كالثوب الخلق، قال: ثم قال لي: أما تجد ذلك من نفسك؟ ...

وفـي روضـة الكافـي (١٦٧) عن أبي أسامة قال: زاملت أبا عبد اللّه عليه السلام، قال: فقال لي: اقرأ، فافتتحت سورة من القرآن فقرأتها فرقّ وبكى، ثم قال: يا أبا أسامة ارعوا قلوبكم بذكر اللّه عزّ وجلّ، واحذروا النكت فإنه يأتي على القلب تارات أو ساعات ليس فيه إيمان ولا كفر شبه الخرقة البالية أو العظم النخر . يا أبا أسامة أليس ربما تفقدت قلبك فلا تذكر به خيرًا ولا شرًّا ولا تدري أين هو؟ قال: قلت: بلى إنه ليصيبني وأراه يصيب الناس، قال: أجل ليس يعرى منه أحد . قال: فإذا كان ذلك فاذكروا اللّه عزّ وجلّ واحذروا النكت فإنه إذا أراد بعبد خيرًا نكت إيمانًا، وإذا أراد به غير ذلك نكت غير ذلك . قال: قلت: ما غير ذلك جعلت فداك؟ قال: إذا أراد كفرًا نكت كفرًا

ويُنظر أيضا الكافي (٤٢٣/٢)

---

(٥٢) أقصد بتذكر الآخرة الموجودة في النفس أن الإنسان قد يغفل عنها، بل وقد يجحد بها ـ لسبب أو آخر ـ لكنه إن انتبه إليها وجد أنه قد تذكر الذي في نفسه لا أنه اكتسب شيئا جديدا ...

---

(٥٣) قال اللّه تعالى (السجدة: ١٤): (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ...)

وقال تعالى (الجاثية: ٣٤-٣٥): (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ . ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...)

---

(٥٤) قال اللّه تبارك وتعالى (المطففين: ١٠-١٢): (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

---

(٥٥) قال اللّه عز وجل (القصص: ٣٩): (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ (أي فرعون) وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ)

ويبدو لي أن فرعون إنما فكر في الآخرة والرجوع إلى اللّه تعالى والعود إليه بذهنه، فترجح له عدمها، أو أن قلبه كان قد طبع عليه فلم يعد (لُبًا) يفقه ويعرف الحق بتذكره له كما قال اللّه تعالى (الزمر: ٩): (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ)، فلم يكن يملك ما يحقق له شيئا ويثبّته، فكان أمره فرطا كما قال اللّه تعالى (الكهف: ٢٨): (وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) ...، فلم يجد غير ما حصل في ذهنه من الظن بعدم رجوعه إليه تعالى ...

هذا، وقد فسروا (اللب) بالعقل كما في تفسير الميزان، مثلا، حيث قال ـ في قول اللّه تعالى (البقرة: ٢٦٩): (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ) ـ : « اللب هو العقل لأنه في الإنسان بمنزلة اللب من القشر، وعلى هذا المعنى استعمل في القرآن، وكان لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الأسماء المستحدثة بالغلبة ولذلك لم يستعمل في القرآن وإنما استعمل منه الأفعال مثل يعقلون

والتذكر هو الانتقال من النتيجة إلى مقدماتها، أو من الشيء إلى نتائجها، والآية تدل على أن اقتناص الحكمة يتوقف على التذكر، وأن التذكر يتوقف على العقل، فلا حكمة لمن لا عقل له »

وقال في تفسير قول اللّه تعالى (آل عمران: ٧): (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ): « والألباب جمع لب وهو العقل الزكي الخالص من الشوائب »

ولعل قلمه (ره) سها حيث كتب ما يظهر منه أنه فسر (اللب) بـ(القلب)، قال في تفسير الميزان (٣٤٢/١١): « وملخص البيان أن الحق يستقر في قلوب هؤلاء الذين استجابوا لربهم فتصير قلوبهم ألبابا وقلوبا حقيقية لها آثارها وبركاتها وهو التذكر والتبصر ...

وقوله: (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ) ...، وإنما اختص التذكر بهم (أي بأولي العلم) لأن لهم

ألبابا وقلوبا وليس ذلك لغيرهم »

---

(٥٦) قال اللّه تعالى (النمل: ٦٦): (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ)، وسيأتي شرح الآية في ص١٩٤ـ ١٩٧

هذا، وإني أرى أن الشك في الآخرة كذلك موقف نفسي ينتج عن حركة ذهنية منفلتة عن النفس ومقوماتها الأساسية ...، قال اللّه عز وجل (المؤمنون: ٧٣ـ ٧٤): (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

---

(٥٧) في الفتوحات (٢/٢٠٤): « واليقين...، وحكمه سكون النفس بالمتيقن أو حركتها إلى المتيقن، وهو ما يكون الإنسان فيه على بصيرة أي شيء كان، فإذا كان حكم المبتغى في النفس حكم الحاصل فذلك اليقين سواء حصل المتيقن أو لم يحصل في الوقت كقوله: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ) وإن كان لم يأت بعد ولكن تقطع النفس المؤمنة بإتيانه فلا فرق عندها بين حصوله وبين عدم حصوله وهو قول من قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، مع أن المتيقن ما حصل في الوجود العيني »

هذا، وكان قد بُين في القسم السابق أن (اليقين) الحقيقي لا يكون إلا بـ(إيقان) ناتج عن (استيقان النفس) ...

---

(٥٨) في ذم هذا الظن جاء في تفسير (بيان السعادة: ١/٢٢٧): « اعلم أنّ الظّنّ ... يطلب العلم بالمظنون، والعلم يطلب الشهود والعيان، والعيان يجذب التّحقّق ويحرّك كلّ صاحبه ولا يدعه يسكن عن الطّلب حتّى يوصله إلى ما فوقه فقال إبراهيم (ع) بعد العلم بذلك: إنّ علمي يهيّجني ويجعل قلبي مضطربا في طلب العيان فأطلب العيان ليطمئنّ قلبي، قالَ فَخُذْ ... »

ويبدو أنه أخذه عن البلخي حيث قال (المثنوي، دفتر٣، الأبيات:٤١١٧ـ ٤١٢١):

وين عجب ظنی است در تو ای مهین　　که نمی پرّد به بستان یقین

هر گمان تشنه یقین است ای پسر　　میزند اندر تزاید بال و پر

چون رسد در علم پس بر پا شود   مر یقین را علم او پویا شود

زانکه هست اندر طریق مفتتن   علم کمتر از یقین و فوق ظن

علم جویای یقین باشد بدان   وان یقین جویای دید است و عیان

غريب ظنك الذي لا يطير إلى حديقة اليقين . الظن يظمأ إلى اليقين يخفق بجناحيه إلى طلب المزيد. استقام إن وصل إلى العلم، وطلب علمه اليقينَ، لأن العلم أقل من اليقين وأكبر من الظن . العلم يطلب اليقين، واليقين يطلب الشهود

ولعل هذا معنى ما رواه في الكافي (٧٣/١) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال - في حديث - : « فالظن عجز لما لا تستيقن »، إن كان المراد: فالظن عجز حينما لا تطلب اليقين، أي حينما لا تطلب به اليقين . وهذا يكون أوضح حسب النسخة الأخرى للعبارة وهي: « فالظن عجز لمن لا يستيقن »

وسوف يأتي إن شاء اللّه مزيد من الكلام عن هذا في قسم لاحق من هذه المذكرات

---

(٥٩) قال تعالى (النمل: ٤): (إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)

وقال تعالى (المطففين: ١٠-١٤): (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ . كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

---

(٦٠) ما حكاه القرآن الكريم (الجاثية: ٣٢) من قول الذين كفروا: (وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) قابل للحمل - بل الأولى أن يحمل - على أنهم كانوا صادقين في الإخبار عما في نفوسهم من أنهم لا يجدون فيها دافعا إلى طلب اليقين بالآخرة وتأكيدها، أو أنهم لا يريدون ذلك، ومن كان كذلك لن يوجب شيء له اليقين، وإن كان برهانا، وافتُرض كون البرهان موجبا لليقين ...

وقد تقدم مزيد من الكلام عن (الاستيقان والإيقان واليقين) في القسم السابق، وسيأتي في قسم لاحق بعنوان **(هكذا آمنت بإمام الزمان عليه السلام)**

هذا، وفي تفسير الرازي: « في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا) إلى قوله: (وما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) ...

حكى اللّه تعالى عن الكفار أنهم إذا قيل: إن وعد اللّه بالثواب والعقاب حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها قالوا: ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين

أقول: الأغلب على الظن أن القوم كانوا في هذه المسألة على قولين: منهم من كان قاطعا بنفي البعث والقيامة، وهم الذين ذكرهم اللّه في الآية المتقدمة بقوله: (وَقالُوا مَا هِيَ إِلا حَياتُنَا الدُّنْيا)، ومنهم من كان شاكا متحيرا فيه، لأنهم لكثرة ما سمعوه من الرسول صلى اللّه عليه وسلّم، ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم الذين أرادهم اللّه بهذه الآية، والذي يدل عليه أنه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين، ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول

ثم قال تعالى: (وَبَدا لَهُمْ) أي في الآخرة (سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا) وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانهم (وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) وهذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا: (إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا) إنما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية، وعلى هذا الوجه فهذا الفريق شر من الفريق الأول، لأن الأولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين، وهذا الفريق ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء »

وفي تفسير الميزان: « وقوله: (إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) أي ليست مما نقطع به ونجزم بل نظن ظنا لا يسعنا أن نعتمد عليه، ففي قولهم: (ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ) إلخ، غبّ ما تليت عليهم من الآيات البينة أفحش المكابرة مع الحق »

---

(٦١) قال اللّه عز وجل (البقرة: ٤٦): (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

---

(٦٢) قال اللّه تعالى (الكهف: ١١٠): (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

---

(٦٣) تقدم في القسم السابق توضيح أن هذا وحده ما يتمكن الإنسان من معرفته ووجدانه حقا ...

(٦٤) قال اللّه تعالى (يونس: ٦٦): (وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)

وفي معنى (الخرص) قال الراغب في (المفردات): « الخَرْص: حرز (كذا، ويبدو أنه حزر) الثّمرة، والخَرْص: المحروز، كالنّقض للمنقوض . وقيل: الخَرْص الكذب في قوله تعالى: (إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ)...، قيل: معناه يكذبون . وقوله تعالى: (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) قيل: لعن الكذّابون، وحقيقة ذلك أنّ كلّ قول مقول عن ظنّ وتخمين يقال: خَرْصٌ سواء كان مطابقا للشيء أو مخالفا له، من حيث إنّ صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظنّ ولا سماع بل اعتمد فيه على الظّنّ والتّخمين، كفعل الخارص في خرصه، وكلّ من قال قولا على هذا النحو قد يسمّى كاذبا وإن كان قوله مطابقا للمقول المخبر عنه ... »

ويبدو أن السيد الطباطبائي اعتمد كلام الراغب في تفسيره ج١٨ ص٩٢ و٣٦٧

ويتراءى لي أن (الخرص) قبل أن يكون قولا هو (رأي) خاص يفتعل المرء تكوينه اعتباطا بالتقدير والتخمين ...

---

(٦٥) قال اللّه تعالى (النجم: ٢٣): (إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى)

وكأن إلى هذا يشير قول اللّه عز وجل (النور: ٣٩-٤٠): (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ)

وكذلك قوله تعالى (الزمر: ٢٢): (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)

---

(٦٦) قال اللّه عز وجل (آل عمران: ٩): (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ... رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)

وقال تعالى (آل عمران: ٢٥): (فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)

وقال (النساء: ٨٧): (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)

وقال (الأنعام: ١٢): (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

وقال تعالى (الكهف: ٢١): (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا)

وقال (الحج: ٦-٧): (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ)

وقال (غافر: ٥٩): (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ)

وقال تعالى (الشورى: ٧): (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ...)

وقال عز وجل (الجاثية: ٢٦): (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

وقال تعالى (الجاثية: ٣٢): (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

تلك هي الآيات التي وصفت الآخرة بأنه لا ريب فيها، وقد وصف اللّه عز وجل بذلك القرآن (الكتاب) في ثلاث آيات، ولم يصف به شيئا آخر غير ما قال (الإسراء: ٩٩): (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلا كُفُورًا)

---

[٦٧] في قول اللّه تعالى (الكهف: ٢١): (... وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا...) قال في (مجمع البيان): « أي أن القيامة لا شك فيها »

وقال في قوله تعالى (الحج: ٧): (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا): أي وليعلموا أن القيامة

آتية لا شك فيها »

وكذلك قال الشيخ الطوسي في (التبيان) ـ في تفسيره للآية ٥٩ من سورة غافر، والآية ٢٦ من سورة الجاثية ... ـ

ونقل ذلك الطبري في كتابه (جامع البيان: ٧٦/١) عن مجاهد، وعطاء، والسدي، وابن عباس، وابن مسعود، وناس من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وآله، و...

---

(٦٨) قال الراغب في كتابه (المفردات): « رابني كذا، وأرابني، فالريب أن تتوهم بالشيء أمرا ما فينكشف عما تتوهمه ... »

وقال الرازي ـ في تفسير قول اللّه تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ) ـ : « قوله تعالى: (لا رَيْبَ فِيه) ... الريب قريب من الشك، وفيه زيادة، كأنه ظن سوء تقول رابني أمر فلان إذا ظننت به سوءا، ومنها قوله عليه السلام: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) ... »، وأخذه عنه الملا صدرا في تفسيره

وفي الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: « الفرق بين الريب والشك: الشك هو تردد الذهن بين أمرين على حد سواء، وأما الريب فهو شك مع تهمة، ودل عليه قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ، وقوله تعالى: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) ... »

هذا، وفي الكافي (٤٥/١) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « لا ترتابوا فتشكوا، ولا تشكوا فتكفروا »

وقال الشيخ المازندراني في كتابه (شرح أصول الكافي: ١٥١/٢): « الريبة بالكسر، في الأصل: القلق والاضطراب، ثم شاع استعمالها في الشك وسوء الظن والتهمة، كما يظهر من المغرب والنهاية، لأن كل واحد من هذه الأمور يستلزم المعنى الأصلي ... »

وقال ابن سعيد في كتابه (المغرب...): الريبة، وهي في الأصل: قلق النفس واضطرابها...

ومن المروي عن النبي (ص) أنه قال: « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »

---

(٦٩) في تفسير قول اللّه عز وجل: (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) قال الشيخ الطبرسي في (مجمع البيان): « ... فإن نعم الدنيا تعم

المحسن والمسيء، فلا بد من دار يتميز فيه المحسن من المسيء

وأيضا فقد صح أن التكليف تعريف للثواب، وإذا لم يمكن إيصال الثواب في الدنيا، لأن من شأنه أن يكون صافيا من الشوائب فلا يكون مقترنا بالتكليف، لأن التكليف لا يعرى من المشقة، فلا بد من دار أخرى

وأيضا فإن التمكين من الظلم، من غير انتصاف في العاجل، وإنزال الأمراض من غير استحقاق ولا إيفاء عوض في العاجل، توجب قضية العقل في ذلك أن يكون دار أخرى توفى فيها الأعواض، وينتصف من المظلوم للظالم (كذا) ... »

وقال السيد محمد باقر الصدر في كتابه (الفتاوى الواضحة):

« عدل الله تعالى يثبت الجزاء

إن القيم التي آمنا بها تدعو كما عرفنا إلى العدل والاستقامة والأمانة والصدق والوفاء ونحوها من صفات وتشجب الصفات المضادة لها . وهذه القيم لا تدعو إلى تلك الصفات وتشجب هذه الصفات فقط بل تطالب بالجزاء المناسب لكل منهما فإن العقل الفطري السليم يدرك أن الظالم والخائن جدير بالمؤاخذة، وأن العادل الأمين الذي يضحي في سبيل العدل والأمانة جدير بالمثوبة . وكل واحد منا يجد في نفسه دافعا من تلك القيم إلى مؤاخذة الظالم المنحرف وتقدير العادل المستقيم ولا يحول دون تنفيذ هذا الدافع عند أحد إلا عجزه عن اتخاذ الموقف المناسب أو تحيزه الشخصي

وما دمنا نؤمن بأن اللّه سبحانه وتعالى عادل مستقيم في سلوكه وقادر على الجزاء المناسب ثوابا وعقابا فلا يوجد ما يحول دون تنفيذه عز وجل لتلك القيم التي تفترض الجزاء العادل وتحدد المردود المناسب للسلوك الشريف والسلوك الشائن، فمن الطبيعي أن نستنتج من ذلك أن اللّه سبحانه يجازي المحسن على إحسانه وينتصف للمظلوم من ظالمه

ولكنا نلاحظ في نفس الوقت أن هذا الجزاء كثيرا ما لا يتحقق في هذه الحياة التي نحياها على هذه الأرض على الرغم من أنه مقدور للّه سبحانه وتعالى، وهذا يبرهن بعد ملاحظة المعلومات السابقة على وجود يوم مقبل للجزاء يجد فيه العامل المجهول الذي ضحى من أجل هدف كبير ولم يقطف ثمار تضحيته، والظالم الذي أفلت من العقاب العاجل وعاش على دماء المظلومين وحطامهم يجد هذا وذاك فيه جزاءهما العادل، وهذا هو يوم القيامة الذي يجسد كل تلك القيم المطلقة للسلوك وبدونه لا يكون لتلك القيم معنى »

وفي تفسير الميزان: « قوله تعالى: (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

فالذي يعطيه السياق ـ والمقام مقام إثبات البعث ـ وعرض هذه الآيات على سائر الآيات المثبتة للبعث أن الآية تؤم إثبات البعث من طريق إثبات كونه تعالى حقا على الإطلاق فإن الحق المحض لا يصدر عنه إلا الفعل الحق دون الباطل، ولو لم يكن هناك نشأة أخرى يعيش فيها الإنسان بما له من سعادة أو شقاء واقتصر في الخلقة على الإيجاد ثم الإعدام ثم الإيجاد ثم الإعدام وهكذا كان لعبا باطلا فكونه تعالى حقا لا يفعل إلا الحق يستلزم نشأة البعث استلزاما بينا فإن هذه الحياة الدنيا تنقطع بالموت فبعدها حياة أخرى باقية لا محالة

فالآية أعني قوله: (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرابٍ ـ إلى قوله ـ ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) في مجرى قوله: (وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إلا بِالْحَقِّ)...، وقوله: (وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)... وغيرهما من الآيات المتعرضة لإثبات المعاد، وإنما الفرق أنها تثبته من طريق حقية فعله تعالى والآية المبحوث عنها تثبته من طريق حقيته تعالى في نفسه المستلزمة لحقية فعله »

ويُنظر أيضا تفسيره لقول الله عز وجل: (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهادًا)

وقال السيد عبد الأعلى السبزواري في كتابه (مواهب الرحمن): « قوله تعالى: (رَبَّنا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ) ...، فقولهم: (لا رَيْبَ فِيهِ)، أي لا شك فيه حسب الأدلة العقلية، ويمتنع عدم تحققه وسلب وقوعه »

وفي قول الله عز وجل: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ) قال الرازي: « اعلم أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أثبت أن القيامة ستوجد لا محالة، وجعل الدليل على ذلك مجرد إخبار اللّه تعالى عنه، وهذا حق، وذلك لأن المسائل الأصولية على قسمين منها ما العلم بصحة النبوة يكون محتاجا إلى العلم بصحته ومنها ما لا يكون كذلك. والأول مثل علمنا بافتقار العالم إلى صانع عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات، فإنا ما لم نعلم ذلك لا يمكننا العلم بصدق الأنبياء، فكل مسألة هذا شأنها فإنه يمتنع إثباتها بالقرآن وإخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإلا وقع الدور

وأما القسم الثاني، وهو جملة المسائل التي لا يتوقف العلم بصحة النبوة على العلم بصحتها، فكل ذلك مما يمكن إثباته بكلام اللّه وإخباره، ومعلوم أن قيام القيامة كذلك، فلا

جرم أمكن إثباته بالقرآن وبكلام اللّٰه، فثبت أن الاستدلال على قيام القيامة بإخبار اللّٰه عنه استدلال صحيح » . ويُنظر ما قاله في تفسيره (١/٢٣١)

---

(٧٠) في تفسير قول اللّه تعالى (الأنعام: ١٢): (قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) قال الشيخ الطبرسي في (مجمع البيان): « ويقال: كيف نفى الريب مطلقا، فقال: (لا ريب فيه) والكافر مرتاب فيه؟ والجواب: إن الحق حق، وإن ارتاب فيه المبطل، وأيضا فإن الدلائل تزيل الشك والريب »

---

(٧١) تقدم الكلام عن هذا في القسم السابق، وسيأتي في القسم اللاحق

---

(٧٢) مثلا في تفسير الميزان: « قوله تعالى: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) تأكيد لكون قولهم بنفي المعاد وحصر الحياة في الحياة الدنيا قولا بغير علم . والمراد بالآيات البينات الآيات المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد وكونها بينات وضوح دلالتها على ثبوته بلا شك، وتسمية قولهم: (ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) مع كونه اقتراحا جزافيا بعد قيام الحجة إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل: ما كانت حجتهم إلا اللاحجة

والمعنى: وإذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد والحال أنها واضحات الدلالة على ثبوته ما قابلوها إلا بجزاف من القول وهو طلب الدليل على إمكانه بإحياء آبائهم الماضين »

---

(٧٣) قال اللّه عز وجل (الكهف: ٢١): (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا)

---

(٧٤) قال جلال الدين البلخي في المثنوي (دفتر٣: الأبيات ٤٢٩٢-٤٢٩٩):

آنکه فرموده ست او انــدر خطاب　　کرّه و مـادر همی خوردنـــد آب
می شخولیدند هـــر دم آن نفر　　بهر اسبـــان که هلا هین آب خور
آن شخولیدن به کره می رسیــد　　سر همی بر داشت و از خور می رمید

………………

گفت مادر تا جهان بوده ست از این　　کار افزایان بدنـد انــدر زمین
هین تو کار خویش کن ای ارجمنـد　　زود کایشان ریش خود بر می کنند

خلاصة ترجمة الأبيات: إن مُهرا وأمه كانا يشربان الماء، والناس (أصحاب الأفراس) كانوا يصفرون أن حيّ على الشرب، وكان المهر يستوحش من ذلك. فقالت له أمه: اهتمّ بعملك، فإنهم يضحكون على ذقون أنفسهم

ولا يخفى أن الأمر ليس تماما كما صوره (المثنوي) من عدم التأثر بالإيحاء والإملاء، أو الاستغناء عنه …، ولعل فيما علق به الشيخ محمد تقي جعفري على الأبيات المذكورة إشارة إلى ذلك، حيث قال في كتابه (تفسير و… مثنوى: ١٢٩/٩) ـ ما ترجمته ـ : « من أسمى المسائل المذكورة في المثنوي مضامين الأبيات الآنفة، وأروعها وأوعاها معنى . شوهد أنه لما يقودون الحمار والفرس إلى الماء يقوم صاحبه بالتصفير، يقولون: إن ذلك يبعث الحيوان على أن يُقبل على شرب الماء …

دليل كذب هذا الظن هو ما ذكره من أنه لو كان التصفير باعثا طبيعيا لشرب الحيوان الماء فلماذا تستوحش أولادها من ذلك الصوت …؟!

يستنتج جلال الدين من هذا المثل نتائج ملفتة خارقة:

١ـ …

٢ـ كل هذه التحريكات الروحية والمادية التي يشهدها ويسمعها الإنسان المسكين من مجتمعاته لا أنها ليست مجدية له فقط بل وتضله عن الطريق الطبيعي المعبد الذي وهبه اللّه وتُلجئه إلى الهروب من الواقعيات التي مهدها له عقله ووجدانه النقي

چشم روشن را ز عینك میفزاید تیرگی　　صاف دل گمراه میگردد ز برهان بیشتر

(ترجمة البيت: تزيد النظارة العين السليمة غشاوة . ذو القلب الصافي يزيده البرهان ضلالا)

٣ـ بدلا من أن يجند قادة الفكر والمجتمع كل جهودهم لتنقية نهر حياة الناس وأفكارهم، وبدلا من أن يلفتوا أنظار الناس إلى عطشهم الواقعي ويملأوا آنيتهم الفقيرة بماء الحياة، يقومون بالتصفير ...

اتفاق أصوات الصافرين يوجد جلالا لهم وانبهارا بهم في قلوب أصحاب الفطر الصافية بدرجة تشككهم في طبيعتهم الأصلية ... »

وقد تكرر الكلام عن هذا في القسم السابق ...

---

(٧٥) تقدم الكلام عن التنافي بين الإيمان وخسارة النفس في القسم السابق تحت عنوان **الاعتـراف بالنفـس والثقة بها**

---

(٧٦) تأتي الإشارة إلى هذا في القسم اللاحق من هذه المذكرات، فصل (اكتمال الدين)...

---

(٧٧) أجاد الشيخ مكارم الشيرازي بقوله في كتابه (التفسير الأمثل: ٢٥٧/١٤): « ...

ومن جهة أخرى فعندما نبحث في التأريخ البشري منذ أيّام نشأة ذلك التأريخ فإنّنا نجد دلائل كثيرة على الاعتقاد الراسخ لدى الإنسان بالحياة بعد الموت

فالآثار التي وصلت إلينا من البشر الغابرين ـ وحتّى إنسان ما قبل التأريخ ـ وبالأخصّ طريقة دفن الموتى وكيفية بناء القبور، وحتّى دفن الأشياء المختلفة مع الموتى، كلّها دليل على ما ترسّخ في وجدانهم من الاعتقاد بالحياة بعد الموت

(صاموئيل كنيك) أحد علماء النفس المعروفين يقول: إنّ التحقيقات الدقيقة تشير إلى أنّ المجموعات البشرية الأولى على سطح الأرض كانت لهم اعتقادات معيّنة لأنّهم كانوا يلحدون موتاهم بطريقة معيّنة في الأرض، ويضعون معهم وسائل وآلات أعمالهم التي كانوا يمارسونها قبل الموت إلى جانبهم، وبهذه الطريقة فإنّهم يثبتون اعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت

فهؤلاء اعتقدوا بالحياة بعد الموت، وإن كانوا قد سلكوا طريقا خاطئا في اعتقادهم كتوهّمهم أنّ تلك الحياة شبيهة بهذه الحياة تماما

على كلّ حال، فلا يمكن قبول أنّ ذلك الإعتقاد القديم مجرّد وهم أو نتيجة للتلقين والعادة ... »

وجاء في صحيفة (الأنباء) الكويتية يوم ٢٠١١/١/٢٩ ما يلي:

لندن ـ إيلاف: أظهر استطلاع لموقف البريطانيين من الروحانية أن ثلثي البريطانيين يؤمنون بالآخرة، وثلثهم يؤمنون بوجود الجنة ...

ويعتقد ٥٨٪ من البريطانيين أن الموتى من أحبائهم « هم معهم بروحهم » ...

أجرى الدراسة د. بني سارتوري باستطلاع ٣٠٠٠ بالغ

ويبدو أن هذا لا يختص بالإنسان، فمثلا نقلت صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠١٠/٤/٢٨ عن (بي بي سي) ما يلي:

« ....

وكان القائمون على حديقة حيوانات في مقاطعة سترينلغشير الاسكتلندية قد ثبتوا كاميرات تصوير لمراقبة وتوثيق موت تلك القردة المسنة المريضة ...

وبعد موتها ظلت ابنتها إلى جانبها طوال الليل، على الرغم من أنها لم تنم إطلاقا في المكان الذي ماتت فيه أمها

كما لوحظ أن القطيع بكامله ساده الوجوم والسكون والهدوء لعدة أيام، وكان الجميع يتفادى الاقتراب من المكان الذي ماتت فيه بانسي، وظلوا ساعات طويلة وهم يمسدون ويتلطفون مع بعضهم

وفي الدراسة الثانية التي أشرف عليها علماء من جامعة اكسفورد لوحظ أن اثنين من أمات الشمبانزي التي تعيش في البرية في غينيا كانتا تحملان معهما جثث طفليهما الميتين أينما ذهبتا، بل أن إحداهما احتفظت بجثة طفلها معها لنحو عشرة أسابيع

ويقول العلماء إن هذا السلوك سجل مرة واحدة في المحمية الطبيعية في غانا في عام ١٩٩٢، وأن القردة ربما تعلمته من تلك الفترة

وخلال تلك الفترة كانت جثث صغار القردة تتحنط تدريجيا مع الوقت، في وقت استخدمت فيه الأمات أدوات لإبعاد الذباب والحشرات عن جثث صغارها ... »

وتُنظر الدراسة أيضا في جريدة (الشرق الأوسط) الصادرة في ٢٠١٠/٥/٣

أقول: قد يكون هذا شاهدا على ما يظهر من قول اللّه تعالى (الأنعام: ٣٨): (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)، وقال (التكوير: ٥): (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) (يُنظر تفسير الميزان وغيره)

---

(٧٨) كلمة (ادارك) في الآية الكريمة، لو لم تكن أكثر الكلمات إبهاما، فهي من أكثرها غموضا، ويبدو أن إبهام معناها هو الذي جعل قراءتها مختلفة، فقد قال الرازي: « فيه ـ أي في (ادَّارَكَ) ـ اثنتا عشرة قراءة: (بل أدرك)، (بل ادارك)، (بل تدارك)، (بل أأدرك) بهمزتين... »

وقال في اشتقاقها: « (ادارك) أصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وأدرك افتعل »

وقال في معناها: « معنى أدرك علمهم: انتهى وتكامل، وادّرك: تتابع واستحكم... »

وفي التفسير الأمثل: « (ادّارك) في الأصل (تدارك) ومعناه التتابع أو لحوق الآخر بالأوّل، فمفهوم جملة: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ أنّهم لم يصلوا إلى شيء بالرغم ممّا بذلوه من تفكير وجمعوا المعلومات في هذا الشأن، لذلك فإنّ القرآن يضيف مباشرة بعد هذه الجملة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ. لأنّ دلائل الآخرة ظاهرة في هذه الدنيا، فعودة الأرض الميتة إلى الحياة في فصل الربيع وإزهار الأشجار وإثمارها مع أنّها كانت في فصل الشتاء جرداء ...! ومشاهدة عظمة قدرة الخالق في مجموعة الخلق والوجود، كلها دلائل على إمكان الحياة بعد الموت، إلا أنّهم كالعمي الذين لا يبصرون كل شيئا! . وبالطبع فإنّ هناك تفاسير أخر للجملة أعلاه، منها أنّ المراد من ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ أن أسباب التوصل للعلم في شأن الآخرة متوافرة ومتتابعة، إلا أنّهم عمي عنها »

وفي تفسير الميزان : « قوله تعالى: (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ) ادارك في الأصل تدارك، والتدارك تتابع أجزاء الشيء بعضها بعد بعض حتى تنقطع ولا يبقى منها شيء، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفد علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة على حد قوله تعالى: (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)...

لما انتهى احتجاجه تعالى إلى ذكر عدم شعور أحد غيره تعالى بوقت البعث وتبكيت

المشركين بذلك رجع إلى نبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم وذكّره أنهم في معزل عن الخطاب بذلك إذ لا خبر لهم عن شيء عن أمور الآخرة فضلا عن وقت قيام الساعة، وذلك أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في جهات الحياة الدنيا فهم في جهل مطلق بالنسبة إلى أمور الآخرة، بل هم في شك من الآخرة يرتابون في أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيها المبنية على الاستبعاد، بل هم منها عمون واللّه أعمى قلوبهم عن التصديق بها والاعتقاد بوجودها

وقد ظهر بهذا البيان أن تكرر كلمة الإضراب لبيان مراتب الحرمان من العلم بالآخرة وأنهم في أعلاها، فقوله: (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ) أي لا علم لهم بها كأنها لم تقرع سمعهم، وقوله: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا) أي أنه قرع سمعهم خبرها وورد قلوبهم لكنهم ارتابوا ولم يصدقوا بها، وقوله: (بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ) أي إنهم لم ينقطعوا عن الاعتقاد بها من عند أنفسهم وباختيار منهم بل اللّه سبحانه أعمى أبصار قلوبهم فصاروا عمين فهيهات أن يدركوا من أمرها شيئا

و قيل: المراد بتدارك علمهم تكامله وبلوغه حد اليقين لتكامل الحجج الدالة على حقية البعث، والجملة مسوقة للتهكم، وفيه أنه لا يلائم ما يتبعه من الإضراب بالشك والعمى »

أقول: يكفي إشكالا على ما أفاده رحمه اللّه أنه لو كان (ادارك) بمعنى (تتابع أجزاء الشيء بعضها بعد بعض حتى تنقطع ولا يبقى منها شيء) فكان عليه أن يقول في معنى الآية: إنهم صرفوا ما عندهم من العلم في الآخرة حتى نفد علمهم فلم يبق منه شيء...، لا « أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفد علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة »، وذلك لأن قول اللّه تعالى هو (ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ) أي نفد علمهم فيها، لا في غيرها كما افترضه ...

يبدو لي أن المعنى الأقرب إلى الآية أن يقال: إنهم كفروا بما فطر اللّه نفوسهم عليه من وجدان الآخرة وشعورها بها، فلم يطلبوا العلم (بها)، بل أرادوا علم ما (فيها) وتفاصيله فتساءلوا ـ مثلا ـ : (أيان يبعثون؟)، أو (متى هذا الوعد؟)، وبما أن الإنسان لم يفطر على الشعور بوقت البعث كما قال اللّه تعالى (النمل: ٦٥): (قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) فالبحث عنه لا فقط عبث لا ينتج العلم، بل ويكون على حساب واقع العلم بالآخرة المفطورة عليه النفس، فإن تعريض الفطري للتساؤل يخرجه عن طوره وفطريته، كما هو واضح ومجرب ...

فلو كان (ادارك علمهم) بمعنى (تتابَع ففني)، كما نقل الزبيدي في (التاج) عن ابن جني أنه

قال: « أدرك الشيء إذا تتابع ففني »، فمعناه: أن ما كان لهم من (علم فطري) بالآخرة لم يظل كذلك، بل تحول إلى علم متتابع (في الآخرة)، أي في ما تتضمنه من تفاصيل، فيكون الظرف ـ في الآخرة ـ متعلقا بـ(ادارك)، لا بـ(علمهم)، ومن الواضح أن طلب العلم بتفاصيل الآخرة لا فقط لا ينتهي إلى شيء، بل ويستلزم إبطال (العلم بالآخرة) الموجود في فطرة الإنسان، والذي لو اعتُمِد لكان كشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ودافعا ومنطلقا للإيمان بما ذكره القرآن من تفاصيل الآخرة، كما ـ مثلا ـ في قول اللّه تعالى (المدثر: ٢٦ـ ٣١): (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ . وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ)، الذي قد مرت الإشارة إليه في القسم السابق، **في فصل التدين باتباع** ...

أجل، لا يوجد في قلب الإنسان الشعور بتفاصيل الآخرة، فهو لا يقدر على العلم بتلك التفاصيل فلا يركز عليها، وإنما يؤمن بها ـ إجمالا ـ إن سمعها ممن يؤمن به ...

وعلى أي حال، فعلى هذا يمكن فهم الآية الكريمة ـ أي قول اللّه عز وجل: (قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) ـ كما يلي:

إن اللّه وحده يعلم (الغيب) بما منه وقت البعث الغائب عن نفوس الناس، فإنهم (لا يشعرون) بالحاجة إليه والسؤال عنه، وما يجدونه في نفوسهم هو الآخرة بإجمالها، المتمثلة في ثواب اللّه وعقابه، والرغبة في الأول والخوف من الثاني، فالذين لا يؤمنون بالساعة هم الذين يسألون عن وقتها ويمارون فيه، وأما المؤمنون بها فحيث يعلمون أنها حق فيرهبونها ويتجنبون السؤال عن وقتها، قال اللّه عز وجل (الشورى: ١٧ـ ١٨): (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ . يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ)

خلاصة الكلام: إنهم، بدلا من اعتماد علمهم الفطري بالآخرة والبناء عليه وحمايته والإيقان بها، أهملوه وأضاعوه بالبحث عما في الآخرة، بل هم ـ قبل ذلك ـ في شك من

الآخرة، بل هم غافلون عنها تماما وعمون من شهودها في قرارة نفوسهم ...

وسيأتي مزيد توضيح لمسألة الإيمان بالآخرة في القسم القادم، فصل (**الانتظار حاجة أساسية**)

---

(٧٩) في أول رسالة (عقائد الإمامية) قال الشيخ المظفر: « ...، بل يجب عليه ـ أي على الإنسان ـ بحسب الفطرة العقلية المؤيدة بالنصوص القرآنية أن يفحص ويتأمل وينظر ويتدبر في أصول اعتقاداته المسماة بأصول الدين، التي أهمها التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد . ومن قلد آباءه أو نحوهم في اعتقاد هذه الأصول فقد ارتكب شططا وزاغ عن الصراط المستقيم، ولا يكون معذورا أبدا »

وهذا بإجماله معروف، وقد أشير إليه في مذكرات عن المنطق والكلام، وفي غيرها ...

---

(٨٠) قال ابن خلكان في (وفيات الأعيان: ٤٠٣/٣، ط١، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٤٨): « وذكر الشهرستاني في أول كتاب (نهاية الإقدام)... بيتين وهما:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

ولم يذكر لمن هذان البيتان، وقال غيره: هما لأبي بكر محمد بن باجة... الأندلسي »

وفي كتاب (حياة الحيوان) نسبه (الدميري) إلى ابن سينا، ونسبه إلى ابن باجة

وقال السعدي الشيرازي في كتابه (بوستان ـ الحديقة):

در اين ورطه كشتى فرو شد هزار كه نامد از او تخته اى بركنار

في هذه الورطة غرقت ألف (آلاف) من السفن، ولم تنجُ منها قطعة واحدة

وقد ذُكرت في الأقسام السابقة شواهد كثيرة على مشاكل (النظر) وصعوبته ...

---

(٨١) في تفسير الميزان (٦١/١): « فالإنسان اللبيب القادر على تعقل هذه المعاني لا

يشك في أن هذه المزايا الكلية وغيرها مما يشتمل عليه القرآن الشريف كلها فوق القوة البشرية ووراء الوسائل الطبيعية المادية، وإن لم يقدر على ذلك فلم يضل في إنسانيته ولم ينس ما يحكم به وجدانه الفطري أن يراجع فيما لا يحسن اختباره ويجهل مأخذه إلى أهل الخبرة به »

وقال (في نفس الصفحة): « ...، والنتيجة الضرورية لهاتين المقدمتين أن يدرك (أي الإعجاز) صاحب الفهم العالي والنظر الصائب، ويرجع من دون ذلك فهما ونظرا إلى صاحبه، والفطرة حاكمة والغريزة قاضية »

وقد حدد الشيخ عبد اللّه الجوادي أهل الخبرة بـ(الحكماء والمتكلمين)، قال في كتابه (تسنيم: ١/١٠٩) ـ ما ترجمته بقليل من التلخيص ـ : « يُحرز القرآن المجيد حجيته في مرحلة الإثبات ... بطريقين لا ثالث لهما: الأول طريق الأولياء حيث يجدون القرآن حقا بالشهود الباطني والعلم الحضوري...، والثاني طريق الحكماء والمتكلمين الذين يعرفون بالبرهان العقلي الإعجاز والفرق بينه وبين السحر والشعوذة، وكذلك الفرق بينه وبين ما يفعله المرتاضون، وكيفية إسناد المعجزة إلى مدعي النبوة، وتلازم الإعجاز مع صدق مدعي الرسالة الضروري، وسائر مسائل هذا الباب العميقة... »

---

(٨٢) في القرآن الكريم (يوسف: ٨٧): (إِنَّهُ لا يَايْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ)

وقال جلال الدين البلخي (مثنوي: دفتر٦، البيت: ٤٧٤١):

نيستم اوميدوار از هيچ سو　　　وان كرم ميگويدم لا تيْأَسُوا

ترجمته: لا آمُل شيئا من أية جهة، والكرَم (الذي أحس به في داخلي) يقول: (لا تيْأَسُوا)

---

(٨٣) قال الشيخ مرتضى الأنصاري في (فرائد الأصول: ١/٢٨٨): « فالإنصاف أن المقلد الغير الجازم المتفطن لوجوب النظر عليه فاسق مؤاخذ على تركه للمعرفة الجزمية بعقائده ...، وأما الغير المتفطن لوجوب النظر لغفلته أو العاجز عن تحصيل الجزم فهو معذور في الآخرة ... »

---

(٨٤) قال الشيخ مرتضى الأنصاري في كتابه (فرائد الأصول: ١/٢٨٤): « ...، لكن الذي

يقتضيه الإنصاف شهادة الوجدان بقصور بعض المكلفين، وقد تقدم عن الكليني ما يشير إلى ذلك، وسيجيء عن الشيخ ـ أي الطوسي ـ قدس سره في (العدة) من كون العاجز عن التحصيل بمنزلة البهائم، مع ورود الأخبار المستفيضة بثبوت الواسطة بين المؤمن والكافر، وقضية مناظرة زرارة وغيره مع الإمام عليه السلام في ذلك مذكورة في الكافي، ومورد الإجماع على أن المخطئ آثم هو المجتهد الباذل جهده بزعمه (كذا) فلا ينافي كون الغافل والملتفت العاجز عن بذل الجهد معذورا غير آثم »

وفي كتاب (مصباح الأصول: ٢/٢٣٧) للسيد سرور البهسودي: قال السيد أبو القاسم الخوئي: « وبالجملة الجاهل القاصر بالنسبة إلى وجود الصانع وتوحيده جل ذكره نادر أو غير موجود . نعم الجاهل القاصر بالنسبة إلى النبوة الخاصة والإمامة والمعاد الجسماني في غاية الكثرة فإن كثيرا من نسوان اليهود والنصارى قاصرات عن تحصيل مقدمات التصديق والجزم بالنبوة الخاصة، وكذا نسوان المخالفين بالنسبة إلى الإمامة، وكذا بعض من الرجال بالنسبة إلى المعاد الجسماني »

---

(٨٥) في كتاب (شرح أصول الكافي: ١/١٢٣) قال محمد صالح المازندراني: « ومنهم من أوجب التقليد في الأصول وحرم النظر، لأن الشبهات في الأنظار كثيرة، والنظر مظنة الوقوع في الضلالة وهي في الأصول كفر، بخلاف التقليد فإنه أسلم لعدم مشاهدة المقلد تلك الشبهات فوجب لوجوب الاحتراز عن مظنة الضلالة اتفاقا . والجواب أنه ... »

وعلق عليه الشيخ أبو الحسن الشعراني في الهامش بقوله: « قال العلامة المجلسي في كتاب (حق اليقين) ما معناه: *اختلفوا في أنه يشترط في الإيمان اليقين أو يكفي الظن القوي، وأيضا في أنه يجب أن يكون بالدليل أو يجوز فيه التقليد، وهذان الخلافان متقاربان، وظاهر كلام العلامة وأكثر العلماء أنه يجب تحصيل اليقين بالبرهان، وبعضهم ادعى الإجماع عليه »، إلى أن قال: « في صدر الإسلام كانوا يكلفون الناس بإظهار العقائد، ويأمرونهم بالطاعات والعبادات، ولا يعرضون عليهم دليل الدور والتسلسل، لأنه مادة التشكيك، ولذلك نرى بعض العباد والزهاد الذين لم يمارسوا تلك العلوم يقينهم أكمل من أكثر المدققين من العلماء الذين صرفوا أكثر عمرهم في الشكوك والشبهات »* إلى آخر ما قال

أقول: ولا ريب أن الصحيح ما ذكره الشارح، مع إنا لم نر أحدا نقل في كتاب حديث أو

تاريخ أو سيرة أن رجلا من المسلمين في صدر الإسلام اكتفى في إيمان الكافر بالظن على ما ادعاه المجلسي رحمه اللّه وشعار المسلمين: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمدا رسول اللّه، ولفظ أشهد يدل على اليقين، ولو قال الكافر أظن ظنا قويا أن اللّه واحد وأظن أن محمدا صلى اللّه عليه وآله نبي لم يعد مسلما في عهد ووقت، فالإجماع على وجوب تحصيل اليقين حق والناس مفطورون على بطلان الدور والتسلسل وإن لم يعرفوا اسمهما ولم يقدروا على تقرير دليل بطلانهما لفظا، وإن قال رجل: ولدني ابني ضحك منه الناس لأنهم يبطلون الدور، ولو قال: أنا أملح الأطعمة كلا من الآخر من غير أن يكون لي ملح ضحكوا منه أيضا . والعالم الذي إيمانه أضعف من العوام ليس عالما البتة، بل هو حافظ للاصطلاحات من غير أن يفهم معناها، وقد بين الشارح ذلك في شرح المقدمة أتم بيان »

وفي كتاب (مستمسك العروة الوثقى: ١/١٠٤) ذهب السيد محسن الحكيم إلى حرمة النظر والبحث مع خوف الضلال بالنظر

---

(٨٦) في كتاب (نهاية الأفكار: ٣/١٩٤) ـ تقريرات بحوث آغا ضياء العراقي بقلم الشيخ محمد تقي البروجردي ـ : « هل يعتبر في المعرفة بالواجب تعالى وصفاته الثبوتية والسلبية ومعرفة النبي صلى اللّه عليه وآله من كونها حاصلة عن اجتهاد ونظر واستدلال أو أنه يكفي مطلق المعرفة ولو كانت ناشئة من كثرة إلقاء الأبوين وغيرهما؟ فيه وجهان: ظاهر المحكي عن جماعة من أصحابنا الإمامية رضوان اللّه عليهم ـ منهم العلامة (قده) ـ الأول حيث اعتبر لزوم كون المعرفة باللّه سبحانه وصفاته الثبوتية والسلبية عن اجتهاد منه ونظر واستدلال لا عن تقليد، بل وادعى عليه إجماع العلماء

ولكن الأقوى ـ وفاقا للمعظم ـ هو الثاني من كفاية مطلق المعرفة وعدم اعتبار كونها عن نظر واستدلال لأن المقدار الّذي دلت عليه الأدلة العقلية والنقليّة إنما هو مجرد المعرفة والتصديق والاعتقاد، وأما كونها عن اجتهاد ونظر واستدلال فلا، لقصور الأدلة عن إثباته، وحينئذ فلو فرض حصول المعرفة والاعتقاد بالواجب تعالى ورسله من غير جهة النّظر والاجتهاد فلا وجه لوجوب تبديلها عليه بالمعرفة الناشئة عن النّظر والاستدلال، كيف وإن لازم القول بعدم كفاية مطلق الجزم والمعرفة هو الالتزام بكفر أكثر العوام بل كلهم إلا ما شذ وندر، مع أنه كما ترى خلاف ما جرت عليه سيرة العلماء قديما وحديثا بل سيرة الأئمة عليهم السلام إذ لم يسمع أن أحدا منهم أنكر على من لم يكن اعتقاده بالواجب تعالى وصفاته الثبوتية والسلبية

عن اجتهاد ونظر وبرهان ولم يسنده ـ لو سئل عنه ـ إلى حجة عقلية أو شرعية، بل المعلوم من حالهم معاملتهم مع مثل هؤلاء معاملة المسلم من غير نكير منهم عليهم »

وقال الشيخ الأنصاري في كتابه (فرائد الأصول: ١/٢٧٢): « الثاني اعتبار العلم ـ أي في العقائد ـ ولو من التقليد، وهو المصرح به في كلام بعض والمحكي عن آخرين »

---

(٨٧) قال ابن عربي في (الفتوحات: ١/٧٢): « ... أن العوام بلا خلاف من كل متشرع صحيح العقل عقائدهم سليمة وأنهم مسلمون مع أنهم لم يطالعوا شيئا من علم الكلام ولا عرفوا مذاهب الخصوم، بل أبقاهم اللّه تعالى على صحة الفطرة وهو العلم بوجود اللّه تعالى بتلقين الوالد المتشرع أو المربي ... »

ويشبه هذا ما في (كتب وفتاوى ابن تيمية: ٤/٢٩) أنه قال: « فأما ما أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدى فأمر يجل عن الوصف، ولكن عند عوامهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة المتكلمين، وهذا ظاهر مشهود لكل أحد، غاية ما يقوله أحدهم أنهم جزموا بغير دليل وصمموا بغير حجة وإنما معهم التقليد، وهذا القدر قد يكون في كثير من العامة لكن جزم العلم غير جزم الهوى، فالجازم بغير علم يجد من نفسه أنه غير عالم بما جزم به، والجازم بعلم يجد من نفسه أنه عالم، إذ كون الإنسان عالما وغير عالم مثل كونه سامعا ومبصرا وغير سامع ومبصر، فهو يعلم من نفسه ذلك مثل ما يعلم من نفسه كونه محبا ومبغضا ومريدا وكارها ومسرورا ومحزونا ومنعما ومعذبا وغير ذلك، ومن شك في كونه يعلم مع كونه يعلم فهو بمنزلة من جزم بأنه علم وهو لا يعلم ... »

---

(٨٨) في التعليق على كتاب (اصول فلسفه ـ مجموعه آثار: ٦/١٠٣٨)، بعد أن أكد الشيخ المطهري صعوبة المعرفة، وأن أناسا قليلين فقط يملكون القدرة عليها، واستند إلى كلام ابن سينا في آخر النمط التاسع من كتاب (الإشارات والتنبيهات) من أنه « جلّ جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ... » قال: « يظهر من هذا أن أمثال ابن سينا يرون أنه لابد للناس غير ثلة من المؤهلين أن يقلدوا »

ثم علق عليه بقوله: « من البديهي أنه لو كان البناء على التقليد والتعبد لا المعرفة فالذي يستحق أن يقلد ويتعبد به إنما هو القرآن وأقوال المعصومين القطعية »

ولكنه لم يبين كيف يمكن تقليد القرآن وأقوال المعصومين القطعية

وفي كتاب [الأسفار: ٤٦/٧]: « اعلم أن خطابات القرآن كقوله: (يا أيها الإنسان، يا أيها الذين آمنوا) مما يختص بأحباء اللّه المتألهين وأوليائه المقربين ...

وأنت أيضا يا حبيبي لو لم تكن مما قضى اللّه فيك خيرا، ولم تكن أهلا لذلك بحسب ما يسر لك هذا الأمر العسير في التقدير لما وقع منك إلا التقليد كالعميان إن كنت من المسلمين ولم تكن من الجاحدين، ... »

---

(٨٩) في تفسير الرازي: « (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم، وهي بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس، فقالوا: إنك تقول: إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى، وليس كذلك لأن موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند اللّه وأنت ما أوتيت شيئا منها

ثم إن اللّه تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله: (إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ)، ووجهه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة، لأن الرسول يرسل أولا ويدعو إلى اللّه، ثم إن توقف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلا، فاللّه إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين، فقال: أنا الساعة رسول، وأما الآية فاللّه إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها، وهذا لأن ما هو من ضرورات الشيء إذا خلق اللّه الشيء لا بد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق اللّه إنسانا إلا ويكون قد خلق مكانا أو يخلقه معه، لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك، فاللّه إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة، ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة

فإن قيل: علم رسالتهم، نقول: من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى، فتبين بطلان قولهم لـمَ لم ينزل عليه آية؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست شرطا حتى تسبقها . بلى إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا: يا أيها المدعي نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين اللّه لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي ونعلم بها كونك نبيا ونؤمن بك، فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة اللّه أن ينزل آية »

هـذا، ولكنـه لا يثبت على هذا القـول، بل يرى ضرورة أن تكـون للنبي معجزة، وأن لا أحد يعرف النبـوة إلا بمعجـزة، فحتـى النبي نفســه بحاجة إليهـا في معرفــة الملك، وكــذلك الملك الـذي يتلقى الوحـي مـن اللّـه تعالـى...، يُنظر تفسيره لقول اللّه تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّه)، وتفسيره لقوله تعالى: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى...)، وقد نقلناهما في القسم السابق من هذه المذكرات

ويقرب من هذا في الغرابة ما صدر عن قلم السيد الطباطبائي في تفسير قول اللّه عز وجل (النحل: ٤٤): (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)، إذ قال: « **وفـي الآيـة دلالـة على حجيـة قـول النبـي صلى الله عليه وآله وسـلم في بيـان الآيـات القرآنية** ... »

ولا يخفى أن تعريض الكلمات مني

وعلى أي حال فقد قال جلال الدين البلخي (المثنوي: دفتر٦، الأبيات ١١٧٦ـ ١١٧٧):

موجب ايمان نباشد معجزات   بوى جنسيت كند جذب صفات

معجزات از بهر قهر دشمن است   بوى جنسيت پي دل بردن است

المعاجز لا توجب الإيمان . رائحة التجانس تجذب الصفات . المعاجز لقهر العدو . رائحة التجانس لجذب القلوب ...

وشرح الشيخ محمد تقي جعفري البيتين في (تفسير ونقد ... مثنوى: ٤٥٠/١٣) ـ بما ترجمته ـ : « يقول: المعاجز التي أتى بها الأنبياء ليست العامل المباشر والسبب التام للإيمان وتذوق طعمه المعنوي ... »، *ولا يخفى على الملم باللغة الفارسية عدم دقة الشرح ...*

وفـي تفسـير صـدر المتألهين (٣٦٥/٣): « ...، وحاشا المؤمن المتيقّن أن يكون بناء إيمانه ويقينه على رؤية المعجزة الفعليّة من الرسول . بل بناء ذلك على البرهان العقلي، أو الشهود الباطني الذي لا يعتريه وصمة شكّ وشوب ريب . وأمّا انفلاق البحر وغيره فممّا للشبهة فيه مجال ـ كما لا يخفى على أهل البحث ـ »

وأيضا في تفسير صدر المتألهين (٣٧٦/٣ـ ٣٧٨): « تبصرة: بماذا نعرف الرسول؟

اعلم أنّ طريق الإيمان باللّه ورسله وآياته عند العرفاء وأرباب اليقين ليس مما يحصل بالنظر في المعجزة وخرق العادة الواقع من الرسل »

إلى أن قال: « وأمّا طريق النظر في المعجزة فذلك مما يتطرّق إليه التباس كثير، فلا يوثق

به كلّ الوثوق بل من بنى إيمانه على قلب العصا ثعبانا يكفر بخوار عجل السامري، فإنّ التعارض في عالم الحسّ والشهادة كثير جدا، والعالم الذي هو عالم العصمة والطهارة عن الخبط والغلط، هو عالم القلب، وأمّا عالم البدن فالخطأ والالتباس فيه كثير »

إلى أن قال: « وأمّا العرفاء الإلهيون فهم يعرفون أهل الحقّ بالحقّ كما قاله أمير المؤمنين وإمام العارفين عليه السلام: (لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله)

فكانت معرفة العارفين المحقّقين بصدق النبي صلّى اللّه عليه وآله ضروريّة، كمعرفتك إذا رأيت رجلا عربيّا يدّعي الفقه ويناظر في مسألة من مسائل الفقه، ويحسن في البحث عنه، ويأتي بالفقه الصحيح الصريح، فإنّك لا تتمارى في أنّه فقيه، ويقينك الحاصل بفقهه من مناظرته أوضح من اليقين الحاصل به لو قلّب ألف عصا ثعبانا، لأنّ ذلك يتطرّق فيه احتمال السحر والطلسم والتلبيس بغيره، ويحصل به إيمان ضعيف هو إيمان العوام والمتكلّمين، فأما إيمان الناظرين من مشكوة الملكوت، فلا يتطرّق إليه تلك الاحتمالات ...

وهذا أوضح من الاعتقاد الذي يحصل من النصّ أو بالمعجزة، فإنّ ثلاثة أنفس لو ادّعوا عندك أنّهم يحفظون القرآن، فقلت: (ما برهانكم)؟ فقال أحدهم: إنّه نصّ عليّ الكسائي أستاذ المقرئين، أو نصّ على أستاذي فلان، وأستاذي نصّ عليّ، فكأنّ الكسائي نصّ عليّ، وقال الثاني: برهاني أنّي أقلّب العصا حيّة ـ وقد قلّب العصا حيّة ـ، وقال الثالث: برهاني أن أقرأ القرآن بين يديك من غير مصحف ـ وقرأ ـ، فليت شعري أيّ هذه البراهين أوضح؟ وقلبك بأيّها أشدّ تصديقا؟ لا شكّ أنّك بالذي قرأ القرآن، فهو غاية البرهان، وبه يحصل غاية الإيمان إذ لا يخالج فيه ريب

أمّا نصّ أستاذه عليه، ونصّ الكسائي على أستاذه، فيتصوّر أن يقع فيه أغاليط، سيما عند طول الأزمنة وبعد الأسفار . وأمّا قلب العصا حيّة فلعلّ ذلك لحيلة وشعبذة، وإن لم يكن كذلك فغايته أنّه فعل أمرا عجيبا، ومن أين يلزم أنّ من قدر على فعل عجيب ينبغي أن يكون حافظا للقرآن؟! »

أقول: إنه أخذه بألفاظه عن الغزالي، يُنظر (القسطاس المستقيم ص٥٨، ط١٩٩٣م، المكتبة العلمية، دمشق) ...، ويبدو أن الفيض الكاشاني هو الآخر أخذه عن الغزالي في قوله (المحجة: ٣٩٦/٧): « فكلّ من آمن بالنظر إلى ثعبان فيكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل لأنّ كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضادّ في عالم الشهادة كثير، وأمّا عالم الملكوت فهو من عند اللّه

تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتناقضا أصلا »

---

(٩٠) تكرر ويتكرر في هذه الأوراق أن (الحاجة) هي الأساس في التدين، والمفروض أن لا يخفى هذا على أحد، ويجد المرء في مقالات المفكرين ما يشير إليه ولكن لا للبناء عليه، فمثلا قد أشار إليه السيد الطباطبائي في موارد من تفسيره الميزان، منها في ج١ ص٥٠ حيث قال ـ للرد على إشكال... ـ: « وهؤلاء ـ أي المستشكلون ـ محجوجون بما تعترف به نفوسهم اعترافا اضطراريا في أفعال الحياة الاختيارية وغيرها فإنهم يتحركون إلى الغذاء والماء عند إحساس ألم الجوع والعطش، وكذا إلى كل مطلوب عند طلبه لا عند تصوره الخالي، ويهربون عن كل محذور مهروب عنه عند العلم بوجوده لا عند مجرد تصوره، وبالجملة كل حاجة نفسانية ألهمتها إليهم إحساساتهم أوجدوا حركة خارجية لرفعها ولكنهم عند تصور تلك الحاجة من غير حاجة الطبيعة إليها لا يتحركون نحو رفعها »

ومنها في ج١٥ ص٢١٠ حيث قال: « فقوله: (كذلك لنثبت به فؤادك) بيان تام لسبب تنزيل القرآن نجوما متفرقة وبيان ذلك أن تعليم علم من العلوم وخاصة ما كان منها مرتبطا بالعمل بإلقاء المعلم مسائله واحدة بعد واحدة إلى المتعلم حتى تتم فصوله وأبوابه إنما يفيد حصولا ما لصور مسائله عند المتعلم وكونها مذخورة بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس الحاجة إليها، وأما استقرارها في النفس بحيث تنمو النفس عليها وتترتب عليها آثارها المطلوبة منها فيحتاج إلى مسيس الحاجة والإشراف على العمل وحضور وقته ...، ومن هنا يظهر أن إلقاء أي نظرة علمية عند مسيس الحاجة وحضور وقت العمل إلى من يراد تعليمه وتربيته أثبت في النفس وأوقع في القلب وأشد استقرارا وأكمل رسوخا في الذهن وخاصة في المعارف التي تهدي إليها الفطرة فإن الفطرة إنما تستعد للقبول وتتهيأ للإذعان إذا أحست بالحاجة »

وقال جلال الدين البلخي (المثنوي: دفتر٣، الأبيات: ٣٢٠٧، ٣٢٠٨ـ ٣٢١٥، ٣٢١٩):

حق تعالى گر سماوات آفريد	از براى دفع حاجات آفريد
هر كجا دردى دوا آنجا رود	هر كجا فقرى نوا آنجا رود
هر كجا مشكل جواب آنجا رود	هر كجا كشتى است آب آنجا رود
آب كم جو تشنگى آور بدست	تا بجوشد آب از بالا وپست

تـــا نزايد طفلك نـازك گلو — كى روان گردد ز پستـان شير او

رو بدين بـالا وپستيهـا بـدو — تـا شوى تشنه و حرارت را گرو

بعـد ازآن از بـانگ زنبور هوا — بانگ آب جو بنوشى اى كيـا

تا (سقاهم ربهم) آيد خطـاب — تشنـه بـاش اللّه أعلم بالصواب

ترجمـة الأبيات بشـيء من تصـرف غير مخـل: خلق اللّه السماوات والأرض للحاجة. أينما كان الألم وُجّه الدواء إليه، وأينما كان الفقر ذهبت الصدقة إليه . أينما كان المشكل هدف إليه الجواب...، قلل البحث عن الماء (لا تركز عليه) واطلب العطش فيتفجر الماء من كل جانب. لن يسيل الحليب من ثدي المرأة مـا لم تلد طفلا . اذهب واركض هبوطا وصعودا لتجد حرارة العطش، فهنالك تجد صوت الماء في دوي النحل . لتخاطَب بـ(سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ) كن عطشانا

---

(٩١) ذكرهم ـ مثلا ـ السيد الخوئي في كتابه (البيان: ص١٠٤) وعبر عنهم ببعض الجهلاء والمموهين على البسطاء....

وكمثال أيضا ذكرهم الشيخ مرتضى المطهري في كتاب فارسي باسم (وحى و نبوت: ص٧٣) معبرا عنهم بالمتنورين المتأثرين بالنصارى والمستشرقين، وسمى بعضهم وهو بصدد نقل أقوالهم لتفنيدها

---

(٩٢) نقل السيد كاظم الحائري في (مباحث الأصول: ج١ من القسم الثاني، ص٥١١) عن السيد محمد باقر الصدر أنه بعدما أشار إلى وجه لإثبات النبوة بالمعجزة قال: «الوجه الثاني: أن يستقرأ بحسب التاريخ والزمان الحاضر المجتمعات المختلفة الكثيرة لتحصيل القطع بالتجربة على أنه لا ينبغ أحد في مجتمع ما ولا يفوق ذاك المجتمع في الفهم والذكاء إلا بنسبة خاصة وتحت مستوى معين من الفرق، ثمّ يلاحظ المجتمع الذي نبغ فيه النبي (ص)، ويُرى ما جاء به من أحكام وأفكار في شتى الميادين، ويلاحظ أنها تفوق بدرجات كثيرة على أعلى درجات الذكاء الممكن لنابغة ينبغ في ذاك المجتمع بحسب الطبع البشري ـ وإن كان من المحتمل علو ذكائه إلى حدّ تلك الأحكام والأفكار بلحاظ نبوته ـ فيثبت بذلك أن تلك الأحكام والأفكار ليست له إن هي إلا وحي يوحى علمه شديد القوى

هذا أساس لبرهان صحيح على النبوّة يؤثر في النفوس أكثر وأشدّ من تأثير البرهان الكلامي المعروف، ثبّتناه هنا بأمل أن يوفق اللّه تعالى بعد هذا شخصا لبيان إثبات النبوّة على هذا الأساس مع ما يحتاج إليه من مزيد تتبع وتنقيح

الوجه الثالث: ملاحظة أحوال الرسول (ص)، وأمانته، وصدق لهجته، وخلقه العظيم، واستقامته في أمره وصموده أمام المحن والمصائب التي كانت تكفي لرفع يد الكاذب عن كذبه وعلو همته بدرجة لو وضعت الشمس في يمينه والقمر في يساره وجعل سلطانا على وجه الأرض لما رفع اليد عن دعوته، فلا يعقل أن تكون دعوته استطراقا إلى كسب المال والجاه وما أشبه ذلك . فمن لاحظ كل هذا وما إليه حصل له القطع ـ إذا كان سليما في فطرته وعقله ـ بنبوته (صلى اللّه عليه وآله) »

ويُنظر أيضا ما ذكره في مقدمة كتابه (الفتاوى الواضحة)

---

(٩٣) في تفسير الميزان (١/٦٠): « فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللاجتماعي في اجتماعه، وللمقننين في تقنينهم وللسياسيين في سياستهم وللحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعا كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم، والبيان

ومن هنا يظهر أن القرآن يدعي عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازا لكل فرد من الإنس والجن من عامة أو خاصة أو عالم أو جاهل أو رجل أو امرأة أو فاضل بارع في فضله أو مفضول إذا كان ذا لب يشعر بالقول، فإن الإنسان مفطور على الشعور بالفضيلة وإدراك الزيادة والنقيصة فيها، فلكل إنسان أن يتأمل ما يعرفه من الفضيلة في نفسه أو في غيره من أهله ثم يقيس ما أدركه منها إلى ما يشتمل عليه القرآن فيقضي بالحق والنصفة، فهل يتأتى القوة البشرية أن يختلق معارف إلهية مبرهنة تقابل ما أتى به القرآن وتماثله في الحقيقة؟ وهل يمكنها أن تأتي بأخلاق مبنية على أساس الحقائق تعادل ما أتى به القرآن في الصفاء والفضيلة؟ ... »

---

(٩٤) قال السيد أبو القاسم الخوئي في كتابه (البيان... ص٣٥): « وهو ـ أي المعجز ـ في الاصطلاح أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة ويعجز

عنه غيره، شاهدا على صدق دعواه »

---

(٩٥) قال سعد الدين التفتازاني في كتابه (شرح المقاصد: ٥/١١): « المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي وعدم المعارضة ... »

وهو عين ما قاله الرازي في كتابه (المحصل)، وأيده في ذلك الخواجة نصير في تلخيص المحصل وفسر (التحدي) بقوله: « قال صاحب الصحاح: تحديت فلانا: إذا ماريته في فعل ونازعته للغلبة »

وفي (قواعد العقائد) ـ المطبوعة مع تلخيص المحصل، ص٤٥٥، ط٢، دار الأضواء، بيروت ـ قال الخواجة نصير الدين الطوسي: «والمعجز هو فعل خارق للعادة يعجز عن أمثاله البشر. والتحدّي هو أن يقول لأمّته: إن لم تقبلوا قولي فافعلوا مثل هذا الفعل. والفعل الذي يظهر على أحد من غير تحدّ يسمّى بالكرامة، ويختصّ بالأولياء عند من يعترف به»

---

(٩٦) في تفسير الميزان (١/٦٣): « وقد تحدى بالنبي الأمي الذي جاء بالقرآن المعجز في لفظه ومعناه، ولم يتعلم عند معلم ولم يترب عند مرب بقوله تعالى: (قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) ...، فقد كان (ص) بينهم وهو أحدهم لا يتسامى في فضل ولا ينطق بعلم حتى لم يأت بشيء من شعر أو نثر نحوا من أربعين سنة وهو ثلثا عمره لا يحوز تقدما ولا يرد عظيمة من عظائم المعالي ثم أتى بما أتى به دفعة فأتى بما عجزت عنه فحولهم وكلت دونه ألسنة بلغائهم، ثم بثه في أقطار الأرض فلم يجترئ على معارضته معارض من عالم أو فاضل أو ذي لب وفطانة. وغاية ما أخذوه عليه أنه سافر إلى الشام للتجارة فتعلم هذه القصص ممن هناك من الرهبان ... »

وأيضا قال في تفسير قوله تعالى (النحل: ٤٤): (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ): « ...، وإنما اخترناك لتوجيه الخطاب وإلقاء القول، لا لنحملك قدرة غيبية وإرادة تكوينية إلهية فنجعلك مسيطرا عليهم وعلى كل شيء، بل لأمرين:

أحدهما: ...

والثاني: رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصروا أن ما جئت به حق من عند الله فإن الأوضاع

المحيطة بك والحوادث والأحوال الواردة عليك في مدى حياتك من اليتم وخمود الذكر والحرمان من التعلم والكتابة وفقدان مرب صالح والفقر والاحتباس بين قوم جهلة أخساء صفر الأيدي من مزايا المدنية وفضائل الإنسانية كانت جميعا أسبابا قاطعة أن لا تذوق من عين الكمال قطرة، ولا تقبض من عرى السعادة على مسكة، لكن اللّه سبحانه أنزل إليك ذكرا تتحدى به الجن والإنس مهيمنا على سائر الكتب السماوية تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبرهانا ونورا مبينا

فالتفكر فيك نعم الدليل الهادي إلى أن ليس لك فيما جئت به صنع ولا لك من الأمر شيء وأن اللّه أنزله بعلمه وأيدك لذلك بقدرته من غير أن يداخله من الأسباب العادية شيء »

---

(٩٧) في القسم السابق من هذه المذكرات، وستأتي إشارات إليه في القسم التالي

---

(٩٨) مقصودنا من (الإيمان) ليس (التصديق)، بل إعطاء المرء الأمن لنفسه ...، كما فُصل في القسم السابق تحت عنوان (**معنى الايمان**)

---

(٩٩) في الفتوحات المكية (٣٠٨/٤): « وإنما يعرف قدره ـ أي قدر الأمان ـ من ورد عليه وهو في حال خوف فيجد طعمه لوروده »

وقال جلال الدين البلخي (المثنوي: دفتر٥، الأبيات: ١٣٤ـ ١٣٦)

....	تا نگريد طفل كى جوشد لبن
طفل يكروزه همى داند طريق	كه بگريم تا رسد دايه شفيق
تو نمى دانى كه دايه دايگان	كم دهد بى گريه شير او رايگان

إن لم يبك الطفل لن يفور الحليب (في ثدي أمه). الطفل الذي عمره يوم واحد يعرف أن عليّ أن أبكي لتأتيني المربية، وأنت لا تدري أن رب الأرباب قلما يعطي حليبا بالمجان

---

(١٠٠) قال الرازي في كتابه (المحصل ص٤٩١، دار التراث، القاهرة، ط١): « الطريق الثاني في

إثبات نبوته عليه السلام: الاستدلال بأخلاقه وأفعاله وأحكامه وسيره، فإن كل واحد منها وإن كان لا يدل على النبوة لكن مجموعها مما يعلم قطعا أنه لا يحصل إلا للأنبياء، وهذه طريقة اختارها الجاحظ وارتضاها الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) »

ثم أورد في ص٥٠١ إشكالا عليه فقال: « أمّا الدليل الثاني، ... فضعيف، لأنّ غاية ما في الباب أنّه يدلّ على كون ذلك الإنسان متميزا عن سائر الناس بمزيد الفضيلة، ولكن من أين يدلّ على النبوّة، وكيف وقد حكي عن أفاضل الحكماء في الأخلاق أمور عجيبة يجعلها الناس قدوة لأنفسهم في الدنيا والآخرة، مع ما بقي عنهم من العلوم الدقيقة؟ »

ويبدو أن الخواجة نصير الدين الطوسي اعتمد هذا الدليل حيث قال في (تلخيص المحصل ص٣٥١): « والاستدلال بالأفعال والأقوال أيضا قوي وهو معنى قوله: ويتلوه شاهد منه، فإن ذلك يشهد على صدقه في دعواه، وهو صادر منه »

وقال الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (رسائل ومقالات ص٣٩): « ...، فلا بد في تمييز النبي عن المتنبئ من معايير وضوابط تكون هي الفصل في القضاء بالحق، وهي إحدى الأمور الثلاثة التالية:

١ـ التحدي بالإعجاز ...

٢ـ تنصيص النبي السابق على نبوة النبي اللاحق ...

٣ـ جمع القرائن والشواهد

إن جمع القرائن والشواهد ضابطة مطردة في المحاكم الوضعية تتخذها القضاة في إصدار أحكامهم، ويستند إليها المحامون في إبراء موكليهم، فبجمع تلك القرائن والشواهد يمكن أن نستعلم صحة دعوى المدعي أو إنكار المنكر . فعلى ضوء ذلك فللباحث أن يتحرى القرائن المكتنفة بدعوى النبوة حتى يقطع عنها بصدق الدعوى أو كذبها، وهذه القرائن تتلخص في الأمور التالية:

أ ـ سيرة المدعي قبل الدعوة

ب ـ سمات بيئته

ج ـ مضمون الدعوة

د ـ ثباته في طريق الدعوة

هـ ـ الأدوات التي يستخدمها في نشر دعوته

و ـ المؤمنون الملتفون حوله

ز ـ مكانة أتباعه في الورع والتقوى والعلم والوعي

هذه القرائن وأشباهها ترشدنا إلى أحد الأمرين: إما أنه نبي صادق أو متنبئ كاذب »

وقد فصل هذا الذي ذكره هنا في كتاب (محاضرات في الإلهيات ص٢٦٦- ٢٦٨)

---

(١٠١) سورة يونس: ١٦ . يُنظر فصل **(الإثبات يلازم الإبطال)** في القسم السابق

---

(١٠٢) سوف تأتي بعد قليل الإشارة إلى هذا

---

(١٠٣) قال جلال الدين البلخي (المثنوي: دفتر٥، الأبيات: ٥٩٤- ٥٩٦):

چون نديد او عمر عبد العزيز ... پيش او عادل بود حجاج نيز

چون نديد او مار موسى را ثبات ... در حبال السحر پندارد حيات

مرغ كو ناخورده است آب زلال ... اندر آب شور دارد پر و بال

جز به ضد ضد را همى نتوان شناخت ... چون ببيند زخم بشناسد نواخت

حيث لم يرَ عمر بن عبد العزيز فهو يرى الحجاج أيضا عادلا. حيث لم يرَ (حية) موسى فهو يتصور أن في حبال السحرة حياة . الطير الذي لم يشرب ماء زُلالا يأنس بالماء المالح . لا يمكن معرفة الضد إلا بالضد، فإن من جرب الجرح عرف اللطف

---

(١٠٤) قال السيد محسن الخرازي في كتابه (بداية المعارف...: ٢٤٦/١): « إن الوظيفة في الموارد التي شك في إعجازيتها ـ أي المعجزة ـ هو التفحص عن حالها والرجوع إلى القرائن والشواهد دفعا للضرر . ربما يقال في مثل هذه الموارد: ينظر إلى مدعي المعجزة هل يدعو إلى الحق أو الباطل أو إن كلماته تخالف مسلمات الأديان أو واضحات العقول أم لا ولكنه

لايخلو عن النظر، إذ من الممكن أن يدعو إلى الحق ولا يخالف قوله مع مسلمات الأديان وواضحات العقول، ومع ذلك لا يكون في دعواه صادقا . نعم لو كان قوله مخالفا لواضحات العقول ومسلمات الأديان كان ذلك من أوضح الشواهد على كذبه، ثم بناء على لزوم الرجوع إلى القرائن والشواهد فإن ظهر الصدق فهو **وإلا فلا تكليف، لعدم قيام الحجة عليه »**

ولا يخفى أن تعريض بعض الكلمات مني

ويُنظر في الكتب الكلامية مشكلة (إفحام الأنبياء)، وقد تقدمت في القسم السابق: فصل **(الكفر بالإيمان)**

---

(١٠٥) قال اللّه تعالى (الكهف: ٢٨): (وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

---

(١٠٦) أقصد بالإيقان الرغبة في اليقين والعمل بما يرسخه في القلب...، كما تقدم في القسم السابق بعنوان (اليقين والإيقان)، ويأتي توضيحه في قسم لاحق إن شاء اللّه تعالى

---

(١٠٧) سيأتي إن شاء اللّه كلام عن هذا في القسم التالي بعنوان **(استخدام العقل)**

---

(١٠٨) قال اللّه تعالى (الكهف: ٢٨): (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

وقال تعالى (البقرة: ٤٣): (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

وقال (آل عمران: ٥٣): (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)

وقال (آل عمران: ١٩٣): (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ)

وقال (المائدة: ٨٤): (وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) إلخ

(١٠٩) في الكافي (٢١٣/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « ...، فإن اللّه عز وجل إذا أراد بعبد خيرا طيّب روحه فلا يسمع بمعروف إلا عرفه، ولا بمنكر إلا أنكره ... »

وقد يستفاد ذلك أيضا من قوله تبارك وتعالى (الأعراف: ١٥٧): (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...) على أن يكون المراد بـ(المعروف) ما تعرفه النفوس بفطرتها فتنجذب إليه وإلى الآمر به، وبـ(المنكر) ما تنكره النفوس بفطرتها فتهوي إلى من ينهى عنه...، لا ما ذهب إليه السيد الطباطبائي ـ مثلا ـ حيث اعتبر أمر النبي (ص) لأهل الكتاب بالمعروف ونهيهم عن المنكر، و... « من أمارات النبوة الخاتمية وآياتها المذكورة لهم في التوراة والإنجيل » ...

ويؤيد ما استشعرناه من الآية الكريمة ما في الكافي (٨٥/١) عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: « اعرفوا اللّه باللّه، والرسول بالرسالة، وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان » ...

---

(١١٠) مما يرشد إلى هذا قوله تعالى (الحديد: ٨): (وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) حيث يبدو أن معنى (إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) هو (إن كنتم طالبي الأمن)، بشرح تقدم في القسم السابق وتأتي الإشارة إليه في القسم اللاحق، ومن الواضح أنه لا إيمان ـ بمعنى طلب الأمن ووجدانه ـ إلا بوجود الخوف والقلق ...

هذا، وفي تفسير الرازي: « (...) ...

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى وبخ على ترك الإيمان بشرطين أحدهما: أن يدعو الرسول، والمراد أنه يتلو عليهم القرآن المشتمل على الدلائل الواضحة . الثاني: أنه أخذ الميثاق عليهم، وذكروا في أخذ الميثاق وجهين: الأول: ما نصب في العقول من الدلائل الموجبة لقبول دعوة الرسل، واعلم أن تلك الدلائل كما اقتضت وجوب القبول فهي أوكد من الحلف واليمين، فلذلك سماه ميثاقا

وحاصل الأمر أنه تطابقت دلائل النقل والعقل، أما النقل فبقوله: (وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ)، وأما العقل فبقوله: (وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ)، ومتى اجتمع هذان النوعان فقد بلغ الأمر إلى حيث تمتنع الزيادة عليه

واحتج بهذه الآية من زعم أن معرفة اللّه تعالى لا تجب إلا بالسمع، قال: لأنه تعالى إنما ذمهم بناء على أن الرسول يدعوهم، فعلمنا أن استحقاق الذم لا يحصل إلا عند دعوة الرسول

الوجه الثاني في تفسير أخذ الميثاق: قال عطاء ومجاهد والكلبي والمقاتلان: يريد حين أخرجهم من ظهر آدم، وقال: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلَى) . وهذا ضعيف، وذلك لأنه تعالى إنما ذكر أخذ الميثاق ليكون ذلك سببا في أنه لم يبق لهم عذر في ترك الإيمان بعد ذلك

وأخذ الميثاق وقت إخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلا بقول الرسول، فقبل معرفة صدق الرسول لا يكون ذلك سببا في وجوب تصديق الرسول، أما نصب الدلائل والبينات فمعلوم لكل أحد، فذلك يكون سببا لوجوب الإيمان بالرسول، فعلمنا أن تفسير الآية بهذا المعنى غير جائز »

أقول: الميثاق المأخوذ تكويني موجود بواقعه في نفس الإنسان، فلا يضر أن لا يكون معلوما له حاضرا في ذهنه ما دامت تستيقنه نفسه ...

وفي تفسير الميزان: « قوله تعالى: (...) المراد بالإيمان الإيمان بحيث يترتب عليه آثاره ومنها الإنفاق في سبيل اللّه، وإن شئت فقل: المراد ترتيب آثار ما عندهم من الإيمان عليه...

وقوله: (وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) تأكيد للتوبيخ المفهوم من أول الآية، وضمير (أَخَذَ) للّه سبحانه أو للرسول، وعلى أي حال المراد بالميثاق المأخوذ هو الذي تدل عليه شهادتهم على وحدانية اللّه ورسالة رسوله يوم آمنوا به صلى اللّه عليه وآله من أنهم على السمع والطاعة

وقيل: المراد بالميثاق هو الميثاق المأخوذ منهم في الذر، وعلى هذا فضمير (أَخَذَ) للّه سبحانه، وفيه أنه بعيد عن سياق الاحتجاج عليهم فإنهم غافلون عنه، على أن أخذ الميثاق في الذر لا يختص بالمؤمنين بل يعم المنافقين والكفار »

أضيفُ إلى ما تقدم آنفا من التعليق على كلام الرازي أن قوله تعالى: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ليس شرطا لـ(أخذ الميثاق)، بل هو شرط لقوله: (وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...) على أن يكون المقصود بـ(الإيمان) في قوله: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الحركة الإيمانية الفطرية كما في قول اللّه تعالى (النساء: ١٣٦): *(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...)، والتي قد فُصّل الكلام عنها في القسم السابق من هذه المذكرات، خاصة في فصل* ***(الكفر بالإيمان)***

هذا، وقد سطّر صدر المتألهين في تفسيره للآية ما قد يلمح إلى ما أشرنا إليه ولكنه ذكره استطرادا، لا ليبني على مؤداها، قال: « قوله عز وجل:... (...)...، حاصله: وما تصنعون كفارا باللّه مع وضوح البراهين على وحدانيته والحال إن الرسول يدعوكم للإيمان بقواطع الحجج والبينات ويتلو عليكم الكتاب الناطق والآيات المبينات؟ ففي الكلام حالان متداخلان

وقرئ: (وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ)، أي وأي عذر لكم في ترككم الاعتقاد بوحدانية المعبود وما أتى به النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، وقد أقيمت البراهين على ما تؤمرون به سمعا وعقلا؟ أما الأول: فلأن الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم، والعقل السليم عن الأمراض والآفات النفسانية مجبول على الاعتقاد بصدق قوله بما أظهره اللّه على يده من المعجزات التي هي خارجة عن طوق البشر، وأما الثاني فلنهوض البراهين القاطعة الدالة على الإيمان باللّه والرسول، وكون الغريزة الإنسانية مرتكزة فيها التصديق بحقائق الإيمان مفطورة عليها، كما أشار إليه بقوله تعالى: وقد أخذ ميثاقكم

والحاصل إنه أيّ عذر لكم في ترك الإيمان بعد ما أزيحت عنكم العلل، وأوضحت لكم السبل، بما ركب فيكم من غرائز العقول، ونصب لكم من دعوة الرسول المؤيدة بالدلائل والآيات التي ينبه لكم بها على الإيمان بمن هو ربكم، دون من هو مربوب مثلكم؟ إن كنتم مؤمنين، أي: ممن يهمّكم التصديق بما يقوم البرهان الواضح على صحته، فقد قام ذلك عقلا وسمعا وهما فطرة العقول ودعوة الرسول؟

هذا إذا جعل خطابا للمشركين، فإن جُعل خطابا للمؤمنين فمعناه: أيّ سبب يزيلكم عن الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى الثبات عليه، وقد أخذ هو عليه ميثاقكم إن كنتم مؤمنين موقنين بشرائط الإيمان؟ وهو كقوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)، وعلى التأويل الأول أخذ الميثاق من اللّه على عباده هو ميثاق الخلقة، وقيل هو أخذ ميثاق الذرية

مكاشفة: يحتمل أن يكون معنى قوله تعالى: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ): إن كنتم ممن يتمشّى منه المعرفة والإيقان، لا من الذين انحطت درجتهم عن هذا وقيل فيهم: أولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا، ولا من الذين طبع على قلوبهم فهم لايفقهون، فالبراهين والدلائل العقلية والسمعية ليست نافعة في حق الأشقياء الناقصين بحسب الفطرة لامتناع قبولهم للهداية لعدم استعدادهم

رأسا ولا لأهل الجحود والإنكار لزوال استعدادهم ومسخهم وطمسهم بالكلية لفساد اعتقادهم فهم أهل الخلود في النار إلا ما شاء اللّه

فالخطاب في هذه الآية إما لأهل الفضل والثواب سواء كانوا من المقربين والسابقين أو من أصحاب اليمين على تفاوت طبقاتهم، أو كانوا من أهل الرحمة الباقين على سلامة نفوسهم وصفاء قلوبهم المتبوئين درجات الجنة على حسب استعداداتهم من فضل ربهم لا على حسب كمالاتهم من ميراث عملهم، أو كانوا من أهل العفو الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيّئا، سواء كان العفو عنهم لقوة اعتقادهم وعدم رسوخ سيئاتهم، أو لمكان توبتهم عنها وإنابتهم إلى اللّه، فأولئك يبدل اللّه سيئاتهم حسنات، أو لأجل نجاتهم من الجحيم بعد أن زال عنهم درن ما كسبوا من السيئات كالسبيكة من الذهب التي تخرج عن النار خالصة، وهم أهل العدل والعقاب، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيّئات ما كسبوا لكن الرحمة الإلهية تتداركهم وتنالهم بالآخرة »

وفي التفسير الأمثل ج١٨ ص٢٧: « وبعد الأمر بالإيمان والإنفاق يعطي بيانا لكلّ منهما، وهو بمثابة الاستدلال والبرهان، وذلك بصورة استفهام توبيخي ابتداء، حيث يستفسر عن علّة عدم قبول دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم حول الإيمان باللّه فيقول سبحانه: (...)

يعني أنّكم إذا كنتم مستعدّين حقيقة وصدقا لقبول الحقّ، فإنّ دلائله واضحة عن طريق الفطرة والعقل، وكذلك عن طريق النقل

وهذا رسول اللّه قد أتى لكم بدلائل واضحة وآيات ومعجزات باهرة، وهذه آثار اللّه سبحانه في عالم الخلق وفي أنفسكم وقد أخذ نوعا (كذا) من العهد التكويني منكم، فآمنوا به، إلا أنّكم ـ مع الأسف (كذا) ـ لا تقيمون وزنا لعقلكم وفطرتكم، وكذلك لا تعيرون اهتماما لتوجيهات الوحي، ويبدو (كذا) أنّكم غير مستعدّين ومهيّئين للإيمان أصلا، وقد غلب الجهل والتعصّب والتقليد الأعمى على أفكاركم ونفوسكم

ويتوضّح ممّا قلناه أنّ المقصود من جملة إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هو أنّكم إذا كنتم مستعدّين للإيمان بشيء وتقبلون أدلّته فهذا هو محلّه، لأنّ دلائله واضحة من كلّ جهة

والنقطة الجديرة بالملاحظة هنا هي معرفة السبب الذي يمنع هؤلاء الذين شاهدوا الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم وسمعوا دعوته مباشرة وبلا واسطة، وشاهدوا معجزاته بأعينهم، من الإيمان بدعوته

في هذا الصدد نقرأ الحديث التالي: أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قال لأصحابه يوما: (أيّ المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟) قالوا: الملائكة. قال: (وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربّهم؟) قالوا: الأنبياء. . . قال: (وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟) قالوا: نحن. قال: (وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بها)

وهذه حقيقة لا غبار عليها، وهي أنّ الأشخاص الذين يطلّون على عالم الوجود بعد سنوات طويلة من رحلة الرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ويشاهدون آثاره في الكتب ـ فقط ـ ويؤمنون بأحقيّة دعوته، فإنّ لهم ميزة كبيرة على الآخرين

إنّ التعبير بـ(الميثاق) يمكن أن يكون إشارة إلى الفطرة التوحيدية أو الدلائل العقلية التي بمعرفتها يتبيّن للإنسان (نظام الخلقة)، وعبارة (بربّكم) إشارة إلى التدبير الإلهي في عالم الخلقة، وهو شاهد على هذا المعنى أيضا »

هذا، والحديث الذي نقله عن النبي صلى اللّه عليه وآله رواه في (الدر المنثور) بفارق في بعض الألفاظ، وسننقل أحاديث أخرى بهذا الصدد في تعليق على ما عنون بـ(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) ...

---

(١١١) مما ألاحظه أن ما هو موجود في قلبي دائم الحركة...، وذهني لا يستطيع أن يتصور إلا شيئا محددا ثابتا، فلو أراد أن يتصور الحق الموجود في القلب فعليه أن يحدده، فالصورة الذهنية للحق لا تكون حقا، ومثل الذهن في هذا مثل آلة التصوير التي تصور شيئا متحركا، فهي لن تستطيع تصويره إلا ساكنا ...

وقال ابن عربي في (الفتوحات: ٢٦٣/١): « ... فإن القلب معلوم بالتقليب في الأحوال دائما، فهو لا يبقى على حالة واحدة فكذلك التجليات الإلهية، فمن لم يشهد التجليات بقلبه ينكرها فإن العقل يقيد، وغيره من القوى، إلا القلب فإنه لا يتقيد وهو سريع التقلب في كل حال ... »

---

(١١٢) قال اللّه تعالى (يس: ١١): (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

وقال (طه: ٢ـ ٣): (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى)

---

(١١٣) قال اللّه تعالى (المدثر: ٥٢ـ ٥٣): (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً . كَلا بَل لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ)

---

(١١٤) قال اللّه عز وجل (المدثر: ٥٤ـ ٥٥): (كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ)

ولعل إلى هذا يشير ما في كتاب (البحار) ج٥ ص٣٠ (نقلا عن توحيد الصدوق) عن عبد الرحيم القصير أنه قال: كتبت على يدي عبد الملك بن أعين إلى أبي عبد اللّه عليه السلام: جعلت فداك اختلف الناس في أشياء قد كتبت بها إليك، فإن رأيت ـ جعلت فداك ـ أن تشرح لي جميع ما كتبت إليك:

اختلف الناس ـ جعلت فداك ـ بالعراق في المعرفة والجحود فأخبرني ـ جعلت فداك ـ : أهما مخلوقتان؟ ...

فكتب صلى اللّه عليه...: فاعلم رحمك اللّه أن المعرفة من صنع اللّه عز وجل في القلب مخلوقة، والجحود صنع اللّه في القلب مخلوق، وليس للعباد فيهما من صنع، ولهم فيهما الاختيار من الاكتساب، فبشهوتهم الإيمان اختاروا المعرفة فكانوا بذلك مؤمنين عارفين، وبشهوتهم الكفر اختاروا الجحود فكانوا بذلك كافرين جاحدين ضلالا، وذلك بتوفيق اللّه لهم وخذلان من خذله اللّه، فبالاختيار والاكتساب عاقبهم اللّه وأثابهم ... الخ

وفي الكافي (١٦٣/١) عن محمد بن حكيم أنه قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: المعرفة من صنع من هي؟ قال: من صنع اللّه، ليس للعباد فيها صنع

هذا، وقال ابن عربي في (الفتوحات المكية: ٢٧٥/٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٨): « ... لأن الشيء لا يعرف إلا نفسه، ولا يعرف شيئا إلا من نفسه ... »

وقال الغزالي في (الإحياء: ٤٣٤/٤، ط دار المعرفة، بيروت): « ... وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه ... »

---

(١١٥) لمزيد من الإيضاح أقول: أقصد بالمنطلق الاندفاع الذاتي الذي فطر اللّه ـ سبحانه ـ

عليه الإنسان تجاه أمور، منها النبوة، فلولا ذلك لن يهتم الإنسان بها ولن يتمكن من ذلك، فكان بعْث النبي لغوا، وتكليف الإنسان بالإيمان بها تكليفا بما لا يطاق ...، وهذا ما كثر ويكثر الكلام عنه في هذه الأوراق باعتباره الأساس لما أريد بناؤه فيها والانطلاق منها، في مقابل (المبدأ) المتكلف الذي أدى إلى الشبهة المعروفة باسم (إفحام الأنبياء) التي أشير إليها في القسم السابق في فصل (**الكفر بالإيمان**)

وأقصد بالمعيار المقياس العفوي الملازم لحركة الإنسان إلى النبوة، فإن النفس لا تندفع بفطرتها إلى جهة إلا أن تستحسنها...، واستحسانها لأمر يعني أنها تجده حقا، ولا تتقدم في الاندفاع إلا أن تجد ذلك صحيحا ...

وعلى أي حال ففي كتاب (المثنوي: دفتر٢، الأبيات: ٣٥٩٨ـ ٣٦٠٠):

....

در دل هر امتى كز حق مزه ست	روى و آواز پيمبر معجزه ست
چون پيمبر از برون بنگى زند	جان امت در درون سجده كند
زانكه جنس بانگ او اندر جهان	از كسى نشنيده باشد گوش جان

إن كان في قلب قوم ذوق الحق فكان شخص النبي وصوته معجزة لهم . إن سمعوا نداء النبي سجدت أرواحهم، إذ لم تسمع الروح نداءا مثله من أحد

وقال (جوزايا رويس) في (مصادر البصيرة الدينية ــ ترجمة الدكتور أحمد الأنصاري ــ ص٢٨): « يؤكد المؤمن أنه يعرف بالفعل وبصورة مسبقة العلامات الأساسية التي يتم بها تمييز الوحي الإلهي عن أي نوع من المعارف الأخرى ... »

فإن شئت ألا تجعل وحيا معينا يستمد صحته من وحي آخر أسبق منه، وهكذا إلى ما لا نهاية، فلابد من أن تفترض مسبقا أن هناك وحيا كائنا في مكان معين يستمد صحته وأصالته من داخلك ومن نورك الباطني ومن معرفتك الشخصية بطبيعة هذا الكائن وتمكنك من معرفته بوصفه أساسا لكل بصيرة دينية ...

... فقد اعترف بصحة هذه الملاحظة الذين يؤكدون أنه بدون إيمان لا يستطيع أي وحي خارجي أن يهدي من يعيشون في الظلام . فلا تكفي المعجزات لإثبات صحته، ولا تستطيع الدلالات والمعجزات أن تبين الإرادة الإلهية لمن لا يشعرون داخلهم بالنور وليس لديهم استعداد

لاستقباله . باختصار إذا كان هناك وجود لأي بصيرة دينية خارجية فإنها لا تأتي إلينا إلا إن كانت خبرتنا الشخصية تمثل أساسا لها... »، تقدم أن جوزايا... فيلسوف أمريكي معروف

---

(١١٦) في تفسير الميزان (١٥٢/٢): « ...

فإن قلت: فعلى هذا فما فائدة الفطرة فإنها لا تغني طائلا وإنما أمر السعادة بيد النبوة؟ وما فائدة بناء التشريع على أساس الفطرة على ما تدعيه النبوة

قلت: ... فإن السعادة والكمال الذي تجلبه النبوة إلى الإنسان ليس أمرا خارجا عن هذا النوع، ولا غريبا عن الفطرة فإن الفطرة هي التي تهتدي إليه لكن هذا الاهتداء لا يتم لها بالفعل وحدها من غير معين يعينها على ذلك، وهذا المعين الذي يعينها على ذلك وهو حقيقة النبوة ليس أيضا أمرا خارجا عن الإنسانية وكمالها، منضما إلى الإنسان كالحجر الموضوع في جنب الإنسان مثلا، وإلا كان ما يعود منه إلى الإنسان أمرا غير كماله وسعادته كالثقل الذي يضيفه الحجر إلى ثقل الإنسان في وزنه، بل هو أيضا كمال فطري للإنسان مذخور في هذا النوع، وهو شعور خاص وإدراك مخصوص مكمون في حقيقته لا يهتدي إليه بالفعل إلا آحاد من النوع أخذتهم العناية الالهية كما أن للبالغ من الإنسان شعورا خاصا بلذة النكاح، لا تهتدي إليه بالفعل بقية الأفراد غير البالغين بالفعل، وإن كان الجميع من البالغ وغير البالغ مشتركين في الفطرة الإنسانية، والشعور شعور مرتبط بالفطرة . وبالجملة لا حقيقة النبوة أمر زائد على إنسانية الإنسان الذي يسمى نبيا، وخارج عن فطرته، ولا السعادة التي تهتدي سائر الأمة إليها أمر خارج عن إنسانيتهم وفطرتهم، غريب عما يستأنسه وجودهم الإنساني، وإلا لم تكن كمالا وسعادة بالنسبة إليهم »

---

(١١٧) شرحا لما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (اعرفوا اللّه باللّه، والرسول بالرسالة...) جاء في البحار (٢٧٥/٣): « و ـ اعرفوا ـ الرسول بالرسالة، أي بما أرسل به من المعجزات والدلائل، أو بالشريعة المستقيمة التي بعث بها، فإنها لانطباقها على قانون العدل والحكمة يحكم العقل بحقية من أرسل بها ... »

هذا، وقد اقتصر الكليني (قدس سره) على شرح قوله: « اعرفوا اللّه باللّه »، وكذلك فعل صدر المتألهين في شرحه لأصول الكافي، ولم يتطرق إلى شرح بقية الرواية

وفي الأسفار الأربعة (٣٨/٧) استشهد بالرواية على رأيه بأن نور الحق لا ينال إلا بقوة من له الأمر والخلق

وفي هامش كتاب (الشواهد الربوبية ص٤٩٢) قال نحو ذلك واستشهد بكلام للبسطامي قائلا: « وعن أبي يزيد البسطامي قدس سره: (أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا حيا عن الحي الذي لا يموت) »

وفي هامش الأسفار شرح الحكيم السبزواري المقطع الأول من الرواية بقوله: « اعرفوا اللّه بنور وارد من عنده على قلوبكم، وتقربوا إليه حتى يصدق في حقكم قوله الحق: بي يبصر وبي يسمع »

وشرح المقطع الثاني بقوله: « أي بنبوة التعريف الحاصلة فيكم، فإن النبوة قسمان: نبوة التعريف ونبوة التشريع، والأولى هي الإنباء عن معرفة الذات والصفات والأسماء، والثانية جميع ذلك مع تبليغ الأحكام والتأديب بالأخلاق والقيام بالسياسة، وقد يخص هذا بالرسالة، ولو كان كذلك لكان المراد: الوراثة عن الرسول المتحققة في الكمل حتى أن الفقهاء مظاهره، وقد ورد (إن من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه)، بل قد روي: (إن للّه عبادا ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون)، وأنه (ص) قال: (إن في أمتي محدثين مكلمين) »

وشرح المقطع الثالث بقوله: « أي بصيرورتكم من الولاة، لا العارفين بمعنى العالمين بالحقائق فقط، بل المقتدرين المتصرفين أيضا ذوي الأوامر التكوينية التسخرية »

هذا، والرواية الأولى رواها الكافي (٦٠٤/٢)، ولكن فيها (من ختم القرآن فكأنما...)، لا (من حفظ القرآن فقد...)، وروى البحار (١٨٥/٧) قريبا من الرواية الثانية نقلا عن المحاسن، وأما الثالثة فيبدو أنها هي ما أورده الغزالي في الإحياء (٤٣/٨)، ولكن فيه (معلمين...)، قال: « وقد قال صلى اللّه عليه وسلم: إن من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين، وإن عمر منهم »

ومهما يكن مما قيل في شرح الرواية ففي مجموعة فارسية باسم (بيست گفتار ـ عشرون مقالا ص٥٧) قال الشيخ المطهري ـ ما ترجمته بشيء من تصرف غير مخل ـ : « لقد توسع الإسلام وأصبح عالميا بسرعة هائلة وفي مدة قصيرة جدا، لماذا؟ هل كان ذلك بسبب مجموعة من تشريعاته الأخلاقية البسيطة فقط؟

....، كان الإسلام داعيا إلى العدل، والحق، والحرية، والمساواة، وإلغاء الميزات، لذلك استطاع أن يصنع عالما جديدا . وكذلك كان تشوه المبادئ المذكورة سببا لما تلقاه الإسلام

من ضربات وما أصيب به من خسائر »

وبعد أن أشار السيد الخوئي إلى ما كان عليه العرب قبل الإسلام قال في كتابه (البيان ص٧٢ ـ ط الكويت): « وحين بزغ نور محمد (ص) وأشرقت شمس الإسلام في مكة تنوروا بالمعارف وتخلقوا بمكارم الأخلاق، فاستبدلوا التوحيد بالوثنية، والعلم بالجهل، والفضائل بالرذائل، والإخاء والتآلف بالشقاق والتخالف، فأصبحوا أمة وثيقة العرى مدت جناح ملكها على العالم، ورفعت أعلام الحضارة في أقطار الأرض وأرجائها ...

نعم إن جميع ذلك كان بفضل تعاليم كتاب اللّه الكريم الذي فاق جميع الصحف السماوية، فإن للقرآن في أنظمته وتعاليمه مسلكا يتمشى مع البراهين الواضحة وحكم العقل السليم، فقد سلك سبيل العدل، وتجنب عن طرفي الإفراط والتفريط ... »

وفي كتاب المحجة البيضاء (١٨٩/١): « ...، وإنّما أرسله اللّه وأنزل معه الكتاب ليقوم الناس بالقسط فصدع بأمر اللّه وهدى الخلق إلى الصراط المستقيم وأرشدهم إلى معرفة صانعهم ويوم آخرهم ببيانات وبراهين ناسبت عقولهم، ونبّههم على أدلّة وحجج بلغت إليها أفهامهم، وأكمل لهم أمور دينهم، وإنّما أتى كلّ طائفة من ذلك بما يصلح لعقله وفهمه من بيّنة وبرهان وخطابة وجدال بالّتي هي أحسن، ومعجزة، إلى غير ذلك

وإنما أتى مع كلّ دعوى بحجة وبرهان ليكونوا على بصيرة من أمرهم و(لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) ...، فليس لقائل أن يقول: إنّ ثبوت الأنبياء عليهم السلام والشرائع يتوقّف على ثبوت الصانع وصفاته الكمالية فكيف يعرف الصانع وصفاته بالشرع؟ وذلك لأنّه لو لم يكن صاحب هذه الكلم والتبيانات مقبول القول ومعصوم الفعال لكان فيها الحجّة من حيث مطابقتها لمقتضى العقول السليمة فإنّ براهينه هي المتّبعة، وبيّناته وحججه هي الملزمة

على أنّ ما يتوقّف عليه الشرع من معرفة الصانع وصفاته يجري مجرى الضروريّات الّتي يحكم بها كلّ من له أدنى مسكة كما سيأتي بيانه، فثبت أنّ ما ورد في الشرع كاف في الاهتداء إلى طريق الحقّ مع ما جبل عليه أهل السلامة من العقل المطبوع فلا حاجة إلى تكلّفات المتكلّفين على اختلاف طبقاتهم وتشعّب آرائهم وتناقض أهوائهم في إبداء الأدلّة وإنهاض الحجج على أمور الدّين، فإنّهم جمعوا بين الجهل وسوء الأدب، أمّا الجهل فلكونهم ما عرفوا موضع الدّلالة فيما نصبه الحقّ دليلا، وأمّا سوء الأدب فمعارضتهم له

سبحانه بما دخلوا فيه ممّا يزعمونه دليلا، فجعلوا نظرهم في الدّين أتمّ في الدّلالة بما دلّ عليه الحقّ تعالى عن ذلك، أفأنزل اللّه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه؟ أم أنزل اللّه دينا تامّا فقصّر الرسول عن تبليغه وأدائه، واللّه سبحانه يقول: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) وفيه تبيان كلّ شيء ... »

وفي البحار (١١٢/٢٢): عن ابن عباس قال: بينما رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بفناء بيته بمكة جالس إذ قربه عثمان بن مظعون فجلس ورسول اللّه صلى اللّه عليه وآله يحدثه إذ شخص بصره صلى اللّه عليه وآله إلى السماء فنظر ساعة ثم انحرف، فقال عثمان: تركتني وأخذت بنفض رأسك كأنك تشفه شيئا، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: أو فطنت إلى ذلك؟ قال: نعم، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: أتاني جبرئيل . فقال عثمان: فما قال؟ قال: قال: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) قال عثمان: فأحببت محمدا واستقر الإيمان في قلبي

وفي تفسير الميزان (٣٤٩/١٢): « وفي المجمع: وجاءت الرواية أن عثمان بن مظعون قال: كنت أسلمت استحياء من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام ولم يقر الإسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئا، فلما سرى عنه سألته عن حاله فقال: نعم بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء فأتاني بهذه الآية: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)، فقرأها علي إلى آخرها، فقر الإسلام في قلبي

وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته، فقال: يا آل قريش اتبعوا محمدا ترشدوا فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق

وأتيت الوليد بن المغيره وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعم ما قال، وإن قاله ربه فنعم ما قال . قال فأنزل اللّه: (أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلا وأكدى) الحديث

وفيه عن عكرمة قال: إن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة فقال: يا ابن أخي أعد، فأعاد، فقال: إن له لحلاوة، وإن له لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعذق، وما هو قول البشر »

وبصدد قول اللّه تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ...) قال في التفسير الأمثل: « إن محتوى هذه الآية المباركة له من قوة التأثير ما جعل كثيرا من الناس يصبحون مسلمين

علـى بينة مـن أمرهم، وها هـو عثمان بن مظعـون ... »

ويُنظر أيضا تفسير الرازي

وفي الكافي (٥١/٤) عن رجل، عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: أتي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بأسارى فقدم رجل منهم ليضرب عنقه فقال له جبرئيل: أخر هذا اليومَ يا محمد، فرده وأخرج غيره حتى كان هو آخرهم، فدعا به ليضرب عنقه فقال له جبرئيل: يا محمد ربك يقرئك السلام ويقول لك: إن أسيرك هذا يطعم الطعام ويقري الضيف ويصبر على النائبة ويحمل الحمالات، فقال له النبي صلى اللّه عليه وآله: إن جبرئيل أخبرني فيك من اللّه عز وجل بكذا وكذا، وقد أعتقتك، فقال له: إن ربك ليحب هذا؟ فقال: نعم، فقال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك رسول اللّه، والذي بعثك بالحق نبيا لا رددت عن مالي أحدا أبدا »

ويُنظر الكافي (٦٧٠/٢) ـ كتاب العشرة، باب حسن الصحابة...، الحديث الخامس ـ

وقال الشيخ محمد رضا المظفر (نور اللّه مضجعه) في (المنطق) تحت عنوان [الخلقيات] من [المشهورات]: « ... فإن الجبان يرى حسن الشجاعة ويمدح صاحبها ويتمناها لنفسه إذا رجع إلى نفسه وأصغى إليها، ولكنه يجبن في موضع الحاجة إلى الشجاعة . وكذلك البخيل والمتكبر والكاذب ...

والصحيح في هذا الباب أن يقال: إن اللّه تعالى خلق في قلب الإنسان حسا وجعله حجة عليه يدرك به محاسن الأفعال ومقابحها، وذلك الحس هو (الضمير) بمصطلح علم الأخلاق الحديث، وقد يسمى بالقلب أو العقل العملي أو العقل المستقيم أو الحس السليم عند قدماء الأخلاق، وتشير إليه كتب الأخلاق عندهم

فهذا الحس في القلب أو الضمير هو صوت اللّه المدوّي في دخيلة نفوسنا يخاطبها به ويحاسبها عليه . ونحن نجده كيف يؤنب مرتكب الرذيلة ويقر عين فاعل الفضيلة، وهو موجود في قلب كل إنسان، وجميع الضمائر تتحد في الجواب عند استجوابها عن الأفعال، فهي تشترك جميعا في التمييز بين الفضيلة والرذيلة، وإن اختلفت في قوة هذا التمييز وضعفه كسائر قوى النفس إذ تتفاوت في الأفراد قوة وضعفا

ولأجل هذا كانت [الخلقيات] من المشهورات، وإن كانت الأخلاق الفاضلة ليست عامة بين البشر، بل هي من خاصة الخاصة ... »

(١١٨) قال الرازي في (المحصل ص٤٩١، دار التراث، القاهرة، ط١): « أمّا الدليل الثاني ـ على النبوة ـ، ... فضعيف، لأنّ غاية ما في الباب أنّه يدلّ على كون ذلك الإنسان متميزا عن سائر الناس بمزيد الفضيلة، ولكن من أين يدلّ على النبوّة، وكيف وقد حكي عن أفاضل الحكماء في الأخلاق أمور عجيبة يجعلها الناس قدوة لأنفسهم في الدنيا والآخرة، مع ما بقي عنهم من العلوم الدقيقة؟ »

---

(١١٩) ذلك مجرد افتراض فإني لا أكاد أتصور له واقعا، ولا أرى أن أحدا يقدر على أن يكون موضوعيا تماما في تناول أمر وعرضه وإن أراد ذلك حتى إذا كان ما يتناوله علميا بحتا فكيف بما يرجع إلى الآراء والمقالات، لا سيما الدين، فما فعله (برتراند رسل) ـ مثلا ـ من الانتقاد لما سماه (شخصية المسيح الأخلاقية) ومقارنتها بشخصية سقراط لم يكن موضوعيا، كما ودل على غفلته عن الفرق بين الدين والفلسفة التي يفترض اعتمادها الدليل الموضوعي، والحياد في عرضه، بل وفي تبني ما يدل عليه ...

في مجموعة مقالات مترجمة إلى الفارسية باسم (چرا مسيحى نيستم ـ لماذا لست مسيحيا ـ ص٣١) قال (رسل) ـ ما ترجمته ـ: « يأتي ببالي وجود نقص مهم في شخصية المسيح الأخلاقية وهو اعتقاده بجهنم ...، وإن الأشخاص لاحظوا كرارا أنه كان يغضب ويحقد (؟) على من لم يكن يستمع مواعظه، وهذا يتفق مع نفسية القادة الدينيين وكان عاديا أيضا إلا أنه كان يقلل من درجاته المعنوية السامية . إنك لن تجد شيئا مثل هذا في مدرسة سقراط مثلا

إنكم تجدون سقراط رجلا مؤدبا تماما، ورقيقا خاصة مع من لم يكن يصغي إليه، إني أرى أن الأفضل للعالم أن يختار هذه الطريقة بدلا من الغضب ... »

---

(١٢٠) ذلك لما لا يخفى ـ أو لأن الكاتب يرى ـ أن القارئ (أو المستمع) الجاد لمقال لن يستطيع فصل المقال عن قائله حتى فيما إذا كان علميا بحتا، ولكن درجة تأثر القارئ (أو المستمع) بالقائل تختلف عما إذا كان مقاله دعويا ...

وبشأن المقال الدعوي ـ بعد أن أشار الشيخ المطهري إلى أن للإنسان فطرتين: فطرة إدراكية وفطرة غريزية ـ قال في كتاب [فطرت ـ الفطرة ـ ص١٣٠] ـ ما ترجمته ـ: « في تفسير (الصافي) ورد حديث عن الإمام العسكري (ع) ...، وعلى الرغم من أن سنده ليس قويا إلا أن

الشيخ الأنصاري يقول عنه: إن أمارات الصدق بادية عليه . وقد ورد الحديث في ذيل تفسير الآية: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ) ...، فيسأل أحدهم الإمام قائلا: وما ذنب عامة اليهود؟ القرآن نفسه يقول عنهم إنهم جهلاء أميون؟! ...

فيرد الإمام على هذا السؤال ببحث رفيع جدا:...، هنالك عدد من المسائل لا تحتاج إلى الدرس والمعلم ... فالإنسان بالضرورة يفهمها بحكم معارفه الفطرية والقلبية . ثم يضرب الإمام مثلا جميلا فيقول: كان اليهود يرون أن علماءهم يأمرونهم بالتقوى والطهارة وتجنب الربا والمسكرات، ولكنهم أنفسهم لم يكونوا يفعلون ما يقولون بل كانوا يفعلون خلافه ...، يدرك الإنسان بالضرورة أن من يأمر بعمل ويعمل نقيضه لا يمكن اعتبار أقواله والاعتماد عليها

هذا هو ما نطلق عليه اسم (المدركات الأولية الفطرية) وهي التي يعلمها الإنسان بالفطرة ومن دون تعليم ... »

أقول: هذا الذي أشار إليه بالرغم من وضوحه... ليس مما يُعتمد، وإنما يُعتمد ما تدل عليه جملة (... ولا تنظر إلى من قال)، (ولا يُعرف الحق بالرجال...)، كما تقدم في القسم السابق من هذه المذكرات في فصل **معنى (الإيمـــان)**

فليس بدعا مؤلف كتاب (في ظلال القرآن) ـ مثلا ـ حيث قال في قول اللّه عز وجل: (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا واحِدًا نَتَّبِعُهُ ...): « وهي الشبهة المكرورة التي تحيك في صدور المكذبين جيلا بعد جيل: (أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا)؟ كما أنها هي الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة، إنما تنظر إلى شخص الداعية: (أَبَشَرًا مِنَّا واحِدًا نَتَّبِعُهُ؟!) وماذا في أن يختار اللّه واحدا من عباده .. واللّه أعلم حيث يجعل رسالته.. فيلقي عليه الذكر ـ أي الوحي وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر ـ ماذا في هذا الاختيار لعبد من عباده يعلم منه تهيؤه واستعداده . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر؟ إنها شبهة واهية لاتقوم إلا في النفوس المنحرفة. النفوس التي لا تريد أن تنظر في الدعوى لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر، مخافة أن يكون في اتباعها له إيثار وله تعظيم . وهي تستكبر عن الإذعان والتسليم »

---

(١٢١) في مجموعة مقالات، ترجمها (نجف دريابندري) إلى الفارسية باسم (چرا مسيحى نيستم ـ لماذا لست مسيحيا ـ ص٢٨) نقل عن برتراند رسل أنه قال ـ ما ترجمته ـ : « نبحث هنا

باختصار مسألة وهي: هل المسيح كان أعقل الناس وخيرهم؟ نفترض أن الجميع يذعنون بهذا، وأنا لست كذلك . أرى أني أوافق المسيح في أغلب ما ذكره أكثر من المسيحيين المعتقدين به. لا أدري هل أوافقه إلى الأخير أم لا، لكني أقبل منه أكثر مما يقبله أغلب مدعي الانتساب إلى المسيحية . تتذكرون أن المسيح قال: تحملوا ولا تسيئوا، ومن صفع خدك الأيمن أدر إليه خدك الأيسر أيضا

ليس هذا جديدا فقد عرض في أديان أخرى أيضا كالبوذية، ولكنه ليس ما يقبله المسيحيون. لا أشك في أن رئيس الوزراء الموجود (Stanley Baldwin) مثلا هو من أكثر المسيحيين التزاما، لكني لا أقول لأحد منكم أن اصفع خده. أظنكم تعلمون أنه يرى أن لهذا الفصل معنى مجازيا ... »

---

(١٢٢) في البحار(٢/١٨٧) ـ نقلا عن كتاب بصائر الدرجات ـ عن سفيان بن السمط قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: جعلت فداك إن الرجل ليأتينا من قبلك فيخبرنا عنك بالعظيم من الأمر فيضيق بذلك صدورنا حتى نكذبه . قال: فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: أليس عني يحدثكم؟ قال: قلت بلى، قال: فيقول للّيل إنه نهار وللنهار إنه ليل؟! قال: فقلت له: لا، قال: فقال: رده إلينا، فإنك إن كذبت فإنما تكذبنا

---

(١٢٣) سيأتي توضيح هذا عند الكلام عن الاختلاف المنفي في القرآن

---

(١٢٤) في البحار (٥٠/٣١١ ط طهران) ـ نقلا عن المناقب ... ـ أن (إسحاق الكندي) أخذ في تأليف تناقض القرآن، فعلم الإمام الحسن العسكري عليه السلام بعض تلامذة الرجل ليقول له: « إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم به منه غير المعاني التي قد ظننتها؟ ... »

---

(١٢٥) يُنظر فصل (**التدين باتباع ...**) في القسم السابق من هذه المذكرات

---

(١٢٦) قال جلال الدين في المثنوي [دفتر٥، البيت: ٤٧٠]:

مكر كن تا وارهى از مكر خود مكر كن تا فرد گردى از جسد

امكر لتنجو من مكرك، امكر لتنفرد من جسدك

وأورد (محمد بديعي) في ص١٠٦ من مجموعة باسم (نامه هاى عرفانى امام خمينى ـ الرسائل العرفانية للإمام الخميني) رسالة منه إلى ابنه السيد أحمد جاء فيها ـ ما ترجمته ـ : « في البدء يجب أن تتقدم بقدم العلم، عرجان، وأيا كان هذا العلم فهو الحجاب الأكبر، **فبالدخول فيه تتعلم رفع الحجب**، هلم نتجه معا إلى الوجدان لعله يفتح طريقا ... »

ولا يخفى أن تسويد بعض الكلمات مني

وفي كتاب (خطاب الفلسفة المعاصرة... ص١٠٤، دار الوفاء ...، الاسكندرية، ٢٠٠٣) نقل الأستاذ الدكتور عبد الوهاب جعفر عن فيتجنشاين قوله: « إن الفلسفة أداة لا يظهر نفعها إلا في التصدي للفلاسفة، وأيضا في التصدي للفيلسوف القابع في ذواتنا »

وLudwig Wittgenstein (١٨٨٩ـ ١٩٥١) من أبرز فلاسفة العصر...، تحدث عنه برترند رسل في مقال له باسم (عدد من اتصالات فلسفية) منشور ضمن مجموعة من مقالات مترجمة إلى الفارسية باسم (عرفان و منطق)، فقال في ص٢١ ـ ما ترجمته ـ : «كان اتصالي الفلسفي الأهم بالفيلسوف النمساوي Ludwig Wittgenstein الذي كان في البدء تلميذي، ثم حلّ مكاني في الأوكسفورد والكمبريدج ...

إنه ورث من أبيه ثروة كبيرة لكنه وهب جميعها، إذ كان يعتقد أن المال للفيلسوف صداع ...

فيما بعد كان أستاذ الفلسفة في الكمبريدج، وصار أغلب الفلاسفة سواء في الكمبريدج أو الأكسفورد أتباعه. إني أيضا تأثرت جدا بنظرياته الأولى ولكن في السنوات الآتية ابتعدت نظرياتنا عن بعض . لم ألتق به في السنين الأخيرة من عمره إلا قليلا، ولكن حينما كنت أصادقه كان إنسانا جذابا جدا حيث كان حقا خارقا للعادة في هيجانه وقدرته على النفوذ وخلوص وطهارة فكره »

---

(١٢٧) ذلك لأن ما أجده هو أن الموجود في فطرة الإنسان ليس فقط الانجذاب إلى هدى إن صادفه، بل وأيضا طلبه وترقبه، وإن لم يكن واعيا لذلك وعارفا به ...

(١٢٨) ذلك لأن الموجود في فطرة النفس إنما هو الانجذاب والاندفاع إلى مصاديق الهدى لا إلى مفهوم ما يشير إلى الهدى وصورته ...

---

(١٢٩) يتراءى لي أن (القول) وإن أطلق بمعناه المصدري على الكلام، لكنه كاسم مصدر أخص من (الكلام) فهو لا يطلق إلا على ما يعكس رأيا وعقيدة خلافا للكلام الذي يطلق على كل ما يتلفظ به، بل ويبدو أن بينهما عموما من وجه، فقد يطلق (القول) على الرأي وإن لم يُتكلم به ...

هذا، وفي تفسير الميزان: « ... فقوله: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ) ...، والمراد بالقول الرأي والاعتقاد على ما يعطيه السياق »

واطلعت على مقال للدكتور علي حرب في (الموسوعة الفلسفية العربية)، باسم (مقال)، جاء فيه: « والقول هو كل منطوق به في اللغة ...، وهو بمعنى أخص (الكلام على الترتيب) كما عرفه ابن منظور، أي أنه طريقة التعبير والحديث المتسق . وإدخال (الترتيب) عنصرا في تحديد المقال يدل على العلاقة القائمة بين القول والفكر . وبهذا المعنى فقد حدد المعجم الفلسفي لـ(لالاند) القول بأنه (عملية فكرية مركبة من تتابع عمليات أولية جزئية ومتدرجة) وبأنه على الأخص (التعبير عن الفكر وتوسيعه بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا المترابطة) . وبسبب هذه العلاقة جوز العرب قديما تسمية الآراء والمعتقدات قولا، وذلك من باب تسمية الشيء بغيره إذا كان ملابسا له، أي إذا كان يدل عليه مثلا، كما يدل القول على الرأي ... »

وتقدم كلام عن (القول) في القسم السابق من هذه المذكرات

---

(١٣٠) قال اللّه عز وجل (الأعراف: ١٤٦): (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)

وقال (الزمر: ٤٥): (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

وقال تبارك وتعالى (الأنعام: ٢٥ـ ٢٦): (مِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن

يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ . وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) إلخ

---

(١٣١) ليس هذا خافيا...، لكنني مع ذلك أحب أن أنقل هنا ما قاله (وليم جيمس) في كتابه (إرادة الاعتقاد ص٨٥) ـ ترجمة الدكتور محمود حب الله ـ، قال: « ...، فإذا كان لكل من الحسن والقبح والواجب وجود، فلا بد أن يكون لها تحقق في نفس ما ؛ والخطوة الأولى في الفلسفة الأخلاقية هي إبانة أنها لا يمكن أن تتحقق في عالم ذي طبيعة غير عضوية، وأنه لا يمكن للقوانين الخلقية ولا للعلاقات الخلقية أن تتأرجح في الفضاء، وأن بيئتها الوحيدة هي العقل الذي يحس بها ؛ وأما العالم المكوَّن من حقائق مادية بحتة فلا يمكن أن تجد فيه القضايا الخلقية مكانا

وفي اللحظة التي يصبح فيها موجود ذو شعور جزء من العالم، تسنح الفرصة لكل من الخير والشر أن يوجد حقا، ويكون للعلاقات الخلقية الآن مكان في شعور ذلك الموجود . فإذا ما شعر بأن شيئا خير، فإنه يكون بجعله خيرا . إنه خير بالنسبة له؛ ومادام خيرا بالنسبة له، فهو خير مطلق، لأنه الخالق الوحيد للقيم في ذلك العالم، وليس للأشياء من قيمة خلقية إلا باعتباره هو ... »

هذا، ولا يخفى المسامحة في تعبير الرجل، أو الخطأ في رأيه، فإن خالق الخير ليس الإنسان، بل إن الله تعالى هو الذي خلق في نفس الإنسان الإحساس بكون شيء خيرا وجعل فيها الاندفاع إلى فعله ونشره ...

---

(١٣٢) أقصد بـ(الذهن) ما يفكر به المرء ...، وبـ(القلب) ما يحسّ به ويتفاعل ويحب ويبغض ... وما يتحوّل به نتاج الفكر إلى صبغة وإيمان ...، وقريب من هذا المعنى ما في (المعجم الفلسفي) للدكتور جميل صليبا، قال: « ويطلق الذهن أيضا على قوة الإدراك من جهة ما هي مقابلة للإحساس تارة، وللعقل أخرى »

وقال قبل ذلك: « ١ـ الذهن في اللغة ...، وفي اصطلاح القدماء: ...

وقد يطلق الذهن ويراد به القوة المدركة مطلقا سواء كانت النفس الإنسانية أو آلة من آلاتها

٢- ويطلق الذهن في الفلسفة الحديثة على قوة الإدراك والتفكير من جهة ما هي مقابلة للإحساس. ومعنى ذلك أن الذهن هو العقل أو ملكة الفهم، وقد يعبر عنه بالعقل تارة وبالنفس أخرى، وإطلاق العقل على النفس جائز ... »

هذا، وترجم صليبا (الذهن) بـ(ENTENDEMENT) فمن الممكن النظر إلى هذه الكلمة في (موسوعة لالاند الفلسفية)

ويُنظر ما قاله السيد الطباطبائي في تفسير الميزان (٢/٢٢٤- ٢٢٥) بصدد وظيفة كل من القلب والدماغ ...، وسيأتي لاحقا

تنبيه: ذكرت هذا استطرادا، فلا أظن كل ذلك نافعا إن لم يكن ضارا ...

---

(١٣٣) نزل في القرآن الكريم ليتلى قول اللّه تعالى (الكهف: ٢٨): (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

قال الزمخشري في الكشاف: « يقال (عداه) إذا جاوزه...، وإنما عدّي بعن لتضمين (عدا) معنى نبا وعلا في قولك: نبت عنه عينه وعلت عنه عينه: إذا اقتحمته ولم تعلق به ... »

---

(١٣٤) مشهور أن ابن سينا قال عن نفسه:

كفر چو منی گزاف وآسان نبود　　محکم تر از ایمان من ایمان نبود
در دهر چو یك منی وآن هم کافر　　پس در همه دهر یك مسلمان نبود

كفْرُ أحد مثلي ليس عبثا وسهلا . لا إيمان أقوى من إيماني . أنا وحدي في الدهر وأكون كافرا؟! فلا مسلم في الدهر كله (يُنظر - مثلا - روضات الجنات: ٣/١٧٩، وجاذبه و دافعه علي للمطهري)

هذا، وقد مر ما فعله بعض مثقفي المتدينين في تقسيم الناس إلى (الخواص والعوام) ...

---

(١٣٥) في تفسير الرازي: « الآية - أي قول اللّه تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّه) - تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة أولها: الدعوة إلى اللّه، وثانيها: العمل

الصالح، وثالثها: أن يكون من المسلمين، أما الدعوة إلى اللّه فقد شرحناها وهي عبارة عن الدعوة إلى اللّه بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية

وأما قوله: (وَعَمِلَ صَالِحًا) فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب، وهو المعرفة، أو عمل الجوارح، وهو سائر الطاعات

وأما قوله: (وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان، فيكون هذا الرجل موصوفا بخصال أربعة: أحدها الإقرار باللسان، والثاني: الأعمال الصالحة بالجوارح، والثالث: الاعتقاد الحق بالقلب، والرابع: الاشتغال بإقامة الحجة على دين اللّه، ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم، وكمال الدرجة في هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد صلى اللّه عليه وسلّم »

وفي تفسير الميزان: « ... فقوله: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ) المراد به النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وإن كان لفظ الآية يعم كل من دعا إلى اللّه، ولما أمكن أن يدعو الداعي إلى اللّه لغرض فاسد وليست الدعوة التي هذا شأنها من القول الأحسن قيده بقوله: (وَعَمِلَ صَالِحًا) فإن العمل الصالح يكشف عن نية صالحة غير أن العمل الصالح لا يكشف عن الاعتقاد الحق والالتزام به، ولا حسن في قول لا يقول به صاحبه ولذا قيده بقوله: (وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، والمراد بالقول الرأي والاعتقاد على ما يعطيه السياق

فإذا تم الإسلام للّه والعمل الصالح للإنسان ثم دعا إلى اللّه كان قوله أحسن القول لأن أحسن القول أحقه وأنفعه، ولا قول أحق من كلمة التوحيد ولا أنفع منها وهي الهادية للإنسان إلى حاق سعادته »

وفي تفسير مجمع البيان: « (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) صورته صورة الاستفهام والمراد به النفي، تقديره: وليس أحد أحسن قولا ممن دعا إلى طاعة اللّه وأضاف إلى ذلك أن يعمل الأعمال الصالحة (وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

أي ويقول مع ذلك: إنني من المستسلمين لأمر اللّه المنقادين إلى طاعته، وقيل: معناه: ويقول إنني من جملة المسلمين كما قال إبراهيم: (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)، وهذا الداعي هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، عن الحسن وابن زيد والسدي. وقيل: هو وجميع الأئمة الدعاة الهداة إلى الحق، عن مقاتل وجماعة من المفسرين . وقيل: هم المؤذنون، عن عائشة وعكرمة

وفي هذه الآية رد على من قال: أنا مؤمن إن شاء اللّه لأنه مدح من قال: إنني من

المسلمين من غير أن يقرنه بالمشيئة، وفي هـذه الآية دلالة على أن الدعـاء إلى الدين من أعظم الطـاعات وأجل الواجبات، وفيهـا دلالـة على أن الداعي يجب أن يكـون عامـلا بعلمه ليكـون النـاس إلى القبول منه أقرب وإليه أسكن »

---

(١٣٦) في الفتوحات المكية (٢/٢٤٢): « ...، ومما يؤيد ما ذكرناه أنه لو حسن (الإنسان) الظن بشخص، وتخيل أنه من أولياء اللّه ـ وليس كذلك في نفس الأمر ـ عظمه واحترمه . هذا في فطرة كل مخلوق ... »

وقد تقدم في القسم السابق الكلام عن الملازمة بين الإيمان بشيء وتقديسه

---

(١٣٧) سيأتي مزيد من التوضيح لهذا إن شاء اللّه

---

(١٣٨) في نهج البلاغة (الخطبة ٢١٦): « ومن خطبة له عليه السلام بصفين: أما بعد فقد جعل اللّه سبحانه لي عليكم حقا بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم. فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف . لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصا للّه سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه . ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه وتوسعا بما هو من المزيد أهله

ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضا . ولا يستوجب بعضها إلا ببعض

وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي. فريضة فرضها اللّه سبحانه لكل على كل فجعلها نظاما لألفتهم وعزا لدينهم ...

فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه، فليس أحد وإن اشتد على رضا اللّه حرصه، وطال في العمل اجتهاده، ببالغ حقيقة ما اللّه أهله من الطاعة له . ولكن من واجب حقوق اللّه على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم

وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته وتقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعان على ما حمله اللّه من حقه، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له

فقال عليه السلام: إن من حق من عظم جلال اللّه سبحانه في نفسه، وجل موضعه من قلبه أن يصغر عنده، لعظم ذلك، كل ما سواه وإن أحق من كان كذلك لمن عظمت نعمة اللّه عليه ولطف إحسانه إليه . فإنه لم تعظم نعمة اللّه على أحد إلا ازداد حق اللّه عليه عظما

وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر . وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست بحمد اللّه كذلك، ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطا للّه سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء

وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا علي بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى اللّه سبحانه وإليكم من التقية في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لابد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي . فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه . فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي إلا أن يكفي اللّه من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، وأعطانا البصيرة بعد العمى »

ورواه بشيء من الاختلاف في الكافي (٣٥٢/٨) بسنده عن أبي جعفر عليه السلام...، ونقل أيضا ما قاله رجل من أصحابه (ع)

---

[١٣٩] قال الشيخ المظفر في كتابه (عقائد الإمامية): « نعتقد أن النبوة وظيفة إلهية وسفارة ربانية، يجعلها اللّه تعالى لمن ينتجبه (يجتبيه) ويختاره من عباده الصالحين وأوليائه الكاملين

في إنسانيتهم ...

كما نعتقد أنه تعالى لم يجعل للناس حق تعيين النبي أو ترشيحه أو انتخابه، وليس لهم الخيرة في ذلك، بل أمر كل ذلك بيده تعالى لأنه (أعلم حيث يجعل رسالته)

وليس لهم أن يتحكموا فيمن يرسله هاديا ومبشرا ونذيرا ... »

---

(١٤٠) قال الخواجة نصير الدين في (التجريد): « واللطف واجب لتحصيل الغرض به »

وقال العلامة الحلي في شرحه: « أقول: اللطف هو ما يكون المكلف معه أقرب إلى فعل الطاعة وأبعد من فعل المعصية، ولم يكن له حظ في التمكين، ولم يبلغ حد الإلجاء

واحترزنا بقولنا: (ولم يكن له حظ في التمكين) عن الآلة، فإن لها حظا في التمكين وليست لطفا . وقولنا: (ولم يبلغ حد الإلجاء) لأن الإلجاء ينافي التكليف واللطف لا ينافيه. هذا اللطف المقرب

وقد يكون اللطف محصلا وهو ما يحصل عنده الطاعة من المكلف على سبيل الاختيار ولولاه لم يطع مع تمكنه في الحالين، وهذا بخلاف التكليف الذي يطيع عنده، لأن اللطف أمر زائد على التكليف، فهو من دون اللطف يتمكن بالتكليف من أن يطيع أو لا يطيع، وليس كذلك التكليف لأن عنده يتمكن من أن يطيع وبدونه لا يتمكن من أن يطيع أو لا يطيع، فلم يلزم أن يكون التكليف الذي يطيع عنده لطفا

إذا عرفت هذا فنقول: اللطف واجب، خلافا للأشعرية . والدليل على وجوبه أنه يحصل غرض المكلف فيكون واجبا وإلا لزم نقض الغرض ... »، انتهى كلام العلامة الحلي، ويُنظر تعليق الشيخ جعفر السبحاني عليه، وسننقله قريبا

هذا، وقال الشيخ المظفر في كتابه (عقائد الإمامية): « ونعتقد أن قاعدة اللطف ـ على ما سيأتي معناها ـ توجب أن يبعث الخالق اللطيف بعباده، رسلَه لهداية البشر وأداء الرسالة الإصلاحية وليكونوا سفراء اللّه وخلفاءه »

وفي فصل (**النبوة لطف**) ـ بعد أن بين حاجة الإنسان إلى من يهديه ـ قال: « فوجب أن يبعث اللّه تعالى في الناس رحمة لهم ولطفا بهم (رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، وينذرهم عما فيه فسادهم ويبشرهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم

إنما كان اللطف من الله تعالى واجبا فلأن اللطف بالعباد من كماله المطلق وهو اللطيف بعباده الجواد الكريم، فإذا كان المحل قابلا ومستعدا لفيض الجود واللطف فإنه تعالى لا بد أن يفيض لطفه، إذ لا بخل في ساحة رحمته ولا نقص في جوده وكرمه ... »

---

(١٤١) تكرر الكلام عن هذا في القسم السابق من هذه المذكرات

---

(١٤٢) في كتاب (شرح التجريد: ٣٧٦ـ ٣٧٧) قال العلامة الحلي: « قال ـ أي الخواجة ـ : (وكمال العقل والذكاء والفطنة وقوة الرأي وعدم السهو وكل ما ينفر عنه من دنائة الآباء وعهر الأمهات والفظاظة والأبنة وشبهها، والأكل على الطريق وشبهه)

أقول: يجب أن يكون في النبي (ع) هذه الصفات التي ذكرها، وقوله: (وكمال العقل) عطف على العصمة، أي ويجب في النبي كمال العقل، وذلك ظاهر، وأن يكون في غاية الذكاء والفطنة وقوة الرأي بحيث لا يكون ضعيف الرأي مترددا في الأمور متحيرا، لأن ذلك من أعظم المنفرات عنه، وأن لا يصح عليه السهو لئلا يسهو عن بعض ما أمر بتبليغه، وأن يكون منزها عن دنائة الآباء وعهر الأمهات لأن ذلك منفر عنه، وأن يكون منزها عن الفظاظة والغلظة لئلا يحصل النفرة عنه، وأن يكون منزها عن الأمراض المنفرة نحو الأبنة وسلس الريح والجذام والبرص، وعن كثير من المباحات الصارفة عن القبول منه القادحة في تعظيمه نحو الأكل على الطريق وغير ذلك، لأن كل ذلك مما ينفر عنه فيكون منافيا للغرض من البعثة »

وقال السيد المرتضى في كتابه (تنزيه الأنبياء): « ...، قلنا: لا شبهة في أن من نجوز عليه كبائر المعاصي ولا نأمن منه الإقدام على الذنوب لا تكون أنفسنا ساكنة إلى قبول قوله أو استماع وعظه كسكونها إلى من لا نجوز عليه شيئا من ذلك، وهذا هو معنى قولنا: إن وقوع الكبائر ينفر عن القبول

والمرجع فيما ينفر ولا ينفر إلى العادات واعتبار ما يقتضيه، وليس ذلك مما يستخرج بالأدلة والمقاييس، ومن رجع إلى العادة علم ما ذكرناه، وإنه من أقوى ما ينفر عن قبول القول، وإن حظ الكبائر في هذا الباب إن لم يزد عن حظ السخف والجنون والخلاعة لم ينقص منه

فإن قيل: أوليس قد جوز كثير من الناس على الأنبياء عليهم السلام الكبائر مع أنهم لم ينفروا عن قبول أقوالهم والعمل بما شرعوه من الشرائع؟ وهذا ينقض قولكم: إن الكبائر منفرة

قلنا: هذا سؤال من لم يفهم ما أوردناه، لأنا لم نرد بالتنفير ارتفاع التصديق وأن لا يقع امتثال الأمر جملة، وإنما أردنا ما فسرناه من أن سكون النفس إلى قبول قول من يجوز ذلك عليه لا يكون على حد سكونها إلى من لا يجوز ذلك عليه ... »

وقال السيد الخميني في كتاب (البيع: ٤١٣/٨): « وفي رواية مسعدة بن صدقة عن أبي عبد اللّه عليه السلام بعد السؤال عن الحيلة قال: (لا بأس بذلك، قد فعل ذلك أبي، وأمرني أن أفعل ذلك في شيء كان عليه) »

فعلق عليه قائلا: « وأنت خبير بأن بعض الأعمال وإن كان مباحا، فرضا، لكن لا يرتكبه المعصوم عليه السلام المنزه عن ارتكاب ما هو موجب لتنفر الطباع »

وقال الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه (عقائد الإمامية ص٥٥): « ونعتقد أن النبي كما يجب أن يكون معصوما يجب أن يكون متصفا بأكمل الصفات الخلقية والعقلية وأفضلها من نحو الشجاعة والسياسة والتدبير والصبر والفطنة والذكاء، حتى لا يدانيه بشر سواه فيها، لأنه لولا ذلك لما صح أن تكون له الرئاسة العامة على جميع الخلق ولا قوة إدارة العالم كله . كما يجب أن يكون طاهر المولد أمينا صادقا منزها عن الرذائل قبل بعثته أيضا، لكي تطمئن إليه القلوب وتركن إليه النفوس، بل لكي يستحق هذا المقام الإلهي العظيم »

وقال الشيخ جعفر السبحاني في كتاب (محاضرات في الإلهيات ص٢٩٠): « كما أن العصمة عن الذنوب والخطأ في التبليغ وتطبيق الشريعة والأمور العادية لازمة للأنبياء ...، كذلك ينبغي (؟) تنزههم عن كل صفة توجب تنفر الناس، وتحليهم بكل ما يوجب انجذابهم إليهم، قال المحقق البحراني (يقصد صاحب كتاب قواعد المرام): ... »

أقول: ذلك ما ذهب إليه علماء الإمامية، وأما غيرهم فقد قال (العضدي) في كتابه المواقف (الشرح: ٢٦٤/٨): « وقالت المعتزلة بناء على أصولهم: يمتنع ذلك ـ أي صدور الكبائر عن الأنبياء ـ عقلا »

وشرحه السيد الشريف (الشارح) بقوله: « لأن صدور الكبائر عنهم عمدا يوجب سقوط هيبتهم عن القلوب وانحطاط رتبتهم في أعين الناس، فيؤدي إلى النفرة عنهم وعدم الانقياد لهم، ويلزم منه إفساد الخلائق وترك استصلاحهم، وهو خلاف مقتضى العقل والحكمة »

وفي تفسير الرازي (٤٠٧/٩): « إن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف اللّه إلى الخلق، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود

لا يتم إلا إذا كان رحيما كريما، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق، وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير التجاوز عن سيئاتهم، كثير الصفح عن زلاتهم، فلهذا المعنى قال: (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)، ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة »

وكان قد ذُكر مزيد من الكلام عن هذا في (قصة بشر٢)

---

(١٤٣) كمثال أذكر قول اللّه تعالى (الأنعام: ٣٤- ٣٥): (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ . وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

وفي الكافي (٢/٢٥٢) بسنده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « إن أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل »

وأيضا في نفس الصفحة من الكتاب أنه ذُكر عند أبي عبد اللّه عليه السلام البلاء وما يخص اللّه عزّ وجلّ به المؤمن فقال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله: من أشدّ الناس بلاء في الدنيا؟ فقال: النبيون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن بعد على قدر إيمانه وحُسن أعماله، فمن صحّ إيمانه وحسُن عمله اشتدّ بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه

---

(١٤٤) قال (روبرت سيالديني) في ص١٢٧ من كتابه الذي ترجمه الدكتور (سعد جلال) باسم (التأثير: وسائل الإقناع): « فقد تنبأ العديد من المذاهب والشيع أنه في تاريخ أو في آخر بعيد سوف تأتي فترة للاستغفار والسعادة العظمى لأولئك الذين آمنوا بتعاليم الجماعة، وفي كل مرة كان هناك تنبؤ أن بداية وقت الإنقاذ ستكون علامتها حادثة هامة لا تنكر، هي النهاية المهولة للعالم ... »

ثم نقل تنبؤا بنهاية الأرض عاشه أتباع (مذهب يوم الحشر)، كان حضره ثلاثة من العلماء لأجل دراسة التجربة بانتحالهم اعتناق المذهب

و(روبرت سيالديني Cialdini Robert) بروفيسور مميز في مجال البحوث، يشغل حاليا أستاذ علم النفس في جامعة أريزونا ستيت الأمريكية

والكتاب ط١ دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٨

---

(١٤٥) أشير إلى ما يناسب هذا عند الكلام عن (الصدق) و(العدل) ...

وفي الكافي (٣٧٥/١) عن ابن أبي يعفور أنه قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: إني أخالط الناس فيكثر عجبي من أقوام لا يتولونكم، ويتولون فلانا وفلانا، لهم أمانة وصدق ووفاء، وأقوام يتولونكم ليس لهم تلك الأمانة ولا الوفاء والصدق ...

ويُنظر أيضا في الكافي (١٧٤/١) حوار زيد بن علي (ع) للأحول (صاحب الطاق)...

وأيضا في الكافي (٢٣/٥) حوار الإمام الصادق عليه السلام لأناس من المعتزلة فيهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وحفص بن سالم

هذا، وكمثال لمظهر خادع، واستطرافا، أذكر هنا ما نقله ابن الجوزي في (أخبار الحمقى والمغفلين: ٣٤/١): «كان عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن ... صديقا للوليد يأتيه ويؤانسه، فجلسا يوما يلعبان بالشطرنج إذ أتاه الآذن فقال: أصلح اللّه الأمير، رجل من أخوالك من أشراف ثقيف قدم غازيا فأحب السلام عليك . فقال: دعه! فقال عبد اللّه: وما عليك ائذن له فنظل نحن على لعبنا، فادع بمنديل يوضع عليها ونسلم على الرجل ونعود، ففعل، ثم قال: ائذن له فإذا هو رجل له هيبة وبين عينيه أثر السجود وهو معتم قد رجل لحيته، فسلم ثم قال: أصلح اللّه الأمير قدمت غازيا فكرهت أن أجوزك حتى أقضي حقك. فقال: حياك اللّه وبارك عليك ثم سكت عنه، فلما أنس أقبل عليه الوليد فقال: يا خال هل جمعت القرآن؟ قال: لا كانت شغلتنا عنه شواغل . قال: أحفظت من سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومغازيه وأحاديثه شيئا؟ قال: لا، كانت شغلتنا عن ذلك شواغل. قال: فأحاديث العرب وأشعارها؟ قال: لا . قال: فأحاديث أهل الحجاز ومضاحيكها؟ قال: لا . قال: فأحاديث العجم وآدابها؟ قال: ذاك شيء ما طلبته

فرفع الوليد المنديل وقال: شاهك . فقال عبد اللّه بن معاوية: سبحان الله! قال: لا واللّه ما معنا في البيت أحد، فلما رأى ذلك الرجل خرج، وأقبلوا على لعبهم »

---

(١٤٦) في الكافي (٥٤/١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب اللّه، يتولى فيها رجال رجالا، فلو أن الباطل خلص لم يخفَ على ذي حجى، ولو أن الحق خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجا الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى »

وقال جلال الدين البلخي في كتابه المثنوي (دفتر١ البيت٣١٦):

چون بسى ابليس آدم روى هست   پس بهر دستى نشايد داد دست

بما أن هناك كثيرا من الأبالسة بصورة البشر فلا ينبغي مبايعة كل أحد

---

(١٤٧) قال الشيخ المطهري في كتابه (آشنايى با علوم اسلامى ـ التعرف على العلوم الإسلامية ص١٠٨) ـ ما ترجمته ـ : « إن أهم الأصل المتعارف الذي يستخدمه المتكلمون ولا سيما المعتزلة إنما هو (الحسن والقبح) ...، وبنوا على ذلك عدة من الأصول والقواعد ك(قاعدة اللطف) و(وجوب الأصلح) على اللّه تعالى، ومطالب أخرى كثيرة

ولكن الفلاسفة يرون أصل (الحسن والقبح) اعتباريا وبشريا كالمقبولات والمعقولات العملية المذكورة في المنطق وينفع لل(جدل) فقط لا في (البرهان)، ولذا يطلق الفلاسفة على الكلام اسم (الحكمة الجدلية) لا (الحكمة البرهانية) »

وقال الشيخ جعفر السبحاني (في تعليق على شرح التجريد...): « قاعدة اللطف من القواعد الكلامية، ولها دور واسع في مسائلها، قبلتها العدلية ورفضتها الأشاعرة، وهي من فروع القول بالحسن والقبح العقليين، فمن اعترف بهما أخذ بنتائجهما ومنها لزوم اللطف على اللّه، ومن أنكرهما رد نتائجهما . وقد قسم الشارح، تبعا لغيره، اللطف إلى المقرب إلى الطاعة، والمحصل لها. فلو كان موجبا لقرب المكلف إلى فعل الطاعة والبعد عن فعل المعصية، فهو لطف مقرب، ولو ترتبت عليه الطاعة فهو لطف محصل. ثم إن بعض المتكلمين اكتفى بذكر المحصل وحده، واكتفى لفيف منهم بذكر المقرب وحده، وهناك من ذكر كلا القسمين ...

وأشار الشارح (أي العلامة الحلي في شرحه التجريد) إلى كلا القسمين . وعلى ضوء ذلك فليس هنا لطفان مختلفان بل كلاهما في الحقيقة أمر واحد، غير أنه إن ترتبت عليه الطاعة يكون

محصلا، فكونه مقربا فعل اللّه سبحانه، وأما كونه محصلا أمر انتزاعي ينتزع منه بعد حصول الغاية . غير أن العناية باللطف المقرب في الكتب الكلامية أكثر من المحصل ...

لا يخفى أن الالتزام بوجوب اللطف بكلا قسميه أمر مشكل، لاختلاف الدواعي إلى الامتثال، فيلزم أن يقوم سبحانه في مورد كل فرد بما يكون معه أقرب إلى الطاعة، فتختلف الدواعي حسب اختلاف الأمزجة والميول، فلو افترضنا أن إنسانا إنما يكون أقرب إلى الطاعة إذا كان ثريا، والآخر إذا كان فقيرا، وثالثا إذا كان متزوجا بمرأة حسناء و... أترى أن من واجبه أن يقوم في حق كل إنسان بما يكون معه أقرب إلى الطاعة؟! بل الحق ما أوضحناه في الإلهيات وقلنا: إن كل ما هو دخيل في تحقق الرغبة بالطاعة، والابتعاد عن المعصية في نفوس الأكثرية الساحقة من البشر يجب على اللّه سبحانه القيام به صونا للتكليف عن اللغو، دون ما هو دخيل في خصوص فرد، وإلا لن يقف أقسام اللطف عند حد »

هذا، ولا يخفى أنهم يقصدون بـ(اللطف) ما يمكن للإنسان أن يدركه ويبني عليه ويحتج به ويتداوله... فهو يختلف عما رواه الكافي (٢/٦٠) بسند ـ فيه (داود الرقي) ـ عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: قال اللّه عز وجل: « إن من عبادي المؤمنين عبادا لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالغنى والسعة والصحة في البدن فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن فيصلح عليهم أمر دينهم، وإن من عبادي المؤمنين لعبادا لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين ... » ...

---

(١٤٨) مما يذكرني بذلك قول اللّه عز وجل (الليل: ١٢): (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) ...

وفي تفسير الميزان: « فقوله: (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) يفيد أن هدى الناس مما قضى سبحانه به وأوجبه على نفسه بمقتضى الحكمة وذلك أنه خلقهم ليعبدوه كما قال:...، وقضى على نفسه أن يبين لهم سبيله ويهديهم إليه بمعنى إراءة الطريق سواء سلكوها أم تركوها كما قال: ... »

وصلح القول المذكور إن أضيفَ إليه: (وإجمال هذه الحقيقة راسخ في قلب الإنسان وضميره)

---

(١٤٩) في تفسير الميزان: « قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ

عالِمِينَ) ...، والرشد خلاف الغي وهو إصابة الواقع، وهو في إبراهيم عليه السلام اهتداؤه الفطري التام إلى التوحيد وسائر المعارف الحقة، وإضافة الرشد إلى الضمير الراجع إلى إبراهيم تفيد الاختصاص وتعطي معنى اللياقة ويؤيد ذلك قوله بعده: (وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ) وهو كناية عن العلم بخصوصية حاله ومبلغ استعداده

والمعنى: وأقسم لقد أعطينا إبراهيم ما يستعد له ويليق به من الرشد وإصابة الواقع وكنا عالمين بمبلغ استعداده ولياقته، والذي آتاه اللّه سبحانه ـ كما تقدم ـ هو ما أدركه بصفاء فطرته ونور بصيرته من حقيقة التوحيد وسائر المعارف الحقة من غير تعليم معلم أو تذكير مذكر أو تلقين ملقن »

---

(١٥٠) قد يكون المقصود بـ(عقبه) ذريته، بأن يكون المبرر لجعلها كلمة باقية في (ذريته) فقط ما هو معروف عنه (ع) من اهتمامه بذريته، كما في الآية ١٢٤ من البقرة، والآية ٣٧ من سورة إبراهيم...، وأيضا لكونه مقتضى الطبيعة الإنسانية...، هذا مضافا إلى أن ذريته (ع) هم الذين قاموا بتبليغ الناس كلمته وتذكيرهم بها، فقد قال اللّه تعالى (العنكبوت: ٢٧): (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) ...

---

(١٥١) المعنى الذي أشير إليه أقرب إلى الآيات مما فسرها به مفسرون، حتى صاحب (التفسير الأمثل) حيث قال: « وكذلك أشار عليه السلام في هذه العبارة (أي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) إلى مسألة هداية اللّه التكوينية والتشريعية التي يوجبها قانون اللطف »

هذا، وفي تفسير الميزان: « الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر في (جَعَلَها) للّه سبحانه، والضمير البارز ـ على ما قيل ـ لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عليه السلام ومعناها معنى كلمة التوحيد فإن مفاد لا إله إلا اللّه نفي الآلهة غير اللّه لا نفي الآلهة وإثبات الإله تعالى (في الهامش: وذلك أن (الله) فيها مرفوع على البدلية لا منصوب على الاستثناء) وهو ظاهر فلا حاجة إلى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السلام

والمراد بعقبه ذريته وولده، وقوله: (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي يرجعون من عبادة آلهة غير اللّه إلى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم ـ وهم العابدون لغير اللّه بدعوة بعضهم وهم العابدون للّه ـ إلى عبادته تعالى، وبهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوهم عن الموحد ما داموا،

ولعل هذا عن استجابة دعائه عليه السلام إذ يقول: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ)...

و قيل: الضمير في (جعل) لإبراهيم عليه السلام فهو الجاعل هذه الكلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجعوا إليها، والمراد بجعلها باقية فيهم وصيته لهم بذلك كما قال تعالى: (وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)...

وأنت خبير بأن الوصية بكلمة التوحيد لا تسمى جعلا للكلمة باقية في العقب وإن صح أن يقال: أراد بها ذلك لكنه غير جعلها باقية فيهم

وقيل: المراد أن اللّه جعل الإمامة كلمة باقية في عقبه وسيجيء الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله

ويظهر من الآية أن ذرية إبراهيم عليه السلام لا تخلو من هذه الكلمة إلى يوم القيامة »

---

(١٥٢) في تفسير الميزان: « قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ـ إلى قوله ـ يَوْمَ الدِّينِ) لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجة على أنه تعالى ليس عدوا له بل رب رحيم ذو عناية بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال: (الَّذِي خَلَقَنِي) (إلخ)، وأما قول القائل: إن قوله: (الَّذِي خَلَقَنِي) إلخ استيناف من الكلام لا يعبأ به

فقوله: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) بدأ بالخلق لأن المطلوب بيان استناد تدبير أمره إليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل، والبرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق والإيجاد به لوضوح أن الخلق والتدبير لا ينفكان في هذه الموجودات الجسمانية التدريجية الوجود التي تستكمل الوجود على التدريج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشيء والتدبير بشيء، وإذ كان الخلق والإيجاد للّه سبحانه فالتدبير له أيضا . ولهذا عطف الهداية على الخلق بفاء التفريع فدل على أنه تعالى هو الهادي لأنه هو الخالق

وظاهر قوله: (فَهُوَ يَهْدِينِ) ـ وهو مطلق ـ أن المراد به مطلق الهداية إلى المنافع دنيوية كانت أو أخروية والتعبير بلفظ المضارع لإفادة الاستمرار فالمعنى أنه الذي خلقني ولا يزال يهديني إلى ما فيه سعادة حياتي منذ خلقني ولن يزال كذلك

فيكون الآية في معنى ما حكاه اللّه عن موسى إذ قال لفرعون: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى) ـ طه: ٥٠ ـ، أي هداه إلى منافعه وهي الهداية العامة

وهذا هو الذي أشير إليه في أول السورة بقوله: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً) وقد مر تقرير الحجة فيه

وعلى هذا فما سيأتي في قوله: (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي) إلخ من الصفات المعدودة من قبيل ذكر الخاص بعد العام فإنها جميعا من مصاديق الهداية العامة بعضها هداية إلى منافع دنيوية وبعضها هداية إلى ما يرجع إلى الآخرة

ولو كان المراد بالهداية الهداية الخاصة الدينية فالصفات المعدودة على رسلها وذكر الهداية بعد الخلقة، وتقديمها على سائر النعم والمواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود »

---

(١٥٣) أجد أن (رجاء الهدى) يتقوم بأمرين: الرغبة في الهدى، فلولا الرغبة فيه لم يُرج، وتوقع الحصول عليه، ولولا ذلك لم يُرجَ، والأمران فطريان ...، وقبل قليل قد مرت الإشارة إلى هذا في المتن

---

(١٥٤) قال الرازي في كتابه (المباحث المشرقية (٨٨/١، ط١: دار الكتاب العربي): «...، ولكنك أيها الطالب خبير بأن العاقل لا يحيد عن المألوف إذا وجد إلى تقريره سبيلا ولا يرغب عن المعروف إذا وجد عليه دليلا جملة وتفصيلا»

وفي الكافي (٣٠٨/٢) أن علي بن الحسين (عليهما السلام) سئل عن العصبية فقال: « العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ... »

وقد يدل عليه قول اللّه عز وجل (البقرة: ١٧٠): (وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ) حيث ذمهم لا على (**اتباعهم** لآبائهم) مطلقا، بل على اتباعهم لآبائهم وهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون...، وقد تقدم بعض الكلام عن الآية الكريمة في القسم السابق

---

(١٥٥) أرى أن أهم ما أعلنه القرآن في هذا الصدد هو (الطاعة)، كما في قول اللّه عز وجل (النساء: ٨٠): (مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)

هذا، وفي تفسير الرازي (١٠/١٤٩): « (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)، والمعنى أن من أطاع الرسول لكونه رسولا مبلغا إلى الخلق أحكام اللّٰه فهو في الحقيقة ما أطاع إلا اللّٰه ... »

إلى أن قال: « قوله: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ يدل على أنه لا طاعة إلا للّٰه ألبتة، وذلك لأن طاعة الرسول لكونه رسولا فيما هو فيه رسول لا تكون إلا طاعة للّٰه، فكانت الآية دالة على أنه لا طاعة لأحد إلا للّٰه

قال مقاتل في هذه الآية: إن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم كان يقول: (من أحبني فقد أحب اللّٰه ومن أطاعني فقد أطاع اللّٰه)، فقال المنافقون: لقد قارب هذا الرجل الشرك وهو أن ينهى أن نعبد غير اللّٰه، ويريد أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل اللّٰه هذه الآية

واعلم أنا بينا كيفية دلالة الآية على أنه لا طاعة ألبتة للرسول، وإنما الطاعة للّٰه »

وفي تفسير الميزان (٥/٩): « قوله تعالى: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)، استئناف فيه تأكيد وتثبيت لقوله في الآية السابقة (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولا)، وبمنزلة التعليل لحكمه أي ما أنت إلا رسولا منا من يطعك بما أنت رسول فقد أطاع اللّٰه، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا »

وأيضا في تفسير الميزان (٢٠/٥٢): « قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)...، وعطف الرسول على اللّٰه في قوله: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) لكون معصيته معصية للّٰه تعالى إذ ليس له إلا رسالة ربه، فالرد عليه فيما أتى به رد على اللّٰه سبحانه وطاعته فيما يأمر به طاعة للّٰه، قال تعالى: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

والمراد بالمعصية ـ كما يشهد به سياق الآيات السابقة ـ معصية ما أمر به من التوحيد، أو التوحيد وما يتفرع عليه من أصول الدين وفروعه فلا يشمل التهديد والوعيد بخلود النار إلا الكافرين بأصل الدعوة دون مطلق أهل المعصية المتخلفين عن فروع الدين، فالاحتجاج بالآية على تخليد مطلق العصاة في النار في غير محله »

هذا، وكان قد فصل في (قصة بشر٢) الفرق بين الطاعة بمعنى (الائتمار) ـ الذي ركز عليه المفسرون ـ وبين الطاعة بمعنى الانقياد القلبي كما يشير إليه ـ مثلا ـ قول اللّٰه تعالى (النساء: ٦٥): (فَلا وَرَبِّكَ لايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي

أَنفُسِـهِمْ حَرَجًـا مِّمَّـا قَضَيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْـلِيمًا) ...

---

(١٠٦) إلى هـذه الحقيقـة أشـار مـا في ص٦٩ من كتـاب (التأثير...) لروبرت سيالديني حيث قـال: « كشـفت دراسـة قـام بهـا عالمـان من علمـاء النفس الكنديين عن شيء مذهـل يتعلق بالنـاس في سبـاق الخيل إذ تزداد ثقتـهم في فرص الربح المتاحـة لخيولهم بدرجـة أكبر بعـد دفع الرهـان عمـا كانت عليه مبـاشرة قبل الدفع . لـم يحـدث بالطبـع شيء لزحزحـة الفرص الحقيقية المتاحـة للحصـان. فالحصـان هـو نفسـه، وعلى نفس المضمار، وفي نفس الحلبة، إلا أن احتمالات ربحه تتحسن في عقول هؤلاء المتراهنين تحسنـا ملحوظـا بمجرد شراء التـذكرة . وعلى الرغـم من أن الأمـر يثير شيئا من الحيرة لأول وهلة ...

والأمـر ببسـاطة هـو رغبتنا الحافزة لنا بدرجـة مـا لأن نكـون (أو نبدو) مطردين مـع مـا قمنـا بفعـله في التو . فبمجرد قيـامنا باختيـار أو اتخـاذ موقـف فإننـا نـجابه ضغوطـا شـخصية ومن علاقاتنـا المتبـادلة مـع الآخرين لكي نسـلك سـلوكا متسـقا مـع ذلـك الالتزام . وسـوف تؤدي بنـا تلـك الضغـوط إلى الاسـتجابة بطـرق تبـرر قرارنـا السـابق »

هـذا، وقـال الدكتـور عبـد العزيـز القوصي في كتابـه (علـم النفس:... ص١٨٩): « ويلاحـظ كذلـك أن تعلق المرء بفكـرة سـابقة، أو بحالـة وجدانيـة معينـة، يجعلـه أميل إلى اتجاه من ناحيـة دون الأخـرى... »

---

(١٠٧) تقدم في القسـم السـابق من هذه المذكرات الكلام عن رأي الكاتب في (تدبر القرآن)

---

(١٠٨) في قول اللّه تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ) قال الزمخشري في كتابه (الكشـاف): « فإن قلت: كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق، وكم من مرتاب فيه؟ قلت: ما نفى أنّ أحدا لا يرتـاب فيه، وإنمـا المنفي كونه متعلقـا للريب ومظنـة له لأنه من وضوح الدلالة وسـطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه ... »

وفي قوله تعالى: (وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا) قـال الرازي في تفسيره: « وهاهنا سؤالان: السـؤال الأول: طعن بعض الملحدة فيه فقال: إن عنى أنه لا شـك فيه عندنا فنحن قد نشـك فيه، وإن عنى أنه لا شـك فيه عنده فلا فائدة فيه

الجواب: المراد أنه بلغ في الوضوح إلى حيث لا ينبغي لمرتاب أن يرتاب فيه، والأمر كذلك، لأن العرب مع بلوغهم في الفصاحة إلى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن، وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة في الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه »

وقال السيد محمد تقي المدرسي في كتابه (من هدى القرآن: ٣١٤/١٦): « فإنّ المتدبر في الآيات القرآنية لا بد وأن يسلّم بأنّها من عند اللّه، لأنّه يجدها معجزات لا تتأتّى إلا للخالق العظيم ببلاغتها ونظمها ومعانيها الهادية للحق ... »

وفي التفسير الأمثل: « تقول الآية: (تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) ...

ويحتمل في التّفسير أيضا أنّ جملة (مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ) جاءت دليلا وبرهانا لجملة لا رَيْبَ فِيهِ، فكأنّ سائلا يسأل: ما هو الدليل على أنّ هذا الكتاب حقّ، ولا مجال للشكّ فيه؟ فتقول: الدليل هو أنّه من ربّ العالمين الذي يصدر منه كلّ حقّ وحقيقة ...

وينبغي الالتفات أيضا إلى أنّ القرآن لا يريد هنا الاكتفاء بالادّعاء الصرف، بل يريد أن يقول: إنّ الشيء الظاهر للعيان لا يحتاج إلى البيان، فإنّ محتوى هذا الكتاب شاهد بنفسه على صحّته وأحقّيته

ثمّ يشير إلى التهمة التي طالما وجهها المشركون والمنافقون إلى هذا الكتاب السماوي العظيم حيث قالوا: إنّ هذا الكتاب من تأليف محمّد. وقد ادعى كذبا بأنّه من اللّه: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ) فيقول جوابا على ادّعاء هؤلاء الزائف: (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)، وأدلّة أحقّيته واضحة وبيّنة فيه من خلال آياته »

وفي التفسير الأمثل أيضا: « أمّا آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب ـ مرّة أخرى ـ في جملة قصيرة عميقة المعنى عن أكثر إشكالات المشركين، فتقول: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ

فإنّ كلّ من يتدبّر آيات هذا الكتاب الذي هو أساس التذكّر وحياة القلب، وحركة الفكر، وطهارة المجتمع، سيعلم جيدا أنّه معجزة واضحة وخالدة، ومع وجود هذه المعجزة البيّنة التي تظهر فيها آثار الإعجاز من جهات مختلفة ... من جهة الجاذبيّة الخارقة، ومن جهة المحتوى، الأحكام والقوانين، العقائد والمعارف، وو .. فهل لا زلتم بانتظار معجزة أخرى؟ أي معجزة تقدر

أن تثبت أحقّية دعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أحسن من هذه المعجزة؟ »

---

(١٥٩) في كتاب (المظاهر الرحمانية ص٤٦ ـ ط١ مؤسسة تنظيم ونشر آثار...) نقل عن السيد الخميني أنه قال في رسالته إلى (فاطمة الطباطبائي): « فلغة القرآن لغة يرى كل عالم ومفسر أنه يعرفها ولا يعرفها في الوقت نفسه، فالقرآن الكريم كتاب إعجازي لمعارف مما يكون مجرد تصورها أشد تعقيدا وصعوبة من تصديقها » (التصور هو حصول صورة الشيء في الذهن ...، والتصديق هو الحكم بشيء على شيء إيجابا أو نفيا ...)

وكذلك تُنظر دروسه (ره) عن سورة الحمد التي نشرتها (مؤسسة تنظيم ونشر...) في كتاب فارسي باسم (تفسير سوره حمد ص٩٣ـ ٩٦)

هذا، وروى البرقي في كتابه (المحاسن: ٢/٣٠٠) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « ...، يا جابر ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية يكون أولها في شيء، وآخرها في شيء، وهو كلام متصل منصرف على وجوه »

---

(١٦٠) في الكافي (١/١٦٨) عن منصور بن حازم، قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: « ...، فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجئ والقدري والزنديق الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته...، فقال: رحمك اللّه »

وقال السيد الطباطبائي في مقدمة تفسير الميزان (ج١ ص٥): « واختلفوا ـ أي المفسرون ـ في معنى الأسماء والصفات والأفعال، والسماوات وما فيها، والأرض وما عليها، والقضاء والقدر والجبر والتفويض، والثواب والعقاب، وفي الموت، وفي البرزخ، والبعث، والجنة، والنار، وبالجملة في جميع ما تمسه الحقائق والمعارف الدينية ولو بعض المس، فتفرقوا في طريق البحث عن معاني الآيات، وكلٌّ يتحفظ على متن ما اتخذه من المذهب والطريقة ... »

ولكنه (ره) قد استحسن كثرة الاختلاف في تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة التي ذكر فيها السحر، قال: « ... فهذه نبذة من الاختلاف في تفسير كلمات ما يشتمل على القصة من الآية وجمله، وهناك اختلافات أخر في الخارج من القصة في ذيل الآية وفي نفس القصة، وهل هي قصة واقعة أو بيان على سبيل التمثيل؟ أو غير ذلك؟ وإذا ضربت بعض الأرقام التي ذكرناها من الاحتمالات في البعض الآخر، ارتقى الاحتمالات إلى كمية عجيبة وهي ما يقرب

من ألف ألف ومائتين وستين ألف احتمال ...

وهذا لعمر اللّه من عجائب نظم القرآن تتردد الآية بين مذاهب واحتمالات تدهش العقول وتحير الألباب، والكلام بعد متّك على أريكة حسنة متجمل في أجمل جماله متحل بحلي بلاغته وفصاحته»

وقال الشيخ عبد الله الجوادي في كتابه الفارسي (تسنيم: ٥/٦٨٤ـ ٦٨٥) ـ ما ترجمته ـ: « ...، حيث أن المتكلم الحقيقي للقرآن الكريم هو اللّه، وكل متكلم مخبوء ومستور تحت كلامه، أي أن الفيض الواحد الواسع الإلهي مخبوء طي كلام اللّه ويتصف بنفس الأثر الإلهي، فهو في عين الوحدة ظهر بآلاف مظهر لينظر إليه كل مفسر من منظر خاص

ما نشير إليه هنا... ناظر إلى الكثرة المحمودة والتعدد الممدوح لاحتمالات آية حيث أن كلا منها بمثابة نافذة إلى عالم الخارج والواقع ولن تكون كثرة المرايا غبارا على المرئي الخارجي، خلافا لتراكم السحاب وشدة الغبار حيث يكون حجابا للمرئي فمثلا كثرة الاحتمال في اللغز والمعمى تكون بمثابة الكثير من الدخان والغبار الناشئ عن التعمية والتغشية لنفس المطلب، لكن كثرة الاحتمال في آية قرآنية بمنزلة تلّ من بلّور لكل منه سهم واضح في بيان محتواها

النكتة الفاخرة في كلام الأستاذ العلامة الطباطبائي قدس سره بعد ذكره بالإجمال وجود مليون و... احتمال في تفسير الآية هي قوله (فذكر ترجمة السطرين الأخيرين مما نقلناه عن الميزان)

ويمكن العثور على أفخر منه في *تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة*، إذ جاء فيه في ذيل الآية الأولى من سورة البقرة، وبعد حساب المحتملات المعقولة فيها:

... يحصل أحد عشر ألف ألف ألف ألف وأربعمئة وأربعة وثمانون ألف ألف ألف ومئتان وخمسة آلاف ألف وسبعمئة وسبعون ألفا ومئتان وأربعون ... »

إلى أن قال (في ص٦٨٦): « على أية حال فالآية التي نبحثها قد خرجت وهبطت من ستار الغيب بآلاف مظهر ليشاهدها المفسرون المتعمقون بآلاف من العيون العقلية والنقلية والشهودية ... »

وبقول السيد الطباطبائي أعجب أيضا الشيخ السبحاني في كتابه (.. الإلهيات...: ٣/٣٠٣)، كما أعجب بما أشار إليه السيد من كثرة الاحتمالات في الآية ١٧ من سورة هود

ولكنه في ج٤ ص٢٩ من كتابه المذكور اعتبر الاختلاف في التفسير دليلا على الحاجة إلى إمام، فبعد أن أشار إلى الفراغات الناتجة بموت النبي صلى اللّه عليه وآله قال: « هل كانت الأمة مؤهلة لسد تلك الفراغات؟ ... فلعل هناك من يزعم أن الأمة كانت قادرة على ملء هذه الفراغات، غير أن التاريخ والمحاسبات الاجتماعية يبطلان هذه النظرية ويثبتان أنه لم يقدَّر للأمة بلوغ تلك الذروة لتقوم بسد هذه الثغرات التي خلفها غياب النبي الأكرم، لا في جانب التفسير، ولا ...

أما في جانب التفسير فيكفي وجود الاختلاف الفاحش في تفسير آيات الذكر الحكيم، وقبل كل شيء نضع أمامك كتب التفسير، فلا ترى آية ـ إلا ما شذ ـ اتفق في تفسيرها قول الأمة ... »

ومهما يكن من أمر فقد قال الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن: ١٥١/٢): « وقيل: في القرآن ثلاث آيات في كل منها مائة قول: قوله: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)، (وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)، (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ)

وقد تقدمت شواهد أخرى على اختلاف التفاسير في القسم السابق من هذه المذكرات، وفي قسم (تساؤلات) من ملف العرفان

---

(١٦١) قال اللّه تبارك وتعالى (فصلت: ٢٦): (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)

في تفسير الرازي (٥٥٨/٢٧): « واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل في المعنى، وفي اللفظ، وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه، وأحاط عقله بمعانيه، وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول، فدبروا تدبيرا في منع الناس عن استماعه، فقال بعضهم لبعض: (لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ) إذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته...، والمراد: افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغوا وباطلا، لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس، فبهذا الطريق تغلبون محمدا صلى اللّه عليه وسلّم، وهذا جهل منهم لأنهم في الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل واللّه تعالى ينصر محمدا بفضله »

وفي مجمع البيان (١٦/٩): « ...، لما عجزوا عن معارضة القرآن احتالوا في اللبس على

غيرهم وتواصوا بترك استماعه والإلغاء فيه عند قراءته »

وفي تفسير الميزان (١٧/٣٨٨): « والإشارة إلى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم بالقرآن لإعفاء أثره

والآية تدل على نهاية عجزهم عن مخاصمة القرآن بإتيان كلام يعادله ويماثله أو إقامة حجة تعارضه حتى أمر بعضهم بعضا أن لا ينصتوا له ويأتوا بلغْو الكلام عند قراءة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم القرآن ليختل به قراءته ولا تقرع أسماع الناس آياته فيلغو أثره وهو الغلبة »

---

(١٦٢) قال ابن أبي الحديد (٦/٣٩٠) في شرح نهج البلاغة (الخطبة ٨٨): « وخلاصة هذا الكلام: أن جميع ما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله قاله لأصحابه قد قلت مثله لكم فأطاع أولئك وعصيتم أنتم وحالكم مساوية لحالهم

قلت: لو أن مجيبا منهم يجيبه لأمكن أن يقول له: المخاطَبون وإن كانوا نوعا واحدا متساويا إلا أن المخاطِب مختلف الحال، وذلك لأنك وإن كنت ابن عمه في النسب وأخاه ولحمه ودمه، وفضائلك مشتقة من فضائله، وأنت قبس من نوره وثانيه على الحقيقة ولا ثالث لكما إلا أنك لم ترزق القبول الذي رزقه، ولا انفعلت نفوس الناس لك حسب انفعالها له، وتلك خاصية النبوة التي امتاز بها عنك، فإنه كان لا يسمع أحد كلامه إلا أحبه ومال إليه، ولذلك كانت قريش تسمي المسلمين قبل الهجرة: الصباة، ويقولون: نخاف أن يصبو الوليد ابن المغيرة إلى دين محمد صلّى اللّه عليه وآله، ولئن صبا الوليد وهو ريحانة قريش لتصبون قريش بأجمعها

وقالوا فيه: ما كلامه إلا السحر، وإنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل الخمر، ونهوا صبيانهم عن الجلوس إليه لئلا يستميلهم بكلامه وشمائله، وكان إذا صلى في الحجر وجهر يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفا أن يسحرهم ويستميلهم بقراءته وبوعظه وتذكيره، هذا هو معنى قوله تعالى: (جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم) ومعنى قوله: (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا) لأنهم كانوا يهربون إذا سمعوه يتلو القرآن خوفا أن يغير عقائدهم في أصنامهم، ولهذا أسلم أكثر الناس بمجرد سماع كلامه ورؤيته ومشاهدة روائه ومنظره وما ذاقوه من حلاوة لفظه وسريّ كلامه في آذانهم، وملَك قلوبهم وعقولهم حتى بذلوا المُهج في نصرته

وهذا من أعظم معجزاته عليه السلام، وهو القبول الذي منحه اللّه تعالى، والطاعة التي جعلها اللّه في قلوب الناس له، وذلك على الحقيقة سرّ النبوّة الذي تفرّد به صلوات اللّه عليه، فكيف يروم أمير المؤمنين من الناس أن يكونوا معه كما كان آباؤهم وإخوانهم مع النبي صلّى اللّه عليه وآله، مع اختلاف حال الرئيسين؟! وتساوي الأثرين كما يعتبر في تحققه تساوي حال المحلين يعتبر في حقيقته أيضا تساوي حال العلّتين »

وليس خافيا أن تسويد الكلمات مني

ولا يخفى ما في كلامه من تهافت حيث اعتبر الأمر معجزة رغم تصريحه بأن سبب إسلام أكثر الناس كان كلامه (ص) ورؤية منظره ...

---

(١٦٣) أصاب الدكتور محمد عابد الجابري في اعتباره (الترتيل جزءا من القرآن...)، لكنه لم ينتبه إلى أن لترتيل القرآن دورا مهما في بيان معانيه أيضا مضافا إلى ما أشار إليه من تأثيره في السامع، قال في كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم...) ص١٨٢: « سبق أن أشرنا إلى قوله تعالى يخاطب نبيه الكريم: (**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا**)، وقوله: (**وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا**)، وهذا يدل على أن (ترتيل) القرآن جزء من القرآن نفسه، بمعنى أن مفعول الخطاب القرآني في التأثير في السامعين لا يرجع إلى معانيه وحدها، بل يرجع إلى طريقة قراءته ... »

وعلى أي حال فقد تقدم تفصيل هذا في القسم السابق بعنوان (قراءة خاصة)

---

(١٦٤) في تفسير الرازي: « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وهو كقوله تعالى: وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا »

---

(١٦٥) لكن الرازي قال في تفسيره لقول اللّه تعالى: (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ): « ...، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال: ريح لا يبقى، قال: فما قيده؟ قال: الكتابة . فالقلم صياد يصيد العلوم، يبكي ويضحك، بركوعه تسجد الأنام، وبحركته تبقى العلوم على مر الليالي والأيام، نظيره قول زكريا: (إِذْ نادَى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا) أخفى وأسمع فكذا القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب، فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منورا، كما أنه جعلك بالسواد مبصرا، فالقلم قوام الإنسان والإنسان قوام العين، ولا تقل: القلم نائب اللسان، فإن القلم ينوب عن

اللسـان واللسـان لا ينوب عن القلم... »، ولا يخفى ما في إطلاق كلام الرجل

---

(١٦٦) سيأتي الكلام عن الأمية بعنوان **(الأميون)**

---

(١٦٧) في الفتوحات (١/٧٢): « ... أن العوام بلا خلاف من كل متشرع صحيح العقل عقائدهم سليمة وأنهم مسلمون مع أنهم لم يطالعوا شيئا من علم الكلام ولا عرفوا مذاهب الخصوم، بل أبقاهم اللّه على صحة الفطرة وهو العلم بوجود اللّه تعالى بتلقين الوالد المتشرع أو المربي ... »

---

(١٦٨) إني أستغرب أن الذين استشهدوا بقول اللّه عز وجل: (وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)، و(عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) على تعظيم القلم والكتابة كيف غفلوا عن (ما كانوا يسطرون)، وعن (واقع العلم) الذي كان الناس تعلموه بالقلم ...

هذا، ومن المعروف أن الصوفية يحبذون التحرر مما في الكتب، فمثلا في كتاب (تذكرة الأولياء: ص٣٨٤، ط٩، انتشارات زوار، طهران) نقل (العطار) عن ذي النون المصري أنه أوصى يوسف بن الحسين بثلاثة أشياء أعظمها أن ينسى ما قد قرأه ويمحو ما كتبه ليرتفع الحجاب، فقال: لا أستطيع ذلك ...

ونقله عن العطار الدكتور قاسم غني في كتابه (تاريخ تصوف: ٢/٥٠٨)

هذا وإن أبا يعقوب يوسف بن الحسين الرازي توفي سنة ٣٠٤، وأما ذو النون فهو معروف، توفي سنة ٢٤٦ هـ

وقال جلال الدين البلخي (المثنوي: دفتر٥، الأبيات: ١٩٦١- ١٩٦٤)

بر نوشته هيچ بنويسد كسى	يا نهالى كارد اندر مغرسى
كاغذى جويد كه آن بنوشته نيست	تخم كارد موضعى كه كشته نيست
اى برادر موضع نا كشته باش	كاغذ اسپيد نابنوشته باش
تا مشرف گردى از ن والقلم	تا بكارد در تو تخم آن ذو الكرم

هل يكتب أحد على المكتوب، أو يغرس شتلة في مكان مزروع؟! (إنه) يطلب ورقا غير مكتوب ويزرع أرضا غير مزروعة . أيها الأخ كن موضعا غير مزروع وورقا أبيض غير مكتوب لتتشرف بـ(ن والقلم)، وليزرع فيك (اللّه) ذو الكرم

وقال حافظ الشيرازي:

بشوى اوراق اگر همدست مابى　　　كه علم عشق در دفتر نباشد

اغسل الأوراق (الكتب) إن كنت صاحبنا، فإن علم العشق ليس في كتاب

وقال الشيخ البهائي:

عقل دو عقل است: اول مكسبى　　　كه در آموزى چو درمكتب صبى
از كتاب و اوستاد وفكر وذكر　　　از معانى و ز علوم خوب و بكر
عقل تو افزون شود بر ديگران　　　ليك تو باشى ز حفظ آن گران

العقل عقلان: الأول كسبي كالذي يتعلمه الطفل في المكتب . من الكتاب والأستاذ والتفكر والتذكر والعلوم الحسنة والبديعة يزيد عقلك على الآخرين، لكنك تكون مثقلا من حفظ ذلك

ويُنظر الدكتور قاسم غني في كتابه (بحث در آثار... حافظ: ٢/٥٠٦...)، وقد تقدم في (قصة بشر١)

---

(١٦٩) هذا بناءا على ما سنبينه إن شاء اللّه من أن قدرة الشخص على القراءة، بل وحتى الكتابة، لا تنافي (أميته)

---

(١٧٠) هذا مجرد افتراض نظري فإن المثقف هو الآخر لن يقدر على أن يكون موضوعيا في استماعه لقول ومعتمدا لمعرفة الحق والباطل على تشخيصه وفهمه الشخصي، بل إنه مضافا إلى تأثره بشخصية (القائل) في الاهتمام بقوله أو إهماله ... لن يقدر على فصل (أقوال) القائل عن بعضها تماما فإن تراءى له بطلان قول من أقوال قائل فإنه سيؤثر في اهتمامه بأقواله

الأخرى ...، ولعل ذلك لتأثيره على مكانة (القائل) في نظره ...

---

(١٧١) قال الشيخ مرتضى المطهري ـ كما في مجموعة باسم (انسان كامل ص١٥٦) ـ (ما ترجمته): « عادةً تفسر كتبنا الفلسفية الإيمان الديني بالمعرفة فقط، يقولون: الإيمان في الإسلام يعني المعرفة وحسب، الإيمان بالله يعني معرفة الله، الإيمان بالنبي يعني معرفة النبي، وكذلك الإيمان بالملائكة والمعاد، فكلما ذكرت في القرآن كلمة [الإيمان] قصد منها المعرفة لا غيرها »

وقال في الهامش: « هذا موجود حتى في كلمات المُلا صدرا رغما عن تضمينه الفلسفة شيئا من ذوق العرفاء »

---

(١٧٢) هذا مجرب، وقد يشير إليه قول الله عز وجل (آل عمران: ٧): (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الألْبَابِ)

---

(١٧٣) في نهج البلاغة (الخطبة١): « ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنسانا ذا أذهان... ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل »

وفي تفسير الميزان (١٩/١٩٥): « ...، فإن الإنسان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له فلو بين له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله وإذا عقله اعترفت له فطرته وخضعت له طويته وإن لم يخضع له عملا اتباعا لهوى أو أي مانع يمنعه عن ذلك »

ويُنظر أيضا تفسير الميزان (٩/٤٣)

وفي البحار (ج٧٠ ص٥٨) عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) قال: هو أن يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده، أما إن هو غشي شيئًا بما يشتهي فإنه لا يأتيه إلا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي، يعرف أن الحق ليس فيه . وفي خبر هشام عنه عليه السلام قال: يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق

وفي تفسير البرهان (٢/٧١) ـ نقلا عن محاسن البرقي ـ عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّه يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) قال: يحول بينه وبين أن يعلم

أن الباطل حق

وفـي كتـاب (حدسها وابطالها ـ تخمينات ودحوض...، الترجمة الفارسية لكتاب لـ(كارل بوبر) ـ ص٨)، ـ ما ترجمته ـ : « أسس ديكارت نظريته المتفائلة في علم المعرفة على الرأي المهم القائل بـ(صدق اللّه) . كل ما نراه حقا وصدقا بصورة واضحة يجب أن يكون حقا وصدقا في الواقع، وإلا تبين أن اللّه قد خدعنا، فصدق اللّه يجب أن يكشف الحقيقة

ويلاحظ ما يشبه هذا الكلام في آثار (بيكون) أيضا، والذي بالإمكان تسميته بصدق الطبيعة. الطبيعة كتاب مفتوح، كل من قرأه بذهن نقي فلن يقرأه خطأ، إنما يمكن أن يقع في الخطأ إذا كان قد سمم ذهنه وعقله التعصب والمواقف المسبقة »

---

(١٧٤) قال اللّه تعالى (القيامة: ١٤ـ ١٥): (بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) وقال تعالى (الشمس: ٧ـ ٨): (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

ونقل (الآمـدي) في كتابه (غرر الحكم ص٢٣٣) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « كيف يعرف غيره من يجهل نفسه »، وقوله: « من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم »، وقوله: « من لم يعرف نفسه بعُد عن سبيل النجاة وخبط في الضلال والجهالات »

وقد أورد السيد الطباطبائي الروايات في تفسير الميزان (١٧٤/٦)، وعلق عليها ...

---

(١٧٥) مما يؤيد هذا ويوضحه أن المتكلم الداعي إلى أمر لا بد وأنه يسعى إلى جعل المستمع يؤمن بكلامه، والمستمع المحتاج لا بد وأن يتأثر بإيحاء المتكلم، فإن الإيحاء لا فقط يؤثر في النفس بل ويؤثر في الجسم أيضا، فمثلا نقلت صحيفة (القبس) الكويتية يوم السبت: ٢٠٠٨/١٠/٢٥ عن (رويتر) ما يلي: «كثير من الأطباء الأميركيين يصفون لمرضاهم علاجا إيحائيا (وهميا) عادة ما يكون غير ضار نسبيا مثل مسكنات الآلام .. ويعتبرون هذا ممارسة أخلاقية

فبين ٦٧٩ طبيبا ممارسا عاما ومتخصصا في علاج آلام المفاصل الذين يعالجون مرضى التهاب المفاصل قال نصفهم تقريبا إنهم يصفون العلاج الإيحائي على الأقل مرتين إلى ثلاث

مرات شهريا، وقال معظمهم أنهم لا يبلغون مرضاهم صراحة أنهم يعطونهم علاجا إيحائيا

وقال الباحثون إن الفكرة هي أن هذا العلاج ربما يكون له « أثر إيحائي .. » وهو تحسن حقيقي في الصحة بدافع التوقعات النفسية للاستفادة، وليس الأثر الفزيولوجي للعلاج .. في حالات ربما يكون فيها العلاج العادي غير ضروري

وقال أكثر من ٦٠ في المائة من الأطباء الذين شملهم الاستطلاع الذي نشر في المجلة الطبية البريطانية أن وصف علاج إيحائي شيء جائز أخلاقيا

لكن هذه التصرفات تتناقض مع المعايير التي حددتها الجمعية الطبية الأميركية التي تؤكد أن من غير الأخلاقي استخدام علاج إيحائي دون إبلاغ المرضى بذلك بشكل واضح

وقال الباحث الدكتور جون تيلبرت من مستشفى مايو كلينيك في روتشستر بولاية مينيسوتا الذي عمل بمعاهد الصحة الوطنية عندما أجريت هذه الدراسة « لا أحد في واقع الأمر سأل الأطباء الأميركيين بطريقة نظامية بشأن ما يعتقدونه حيال العلاج الإيحائي »

ونادرا ما يقدم الأطباء الذين يصفون العلاج الإيحائي أقراص السكر الذي يعتقد معظم الناس أنها علاج إيحائي، بل إنهم قالوا أنهم وصفوا عناصر غير ضارة نسبيا مثل الفيتامينات وأدوية مخففة للآلام تباع من دون وصفة طبية. وللعلاج الإيحائي دور مهم في البحوث الطبية. ولاختبار تأثير علاج تتعاطى مجموعة من المرضى في دراسة طبية العلاج المقترح، بينما تتناول مجموعة أخرى علاجا إيحائيا ليس له فاعلية مثل حبوب السكر لأغراض مقارنة الفائدة

لكن الدراسات أظهرت أن إعطاء مرضى علاجا إيحائيا يؤدي في بعض الأحيان إلى تحسن حقيقي في الصحة بسبب توقعات المرضى بأن العلاج ربما يساعدهم »

---

(١٧٦) مثلا في تفسير الآية ٦٤ من سورة النحل قال السيد الطباطبائي: « والمعنى: هذا حال الناس في الاختلاف في المعارف الحقة والأحكام الإلهية، وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتكشف لهؤلاء المختلفين الحق الذي اختلف فيه فيتم لهم الحجة، وليكون هدى ورحمة لقوم يؤمنون يهديهم الله به إلى الحق ويرحمهم بالإيمان به والعمل »

---

(١٧٧) أقصد بتدبر القرآن فتح القلب له فيتأثر ويهتدي به، فإن هذا هو (العاقبة) المنظورة

للقرآن لا العلم بالحقائق...، وكان قد وُضح هذا في القسم السابق من هذه المذكرات، وتتكرر الإشارة إليه

---

(١٧٨) في الكافي (٦١٤/٢) عن عبد اللّه بن سليمان أنه قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عز وجل: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا) قال: قال أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه: بيّنه تبيانا، ولا تهذه هذ الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن أفزعوا قلوبكم القاسية ...

---

(١٧٩) تقدم الكلام عن هذا في القسم السابق تحت عنوان **(القول ثلاثة)**

---

(١٨٠) الظاهر أن هذا ما عبر عنه في رواية الكافي الآنفة بـ(نثر الرمل) ...

---

(١٨١) في الكافي (٦١٦/٢)... عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إذا قرأت القرآن فرفعت به صوتي جاءني الشيطان فقال: إنما ترائي بهذا أهلك والناس . قال: يا أبا محمد اقرأ قراءة ما بين القراءتين: تسمع أهلك، ورجع بالقرآن صوتك فإن اللّه عز وجل يحب الصوت الحسن يرجع فيه ترجيعا

وفي تفسير مجمع البيان (٤٥/١): « **في ذكر ما يستحب للقارئ من تحسين اللفظ وتزيين الصوت بقراءة القرآن:**

البراء بن عازب قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: زينوا القرآن بأصواتكم

حذيفة بن اليمان قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين، وسيجيء قوم من بعدي يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم

علقمة بن قيس قال: كنت حسن الصوت بالقرآن، فكان عبد اللّه بن مسعود يرسل إلي فأقرأ عليه، فإذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا فداك أبي، فإني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: إن حسن الصوت زينة للقرآن

أنس بن مالك، عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: إن لكل شيء حلية، وحلية القرآن

الصوت الحسن

عبد الرحمن بن السائب قال: قدم علينا سعد بن أبي وقاص فأتيته مسلما عليه، فقال: مرحبا يا ابن أخي بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن؟ قلت نعم والحمد لله. قال: فإني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: إن القرآن نزل بالحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا

وتأول بعضهم تغنوا به بمعنى استغنوا به، وأكثر العلماء على أنه تزيين الصوت وتحزينه »

---

(١٨٢) في محاضرة له منشورة في كتاب باسم (نبوت: ص٢٣٠) قال الشيخ المطهري ـ ما ترجمته ـ: « ... ورد في أخبار كثيرة أن (تغنوا بالقرآن)، فكيف هذا والغناء حرام؟ لبعضهم كلام سخيف رد عليه العلماء، وهو أن (تغنوا) ليس من الغناء بالمد بل هو من الغنى بالقصر... ورُدّ بأن العرب لن تستعمل التغني بمعنى الاستغناء، فلا شك في أنه من الغناء

وأجاب العلماء بأن كل صوت حسن لطيف مثير للأحاسيس غناء، لكن الغناء المذموم هو ما يثير الأحاسيس الشهوانية التي تضعف العقل، وأما ما يثير الأحاسيس اللطيفة الرفيعة في الإنسان فيقوي عقل الإنسان وينيره ويزيد ضمير الإنسان ضياءا، ويجري دموعه ويذكره بربه فهذا غناء كذلك لكنه ليس مذموما لارتباطه بالأحاسيس الإنسانية ...

نحن نعلم اهتمام الإسلام منذ البدء بأن يقرأ القرآن بصوت حسن ...، وحتى النبي الأكرم (ص) كان يطلب من الصحابة أن يقرأوا القرآن عليه...، إنه كان يعلم القرآن لكنه كان يلتذ بسماعه... لأن للسماع قيمة خاصة، إنه ليس للعلم والفكر، ما يعلمه الفكر كان تكراره لغوا، ولكن القلب كلما تجدد حرك فيه الإحساس ... »

انتهى ما أردت نقله من كلام الشيخ (ره)، ولا يخفى غرابة بعض ما ورد فيه كقوله: (ورد في أخبار كثيرة أن تغنوا بالقرآن) ولم يرد ذلك إلا في روايتين عاميتين، وعدّه قول من فسر (التغني) بـ(الاستغناء) سخيفا، وادعاؤه أن العرب لن تستعمل التغني بمعنى الاستغناء، وفي (الصحاح) للجوهري: « وتغنى الرجل: أي استغنى، وأغناه اللّه . وتغانوا: أي استغنى بعضهم عن بعض »، ولعل ذلك كان قد جرى سهوا على لسانه

(١٨٣) ستأتي لاحقا إشارة إلى (السجع) في القرآن

---

(١٨٤) مر آنفا ما أشار إليه في كتاب (مجمع البيان)

---

(١٨٥) ركز عليه الشيخ المطهري حسبما نقل عنه في كتاب (نبوت ـ النبوة) ص٢٣١...، وذكر في ص٢٣٣ ترجمة مقطع من كتاب (مرآة الإسلام) لـ(طه حسين)، نصه في ص١٥٨ كما يلي: « وجاء اختراع الإذاعة فكثرت إذاعة القرآن يصوت به أصحاب الأصوات الحسان في البلاد الإسلامية وفي البلاد الأجنبية التي توجه الإذاعة إلى المسلمين لأسباب سياسية وغير سياسية

فالقرآن يتلى في الإذاعات الأوروبية والأمريكية وهو يتلى على أنه إمتاع للمستمعين بحسن الأصوات . ولكن كثيرا من المستمعين يسمعونه لنفسه أولا وللأصوات التي تتلوه ثانيا وما يكون فيها من تطريب »

وفي كتاب (آشنايي با قرآن ـ التعرف على القرآن ـ ٥/٢٢٩) نقل عنه ـ أي الشيخ المطهري ـ أنه قال ـ ما ترجمته ـ : « بقاء القرآن مدين لثلاثة أمور: الأول أن مطالبه فطرية، والثاني أن يُبين بعبارات فصيحة، والثالث أنه لحِّن تلحينا جعله قابلا للتلاوة باللحن ...

و(...) الذي يفعل المعجز حقا، إنه واع جيدا أن يقرأ كل آية بلحن مناسب لها . فلحن (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) مثلا هو ما يقرأه به ... »

وقد ذكر اسم القارئ فحذفناه ووضعنا مكانه نقاطا بين قوسين

وفي كتاب (حماسه حسينى ـ الحماسة الحسينية) ج١ ص٢٢٤ قال ـ ما ترجمته ـ : « وإحدى معاجز القرآن تقبله للحن

ما الذي جعل قرآنَ (...) رائجا بهذه الدرجة في كل العالم الإسلامي؟ لأنه يقرأ القرآن بلحن رفيع مع العلم بأنواع القراءات والألحان والمعرفة باللحن الذي تُقرأ به كل سورة ... »

وقد ذكر اسم القارئ فحذفناه كذلك ووضعنا مكانه نقاطا بين قوسين

ويُنظر أيضا كتاب (نبوت ص٢٣٦)

---

(١٨٦) روى أبو الفرج في كتابه (الأغاني: ٣٧١/١٨) عن أحدهم أنه قال: كنا بين يدي المعتصم ذات ليلة نشرب إلى أن سكرنا جميعا، فقام فنام، وتوسدنا أيدينا ونمنا في مواضعنا، ثم انتبه فصاح فلم يجبه أحد، وسمعنا صياحه فتبادرنا نسأل عن الغلمان فإذا (مخارق) قد انتبه قبلنا فخرج إلى الشط يتنسم الهواء واندفع يغني فتلاحق به الغلمان جميعا، فجئت إلى المعتصم فأخبرته وقلت: مخارق على الشط يغني والغلمان قد اجتمعوا عليه فليس فيهم فضل لشيء غير استماعه، فقال لي: يا بن حمدون عذر واللّه وأي عذر! ثم جلس وجلسنا بين يديه إلى السحر

وفي ص٣٦٨ حكى عن رجل من أهل البصرة كان يألف مخارقا ويصحبه أنه قال: كنت معه مرة في طيار ليلاً وهو سكران، فلما توسط دجلة اندفع بأعلى صوته فغنى، فما بقي أحدٌ في الطيار من ملاح ولا غلام ولا خادم إلا بكى من رقة صوته، ورأيت الشمع والسرج من جانبي دجلة في صحون القصور والدور يتسارعون بين يدي أهلها يستمعون غناءه

وقال ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد: ج٧ ص٦): « وقال أحمد بن أبي داود: إن كنت لأسمع الغناء من مخارق عند المعتصم فيقع عليّ البكاء »

---

(١٨٧) الشيخ مرتضى المطهري في كتاب (نبوت: ص٢٣٠)، وقد نقلناه قبل قليل

---

(١٨٨) كمثال، قال مدرس الفلسفة بجامعتي القاهرة وعين شمس الدكتور (محمد فتحي الشنيطي) في كتابه (وليم جيمس ص١٦٦): « ... بينما تهدف الفلسفة الموضوعية الخالصة إلى التحرر من الرغبة والتجرد من العاطفة بغية الوصول إلى الحقيقة »

وقد تقدم الكلام عن هذا في القسم السابق

---

(١٨٩) قال اللّه تبارك وتعالى (ص: ٢٩): (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ)، وقال تعالى (محمد: ٢٤): (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) ...

---

(١٩٠) في تعليق على كتاب (اصول فلسفه ـ أصول الفلسفة) للسيد الطباطبائي قال الشيخ المطهري (مجموعه آثار: ٩٦١/٦): « ...، يعرض القرآن بصدد اللّه وما وراء الطبيعة مسائل مثل

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى، وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ، هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُوم، يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَاب، وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ ... وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ، فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلبِكَ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ

وآيات أخرى من هذا القبيل »

ثم قال ـ ما ترجمته ـ : « هذه المسائل ليست قابلة للإدراك بمطالعة المخلوقات، فإما أن نقبلها كمجهولات لا تنحل، ونفترض أن القرآن لم يهدف من ذكره لها إلى شيء، وإنما أراد أن يذكر عددا من ألغاز غير مفهومة لتحير الإنسان، وعلى الناس أن يتقبلوها تعبدا وتقليد أعمى كما قبل النصارى التثليث، وإما أن نعترف بأن هناك علما وفنا رسالته حل هذه المسائل

لا شك في أن القرآن كان قد ألقى هذه المسائل كدروس هدفه منها أن تدرَك أعماقها، لذلك ذكر من جهة هذا النمط من المسائل، ومن جهة أخرى أمر بالتدبر في آيات القرآن:

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ

وفي القرآن مورس الاستدلال التعقلي المحض لبعض المسائل، مثل:

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا

كلمات أئمة الدين مشحونة بهذا النوع من الاستدلال. ظهر في العالم الإسلامي وخاصة في التشيع إلهيات ثرية وعميقة جدا . سببه الأساس الدروس التي كان القرآن قد ألقاها وأمر بالتدبر فيها . لقد وُضحت تلك الدروس فيما قام به الأئمة الأطهار، لا سيما أمير المؤمنين عليه السلام، في الخطب، ومجالس الدروس، والأدعية، والاحتجاجات، فلدينا الآن كنز ثمين جدا لا مثيل له وإن كنا لا نقدره »

انتهى ما أردت نقله من كلام الشيخ (ره)، ولم يكن بدعا من المفكرين، فجلهم، لولا كلهم، ذهبوا في (تدبر القرآن) إلى ما ذهب إليه، وقد نقلنا في القسم السابق من هذه المذكرات شيئا مما ذكروه بهذا الصدد

وأذكر هنا مثالين لما تواجهه هذه الطريقة من مشاكل:

١ـ إثبات (التوحيد) بالقسم

في تفسير قول اللّه تعالى (الصافات: ١ـ٥): ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا. فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا. فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا . إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ . رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ قال الرازي في تفسيره: « فإن قيل ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق، وبيانه من وجوه الأول: أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر، والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات. الثاني: أنه تعالى حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد، وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾، وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء

والجواب من وجوه: الأول: أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها، فذكر القسم تأكيدا لما تقدم لا سيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب

والوجه الثاني: في الجواب: أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحدا، وهو قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾، وذلك لأنه تعالى بين في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فههنا لما قال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ أردفه بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم دل على كون الإله واحدا فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد

الوجه الثالث: في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل: هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله

مثل هـذه الحجة . واللّه أعلم »

٢ـ نظم الآيـات

كذلك ـ حول الآيات الأولى من سورة (ص) ـ قال الرازي: « المسألة الثانية: في تقرير نظم هـذه الآيات، فنقول: لسائل أن يسأل فيقول: إنه تعالى حكى في أول السورة عن المستهزئين من الكفار أنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة، وقالوا: (رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِساب)، ولما حكى اللّه تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب بل قال: (اصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ)، ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق، ثم إنه تعالى أطنب في شرح قصة داود، ثم أتبعه بقوله: (وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ)، ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة اللّه بقصة داود، ثم لما ذكر إثبات حكمة اللّه وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابا شريفا فاضلا؟ هذا تمام السؤال

والجواب: أن نقول: إن العقلاء قالوا: من ابتلي بخصم جاهل مصر متعصب، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى، فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة، فإذا سلمها، فحينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعا مفحما

إذا عرفت هذا فنقول: إن الكفار بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء: (رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ) فقال: يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة، واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة، وهي قصة داود عليه السلام، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر . ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة ثم قال في آخر القصة: (يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ

فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ)، وكل من سمع هذا قال: نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق، ثم كأنه تعالى قال: وأنا لا آمرك بالحق فقط، بل أنا مع أني رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أقضي بالباطل، فههنا الخصم يقول: نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق، فعند هذا يقال: لما سلمت أن حكم اللّه يجب أن يكون بالحق لا بالباطل، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحا على المسلم في إيصال الخيرات إليه، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل

فبهذا الطريق اللطيف أورد اللّه تعالى الإلزام القاطع على منكري الحشر والنشر إيرادا لا يمكنهم الخلاص عنه، فصار ذلك الخصم الذي بلغ في إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحما ملزما بهذا الطريق

ولما ذكر اللّه تعالى هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل فقال: (كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبابِ)، فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم حيث يراه في ظاهر الحال مقرونا بسوء الترتيب، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب

فهذا ما حضرنا في تفسير هذه الآيات، وباللّه التوفيق » انتهى كلام الرازي

هذا، ومن المعروف الاستناد إلى كون القرآن معجزا بنظمه، فمثلا ـ بعد أن قال الرازي في تفسيره (١١٧/٢ـ ١١٨): « اعلم أن التحدي بالقرآن جاء على وجوه: ...، ورابعها قوله: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) ... » ـ قال: « ... الضمير في قوله (مِنْ مِثْلِهِ) إلى ماذا يعود؟ وفيه وجهان: أحدهما أنه عائد إلى (مَا) في قوله: (مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) أي فأتوا بسورة مما هو على صفته في الفصاحة وحسن النظم »

وجاء في تفسير الميزان (٦٨/١): « وقد تحدى القرآن بالبلاغة كقوله تعالى: ...

وقوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)... والآية أيضا مكية وفيها التحدي بالنظم والبلاغة فإن ذلك هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ، فالتاريخ لايرتاب أن العرب العرباء بلغت من البلاغة في الكلام مبلغا لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم والمتأخرة عنهم، ووطئوا موطئا لم تطأه أقدام غيرهم في كمال البيان

وجزالة النظم ووفاء اللفظ ورعاية المقام وسهولة المنطق »

هـذا، وأعود إلى ما أوردت هـذا الكلام الطويل لأجله فأقول: لو كان تدبر آيات القرآن، لا بالمعنى الذي ذكروه، بل بالمعنى الذي شرحناه في القسم السابق، لكانت الآيات (تصريفا) لا بد منه للهدى، ولم يرد عليه الإشكال الذي صوره (الرازي) بجرأة وصراحة نادرتين خاصتين به...، ثم حاول أن يدفعه بما لا يخفى غرابته

وسيأتي معنى (التصريف) لاحقا

---

(١٩١) في الكافي (٦/٤٣١) عن محمد بن مسلم أنه قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: الغناء مما وعد اللّه عز وجل عليه النار، وتلا هـذه الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنَ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

---

(١٩٢) بعد أن أورد الشيخ الحر العاملي الروايات الحاثة على تحسين الصوت في قراءة القرآن، قال في كتابه (وسائل الشيعة: ٦/٢١٢): « أقول: ما يخفى على منصف أن تحسين الصوت لا يستلزم كونه غناء، فلا بد من تقييده بما لا يصل إلى حد الغناء ... »

ويُنظر ج٢٢ ص٤٥ـ ٤٦ من كتاب (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) للشيخ محمد حسن النجفي

---

(١٩٣) مر آنفا ما نسبه الشيخ المطهري في كتاب (نبوت: ص٢٣٠) إلى العلماء، وأيده، من أن كل صوت حسن لطيف مثير للأحاسيس غناء، لكن الغناء المذموم هو ما يثير الأحاسيس الشهوانية التي تضعف العقل ...

---

(١٩٤) أقصد بالإيمان الصادق الشامل إيمان جميع الميول الفطرية بحيث يعلم المؤمن أنه إيمان ...

وقد فصل معنى (الإيمان) في القسم السابق من هذه المذكرات

---

(١٩٥) قال الراغب في (المفردات) « والتلاوة تختص باتّباع كتب اللّه المنزلة، تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب، أو ما يتوهم فيه ذلك، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، لا يقال: تلوت رقعتك، وإنما يقال في القرآن في شيء إذا قرأته وجب عليك اتباعه ... »

وفي كتاب (پيامبر امى – النبي الأمي – ص٣٩) قال الشيخ مرتضى المطهري – ما ترجمته – : « كما قال الراغب في المفردات تختص التلاوة بقراءة آيات مقدسة، خلافا لكلمة (القراءة) التي هي أعم »

وأكد ذلك في ص٦٠ ...

ولكن السيد الطباطبائي فسر (التلاوة) بالقراءة، فقد قال في (تفسير الميزان): « قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)، تلاوة الكتاب: قراءة القرآن، وقد أثنى عليها اللّه سبحانه ... »

ويبدو ذلك أيضا من الرازي إذ قال في تفسيره (٢٣٧/٢٦): « وفي الآيتين حكمة بالغة، فقوله: إنما يخشى اللّه إشارة إلى عمل القلب، وقوله: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ) إشارة إلى عمل اللسان، وقوله: (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) إشارة إلى عمل الجوارح ... »

وفي تفسير قول اللّه تعالى: (وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ) قال الشيخ الطوسي في (التبيان): « فالتلاوة، والقراءة، والدراسة، نظائر. يقال: فلانٌ يتلو تلاوة، فهو تالٍ أي تابع. والمتالي: الأمهات إذا تلاهن الأولاد. والواحد: متل . وناقة متلية: وهي التي تنتج في آخر النتاج. وأصل الباب: الاتباع. فتسمى التلاوة بذلك لاتباع بعض الحروف فيها بعضا. والفرق بين التلاوة والقراءة، أن أصل القراءة جمع الحروف، وأصل التلاوة: اتباع الحروف. وكل قراءةٍ تلاوة، وكل تلاوةٍ قراءة

وحدّ الرماني: التلاوة: ما به صوت يتبع فيه بعض الحروف بعضا »

وفي تفسير قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللّه...) قال صاحب التفسير الأمثل: « بديهي أنّ (التلاوة) هنا لا تعني مجرّد القراءة السطحية الخالية من التفكّر والتأمّل، بل قراءة تكون سببا وباعثا على التفكّر الذي يكون بدوره باعثا على العمل الصالح الذي يربط الإنسان باللّه من جهة، ومظهر ذلك الصلاة، ويربطه بخلق اللّه من جهة ثانية، ومظهر ذلك

الإنفـاق مـن كلّ مـا تفضّل به اللّه تعالى على الإنسـان، مـن علمه، من ماله وثروتـه ونفوذه، من فكـره الخـلاق، من أخلاقـه وتجاربه، مـن جميع ما وهبـه اللّه ...

ومع الالتفـات إلى مـا ورد في هـذه الآية والآية السـابقة نسـتنتج أنّ العلمـاء حقّـا هـم الذين يتّصفـون بالصفـات التاليـة:

قلوبهم مليئة بالخشية والخوف من اللّه المقترن بتعظيمه تعالى

ألسنتهم تلهج بذكر اللّه وتلاوة آياته

يصلّون ويعبدون اللّه

ينفقون في السرّ والعلانية ممّا عندهم ... »

---

(١٩٦) أجـاد الراغـب بقولـه في (المفـردات): « (وَاتَّبَعُـوا مـا تَتْلُوا الشَّـياطِينُ عَلَـى مُلْـكِ سُـلَيْمانَ) ...، واستعمل فيه لفظ التلاوة لما كان يزعم الشيطان أنّ ما يتلونه من كتب اللّه ... »

ولا أدري لِمَ لـم ينتبـه إلى هـذا المعنى الواضـح بعض المفسـرين بـدلا من أن يذهبوا بعيـدا، فمثـلا في تفسير الرازي (٣/٦١٧): « ذكروا في تفسير (تَتْلُو) وجوهـا، أحدهـا: أن المراد منه التلاوة والإخبار، وثانيها: قال أبو مسلم: (تتلو) أي تكذب على ملك سليمان . يقال: تلا عليه إذا كـذب، وتـلا عنه، إذا صدق، وإذا أبهم جـاز الأمران . والأقرب هو الأول لأن التلاوة حقيقة في الخبر، إلا أن المخبر يقـال في خبره إذا كان كذبـا: إنه تلا فلان وإنه قد تلا على فلان ليميز بينه وبين الصـدق الـذي لا يقـال فيه: روي عن (ظ: على) فـلان، بل يقـال: روي عن فلان وأخبر عن فلان وتـلا عن فـلان، وذلـك لا يليق إلا بالأخبـار والتـلاوة، ولا يمتنـع أن يكـون الـذي كانـوا يخبرون بـه عـن سـليمان ممـا يتـلى ويقـرأ فيجتمع فيـه كل الأوصاف »

وفـي تفسـير الميـزان (٢٣٣/١): « قوله تعالى: (...) قـد اختلف المفسـرون في تفسـير الآية اختلافـا عجيبـا لا يـكاد يوجـد نظيره في آيـة من آيـات القـرآن المجيـد ...

واختـلفوا في قولـه: (تَتْلُو) هـل هـو بمعنى: تتبـع الشـياطين وتعمـل بـه، أو بمعنـى تقـرأ، أو بمعنـى تكـذب؟ »

إلـى أن قـال: « ... (مـا تتلو) أي تضـع وتكـذب الشـياطين مـن الجن على ملـك سـليمان، والدليـل على أن (تتلو) بمعنى تكـذب تعديـه بعلى »

وقـال: « في تفسير العياشي، والقمي: في قوله تعالى: (...) عن الباقر عليه السلام ـ في حديث ـ : فلما هلك سليمان وضع إبليس السحر وكتبه في كتاب، ثم طواه وكتب على ظهره: هذا ما وضع آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، من أراد كذا وكذا فليعمل كذا وكذا، ثم دفنه تحت سريره، ثم استثاره لهم ...

أقول: ... وظاهر الحديث أن كلمة تتلوه من التلاوة بمعنى القراءة وهذا لا ينافي ما استظهرناه في البيان السابق: أن تتلو بمعنى يكذب لأن إفادة معنى الكذب من جهة التضمين أو ما يشبهه، وتقدير قوله: (تَتْلُو الشَّياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ) يقرءونه كاذبين على ملك سليمان، والأصل في معنى تلا يتلو رجوعه إلى معنى ولي يلي ولاية وهو أن يملك الشيء من حيث الترتيب ووقوع جزء منه عقيب جزء آخر، وسيأتي الكلام فيه في سورة المائدة... »

---

(١٩٧) لا أقصد بـ(التعقل) التعقل الرسمي، بل أقصد التعقل الطبيعي الذي يمارسه الناس في حياتهم، وإن اختلفوا فيما يتعقلونه نتيجة لاختلاف اهتماماتهم ...

---

(١٩٨) ليس خافيا أن لحن الكلام هو الذي يجعله إخبارا عن حقيقة موضوعية، أو بعثا ودعوة إلى شيء، أو استهزاءا ...، بلا تغير في كلماته وحروفه ...

وسيأتي الكلام عن هذا، وعن معنى (اللحن)، في القسم اللاحق من هذه المذكرات، تحت عنوان **(للقاتل سهم)**

---

(١٩٩) ذلك لما أرى من أن (التعقل) عمل القلب، وبما أن الحب أيضا من عمل القلب، وبما أن أعمال القلب (السليم) متعاونة لا متهافتة فما تعقله أحبه، وحب القلب لشيء هو الذي يجعله يتعقله، وإلا لطغى الشيء وخرج عن سلطانه...، وكذلك تعقله للشيء هو الذي يمنع الحب عن الطغيان والخروج عن طوره ...، ومما ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن تعقل القلب يجري بصورة عفوية لا يكاد يُشعر به، خلافا لما يسمى (التعقل) عند أصحاب (الفكر) فإنه لن يتم إلا بـ(تكلف) ...

هذا، وكان الشيخ مرتضى المطهري قد انتبه إلى ضرورة التعامل مع القرآن بالقلب لكنه، لاعتماده لذلك العقل (المنطقي) أيضا، لم يحدد طريقة للجمع بين الأمرين عند قراءة القرآن .

في (آشنايي با قرآن ـ التعرف على القرآن ـ ج١ ص٣٥) أنه قال ـ ما ترجمته ـ : « إحدى وظائف القرآن التعليم، فهو بهذا اللحاظ يخاطب عقل الإنسان ويكلمه بلسان المنطق والاستدلال . إلا أن له لسانا آخر أيضا لا يخاطب العقل، بل القلب، ويسمى هذا الإحساس . من أراد أن يتعرف على القرآن ويأنس به يجب أن يكون عالما باللسانين ويستفيد منهما معا، فتفكيكهما عن بعض يوجب الخطأ والغلط والخسران ... »

ومهما يكن من أمر فإن من أمثلة التأثر بالقرآن من دون التدبر والتعقل ما في الكافي (٦١٦/٢) عن جابر أنه قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن قوما إذا ذكروا شيئا من القرآن أو حدثوا به صعق أحدهم حتى يرى أن أحدهم لو قطعت يداه أو رجلاه لم يشعر بذلك. فقال: سبحان اللّه! ذاك من الشيطان، ما بهذا نعتوا، إنما هو اللين والرقة والدمعة والوجل

هذا، ونقل أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه (أخبار الحمقى والمغفلين: ١٣٧/١) عن الجاحظ أنه قال: أخبرني يحيى بن جعفر قال: كان لي جار من أهل فارس، وكان بلحية ما رأيت أطول منها قط، وكان طول الليل يبكي فأنبهني ذات ليلة بكاؤه ونحيبه وهو يشهق ويضرب على رأسه وصدره، ويردد آية من كتاب اللّه تعالى، فلما رأيت ما نزل به قلت: لأسمعن هذه الآية التي قتلت هذا وأذهب نومي، فتسمعت عليه فإذا الآية: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى) ...

---

[٢٠٠] لعل هذا معنى ما ورد في الكافي (٦١٤/٢): « عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر، فإنه سيجيء من بعدي أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية، لا يجوز تراقيهم، قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبه شأنهم »، بأن يكون المقصود من (القراءة بألحان العرب وأصواتها) الأساليب التي يقرأ العرب بها بطبيعتهم ...

---

[٢٠١] في الكافي (٦٣٢/٢) عن القداح أنه قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: اقرأ، قلت: من أي شيء أقرأ؟ قال: من السورة التاسعة قال: فجعلت ألتمسها، فقال: اقرأ من سوة يونس قال: فقرأت: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ) قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: إني لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن

وفي مسند أحمد (١/٣٧٤): « عن أبي حيان الأشجعي عن ابن مسعود، قال: قال لي: اقرأ عليَّ من القرآن . قال: فقلت له: أليس منك تعلمته وأنت تقرئنا؟! فقال: إني أتيت النبي صلى اللّه عليه وسلم ذات يوم فقال: اقرأ عليّ من القرآن، قال: فقلت: يا رسول اللّه أليس عليك أنزل ومنك تعلمناه؟! قال: بلى ولكني أحب أن أسمعه من غيري ...

وعن ابن مسعود قال: قرأت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من سورة النساء، فلما بلغت هذه الآية: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا) قال: ففاضت عيناه صلى اللّه عليه وسلم »

---

(٢٠٢) قال اللّه عز وجل (الأنعام: ١٥٥): (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

أرى أن الناس يتعاملون مع ما يهتمون به من المقالات بأحد طريقين: إما يستفيدون منه للوصول إلى ما يستهدفونه، وإما يستهدفونه بنفسه . فعلى الأول لا يركزون عليه ولا يدققون فيه إلا بمقدار ما يتطلبه هدفهم...، وعلى الثاني يكبون عليه ويتعمقون فيه، وأجد أن هذا هو (الخوض) في الآيات الذي ذمه القرآن، وأمر النبي (ص) بالإعراض عمن يفعلونه، فإن الخوض في الأمر: الدخول فيه، كما في (المصباح المنير) مثلا ...، فالخوض في مقال: الدخول فيه باستهدافه نفسه، والخوض في آيات اللّه الالتهاء بها واللعب بكلماتها ... بدلا من الاستفادة منها للذكر والاهتداء مثلما يستفاد من المصابيح ...

هذا، وأما قول اللّه تعالى (النساء: ١٤٠): (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ...) فلا دلالة فيه على أن كل حديث يخاض فيه لابد وأن يكون مما يستهزأ فيه بالحق، إلا أن يقصد بالاستهزاء لا خصوص السخرية المتعمدة، بل مطلق اللهو واللعب وتحريف الحق عن موضعه، فكل حديث لا يُستهدف به هدف جاد كان لهوا ولعبا وهزوا، فتكون الآية الكريمة كقوله عز وجل (الأنعام ٧٠): (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

وعلى هذا ـ أي على أن يكون كل خوض في حديث لعبا ولهوا ولغوا ـ فالحديث الذي يخاض فيه نوعان: إما أنه ليس من آيات اللّه عز وجل، فإنه ليس مما يستهدفه المؤمن، فالخوض فيه لغو ...

وإما إنه من آيات اللّه عز وجل فالخوض فيه تحريف له عن موضعه، وكفر به واستهزاء به ولو لم يقصد ذلك فلا يرضى به المؤمن، فالأمر بـ(الإعراض) عن الخائضين في آيات اللّه في قوله تعالى: (الأنعام: ٦٨): (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) - إلخ - تذكير وإرشاد كما يستشف ذلك من الآية نفسها ومما تلاها وهو قول اللّه تعالى: (وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

ثم وإن إعراض النبي (ص) عن الخائضين في آيات اللّه المأمور به قد يكون لردعهم عن الخوض في آيات اللّه، لا نهيا له (ص) عن مجالستهم كما جاء في تفسير الميزان (١٤٠/٧) حيث قال: « والمراد بالإعراض عدم مشاركتهم فيما يخوضون فيه كالقيام عنهم والخروج من بينهم أو ما يشابه ذلك مما يتحقق به عدم المشاركة، وتقييد النهي بقوله: (حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) للدلالة على أن المنهي عنه ليس مطلق مجالستهم والقعود معهم، ولو كان لغرض حق، وإنما المنهي عنه مجالستهم ما داموا مشتغلين بالخوض في آيات اللّه سبحانه ... »

هذا، وقال ابن عربي في الفتوحات المكية (٤٦٨/٤، ط١، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت ١٩٩٨): « إياك والمراء في القرآن ...، وهو الخوض فيه بأنه محدث أو قديم، أو هل هذا المكتوب في المصاحف والمتلو المتلفظ به عين كلام اللّه أو ما هو عين كلام اللّه، فالكلام في مثل هذا والخوض فيه هو الخوض في آيات اللّه، وهذا هو المراء والجدال في القرآن الداخل في قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ)، فسماه حديثا، وليس إلا القرآن، فلو أراد آيات غير القرآن لقال فيها بضمير الآية أو الآيات، فليس للذكورية هنا دخول إلا إذا أراد آيات القرآن، والقرآن خبر اللّه والخبر عين الحديث وقال: (مَا يَأْتِيهِمْ من ذِكْرٍ) و(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)، والذكر الحديث »

وفي تفسير الرازي: « (...)...، ولفظ الخوض في اللغة عبارة عن المفاوضة على وجه العبث واللعب، قال تعالى - حكاية عن الكفار - : (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) وإذا سئل الرجل عن قوم فقال: تركتهم يخوضون، أفاد ذلك أنهم شرعوا في كلمات لا ينبغي ذكرها، ومن الحشوية من تمسك بهذه الآية في النهي عن الاستدلال والمناظرة في ذات اللّه تعالى وصفاته، قال: لأن ذلك خوض في آيات اللّه، والخوض في آيات اللّه حرام بدليل هذه الآية

والجواب عنه: أنا نقلنا عن المفسرين أن المراد من (الخوض) الشروع في آيات اللّه تعالى على سبيل الطعن والاستهزاء، وبينا أيضا أن لفظ (الخوض) وضع في أصل اللغة لهذا المعنى،

فسقط هذا الاستدلال والله أعلم »

انتهى كلامه، ويقصد أن الخوض في آيات الله خاص بالكفار فلا يشمل المناظرة في الدين ...

هذا، وفي تفسير العياشي عن ربعي بن عبد الله عمن ذكره عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال ـ في قول الله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا) ـ: « الكلام في الله والجدال في القرآن ... »

وفي (سنن الدارمي: ١/١٢١): أخبرنا أحمد بن عبد الله، حدثنا فضيل عن ليث عن أبي جعفر محمد بن علي قال: « لا تجالسوا أصحاب الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله »

---

(٢٠٣) أقصد بتدبر القرآن لا (التفكر) كما تُسولم عليه، بل أرى أن معناه: جعله ذا دبر في القلب، وقد تقدم الكلام عن هذا في القسم السابق من هذه المذكرات، وسيشار إليه قريبا

---

(٢٠٤) في قول الله تبارك وتعالى (يونس: ٥٣): (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ) قال الرازي: « ثم إنه تعالى أمره أن يجيبهم بقوله: (قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ) والفائدة فيه أمور: أحدها أن يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر أن من أخبر عن شيء وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله في باب الجد. وثانيها أن الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي بل ينتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم فإن الأعرابي الذي جاء الرسول عليه السلام، وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم، فكذا هاهنا »

وقد مر ما قاله بصدد (القسم) في تفسير أول سورة الصافات

هذا، وقد فسرت الآية في تفسير الميزان بما يلي: « وقد أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤكد القول في إثباته من جميع جهاته، وبعبارة أخرى أن يجيبهم بوجود المقتضي وعدم المانع

فقوله: (قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ) إثبات لتحققه وقد أكد الكلام بالقسم والجملة الإسمية

وإن واللام، وقوله: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم »

وفي التفسير الأمثل: « ....، ومن المعلوم أنّ (الحق) هنا ليس في مقابل الباطل، بل المراد منه هو: هل إنّ لهذه العقوبة حقيقة وواقعا وأنّها ستتحقق؟ لأنّ الحق والتحقق مشتقان من مادة واحدة، ومن البديهي أنّ الحق في مقابل الباطل بهذا المعنى الواسع سيشمل كل واقع موجود، وستكون النقطة المقابلة له كل معدوم وباطل » ثم ذكر نحوا مما جاء في تفسير الميزان

---

[٢٠٥] هذا مجرب ....، ومما أرى أنه يشير إليه ما رواه الكافي (١/١٦٩) عن منصور بن حازم أنه قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: « ... فعرفت أن القرآن لا يكون حجة إلا بقيّم، **فما قال فيه من شيء كان حقّا** ...

فأشهد أن عليّا عليه السلام كان قيّم القرآن، وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على الناس بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وأن **ما قال في القرآن فهو حقّ**

فقال: رحمك اللّه »

ولا يخفى أن تعريض بعض الكلمات مني

وقد تقدم في القسم السابق من هذه المذكرات كلام عن الحاجة إلى الشاهد

---

[٢٠٦] يُنظر القسم السابق من هذه المذكرات فقد شُرح فيه معنى (القرآن) ...

---

[٢٠٧] كما تقدم في القسم السابق يرى كاتب هذه الأوراق أن الإيمان ـ بمعنى الاندفاع إلى ما يُؤمن به ـ فطري، وأنه لولاه لن يحصل الهدى كما في قول اللّه عز وجل (يونس: ٩): (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ...) ...

---

[٢٠٨] لا يقتصر هذا على تلاوة القرآن بل يشمل عامة الكلام، قال الشعراني في كتابه (اليواقيت والجواهر: ١/٣١): إن أبا العباس بن سريج « تنكّر مرة ثم حضر مجلس أبي القاسم الجنيد ليسمع منه شيئا مما يشاع عن الصوفية، فلما انصرف قالوا له: ما وجدت؟ قال: لم أفهم من كلامه شيئا إلا أن صولة الكلام ليست بصولة مبطل »

وابن سريج هو أحمد بن عمر (٢٤٩-٣٠٦): فقيه الشافعية في عصره، مولده ووفاته ببغداد، له نحو ٤٠٠ مصنف ...، كذلك ذكره الزركلي في الأعلام

---

(٢٠٩) سيأتي الكلام عن هذا في القسم اللاحق بعنوان (**وللسامع** ...)

---

(٢١٠) قال ابن الجوزي في كتابه (أخبار الحمقى والمغفلين ص١٤٠): « في ذكر المغفلين من المعلمين، وهذا شيء قل أن يخطئ ونراه مطردا، ولا نظن السبب في ذلك إلا معاشرة الصبيان، وقد بلغني أن بعض المؤدبين للمأمون أساء أدبه على المأمون وكان صغيرا، فقال المأمون: ما ظنك بمن يجلو عقولنا بأدبه ويصدأ عقله بجهلنا، ويوقرنا بزكاتنا ونستخفه بطيشنا، ويشحذ أذهاننا بفوائده ويكل ذهنه بغينا، فلا يزال يعارض بعلمه جهلنا، وبيقظته غفلتنا، وبكماله نقصنا حتى نستغرق محمود خصاله ويستغرق مذموم خصالنا، فإذا برعنا في الاستفادة برع هو في البلادة، وإذا تحلينا بأوفر الآداب تعطل من جميع الأسباب، فنحن الدهر ننزع منه آدابه المكتسبة فنستفيدها دونه ونثبت فيه أخلاقنا الغريزية فينفرد بها دوننا، فهو طول عمره يكسبنا عقلا ويكتسب منا جهلا فهو كذبالة السراج ودودة القز »

---

(٢١١) قال جلال الدين البلخي (المثنوي: دفتر١، الأبيات: ٢٣٧٩- ٢٣٨١، ٢٣٨٣):

مستمع چون تشنه و جوينده شد　　واعظ ار مرده بود گوينده شد

مستمع چون تازه آمد بى ملال　　صد زبان گردد به گفتن گنگ ولال

چون كه نا محرم در آيد از درم　　در پس پرده شوند اهل حرم

....

هر چه را خوب و خوش زيبا كنند　　از براى ديده بينا كنند

إن كان المستمع عطشانا وطالبا أصبح الواعظ ناطقا وإن كان ميتا. إن كان المستمع نشطا أصبح الأبكم ذا مئة لسان. إذا دخل الدار غريب احتجبت النساء. كل ما جعلوه حسنا جميلا فعلوه للبصير

وقال (المثنوي: دفتر٦، الأبيات: ١٦٥٦– ١٦٥٩):

« قال النبي عليه السلام: إن الله يلقن الحكمة على لسان الواعظين بقدر همم المستمعين

جذب سمع است ار كسى را خوش لبى است   گرمى وجد معلم از صبى است
چنگيى را كو نوازد بيست وچار   چون نيابد گوش گردد چنگ بار
نه حراره يادش آيد نه غزل   نه ده انگشتش بجنبد در عمل
گر نبودى گوشهايى غيب گير   وحى نا وردى زگردون يك بشير »

...، الناطق حسن النطق ينجذب للمستمع. إن لم يجد المجُيد لضرب الأوتار أذنا صاغية لنسي الغزل والنغمة، ولم تنشط أصابعه . لو لم تكن آذان متلقية للغيب لم يُرسل نبي

وقال (دفتر٦، البيتان: ١٢٤٠، ١٢٤١)

هر محدث را خسان بد دل كنند   حرفش ار عالى بود نازل كنند
زانكه قدر مستمع آمد نبا   بر قد خواجه برد درزى قبا

يؤثر الأراذل في المتحدث ويسقطون كلامه وإن كان ساميا، لأن الخبر يكون بقدر المستمع، وعلى قدّ المراجع يفصل الخياط الثوب ويخيطه

---

(٢١٢) قد يكون المقصود بـ(القرآن) في قول الله عز وجل (يس: ٦٩): (إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) (القراءة)، لا (المقروء) ...، يُنظر القسم السابق من هذه المذكرات

---

(٢١٣) قال الله تعالى (يونس: ٩٤): (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

ولا أرى صحيحا تفسير الرازي الآية بقوله: « والفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر، ولهذا السبب أكثر الله في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة »، ويُنظر أيضا تفسير الميزان ...

(٢١٤) تقدم في القسم السابق الكلام عن اتباع أحسن القول

---

(٢١٥) افتُرض كون (الزين) في بداية طريق الإيمان فاحتاج إلى استماع تلاوة غيره ...، وإلا فبإمكان المرء الانتفاع بتلاوة نفسه ـ بدرجة أو أخرى ـ إن كان قادرا على تلاوة القرآن تلاوة تُمكّن مستمعه من (تدبره)، ولا يكون كذلك إلا أن يكون عالما بالطريقة التي يهدي بها القرآن للتي هي أقوم...، وأن يكون مؤمنا لميوله الفطرية ومحققا لمتطلباتها بما منها اندفاعه إلى الكون مع الصادقين وصيرورته منهم، فمعهم، وبهم، يفكر ويعمل...، فهو إذَنْ إنما يتلو القرآن ممثلا عن أمة موجودة في باطنه، وبذلك كان صادقا في قوله ـ في صلاته ـ : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ ...) وإن كان وحده ...

هذا، وبما أن المؤمن ـ في ذاته ـ شخصان: شخص تتجسد فيه جماعة مؤلفة من صادقين سابقين، وحاضرين، وآتين، وهو الذي يتلو، وشخص يسمع ويتأثر، فلذلك كان انتفاعه بتلاوته للقرآن أفضل من مطالعته له، خاصة إذا تلاه بصوت حسن، فهو ـ إذَن ـ باستماعه لما يتلوه بنفسه كاد يكون كمن يستمع لتلاوة غيره، ولا ريب في ما لاستماع شيء من الأثر في الاقتناع به ...، ويبدو أن إلى هذا يشير ما رواه الكافي (٣/٣١٣) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « لا يكتب من القراءة والدعاء (أي في الصلاة) إلا ما أسمع نفسه »، والذي أفتى به الفقهاء

وأصل هذه الاثنينية موجود في كيان كل إنسان، فلم يكن الشاعر العارف (حافظ الشيرازي) بدعا من الناس في قوله: (در اندرون من خسته دل ندانم كيست كه من خموشم و او در فغان و در غوغاست)، أي لا أعلم من هذا الذي يصرخ في باطني وأنا صامت؟!، ويبدو أن إلى هذا تشير (النفس اللوامة) المذكورة في سورة القيامة، على أن يكون معناها قريبا مما جاء في (التفسير الأمثل)، لا ما في تفسير الرازي وتفسير الميزان مثلا

وأما أن الإنسان يتأثر بما يسمع ويزداد اقتناعا به فهو مجرب حتى لو كان اللافظ نفسه، ويبدو أنه يعلم ذلك غريزيا ولذلك قد يكلم نفسه، رافعا صوته، لتأكيد ما قد وصل إليه بفكره، كما ينقل عن (أرخميدس) قوله: « وجدت! وجدت! »

وقد تؤيد هذا ـ بصورة أو أخرى ـ الدراسة التالية، وإن كانت بعد ناقصة غامضة

جاء في صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠١٠/١/٤، بعنوان (**فكّر بصوت عالٍ تنجح!**):

وجد علماء أسبان أن التفكير بصوت عال قد يساعد فعلاً في حل المشاكل تحديدا الطلاب في حل المسائل المعقدة في مادة الرياضيات بشكل أسرع وأدق، في بحث قد يناقض نظرية عتيقة تحث على مراجعة الدروس في هدوء وصمت

وقد تحدثت الدراسة التي قادها باحثون من (جامعة غرناطة) في إسبانيا فارقا في أسلوب تدريس مادة الرياضيات في الفصول الدراسية، التي قد يعلوها الضجيج أثناء محاولة التلاميذ إيجاد حلول للمسائل المعقدة، بحسب شبكة (سي إن إن)

وركز الباحثون خلال الدراسة التي نشرت في (دورية أبحاث علم النفس التربوي) على الطلبة الذين يدرسون الرياضيات في السنة النهائية بالجامعة، حيث جرت مراقبتهم وتسجيل محاولاتهم أثناء حل مسائل معقدة في الرياضيات

ووجد الباحثون إن الذين فكروا بصوت عال في تفاصيل الحل زادت بينهم فرص حل الأسئلة نفسها بشكل صحيح عن أولئك الذين فكروا بصمت

وقال بروفيسور خوسين لويس فيليغاس كاستيلانوس، من (جامعة الأنديز) في فنزويلا، إن مناقشة المشاكل وسيلة ذكية للتعلم، وأشار: « الطلاب الذين يفكرون بصوت عال أثناء حل مسائل رياضية في مقدورهم حلها سريعاً كما تزداد أمامهم فرص إيجاد حل صحيح لها عن الفئة التي لا تفعل ذلك »

وأردف قائلا: « إن القدرة في إدارة التقديم مثل الحديث بصوت عال أو الاستعانة بالرسومات يرتبط ارتباطا وثيقا بالنجاح في حل المشاكل » ...

---

(٢١٦) هذا منتشر جدا، بل وكاد أن يكون الغرض الأساس للمفسرين في تفسيرهم القرآن الكريم، ومن أبرز مصاديق ذلك ما ذكروه في صدد قوله تعالى: (وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ...)، يُنظر التفسير الأمثل (٢/٤٠٠)، وتفسير الرازي (١٧١/٧) ...، وقد أوردنا في القسم السابق نص أقوالهم

---

(٢١٧) يُنظر الشيخ عبد اللّه الجوادي في (نظرية المعرفة ص٢٢٨ و٢٣٠)، وفيما يلي مقاطيع مما قاله بهذا الصدد: « إن القرآن الكريم، وإضافة إلى التصريح بالقضايا القطعية وغير

القابلة للشك، المذكورة بعبارات مثل (لا ريب فيه) يدعو الناس إلى الإيمان التحقيقي بالقضايا اليقينية، ولايرى الإيمان التقليدي بها كافيا إذا كان مستندا إلى الظن ... »

وقال: « وبعض الأشخاص من الذين لم يسيروا في طريق البرهان واعتبروا الإيمان أمرا منفصلا عن الاستدلالات اليقينية، سعوا لأن يجدوا بالدلائل الإقناعية طريقا لتبرير إيمانهم . ومن ذلك قولهم إن احتمال وجود اللّه يصحح الإيمان به، لأن الإنسان على أي حال مضطر لقبول ذلك أو إنكاره، لكنه لو أنكر ذلك فإضافة إلى أنه لن يحصل على شيء ذي شأن مقابل ذلك فسيخسر خسارة عظيمة في حالة وجوده ...

هذا البيان ونظائره لا يمكن أن يقدم أي منها إيمانا صحيحا للإنسان حقا، لو اعتبر الإنسان إيمانه مستندا إلى مثل هذه الأقوال، فسيعرف بأدنى تأمل أنه لن يستطيع ـ أبدا ـ امتثال العبادة بقصد جدي وبحزم وعزم، بل إنه يعمل في حالة الشك دوما ... »

إلى أن قال: « إذن، لا يمكن للطرق الظنية والتخمينية أبدا أن تكون أساسا لإيمان صحيح وثابت. وعلى هذا الأساس وفي ظل هذه التربية القرآنية سعى الحكماء والعلماء المسلمون لأن يتجنبوا الاعتماد على استدلالات غير يقينية . فعلى سبيل المثال لم يكتفوا في كتبهم الفلسفية غالبا ببرهان النظم المستند إلى مقدمة حدسية من أجل إثبات أصل المبدأ، واستعانوا به لتوضيح بعض صفات الباري فقط، والسبب في حدسية إحدى مقدمات ذلك البرهان هو وجود الاحتمال الضعيف في الطرف الآخر... »

هذا، ولكنه قال في كتابه (تحرير تمهيد القواعد ص٨٨): « كبار الحكماء الإسلاميين وإن تكلموا أو كتبوا في مجالس الدرس بطريقة الحكمة البحثية، لكنهم أيضا نبهوا طلاب العلم بين حين وحين إلى عجز هذه الطريقة في حل كثير من المسائل والغوامض

لقد انتبه ابن سينا في بعض مباحث كتابه (الإشارات) إلى أن هذا البحث يجب أن يحل بالحكمة المتعالية، لا بالحكمة البحثية، والمحقق الطوسي يقول في شرح الإشارات إن الحكمة البحثية هي الفلسفة التي تهتم بالمفهوم وتتقدم بالفكر والاستدلال، وأما الحكمة المتعالية فهي التي تحترم طريق القلب والشهود مع الفكر »

وعلى أي حال ففي مقال بعنوان (مراجعة نقدية للفكر الكلامي) منشور في كتاب [علم الكلام الجديد ...]، قال الشيخ مجتهد شبستري (ص١٥٠): « ...، وبناء على ذلك فإن السعي من أجل إعادة عصر اليقين هو سعي عقيم وعديم الجدوى، وعلينا إذن أن نتحدث

عن الدين والتدين، مع الأخذ بنظر الاعتبار هذا الجو اللايقيني، فنحن المتدينون نقف الآن على مفترق طرق: فإما أن نتراجع ونقول: إننا نستطيع أن نعيش ونتكلم في الفضاء اليقيني فقط، وأن بإمكاننا أن نتحدث من خلال الاستناد إلى تصورات وتصديقات الفلسفة الأولية، التي كانت تأخذ بنظر الاعتبار عالم الواقع بشكل مباشر، ولأننا غير قادرين على طرح هذه التصورات والتصديقات باليقين السابق، فليس لدينا كلام نقوله . وإما أن نتحدث في هذا الفضاء اللايقيني وبالاستناد إلى المفاهيم والأساليب الجديدة، بشكل بحيث يصغي الآخرون إلى حديثنا هذا

والخيار الأول لايتلاءم، لا مع مفاهيمنا الإيمانية، ولا مع مفهوم خلود الدين، فعندما نقول: إن الدين خالد فهذا يعني إمكانية الحديث عنه دائما وفي أي جو، وعلى هذا فلا مناص لنا من اختيار الطريق الثاني، فليس أمامنا أي طريق آخر... »

وقد استفز هذا الكلام الشيخ جعفر السبحاني، لاحظ تعليقه في ص١٦٦ من الكتاب المذكور، ثم لاحظ رد الشيخ شبستري عليه في ص١٨١ حيث يقول فيه: « إن لباب المقالة - يقصد مقالته - أن اليقين العلمي والفلسفي لم يعد ممكنا في العصر الحاضر، لذلك لا ينبغي أن يبني المسلمون علم الكلام المتضمن لأسمى وأعلى القضايا والمفاهيم المتعلقة بالإنسان والعالم (التوحيد، النبوة، المعاد) على أساس الفلسفة أو العلم، إن عليهم البحث عن سبيل آخر، وأساس هذا السبيل هو الاستغناء عن (إثبات الحقائق الدينية) بـ(عرض الحقائق الدينية) »

---

(٢١٨) فسرت (الفتنة) في القسم السابق بـ(المحص) بمعنى: تخليص الشيء مما فيه من عيب

---

(٢١٩) في تفسير الرازي (٢٠/١٣٨): « واعلم أن الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد وأن تكون مبنية على حجة وبينة، والمقصود من ذكر الحجة إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم

أما القسم الأول فينقسم أيضا إلى قسمين لأن الحجة إما أن تكون حجة حقيقية يقينية قطعية مبرأة عن احتمال النقيض، وإما أن لا تكون كذلك بل تكون حجة تفيد الظن الظاهر والإقناع الكامل

فظهر بهذا التقسيم انحصار الحجج في هذه الأقسام الثلاثة، أولها: الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمى بالحكمة، وهذه أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي قال اللّه في صفتها: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)، وثانيها: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية وهي الموعظة الحسنة

وثالثها: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو الجدل، ثم هذا الجدل على قسمين: ...

إذا عرفت هذا فنقول: أهل العلم ثلاث طوائف: الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالدلائل القطعية اليقينية وهي الحكمة، والقسم الثاني الذي تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة لا طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الإفحام والإلزام، وهذان القسمان هما الطرفان، فالأول هو طرف الكمال، والثاني طرف النقصان

وأما القسم الثالث فهو الواسطة، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين، وفي النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية، وما بلغوا إلى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن إلا بالموعظة الحسنة، وأدناها المجادلة

وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون، وأوسطهم عامة الخلق وهم أرباب السلامة، وفيهم الكثرة والغلبة، وأدنى المراتب الذين جبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة، فقوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ) معناه: ادع الأقوياء الكاملين إلى الدين الحق بالحكمة، وهي البراهين القطعية اليقينية، وعوام الخلق بالموعظة الحسنة، وهي الدلائل اليقينية الإقناعية الظنية، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل ... »

وقال الخواجة نصير الدين في كتابه (أساس الاقتباس ـ المتن ـ ص٣٨٤، تعليق السيد عبد اللّه انوار) ـ ما ترجمته ـ: « عقول الجمهور تقصر عن إدراك القياسات البرهانية، ولذلك لو سمع العوام تقريرا جدليا لإثبات أمر أو إبطاله تصوروا أن المقتضي للإلزام ذاتا إنما هو فضل المقرر، ولا دخل في ذلك لنفس الكلام إلا عرضا ...

وسبب هذا الظن هو قصور عقولهم عن إدراك نفس الكلام فكيف بقوته...، فلا صناعة تتكفل إقناعهم إلا [الخطابة] »

وقال الشيخ المظفر – في وجه الحاجة إلى الخطابة من كتابه (المنطق) –: « ... والجمهور لا يخضع للبرهان ولا يقنع به، كما لا يخضع للطرق الجدلية، لأن الجمهور تتحكم به العاطفة أكثر من التعقل والتبصر، بل ليس له الصبر على التأمل والتفكير ومحاكمة الأدلة والبراهين، وإنما هو سطحي التفكير فاقد للتمييز الدقيق ...

وعليه فيحتاج من يريد التأثير على الجماهير في إقناعهم أن يسلك مسلكا آخر غير مسلك البرهان والجدل المتقدمين، فإن الذي يبدو أن الطرق العقلية عاجزة عن التأثير على عقائد الناس وتحويلها لعجزها عن التأثير على عواطفهم المتحكمة فيهم

بل لا يقتصر هذا الأمر على الجمهور بما هو جمهور، فإن كل فرد من أفراد العامة إذا كان قليل الثقافة والمعرفة هو أبعد ما يكون عن الاقتناع بالطرق البرهانية أو الجدلية. بل أكثر الخاصة المثقفين – وإن ظنوا في أنفسهم المعرفة وحرية الرأي – ينجذبون إلى الطرق المقنعة المؤثرة على العواطف وينخدعون بها، بل لا يستغنون عنها في كثير من آرائهم واعتقاداتهم بالرغم على قناعتهم بمعرفتهم وثقافتهم التي قد يتخيلون أنهم قد بلغوا بها الغاية ... » ...

ولا يخفى أن في الأقوال المذكورة مصادرتان: الأولى أن هناك من الناس من يقتنعون بالبرهان ولا يحتاجون إلى غيره ...، والثانية أن هؤلاء الأفضل ...

ومهما يكن من أمر فبعد أن أشار السيد الطباطبائي إلى الرأي المذكور قال في تفسير (الميزان: ٣٧٣/١٢): « وفيه أنه لا يخلو من دقة لكن لا ينتج اختصاص كل طريق بما يناسبه من مرتبة الفهم فربما انتفع الخواص بالموعظة والمجادلة، وربما انتفعت العوام وهم ألفاء العادات والرسوم بالمجادلة بالتي هي أحسن، ولا دلالة في لفظ الآية على ما ذكر من التخصيص »

وأما الشيخ عبد الله الجوادي فاعتبر طريق البرهان مفتوحا للجميع، قال في الكتاب المترجم باسم (نظرية المعرفة ص٢٢٨): « إن القرآن الكريم، وإضافة إلى التصريح بالقضايا القطعية وغير القابلة للشك، المذكورة بعبارات مثل (لا ريب فيه) يدعو الناس إلى الإيمان التحقيقي بالقضايا اليقينية، ولا يرى الإيمان التقليدي بها كافيا إذا كان مستندا إلى الظن . كل هذا دليل على أن المعرفة اليقينية ممكنة في نظر القرآن وأن طريقها مفتوح للجميع أيضا وإن كان سالكو طريق التحقيق قليلين . فعلى هذا الأساس يجادل القرآن الكريم، وفي آيات كثيرة، المعاندين والكفار وضمن إقامة البرهان على صحة ما يدعو إليه يتهم المخالفين بالافتقار إلى الدليل أو يعتبر دعواهم غير قابلة للبرهان »

ولبيان معنى البرهان قال في كتابه (معرفت شناسي ص١٤٠ ـ علم المعرفة) ـ ما ترجمته ـ : « إن [البرهان] في القرآن استعمل بمعنى الشهود...، لكنه في الآية (قُلْ هَاتُوا بُرْهانَكُمْ) قد أريد منه قطعا البرهان الحصولي القابل للإقامة والاحتجاج، وكذلك في قوله: (... لا بُرهَانَ لَهُ) »

---

(٢٢٠) نقل الفيلسوف الفرنسي (روبير بلانشي) في كتابه (المنطق وتاريخه ص٢٣٢ ـ ترجمة الدكتور خليل أحمد) عن الفيلسوف الفرنسي [كوير **Koyer**] أنه قال في موضوع (بترارك) ...: « إنه يحارب أرسطو ... يكافح المنطق السكولائي ...، فلا تهمه البراهين المعقدة في السكولائية الأرسطوطاليسية، فهي لا تولد الإقناع . والحال أليس الإقناع هو الأهم؟ فماذا يمكن أن يفيد الاستدلال إن لم يكن في إقناع الشخص المخاطب؟ وعليه فإن للقياس قيمة في هذا الأمر أقل بكثير مما للبيان الشيشروني . فهذا بيان مؤثر لأنه واضح، ولأنه غير تقني، لأنه يخاطب الإنسان »

و(بترارك، فرنشيسكو) فيلسوف وشاعر إيطالي (١٣٠٤ـ ١٣٧٤م)، ونقل عنه في ج٤ من (الموسوعة الفلسفية العربية) أنه قال: « إذا كان لا بد من فلسفة، فلماذا أرسطو؟ إن أفلاطون أجدر منه وأعمق ... »

وتوفي (بلانشي) سنة ١٩٧٥، و(كوير) سنة ١٩٦٤

---

(٢٢١) ذلك لأنه ينافي طبيعة الإنسان فلا يقدر عليه ...، ويشهد عليه ما لاحظه الشيخ المظفر وأورده في فصل (وجه الحاجة إلى الخطابة) من كتابه (المنطق)، وقد نقلناه قبل قليل، ولو أنه (ره) دقق في الأمر لوجد أن (الإنسان) « أبعد ما يكون عن الاقتناع بالطرق البرهانية أو الجدلية »، لا بعض الناس ...

و قال الدكتور عبد العزيز القوصي في كتابه (علم النفس: أسسه و... ص١٨٩): « على أننا قد نجد الشخص ذكيا عالما ومع ذلك فإننا نجده مستعدا لتصديق ما يوحى إليه من أفكار »

ويُنظر القسم السابق من هذه المذكرات

---

(٢٢٢) في (المعجم الفلسفي) للدكتور جميل صليبا: « والمذهب العقلي هو القول: إن كل

ما هو موجود فهو مردود إلى مبادئ عقلية ...، ويطلق بوجه خاص على النظرية التي ترجع (الحكم إلى الذهن لا الإرادة، فلا تفسح المجال للظواهر الوجدانية ولا الإرادية في الأعمال الذهنية) ...، وهو بهذا المعنى مقابل للمذهب الإرادي الذي يجعل تأثير الإرادة في الحياة النفسية أعظم من تأثير العقل »

وقال الدكتور محمد فتحي الشنيطي (مدرس الفلسفة بجامعتي القاهرة والإسكندرية) في كتابه (وليم جيمس: ص١٦٦، ط١، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٥): « والفلاسفة الذين يفكرون تفكيرا عقليا مجردا يرون أن لا شيء أكثر خلطا وأشد اضطرابا من الاعتقاد والإرادة، ذلك لأن الاعتقاد والإرادة يخدمان الرغبة ويسيران في ركاب العاطفة، وهما من ثم عنصران ذاتيان . بينما تهدف الفلسفة الموضوعية الخالصة إلى التحرر من الرغبة والتجرد من العاطفة بغية الوصول إلى الحقيقة ... »

يُنظر القسم السابق من هذه المذكرات، وأيضا القسم اللاحق

---

(٢٢٣) في كتاب إعلام الورى (١/١٣٩) للشيخ الطبرسي: « ... ثم قالا ـ أي أسعد بن زرارة وذكوان ـ : يا رسول الله ابعث معنا رجلا يعلمنا القرآن ويدعو الناس إلى أمرك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمصعب بن عمير ...، فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج مع أسعد وقد كان تعلم من القرآن كثيرا، فخرجا إلى المدينة ومعهما مصعب بن عمير فقدموا على قومهم وأخبروهم بأمر رسول الله وخبره، فأجاب من كل بطن الرجل والرجلان، وكان مصعب نازلا على أسعد بن زرارة، وكان يخرج في كل يوم فيطوف على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الإسلام فيجيبه الأحداث ...

فقال أسعد لمصعب: إن خالي سعد بن معاذ من رؤساء الأوس، هو رجل عاقل شريف مطاع في بني عمرو بن عوف، فإن دخل في هذا الأمر تم لنا أمرنا، فهلم نأتي محلتهم . فجاء مصعب مع أسعد إلى محلة سعد بن معاذ، فقعد على بئر من آبارهم، واجتمع إليه قوم من أحداثهم وهو يقرأ عليهم القرآن، فبلغ ذلك سعد بن معاذ فقال لأسيد بن حضير ـ وكان من أشرافهم ـ : بلغني أن أبا أمامة أسعد بن زرارة قد جاء إلى محلتنا مع هذا القرشي يفسد شباننا، فأته وانهه عن ذلك

فجاء أسيد بن حضير فنظر إليه أسعد فقال لمصعب: إن هذا رجل شريف فإن دخل في

هذا الأمر رجوت أن يتم أمرنا فأصدق اللّه فيه

فلما قرب أسيد منهم قال: يا أبا أمامة يقول لك خالك: لا تأتنا في نادينا، ولا تفسد شباننا، واحذر الأوس على نفسك . فقال مصعب: أو تجلس فنعرض عليك أمرا، فإن أحببته دخلت فيه، وإن كرهته نحينا عنك ما تكرهه . فجلس فقرأ عليه سورة من القرآن، فقال: كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الأمر؟ قال: نغتسل ونلبس ثوبين طاهرين ونشهد الشهادتين ونصلي ركعتين . فرمى بنفسه مع ثيابه في البئر، ثم خرج وعصر ثوبه، ثم قال: اعرض، فعرض عليه شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، فقالها، ثم صلى ركعتين، ثم قال لأسعد: يا أبا أمامة أنا أبعث إليك الآن خالك وأحتال عليه في أن يجيئك

فرجع أسيد إلى سعد بن معاذ، فلما نظر إليه سعد قال: أقسم أن أسيدا قد رجع إلينا بغير الوجه الذي ذهب من عندنا، وأتاهم سعد بن معاذ فقرأ عليه مصعب: (حم تنزيل من الرحمن الرحيم)، فلما سمعها قال مصعب: واللّه لقد رأينا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم، فبعث إلى منزله وأتى بثوبين طاهرين واغتسل وشهد الشهادتين وصلى ركعتين، ثم قام وأخذ بيد مصعب وحوله إليه وقال: أظهر أمرك ولا تهابن أحدا ... »

هذا، وإن القصة معروفة، فقد ذكرها كثيرون ولكن بشيء من الاختلاف عما نقلناه هنا

---

(٢٢٤) يقوم بعض المفسرين بإرجاع بعض الآيات إلى أخرى بغية توضيح معناها والتأكد منه، الأمر الذي لو فرض إمكانه فلن يكون إلا (ربطا ذهنيا) بين أمرين، لا توحيدهما ...

---

(٢٢٥) قد يستفاد هذا من قول اللّه تعالى (هود: ٥٦): (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم)، توضيح ذلك: أن اللّه تعالى وإن كان رب كل شيء ولكن يجده على صراط مستقيم من يبتغيه ربا فيوجه وجهه إليه ويسعى في سبيله، ويبدو لي أن إلى هذا يشير قول اللّه تعالى (الزخرف: ٦٤): (إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيم)، وقوله (الملك: ٢٢): (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم)، وقوله تعالى (الأنعام: ١٥١-١٥٣): (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاتَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ

وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاتَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ...

وأرى أن هذا المعنى هو الأنسب إلى الآية الكريمة مما فسروها به، فقد فسرها الرازي بقوله: « ثم قال: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)، وفيه وجوه:

الأول أنه تعالى لما قال: (ما مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها) أشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)، أي أنه وإن كان قادرا عليهم لكنه لا يظلمهم ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب، قالت المعتزلة: قوله: (ما مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها) يدل على التوحيد وقوله: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) يدل على العدل، فثبت أن الدين إنما يتم بالتوحيد والعدل

الثاني: أنه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) يعني أنه لا يخفى عليه مستتر، ولا يفوته هارب، فذكر الصراط المستقيم وهو يعني به الطريق الذي لا يكون لأحد مسلك إلا عليه، كما قال: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ)

الثالث: أن يكون المراد إِنَّ رَبِّي يدل على الصراط المستقيم، أي يحث، أو يحملكم بالدعاء إليه »

وفسره السيد الطباطبائي بقوله: « وكونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته في الخليقة واحدة ثابتة غير متغيرة وهو تدبير الأمور على منهاج العدل والحكمة فهو يحق الحق ويبطل الباطل إذا تعارضا ... »

هذا، وأقول: ويبدو لي أيضا أنه لو كان ما ذكراه صحيحا لقال: (إِنَّهُ) بدلا من (إِنَّ رَبِّي) ...

---

(٢٢٦) كقول اللّه تبارك وتعالى (الطارق: ٥ـ٧): (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

يُنظر تفسير الرازي وغيره

[٢٢٧] في قول اللّه تعالى (الأنعام: ٤٦): (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) قال الشيخ في (التبيان: ٢٨٣/٩): « وتصريف الآيات: تصييرها في الجهات، وتصريف الشيء: تصييره في الجهات، وتصريف المعنى: تصييره تارة مع هذا الشيء وتارة مع ذلك، وتصريف الآيات: تصييرها تارة في الإعجاز، وتارة في الإهلاك، وتارة في التذكير بالنعم، وتارة في وصف الأبرار، وتارة في وصف الفجار ليجتنب مثل فعلهم »

وقال الطبرسي في (مجمع البيان: ٤٦٩/٤): « (انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الأَيَات) أي نبين لهم في القرآن الآيات، عن الكلبي

وقيل: تصريف الآيات: توجيهها في الجهات التي يظهرها أتم الإظهار ومرة في جهة النعمة ومرة في جهة الشدة، وقيل: تصريف الآيات: إحداثها دالة على وجوه كما أن الآية المعجزة تدل على فاعلها وعلى قدرته وعلمه وعلى نبوة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم »

وقال السيد الطباطبائي في تفسير الميزان (٦٧/٧): « وقوله: (...) تصريف الآيات: تحويلها إلى نحو أفهامهم »

وقال الرازي : « والمراد من تصريف الآيات إيرادها على الوجوه المختلفة المتكاثرة بحيث يكون كل واحد منها يقوي ما قبله في الإيصال إلى المطلوب »

وفي (الكشاف): « في قول اللّه تعالى: (...): « (نُصَرِّفُ الآيَاتِ): نرددها ونكررها لِقوم يشكرون نعمة اللّه وهم المؤمنون ليفكروا بها ويعتبروا بها »

وأقول: يبدو لي أن معنى (التصريف) ـ كما قالوا ـ التوجيه والتحويل، وأن المقصود بتصريف الآيات توجيهها لتُفقه كما قال اللّه عز وجل (الأنعام: ٦٥): (انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)، وبما أن ما يفقه هو (القلب) كما قال اللّه تعالى (الأعراف: ١٧٩): (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ...)، فتصريف الآيات إنما هو توجيهها إلى القلوب وإيصالها إليها، ويبدو لي أن من أهم ما يصد طريق الآيات إلى القلب ـ لولا أهمه ـ هو أن يتلقاها الذهن (أداة التحليل) الطاغي فيلهو بها بالتحليل والتعميق، بدلا من أن يجهزها لتلقي القلب وقبوله، فيمرض القلب ويختم عليه ويطبع ويصبح في (كَنّ) فتنقطع علاقته بالفكر فلا يصله شيء من خلاله، وبما أن الذهن هو الباب الوحيد للقلب إلى المحسوسات فيصبح

القلب (أعمى) لا يقدر على القيام بدوره المطلوب من ضبط الذهن وهدايته

فيسعى الذهن ـ إذَنْ ـ إلى أن يكوّن من الآيات صورة موحدة مترابطة، وهو لا يحتاج لذلك إلى تحويل الآيات وتوجيهها إلى شيء، بل ويحتاج إلى أن تبقى الآيات كما هي من دون أي تصرف ...

ومن أوضح الأمثلة لتصريف اللّه آياته الآيات الأولى من سورة (ص) ...، وقد ذكرنا في صفحة سابقة ما حاول به الرازي جعلها (غير متصرفة)! لتوافق المقياس الذهني للفهم ... (يُنظر ذلك في تفسيره: ٢٠٢/٢٦)

وعلى أي حال فقد يكون مفيدا أن أورد فيما يلي بعض ما قيل بصدد قول اللّه عز وجل (الأعراف: ١٧٩): (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا...)، ففي (التفسير الأمثل: ٣٠٢/٥): « وقد قلنا مرارا: إنّ التعبير بـ(القلب) في مصطلح القرآن يعني الفكر والروح وقوّة العقل، أي أنّهم بالرّغم ممّا لديهم من استعداد للتفكير، وأنّهم ليسوا كالبهائم فاقدي الشعور والإدراك، إلا أنّهم في الوقت ذاته لايفكرون في عاقبتهم ولايستغلون تفكيرهم ليبلغوا السعادة »

وفي تفسير (من وحي القرآن: ٢٨٩/١٠): « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا، أي خلقنا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ الذين عطلوا الطاقات الفكرية والحسية التي وهبهم اللّه إياها من أجل أن يستفيدوا منها في خط المعرفة، فقد خلق اللّه لهم العقول ليفكروا بها فيهتدوا بذلك في معرفة الخط السليم للحياة، وخلق لهم الأعين...، ولكنهم جمدوا ذلك كله، فعطلوا عقولهم عن التفكير..

لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا لأنهم لم يحركوها في اتجاه الفهم الواعي للأمور ... »

وفي تفسير الميزان (٢٢٤/٢): « (كلام في معنى القلب في القرآن)

وهذا ـ أي قول اللّه: (لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) ـ من الشواهد على أن المراد بالقلب هو الإنسان بمعنى النفس والروح، فإن التعقل والتفكر والحب والبغض والخوف وأمثال ذلك وإن أمكن أن ينسبه أحد إلى القلب باعتقاد أنه العضو المدرك في البدن على ما ربما يعتقده العامة كما ينسب السمع إلى الأذن والإبصار إلى العين والذوق إلى اللسان، لكن الكسب والاكتساب مما لا ينسب إلا إلى الإنسان البتة ...

والظاهر أن الإنسان لما شاهد نفسه وسائر أصناف الحيوان وتأمل فيها ورأى أن الشعور

والإدراك ربما بطل أو غاب عن الحيوان بإغماء أو صرع أو نحوهما، والحياة المدلول عليها بحركة القلب ونبضانه باقية بخلاف القلب قطع على أن مبدأ الحياة هو القلب، أي أن الروح التي يعتقدها في الحيوان أول تعلقها بالقلب وإن سرت منه إلى جميع أعضاء الحياة، وأن الآثار والخواص الروحية كالإحساسات الوجدانية مثل الشعور والإرادة والحب والبغض والرجاء والخوف وأمثال ذلك كلها للقلب بعناية أنه أول متعلق للروح، وهذا لا ينافي كون كل عضو من الأعضاء مبدءا لفعله الذي يختص به كالدماغ للفكر والعين للإبصار والسمع للوعي والرئة للتنفس ونحو ذلك، فإنها جميعا بمنزلة الآلات التي يفعل بها الأفعال المحتاجة إلى توسيط الآلة

وربما يؤيد هذا النظر: ما وجده التجارب العلمية أن الطيور لا تموت بفقد الدماغ إلا أنها تفقد الإدراك ولا تشعر بشيء وتبقى على تلك الحال حتى تموت بفقد المواد الغذائية ووقوف القلب عن ضرباته

وربما أيده أيضا أن الأبحاث العلمية الطبيعية لم توفق حتى اليوم لتشخيص المصدر الذي يصدر عنه الأحكام البدنية أعني عرش الأوامر التي يمتثلها الأعضاء الفعالة في البدن الإنساني، إذ لا ريب أنها في عين التشتت والتفرق من حيث أنفسها وأفعالها مجتمعة تحت لواء واحد منقادة لأمير واحد، وحدة حقيقية

ولا ينبغي أن يتوهم أن ذلك كان ناشئا عن الغفلة عن أمر الدماغ وما يخصه من الفعل الإدراكي، فإن الإنسان قد تنبه لما عليه الرأس من الأهمية منذ أقدم الأزمنة، والشاهد عليه... »

وقال في ص٢٢٥: « وقد رجح الشيخ أبو علي بن سينا كون الإدراك للقلب بمعنى أن دخالة الدماغ فيه دخالة الآلة فللقلب الإدراك وللدماغ الوساطة »

ما قاله الفخر الرازي ...

أما الرازي فقد قال: « احتج العلماء بقوله تعالى: (لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا) على أن محل العلم هو القلب، لأنه تعالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم في معرض الذم، وهذا إنما يصح لو كان محل الفهم والفقه هو القلب . واللهُ أعلم »

ولكنه في تفسير الآية ١٩٤ من سورة الشعراء فصل المسألة ...، فقال: « وأما قوله: (عَلَى قَلْبِكَ) ففيه قولان: الأول: ...

الثاني أن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختبار، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له، والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول، أما القرآن فآيات ...

وأما الحديث ...

وأما المعقول فوجوه: أحدها ...

وثانيها: أن القلب منبع المشاق الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء وإذا كانت المشاق مبادئ للأفعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب

وثالثها: أن معدن العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب، أما المقدمة الأولى: ففيها النزاع فإن طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو الدماغ

والذي يدل على قولنا وجوه: الأول قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)، وقوله: (لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها)، وقوله: (إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ) أي عقل، أطلق عليه اسم القلب لما أنه معدنه

الثاني أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب، وقال: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)، (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وقولهم: (قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ)، (يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ)، ...، فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضا هو القلب

الثالث: وهو أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم

الرابع: وهو أن القلب أول الأعضاء تكونا، وآخرها موتا، وقد ثبت ذلك بالتشريح ولأنه متمكن في الصدر الذي هو أوسط الجسد، ومن شأن الملوك المحتاجين إلى الخدم أن يكونوا في وسط المملكة لتكتنفهم الحواشي من الجوانب فيكونوا أبعد من الآفات

واحتج من قال: العقل في الدماغ بأمور: أحدها: أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب، وثانيها: أن الأعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ من دون القلب . وثالثها: أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل . ورابعها:

أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل: إنه خفيف الدماغ خفيف الرأس . وخامسها: أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف والأعلى هو الأشرف وذلك هو الدماغ لا القلب، فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ

والجواب عن الأول: لم لا يجوز أن يقال: الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ، ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب، فالدماغ آلة قريبة للقلب، والحواس آلات بعيدة، فالحس يخدم الدماغ، ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه أنا ندرك من أنفسنا أنا إذا عقلنا أن الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه، فإن الأعضاء تتحرك عند ذلك، ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ

وعن الثاني أنه لا يبعد أن يتأدى الأثر من القلب إلى الدماغ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه

وعن الثالث لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطا لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء

وعن الرابع أن ذلك العرف إنما كان لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضا، إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل

وعن الخامس أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم . والله أعلم.

فــرع: اعلم أن المعاني التي بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف إلى الصدر تارة وإلى الفؤاد أخرى، أما الصدر فلقوله تعالى: ...، وأما الفؤاد فقوله: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ)

ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد فقال: القلب هو العلقة السوداء في جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم والشحم، ومجموع ذلك هو الفؤاد، ومنهم من قال: القلب والفؤاد لفظان مترادفان

وكيف كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمى قلبا وفؤادا موضعا هو الموضع في الحقيقة للعقل والاختيار، وأن معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع، كما أن سائر الأعضاء مسخرة للقلب، فإن العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة إليه أعني العقل والفرح والحزن، وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني، فيشبه أن يكون اسم القلب

اسما للأجزاء التي تحل فيها هذه المعاني بالحقيقة، واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو فهذا هو الكلام في هذا الباب والله الموفق للصواب »

---

(٢٢٨) يُنظر ما ذُكر في القسم السابق من هذه المذكرات في قول اللّه تعالى (آل عمران: ٦٤): (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)

---

(٢٢٩) سورة النساء: ٨٢

يرى الكاتب أن الاختلاف الكثير الذي نفى اللّه تعالى وجدان الناس له في القرآن هو هذا الذي أشير إليه، لا ما فسره به المفسرون، فإن ذلك لا يكون (وجدانا للاختلاف في القرآن)...

ثم على فرض أن يطلق (الاختلاف) على تضارب المفاهيم فإن ذلك مما لا يمكن نفيه من القرآن لا لشيء غير أنه لا يمكن إثباته...، وعلى الأقل لا يحق الاحتجاج به...، وهذا بحاجة إلى تفصيل لا أجد الآن له مجالا ولا ضرورة ...

---

(٢٣٠) في القسم السابق من هذه المذكرات

---

(٢٣١) يبدو لي صحيحا ما أفاده السيد الطباطبائي في بيان القيد (كَثِيرًا)، فبعد أن قال في تفسير الميزان ج٥ ص٢٠: « فالواحد من الإنسان لا يسلم في نفسه وما يأتي به من العمل من الاختلاف، وليس هو بالواحد والاثنين من التفاوت والتناقض بل الاختلاف الكثير، وهذا ناموس كلي جار في الإنسان وما دونه من الكائنات الواقعة تحت سيطرة التحول والتكامل العامين لا ترى واحدا من هذه الموجودات يبقى آنين متواليين على حال واحد بل لا يزال يختلف ذاته وأحواله » قال: « ومن هنا يظهر وجه التقييد بالكثير في قوله: (اخْتِلافًا كَثِيرًا) فالوصف وصف توضيحي لا احترازي، والمعنى: لو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا وكان ذلك الاختلاف كثيرا على حد الاختلاف الكثير الذي في كل ما هو من عند غير اللّه،

وليس المعنى أن المرفوع من القرآن هو الاختلاف الكثير دون اليسير»

---

(٢٣٢) من الأمثلة البارزة لذلك الدعوة (الماركسية) حيث بدأت شيوعية ثم تحولت إلى اشتراكية، وبعد أن كانت تناهض (الملكية الفردية) بدأت تأخذ بها وتعتمدها ...

---

(٢٣٣) من أمثلة ذلك (الخوارج) حيث كانت لهم دعوة تلفت - في بدئها - الأنظار وتستقطب الناس، فتنازلوا عنها تدريجيا إلى أن أصبحوا مجرد (لصوص سلابين) كما في نهج البلاغة (القصار: ٦٠)

وستأتي الإشارة إلى دعوة الخوارج في القسم اللاحق، فصل (ثلاث دعوات)

---

(٢٣٤) قال اللّه تعالى (الشورى: ٥٢-٥٣): (... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ألا إِلَى اللَّهِ تَصِيْرُ الأُمُورُ)

وقال تعالى (يس: ٦٠- ٦١): (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِيْنٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ)

وقال (الأنعام: ١٥٣): (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

في تفسير الميزان (٣٧٧/٧): « قوله تعالى: (وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) إلى آخر الآية ...

والذي يعطيه سياق الآيات أن يكون مضمون هذه الآية أحد الوصايا التي أمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يتلوها عليهم ويخبرهم بها حيث قيل: (قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)، ولازم ذلك أن يكون قوله: (وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) مسوقا لا لتعلق الغرض به بنفسه لأن كليات الدين قد تمت في الآيتين السابقتين عليه بل ليكون توطئة وتمهيدا لقوله بعده: (وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) كما أن هذه الجملة بعينها كالتوطئة لقوله: (فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِه)، فالمراد بالآية: أن لا تتفرقوا عن سبيله ولا تختلفوا فيه، فتكون الآية مسوقة سوق قوله: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ

أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) ... فالأمر في الآية بإقامة الدين هو ما وصى من الدين المشروع كأنه أعيد ليكون تمهيدا للنهي عن التفرق بالدين

فالمعنى: ومما حرم ربكم عليكم ووصاكم به أن لاتتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم الذي لا يقبل التخلف والاختلاف وهي غير سبيل اللّه فإن اتباع السبل دونه يفرقكم عن سبيله فتختلفون فيه فتخرجون من الصراط المستقيم إذ الصراط المستقيم لا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه

ومقتضى ظاهر السياق أن يكون المراد بقوله: (صِراطِي) صراط النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فإنه هو الذي يخاطب الناس بهذه التكاليف عن أمر من ربه إذ يقول: (قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ) إلخ، فهو المتكلم معهم المخاطب لهم، وللّه سبحانه في الآيات مقام الغيبة حتى في ذيل هذه الآية إذ يقول: (فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) ولا ضير في نسبة الصراط المستقيم إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ...

لكن المفسرين كأنهم تسلموا أن ضمير التكلم في قوله: (صِراطِي) للّه سبحانه ففي الآية نوع من الالتفات لكن لا في قوله: (صِراطِي) بل في قوله: (عَنْ سَبِيلِهِ) فإن معنى الآية: تعالوا أتل عليكم ما وصاكم به ربكم وهو أنه يقول لكم: (إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه) أو وصيته (إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيلي) فالالتفات ـ كما مر ـ إنما هو في قوله: (عَنْ سَبِيلِهِ)

وكيف كان فهو تعالى في الآية يسمي ما ذكره من كليات الدين بأنه صراطه المستقيم الذي لاتخلف في هداية سالكيه وإيصالهم إلى المقصد ولا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه ما داموا عليه فلا يتفرقون البتة ثم ينهاهم عن اتباع سائر السبل فإن من شأنها إلقاء الخلاف والتفرقة لأنها طرق الأهواء الشيطانية التي لا ضابط يضبطها بخلاف سبيل اللّه المبني على الفطرة والخلقة ولا تبديل لخلق اللّه ذلك الدين القيم . ثم أكد سبحانه حكمه في الآية بقوله: (ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)... »

إلى أن قال في ص٣٨٠: « والأهواء النفسانية مختلفة لا ضابط يضبطها ولا نظام يحكم عليها يجتمع فيه أهلها ولذلك لا تكاد ترى اثنين من أهل الأهواء يتلازمان في طريق أو يتصاحبان إلى غاية، وقد عد اللّه سبحانه لهم في كلامه سبلا شتى كقوله: (وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) (الأنعام: ٥٥)، وقوله: (وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (الأعراف: ١٤٢)، وقوله: (وَلا

تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) (يونس: ٨٩)، وقوله في المشركين: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَما تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى) (النجم: ٢٣) وأنت إن تتبعت آيات الهدى والضلال والاتباع والإطاعة وجدت في هذا المعنى شيئا كثيرا

وبالجملة التقوى الديني لا يحصل بالتفرق والاختلاف، والورود في أي مشرعة شرعت، والسلوك من أي واد لاح لسالكه بل بالتزام الصراط المستقيم الذي لا تخلف فيه ولا اختلاف فذلك هو الذي يرجى معه التلبس بلباس التقوى، ولذلك عقب اللّه سبحانه قوله: (وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) بقوله: (ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) »

---

(٢٣٥) في تفسير الميزان (١٣٨/١٠): « ... فإن وجود النسخ بين الآيات القرآنية نفسها مما لا ينبغي الارتياب فيه ... »

هذا، ولم يقر السيد أبو القاسم الخوئي في كتابه (البيان في تفسير القرآن) بوجود النسخ إلا في آية واحدة وهي آية النجوى، وأنكر وجوده في غيرها من الآيات الـ(٣٦) التي ذكروها

وفي تفسير الرازي (٦٣٩/٣): « المسألة السادسة: اتفقوا على وقوع النسخ في القرآن، وقال أبو مسلم بن بحر: إنه لم يقع، واحتج الجمهور على وقوعه في القرآن بوجوه: أحدها هذه الآية وهي قوله تعالى: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)

أجاب أبو مسلم عنه بوجوه: الأول أن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل، كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب مما وضعه اللّه تعالى عنا وتعبدنا بغيره، فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأبطل اللّه عليهم ذلك بهذه الآية

الوجه الثاني: المراد من النسخ نقله من اللوح المحفوظ وتحويله عنه إلى سائر الكتب وهو كما يقال: (نسخت الكتاب)

الوجه الثالث: أنا بينا أن هذه الآية لا تدل على وقوع النسخ، بل على أنه لو وقع النسخ لوقع إلى خير منه

ومن الناس من أجاب عن الاعتراض الأول بأن الآيات إذا أطلقت فالمراد بها آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا، وعن الثاني بأن نقل القرآن من اللوح المحفوظ لا يختص ببعض

القرآن، وهذا النسخ مختص ببعضه

ولقائل أن يقول على الأول: لا نسلم أن لفظ الآية مختص بالقرآن، بل هو عام في جميع الدلائل، وعلى الثاني: لا نسلم أن النسخ المذكور في الآية مختص ببعض القرآن، بل التقدير والله أعلم ما ننسخ من اللوح المحفوظ فإنا نأتي بعده بما هو خير منه.

الحجة الثانية للقائلين بوقوع النسخ في القرآن: أن الله تعالى أمر المتوفى عنها زوجها بالاعتداد حولا كاملا وذلك في قوله: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ) ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر كما قال: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)

قال أبو مسلم: الاعتداد بالحول ما زال بالكلية لأنها لو كانت حاملا ومدة حملها حول كامل لكانت عدتها حولا كاملا، وإذا بقي هذا الحكم في بعض الصور كان ذلك تخصيصا لا ناسخا

والجواب: أن مدة عدة الحمل تنقضي بوضع الحمل سواء حصل وضع الحمل بسنة أو أقل أو أكثر فجعل السنة العدة يكون زائلا بالكلية

الحجة الثالثة: أمر الله بتقديم الصدقة بين يدي نجوى الرسول بقوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً) ثم نسخ ذلك

قال أبو مسلم: إنما زال ذلك لزوال سببه، لأن سبب التعبد بها أن يمتاز المنافقون من حيث لا يتصدقون عن المؤمنين، فلما حصل هذا الغرض سقط التعبد

والجواب: لو كان كذلك لكان من لم يتصدق منافقا وهو باطل لأنه روي أنه لم يتصدق غير علي رضي الله عنه ويدل عليه قوله تعالى: (فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)

الحجة الرابعة: أنه تعالى أمر بثبات الواحد للعشرة بقوله تعالى: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ)

الحجة الخامسة: قوله تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها) ثم إنه تعالى أزالهم عنها بقوله: (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ)

قال أبو مسلم: حكم تلك القبلة ما زال بالكلية لجواز التوجه إليها عند الإشكال أو مع

العلم إذا كان هناك عذر

الجواب: أن على ما ذكرته لا فرق بين بيت المقدس وسائر الجهات، فالخصوصية التي بها امتاز بيت المقدس عن سائر الجهات قد زالت بالكلية فكان نسخا

الحجة السادسة: قوله تعالى: (وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ)، والتبديل يشتمل على رفع وإثبات، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم، فكيف كان فهو رفع ونسخ، وإنما أطنبنا في هذه الدلائل لأن كل واحد منها يدل على وقوع النسخ في الجملة

واحتج أبو مسلم بأن اللّه تعالى وصف كتابه بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلو نسخ لكان قد أتاه الباطل

والجواب: أن المراد أن هذا الكتاب لم يتقدمه من كتب اللّه ما يبطله، ولا يأتيه من بعده أيضا ما يبطله »

وأبو مسلم هو محمد بن بحر الإصفهاني (٢٥٤ـ ٣٢٢)، معتزلي...، كان واليا على إصفهان وبلاد فارس للمقتدر العباسي إلى أن عزله ابن بويه عام ٣٢١، من كتبه (جامع التأويل) في التفسير، أربعة عشر مجلدا، جمع سعيد الأنصاري نصوصا منه وردت في (مفاتيح الغيب) المعروف بتفسير الفخر الرازي، وسماها (ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل) في جزء صغير، ومن كتبه (الناسخ والمنسوخ) ...، ذلك ما ذكره الزركلي في (الأعلام)

وأشار إليه ومدح كتابه الشيخ الطوسي في مقدمة كتابه (التبيان)

---

(٢٣٦) قال السيد الطباطبائي في تفسير الميزان (٦٦/١): « ...، فإن من الضروري أن النشأة نشأة المادة والقانون الحاكم فيها قانون التحول والتكامل، فما من موجود من الموجودات التي هي أجزاء هذا العالم إلا وهو متدرج الوجود متوجه من الضعف إلى القوة ومن النقص إلى الكمال في ذاته وجميع توابع ذاته ولواحقه من الأفعال والآثار، ومن جملتها الإنسان الذي لا يزال يتحول ويتكامل في وجوده وأفعاله وآثاره التي منها آثاره التي يتوسل إليها بالفكر والإدراك، فما من واحد منا إلا وهو يرى نفسه كل يوم أكمل من أمس ولايزال يعثر في الحين الثاني على سقطات في أفعاله وعثرات في أقواله الصادرة منه في الحين الأول، هذا أمر لاينكره من نفسه إنسان ذو شعور »

(٢٣٧) قال اللّه عز وجل (الملك: ٢٢): (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

فسره السيد الطباطبائي بقوله: « قوله تعالى: (...) إكباب الشيء على وجهه إسقاطه عليه، وقال في الكشاف: معنى أكب دخل في الكب وصار ذا كب

استفهام إنكاري عن استواء الحالين تعريضا لهم بعد ضرب حجاب الغيبة عليهم وتحريمهم من تشريف الحضور والخطاب بعد استقرار اللجاج فيهم، والمراد أنهم بلجاجهم في عتو عجيب ونفور من الحق كمن يسلك سبيلا وهو مكب على وجهه لا يرى ما في الطريق من ارتفاع وانخفاض ومزالق ومعاثر فليس هذا السائر كمن يمشي سويا على صراط مستقيم فيرى موضع قدمه وما يواجهه من الطريق على استقامة، وما يقصده من الغاية

وهؤلاء الكفار سائرون سبيل الحياة وهم يعاندون الحق على علم به فيغمضون عن معرفة ما عليهم أن يعرفوه والعمل بما عليهم أن يعملوا به ولا يخضعون للحق حتى يكونوا على بصيرة من الأمر ويسلكوا سبيل الحياة وهم مستوون على صراط مستقيم فيأمنوا الهلاك

وقد ظهر أن ما في الآية مثل عام يمثل حال الكافر الجاهل اللجوج المتمادي على جهله والمؤمن المستبصر الباحث عن الحق »

إلى أن قال: « واعلم أن هناك روايات تطبق قوله: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ - الآية) على من حاد عن ولاية علي عليه السلام ومن يتبعه ويواليه، وهي من الجري واللّه أعلم »

---

(٢٣٨) الإضراب بـ(بل) لما يبدو لي من أن تعريف لفظ الجلالة (**اللّه**) بأنه (اسم للذات المستجمع لجميع صفات الكمال) - كما في تفسير الميزان (١/١٨) مثلا - تعريف ذهني، فإن ما يعرفه القلب ليس صفات الكمال بل (الأسماء الحسنى)، أي يجد مسمياتها ويستحسنها

وعلى فرض صحة (التعريف) المذكور لا يخفى أن (اللّه) عز وجل لن يكون كذلك إلا في القلب فإنه هو الذي يجمع الأشياء ويوحدها، لا الذهن ...

ولعل (الجرجاني) أراد هذا بقوله في كتابه (التعريفات): « اللّه: عَلم دال على الإله الحق دلالة جامعة لمعاني الأسماء الحسنى كلها »

---

(٢٣٩) يبدو لي أن معنى (الآية): العلامة لـ(ربوبية اللّه)، أو لصفات اللّه الحسنى الموجودة في نفس الإنسان فتثيرها الآية في نفسه وتذكره بها ...، وليست بمعنى العلامة والدليل لأصل وجود اللّه، فإن الإنسان لا يحتاج ذلك، فلا يبحث عما يثبته له ...، فلا يدله شيء عليه ليكون (علامة) لذلك ـ أي لأصل وجود اللّه عز وجل ـ

هذا، وقال الرازي ـ في تفسير قوله تعالى: (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ...) ـ : « والآية: الحجة والعلامة، وآية الرجل شخصه، وخرج القوم بآيتهم: بجماعتهم . وسميت آية القرآن بذلك لأنها جماعة حروف، وقيل: لأنها علامة لانقطاع الكلام الذي بعدها، وقيل: لأنها دالة على انقطاعها عن المخلوقين، وأنها ليست إلا من كلام اللّه تعالى »

وقال: « وقوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) يعني: أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون إليها

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لا بد وأن تكون من أمور محسوسة، وهي إما الأجرام الفلكية وإما الأجرام العنصرية، أما الأجرام الفلكية فهي قسمان: إما الأفلاك وإما الكواكب، أما الأفلاك فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع، وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته، وقد يستدل بأحوال حركاتها إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات

وأما الأجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها أحيازها وحركاتها، وتارة بألوانها وأضوائها، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية فإما أن تكون مأخوذة من بسائط، وهي عجائب البر والبحر، وإما من المواليد وهي أقسام، أحدها: الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح

وثانيها: المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها

وثالثها: النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة

ورابعها: اختلاف أحوال الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها

وخامسها: تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الإنسانية وبيان المنفعة الحاصلة فيها

فهذه مجامع الدلائل

ومن هذا الباب أيضا قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وخربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر، ثم بقي الوزر والعقاب عليهم

هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوي على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشري لا يفي بالإحاطة به فلهذا السبب ذكره اللّه تعالى على سبيل الإبهام »

وفي تفسير قوله تعالى: (وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ ...) قال الألوسي في كتابه (روح المعاني): « والمراد من الآية الدليل الدال على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ... »

---

(٢٤٠) مثلا قول اللّه تعالى (الحج: ٥٨- ٦٥): (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ . ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

---

(٢٤١) في الكافي (١/١٣٩) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « ... الحمد للّه الملهم عباده حمده وفاطرهم على معرفة ربوبيته ... »

وفي تفسير الميزان (١٨/١٠٢): « ... فإن الإنسان بطبعه الأولي مفطور على الميل إلى الحق ومعرفته إذا عرض عليه »

وأيضـا فـي الميـزان (١٩/١٩٥): « ... فإن الإنسـان مفطور على صلاحية إدراك الحق والخضوع له فلو بين له الحق من السبيل التي يألفها لم يلبث دون أن يعقله وإذا عقله اعترفت له فطرته وخضعت له طويته وإن لم يخضع له عملا اتباعا لهوى أو أي مانع يمنعه عن ذلك »

---

(٢٤٢) قال اللّه عز وجل (الرعد: ٢٨): (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

نقلت صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠١٠/٨/٧ عن (يو بي آي) ما يلي:

التفكير باللّه يطمئن المؤمنين ويقلق الملحدين

أظهرت دراسة كندية جديدة أن التفكير باللّه يطمئن المؤمنين ويخفف من احتمال ارتكابهم الأخطاء المتعلقة بالقلق، غير أنه قد يزيد من إرباك الملحدين ويعرضهم للأخطاء.

وذكر موقع (لايف ساينس) أن الباحثين في جامعة تورنتو ـ سكاربوروغ قاسوا الموجات الدماغية المتعلقة بنوع معين من ردات الفعل القلقة عندما ارتكب المشاركون أخطاءً في اختبار

وظهر أن الأشخاص الذين استعدوا قبل الاختبار بأفكار دينية كانوا أقل عرضة لارتكاب الأخطاء مقارنة بالذين لم يستعدوا

وقال معد الدراسة مايكل انزليشت «٨٥٪ من الناس من لديهم نوع من المعتقدات الدينية»

وأظهرت الدراسة أنه حين يفكر الناس باللّه والدين، تكون ردة فعل أدمغتهم مختلفة مما يحدّ من احتمال ارتكابهم الأخطاء الناتجة عن القلق

وقد كتب المشاركون كلمات تتعلق باللّه قبل الاختبار، ثم قاس الباحثون نشاطهم الدماغي بينما كانوا يقومون باختبار على الكمبيوتر تم اختياره بدقة لاحتمال ارتكاب الكثير من الأخطاء فيه

وظهر أنه حين يفكر الأشخاص المؤمنون، باللّه يتراجع النشاط الدماغي في منطقة معينة من الدماغ التي تنذر الانسان حين يقوم بخطأ ما.

غير أن ردة فعل الملحدين كانت مختلفة، فحين يفكر الناس باللّه يمنحهم ذلك شعورا بنظام معين في العالم وشرح الأحداث العشوائية مما يخفف شعورهم بالقلق

غير أن تفكير الملحدين باللّه قد يتعارض مع النظام الذي يعتنقونه مما قد يسبب لهم

القلق ويدفعهم الى ارتكاب المزيد من الأخطاء

تنظر مجلة (Psychological Science) الصادرة عن (مؤسسة العلوم السيكولوجية: Association for Psychological Science) الأمريكية التي أسست سنة ١٩٨٨م

---

(٢٤٣) يُنظر القسم السابق، بعنوان (**كيف يُعرف الحق؟** و...)، والقسم اللاحق، بعنوان (**مقياس الهدى**)

---

(٢٤٤) ينظر كتاب (المعتبر في الحكمة: ١/١١٠) ـ ط موسوعة كتابخانه حكمت... الآلية ـ لأبي البركات البغدادي، وقد نقلناه في القسم السابق، وكذلك تعريف (أبي البركات)

---

(٢٤٥) القسم السابق من هذه المذكرات، بعنوان (**الكفر بالإيمان**)

---

(٢٤٦) في الكافي (٢/٤٢١) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « إن القلب ليتجلجل في الجوف، يطلب الحق، فإذا أصابه اطمأن وقر . ثم تلا أبو عبد اللّه عليه السلام هذه الآية: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلام) إلى قوله: (كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) »

---

(٢٤٧) في تفسير الميزان (٧/٣٤٤) نقل السيد الطباطبائي عمن عبر عنه ببعضهم (وهو الرازي) « أن الآية كما تدل بلفظها على قولنا: إن الهداية والضلال من اللّه، كذلك تدل بلفظها على الدليل العقلي القاطع في هذه المسألة

بيانه: أن العبد قادر على الإيمان والكفر معا على حد سواء فيمتنع صدور أحدهما عنه بدلا من الآخر إلا إذا اقترن بمرجح يستدعي صدور ما يرجح به وهو الداعي القلبي الذي ليس إلا العلم أو الاعتقاد أو الظن بكون الفعل مشتملا على مصلحة زائدة ومنفعة راجحة من غير ضرر زائد أو مفسدة راجحة، وقد بينا بالدليل أن حصول هذه الدواعي في القلب إنما يكون من اللّه تعالى، وأن مجموع القدرة والداعي يوجب العمل

إذا ثبت هذا فنقول: يستحيل صدور الإيمان من العبد إلا إذا خلق اللّه في قلبه اعتقاد

رجحان الإيمان، ومعه يحصل من القلب ميل إليه ومن النفس رغبة فيه وهذا هو انشراح الصدر، ويمتنع الكفر إلا بخلقه ما يقابل ذلك في القلب، ويحصل حينئذ النفرة عنه والاشمئزاز منه وهو المراد بجعل القلب ضيقا حرجا، فصار تقدير الآية: أن من أراد اللّه منه الإيمان قوي دواعيه إليه، ومن أراد منه الكفر قوي صوارفه عن الإيمان وقوي دواعيه إلى الكفر، ولما ثبت بالدليل العقلي أن الأمر كذلك ثبت أن لفظ القرآن مشتمل على هذه الدلائل العقلية. انتهى ملخصا »، ثم قام (ره) بالرد عليه

---

(٢٤٨) في تفسير الرازي (٢/٥٢): « الألفاظ الواردة في القرآن القريبة من معنى (الختم) هي الطبع والكنان والرين على القلب والوقر في الآذان والغشاوة في البصر . ثم الآيات الواردة في ذلك مختلفة فالقسم الأول وردت دلالة على حصول هذه الأشياء، قال: (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)، (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا)، (وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)، (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ)، (فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ)، (لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا)، (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء)، (أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء)، (فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ)

والقسم الثاني وردت دلالة على أنه لا مانع البتة: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا)، (فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُر)، (لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)، (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)، (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّه)، (لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) . والقرآن مملوء من هذين القسمين، وصار كل قسم منهما متمسكاً لطائفة، فصارت الدلائل السمعية لكونها من الطرفين واقعة في حيز التعارض، أما الدلائل العقلية فهي التي سبقت الإشارة إليها

وبالجملة فهذه المسألة من أعظم المسائل الإسلامية وأكثرها شعبا وأشدها شغبا . ويحكى أن الإمام أبا القاسم الأنصاري سئل عن تكفير المعتزلة في هذه المسألة فقال: لا لأنهم نزهوه، فسئل عن أهل السنّة فقال: لا لأنهم عظموه

والمعنى أن كلا الفريقين ما طلب إلا إثبات جلال اللّه وعلو كبريائه إلا أن أهل السنّة وقع نظرهم على العظمة فقالوا: ينبغي أن يكون هو الموجد ولا موجد سواه، والمعتزلة وقع نظرهم على الحكمة فقالوا: لا يليق بجلال حضرته هذه القبائح

وأقول: ههنا سر آخر وهو أن إثبات الإله يلجىء إلى القول بالجبر لأن الفاعلية لو لم تتوقف على الداعية لزم وقوع الممكن من غير مرجح وهو نفي الصانع، ولو توقفت لزم الجبر،

وإثبات الرسول يلجيء إلى القول بالقدرة

بل ههنا سر آخر هو فوق الكل وهو أنا لما رجعنا إلى الفطرة السليمة والعقل الأول وجدنا أن ما استوى الوجود والعدم بالنسبة إليه لا يترجح أحدهما على الآخر إلا لمرجح وهذا يقتضي الجبر، ونجد أيضا تفرقة بديهية بين الحركات الاختيارية والحركات الاضطرارية وجزما بديهيا بحسن المدح وقبح الذم والأمر والنهي وذلك يقتضي مذهب المعتزلة، فكأن هذه المسألة وقعت في حيز التعارض بحسب العلوم الضرورية وبحسب العلوم النظرية وبحسب تعظيم اللّه تعالى نظرا إلى قدرته وحكمته وبحسب التوحيد والتنزيه وبحسب الدلائل السمعية

فلهذه المآخذ التي شرحناها والأسرار التي كشفنا عن حقائقها صعبت المسألة وغمضت وعظمت، فنسأل اللّه العظيم أن يوفقنا للحق وأن يختم عاقبتنا بالخير، آمين رب العالمين »

---

(٢٤٩) في تفسير صدر المتألهين (٢٦٢/٢) بعد أن أشار إلى ما ذكر آنفا قال: « ومن كان هذا حاله في مثل هذه المسألة التي هي إحدى قواعد الإيمان وعليها مبني كثير من المقاصد التي يضرّ الجهل بها للإنسان، فمعلوم من حاله إنّه متحيّر في جلّ المقامات اليقينيّة - بل كلّها -، فما الفائدة له في تكثير التصانيف وتطويل المباحث والأقاويل

ونحن نعلم يقينا إن اللّه لم يجعل طلب العلوم والمعارف مركوزا في جبلّة الخلق إلا لغاية يترتّب عليها هي تنوير القلوب بأنوار المعارف، وتنجية النفوس عن ظلمات الجهالات وسياقها إلى دار القدس والكرامة، ولأجلها بعث اللّه الرسل وأنزل الكتب...

فمن حاول العلم مدّة مديدة وصرف عمره في تحصيله ثمّ لم يكن على بصيرة ولم يأت بحاصل ولم يرجع إلى طائل، فضلّ سعيه في الحياة الدنيا وماله في العلم واليقين نصيب . فذلك لأنّه لم يكن مخلصا للّه في كسبه وتحصيله، طالبا لمرضاته في طلبه وسعيه، بل كان سعيه لهوى النفس وحبّ الدنيا، وتحصيله لطلب الترفّع على الأقران وبسط الاشتهار والصيت في البلدان، وكونه مشارا إليه بالأنامل، معدودا من الأكابر والأماثل.

هذه غاية قصودهم، وفيه صرف مجهودهم، ولهذا وصلوا إليها في الأكثر، وحرموا عن جدوى العلم محجوبين يومئذ عن النعيم الأنور محرومين عن أشعّة أنوار اللّه يوم العرض الأكبر

وأما اندفاع الشبه التي ذكرها من طريقة أهل الاعتزال ففي غاية السهولة عند اللبيب

المتفطّن بما مضى من المقال، أو العارف الواقف بأسرار الحقيقة بنور الأحوال ... »

---

(٢٥٠) يستعمل (النص) بمعنيين: بمعنى دلالة لفظ على مراد المتكلم دلالة صريحة ... (ما لا يحتمل إلا معنى واحدا ـ الجرجاني) . وبمعنى مطلق ما نُقل من ألفاظ القرآن والحديث، وقد يكون هذا بلحاظ أن في اللغة نص الشيء: رفعُه، وأطلق على القرآن والحديث لكونهما مرفوعي الرتبة ...، والمراد هنا المعنى الثاني

---

(٢٥١) ليست كلمة (التصرف) الأنسب لبيان ما أهدف إليه، وإنما استعملتها لأنه لم تحضرني كلمة أفضل وأفصح منها ...

وعلى أي حال فإني أرى أن (فهم) النص ـ مسموعا كان أم مقروءا ـ لن يتم لأحد إلا بما سميته التصرف فيه...، والتصرف نوعان: نوع متكلف يخرج النص عن طوره ويشوهه، وهذا ما يفعله كثير من المفسرين بالنص القرآني، ومن سمات هذا النوع من التصرف عدم الاتفاق عليه ...

والنوع الآخر: التصرف الذي تفعله الطبيعة البشرية، فإنها لا تفهم نصا فتقبل مؤداه إلا بأن يكون مناسبا لها وملبيا لمتطلباتها، ولا يكون مناسبا لها إلا بأن تقوم هي بجعله كذلك كما يفعل الجائع بالطعام الذي كان قد هيأه طباخون وفق مقاييس عامة لما يحتاجه الجائعون، حيث يقوم هو بنفسه بعمليات تجهيزية خاصة من المضغ وغيره مما لا يتسنى لأحد غيره أن يقوم به نيابة عنه ...

أجل، إن في التعبير عن هذا بـ(التصرف) مسامحة، فإن ما تفعله الطبيعة ليس في واقعه إلا تلقيا للنص (الصالح) الذي نفترض أنه كان قد لوحظ فيه كيفية تصرف الطبيعة حين تلقيه...

ومهما يكن من أمر فقد قال (رِسِل) في كتاب (عرفان و منطق) ـ ص٧٩ ترجمة نجف دريابندري ـ : « بديهي أن أفراد الناس لا يستطيعون تجاوز الطبيعة البشرية ... »

وفي الأسفار الأربعة (١/ ٢٠ـ ٢١): « اعلم أن الفلسفة استكمال النفس الإنسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ما هي عليها والحكم بوجودها تحقيقا بالبراهين لا أخذا بالظن والتقليد، بقدر الوسع الإنساني »

وشـرحه الشـيخ الجوادي في كتـابه (رحيق مختوم: ١/ ١٢٠) بـ(ما ترجمته): « لأن العلم بكُنه الأشياء يختص بالله لا تقدر الفلسفة على اكتناه حقائق العالم، بل كانت معرفتها محدودة بحدود الوسع الإنساني، فبشرية الفلسفة ومحدودية قدرتها المعرفية بحدود قدرة الإنسان كذلك وصف ضروري ودائمي للفلسفة، كسائر المعارف البشرية ... »

---

(٢٥٢) يأتي الكلام إن شاء الله عن معنى (الذكر) في **(هكذا آمنت بالقرآن)**

---

(٢٥٣) قال الله عز وجل (الأنعام: ١٢): (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

وقـال عـز وجـل (الإسراء: ٤٥ـ٤٨): (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا . نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً)

---

(٢٥٤) هذا محض افتراض، وإلا فإن الذهن لن يقدر على تحليل شيء كما هو...، وقد مر الكلام عن هذا في القسم السابق ...

---

(٢٥٥) في كتاب (شرح مبسوط منظومه: ١/٢٧٩) جزم الشيخ المطهري بأن مسألة الجبر والاختيار طرحت كبحث عقلي في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وقال: بل إنها طرحت في النصف الأول منه بصيغة سؤال وجواب، مستندا في ذلك إلى ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام والمذكور برقم (٧٨) من حِكم نهج البلاغة

---

(٢٥٦) في كتاب الدين والعقل ص٢٨٧، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨ ـ ترجمة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام ـ قال (ولتر ستيس): « علينا أن نلاحظ أن أساتذة الفلسفة أو علم النفس الذين ينكرون حرية الإرادة لا يفعلون ذلك إلا في لحظات الاحتراف، وفي قاعات

المحاضرات، أو في دراساتهم . لأنهم عندما يصلون إلى القيام بعمل ما من الناحية العملية، ربما أتفه الأعمال، فإنهم يسلكون بطريقة مختلفة كما لو كانوا هم وغيرهم، أصحاب إرادة حرة. فهم يسألونك على مائدة الطعام هل تختار هذا الطبق أو ذاك، ويسألون الطفل لِم يقول الكذب وسوف يعاقبونه لو أنه اختار أن يسلك طريق الخطأ، وذلك كله يتناقض مع عدم الإيمان بحرية الإرادة. مما يجعلنا نتشكك في هذه المشكلة ونتساءل أهي حقا مشكلة؟ فالنزاع فيما يبدو لفظي فحسب ... »

هذا، و(ستيس Walter Terence Stace) ولد سنة ١٨٨٦م، وتوفي سنة ١٩٦٧م، ونال الدكتوراه في ١٩٢٩ ببحثه المميز باسم (فلسفة هيغل) من جامعة دبلن، آخر أهم تأليفاته (Mysticism and Philosophy)

---

(٢٥٧) تقدم شرح هذا في القسم الأول من مذكرات في العرفان، سمي (محاولات)

---

(٢٥٨) في تعليق على اصول فلسفه (مجموعه آثار: ٦٢٩/٦) قال الشيخ مرتضى المطهري ـ ما ترجمته ـ: « مسألة الجبر والاختيار مع ملاحظة جميع جوانبها من أغمض المسائل الفلسفية، وقل عالم نجح في حلها حلا صحيحا ... »

وقال الشيخ محمد رضا المظفر قدس سره في كتابه (عقائد الإمامية): « وعلى كل حال، فعقيدتنا إن القضاء والقدر سر من أسرار الله تعالى، فمن استطاع أن يفهمه على الوجه اللائق بلا إفراط ولا تفريط فذاك، وإلا فلا يجب عليه أن يتكلف فهمه والتدقيق فيه لئلا يضل وتفسد عليه عقيدته، لأنه من دقائق الأمور بل من أدق مباحث الفلسفة التي لا يدركها إلا الأوحدي من الناس، ولذا زلت به أقدام كثير من المتكلمين . فالتكليف به تكليف بما هو فوق مستوى مقدور الرجل العادي . ويكفي أن يعتقد به الإنسان على الإجمال اتباعا لقول الأئمة الأطهار من أنه أمر بين الأمرين ليس فيه جبر ولا تفويض. وليس هو من الأصول الاعتقادية حتى يجب تحصيل الاعتقاد به على كل حال على نحو التفصيل والتدقيق »

---

(٢٥٩) يُنظر ما قيل بصدده، وقد ذكرنا بعضه في مذكرات سميناها (**قصة بشر٢**)

---

(٢٦٠) يُنظر صدر المتألهين في كتابه (شرح أصول الكافي: ٤/٢٧٤)، ويأتي توًا ما ذهب إليه في شرح الفقرة

---

(٢٦١) في كتاب (شرح أصول الكافي: ٤/٢٦٨- ٢٧٠) قال صدر المتألهين: « ... فالمراد أن الويل لمن يقول: لِم ذا خير أو ذا شر؟ أو لِم صار ذا ممن جرى الخير على يديه وذا ممن جرى الشر على يديه؟ وقد يطلق حروف الاستفهام بعضها بمعنى البعض، فقد يقال: كيف وأين بمعنى (لم)، والغرض ذم الاعتراض على فعل اللّه وخلقه كما قيل: لماذا هذا التقسيم؟ ولماذا صار السعيد سعيدا جرى الخير على يديه حتى صار له طوبى وحسن مآب، ولماذا صار الشقي شقيا جرى الشر على يديه حتى صار له الويل والعقاب وشر مآب؟

وبالجملة إذا كانت الخيرات والشرور كلها بإرادة اللّه وقضائه وتقديره مكتوبة علينا في الأزل قبل وجودنا، ومعجونة فينا وقبل صدور أفعالنا منا فما بالنا لا نتساوى ولا نتعادل فيها؟ وكيف نحترز عما لا يمكن الاحتراز، وكيف نسعى فيما لا تأثير للسعي؟ وبأي شيء يفضل السعيد على الشقي وقد تساويا فيما قدر لهما؟..، وكيف انتظم عدل اللّه فينا مع هذا التفاوت الواقع في التفصيل وقال تعالى: (وما أنا بظلام للعبيد)، (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

فهذا القائل إن كان غرضه الإلزام والاعتراض وتمهيد العذر فيما هو بصدده من الشرور والمعاصي فلا دواء له إلا النار، وهو المراد بقوله: ويل لمن يقول: كيف ذا؟ وكيف ذا؟ وإن كان غرضه الاطلاع على كيفية صنع اللّه ومعرفة حكمته في خلق الأشياء وربط أسبابها إلى مسبباتها، فإن لم يكن من أهل هذا الاطلاع ولا له استحقاقية أن يرتقي طائر فهمه إلى هذا البقاع يقال له: اسكت فما لهذا خلقت (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)، ولو ألقي إليه شيء من هذا العلم لزاده حيرة ودهشة وشرا ووبالا وآفة وضلالا، بل الصلاح والخير فيه أن يلجم بلجام المنع عما لا يطيق الخوض في غمرته

وإن كان ممن يكون زيت قلبه صافيا ونفسه زكية وطبعه لطيفا وذهنه مستقيما فيقال له أولا: (...) اصبر صبرا جميلا وكن متعرضا للمحة من نفحات رحمة اللّه مترصدا لفتح باب من أبواب فضله وحكمته ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، اقرع باب الرحمة بالدعاء ولا تيأس من روح اللّه إذا تأخرت الإجابة، فلست أول من زل في هذا المقام وارتاب، واستغفر من هذا الكلام ثم فهم فرجع وتاب، أولا تعتبر بحال موسى عليه السلام مع الخضر

واعتراضه عليه وإنكاره بقتل الغلام، أو تتذكر قوله: لقد جئت شيئا إمرا، لقد جئت شيئا نكرا، وجوابه: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا

وثانيا ـ وذلك بعد سكون قلبه وقراره ورجوع سكينته ووقاره ـ : اعلم أيها السالك سبيل الهدى المعرض عن أغراض النفس والهوى جعل اللّه عين بصيرتك مكحلة بنور العلم والعرفان وكشف عنها غشاوة العمى والحرمان اسمع ما يشفيك ويكفيك في إزالة الريب، ويهديك أن حقائق الأرواح متنوعة وجواهر النفوس مختلفة والاستعدادات أيضا في مواد الجسمانية والقوابل السفلية متفننة

فالأرواح الإنسية بحسب الفطرة الأولى مختلفة في الصفاء والكدورة والضعف والقوة مترتبة في درجات القرب والبعد من اللّه تعالى، والمواد السفلية بإزائها بحسب الخلقة متباعدة في اللطافة والكثافة، ومزاجاتها مختلفة في القرب والبعد من الاعتدال الحقيقي، وقابليتها لما يتعلق بها من الأرواح متفاوتة ... »

إلى أن قال في ص٢٧١: « فمن أساء عمله وأخطأ في اعتقاده فإنه ظلم نفسه بظلمة جوهره وسوء استعداده وكان أهلا للشقاوة في معاده، وينادى في لسان المالك: مهلا، فيداك أوكتا وفوك نفخ، وإنما قصر استعداده وأظلم جوهره لعدم إمكان كونه أحسن مما وجد، كما لا يمكن أن يلد القرد إنسانا مثلا في أحسن صورة وأكمل سيرة، وإليه الإشارة في قوله: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)، أو قوله: (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون وجعلنا من بين أيديهم سدا)، وقوله: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ... الآية)، وقوله: (من يهد اللّه فهو المهتد! .. الآية) ...

وأما كيف السبيل إلى الاحتراز عما يجب الاحتراز عنه؟ فإن شريف النفس نجيب الجوهر طيب الأصل لطيف القريحة قلما يهم بشيء مما ليس في فطرته ولم يقدر له من الفواحش والرذائل لعدم المناسبة، وإذا هم نادرا بشيء منها لغلبة صفة من صفات نفسه وقواه واستيلاء داعية من دواعي وهمه وهواه أو هيجان من شهوته وغضبه زجره زاجر من عقله وهداه، كما قال تعالى في يوسف عليه السلام: (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)

وإذا كان دون ذلك في صفاء الجوهر وحسن الاستعداد فلا ينزجر إلا بزجر زاجر خارج من الشرع والسياسة والناصح والأديب وغير ذلك ويستحي منه، فإذا هم بشيء مما فطر به

من المحاسن وجد باعثا من عقله ودرايته وناصرا من توفيقه وهدايته فيقدم عليه بشوقه وشغفه لمناسبته إياه لا ينتهي عنه بدفع دافع ولومة لائم ولا يمنعه منع مانع

وإن كان دون ذلك احتاج إلى محرض وباعث ومشوق من خارج

والخسيس النفس الخبيث الجوهر الرديء الأصل بالعكس في جميع ما ذكر، وكل واحد منهما يشتاق إلى ما يفعله بطبعه ويحبه ويستحسنه، ولهذا يحشر به ومعه إلى ما يؤول إليه، وإن كان يعلم أن ضده أجود وأحسن، كمحبة الزنجي ولده مع قبحه دون الغلام التركي مع علمه بحسنه »

انتهى كلامه، ويُنظر أيضا تفسيره (١/١٢٠ـ ١٢١)، ومما دعاني إلى نقله بطوله الرغبة في إطلاع القارئ على طريقته في تقسيم الناس ووصفهم...، وعلى أي حال فلا يخفى تأثره بنظرية ابن عربي المعروفة بـ(العين الثابتة)، وهو الذي استعمل المثل: (يداك أوكتا وفوك نفخ) . يُنظر العين الثابتة في ملف العرفان١ (محاولات)

---

(٢٦٢) لعل إلى هذا أشار ما نقله السيد الطباطبائي في الميزان (٢٦٩/١٤) عن بعض، قال: « ...، ولذلك أيضا وجه بعض آخر عدم السؤال في الآية بأن عظمته تعالى وكبرياءه وعزته وبهاءه تقهر كل شيء من أن يسأله عن فعله أو يعترض له في شيء من شئون إرادته، فغيره تعالى أذل وأحقر من أن يجترئ عليه بسؤال أو مؤاخذة على فعل لكن له سبحانه أن يسأل كل فاعل عن فعله ويؤاخذ كل من حقت عليه المؤاخذة »، فسها نظره (ره) عن الانتباه إلى ما أراد ذلك البعض، فرد عليه بقوله: « هذا وإن كان مردودا بأن عدم السؤال من جهة أن ليس هناك من يتمكن من سؤاله اتقاء من قهره وسخطه كالملوك الجبارين والطغاة المتفرعنين غير كون الفعل بحيث لا يتسم بسمة النقص والفتور ولا يعتريه عيب وقصور ... »

---

(٢٦٣) بأن يكون نهيا عن السؤال

---

(٢٦٤) تراءى لي سابقا أنه سبحان الله عما يصفه أحد أيا كان، وأما عباد الله المخلصون في قوله تعالى (الصافات: ١٥٩ـ ١٦٠): (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) فإنه استثناء منقطع، كما في قوله تعالى: (الصافات: ٣٨ـ ٤٠) (إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ .

وَمَا تُجْزَوْنَ إلا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ. إلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)...، فإن عباد اللّه المخلصين لن يصفوا اللّه، وذكرهم لأسماء اللّه وما يُعَد من صفاته ليس وصفا له تعالى، بل هو دعاء وتسبيح بحمده، خلافا لما أفاد السيد الطباطبائي وركز عليه جدا من اعتبار (الحمد) توصيفا (تفسير الميزان ج١ ص٢٠، و...) ...

ويبدو لي الآن أنه قد يكون (عباد اللّه المخلصين) استثناء من الذين (يصفونه) ـ سبحانه ـ كما قال السيد الطباطبائي، ولكن لا بالمعنى الذي ذكره...، بل بمعنى أن من ذكر أسماء اللّه وصفاته فقد وصفه سبحانه، إذ لا يتصور أن يذكر أحد صفةً للّه عز وجل إلا وأن يستدعي ذلك إلى ذهنه صورة عنه تعالى، أي أنه يتوهمه سبحانه وفق الصفة التي وصفه بها، وبما أن لما يصف به اللّه تعالى مصاديق في الخارج فهو يشبّهه سبحانه بها ويشركها به تعالى ...

فبهذا اللحاظ ـ كما يبدو لي ـ ينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الأول هم الذين يركزون على ما يصفون به اللّه سبحانه ويرتبون عليه آثار الوصف ولوازمه انطلاقا مما وجدوه في المتصفين به من الناس والأشياء ...، فلعلهم المقصودون بقول اللّه تعالى (يوسف: ١٠٦): (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إلا وَهُم مُّشْرِكُونَ)

والقسم الثاني: الذين لا يحدون اللّه تعالى عند وصفهم له، إلا أنهم عندما يصفونه بشيء فإنهم يتصورونه موصوفا به، فيكاد أن يتحدد سبحانه وتعالى في أذهانهم ولكنهم لائتمامهم بهداة مهديين لا ينسون اللّه الموجود في نفوسهم قدوسا سبوحا متعاليا ...، فيتوبون إليه ويدعونه كذلك ...

والقسم الثالث: عباد اللّه المخلصون وهم الذين يدعون اللّه تعالى بما يصفونه به، إذ لا يمكن دعاء اللّه سبحانه وذكْرُه إلا بإسم، لكنهم لا يجدون ما يصفونه به (وصفا) له، بل (إسما حسنا) مشيرا إليه تعالى فقط، فما يُذكر به لا يركَّز عليه، وإن استحق أن يسبَّح لكونه يشير إلى (سبوح)، وقد يكون هذا معنى قول اللّه عز وجل (الأعلى: ١): (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى)

ويبدو أن إلى هذا يشير ما رواه في الكافي (٨٧/١) عن هشام بن الحكم أنه سأل أبا عبد اللّه عليه السلام عن أسماء اللّه واشتقاقها: اللّه مما هو مشتق؟ قال: فقال لي: يا هشام! اللّه مشتق من إله، والإله يقتضي مألوها، والإسم غير المسمى، فمن عبد الإسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئا، ومن عبد الإسم والمعنى فقد كفر وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الإسم فذاك التوحيد، أفهمت يا هشام؟

قال: فقلت: زدني، قال: إن للّه تسعة وتسعين إسما فلو كان الإسم هو المسمى لكان كل إسم منها إلها ولكن اللّه معنى يدل عليه بهذه الأسماء وكلها غيره، يا هشام الخبز إسم للمأكول والماء إسم للمشروب والثوب إسم للملبوس والنار إسم للمحرق ...

وكذلك ما أورده في نفس الصفحة عن عبد الرحمن بن أبي نجران أنه قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام ـ أو قلت له ـ: جعلني اللّه فداك نعبد الرحمن الرحيم الواحد؟

قال: فقال: إن من عبد الإسم دون المسمى بالأسماء أشرك وكفر وجحد ولم يعبد شيئا، بل اعبد اللّه الواحد الأحد الصمد المسمى بهذه الأسماء دون الأسماء، إن الأسماء صفات وصف بها نفسه

ومن الممكن أن يفسر بهذا أيضا ما رواه الكافي (٨٢/١) عن عبد الرحمن بن أبي نجران أنه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن التوحيد فقلت (أي أخبرته عما يدور بخلدي): **أتوهم شيئا** . فقال: نعم (أي صحيح أنك تتوهم شيئا، ولكنك تجده في نفس الوقت) **غير معقول ولا** محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، لا يشبهه شيء ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل وخلاف ما يتصور في الأوهام . إنما يتوهم شيء غير معقول ولا محدود

---

(٢٦٥) شرح الكاتب ذلك في (قصة بشر١)

---

(٢٦٦) في تفسير الميزان (٣٧٤/٢): « فقد ظهر أن وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الإيمان والتصديق دائما غير أنها تؤذي النفس وتسلب السكون والقرار منها ولا يزول وجود هذه الخواطر إلا بالحس أو المشاهدة ولذلك قيل: إن للمعاينة أثرا لا يوجد مع العلم، وقد أخبر اللّه تعالى موسى في الميقات بضلال قومه بعبادة العجل فلم يوجب ذلك ظهور غضبه حتى إذا جاءهم وشاهدهم وعاين أمرهم غضب وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه »

أقول: وليس صحيحا حصر ما يزيل الخواطر بالحس، إذ لا ينكر زوال ذلك بالانتماء و(الولاية)...

---

(٢٦٧) سيأتي كلام عن الوسوسة في القسم اللاحق، فصل (بالفطرة والولاية تُحدد المسائل)

---

(٢٦٨) قال اللّه تعالى (الأنعام: ١٧ـ ١٨): ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

---

(٢٦٩) قال اللّه عز وجل (الحديد: ٤): ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

---

(٢٧٠) قال اللّه عز وجل (ق: ١٦): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

---

(٢٧١) قال اللّه تعالى (الأنفال: ٢٤): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

---

(٢٧٢) قال اللّه عز وجل (الرعد: ٢٨): ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

---

(٢٧٣) في البحار ج٤٥ ص٤٦ ـ نقلا عن اللهوف ـ أن الحسين عليه السلام قال ـ يوم عاشوراء ـ: « هوّنَ عليَّ ما نزل بي أنه بعين اللّه »

وفي الدعاء المعروف بدعاء كميل: « ...، فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك »

---

(٢٧٤) في كتاب (وسائل الشيعة: ١٦/١٤٠) ـ نقلا عن محاسن البرقي ـ عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « لو أن أهل السماوات والأرض لم يحبوا أن يكونوا شهدوا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله لكانوا من أهل النار »

---

(٢٧٥) في الفتوحات (٥٢٤/١): « روينا في هذا الباب - على ما حدثنا به شيخنا المقري أبو بكر محمد بن خلف بن صاف اللخمي عن بعض المعلمين من الصالحين - أن شخصا صبيا صغيرا كان يقرأ عليه القرآن، فرآه مصفر اللون، فسأله عن حاله فقيل له: إنه يقوم الليل بالقرآن كله، فقال له: يا ولدي أخبرت أنك تقوم الليل بالقرآن كله، فقال: هو ما قيل لك

فقال: يا ولدي إذا كان في هذه الليلة فأحضرني في قبلتك واقرأ علي القرآن في صلاتك ولا تغفل عني . فقال الشاب: نعم، فلما أصبح قال له: هل فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم يا أستاذ، قال: وهل ختمت القرآن البارحة؟ قال: لا، ما قدرت على أكثر من نصف القرآن، قال: يا ولدي هذا حسن، إذا كان في هذه الليلة فاجعل من شئت من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمامك الذين سمعوا القرآن من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، واقرأ عليه واحذر، فإنهم سمعوه من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلا تزل في تلاوتك، فقال: إن شاء اللّه يا أستاذ كذلك أفعل، فلما أصبح سأله الأستاذ عن ليلته فقال: يا أستاذ ما قدرت على أكثر من ربع القرآن

فقال: يا ولدي اتل هذه الليلة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذي أنزل عليه القرآن واعرف بين يدي من تتلوه، فقال: نعم، فلما أصبح قال: يا أستاذ ما قدرت طول ليلتي على أكثر من جزء من القرآن أو ما يقاربه

فقال: يا ولدي إذا كان هذه الليلة فلتكن تقرأ القرآن بين يدي جبريل الذي نزل به على قلب محمد صلى اللّه عليه وسلم فاحذر واعرف قدر من تقرأ عليه، فلما أصبح قال: يا أستاذ ما قدرت على أكثر من كذا، وذكر آيات قليلة من القرآن

قال: يا ولدي إذا كان هذه الليلة تب إلى اللّه وتأهب، واعلم أن المصلي يناجي ربه وأنك واقف بين يديه تتلو عليه كلامه فانظر حظك من القرآن وحظه وتدبر ما تقرأه، فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها ولا حكاية الأقوال، وإنما المراد بالقراءة التدبير لمعاني ما تتلوه فلا تكن جاهلا

فلما أصبح انتظر الأستاذ الشاب فلم يجيء إليه، فبعث من يسأل عن شأنه فقيل له: إنه أصبح مريضا يعاد، فجاء إليه الأستاذ، فلما أبصره الشاب بكى وقال: يا أستاذ جزاك اللّه عني خيرا، ما عرفت أني كاذب إلا البارحة: لما قمت في مصلاي وأحضرت الحق تعالى وأنا بين يديه أتلو عليه كتابه، فلما استفتحت الفاتحة ووصلت إلى قوله إياك نعبد نظرت إلى نفسي

فلم أرها تصدق في قولها فاستحييت أن أقول بين يديه: إياك نعبد وهو يعلم أني أكذب في مقالتي، فإني رأيت نفسي لاهية بخواطرها عن عبادته فبقيت أردد القراءة من أول الفاتحة إلى قوله: (مالك يوم الدين)، ولا أقدر أن أقول: (إياك نعبد)، إنه ما خلصت لي فبقيت أستحي أن أكذب بين يديه تعالى فيمقتني، فما ركعت حتى طلع الفجر، وقد رضت كبدي، وما أنا إلا راحل إليه على حالة لا أرضاها من نفسي، فما انقضت ثالثة حتى مات الشاب ... »

فقال ابن عربي: « فمن قرأ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) على قراءة الشاب فقد قرأ »، ولا يخفى ما فيه من التكلف، لكنه مع ذلك لا يخلو من حقيقة ...

---

(٢٧٦) يبدو لي أن إلى هذا يشير ما في الكافي (٢/٤١١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « المؤلفة قلوبهم قوم وحدوا اللّه وخلعوا عبادة [من يُعبد] من دون اللّه، ولم تدخل المعرفة قلوبهم أن محمّدًا رسول اللّه، وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يتألّفهم ويعرّفهم لكيما يعرفوا، ويعلّمهم »، على أن يكون معنى (تعريفهم...) جعل الحق محسوسا لهم لكيما يحسوا به، ففي (المصباح المنير) للفيومي: « عرفته ... علمته بحاسة من الحواس الخمس »

---

(٢٧٧) مثلا في البخاري (كتاب مواقيت الصلاة/ باب تضييع الصلاة.../ الحديث: ٥٢٩) عن أنس قال: ما أعرف شيئا مما كان على عهد النبي صلّى اللّه عليه وسلم، قيل: الصلاة؟ قال: أليس ضيّعتم ما ضيعتم فيها

وأيضا في البخاري (نفس الباب/ الحديث: ٥٣٠) بسنده عن الزهري قال: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ فقال: لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضيعت

وفي كتاب (الأم) للشافعي (١/٢٠٩ ط دار الشعب) عن وهب بن كيسان قال: رأيت ابن الزبير يبدأ بالصلاة قبل الخطبة، ثم قال: كل سنن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قد غيرت حتى الصلاة

وفي مسند ابن حنبل (٦/٤٤٣) عن أم الدرداء قالت: دخل عليّ أبو الدرداء وهو مغضب فقلت: من أغضبك؟ قال: واللّه ما أعرف من أمر محمد صلّى اللّه عليه وسلم

شيئا إلا أنهم يصلون جميعا

---

(٢٧٨) تجده في البخاري وكتب كثيرة، ونقله كثير من المؤلفين الشيعة أيضا

---

(٢٧٩) في الكافي (١/٤٢٦) بسنده عن أبي عبيدة أنه قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله تعالى: (ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) قال: عنى بالكتاب التوراة والإنجيل، وأثارة من علم فإنما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء عليهم السلام

---

(٢٨٠) الولاية درجتان، درجة لا يخلو منها أحد، فإن من خصائص الإنسان الأساسية أنه يجد نفسه (وليا وقيما) ويتصرف كذلك فيأمر وينهى ...، كما ويجد لنفسه حق الطاعة فيتأذى لو لم يطَع ....، غاية ما هنالك أنه إن كان مؤمنا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ...، وإلا لأمر بالمنكر ونهى عن المعروف، وكان أمره فرطا

لا شك في أن هذه الدرجة من الولاية متوفرة في أوصياء الأنبياء السابقين (ع)

الدرجة الثانية هي ما جعله اللّه للأنبياء الذين كانت رسالتهم لا فقط تبليغ دين اللّه، بل والسعي إلى إقامته بصورة أو أخرى فإنهم كانوا بحاجة إلى صلاحية خاصة تخولهم التصرف والحكم بين الناس حسبما كانت تقتضيه رسالتهم، فلذلك جعل اللّه لهم حق الطاعة لا فيما كانوا يأمرون بما أمر اللّه...، بل فيما كانوا يأمرون كحكام بين الناس وأولياء عليهم، فكانت الأوامر منهم والطاعة لهم وإن كان اللّه قد خولهم ذلك، فطاعتهم هي في الحقيقة طاعة للّه...

وهذه الولاية هي ما جعلها اللّه العزيز الحكيم لأوصياء محمد صلى اللّه عليه وعليهم دون غيرهم، فلهم أن يأمروا بما لم يكن اللّه قد نهى عنه، فيجب طاعتهم، وأن ينهوا عما لم يوجبه اللّه فيحرم فعله طاعة لهم (ع)

توضيحا لما عبر عنه السيد محمد باقر الصدر بـ(منطقة الفراغ)، وأنها مما يملأها أولي الأمر... قال في كتابه (إقتصادنا ص٦٤١): « وحدود منطقة الفراغ التي تتسع لها صلاحيات أولي الأمر، تضم في ضوء هذا النص الكريم كل فعل مباح تشريعيا بطبيعته، فأي نشاط وعمل لم يرد نص تشريعي يدل على حرمته أو وجوبه، يسمح لولي الأمر بإعطائه صفة ثانوية، بالمنع

عنه أو الأمر به . فإذا منع الإمام عن فعل مباح بطبيعته، أصبح حراما، وإذا أمر به، أصبح واجبا

وأما الأفعال التي ثبت تشريعيا تحريمها بشكل عام ـ كالربا مثلا ـ فليس من حق ولي الأمر، الأمر بها . كما أن الفعل الذي حكمت الشريعة بوجوبه ـ كإنفاق الزوج على زوجته ـ لا يمكن لولي الأمر المنع عنه، لأن طاعة أولي الأمر مفروضة في الحدود التي لا تتعارض مع طاعة الله وأحكامه العامة... »

ولا يخفى أنه (طاب ثراه) كان ممن يرون أن الولاية المذكورة لا تختص بالولي المعصوم، بل وتكون للفقهاء أيضا باعتبارهم نوابا له (ع) وأولياء أمور المسلمين في غيبته ...

---

(٢٨١) قال الله تعالى (آل عمران: ٤٥ـ ٥٠): ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ... وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ... وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾

وقال تعالى (البقرة: ٥٤): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

وقال عز وجل (النساء: ١٦٠ـ ١٦١): ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

---

(٢٨٢) قال الله تبارك وتعالى (المائدة: ٤٦): ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

ولكنه تعالى قال (آل عمران: ٣ـ ٤): ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ولا مانع من أن يكون لام (الناس) للعهد كما لا يخفى ...

---

(٢٨٣) قال الله عز وجل (الشورى: ١٣ـ ١٤): ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (إلى أن قال): (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ...)

---

(٢٨٤) قال اللّه عز وجل (الشعراء: ١٩٢ـ ١٩٧): (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِين . أَوَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

---

(٢٨٥) قال تعالى (البقرة: ١٢١): (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)

وقال تعالى (النساء: ١٦٢): (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ...)

وقال تعالى (الإسراء: ١٠٧ـ ١٠٩): (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

وقال (القصص: ٥٢ـ ٥٤): (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) إلخ

---

(٢٨٦) قال اللّه تعالى (البقرة: ١٠٩): (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وقال (آل عمران: ٩٨ـ ١٠٠): (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) إلخ

---

(٢٨٧) قال اللّه عز وجل (البقرة: ١٤٥): (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ)

---

(٢٨٨) كقول اللّه عز وجل (آل عمران: ١٥٢): (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ)، وقوله (الأنبياء: ٩): (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ)، وقوله (سبأ: ٢٠): (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إلا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)، وقوله (الزمر: ٧٣-٧٤): (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا (إلى قوله تعالى) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)، بل وقوله (الفتح: ٢٧): (لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ) ...

---

(٢٨٩) من الآيات التي تتناسق بهذا المعنى الآية ١٣ من سورة الشورى، والآيات: ٤٣-٤٧، و٤٨، و٦٦ من سورة المائدة، والآيات: ٤، ٨٩، ١٣٦، ٢٨٥ من سورة البقرة، والآيات: ٦٨ و٨٤ و٨٥ من سورة آل عمران، والآيات: ٢٦ و١٢٣- ١٢٥ و١٣٦ و١٥٢ من سورة النساء، والآيات: ٨٤ - ٩٠ من سورة الأنعام، والآيتان: ٥١ و٥٢ من سورة المؤمنون، والآية ٢٤ من سورة الأنبياء، والآية ١٩٦ من سورة الشعراء ...

---

(٢٩٠) أقصد بالتصديق العقلي ما يصدر من العقل الطبيعي، لا ما يفترض صدوره عما يسمى العقل المنطقي، وكان قد وُضح هذا في فصل (**الكتاب**) من القسم السابق ...

---

(٢٩١) تقدم في القسم السابق من هذه المذكرات، وفي هذا القسم، ارتباط (القرآن) بتلاوة النبي صلى اللّه عليه وآله ...

---

(٢٩٢) في الكافي (٤١٣/١) عن أبي جعفر عليه السلام - في قول اللّه عز وجل: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِم) - قال: الولاية

---

(٢٩٣) يبدو لي أن إلى هذا يشير قول اللّه تعالى (الزمر: ٣٣): (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)، وذلك بأن يكون المقصود بـ(الذي جاء بالصدق) النبي صلى اللّه عليه وآله، وبـ(الصدق) القرآن حيث كانت النفوس تجده صدقا بتلاوة النبي التي كان بها (قرآنا) (سبق توضيح هذا في القسم السابق من هذه المذكرات)، وأن يكون المقصود بالذي صدّق به كذلك النبي (ص) ولكن لا بخصوصه كما سأوضحه بعد أسطر، وأن يكون معنى تصديقه بالصدق إقامته (ص) القرآن بالعمل به وتجسيده في الواقع، هذا إن كانت الباء في (بِهِ) زائدة والضمير العائد إلى (الصدق) مفعولا لـ(صدَّق)

وأما إذا كانت الباء سببية، ومفعول (صدَّق) محذوفا، ولنفترضه (الأشياء) أو (الأمور) ـ مثلا ـ، فمعنى (صدَّق به) جعلُه (ص) الأمور صدقا بتلاوته (الصدق) والعمل به وإقامته فقط، كما كان قد أمره اللّه تعالى بقوله (الإسراء: ٨٠ـ ٨١): (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا . وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)، فظهر الصدق وتمثل في الواقع، فأرى اللّه الناسَ آياته، فعرفَتها نفوسهم كما أشار إلى ذلك قول اللّه تعالى: (.. سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) حسبما يبدو لي (وسيأتي الكلام عن الآية الكريمة وما قيل في تفسيرها تحت عنوان (**الخلافة وسيلة، لا غاية**)

هذا، وبناءا على الفرض الثاني بأن يكون المفعول المحذوف أمرا عاما شاملا لجميع ما من شأنه أن يكون صدقا ويرغب فيه الإنسان ...، فيبدو أنه مما كان يعرفه المؤمنون بإجماله، ولم يكن ممكنا تفصيله ...، فهو بهذا مثل قول اللّه عز وجل (القيامة: ٣١ـ ٣٢): (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى) ...

وما قلت من أن التصديق بالقرآن لا يختص بالنبي صلى اللّه عليه وآله فلأن ذلك مما يمكن أن يقوم به الإمام أيضا إن توفرت أرضية ذلك، وسوف يقوم به الإمام القائم عليه السلام، فيبدو أن لهذا قال: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)، مضافا إلى ذلك أن إقامة النبي أو الإمام للقرآن لن تتم إلا بوجود أتباع متقين ...

وعلى أي حال فما أشرنا إليه أقرب إلى الآية الكريمة مما قيل في تفسيرها، يُنظر ـ مثلا ـ تفسير الميزان (١٧/ ٢٦٠) حيث قال: « المراد بالمجيء بالصدق الإتيان بالدين الحق، والمراد بالتصديق به الإيمان به، والذي جاء به النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم

وقوله: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) لعل الإشارة إلى الذي جاء به بصيغة الجمع لكونه جمعا بحسب المعنى وهو كل نبي جاء بالدين الحق وآمن بما جاء به بل وكل مؤمن آمن بالدين الحق ودعا إليه فإن الدعوة إلى الحق قولا وفعلا من شئون اتباع النبي، قال تعالى: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) »

وقال الرازي: « المسألة الأولى: قوله: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) تقديره: والذي جاء بالصدق والذي صدق به، وفيه قولان: الأول أن المراد شخص واحد، فالذي جاء بالصدق محمد، والذي صدق به هو أبو بكر، وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضي الله عنهم

والثاني أن المراد منه كل من جاء بالصدق، فالذي جاء بالصدق الأنبياء، والذي صدق به الأتباع . واحتج القائلون بهذا القول بأن الذي جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

المسألة الثانية أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة: المرسل والمرسل والرسالة والمرسل إليه، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق فأول شخص أتى بالتصديق هو الذي يتم به الإرسال، وسمعت بعض القاصين من الذي يروي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: (دعوا أبا بكر فإنه من تتمة النبوة)

واعلم أنا سواء قلنا: المراد بالذي صدق به شخص معين، أو قلنا: المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة، فإن أبا بكر داخل فيه

أما على التقدير الأول فدخول أبي بكر فيه ظاهر، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما علي، وحمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى، لأن عليا عليه السلام كان وقت البعثة صغيرا، فكان كالولد الصغير الذي يكون في البيت، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة. أما أبو بكر فإنه كان رجلا كبيرا في السن كبيرا في المنصب، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة في الإسلام، فكان حمل هذا اللفظ إلى أبي بكر أولى

وأما على التقدير الثاني فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفا بهذه الصفة، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلا فيه

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): قرئ (وصدق) بالتخفيف أي صدق به الناس

ولم يكذبهم يعني أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف، وقيل: صار صادقا به أي بسببه، لأن القرآن معجزة، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح فيصير المدعي للرسالة صادقا بسبب تلك المعجزة وقرئ وصدق »

---

(٢٩٤) يُنظر ما يأتي بعنوان **(الخلافة وسيلة، لا غاية)**

---

(٢٩٥) وُصف القرآن كثيرا بكونه (تصديق الذي بين يديه)، أو (مصدقا لما مع أهل الكتاب)، أو (مصدقا لما بين يديه من الكتاب)، وقد وصف مرة بأنه (مصدق) ـ بلا ذكر لمفعوله ـ، كما ويبدو أن كونه مصدقا لما بين يديه، ولما مع أهل الكتاب، دليل كونه حقا، وحجة على أهل الكتاب

قال اللّه تعالى (البقرة:٤١): (وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ)، و(البقرة:٨٩): (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ)، و(البقرة:٩١): (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ)، و(البقرة:٩٧): (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)، و(البقرة:١٠١ـ ١٠٢): (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ . وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ...)، و(النساء: ٤٧): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ...)

وقال عز وجل (الأنعام:٩٢): (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)، و(يوسف:١١١): (... مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون)، و(الأحقاف: ٢٩ـ ٣٠): (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ (إلى قوله) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) إلخ

---

(٢٩٦) قال اللّه عز وجل (الأحقاف: ١٢): (وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ)

(٢٩٧) يرى الكاتب أن لكل شيء في العالم رسالة للإنسان، وفيه آية له كما يشير إليه ـ مثلا ـ قول اللّه عز وجل (آل عمران: ١٩٠ـ ١٩١): (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، وبعث اللّه النبي (ص) وأنزل معه القرآن ليهدي الناس إلى الحق فيجدوا رسالة الأشياء الصادقة بدلا من أن يكفروا بها ويكذبوا بها ...

---

(٢٩٨) قال اللّه عز وجل (البقرة: ٥٣): (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

---

(٢٩٩) قال اللّه تعالي (الأعراف: ١٢٨ـ ١٢٩): (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِمَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

---

(٣٠٠) قال اللّه عز وجل (البقرة: ٤٩): (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)

---

(٣٠١) قال اللّه تبارك وتعالى (المائدة: ٢٠ـ ٢٤): (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ . يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

---

(٣٠٢) قال اللّه تعالى (الجمعة: ٦): (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

وقـال تبارك وتعالى (المائدة: ١٨): (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنْتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ...)

---

(٣٠٣) في التوراة (سفر الخروج، الإصحاح ٤، الآيات: ٢٣-٢٤): « وقـال الرب لموسى عندما تذهب لترجع الى مصر... فتقول لفرعون هكذا يقول الرب . إسرائيل ابني البكر . فقلت لك أطلق ابني ليعبدني ... »

---

(٣٠٤) في التوراة (سفر الخروج، الإصحاح ٢٢): « ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه . لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر »

وأيضا في التوراة (سفر اللاويين، الإصحاح ١٩): « وكلم الرب موسى قائلا...

واذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر . أنا الرب إلهكم . لا ترتكبوا جورا في القضاء لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل ...

فتحفظون كل فرائضي وكل أحكامي وتعملونها . أنا الرب »

---

(٣٠٥) في التوراة (سفر الخروج، الإصحاح ٦): « ثم كلم اللّه موسى وقال له أنا الرب . وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء ... وأيضا أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها . وأنا أيضا قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدي . لذلك قل لبني اسرائيل أنا الرب . وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة . وأتخذكم لي شعبا وأكون لكم إلها . فتعلمون أني أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين . وأدخلكم الى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب. وأعطيكم إياها ميراثا . أنا الرب »

وأيضا في الإصحاح ١٨: « بكل هذه لا تتنجسوا لأنه بكل هذه قد تنجس الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم. فتنجست الأرض. فاجتزي ذنبها منها فتقذف الأرض سكانها. لكن

تحفظون أنتم فرائضي وأحكامي ولا تعملون شيئا من جميع هذه الرجسات لا الوطني ولا الغريب النازل في وسطكم. لأن جميع هذه الرجسات قد عملها أهل الأرض الذين قبلكم فتنجست الأرض . فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوب التي قبلكم . بل كل من عمل شيئا من جميع هذه الرجسات تقطع الأنفس التي تعملها من شعبها . فتحفظون شعائري لكي لا تعملوا شيئا من الرسوم الرجسة التي عملت قبلكم ولا تتنجسوا بها. أنا الرب إلهكم »

وأيضا في التوراة (سفر الخروج، الإصحاح ١٩): « وأما موسى فصعد إلى اللّه، فناداه الرب من الجبل قائلا هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل . أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين وأنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إليّ . فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب . فإن لي كل الأرض . وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة »

---

(٣٠٦) قال اللّه تعالى (البقرة: ٥٨- ٥٩): ﴿إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

---

(٣٠٧) قال اللّه عز وجل (الفجر: ١٥): ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ...﴾

---

(٣٠٨) قال اللّه تعالى (البقرة: ٨٧): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

---

(٣٠٩) قال اللّه عز وجل (الأحزاب: ٦٩): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾

وقال (الصف: ٥): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

---

(٣١٠) يُنظر التوراة، الإصحاح ١٦

---

(٣١١) في التوراة (الإصحاح ١٧، ط المعجم العقائدي): « لا تتنجسوا بكل هذه الأعمال المشينة لأن بها تنجست الشعوب التي سأطردها من أمامكم. فقد تنجست بها الأرض لهذا سأعاقب الأرض بذنبها فتتقيأ سكانها . أما أنتم فاحفظوا فرائضي وأحكامي ولا تقترفوا شيئا من هذه الرجاسات، المواطن والغريب المقيم في وسطكم على حد سواء . لأن جميع هذه الرجاسات قد عملها أهل البلاد الذين قبلكم فتنجست الأرض . فلا تنجسوا الأرض بارتكابكم إياها لئلا تتقيأكم كما تقيأت الأمم التي قبلكم . بل كل من اقترف شيئا من هذه الرجاسات جميعها تستأصل تلك النفس الجانية من بين شعبها . فاحفظوا شعائري لكي لا ترتكبوا شيئا من تلك الممارسات الرجسة التي اقترفت قبلكم ولا تتنجسوا بها . أنا الرب إلهكم »، وقد نقلناه قبل قليل عن نسخة أخرى بشيء من الاختلاف

ويُنظر التوراة (سفر اللاويين، الإصحاح ١٨)، و(سفر اللاويين، الإصحاح ٢٠)، و(سفر الخروج، الإصحاح ٧)، و(سفر الخروج، الإصحاح ١٩)

---

(٣١٢) قال اللّه تعالى (المائدة: ١٨): (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ...)

---

(٣١٣) مقطع من قول اللّه عز وجل (الأعراف: ١٥٦ـ ١٥٧): (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

---

(٣١٤) قد يشير إلى هذا ما في الكافي (٨/٢٩٦) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « ...، وإنه ليس من أحد يدعو إلى أن يخرج الدجال إلا سيجد من يبايعه ... »

---

(٣١٥) في تفسير الميزان ـ في قوله تعالى: (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) ـ: « ...، فإن شهادة الموقن البصير على أمر تدفع عن الإنسان مرية الاستيحاش وريب التفرد فإن الإنسان إذا أذعن بأمر وتفرد فيه ربما أوحشه التفرد فيه إذا لم يؤيده أحد في القول به، أما إذا قال به غيره من الناس وأيد نظره في ذلك زالت عنه الوحشة وقوي قلبه وارتبط جأشه »

وقد سبق الكلام عن هذا في القسم السابق تحت عنوان **(لا بد من شهيد)**

---

(٣١٦) أرى أن إلى هذه الحقيقة يشير قول الله تعالى (البقرة: ١٢٧-١٣٢): (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)

---

(٣١٧) اضطرب كلام المفسرين في معنى (الذكر) في قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ)، ويبدو لي أن المقصود به ليس كتابا معينا بل أن كتابة الوعد بوراثة الصالحين كان بعد الذكر والتذكير، فقد جاء في المزمور ٣٧ من مزامير داود (ع)، كما في (الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط): « انتظر الرب واصبر له ... كف عن الغضب واترك السخط ولا تغر لفعل الشر . لأن عاملي الشر يُقطعون والذين ينتظرون الرب يرثون الأرض ... »

---

(٣١٨) كما يبدو ذلك من قول الله عز وجل (يوسف: ١١٠): (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ...)

---

(٣١٩) سيأتي الكلام عن هذا قريبا إن شاء اللّه

---

(٣٢٠) كما يظهر ذلك من قول اللّه عز وجل (آل عمران: ٨١): (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)

---

(٣٢١) قال اللّه عز وجل (الأنعام: ٩١ـ ٩٢): (قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...)

---

(٣٢٢) قال تعالى (البقرة: ٧٨): (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ)

---

(٣٢٣) في كتاب (غيبة النعماني: ص٢٦٤) ـ ولاحظ البحار ٢٩٤/٥٢ ـ عن زرارة بن أعين، قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: « ينادي مناد من السماء: إن فلانا هو الأمير، وينادي مناد: إن عليا وشيعته هم الفائزون »

قلت: فمن يقاتل المهدي بعد هذا؟! فقال: « إن الشيطان ينادي: إن فلانا وشيعته هم الفائزون ـ لرجل من بني أمية ـ »

قلت: فمن يعرف الصادق من الكاذب؟ قال: يعرفه الذين كانوا يروون حديثنا ويقولون: إنه يكون قبل أن يكون، ويعلمون أنهم هم المحقون الصادقون

والنعماني هو أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن جعفر المعروف بابن أبي زينب، قال النجاشي: « شيخ من أصحابنا، عظيم القدر، شريف المنزلة، صحيح العقيدة، كثير الحديث، قدم بغداد وخرج إلى الشام ومات بها ... »

وهو من تلامذة الكليني (قده)

ويُنظر أيضا روضة الكافي ص٢٠٩

---

(٣٢٤) وُصف القرآن بتصديق الذي بين يديه أو لما مع أهل الكتاب ... في ١٣ آية، ولم يوصف النبي (ص) بذلك إلا في موردين

---

(٣٢٥) هناك أمور أخرى يمكن الإشارة إليها في هذا الصدد، منها أن إخبار عيسى عليه السلام عن مجيء النبي (المصدق) لما معهم كان يشعرهم بأنه لا يبتغي علوا في الأرض، وأنه عالم بحاجاتهم...

وعلى أي حال ففي تفسير الميزان: « وقوله: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) إشارة إلى الشطر الثاني من رسالته عليه السلام وقد أشار إلى الشطر الأول بقوله: (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ)

ومن المعلوم أن البشرى هي الخبر الذي يسر المبشر ويفرحه ولا يكون إلا بشيء من الخير يوافيه ويعود إليه، والخير المترقب من بعثة النبي ودعوته هو انفتاح باب من الرحمة الإلهية على الناس فيه سعادة دنياهم وعقباهم من عقيدة حقة أو عمل صالح أو كليهما، والبشرى بالنبي بعد النبي وبالدعوة الجديدة بعد حلول دعوة سابقة واستقرارها والدعوة الإلهية واحدة لا تبطل بمرور الدهور وتقضي الأزمنة واختلاف الأيام والليالي ـ إنما تتصور إذا كانت الدعوة الجديدة أرقى فيما تشتمل عليه من العقائد الحقة والشرائع المعدلة لأعمال المجتمع وأشمل لسعادة الإنسان في دنياه وعقباه

وبهذا البيان يظهر أن معنى قوله عليه السلام: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي) إلخ، يفيد كون ما أتى به النبي أحمد صلى الله عليه وآله وسلم أرقى وأكمل مما تضمنته التوراة وبعث به عيسى عليه السلام وهو عليه السلام متوسط رابط بين الدعوتين

ويعود معنى كلامه: (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا) إلخ، إلى أني رسول من الله إليكم أدعو إلى شريعة التوراة ومنهاجها ـ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ـ وهي شريعة سيكملها الله ببعث نبي يأتي من بعدي اسمه أحمد

وهو كذلك فإمعان التأمل في المعارف الإلهية التي يدعو إليها الإسلام يعطي أنها أدق

مما في غيره من الشرائع السماوية السابقة وخاصة ما يندب إليه من التوحيد الذي هو أصل الأصول الذي يبتني عليه كل حكم ويعود إليه كل من المعارف الحقيقية ...

وكذا الشرائع والقوانين العملية التي لم تدع شيئا مما دق وجل من أعمال الإنسان الفردية والاجتماعية إلا عدلته وحدت حدوده وقررته على أساس التوحيد ووجهته إلى غرض السعادة

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ) ...، وآيات أخرى يصف القرآن

والآية ـ أعني قوله: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي) ـ وإن كانت مصرحة بالبشارة لكنها لا تدل على كونها مذكورة في كتابه عليه السلام غير أن آية الأعراف المنقولة آنفا: (يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ)، وكذا قوله في صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ) يدلان على ذلك »

---

(٣٢٦) في تفسير الآية ٦ من (الصف) قال الرازي: « ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام، بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل في عدة مواضع أولها في الإصحاح الرابع عشرمن إنجيل يوحنا هكذا: (وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد، والفارقليط هو روح الحق اليقين)، هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي

وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ: (وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي، ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء، وهو يذكركم ما قلت لكم)، ثم ذكر بعد ذلك بقليل: (وإني قد خبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون)

وثانيها: ذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا: (ولكن أقول لكم الآن حقا يقينا انطلاقي عنكم خير لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط، وإن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويدينهم ويمنحهم ويوقفهم على الخطيئة والبر والدين)

وثالثها: ذكر بعد ذلك بقليل هكذا: (فإن لي كلاما كثيرا أريد أن أقوله لكم، ولكن لا

تقدرون على قبوله والاحتفاظ به، ولكن إذا جاء روح الحق إليكم يلهمكم ويؤيدكم بجميع الحق، لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه)

هذا ما في الإنجيل

فإن قيل: المراد بفارقليط إذا جاء يرشدهم إلى الحق ويعلمهم الشريعة، وهو عيسى يجيء بعد الصلب؟ نقول: ذكر الحواريون في آخر الإنجيل أن عيسى لما جاء بعد الصلب ما ذكر شيئا من الشريعة، وما علمهم شيئا من الأحكام، وما لبث عندهم إلا لحظة، وما تكلم إلا قليلا، مثل أنه قال: (أنا المسيح فلا تظنوني ميتا، بل أنا ناج عند اللّه ناظر إليكم، وإني ما أوحي بعد ذلك إليكم) »

---

(٣٢٧) في تفسير الميزان: « وقوله: (وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أي تصديقا لما هو حاضر منزل من الكتاب وهو التوراة والإنجيل كما حكى عن المسيح قوله: (يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ)...، وإنما وصفهما بما بين يديه مع تقدمهما لأن هناك كتابا غير الكتابين ككتاب نوح وكتاب إبراهيم (ع) فإذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الأقرب منها زمانا إليه وهو التوراة والإنجيل موصوفا بأنه بين يديه

وربما قيل: إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الأمور كالبعث والنشور والحساب والجزاء، وليس بشيء »

---

(٣٢٨) قال اللّه تعالى (الأعراف: ١٥٦-١٥٧): (... الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ ...)

في تفسير الرازي: « الإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي يحبسه من الحراك لثقله، والمراد منه: أن شريعة موسى عليه السلام كانت شديدة . وقوله: (وَالأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ) المراد منه: الشدائد التي كانت في عباداتهم كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم، وجعلها اللّه أغلالا لأن التحريم يمنع من الفعل، كما أن الغل يمنع عن الفعل، وقيل: كانت بنو إسرائيل إذا قامت إلى الصلاة لبسوا المسوح،

وغلوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعا للّه تعالى، فعلى هذا القول الأغلال غير مستعارة »

---

(٣٢٩) في كراس باسم (رابطه دين وفلسفه ص١٣) نقل عن الأستاذ الدكتور فلاطوري أنه قال ـ ما ترجمته ـ : « ...، ولكننا لسنا أبدا في هذا الصدد (أي في صدد التخلي عن الفلسفة)، والسبب أن كبار فلاسفتنا، خاصة صدر المتألهين، رأوا الفلسفة أداة لفهم الدين، أي أصبحت الفلسفة وسيلة لبيان الحقيقة الدينية، فمَن هو الذي يجرؤ إذن أن يستشكل على هذه الفلسفة؟! فلو استشكل أحد عليها فهو في الواقع يعرض نفسه للأذى ... »

هذا وكان فلاطوري أستاذ الفلسفة والكلام والعلوم الإسلامية في جامعة كلونيا الألمانية، وكان قد تتلمذ على أيدي مجموعة من العلماء منهم الشاه آبادي، والحكيم المعروف الميرزا مهدي الآشتياني الذي أجازه ومدحه ...

---

(٣٣٠) تقدم أن الكاتب يرى أن معنى (لا ريب فيه) هو عدم الريب فيه في النفس، وذلك طي الحديث عن الآخرة وأنها مما لا ريب فيها

---

(٣٣١) يأتي ـ إن شاء اللّه ـ في قسم لاحق من هذه المذكرات توضيح هذا الأمر المهم الذي أشير إليه في المتن

---

(٣٣٢) فُصل الكلام عن هذا في القسم السابق

---

(٣٣٣) قال اللّه تعالى (الإسراء: ١٠٧ـ١٠٩): (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

وقال تعالى (القصص: ٥٢ـ٥٣): (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ)

---

(٣٣٤) قال اللّه تعالى (التوبة: ٣١): (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ...)

---

(٣٣٥) قال الشيخ محمد الصادقي في كتابه (الفرقان: ١/٣٥٩): « وترى ماذا يعني: (مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ)؟ ومعهم خليط من وحي الأرض والسماء، فهل القرآن يصدقه كله: (لِمَا مَعَكُمْ)؟ أم بعضه الذي لم يحرف بعدُ ...، والنص (مَا) لا (بعض ما)، هناك آيات تصرح أن اليهود والنصارى حرفوا قسما وأقساما من آيات الوحي: (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ) ... فكيف يصدق القرآن ما يكذبه من آيات توراتية أو إنجيلية دخيلة؟!

إذًا فليس القصد كل ما معهم، فهل هو ـ إذًا ـ ما معهم من آيات الوحي لا سواها: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) (..) فالمصدَّق هو كتاب اللّه لا كل الكتاب، ولا كل ما معهم، وإنما بعض ما معهم؟ وليس في تصديق البعض لما معهم تحريض على الإيمان به، فإن كل لاحق ـ لا محالة ـ يصدق البعض من سابقه، إذ لا يمكن تكذيبه ككل، وإن كان كله من وحي الأرض، بل ولا يستطيع أي كاذب محتال أن يجمع أكاذيب لا صدق فيها، فإنما يخلط كذبا بصدق، ويظهر كلا بمظهر الآخر بغية الإضلال ...

بل وحتى إذا حاولوا أن يجمعوا كذبا خالصا لا يستطيعون . فترى إذا لا يقصد من (ما معهم) لا كله لمكان التحريف، ولا بعضه إذ لا يفيد، فما هو المصدَّق إذًا؟

أقول: إنه البشارات الموجودة في التوراة ... »

وفي التفسير الأمثل: « يقول تعالى: وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب، أي أن البشائر التي زفتها التوراة والكتب السماوية الأخرى بشأن النّبي الخاتم، والأوصاف التي ذكرتها لهذا النّبي والكتاب السماوي تنطبق على محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، وعلى القرآن المنزل عليه، فلماذا لا تؤمنون به؟! ... »

وفي التفسير الأمثل أيضا: « ... وَلَـٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، أي إنّ كل البشارات والدلالات الحقّة التي جاءت في الكتب السماوية السابقة تنطبق على القرآن ومن جاء به تماما، وهذا بنفسه يثبت أنّه ليس افتراء على اللّه بل هو حق، وأساسا فإنّ القرآن شاهد على صدق محتواه من باب أنّ طلوع الشمس دليل على الشمس

ومن هنا يتّضح زيف الذين استدلوا بمثل هذه الآيات على عدم تحريف التّوراة والإنجيل، لأنّ القرآن الكريم لم يصدق ما كان موجودا في هذه الكتب في عصر النزول، بل إنّه أيّد العلامات الواردة في هذه الكتب حول النّبي صلى اللّه عليه وآله وسلّم والقرآن »

وقال الرازي: « قوله: (وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)، وتقرير هذه الحجة من وجوه: أحدها أن محمدا عليه السلام كان رجلا أميا ما سافر إلى بلدة لأجل التعلم، وما كانت مكة بلدة العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم إنه عليه السلام أتى بهذا القرآن، فكان هذا القرآن مشتملا على أقاصيص الأولين، والقوم كانوا في غاية العداوة له، فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه، ولقالوا له: إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغي، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه وعلى تقبيح صورته علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما في التوراة والإنجيل مع أنه ما طالعهما ولا تلمذ لأحد فيهما، وذلك يدل على أنه عليه السلام إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل اللّه تعالى

الحجة الثانية أن كتب اللّه المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام، على ما استقصينا في تقريره في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ)، وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء محمد عليه السلام تصديقا لما في تلك الكتب، من البشارة بمجيئه صلى اللّه عليه وسلم فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه

الحجة الثالثة أنه عليه السلام أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل، ووقعت مطابقة لذلك الخبر كقوله تعالى: (ألم . غُلِبَتِ الرُّومُ) الآية، وكقوله تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ)، وكقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ)، وذلك يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلة، إنما حصل بالوحي من اللّه تعالى، فكان ذلك عبارة عن تصديق الذي بين يديه، فالوجهان الأولان إخبار عن الغيوب الماضية، والوجه الثالث إخبار عن الغيوب المستقبلة، ومجموعها عبارة عن تصديق الذي بين يديه »

---

(٣٣٦) قال الرازي: « أما قوله: (مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ) ففيه تفسيران، أحدهما أن في القرآن أن موسى وعيسى حق، وأن التوراة والإنجيل حق، وأن التوراة أنزلت على موسى، والإنجيل

على عيسى عليهما السلام، فكان الإيمان بالقرآن مؤكدا للإيمان بالتوراة والإنجيل . فكأنه قيل لهم: إن كنتم تريدون المبالغة في الإيمان بالتوراة والإنجيل فآمنوا بالقرآن، فإن الإيمان به يؤكد الإيمان بالتوراة والإنجيل

والثاني أنه حصلت البشارة بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم وبالقرآن في التوراة والإنجيل، فكان الإيمان بمحمد وبالقرآن تصديقا بالتوراة والإنجيل، وتكذيب محمد والقرآن تكذيبا للتوراة والإنجيل، وهذا التفسير أولى لأن على التفسير الأول لا يلزم الإيمان بمحمد عليه السلام، لأنه بمجرد كونه مخبرا عن كون التوراة والإنجيل حقا لا يجب الإيمان بنبوته. أما على التفسير الثاني يلزم الإيمان به، لأن التوراة والإنجيل إذا اشتملا على كون محمد صلّى اللّه عليه وسلم صادقا فالإيمان بالتوراة والإنجيل يوجب الإيمان بكون محمد صادقا لا محالة، ومعلوم أن اللّه تعالى إنما ذكر هذا الكلام ليكون حجة عليهم في وجوب الإيمان بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم، فثبت أن هذا التفسير أولى

واعلم أن هذا التفسير الثاني يدل على نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم من وجهين: الأول أن شهادة كتب الأنبياء عليهم السلام لا تكون إلا حقا، والثاني أنه عليه السلام أخبر عن كتبهم ولم يكن له معرفة بذلك إلا من قبل الوحي »

---

(٣٣٧) في تفسير الآية٤١ من البقرة قال في التفسير الأمثل (١/١٨٨): « بعثة النبي الخاتم صلّى اللّه عليه وآله وسلم وكتابه السماوي تصديق لما جاء في تلك الكتب من علامات، أي تحقيق عملي لتلك العلامات »

وقال: « وكلمة التصديق بمعنى (التحقيق العملي) وردت في مواضع أخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام: قد صدقت الرؤيا (الصافات: ١٠٥) أي أنك قد حققت عمليا رؤياك، وتصرح الآية ١٥٧ من سورة الأعراف بأن الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه وآله وسلم تحقيق عملي لما يجدونه مكتوبا في التوراة والإنجيل: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ) ... »

---

(٣٣٨) قال اللّه عز وجل (الشعراء: ١٩٢- ١٩٧): (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ . أَوَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

في تفسير الميزان: « قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) الضمير للقرآن أو نزوله على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، والزبر جمع زبور وهو الكتاب، والمعنى وإن خبر القرآن أو خبر نزوله عليك في كتب الماضين من الأنبياء

وقيل: الضمير لما في القرآن من المعارف الكلية أي إن المعارف القرآنية موجودة مذكورة في كتب الأنبياء الماضين

وفيه أولا: أن المشركين ما كانوا يؤمنون بالأنبياء وكتبهم حتى يحتج عليهم بما فيها من التوحيد والمعاد وغيرهما، وهذا بخلاف ذكر خبر القرآن ونزوله على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في كتب الأولين فإنه حينئذ يكون ملحمة تضطر النفوس إلى قبولها

وثانيا: أنه لا يلائم الآية التالية

قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) ضمير (أَنْ يَعْلَمَهُ) لخبر القرآن أو خبر نزوله على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، أي أولم يكن علم علماء بني إسرائيل بخبر القرآن أو نزوله عليك على سبيل البشارة في كتب الأنبياء الماضين آية للمشركين على صحة نبوتك، وكانت اليهود تبشر بذلك وتستفتح على العرب به كما مر في قوله تعالى: (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) ...

وقد أسلم عدة من علماء اليهود في عهد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم واعترفوا بأنه مبشر به في كتبهم، والسورة من أوائل السور المكية النازلة قبل الهجرة ولم تبلغ عداوة اليهود للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مبلغها بعد الهجرة وكان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق ولو بوجه كلي »

وفي تفسير الرازي (٥٣٣/٢٤): « وأما قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) فيحتمل هذه الأخبار خاصة، ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن، ويحتمل صفة محمد صلى اللّه عليه وسلم، ويحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف، لأن ذكر هذه الأشياء بأسرها قد تقدم »

وقال: « اعلم أن قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه، وتقريره أن جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته، وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر، وهذا يدل دلالة

ظاهرة على نبوته لأن تطابق الكتب الإلهية على نعته ووصفه يدل قطعا على نبوته »

---

(٣٣٩) في مجموعة مقالات باسم (عرفان و منطق ص٣١، ط٢) نقل (نجف دريابندرى) عن (برتراند رسل) أنه قال ـ ما ترجمته ـ : « لو أننا اكتسبنا عادة التفكير غير الشخصي لقدرنا على النظر إلى عقائدنا كما كنا ننظر إلى عقائد الآخرين، فانتبهنا إلى أن أصلب عقائدنا وأكثرها انصباغا بالتعصب هي الأقل استنادا إلى دليل »

---

(٣٤٠) قال اللّه تعالى (المائدة: ٤٤): (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...)

هذا، ويحتمل الكاتب أن يكون المراد بـ(الذين أسلموا) الذين خضعوا للذين هادوا ...

---

(٣٤١) في تفسير الميزان: « قوله تعالى: (مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ) الاقتصاد: أخذ القصد، وهو التوسط في الأمور، فالأمة المقتصدة هي المعتدلة في أمر الدين والتسليم لأمر اللّه

والكلام مستأنف أريد به بيان حال جميع ما نسب إليهم من التعدي عن حدود اللّه والكفر بآيات اللّه ونزول السخط واللعن على جماعتهم أن ذلك كله إنما تلبس به أكثرهم وهو المصحح لنسبة هذه الفظائع إليهم وأن منهم أمة معتدلة ليست على هذا النعت، وهذا من نصفة الكلام الإلهي حيث لا يضيع حقا من الحقوق ويراقب إحياء أمر الحق وإن كان قليلا »

وقال الرازي: « معنى الاقتصاد في اللغة الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير، وأصله القصد، وذلك لأن من عرف مطلوبه فإنه يكون قاصدا له على الطريق المستقيم من غير انحراف ولا اضطراب، أما من لم يعرف موضع مقصوده فإنه يكون متحيرا، تارة يذهب يمينا وأخرى يسارا، فلهذا السبب جعل الاقتصاد عبارة عن العمل المؤدي إلى الغرض

ثم في هذه الأمة المقتصدة قولان: أحدهما أن المراد منها الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد اللّه ابن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، فهم على القصد من دينهم، وعلى المنهج المستقيم منه، ولم يميلوا إلى طرفي الإفراط والتفريط . والثاني المراد منها الكفار من

أهل الكتاب الذين يكونون عدولا في دينهم ولايكون فيهم عناد شديد ولا غلظة كاملة، كما قال: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)

ثم قال تعالى: (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ) وفيه معنى التعجب كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم، والمراد: منهم الأجلاف المذمومون المبغضون الذين لا يؤثر فيهم الدليل ولا ينجع فيهم القول »

هذا، ويبدو لي أن معنى (الاقتصاد) هو (طلب القصد)، كما نص بعض كتب اللغة على أن من معاني (الافتعال): (طلب الفعل)، فعلى هذا يكون معنى الجملة في الآية: أن ما يقدر عليه بعض أهل الكتاب هو أن يكونوا أمة يطلبون القصد في الحياة الدنيا، لا أن يكونوا قاصدين فيها فعلا، فإن ذلك يحتاج ولاية تقود القصد وتؤمه وتحميه ...

---

(٣٤٢) لقد فُصّل ووُضح هذا في القسم اللاحق من هذه المذكرات، والحمد للّه

---

(٣٤٣) قال اللّه عز وجل (التوبة: ٣٤): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...)

---

(٣٤٤) وهذا ما أشار إليه جلال الدين البلخي في مثنويه (دفتر٣، البيت ٣٣٥٥) حيث قال:

تا نبيند كودكى كه سيب هست — او پياز گنده را ندهد ز دست

(ما لم ير الطفل أن هناك تفاحا فلن يتخلى عن البصل الخائس)

وفي كتاب (علم النفس: أسسه وتطبيقاته، ص٢٦٣، ط مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧) قال الدكتور عبد العزيز القوصي: « ويرى بعض الباحثين أن الحاجات الأساسية (يقصد عند الأطفال) اثنتان وهما الحاجة للأمن والحاجة للمخاطرة...، ويمكن الاستغناء عن التفسير المبني على الحاجة للمخاطرة واعتبارها نتيجة للشعور بالأمن، فالميل للمخاطرة يزداد ويبرز إذا توفر الشعور بالأمن ...، والفرد الذي يكسب عيشه من عمل معين لا يقدم على تركه إلا إذا وثق من عمل آخر أو من احتمال وجود عمل آخر ...» . (والخط تحت الكلمات من نفس المؤلف)

وكان القوصي (المستشار الفني لوزارة التربية والتعليم، والزميل بالجمعية البريطانية لعلم النفس) حسبما سجل في الصفحة الأولى من كتابه

وعلى أي حال فقد مضى الكلام عن هذا في القسم الأول من قسمي (مذكرات عن العرفان) الذي سمي (محاولات)

---

(٣٤٥) مثلا قول اللّه تعالى (المائدة: ٨٢- ٨٥): (... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لايَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لانُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ)

وقوله تعالى (القصص: ٥٢- ٥٤): (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

---

(٣٤٦) قال اللّه تبارك وتعالى (المائدة: ٦٤): (... وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ...)

---

(٣٤٧) قال اللّه عز وجل (الأنعام: ١١٤): (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)

---

(٣٤٨) قال اللّه تعالى (الأعراف: ١٥٦-١٥٧): (... الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ...)

هذا، ولا يقتصر تصديق القرآن لما بين يديه وجعْله حقا على تحريره من قيود الظروف الزمانية والمكانية، وتنزيهه له مما أدخل فيه من باطل، فإني أرى أنه قد صدّقه ببيان ما به يكون

الدين صادقا، ولأشير إليه بمثال:

جاء في الإصحاح١٩ من إنجيل [متى] ما نصه (من الكتاب المقدس، ط دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ـ بلا تاريخ ـ):

١٦ وإذا واحد تقدم وقال له (أي ليسوع) أيها المعلم الصالح أي صلاح اعمل لتكون لي الحياة الأبدية

١٧ فقال له لماذا تدعوني صالحا . ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله . ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا.

١٨ قال له أية الوصايا . فقال يسوع لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد بالزور .

١٩ أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك .

٢٠ قال له الشاب هذه كلها حفظتها منذ حداثتي . فماذا يعوزني بعد .

٢١ قال له يسوع إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني .

٢٢ فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا . لأنه كان ذا أموال كثيرة

٢٣ فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات.

٢٤ وأقول لكم أيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله

٢٥ فلما سمع تلاميذه بهتوا جدا قائلين . إذا من يستطيع أن يخلص .

٢٦ فنظر إليهم يسوع وقال لهم . هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع

فأقول: كان الفيلسوف البريطاني (برترند رسل) أشار ـ في محاضرته المعروفة باسم (لماذا لست مسيحيا) ـ إلى الآية٢١، ضمن عدد آخر مما سماه (نصائح أخلاقية)، وحيث وجدها غير عملية اعتبرها دليلا على أن منهج المسيح (عليه السلام) ليس عقلانيا ...

أرى أنه لو كان الرجل يطلب الحق، واستمع للقرآن، وتعقل وتدبر قول الله تعالى (آل عمران: ١٠٤): (... وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، وقوله (النساء: ٨٠): (مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)... لانتبه أن بهذا

وذاك تستطاع الأشياء، فوجد أن ما استنكره يصبح به (صادقا) قابلا للتطبيق، كما كان قد صدق في عهد النبي (ص) حيث أصبح الناس الذين كانوا على شفا حفرة من النار إخوانا، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ...

هذا، وينبغي الإشارة هنا إلى أن (مِن) في قوله تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ) ليست تبعيضية، بل بيانية، وأن ما ذكر في الآية الكريمة من الدعوة والأمر والنهي ليس واجبا كفائيا، ويكفي دليلا على ذلك قوله: (وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)...، مضافا إلى أن الدعوة والأمر والنهي... إنما يقوم بها الأفراد لا الأمة ...، وهذا يتطلب شرحا لست متوفرا له الآن

يُنظر ما قيل في تفسير الآية الكريمة

---

(٣٤٩) في تفسير الآية ٣ من آل عمران قال السيد الطباطبائي: « والتصديق من الصدق، يقال: صدقت مقالا كذا أي قررته على الصدق واعترفت بكونه صدقًا، وصدقت فلانًا أي اعترفت بصدقه فيما يخبر به »

---

(٣٥٠) قال اللّه تعالى (الصافات: ١٠٤ـ ١٠٥): (وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)، وقال (سبأ: ٢٠): (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)

---

(٣٥١) في تفسير الميزان: « قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) ...

والظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم سائر الكتب المنسوبة إلى الأنبياء الموجودة عندهم كمزامير داود الذي يسميه القرآن بالزبور، وغيره من الكتب

وأما احتمال أن يكون المراد به القرآن فيبعده أن القرآن نسخ بأحكامه شرائع التوراة والإنجيل فلا وجه لعدهما معه وتمني أن يكونوا أقاموهما مع القرآن الناسخ لهما، والقول بأن العمل بالقرآن عمل بهما أيضا، كما أن العمل بالأحكام الناسخة في الإسلام عمل بمجموع شرائع الإسلام المتضمنة للناسخ والمنسوخ جميعا لكون دين اللّه واحدا لا يزاحم بعضه بعضا،

غاية الأمر أن بعض الأحكام مؤجلة موقوتة من غير تناقض يدفعه أن اللّه سبحانه عبر عن هذا العمل بالإقامة وهي حفظ الشيء على ساق، ولا يلائم ذلك الأحكام المنسوخة بما هي منسوخة، فإقامة التوراة والإنجيل إنما يصح حين كانت الشريعتان لم تنسخا بشريعة أخرى، والإنجيل لم ينسخ شريعة التوراة إلا في أمور يسيرة

على أن قوله تعالى: (وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ) يعدهم منزلا إليهم، وغير معهود من كلامه تعالى أن يذكر أن القرآن نزل إليهم

فالظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم بعد التوراة والإنجيل سائر الكتب وأقسام الوحي المنزلة على أنبياء بني إسرائيل كزبور داود وغيره »

---

(٣٥٢) قال السيد الطباطبائي في الميزان: « قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) المراد بالتوراة والإنجيل الكتابان السماويان اللذان يذكر القرآن أن اللّه أنزلهما على موسى وعيسى عليهما السلام دون ما بأيدي القوم من الكتب التي يذكر أنه لعبت بها يد التحريف …

والمراد بإقامة هذه الكتب حفظ العمل العام بما فيها من شرائع اللّه تعالى، والاعتقاد بما بين اللّه تعالى فيها من معارف المبدأ والمعاد من غير أن يضرب عليها بحجب التحريف والكتمان والترك الصريح … »

هذا، ويبدو لي أن قلمه (ره) قد ذهب بعيدا في تفسير قول اللّه عز وجل: (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ …)، حيث قال (تفسير الميزان: ٦/٦٥): « الإنسان يجد من نفسه خلال أعماله أنه إذا أراد إعمال قوة وشدة فيما يحتاج إلى ذلك وجب أن يعتمد على مستوى يستوي عليه أو يتصل به كمن أراد أن يجذب أو يدفع أو يحمل أو يقيم شيئا ثقيلا فإنه يثبت قدميه على الأرض أولا ثم يصنع ما شاء لما يعلم أن لولا ذلك لم يتيسر له ما يريد، وقد بحث عنه في العلوم المربوطة به

وإذا أجرينا هذا المعنى في الأمور المعنوية كأفعال الإنسان الروحية أو ما يتعلق من أفعال الجوارح بالأمور النفسية كان ذلك منتجا أن صدور مهام الأفعال وعظائم الأعمال يتوقف على أس معنوي ومبنى قوي نفسي كتوقف جلائل الأمور على الصبر والثبات وعلو الهمة وقوة العزيمة وتوقف النجاح في العبودية على حق التقوى والورع عن محارم اللّه

ومن هنا يظهر أن قوله تعالى (لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ) كناية عن عدم اعتمادهم على شيء يثبت عليه أقدامهم فيقدروا بذلك على إقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم تلويحا إلى أن دين اللّه وحكمه لها من الثقل ما لا يتيسر حمله للإنسان حتى يعتمد على أساس ثابت ولا يمكنه إقامته بمجرد هوى من نفسه كمايشير تعالى إلى ذلك بالنسبة إلى القرآن الكريم بقوله:...

وقال في أمر التوراة خطابا لموسى عليه السلام: (فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها)...، وقال خطابا لبني إسرائيل: (خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ)...، وقال خطابا ليحيى عليه السلام: (يا يَحْيَى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ) ...

فيعود المعنى إلى أنكم فاقدو العماد الذي يجب عليكم أن تعتمدوا عليه في إقامة دين اللّه الذي أنزل إليكم في كتبه وهو التقوى والإنابة إلى اللّه بالرجوع إليه مرة بعد أخرى والاتصال به والإيواء إلى ركنه بل مستكبرون عن طاعته ومتعدون حدوده

ويظهر هذا المعنى من قوله تعالى خطابا لنبيه والمؤمنين: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) فجمع الدين كله فيما ذكره، ثم قال: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) فبين أن ذلك كله يرجع إلى إقامة الدين كلمة واحدة من غير تفرق ثم قال: (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) وذلك لكبر الاتفاق والاستقامة في اتباع الدين عليهم، ثم قال: (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) فأنبأ أن إقامة الدين لا يتيسر إلا بهداية من اللّه، ولا يصلح لها إلا المتصف بالإنابة التي هي الاتصال باللّه وعدم الانقطاع عنه بالرجوع إليه مرة بعد أخرى، ثم قال: (وَما تَفَرَّقُوا إِلا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) فذكر أن السبب في تفرقهم وعدم إقامتهم للدين هو بغيهم وتعديهم عن الوسط العدل المضروب لهم ... »

---

(٣٥٢) في تفسير قول اللّه عز وجل: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ...) قال الرازي: « وفي إقامة التوراة والإنجيل ثلاثة أوجه: أحدها أن يعملوا بما فيها من الوفاء بعهود اللّه فيها ومن الإقرار باشتمالها على الدلائل الدالة على بعثة محمد صلى اللّه عليه وسلم . وثانيها إقامة التوراة إقامة أحكامها وحدودها كما يقال: أقام الصلاة إذا قام بحقوقها، ولا يقال لمن لم يوف بشرائطها: أنه أقامها . وثالثها أقاموها نصب أعينهم لئلا يزلوا في شيء

من حدودها، وهذه الوجوه كلها حسنة لكن الأول أحسن

وأما قوله تعالى: (وَما أُنزِلَ إِلَيْهِمْ) ففيه قولان: الأول أنه القرآن، والثاني أنه كتب سائر الأنبياء مثل كتاب شعياء ومثل كتاب حيقوق وكتاب دانيال، فإن هذه الكتب مملوءة من البشارة بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ... »

هذا، وقال بصدد قول اللّه عز وجل: (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ وَما أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ...): « واعلم أنه تعالى لما أمره بالتبليغ سواء طاب للسامع أو ثقل عليه أمر بأن يقول لأهل الكتاب هذا الكلام وإن كان مما يشق عليهم جدا فقال: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتابِ ـ من اليهود والنصارى ـ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ) من الدين ولا في أيديكم شيء من الحق والصواب، كما تقول: هذا ليس بشيء إذا أردت تحقيره وتصغير شأنه »

---

(٣٥٤) في تفسير الآية ٣ من سورة البقرة قال الرازي: « المسألة السادسة: ذكروا في تفسير إقامة الصلاة وجوها: أحدها أن إقامتها عبارة عن تعديل أركانها وحفظها من أن يقع خلل في فرائضها وسننها وآدابها، من أقام العود إذا قومه

وثانيها أنها عبارة عن المداومة عليها كما قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحافِظُون) و...، من قامت السوق إذا نفقت، وإقامتها نفاقها، لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات، وإذا أضيعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يرغب فيه

وثالثها أنها عبارة عن التجرد لأدائها وأن لا يكون في مؤديها فتور من قولهم: قام بالأمر، وقامت الحرب على ساقها، وفي ضده: قعد عن الأمر، وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط

ورابعها إقامتها عبارة عن أدائها، وإنما عبر عن الأداء بالإقامة لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنها بالقنوت وبالركوع وبالسجود، وقالوا: سبح إذا صلى، لوجود التسبيح فيها، قال تعالى: (فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)

واعلم أن الأولى حمل الكلام على ما يحصل معه من الثناء العظيم، وذلك لا يحصل إلا إذا حملنا الإقامة على إدامة فعلها من غير خلل في أركانها وشرائطها، ولذلك فإن القيم بأرزاق الجند إنما يوصف بكونه قيما إذا أعطى الحقوق من دون بخس ونقص، ولهذا يوصف اللّه تعالى بأنه قائم وقيوم، لأنه يجب دوام وجوده، ولأنه يديم إدرار الرزق على عباده »

وفي تفسير الميزان (١١/٤٧): « والإقامة جعل الشيء قائما أي جعله بحال يترتب عليه جميع آثاره بحيث لا يفقد شيئا منها كإقامة العدل وإقامة السنة وإقامة الصلاة وإقامة الشهادة، وإقامة الحدود، وإقامة الدين ونحو ذلك »

وفي تفسير الأمثل (١/١٨٦) قال في تفسير (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ): « ... ومن الملفت للنظر أنّ الآية لم تقل (أدّوا الصلاة)، بل قالت: (أَقِيمُوا الصَّلاةَ)، وهذا الحث يحمّل الفرد مسئولية خلق المجتمع المصلي، ومسئولية جذب الآخرين نحو الصلاة

بعض المفسرين (ذكر في الهامش كتاب المنار والمفردات) قال: إن تعبير (أقيموا) إشارة إلى إقامة الصلاة كاملة، وعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد، وأهم أركان كمال الصلاة حضور القلب والفكر لدى اللّه سبحانه، وتأثير الصلاة على المحتوى الداخلي للإنسان »

---

(٣٥٥) قال اللّه تعالى (النساء: ١٠١-١٠٣): (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا . وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ... فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا)

وقال (الحج: ٤٠-٤١): (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

---

(٣٥٦) الاقتصار على (الاعتقاد) لإمكان التعبد عمليا بالأحكام الظاهرية المخالفة للأحكام الحقيقية إن لم تكن معلومة ...

---

(٣٥٧) قال اللّه عز وجل (النساء: ١١٣): (وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

---

(٣٥٨) قال اللّه تعالى (الأنعام: ١١٥): ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾

---

(٣٥٩) قال اللّه عز وجل (آل عمران: ٨١): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾

---

(٣٦٠) يظن الكاتب أن اللّه يعلّم النبي الحكمة المطلقة، أي الروابط الحقيقية للأمور وكيفية تحقيقها... فلا يختلف الأنبياء في العلم بالحكمة، وإن اختلفوا في مقداره، وما يختلفون فيه هو العمل وفقها، وبالأحرى لكل نبي علمان: علم بالحكمة المطلقة، وعلم بالحكمة التي يدعو بها

---

(٣٦١) قال اللّه تبارك وتعالى (البقرة: ١٣٥): ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

---

(٣٦٢) بشأن البيت الذي بناه (سليمان) للرب جاء في (العهد القديم، سفر الملوك١، الإصحاح٦): « وهيأ محرابا...، ولأجل المحراب عشرون ذراعا طولا وعشرون ذراعا عرضا وعشرون ذراعا سمكا . وغشاه بذهب خالص...، وغشى سليمان البيت من داخل بذهب خالص . وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب . وغشاه بذهب . وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت وكل الذي للمحراب غشاه بذهب... »

وبعد أن تكلم في الإصحاح٧ عن بيت سليمان وزوجته ابنة فرعون، قال: « وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب المذبح من ذهب والمائدة التي عليها الخبز من ذهب . والمنائر خمسا من اليمين وخمسا من اليسار أمام المحراب من ذهب خالص والأزهار والسرج والملاقط من ذهب . والطسوس والمقاص والمنضح والصحون والمجامر من ذهب خالص . والوُصَل لمصارع البيت الداخلي أي لقدس الأقداس ولأبواب البيت أي الهيكل من ذهب » ...

ويُنظر أيضا (سفر أخبار الأيام الأول، الإصحاح٤)

هذا، وفي (قاموس الكتاب المقدس): « أن السنوات الأخيرة من حكم سليمان كانت مؤسفة، فقد بدأ بتعدد الزوجات، وأحب نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، فكان له سبع مئة من الزوجات وثلاث مئة من السراري (...)، فأملن قلبه إلى الآلهة الغريبة حتى بنى أماكن لعبادة الأوثان إرضاء لهن، فغضب الرب عليه ...

وهكذا نرى أن العظمة والغنى والنجاح قد قادت سليمان إلى نهاية بعيدة عن اللّه ... »

وجاء أيضـا في (العهد القديم، سفر الأيام الثاني، الإصحاح٩، الآيات: ١٣ـ ٢٤): « وكان وزن الذهب الذي جاء لسليمان في سنة واحدة ست مئة وستا وستين وزنة ذهب. (في قاموس الكتاب المقدس أن الوزنة كانت تعادل ثلاثة آلاف شاقل، والشاقل تساوي أكثر من ١١ غرام)

فضلا عن الذي جاء به التجار والمستبضعون . وكل ملوك العرب وولاة الأرض كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان .

وعمل الملك سليمان مئتي ترس من ذهب مطرّق.خصّ الترس الواحد ست مئة شاقل من الذهب المطرّق .

وثلاث مئة مجنّ من ذهب مطرّق.خصّ المجن الواحد ثلاث مئة شاقل من الذهب. وجعلها الملك في بيت وعر لبنان .

وعمل الملك كرسيا عظيما من عاج وغشّاه بذهب خالص .

وللكرسي ست درجات . وللكرسي موطئ من ذهب كلها متصلة ويدان من هنا ومن هناك على مكان الجلوس وأسدان واقفان بجانب اليدين .

واثنا عشر أسدا واقفة هناك على الدرجات الست من هنا ومن هناك.لم يعمل مثله في جميع الممالك

وجميع آنية شرب الملك سليمان من ذهب وجميع آنية بيت وعر لبنان من ذهب خالص. لم تحسب الفضة شيئا في أيام سليمان .

....

فتعظم الملك سليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والحكمة .

وكان جميع ملوك الأرض يلتمسون وجه سليمان ليسمعوا حكمته التي جعلها اللّه في قلبه

وكانوا يأتون كل واحد بهديته بآنية فضة وآنية ذهب وحلل وسلاح وأطياب وخيل وبغال سنة فسنة »

---

(٣٦٣) قال اللّه تعالى (النمل: ٤٤): (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ...)

هذا، وفي (العهد القديم، سفر الأيام الثاني، الإصحاح٩، الآيات: ١ـ ٩): « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان فأتت لتمتحن سليمان بمسائل إلى أورشليم بموكب عظيم جدا وجمال حاملة أطيابا وذهبا بكثرة وحجارة كريمة فأتت إلى سليمان وكلمته عن كل ما في قلبها .

فأخبرها سليمان بكل كلامها . ولم يخف عن سليمان أمر إلا وأخبرها به .

فلما رأت ملكة سبأ حكمة سليمان والبيت الذي بناه

وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته وملابسهم ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب لم تبق فيها روح بعد (!) .

فقالت للملك صحيح الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك .

ولم أصدق كلامهم حتى جئت وأبصرت عيناي فهو ذا لم أخبر بنصف كثرة حكمتك. زدت على الخبر الذي سمعته .

فطوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما والسامعين حكمتك .

ليكن مباركا الرب إلهك الذي سرّ بك وجعلك على كرسيه ملكا للرب إلهك. لأن إلهك أحب إسرائيل ليثبته إلى الأبد قد جعلك عليهم ملكا لتجري حكما وعدلا.

وأهدت للملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة. ولم يكن مثل ذلك الطيب الذي أهدته ملكة سبأ للملك سليمان »

---

(٣٦٤) بعد أن أورد الدكتور محمد عابد الجابري في ص٢٧٤ من كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم، ج١...) الآيات (٣٠ـ ٤٠) من سورة (ص) قال: « واضح أن مغزى قصة كل من داود وسليمان في هذه السورة (أي سورة ص) مغزى واحد، وسياقهما سياق واحد: إن داود

وسليمان رفضا الإغراءات، وعلى النبي محمد صلى اللّه عليه وسلم أن يرفض مساومات قريش وإغراءاتها ... »

---

(٣٦٥) قال الدكتور محمد عابد الجابري في ص٤٢١ من كتابه المذكور: « وكما شرحنا ذلك في حينه فإن مغزى قصة كل من داود وسليمان مغزى واحد ... هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكما سلط اللّه الهلاك على الذين كذبوا رسلهم ولم يُعجزه أن يُظهر أقوى الملوك، مثل فرعون، بمظهرهم الحقيقي كبشر ضعفاء أمام الموت، فذلك الشأن بالنسبة إلى شخص منحه النبوة والملك وسخر له الحيوان والجن كالملك سليمان: فقد جاءه الأجل وتوفاه اللّه وحيدا في قصره متكئا على عصاه ... »

---

(٣٦٦) في نهج البلاغة (الخطبة ١٨٢): « ولو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما أو إلى دفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام الذي سخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة، فلما استوفى طعمته واستكمل مدته رمته قسي الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون، وإن لكم في القرون السالفة لعبرة »

وقال الشاعر العارف الفارسي (خواجوى كرماني):

پيش صاحب نظران ملك سليمان باد است   بلكه آنست سليمان كه ز ملك آزاد است

عند العقلاء ملك سليمان ريح (هواء)، بل إن من كان حرا من الملك فهو سليمان

---

(٣٦٧) كنت قد كتبت في وقت سابق: أني لا أكاد أفهم بالضبط كل ما جاء في الآيات المذكورة، فمثلا هل صحيح ما يقال في معنى الآيات: إن الخيل كانت قد ألهت (سليمان) عن الصلاة إلى أن توارت الشمس بالحجاب، أي غربت، فغضب...؟ أم أن معناها أنه أحب حبه الغريزي للخيل نتيجة ذكره لربه الذي كان قد أمره بالجهاد عليها في سبيله، فلما سابقت إلى أن توارت عن نظره أمر بأن تُرد عليه فأخذ يمسح بسوقها وأعناقها حبا لهن؟ ...

فاطلعت على كلام للرازي في تفسير قول اللّه عز وجل: (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ

ذِكْرِ رَبِّي) أذكر في ما يلي فقرات منه:

قال: « والثالث ـ أي ثالث الوجوه في معنى الآية ـ: أن الإنسان قد يحب شيئا لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذي يشتهي ما يزيد في مرضه، والأب الذي يحب ولده الرديء، وأما من أحب شيئا وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله: (أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ) بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل

ثم قال: (عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر اللّه وأمره لا عن الشهوة والهوى، وهذا الوجه أظهر الوجوه »

وبعد أن تحدث عن مرجع الضميرين في كل من لفظة (تَوارَتْ) و(رُدُّوهَا)، واختار رجوعهما إلى الصافنات الجياد ... قال: « ثم قال تعالى: (فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْناقِ)، أي فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها، قال الأكثرون: معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أي قطعها، قالوا: إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقربا إلى اللّه تعالى، وعندي أن هذا أيضا بعيد، ويدل عليه وجوه ... »

فقال: « فثبت أن كتاب اللّه تعالى ينادي على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال، بل التفسير المطابق للحق لألفاظ القرآن والصواب أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين محمد صلي اللّه عليه وسلّم، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر اللّه وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله: (عَنْ ذِكْرِ رَبِّي)، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها

والغرض من ذلك المسح أمور، الأول: تشريفا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو . الثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه . الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض

فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات، وأقول: أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه

الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها، وليس لهم في إثباتها شبهة فضلا عن حجة

فإن قيل فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه، فما قولك فيه؟ فنقول لنا هاهنا مقامان:

المقام الأول: أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها، وقد ظهر والحمد للّه أن الأمر كما ذكرناه، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه

المقام الثاني أن يقال: هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس، فما قولك فيه؟ وجوابنا أن الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم، واللّه أعلم »

هذا، وقال ابن عربي في كتابه (الفتوحات: ٢/٢٠٣): « ...، كذلك قول سليمان عليه السلام: (أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) لأنه سماه خيرا والخير منسوب إلى اللّه فقال: عن ذكر ربي إياه بالخيرية أحببته، فطفق يمسح بيده على أعرافها وسوقها فرحا وإعجابا بخير ربه، فإنه أحب حب الخير، وحب الخير إما أن يريد حب اللّه إياه أو حب الخير من حيث وصف الخير بالحب، والخير لا يحب إلا الأخيار فإنهم محل وجود عينه فكذلك سليمان عليه السلام قال: (أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ) أي أنا في حبي كالخير في حبه، ولهذا لما (تَوارَتْ بِالْحِجابِ) ـ أعني الصافنات الجياد ـ اشتاق إليها لأنه فقد المحل الذي أوجب له هذه الصفة الملذوذة فإنها كانت مجلى له فقال رُدُّوها عَلَيَّ »

---

(٣٦٨) جاء في (العهد القديم، سفر الملوك١، الإصحاح٣): « وقال اللّه ـ لسليمان ـ : اسأل: ماذا أعطيك؟ فقال سليمان ...، والآن ... أنت ملّكت عبدك مكان داود أبي وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول . وعبدك وسط شعبك الذي اخترته شعب كثير لا يحصى ولا يعد من الكثرة، فأعط عبدك قلبا فهيما لأحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا »

---

(٣٦٩) في (قاموس الكتاب المقدس): « وكان الهيكل أعظم أعمال سليمان بلا جدال »

(٣٧٠) في إنجيل متى (الإصحاح٢٣، الآية١٦- ١٧) أن يسوع قال: « ويل لكم - أي الكتبة والفريسيين - أيها القادة العميان القائلون: من حلف بالهيكل فلا شيء عليه، ومن حلف بذهب الهيكل يلتزم . أيها الجهال والعميان أيما أعظم الذهب أم الهيكل الذي يقدس الذهب ... »

---

(٣٧١) قال اللّه تعالى (الأعلى: ١٧- ١٩): (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)

---

(٣٧٢) هذه هي الطريقة التي ينهجها جميع الناس في تعاملهم فيما بينهم، فهم كما لا ينظرون إلى قول بمعزل عن قائله...، لا يحكمون على فعل إلا من خلال فاعله، فينكرون عملا (سيئا) إن صدر عمن كان في نظرهم سيئا، ولا ينكرونه إن صدر عمن يعرفونه بالصلاح، حسب مقياسهم للصلاح والفساد ...

ومن هذا الباب ذهب الصوفية - أو بعضهم - إلى سقوط التكاليف الشرعية العامة عن الأولياء، فإنه وإن كان رأيا باطلا ورؤية غالية ونهجا ضالا، ولكن له أساسا في النفس، فلا بد إذَن أن يكون هناك نجْد يهتدي فيه

---

(٣٧٣) قال اللّه تعالى (النمل: ٤٠): (فَلَمَّا رَآهُ - أي عرش ملكة سبأ - مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)

---

(٣٧٤) جاء في (العهد القديم، سفر الملوك١، الإصحاح٣): « وقال اللّه - لسليمان - : اسأل: ماذا أعطيك؟ فقال سليمان: ...، والآن... أنت ملّكت عبدك مكان داود أبي وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول . وعبدك وسط شعبك ...، فأعط عبدك قلبا فهيما لأحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر ...

فحسن الكلام في عيني الرب... فقال له اللّه: من أجل أنك قد سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك أياما كثيرة ولا سألت لنفسك غنى ولا سألت أنفس أعدائك بل سألت لنفسك تميزا لتفهم الحكم، هو ذا قد فعلت حسب كلامك . هو ذا أعطيك قلبا حكيما ومميزا حتى

أنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك، وقد أعطيتك أيضا ما لم تسأله غنى وكرامة حتى أنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك ... »

---

(٣٧٥) الكافي ج٣ ص٢٩٥، وسيأتي الكلام عنه في القسم اللاحق

---

(٣٧٦) في إنجيل لوقا (الإصحاح١٢، الآية٢٧): « تأملوا الزنابق كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في مجده كان يلبس كواحدة منها »

---

(٣٧٧) لا يخفى أن الآيات لا تأبى أن تكون وصفا للّه تعالى وأفعاله كما في سورة الشعراء (١٣١- ١٣٤) أن هودا قال لقومه: (... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ...

---

(٣٧٨) في تفسير (مجمع البيان): « ومعنى (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ): أي عملوا بما فيهما على ما فيهما دون أن يحرفوا شيئا منهما أو يغيروا أو يبدلوا كما كانوا يفعلونه . ويحتمل أن يكون معناه: عملوا بما فيهما بأن أقاموهما نصب أعينهم لئلا يزلوا في شيء من حدودهما »

وقد نقلنا سابقا قولا شبيها بهذا لكل من السيد الطباطبائي والرازي، وأظن أن هذا مما لا يجدون منه مناصا، فأظنه متفقا عليه، كما قال الشريف الرضي في (تلخيص البيان): « وقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ ...) فهذه استعارة . لأن التوراة لا يصح عليها القيام، وإنما المراد لو أنهم اتبعوا حكمها... »

---

(٣٧٩) قال الشيخ الطوسي في كتابه (التبيان): « وقوله: (وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَبِّهِمْ) يحتمل أمرين: أحدهما: قال ابن عباس و... : المراد به الفرقان . الثاني: قال قوم: كل ما دل اللّه عليه من أمور الدين »

ويُنظر تفسير الميزان (٣٧/٦)، وقد نقلناه سابقا

وقال الرازي: « وأما قوله تعالى: (وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم) ففيه قولان: الأول أنه القرآن، والثاني أنه

كتب سائر الأنبياء مثل كتاب شعياء، ومثل كتاب حيقوق، وكتاب دانيال، فإن هذه الكتب مملوءة من البشارة بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام »

وفـي تفسـير الكشـاف قال الزمخشري: « ... (وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ) من سائر كتب اللّه، لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها، فكأنها أنزلت إليهم، وقيل: هو القرآن »

وفـي التفسـير الأمثـل: « والمراد بجملة ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ هو كل الكتب السماوية والأحكام الإلهية، لأنّ هذه الجملة يفهم منها الإطلاق، وهي في الحقيقة إشارة إلى النهي عن خلط العصبيات القومية بالوسائل الدينية الإلهية، فليس المهم كون هذا الكتاب عربيا أو ذلك الكتاب يهوديا، بل المهم هو الأحكام الإلهية الواردة فيهما وفي كل الكتب السماوية ... »

وفـي تفسـير (مـن وحي القرآن): « ...، وعلى ضوء هذا، جاءت الآية الّتي توحي إليهم بأنّ كل هذه المشاكل التي يتخبطون فيها، وما يلحق بهم من هزائم وفقر وقلق وارتباك وفساد، كانت ناشئة من عدم ارتباطهم العملي بالتوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم من ربّهم من الكتب الأخرى، فلو أقاموها فيما بينهم لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ لأنّهما سبيلان للخير والأمن »

وفـي تفسـير الفرقـان قال الشيخ محمد الصادقي: « ثم (ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ) قد تعني إلى كل كتابات السماء ـ بين الكتابين حيث توضّح الدخيل فيهما عن الأصيل، وتبين منهما كل إدغال وتدجيل ـ تعني القرآن فإن الإيمان به وإقامه هما من القضايا الرئيسية لإقامهما، وليست (إليهم) لتختص النازل إليهم بالكتابات الإسرائيلية، حيث الواجهة القرآنية لأهل الكتاب هي قبل غيرهم، فهم الركيزة الأولى من وحي القرآن لمعرفتهم بطبيعة الوحي أكثر من سواهم

فكما أن من قضية إقام التوراة هي تصديق الإنجيل فإقامه، كذلك إقام القرآن هو رأس القضايا لإقامهما، إذ لا يختص إقام كتاب الوحي بمواصلة التطبيق لأحكامه ـ فقط ـ بل ومن إقامه النقلة إلى كتاب آخر يؤمر بها في الكتاب

إذا فالانتقال من هذين الكتابين إلى القرآن إقام لهما وللقرآن، وفي الترسب فيهما دون نقلة إلى القرآن ترك لإقامهما

فاليهودي والمسيحي الحقيقي هما اللذان يقيمان الكتابين بالإيمان بالقرآن لمكان البشارات المتظافرة فيهما بحق القرآن ونبيه »

(٣٨٠) يُنظر ما قيل في المقصود من الكلمة المذكورة، وقد نقلنا قبل قليل أمثلة مما قالوه فيها

هذا، والظاهر كذلك أن الولاية هي المقصودة من قول اللّه عز وجل (الأعراف: ٣): (اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ)، وأن ضمير (مِنْ دُونِهِ) يرجع إليه لا إلى القرآن، فلا حاجة إلى تكلف علاج كما في تفسير الميزان حيث قال: « ...، وخاطبهم بالأمر باتباع ما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن الآمر لهم بحق الاعتقاد وحق العمل أعني الإيمان باللّه وآياته والعمل الصالح الذين يأمر بهما اللّه سبحانه في كتابه وينهى عن خلافهما، والجملة أعني قوله: (اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) موضوعة وضع الكناية كنى بها عن الدخول تحت ولاية اللّه سبحانه، والدليل عليه قوله: (وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ) حيث لم يقل في مقام المقابلة: ولا تتبعوا غير ما أنزل إليكم

والمعنى: ولا تتبعوا غيره تعالى ـ وهم كثيرون ـ فيكونوا لكم أولياء من دون اللّه قليلا ما تذكرون، ولو تذكرتم لدريتم أن اللّه تعالى هو ربكم لا رب لكم سواه فليس لكم من دونه أولياء »

---

(٣٨١) في كتاب (بصائر الدرجات ص٥١٦) عن أبي جعفر عليه السلام ـ في قول اللّه: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ) ـ قال: « هي الولاية »

---

(٣٨٢) في التفسير الأمثل: « ومجمل القول هو أن الآية الأخيرة تؤكّد مرّة أخرى هذا المبدأ الأساسي القائل بأن اتباع التعاليم السماوية التي جاء بها الأنبياء، ليس لإعمار الحياة الآخرة التي تأتي بعد الموت فحسب، بل أنّ لها ـ أيضا ـ انعكاسات واسعة على الحياة الدنيوية المادية للإنسان، فهي تقوي الجماعات وتعزز صفوفها وتكثف طاقاتها، وتغدق عليها النعيم وتضاعف إمكانياتها وتضمن لها الحياة السعيدة المقترنة بالأمن والاستقرار

ولو ألقينا نظرة على الثروات الطائلة والطاقات البشرية الهائلة التي تهدر اليوم في عالم الإنسان نتيجة للانحراف عن هذه التعاليم، وفي صنع وتكديس أسلحة فتّاكة، وفي صراعات لا مبرر لها ومساع هدامة لرأينا أن ذلك كله دليل حيّ على هذه الحقيقة، حيث أنّ الثروات التي تستخدم لإشاعة الدمار في هذا العالم ـ إذا أمعنا النظر جيدا ـ إن لم تكن أكثر حجما من الثروات التي تنفق في سبيل البناء، فهي ليست بأقلّ منها

إنّ العقول المفكرة التي تسعى وتعمل جاهدة ـ اليوم ـ لإكمال وتوسيع انتاج الأسلحة الحربية، ولتوسيع بقعة النزاعات الاستعمارية، إنما تشكل جزءا مهما من الطاقات البشرية الخلاقة التي طالما احتاجها المجتمع البشري لرفع احتياجاته، وكم سيصبح وجه الدنيا جميلا وجذابا لو كانت كل هذه الطاقات تستغل في سبيل الإعمار؟ »

وفي تفسير (من وحي القرآن): « لقد جاءت الرسالات الإلهيّة من أجل إقامة العدل على الأرض بين النّاس وإشاعة الرخاء والأمن والطمأنينة في الحياة من خلال ذلك، لأنّ العدل كلما امتد في الأرض، كلما تساقطت الامتيازات المصطنعة والأنانيات المعقدة، وتحولت الأوضاع من حالة تخلّف وضياع إلى حالة تقدم وانطلاق وامتداد في رحاب اللّه. وهكذا كانت رسالة التوراة والإنجيل في مفاهيمهما العامّة الّتي لا تختلف مع حركة الرسالة الأخيرة، وهي الإسلام، وإن كانت تختلف معه في بعض التفاصيل، فهي سبيل رخاء في ما تستهدفه من بناء الشخصيّة الإنسانيّة على أساس متين، فلا مجال لأي انحراف أو اهتزاز وارتباك يحاول إفساد العلاقات، وبالتالي، إفساد الحياة العامة والخاصة للنّاس... »

وقال الزمخشري في (الكشاف): « وقوله: (لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) عبارة عن التوسعة . وفيه ثلاثة أوجه: أن يفيض عليهم بركات السماء وبركات الأرض وأن يكثر الأشجار المثمرة والزروع المغلة وأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم »

وقال الشيخ الصادقي في كتابه (الفرقان): « والأكل هنا يعني كل الحاجات المعيشية فهو سعة الرزق ورفاهة العيش كما يقال: فلان مغمور في النعمة من قرنه إلى قدمه »

وقال الشريف الرضي في كتابه (تلخيص البيان): « وقوله تعالى: (لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) استعارة أخرى على أحد التأويلين وهو أن يكون المراد بهذا القول العبارة عن سعة الرزق ورفاهة العيش . كما يقول القائل: فلان مغمور في النعيم والنعمة من قرنه إلى قدمه

والتأويل الآخر: لأكلوا من فوقهم، أي من ثمار الشجر التي تفوت بسطة اليد، ومن تحت أرجلهم، أي من نبات الأرض الذي يباشر موطىء القدم . وقيل: المراد بذلك ما يكون عن مساقط الغيث من إخصاب منابت الأرض »

وقال الشيخ مغنية في كتابه (الكاشف): « ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم كناية عن السعة في الرزق، تماما كما تقول: فلان غارق في النعم من قرنه إلى قدمه . وفي معنى هذه الآية

آيات كثيرة »

(٣٨٣) قال الله عز وجل (البقرة: ٢١٢): ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وقال تعالى (المؤمنون:٥٥ـ ٥٦): ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾

وقال عز من قائل (مريم: ٧٣ـ ٧٦): ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا . قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا . وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ إلخ

في تفسير الميزان: « وقوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾...، والمعنى: وإذا تتلى على الناس ـ وهم الفريقان الكفار والمؤمنون ـ آياتنا وهي ظاهرات في حجتها واضحات في دلالتها لا تدع ريبا لمرتاب، قال فريق منهم وهم الذين كفروا للفريق الآخر وهم الذين آمنوا: أي هذين الفريقين خير من جهة المسكن وأحسن من حيث المجلس ـ ولامحالة هم الكفار ـ يريدون أن لازم ذلك أن يكونوا هم سعداء في طريقتهم وملتهم إذ لا سعادة وراء التمتع بأمتعة الحياة الدنيا فالحق ما هم عليه

....

ولما احتج الكفار على المؤمنين في حقية ملتهم وبطلان الدعوة النبوية التي آمن به المؤمنون بأنهم خير مقاما وأحسن نديا في الدنيا وقد فاتهم أن للإنسان حياة خالدة أبدية لا منتهى لها وإنما سعادته في سعادتها والأيام القلائل التي يعيش فيها في الدنيا لا قدر لها قبال ما لا نهاية له ولا أنها تغني عنه شيئا

على أن هذه التمتعات الدنيوية لا تحتم له السعادة ولا تقيه من غضب الله إن حل به يوما وما هو من الظالمين ببعيد فليسوا في أمن من سخط الله ولا طيب في عيش يهدده الهلاك ولا في نعمة كانت في معرض النقمة والخيبة ...

قوله تعالى: (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا) إلى آخر الآية، لفظة كان في قوله: (مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَة) تدل على استمرارهم في الضلالة لا مجرد تحقق ضلالة ما، وبذلك يتم التهديد بمجازاتهم بالإمداد والاستدراج الذي هو إضلال بعد الضلال »

---

(٣٨٤) (القرية) اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس ...، وأطلقها القرآن الكريم على بلاد كبيرة كما ـ مثلا ـ في قول الله تعالى (يوسف: ٨٢): (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا)، وقوله: (يس: ١٣): (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ) ...

ويبدو لي أن المقصود بـ(القريتين) في قول الله تعالى (الزخرف: ٣١): (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) حاضرتا فارس والروم حينذاك ...

---

(٣٨٥) في الكافي (١٧٤/٧) عن أبي إبراهيم عليه السلام ـ في قول الله عز وجل: (يُحْيِي اللَّهُ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) ـ أنه قال: « ليس يحييها بالقَطْر، ولكن يبعث الله رجالا فيحيون العدل فتحيا الأرض لإحياء العدل، ولإقامة الحد أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحا »

وفي الكافي (٥٤١/١) عن أبي الحسن عليه السلام أنه قال: « ... لو عدل في الناس لاستغنوا... »

---

(٣٨٦) روى ابن بابويه في (الفقيه) عن الصادق عليه السلام أنه قال: « إن فيما نزل به الوحي من السماء: لو أن لابن آدم واديين يسيلان ذهبا وفضة لابتغى إليهما ثالثا »

وروى مسلم (الحديث: ١٠٤٨) بسنده عن رسول الله (ص) أنه قال: « لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ... »

وروى (الحديث: ١٠٥٠) عن أبي موسى الأشعري أنه كان من القرآن ...

---

(٣٨٧) قد يدل عليه قول الله عز وجل (إبراهيم: ٧): (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) ...

وعلى أي حال فقد روى الصدوق في (الخصال ص٤٩٠) أن رسول الله صلى الله عليه

وآله اشترى قميصا بأربعة دراهم فكساه فقيرا، وقميصا بأربعة دراهم فلبسه، وأعطى أربعة دراهم لجارية...، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: « الحمد لله ما رأيت اثني عشر درهما أعظم بركة من هذه: كسى اللّه بها عاريين وأعتق نسمة »

---

(٣٨٨) يأتي توضيح لهذا في القسم التالي، فصل (البداء)

---

(٣٨٩) هذا ما يفعله الأشاعرة أيضا، وإنكارهم لقانون العلية وأحكام العقل عامة لا يتعدى النظر والجدل ...

---

(٣٩٠) قال السيد الطباطبائي: « وأما قوله تعالى: (لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) فالمراد بالأكل التنعم مطلقا سواء كان بالأكل كما في مورد الأغذية، أو بغيره كما في غيره، واستعمال الأكل في مطلق التصرف والتنعم من غير مزاحم شائع في اللغة ... »

---

(٣٩١) قال اللّه تعالى في صفة المتقين (الذاريات: ١٩): (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

---

(٣٩٢) قال اللّه عز وجل (النساء: ٧٥): (وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا)

ولا يخفى ما يشير إليه السؤال الاستنكاري من أن القتال في سبيل اللّه والمستضعفين ليس تكليفا محضا بل هو حض على ما هو مودع في فطرة الإنسان من الاندفاع إلى نصرة المظلوم وإعانة المحتاج، وتذكير به، وهداية له ...

وكاد أن يكون قريبا من هذا الذي أشرنا إليه ما أفاده السيد عبد الأعلى السبزواري في كتابه (مواهب الرحمان) حيث قال: « وقد ذكر في هذه الآية المباركة فائدة أخرى شريفة تصبو إليها النفوس العالية، وهي نصرة المستضعفين والمظلومين

ومعنى الآية الكريمة أن لا عذر لكم في ترك القتال في سبيل اللّه تعالى »

وأجاد أيضا في قوله: « ويستفاد من هذه الآية الشريفة انحصار القتال في سبيل اللّه، وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، وإذا عطف عليه شيء آخر في بعض الآيات ـ ومنها المقام، أي: نصرة المستضعفين والمظلومين ـ فإنّما هو لأجل أنّ ذلك من مصاديق سبيل اللّه تعالى، ومن طرق إقامته فإنّ سبيل اللّه لايمكن أن ينال حتّى يستنقذ المستضعفون من الظلم

قوله تعالى: (وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساء وَالْوِلْدانِ) طريق آخر في إقامة كلمة الحقّ وتثبيت لسبيل اللّه تعالى، وهو يعمّ كلّ خير، ومنه إنقاذ المظلومين، كما أنه لا يؤمّن سبيل اللّه إلا باستنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من ظلم العتاة والجبابرة ... »

ويقارن بما قاله آخرون في هذا الصدد، فمثلا قال في تفسير الميزان: « والآية تشتمل على حث وتحريض آخر على القتال في لفظ الاستفهام بتذكير أن قتالكم قتال في سبيل اللّه سبحانه، وهو الذي لا بغية لكم في حياتكم السعيدة إلا رضوانه، ولا سعادة أسعد من قربه، وفي سبيل المستضعفين من رجالكم ونسائكم وولدانكم

ففي الآية استنهاض وتهييج لكافة المؤمنين وإغراء لهم: أما المؤمنون خالصو الإيمان وطاهرو القلوب فيكفيهم ذكر اللّه جل ذكره في أن يقوموا على الحق ويلبوا نداء ربهم ويجيبوا داعيه، وأما من دونهم من المؤمنين فإن لم يكفهم ذلك فليكفهم أن قتالهم هذا على أنه قتال في سبيل اللّه قتال في سبيل من استضعفه الكفار من رجالهم ونسائهم وذراريهم فليغيروا لهم وليتعصبوا

والإسلام وإن أبطل كل نسب وسبب دون الإيمان إلا أنه أمضى بعد التلبس بالإيمان الأنساب والأسباب القومية فعلى المسلم أن يفدي عن أخيه المسلم المتصل به بالسبب الذي هو الإيمان، وعن أقربائه من رجاله ونسائه وذراريه إذا كانوا على الإسلام، فإن ذلك يعود بالآخرة إلى سبيل اللّه دون غيره ... »

وقال الرازي: « قوله: (وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ) يدل على أن الجهاد واجب، ومعناه: أنه لا عذر لكم في ترك المقاتلة وقد بلغ حال المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من المسلمين إلى ما بلغ في الضعف، فهذا حث شديد على القتال، وبيان العلة التي لها صار القتال واجبا، وهو ما في القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدي الكفرة، لأن هذا الجمع (كذا) إلى الجهاد يجري مجرى فكاك الأسير ... »

(٣٩٣) في النهج (الكتاب: ٤٥) أن أمير المؤمنين عليه السلام كتب ـ فيما كتب ـ إلى عثمان ابن حنيف: « ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه ... »

وفي الكافي (١٣٤/٢) عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: قال أبو ذر رحمه اللّه: جزى اللّه الدنيا عني مذمة بعد رغيفين من الشعير أتغدى بأحدهما وأتعشى بالآخر، وبعد شملتي الصوف أتزر بإحداهما وأتردى بالأخرى

---

(٣٩٤) في الكافي (١٣٢/٢) عن علي بن الحسين (ع) أنه قال: « ...، ألا إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطا والتراب فراشا والماء طيبا وقرضوا من الدنيا تقريضا »

---

(٣٩٥) في نهج البلاغة (الحكمة ١٤٧) أن أمير المؤمنين (ع) ـ بعدما وصف الناس لـ(كميل) ـ قال: « اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهرا مشهورا أوخائفا مغمورا لئلا تبطل حجج اللّه وبيناته، وكم ذا؟ وأين أولئك؟ أولئك واللّه الأقلون عددا والأعظمون عند اللّه قدرا، يحفظ اللّه بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء اللّه في أرضه والدعاة إلى دينه . آه آه شوقا إلى رؤيتهم »

---

(٣٩٦) تقدمت إشارة إلى معنى (الاقتصاد) ...

---

(٣٩٧) قال اللّه تعالى (الأعراف: ٣١ـ ٣٢): (يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

في تفسير العياشي ـ نقله عنه في كتاب (وسائل الشيعة: ٣٦٦٨) ـ عن أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: أترى اللّه أعطى من أعطى من كرامته عليه، ومنع من منع من

هوان به عليه، كلا، ولكن المال مال اللّه يضعه عند الرجل ودائع وجوز لهم أن يأكلوا قصدا ويشربوا قصدا، ويلبسوا قصدا، وينكحوا قصدا، ويركبوا قصدا، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلموا به شعثهم، فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالا، ويشرب حلالا، ويركب حلالا، وينكح حلالا، ومن عدا ذلك كان عليه حراما، ثم قال: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) أترى اللّه ائتمن رجلا على مال يقول له: أن يشتري فرسا بعشرة آلاف درهم، وتجزيه فرس بعشرين درهما، ويشتري جارية بألف وتجزيه جارية بعشرين دينارا؟! ثم قال: (ولا تسرفوا إن اللّه لا يحب المسرفين)

والعياشي هو أبو النضر: محمد بن مسعود، توفي رحمه اللّه نحو ٣٢٠ كما في الأعلام للزركلي

ويُنظر ترجمته في معجم رجال الحديث للسيد الخوئي (ره)

---

(٣٩٨) في الكافي (١٧٣/٢) بسنده عن سعيد بن الحسن أنه قال: قال أبو جعفر عليه السلام: أيجيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟ فقلت: ما أعرف ذلك فينا، فقال أبو جعفر عليه السلام: فلا شيء إذن! قلت: فالهلاك إذن؟! فقال: إن القوم لم يعطوا أحلامهم بعد

---

(٣٩٩) قال الشيخ المفيد في كتابه (الإرشاد) ـ نقله البحار (٣٣٩/٥٢) ـ : « إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع في أيامه الجور وأمنت به السبل وأخرجت الأرض بركاتها، ورد كل حق إلى أهله، ولم يبق أهل دين حتى يظهروا الإسلام ويعترفوا بالإيمان، ...، وحكم بين الناس بحكم داود وحكم محمد صلى اللّه عليه وآله، فحينئذ تظهر الأرض كنوزها وتبدي بركاتها ولا يجد رجل منكم يومئذ موضعا لصدقته ولا لبره لشمول الغنى جميع المؤمنين ... »

هذا، ولا يخفى أن المقصود بـ(الغنى) غنى النفس كما ـ مثلا ـ في كتاب (تحف العقول ص٥٧) عن النبي صلى اللّه عليه وآله أنه قال: « ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس » ...

---

(٤٠٠) في نهج البلاغة (الخطبة ١٦٧): ومن خطبة له عليه السلام في أوائل خلافته: « ...

اتقوا اللّه في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم ... »

---

(٤٠١) يبدو لي أن هذا قد يكون معنى قول اللّه تعالى (طه: ١٢٤): (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

ويقارن ما قلناه بما جاء في تفسير الميزان حيث قال: « وقوله: (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) أي ضيقة، وذلك أن من نسي ربه وانقطع عن ذكره لم يبق له إلا أن يتعلق بالدنيا ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له ويهتم بإصلاح معيشته والتوسع فيها والتمتع منها، والمعيشة التي أوتيها لا تسعه سواء كانت قليلة أو كثيرة لأنه كلما حصل منها واقتناها لم يرض نفسه بها وانتزعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أن يقف منها على حد فهو دائما في ضيق صدر وحنق مما وجد متعلق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهم والغم والحزن والقلق والاضطراب والخوف بنزول النوازل وعروض العوارض من موت ومرض وعاهة وحسد حاسد وكيد كائد وخيبة سعي وفراق حبيب

ولو أنه عرف مقام ربه ذاكرا غير ناس أيقن أن له حياة عند ربه لا يخالطها موت وملكا لا يعتريه زوال وعزة لا يشوبها ذلة وفرحا وسرورا ورفعة وكرامة لا تقدر بقدر ولا تنتهي إلى أمد وأن الدنيا دار مجاز وما حياتها في الآخرة إلا متاع فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قدر له من الدنيا ووسعه ما أوتيه من المعيشة من غير ضيق وضنك

وقيل: المراد بالمعيشة الضنك عذاب القبر وشقاء الحياة البرزخية بناء على أن كثيرا من المعرضين عن ذكر اللّه ربما نالوا من المعيشة أوسعها وألقت إليهم أمور الدنيا بأزمتها فهم في عيشة وسيعة سعيدة

وفيه أنه مبني على مقايسة معيشة الغني من معيشة الفقير بالنظر إلى نفس المعيشتين والإمكانات التي فيهما ولا يتعلق نظر القرآن بهما من هذه الجهة البتة، وإنما تبحث الآيات فيهما بمقايسة المعيشة المضافة إلى المؤمن وهو مسلح بذكر اللّه والإيمان به من المعيشة المضافة إلى الكافر الناسي لربه المتعلق النفس بالحياة الدنيا الأعزل من الإيمان ولا ريب أن للمؤمن حياة حرة سعيدة يسعه ما أكرمه ربه به من معيشة وإن كانت بالعفاف والكفاف أو دون ذلك، وليس للمعرض عن ذكر ربه إلا عدم الرضا بما وجد والتعلق بما وراءه

نعم عذاب القبر من مصاديق المعيشة الضنك بناء على كون قوله: (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً

ضَنْكًا) ... »

وقال الرازي: « وقوله: (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)...، واعلم أن هذا الضيق المتوعد به إما أن يكون في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين أو في كل ذلك أو أكثره

أما الأول فقال به جمع من المفسرين وذلك لأن المسلم لتوكله على اللّٰه يعيش في الدنيا عيشا طيبا كما قال: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً)، والكافر باللّٰه يكون حريصا على الدنيا طالبا للزيادة أبدا فعيشته ضنك وحالته مظلمة، وأيضا فمن الكفرة من ضرب اللّٰه عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُا بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللّٰهِ)، وقال: (وَلَو أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)، وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْض)، وقال: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ)، وقالَ: (وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقًا) ... »

---

(٤٠٢) مثلا في كتاب (الأم) للشافعي (٦٣/٥): عن أنس بن مالك أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم لما قدم المدينة أسهم الناس المنازل فطار سهم عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال له سعد: تعال حتى أقاسمك مالي وأنزل لك عن أي امرأتيَّ شئت وأكفيك العمل فقال له عبد الرحمن: بارك اللّٰه لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق ...

ويُنظر الكافي (١٧١/٢) و(١٧٤/٢)

---

(٤٠٣) ويعجبني أن أتمثل بقول العارف المعروف (عطار) النيسابوري حيث قال:

چون همه خوبى جهان وقف توست   گنك شدم وصف كدامت كنم

لأن حسن العالم مجتمع فيك فصرتُ أبكم عن وصف شيء منك

ويقول شاعر:

من گنگ خوابديده وعالم تمام كر   من عاجزم ز گفتن وخلق از شنيدنش

أنا أبكم وقد رأيت رؤيا، والعالم أصم، أنا عاجز عن الكلام والخلق عاجزون عن سماعه

---

(٤٠٤) مقطع من الآية ٢٨ من سورة سبأ، والآية: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)

---

(٤٠٥) قال اللّه عز وجل (الأنعام: ٩٢): (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

وقال اللّه تعالى (يس: ٦): (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)

وقال (الزخرف: ٤٤): (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) إلخ

---

(٤٠٦) قال اللّه عز وجل (الفرقان: ٥١): (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا)

---

(٤٠٧) قال اللّه تعالى (النساء: ١٦٥): (... رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

---

(٤٠٨) قال اللّه عز وجل (فاطر: ٢٤): (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)

---

(٤٠٩) قال جورج طرابيشي في كتابه (معجم الفلاسفة) عن الفيلسوف البريطاني (هربرت سبنسر): « رفض في عهد شبابه، الدخول إلى الجامعة، وعندما شاخ واشتهر، رفض الألقاب الفخرية والمناصب والتسميات التي تنافست الجامعات والأكاديميات على تقديمها له، ...، وأصر أن يكون حرا من كل ارتباط سياسي أو مهني، رافضا حتى أن يقيد نفسه بوثائق الزواج، وغالى إلى حد اعتبار الثقافة خطرا قد يتهدد الحرية، لذلك قرر أن يحد من مطالعاته وأن يبتعد عن الفلسفة (يبدو أنه لم يطلع على أعمال كانط إلا ضمن حدود ضيقة) »

هذا، و(Spencer, Herbert) ولد عام ١٨٢٠م، وتوفي عام ١٩٠٣، وأنه ـ حسب قول طرابيشي ـ « نال أخيرا الشهرة التي كان يستحقها، وأمسى في مقدوره أن يعد نفسه أشهر

فلاسفة عصره، ...، وقد فاخرت انكلترا به وباهت، ورفعته إلى مرتبة العبقري القومي، ورأت فيه أوروبا واحدا من عظماء القرن »

---

(٤١٠) يبدو لي أن إلى هذا يشير قول اللّه عز وجل (المؤمنون: ٥٢ـ ٥٣): (وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) ...

---

(٤١١) تقدمت في بداية التعليقات إشارة إلى ما هو المعروف في أوساط المفكرين الإسلاميين من تقسيم الناس إلى الخواص والعوام، بل وإلى خواص الخواص و...، وتقدم أيضا في القسم السابق من هذه المذكرات

---

(٤١٢) في كتاب (الأسفار: ٤٦/٧): « اعلم أن خطابات القرآن كقوله: (يا أيها الإنسان، يا أيها الذين آمنوا) مما يختص بأحباء اللّه المتألهين وأوليائه المقربين، لا المبعدين الممكورين والجاحدين المنكرين، إذ ليس لهم من رزق معاني هذا الكلام والكتاب إلا قشور الألفاظ والمباني [إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ] لأن العناية الإلهية ما سبقت لهم بالحسنى، فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره

وأنت أيضا يا حبيبي لو لم تكن مما قضى اللّه فيك خيرا، ولم تكن أهلا لذلك بحسب ما يسر لك هذا الأمر العسير في التقدير لما وقع منك إلا التقليد كالعميان إن كنت من المسلمين ولم تكن من الجاحدين، ... »

ويُنظر القسم السابق من هذه المذكرات

---

(٤١٣) فسر ذلك مجمع البيان بقوله: « أي ظلما وحسدا وطلبا للرئاسة »

---

(٤١٤) قد ينطبق على هذا أيضا قول اللّه تبارك وتعالى (البقرة: ٧٩): (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ)، مضافا إلى انطباقه على ما كان قد فُعل بالتوراة (يُنظر ـ مثلا ـ كتاب

(٤١٥) في قول اللّه تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا...) قال في تفسير الميزان: « فظاهر سياق الآيات فيما نحن فيه يعطي أن يكون المراد بقوله: وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا كلمة الدعوة الإسلامية وما يلازمها من نبوة محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم ونزول القرآن المهيمن على ما تقدم عليه من الكتب السماوية المشتمل على جوامع المعارف الإلهية وكليات الشرائع الدينية...

فالمراد بتمام الكلمة ـ واللّه أعلم ـ بلوغ هذه الكلمة أعني ظهور الدعوة الإسلامية بنبوة محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب، مرتبة الثبوت واستقرارها في مستقر التحقق بعدما كانت تسير دهرا طويلا في مدارج التدريج بنبوة بعد نبوة وشريعة بعد شريعة فإن الآيات الكريمة دالة على أن الشريعة الإسلامية تتضمن جمل ما تقدمت عليه من الشرائع وتزيد عليها بما ليس فيها كقوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) ... وبذلك يظهر معنى تمام الكلمة وأن المراد به انتهاء تدرج الشرائع من مراحل النقص إلى مرحلة الكمال ومصداقه الدين المحمدي قال تعالى: (واللّه متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)..

وتمام هذه الكلمة الإلهية صدقا هو أن يصدق القول بتحققها في الخارج بالصفة التي بين بها، وعدلا أن تتصف بالتقسيط على سواء فلا يتخلف بعض أجزائه عن بعض وتزن الأشياء على النحو الذي من شأنها أن توزن به من غير إخسار أو حيف وظلم، ولذلك بين هذين القيدين أعني (صدقا وعدلا) بقوله (لا مبدل لكلماته) فإن الكلمة الإلهية إذا لم تقبل تبديلا من مبدل سواء كان المبدل هو نفسه تعالى كأن ينقض ما قضى بتبدل إرادة أو يخلف ميعاده، أو كان المبدل غيره تعالى كأن يعجزه غيره ويقهره على خلاف ما يريد كانت كلمته صدقا، تقع كما قال، وعدلا لا تنحرف عن حالها التي كانت عليها وصفها الذي وصفت به، فالجملة أعني قوله: (لا مبدل لكلماته) بمنزلة التعليل يعلل بها قوله: (صدقا وعدلا) »

(٤١٦) في تفسير الميزان (٨/٢١٠): « قوله تعالى: (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى

فرعون وملإه) إلى آخر الآية . في تغيير السياق في أول القصة دلالة على تجدد الاهتمام بأمر موسى عليه السلام فإنه من أولي العزم صاحب كتاب وشريعة، وقد ورد الدين ببعثته في مرحلة جديدة من التفصيل بعد المرحلتين اللتين قطعهما ببعثة نوح وإبراهيم عليهما السلام وفي لفظ الآيات شيء من الإشارة إلى تبدل المراحل فقد قال تعالى أولا: (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) (وإلى عاد أخاهم هودا) (وإلى ثمود أخاهم صالحا) فجرى على سياق واحد لأن هودا وصالحا كانا على شريعة نوح، ثم غير السياق فقال: (ولوطا إذ قال لقومه) لأن لوطا من أهل المرحلة الثانية في الدين وهي مرحلة شريعة إبراهيم، وكان لوط على شريعته ثم عاد إلى السياق السابق في بدء قصة شعيب، ثم غير السياق في بدء قصة موسى بقوله: (ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه) لأنه ثالث أولي العزم صاحب كتاب جديد وشريعة جديدة، ودين الله وشرائعه وإن كان واحدا لا تناقض فيه ولا تنافي غير أنه مختلف بالإجمال والتفصيل والكمال وزيادته بحسب تقدم البشر تدريجيا من النقص إلى الكمال، واشتداد استعداده لقبول المعارف الإلهية عصرا بعد عصر إلى أن ينتهي إلى موقف علمي هي أعلى المواقف فيختتم عند ذلك الرسالة والنبوة، ويستقر الكتاب والشريعة استقرارا لا مطمع بعده في كتاب جديد أو شريعة جديدة ولا يبقى للبشر بعد ذلك إلا التدرج في الكمال من حيث انتشار الدين وانبساطه على المجتمع البشري واستيعابه لهم وإلا التقدم من جهة التحقق بحقائق المعارف، والترقي في مراقي العلم والعمل التي يدعو إليها الكتاب، ويحرض عليها الشريعة، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »

---

(٤١٧) في تفسير الميزان (١٢٤/٢): « قوله تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً) ...، فإنا نشاهد النوع الإنساني لا يزال يرقى في العلم والفكر، ويتقدم في طريق المعرفة والثقافة ...

وكلما رجعنا في ذلك القهقرى وجدناه أقل عرفانا برموز الحياة، وأسرار الطبيعة، وينتهي بنا هذا السلوك إلى الإنسان الأولي الذي لا يوجد عنده إلا النزر القليل من المعرفة بشئون الحياة وحدود العيش، كأنهم ليس عندهم إلا البديهيات ويسير من النظريات الفكرية التي تهيئ لهم وسائل البقاء بأبسط ما يكون كالتغذي بالنبات أو شيء من الصيد والإيواء إلى الكهوف والدفاع بالحجارة والأخشاب ونحو ذلك، فهذا حال الإنسان في أقدم عهوده، ومن المعلوم أن قوما حالهم هذا الحال لا يظهر فيهم الاختلاف ظهورا يعتد به، ولا يبدو فيهم الفساد بدوا مؤثرا، كالقطيع من الغنم لا هم لأفراده إلا الاهتداء لبعض ما اهتدى إليه بعض آخر، والتجمع

في المسكن والمعلف والمشرب ... »

---

(٤١٨) في الكافي (٢/١٣٨) بسنده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك

وأيضا في الكافي (٢/١٣٤) عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: قال أبو ذر رحمه اللّه: جزى اللّه الدنيا عني مذمة بعد رغيفين من الشعير أتغدى بأحدهما وأتعشى بالآخر، وبعد شملتي الصوف أتزر بإحداهما وأتردى بالأخرى

ذكرت النصين لا للاستدلال بل للاستيناس...، فإن هذا لا يحتاج إلى دليل، ولا يخفى على ملم بالدين، وقد تقدم ذكره في ملفي العرفان، وستأتي إشارة إليه في القسم اللاحق من هذه المذكرات

---

(٤١٩) قال حافظ الشيرازي:

غلام همت آنم كه زير چرخ كبود   ز هر چه رنگ تعلق پذيرد آزادست

(أنا عبد لهمة من هو حر عن أي شيء قد يقيده)

ولا يخفى على عاقل أن الناس يشتركون مع (حافظ) في عدّ المتسامي عن الشهوات عزيزا كريما

---

(٤٢٠) قال ابن عربي في (الفتوحات: ١/١٨٧): « فخرج من هذا المجموع كله أنه ـ أي النبي صلى اللّه عليه وآله ـ مِلِك وسيد على جميع بني آدم، وأن جميع من تقدمه كان مُلكا له وتبعا، والحاكمون فيه نواب عنه

فإن قيل: فقوله صلى اللّه عليه وسلم: (لا تفضلوني)؟ فالجواب: نحن ما فضلناه، بل اللّه فضله فإن ذلك ليس لنا ... »

ويُنظر ملف (محاولات) من ملفي العرفان

---

(٤٢١) قال اللّه تعالى (التوبة: ٣٣): (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

---

(٤٢٢) قال اللّه عز وجل (الجاثية: ١٦–١٨): (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

وقال تعالى (المائدة: ٤٨): (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) ...

---

(٤٢٣) قال اللّه عز وجل (فاطر: ٢٤): (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ)

---

(٤٢٤) قال (الجاحظ) في كتابه (البيان والتبيين: ١/٤٠٤): « ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه وهم يزعمون أن (جالينوس) كان أنطق الناس ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة

وفي الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم

وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة

ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخطام، أو حين أن يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع، أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس

وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب... »

---

(٤٢٥) قال الله عز وجل (يس: ٢-٦): (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)

---

(٤٢٦) قال الراغب في (المفردات): « والأُمِّيُّ: هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وعليه حمل: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) قال (قُطرُب): الأُمِّيَّة: الغفلة والجهالة، فالأميّ منه، وذلك هو قلة المعرفة، ومنه قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ) أي: إلا أن يتلى عليهم »

وفي تفسير الميزان (١٥٣/٤) بعد أن ذكر مساوئ العرب في الجاهلية قال: « وأضف إلى ذلك بلاء الأمية وفقدان التعليم والتعلم في بلادهم فضلا عن العشائر والقبائل »

وأيضا قال في تفسير قول الله تعالى (النحل: ٤٤): (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ): « ... فإن الأوضاع المحيطة بك والحوادث والأحوال الواردة عليك في مدى حياتك من اليتم وخمود الذكر والحرمان من التعلم والكتابة وفقدان مرب صالح والفقر والاحتباس بين **قوم جهلة أخساء صفر الأيدي من مزايا المدنية وفضائل الإنسانية** كانت جميعا أسبابا قاطعة أن لا تذوق من عين الكمال قطرة، ولا تقبض من عرى السعادة على مسكة ... »

ولا يخفى أن تعريض بعض الكلمات مني، لا من السيد (ره)

---

(٤٢٧) في تفسير الرازي (١٥/٣٨٠): « قال الزجاج: معنى (الْأُمِّيَّ): الذي هو على صفة أمة العرب

قال عليه الصلاة والسلام: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون، والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أميا

قال أهل التحقيق: وكونه أميا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته، وبيانه من وجوه: الأول: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب اللّٰه تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير . ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ يتلو كتاب اللّٰه من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير . فكان ذلك من المعجزات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى)

والثاني: أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهما في أنه ربما طالع كتب الأولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة، كان ذلك من المعجزات، وهذا هو المراد من قوله: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ)

الثالث: أن تعلم الخط شيء سهل فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي، فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم . ثم إنه تعالى آتاه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر، ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلا وفهما، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات »

وقال الراغب في (المفردات): « و(النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ) قيل: منسوب إلى الأمّة الذين لم يكتبوا لكونه على عادتهم كقولك: عامّي، لكونه

على عادة العامّة، وقيل: سمي بذلك لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب، وذلك فضيلة له لاستغنائه بحفظه، واعتماده على ضمان اللّه منه بقوله: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى)، وقيل: سمّي بذلك لنسبته إلى أمّ القرى »

---

(٤٢٨) في تفسير الميزان (٨/٢٨٠): « ...، ولولا أن الغرض من توصيفه بهذه الثلاث (الرسول، النبي، الأمي) هو تعريفه بما كانوا يعرفونه به من النعوت المذكورة له في كتابيهم لما كانت لذكر الثلاث (...) وخاصة الصفة الثالثة نكتة ظاهرة »

---

(٤٢٩) قال اللّه عز وجل (النساء: ٧٨): (... فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)

وقال تعالى (يس: ٧ـ ١١): (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ . وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) إلخ

---

(٤٣٠) قال تعالى (البقرة: ٧٨): (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ)

---

(٤٣١) في تفسير القمي (٢/٣٦٦) عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) قال: كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند اللّه ولا بعث إليهم رسولا فنسبهم اللّه إلى الأميين

وفي نهج البلاغة (الخطبة٣٣): « إن اللّه بعث محمدا صلّى اللّه عليه وآله وليس أحد من العرب يقرأ كتابا ولا يدعي نبوة » . ويُنظر كذلك الخطبة ١٠٤

ويُنظر الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم: ج١)، فصل الأمي والأميون في اللغة والاصطلاح

---

(٤٣٢) قال ابن عربي في الفتوحات المكية (٢/٦٣٢): « الأمية عندنا لا تنافي حفظ القرآن

ولاحفظ الأخبار النبوية، ولكن الأمية عندنا من لم يتصرف بنظره الفكري وحكمه العقلي في استخراج ما تحوي عليه من المعاني والأسرار، وما تعطيه من الأدلة العقلية في العلم بالإلهيات وما تعطيه للمجتهدين من الأدلة الفقهية والقياسات والتعليلات في الأحكام الشرعية، فإذا سلم القلب من علم النظر الفكري شرعا وعقلا كان أميا »

ويبدو أن صدر المتألهين تأثر بهذا فيما ذكره في كتابه (مفاتيح الغيب ص٤٦)

---

(٤٣٣) في كتاب (خدمات متقابل... ص٣٨٣) نقل الشيخ المطهري عن كتاب (شاهنامه) للفردوسي ما قد يدل على أن في عهد الساسانيين لم يكن يؤذن للشعب أن يتعلموا الكتابة ...

---

(٤٣٤) يُنظر ما قالوه في تفسير قول اللّه تعالى: (وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)، و(عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)...

---

(٤٣٥) في مسند أحمد (١/٢٤٧) عن عكرمة أن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، قال: فجاء يوما غلام يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث يطلب بذَحْل بدر، واللّه لا تأتيه أبدا

---

(٤٣٦) قال السيد هاشم معروف الحسني في كتابه (دراسات في الحديث والمحدثين ص١٨): « ومما لا شك فيه أن الكتابة قد بدأت تنتشر في مكة وما حولها بظهور الإسلام على نطاق أوسع مما كانت عليه، أولا بسبب التحول الذي طرأ على العرب نتيجة لاعتناقهم الدين الجديد الذي يدعو إلى العلم ويحث عليه. وتؤكد المصادر التاريخية أن مساجد المدينة التسعة كانت محط أنظار المسلمين يتعلمون فيها القرآن وتعاليم الإسلام والكتابة وغير ذلك مما تدعو إليه الحاجة، وإلى جانب هذه المساجد انتشرت المكاتب لتعليم الصبيان ومحاربة الأمية بأشكالها

وعندما نلاحظ موقف النبي من الأسرى الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة بعد نجاحه في معركة بدر الكبرى وإعفاءهم من الفدية التي فرضها على كل أسير حسب إمكانياته مع العلم بأنه كان هو ودولته الفتية الناشئة في أمس الحاجة إلى المال، عندما نلاحظ ذلك ونتأكد بأنه

قد أعفاهم منها، وفرض على كل أسير منهم أن يعلم عشرة من الأميين في مقابلها، ندرك مدى اهتمامه في محاربته الجهل والأمية، حتى استطاع في خلال سنوات معدودات أن يهيئ عددا كبيرا يقرءون ويكتبون، ويحسنون إدارة الأعمال وتصريف الأمور، ومضت حركة التعليم تتسع بين المسلمين في أنحاء الجزيرة، ويحث عليها بمختلف الأساليب والمناسبات، وقد بلغ به الحرص على توجيه الناس نحو التعليم أن جعل طلب العلم من الفرائض، وقال كلمته المشهورة: (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)، وقال أيضا: (اطلبوا العلم ولو بالصين) والوصول إلى الصين في عصره أعسر من الوصول إلى القمر في عصرنا هذا

وكان من نتيجة تلك الجهود التي بذلها لمحاربة الأمية أن أصبح المتعلمون من المسلمين وأبنائهم يعدون بالألوف، بعد أن كانوا لا يتجاوزون العشرات كما يظهر من إحصاءات المؤلفين الذين كتبوا في هذه المواضيع

ويؤيد ذلك ما جاء عن أبي الدرداء أنه قال لبعض جلسائه: أعدد من يقرأ عندي القرآن، فعدهم فبلغوا ألفا وستماية . وكان لكل عشرة منهم مقرئ، (أي معلم) وأبو الدرداء يشرف على الجميع »

وقال السيد جعفر مرتضى في كتابه (الصحيح من السيرة: ١٢٩/٥): « **فداء الأسير تعليم الكتابة:** قال المقريزي: (وكان في الأسرى من يكتب، ولم يكن في الأنصار من يحسن الكتابة، وكان منهم من لا مال له، فيقبل منهم أن يعلم عشرة من الغلمان، ويخلي سبيله، فيومئذ تعلم زيد ابن ثابت الكتابة في جماعة من غلمان الأنصار) »

وبعد أن أشار إلى ما رواه ابن حنبل بهذا الصدد قال: « ونقول: إن جعل فداء الأسرى هو تعليم عشرة من أطفال المسلمين، ليعتبر أول دعوة في التاريخ لمحو الأمية، سبق الإسلام بها جميع الأمم . وقد أتى الحكم بن سعيد بن العاص النبي، فسأله عن اسمه، فأخبره، فغير (ص) اسمه إلى عبد اللّه، وأمره أن يعلم الكتاب بالمدينة . وذلك يعبر عن مدى اهتمام الإسلام بالعلم في وقت كانت فيه أعظم الدول كدولة الأكاسرة تمنع بصورة قاطعة من تعليم القراءة والكتابة لأحد من غير الهيئة الحاكمة، حتى إن أحد التجار قد عرض أن يقدم جميع الأموال اللازمة لحرب أنو شيروان مع قيصر الروم على أن يسمح له بتعليم ولده . بل لقد كانت بعض الفئات العربية تعد المعرفة بالكتابة عيبا كما أشرنا إليه فيما سبق في المدخل لدراسة السيرة فراجع

وهذا الإسلام قد جاء ليطلق أعدى أعدائه، في أدق الظروف، وأخطرها في مقابل تعليمهم لعشرة من غلمان المسلمين، مع أنه ربما تكون الاستفادة من فداء هؤلاء الأسرى، أو استخدامهم في مهمات المسلمين، أو جعلهم وسيلة للضغط السياسي على قريش، له أهمية كبيرة بالنسبة لهذا المجتمع الناشئ، الذي يولد في مجتمع يرفضه ويحاول القضاء عليه، وأمامه طريق طويل وشاق من النضال والكفاح من أجل الحياة والبقاء، وإقامة الدولة الإسلامية، ونشر تعاليم رسالة السماء »

هذا، وما نسبه إلى (أنوشيروان) نقله عن كتاب (خدمات متقابل...) للشيخ المطهري، وقد أشرنا إليه قبل هذا

وما نقله (السيد الحسني) عن أبي الدرداء أورده (ابن عساكر) في كتابه (تاريخ مدينة دمشق: ٣٢٧/١) قال: « ... عن أبي عبيد اللّه مسلم بن مشكم، قال: قال لي أبو الدرداء: اعدد من يقرأ عندنا، يعني في مجلسنا هذا،... قال أبو عبيد اللّه: فعددت ألفا وستمائة ونيفا، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، لكل عشرة منهم مقرئ، وكان أبو الدرداء قائما يستفتونه في حروف القرآن، يعني المقرئين، فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول إلى أبي الدرداء

وكان أبو الدرداء يبتدئ في كل غداة إذا انفتل من الصلاة فيقرأ جزءا من القرآن وأصحابه محدقون به يسمعون ألفاظه فإذا فرغ من قراءته جلس كل رجل منهم في موضعه وأخذ على العشرة الذين أضيفوا إليه، وكان ابن عامر مقدما فيهم »

وعلى أي حال فلا يخفى ما في النصين من البناء على كلام المقريزي ما لا يتحمله، وما في كلام السيد الحسني من حمل (العلم) على العلم بالكتابة، و(القراءة) على القراءة من كتاب، ومن الاستناد إلى ما نقل عن أبي الدرداء أنه فعله بالشام في عهد معاوية، لا بالمدينة في عهد النبي (ص) إلخ

---

(٤٣٧) مما يجعل المرء يشك في صحة الخبر المذكور عدم شيوع نقله ...

---

(٤٣٨) في نهج البلاغة (الخطبة ٢٦): « إن اللّه بعث محمدا صلى اللّه عليه وآله وسلم نذيرا للعالمين وأمينا على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار منيخون بين حجارة خشن وحيات صم، تشربون الكدر وتأكلون الجشب وتسفكون دماءكم وتقطعون أرحامكم،

الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة »

وفي كتاب البحار (٢٢٦/١٨): « قوله عليه السلام: (شر دار) أي باعتبار شمول الكفر والضلالة، أو باعتبار أن أكثرها البوادي، ولقلة المعمورة وقلة الماء، فلا ينافي كونها خير دار للصالحين لشرافة المكان، ويحتمل أن يكون المراد الدار المجازية أي دار الجاهلية ... »

---

(٤٣٩) في تفسير الرازي (٥٣٨/٣٠): « ...، وقيل: الأميون الذين هم على ما خلقوا عليه »

---

(٤٤٠) في تفسير الميزان (٦٤/١): « ...، ففيهما ـ أي العهدين ـ عثرات وخطايا لأنبياء اللّه الصالحين تنبو الفطرة وتتنفر من أن تنسبها إلى المتعارف من صلحاء الناس وعقلائهم »

---

(٤٤١) قال اللّه تبارك وتعالى (الزخرف: ٥٧ـ ٥٩): (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ. وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ. إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ)

في تفسير الميزان (١١٣/١٨): « والمراد بقوله: (إذا قومك منه يصدون) بكسر الصاد ـ أي يضجون ويضحكون ـ ذم لقريش في مقابلتهم المثل الحق بالتهكم والسخرية، وقرئ (يصدون) بضم الصاد أي يعرضون وهو أنسب للجملة التالية . وقوله: (وقالوا ءآلهتنا خير أم هو) الاستفهام للإنكار أي آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمة والكرامة أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن وأخذوه بما له من الصفة عند النصارى أنه إله ابن إله فردوا على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بأن آلهتنا خير منه، وهذا من أسخف الجدال، كأنهم يشيرون بذلك إلى أن الذي في القرآن من وصفه لايعتنى به، وما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه . وقوله: (ما ضربوه لك إلا جدلا) أي ما وجهوا هذا الكلام: (ءآلهتنا خير أم هو) إليك إلا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور وإن كان حقا »

---

(٤٤٢) قد يشير إلى هذا قول اللّه عز وجل (البقرة: ٧٨): (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ)، على أن يكون معنى (الأماني) الأوهام، لا (الأكاذيب) كما ذهب

إليه كثير من المفسرين ...

---

(٤٤٣) قال اللّه عز وجل (البقرة: ١٢١): (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

وقال تعالى (الإسراء: ١٠٧-١٠٩): (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا)

---

(٤٤٤) سورة الحديد: ٨، وقد نقلنا سابقا بعض ما قيل في تفسيرها

---

(٤٤٥) قال اللّه تبارك وتعالى (التوبة: ٢٩): (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)

ويبدو للكاتب أن اشتراط دفعهم الجزية بأن يكون عن يد وهم صاغرون لأن يتعاملوا مع الحكم الإسلامي كأفراد، لا من خلال تجمعات ومؤسسات ...

هذا، وقد مر الكلام عن تصديق القرآن والنبي (ص) لما مع أهل الكتاب

---

(٤٤٦) يُنظر ما كتبه الدكتور محمد عابد الجابري عن الذين (قالوا: إنا نصارى)، في الفصل الأول من كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم)

وقال اللّه تعالى (آل عمران: ١١٠): (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

---

(٤٤٧) في تفسير الرازي (١٣٥/٢٥): «كيف قال: (لِتُنذِرَ قَوْمًا ما أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ) مع أن النذر سبقوه؟

الجواب: من وجهين أحدهما معقول والآخر منقول، أما المنقول فهو أن قريشا كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى اللّه عليه وسلم، وهو بعيد، فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع أنبياء بني إسرائيل من أولاد أعمامهم، وكيف كان اللّه يترك قوما من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين ولا شرع؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعني ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصا بالعرب بل أهل الكتاب أيضا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آباءهم، وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم، كيف والذي عليه الأكثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفارا، ولأن النبي أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب، وقال تعالى: وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا

وأما المعقول وهو أن اللّه تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم، وإن أراد طهر وجه الأرض بإهلاكهم، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال: (لِتُنْذِرَ قَوْمًا ما أَتاهُمْ) أي بعد الضلال الذي كان بعد الهداية لم يأتهم نذير »

---

(٤٤٨) كذلك كتاب المجوس إن ثبت وجوده كما في الكافي (٥٦٧/٣) - بسند ضعيف - عن أبي عبد اللّه عليه السلام ...

---

(٤٤٩) قد يشير إلى هذا قول اللّه عز وجل (الشعراء:١٩٨-٢٠١): (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ . كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ)

---

(٤٥٠) قال اللّه تعالى (البقرة: ١٧٠): (وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ)

وقال (هود: ١٠٩): (فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم

مِّن قَبْلُ ...)

---

(٤٥١) قال اللّه تبارك وتعالى (ص: ٢-٧): (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ)

---

(٤٥٢) هناك من قال (يُنظر **الأمي** في دائرة المعارف الإسلامية) إن « كلمة أمي أو أميين وضعها أهل الكتاب (وربما كان واضعوها اليهود) للدلالة على الوثنيين ... »، ولا يخفى أنه على فرض صحة هذا الرأي فإنهم كانوا يطلقونها على الوثنيين لا لكونهم وثنيين، بل لكونهم (غير مهتدين) بقراءة كتاب...، وإلا فلم يكن القرآن يصف النبي بـ(الأمي) ...

---

(٤٥٣) قال اللّه عز وجل (البقرة: ١٤٣): (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)

---

(٤٥٤) قال اللّه تعالى (آل عمران: ١١٠): (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)

---

(٤٥٥) قال اللّه عز وجل (الزخرف: ٥١- ٥٤): (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

---

(٤٥٦) هو جورج طرابيشي، كاتب معروف نشط، من مؤلفاته (معجم الفلاسفة) الذي

استفيد منه في هذه الأوراق ...

---

(٤٥٧) واستدرك ما ادعاه بأن قال في الهامش: « لا بد لنا، تقيدا منا بتمامية النص القرآني، من التنويه بأن هناك جانبا (أمميا) أيضا في (أمية) الرسالة المبعوث بها الرسول . فهو إن يكن بعث إلى الأميين من العرب بصورة رئيسية ليأتيهم بكتاب ما أوتوه من قبل، فقد بعث أيضا بصورة فرعية إلى الكتابيين من العرب، من يهود ونصارى، ولكن لا ليأتيهم بكتاب بديل من كتابهم، بل ليصحح لهم ما حرفوه من الكتاب الذي أوتوه، وليبطل مذهب من ذهب منهم على سبيل المثال إلى أن عزير أو المسيح هو ابن الله . وعلى ضوء هذا التصحيح اللاهوتي، ينبغي أن نفهم مؤدى العديد من آيات سورة آل عمران وسورة المائدة، ومنها الآيتان التاليتان: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١٥) و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ﴾ (المائدة: ١٩) . وهذه الغائية التصحيحية الإضافية التي جاءت بها الرسالة القرآنية كان تنبه لها قدامى أهل التفسير ممن قال الطبري بلسانهم في معرض تعليقه على الآية الأخيرة: « يقول جل ثناؤه: وأرسلنا إليكم ليبين لكم ما أشكل عليكم من أمر دينكم » . وإنما عند هذا التبيان لإشكالات لاهوتية ـ وهي إشكالات تتصل في واقع الأمر بالخلافات بين الفرق، ولا سيما منها النسطورية والأبيونية فيما نرجّح ـ تقف حدود مبعوثية الرسول إلى أهل الكتاب من العرب، من دون أن تتعداها إلى أن إتيانهم بدين جديد ومطالبتهم بالتالي بتغيير دينهم: فكل ما هنالك أنهم مدعوون إلى العودة إلى كتابهم الأصلي. وهذه على كل حال مناسبة لنشير إلى أن بعض المتأولين المعاصرين ممن أباحوا لأنفسهم تجاوز النص القرآني وانساقوا وراء فروضات أملاها عليهم انغماسهم فيما نستطيع أن نسميه (صدام الديانات) وذهبوا إلى أن مبعوثية الرسول الأولى كانت إلى أهل الكتاب العرب أنفسهم، ولكن ممن لا ينتمون إلى العقيدة النسطورية أو الإبيونية . ثم عندما لم تلق الدعوة عند هؤلاء آذانا صاغية دخلت مبعوثية الرسول في طورها الثاني ليصير المخاطبون بالدعوة الأميين، أي من ليسوا أهل الكتاب من العرب (انظر في ذلك على سبيل المثال كتاب **قس ونبي** المنشور باسم أبي موسى الحريري المستعار) »

---

(٤٥٨) (في ظلال القرآن: ٢/١١٤٨)، فعلق مؤلف الكتاب على ذلك بقوله: « وكذبوا .. ففي القرآن المكي، وفي أوائل الدعوة، قال الله سبحانه لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَما أَرْسَلناكَ إِلا رَحْمَةً للعالَمِينَ) .. (وَما أَرْسَلناكَ إِلا كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيرًا) ....، ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة في شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء! »

وقال الشيخ محمد الصادقي في كتابه (الفرقان...): « فقد تصيّد أعداء للإسلام من المستشرقين أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها، مقتطعين آية أم القرى من القرآن كله ليخيّلوا إلى البسطاء أن هذه الدعوة كانت في بدايتها محصورة بهؤلاء الأميين ومجاوريهم، ثم توسعت في الجزيرة كلها ثم همّ محمد (ص) أن تتخطاها إلى الناس كافة، وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها

ولكنهم تغافلوا عن المعني من القرى في أم القرى، كما تغافلوا ان آيات الأنبياء وسبأ والأعراف من أوليات المكيات بداية الدعوة... »)، (وقال في الهامش: « الأستاذ الحداد البيروتي رئيس مطارنة بيروت هو الذي ألف على إشرافه أربعة عشر كتابا ردا ـ بزعمه ـ على القرآن ومنها (الكتاب والقرآن) حيث ذكر فيه شطحات مثل أن القرآن دعوة عربية وليست عالمية »)

---

(٤٥٩) قال الرازي: « ... قوله تعالى: (وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَها)...، البحث الأول: اتفقوا على أن هاهنا محذوفا، والتقدير: ولتنذر أهل أم القرى . واتفقوا على أن أم القرى هي مكة، واختلفوا في السبب الذي لأجله سميت مكة بهذا الاسم . فقال ابن عباس: سميت بذلك لأن الأرضين دحيت من تحتها ومن حولها، وقال أبو بكر الأصم: سميت بذلك لأنها قبل أهل الدنيا فصارت هي كالأصل وسائر البلاد والقرى تابعة لها، وأيضا من أصول عبادات أهل الدنيا الحج، وهو إنما يحصل في تلك البلدة، فلهذا السبب يجتمع الخلق إليها كما يجتمع الأولاد إلى الأم، وأيضا فلما كان أهل الدنيا يجتمعون هناك بسبب الحج، لا جرم يحصل هناك أنواع من التجارات والمنافع ما لا يحصل في سائر البلاد ولا شك أن الكسب والتجارة من أصول المعيشة، فلهذا السبب سميت مكة أم القرى . وقيل: إنما سميت مكة أم القرى لأن الكعبة أول بيت وضع للناس، وقيل أيضا: إن مكة أول بلدة سكنت في الأرض

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: (وَمَنْ حَوْلَها) دخل فيه سائر البلدان والقرى

والبحث الثاني: زعمت طائفة من اليهود أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان رسولا إلى

العرب فقط، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية وقالوا: إنه تعالى بين أنه إنما أنزل عليه هذا القرآن ليبلغه إلى أهل مكة وإلى القرى المحيطة بها، والمراد منها جزيرة العرب، ولو كان مبعوثا إلى كل العالمين لكان التقييد بقوله: لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا باطلا

والجواب: أن تخصيص هذه المواضع بالذكر لا يدل على انتفاء الحكم فيما سواها إلا بدلالة المفهوم وهي ضعيفة، لا سيما وقد ثبت بالتواتر الظاهر، المقطوع به من دين محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان يدّعي كونه رسولا إلى كل العالمين، وأيضا قوله: وَمَنْ حَوْلَهَا يتناول جميع البلاد والقرى المحيطة بها، وبهذا التقدير فيدخل فيه جمع بلاد العالم، والله أعلم »

---

(٤٦٠) في تفسير الآية الكريمة جاء في التفسير الأمثل: « ... تبيّن آيات القرآن المختلفة بما لا يدع مجالا للشك أنّ الإسلام دين عالمي، من ذلك: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، وإِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ للعالَمِينَ . وقُل يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعا، وغيرها كثير في القرآن، وكلها تؤكّد هذه الحقيقة، وإنّه لمما يثير الانتباه أنّ معظم هذه الآيات قد نزلت في مكّة يوم لم يكن الإسلام قد تخطى حدود تلك المدينة

ولكن فيما يخص الآية التي نحن بصددها، يظهر لنا السؤال التالي: إنّ الآية توجه الإنذار والهداية إلى أم القرى ومن حولها، فكيف ينسجم هذا مع القول بأنّ الإسلام عالمي؟

في الحقيقة أنّ هذا الاعتراض جاء أيضا على لسان اليهود وغيرهم من أتباع الأديان الأخرى ظانين أنّهم قد أصابوا من عالمية الإسلام مقتلا، باعتبار أنّ الآية تحدد مكانه بمنطقة خاصّة هي مكّة وأطرافها (وقال في الهامش: ورد اعتراض بعض المستشرقين بهذا الشأن ذكره صاحب المنار، ج ٧، ص ٦٢١، وفي تفسير في ظلال القرآن، ج ٣، ص ٣٠٥)

الجواب: يتّضح الجواب من هذا الاعتراض بالانتباه إلى نقطتين، بحيث ندرك أنّ هذه الآية، فضلا عن كونها لا تتعارض مع عالمية الإسلام، هي واحد من أدلة عالميته أيضا:

القرية بلغة القرآن اسم لكل موضع يجتمع فيه الناس، سواء كان مدينة كبيرة أم قرية صغيرة، ففي سورة يوسف ـ مثلا ـ جاء على لسان اخوة يوسف يخاطبون أباهم: وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها، ونحن نعلم أنّهم كانوا قد رجعوا لتوهم من عاصمة مصر حيث حجز عزيز مصر أخاهم (بنيامين) كذلك نقرأ: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْض . بديهي أنّ المقصود هنا ليس القرى في الأرياف، بل هو كل منطقة مسكونة في العالم

ومن جهة أخرى هناك روايات عديدة تقول: إنّ اليابسة قد انتشرت من تحت الكعبة، وهو ما أطلق عليه اسم (دحو الأرض)

كما أنّنا نعلم أنّه في البداية هطلت أمطار غزيرة فغطّى الماء الكرة الأرضية برمتها، ثمّ...

أمّا كلمة (أم) فتعني ـ كما سبق أن قلنا ـ الأصل والأساس والمبدأ لكل شيء

من كل هذا يتبيّن أنه إذا أطلق مكّة اسم (أم القرى) فذلك يستند إلى أنّها كانت مبدأ ظهور اليابسة على الأرض، (ومن حولها) أي جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمتها

وهذا ما تؤيده الآيات الأخرى التي تؤكّد عالمية الإسلام، وكذلك الرسائل الكثيرة التي بعث بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى رؤساء العالم، مثل كسرى وقيصر ... »

---

(٤٦١) رأى بعض المفسرين أن اللّه اختار اللغة العربية للقرآن لكونها الأحسن...، فقد قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى (يوسف: ٢): (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ): « وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل ... »

وفي تفسير الميزان (١٦٠/٤): « فاللسان العربي هو المظهر للمعاني والمقاصد الذهنية أتم إظهار، ولذلك اختاره اللّه سبحانه لكتابه العزيز من بين الألسن وقال: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) »

وفي تفسير قوله تعالى (فصلت: ٤٤): (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ...) قال الشيخ محمد الصادقي في كتابه (الفرقان ...): « وقد تكون حكمة نزول القرآن باللغة العربية أنها أفضل اللغات وأعربها، وأنهم مبتدء الدعوة فلتكن بلغتهم، وأنهم قوم لد ليسوا يتقبلوا قرآنا بغير لغتهم ولا يقبلوا إليه »

وينظر الرازي في تفسيره لقوله تعالى (فصلت: ٣): (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

---

(٤٦٢) كتاب (الموافقات في أصول الشريعة: ٢/٦٠ـ ٦١، ط١ دار الغد الجديد، القاهرة، سنة ١٤٣٢ هـ)، والشاطبي هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، أصولي حافظ، كان

من أئمة المالكية، توفي سنة ٧٩٠ هـ

---

(٤٦٣) أورده الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم: ١٩٥/١، ط٢، مركز دراسات الوحدة...) مستشهدا به على قوله: « ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار هنا أن (لسان القوم) ليس مجرد رموز لغوية هو أيضا خازن ثقافتهم بما فيها من عادات وأعراف ومخايل وتطلعات... وإذاً فالتنصيص في القرآن مرارا وتكرارا، على كونه (نزل بلسان عربي مبين) ليس فقط أن كلماته عربية، بل معناه أن (العربية جزء ماهيته)، كما يقول الأصوليون، بمعنى أن اللغة العربية، كأساليب في التعبير وكمخزون ثقافي، مكون من مكونات ماهيته فهو قد نزل ليس فقط بكلمات عربية بل أيضا حسب معهود العرب، ولو لم يكن حسب معهودهم لما أمكن أن يفهموه »

---

(٤٦٤) قال الله تعالى (العنكبوت: ٦٤): (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

---

(٤٦٥) قال الله عز وجل (التوبة: ٣٨): (فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ)

---

(٤٦٦) وعد القرآن المؤمنين بثياب (سندس) و(إستبرق) في ثلاث آيات، وهي الآية ٣١ من الكهف، و الآية ٥٣ من الدخان، والآية ٢١ من الإنسان

وبـ(الإستبرق) في الآية ٥٤ من الرحمن

ووعدهم بـ(أساور من ذهب) في الآية ٣١ من الكهف، ومع لؤلؤ ... في الآية ٢٣ من الحج، وفي الآية ٣٣ من فاطر

ووعدهم بـ(أساور من فضة) في الآية ٢١ من الإنسان

ووعدهم بـ(لؤلؤ) في الآية ٢٣ من الحج، وفي الآية ٣٣ من فاطر

---

(٤٦٧) قال الله تعالى (ص: ٥٣- ٥٤): (... هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ . إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا

مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ)

وقال (غافر: ٤٠): (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)

---

(٤٦٨) في تفسير الآية ٧٢ من سورة التوبة قال السيد الطباطبائي: « وقوله: (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي رضى الله سبحانه عنهم أكبر من ذلك كله ـ على ما يفيده السياق ـ، وقد نكر (رِضْوَانٌ) إيماء إلى أنه لا يقدر بقدر ولا يحيط به وهم بشر، أو لأن رضوانا ما منه ولو كان يسيرا أكبر من ذلك كله، لا لأن ذلك كله مما يتفرع على رضاه تعالى ويترشح منه، وإن كان كذلك في نفسه، بل لأن حقيقة العبودية التي يندب إليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حبا له لا طمعا في جنة، أو خوفا من نار، وأعظم السعادة والفوز عند المحب أن يستجلب رضى محبوبه دون أن يسعى لإرضاء نفسه

وكأنه للإشارة إلى ذلك ختم الآية بقوله: (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وتكون في الجملة دلالة على معنى الحصر أي إن هذا الرضوان هو حقيقة كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنة الخالدة إذ لولا شيء من حقيقة الرضى الإلهي في نعيم الجنة كان نقمة لا نعمة »

وقال الرازي: « والنوع الثالث من المواعيد التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية قوله: (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) والمعنى أن رضوان الله أكبر من كل ما سلف ذكره . واعلم أن هذا هو البرهان القاطع على أن السعادات الروحانية أشرف وأعلى من السعادات الجسمانية، وذلك لأنه إما أن يكون الابتهاج بكون مولاه راضيا عنه، وأن يتوسل بذلك الرضا إلى شيء من اللذات الجسمانية، أو ليس الأمر كذلك، بل علمه بكونه راضيا عنه يوجب الابتهاج والسعادة لذاته من غير أن يتوسل به إلى مطلوب آخر، والأول باطل، لأن ما كان وسيلة إلى الشيء لا يكون أعلى حالا من ذلك المقصود، فلو كان المقصود من رضوان الله أن يتوسل به إلى اللذات التي أعدها الله في الجنة من الأكل والشرب لكان الابتهاج بالرضوان ابتهاجا بحصول الوسيلة، ولكان الابتهاج بتلك اللذات ابتهاجا بالمقصود، وقد ذكرنا أن الابتهاج بالوسيلة لا بد وأن يكون أقل حالا من الابتهاج بالمقصود، فوجب أن يكون رضوان الله أقل حالا وأدون مرتبة من الفوز بالجنات والمساكن الطيبة، لكن الأمر ليس كذلك، لأنه تعالى نص على أن الفوز بالرضوان أعلى وأعظم وأجل وأكبر، وذلك دليل قاطع على أن السعادات الروحانية أكمل

وأشرف من السعادات الجسمانية »

ولكنه قال: « واعلم أن المذهب الصحيح الحق وجوب الإقرار بهما معا كما جمع اللّه بينهما في هذه الآية »

وفي محاضرة سجلت ضمن ما سمي (آشنائي با قرآن) ـ تفسيرا للآيات (٥٣ـ ٥٧) من سورة الدخان ـ قال الشيخ مرتضى المطهري ـ ما ترجمته ـ : « ... أن نعيم الجنة لطائفة من أهل الجنة الذين هم ذوو معرفة نعيم من جهتين: من جهة أنها نعم بنفسها، فإن النعمة نعمة للإنسان كما أنه ـ وبغض النظر عن أي شيء ـ تعد الفاكهة الجيدة والطعام الجيد واللباس الجيد في الدنيا نعما، ما هو أسمى من ذلك عند ذي اللب أنها كرامة وتفضل، أي لو أن هناك من جدا تعظمه وتحبه أهدى لك شيئا، فلك هنا لذتان إحداهما أفضل من الثانية مئة درجة: الأولى أن التفاح الذي أرسله إليك مثلا تفاح، والأخرى أنك تقول: إن هذا تفاح أرسله لي فلان . هذا هو اللذة الروحية . نظر أهل الحقيقة من نعم الجنة التي يطلبونها من اللّه إلى كونها كرامة وفضلا من اللّه...، وهذا ألذّ لهم آلاف المرات من كونها فاكهة. إلى هذا أشار في الأخير بقوله (فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ) ... »

---

(٤٦٩) نقل الشيخ مرتضى المطهري في كتابه (آشنايى با علوم.. ص٢٢٨) عن ابن سينا أنه قال في كتابه (الإشارات): « العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره ...، وتعبده له فقط لأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه، لا لرغبة أو رهبة »

وبعد أن شرح الكلام المذكور قال في ص٢٢٩: « الجملة المعروفة المنقولة عن علي عليه السلام: (إلهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك) تبين العبادة لأجل استحقاق المعبود لها

يركز العرفاء كثيرا على أنه إن كان هدف الإنسان في الحياة أو في خصوص العبادات شيء غير ذات الحق فهو شرك. العرفان ضد هذا الشرك تماما . قد تكلموا في هذا الصدد كلاما لطيفا كثيرا ... »

وفي مجموعة (تعليم وتربيت: ص٣٣٤) بعدما ذكر في الرد على إشكال (سننقله قريبا) أن للعبادة مراتب أعلاها ما لم يكن لنيل الجنة والنجاة من النار، أشار إلى بعض الشواهد على ذلك، فقال: « يقول أمير المؤمنين: إن قوما عبدوا اللّه طمعا فتلك عبادة التجار، وإن قوما

عبدوا اللّه خوفا فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا اللّه حبا فتلك عبادة الأحرار ... »

وفي تفسير الميزان (١/٢٦): « ... كمن يشتغل في عبادته بغيره تعالى بنحو الغايات والأغراض كأن يعبد اللّه وهمُّه في غيره، أو يعبد اللّه طمعا في جنة أو خوفا من نار فإن ذلك كله من الشرك في العبادة الذي ورد عنه النهي، قال تعالى: (فَاعْبُدِ اللّه مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ)، وقال تعالى: (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللّه زُلْفَى إِنَّ اللّه يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

فالعبادة إنما تكون عبادة حقيقة إذا كان على خلوص من العبد وهو الحضور الذي ذكرناه، وقد ظهر أنه إنما يتم إذا لم يشتغل بغيره تعالى في عمله فيكون قد أعطاه الشركة مع اللّه سبحانه في عبادته ولم يتعلق قلبه في عبادته رجاءا أو خوفا، هو الغاية في عبادته كجنة أو نار فيكون عبادته له لا لوجه اللّه، ولم يشتغل بنفسه فيكون منافيا لمقام العبودية التي لا تلائم الإنّية والاستكبار، وكأنّ الإتيان بلفظ المتكلم مع الغير للإيماء إلى هذه النكتة فإن فيه هضما للنفس بإلغاء تعيّنها وشخوصها وحدها المستلزم لنحو من الإنّية والاستقلال بخلاف إدخالها في الجماعة وخلطها بسواد الناس فإن فيه إمحاء التعيّن وإعفاء الأثر فيؤمن به ذلك »

وذكرها كذلك الشيخ عبد اللّه الجوادي في كتابه (تسنيم: ١/٤٥١)، وقال في ص٤٥٣ منه: « فالموحدون بالتوحيد الخالص والطاهرون عن لوث أي شرك هم من المطهرين حقيقة. هؤلاء في عبادتهم للّه لا يتمنون غير نفس المعبود، ويجدون أن الالتذاذ بحلوى الجنة إنما هو لمن لم يذق لذة حب اللّه »

ونقل في ص٢٧١ مؤدى الرواية عن الشيخ البهائي في (فلاح السائل)، ولكني لم أجده في النسخة التي عندي

ويلاحظ تعليقة السيد جلال الآشتياني على الفصوص، ص٣١٣، وما كتبه في ص٣٥ من كتابه [نقدى بر تهافت الفلاسفه]

وجاء في ص٢٥٧ ـ ٢٥٨ من رسالة (...) التي ألحقها السيد أحمد الفهري بكتاب (لقاء اللّه) للـ(ميرزا جواد ملكوتي): « ... مع الأسف نحن المساكين المبتلون بحجاب الطبيعة الظلمانية والمغلولون بسلاسل الآمال والأماني لا نفهم غير المطعومات والمشروبات والمنكوحات وأمثال ذلك ...

... وحملنا جميع تألمات الأولياء على فراق الحور العين وطيور الجنة، وليس ذلك إلا

لأننا لسنا بأنفسنا من رجال الساحة ولانفهم إلا الحظوظ الحيوانية والجسمانية فننكر جميع المعارف وهذا الإنكار أسوأ من جميع البلايا حيث يسد علينا باب المعارف ويمنعنا عن الطلب ويقنعنا بوضعنا الحيواني والبهيمي ... »

وفي الأسفار (١٥٨/٩): « ونحن رأينا كثيرا من المنتسبين إلى العلم والشريعة انقبضوا عن إثبات عالم التجرد ...، وأكثرهم توهموا الآخرة كالدنيا ونعيمها كنعيم الدنيا إلا أنها أوفر وأدوم وأبقى، ولأجل ذلك رغبوا إليها وفعلوا الطاعات لأجلها طالبين قضاء لوطر شهوة البطن والفرج ولأجل ما ذكرناه تكرر في القرآن العظيم ذكر الآيات الدالة على النشأة الآخرة والبعث والقيام ليتنبه الإنسان من نوم الجهالة ورقدة الغفلة فيتوجه نحو الآخرة ويتبرأ من البدن وقيوده من الدنيا وتعلقاتها، متطهرا عن الأدناس والأرجاس، متشوقا إلى لقاء اللّه ومجاورة المقربين والاتصال بالقديسين »

وقال السيد الخوئي في كتابه (البيان في تفسير القرآن ص٤٧٦): « العبادة فعل اختياري، فلا بد لها من باعث نفساني يبعث نحوها، وهو أحد أمور:

١ـ أن يكون الداعي لعبادة اللّه هو طمع الإنسان في إنعامه، وبما يجزيه عليها من الأجر والثواب، حسبما وعده في كتابه الكريم: (ومن يطع اللّه ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار)، (وعد اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم)

٢ـ أن يكون الداعي للعبادة هو الخوف من العقاب على المخالفة: (إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) (إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا)

وقد أشير إلى كلا الأمرين في عدة من الايات الكريمة: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا)، (وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة اللّه قريب من المحسنين)، (يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) »

ولكنه، رغم ذلك، اعتبر عبادة مثالية ما تصوره تفسير الميزان العبادة الخالصة، قال: « ٣ ـ أن يعبد اللّه بما أنه أهل لأن يعبد، فإنه الكامل بالذات والجامع لصفات الجمال والجلال. وهذا القسم من العبادة لا يتحقق إلا ممن اندكت نفسيته فلم ير لذاته إنية إزاء خالقه، ليقصد بها خيرا، أو يحذر لها من عقوبة، وإنما ينظر إلى صانعه وموجده ولا يتوجه إلا إليه، وهذه مرتبة لا يسعنا التصديق ببلوغها لغير المعصومين عليهم السلام الذين أخلصوا للّه أنفسهم فهم المخلصون الذين لا يستطيع الشيطان أن يقترب من أحدهم: (ولأغوينهم

أجمعين . إلا عبـادك منهـم المخلصين)

قال أمير المؤمنين وسيد الموحدين صلوات اللّٰه عليه: (ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك)، وأما سائر العباد فتنحصر عبادتهم في أحد القسمين الأولين، ولا يسعهم تحصيل هذه الغاية. وبذلك يظهر بطلان قول من أبطل العبادة إذا كانت ناشئة عن الطمع أو الخوف، واعتبر في صحة العبادة أن تكون للّٰه بما هو أهل للعبادة

ووجه بطلان هذا القول: أن عامة البشر غير المعصومين لا يتمكنون من ذلك فكيف يمكن تكليفهم به! وهل هو إلا تكليف بما لا يطاق؟!

أضف إلى ذلك أن الايتين الكريمتين المتقدمتين قد دلتا على صحة العبادة إذا صدرت عن خوف أو طمع . فقد مدح اللّٰه سبحانه من يدعوه خوفا أو طمعا وذلك يقتضي محبوبية هذا العمل وأنه مما أمر به اللّٰه تعالى وأنه يكفي في مقام الامتثال وقد ورد عن المعصومين عليهم السلام ما يدل على صحة العبادة إذا كانت ناشئة من خوف أو طمع »

هذا وإنه ـ أي السيد الخوئي (ره) ـ ، خلافا لما هنا، ولما في كتاب الصلاة (١٤/٣)، ولما في مصباح الفقاهة (٤٦٤/١) شكك في صحة نسبة الرواية المذكورة إلى أمير المؤمنين عليه السلام، قال في كتاب الطهارة (٤٧٩/٤): « وقد حكي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (وذكر الرواية)، فقال: وقد رواها المجلسي في مرآة العقول، ولعلها من الأخبار الواردة عن طرق العامة، ومن هنا لم نعثر عليها في رواياتنا ولم يرد من طرقنا إلا في الكتاب المذكور »

---

(٤٧٠) تقدم في تعليق على فصل بعنوان (**أسئلة وأجوبة**) ما له ارتباط بالآية الكريمة ...

---

(٤٧١) قال الغزالي في (إحياء علوم الدين: ٨٦/١٦): « وقال الأوزاعي: (فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ) قال: شغلهم افتضاض الأبكار ... »

وقال الشيخ الطوسي في (التبيان): « وقال ابن مسعود وابن عباس: الشغل كناية عن افتضاض الأبكار »

ويُنظر سائر التفاسير ...

هذا، ولكن في تفسير الميزان: « قوله تعالى: (إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ)

الشغل الشأن الذي يشغل الإنسان ويصرفه عما عداه، والفاكه من الفكاهة وهي التحدث بما يسر أو التمتع والتلذذ ...

والمعنى أن أصحاب الجنة في هذا اليوم في شأن يشغلهم عن كل شيء دونه وهو التنعم في الجنة متمتعون فيها ... »

وقال في (البحث الروائي): « أقول: وقد ورد في بعض الروايات أن الله سبحانه يتجلى لهم فيشتغلون به عن كل من سواه ما دام التجلي . والمراد به ارتفاع كل حجاب بينهم وبين ربهم، دون الرؤية البصرية ... »، ولم يذكر المصدر، ولم أعثر عليه فيما بحثت فيه

---

(٤٧٢) نقل الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه (شطحات الصوفية ص٢٧) عن (طبقات الأولياء) لعبد الرؤوف المناوي أن رابعة العدوية...، وأنها سمعت قارئا يقرأ: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ) فقالت: « مساكين أهل الجنة! في شغل هم وأزواجهم! »

وعلق عليه قائلا: فالتفسير الشائع لقوله تعالى: (فاكهون) هو أنهم يفضون الأبكار اللواتي منحهم الله إياهن في الجنة، لهذا نفرت من هذا المعنى الحسي الشهواني نفورا شديدا فقالت: تلك العبارة القاسية التي أزعجت رجلا مثل ابن عربي ... فعاب عليها هذه المقالة وقال: « إنها ما عرفت، وإنها المسكينة . فإنما شغلهم إنما هو بالله »

يُنظر الفتوحات المكية (٨٨١/١)

ويُنظر ما تقدم آنفا عن السيد الطباطبائي في بحثه الروائي

وفسر صدر المتألهين قول ابن عباس بأن (الشغل: افتضاض الأبكار) بأن قال في تفسيره (١٩٠/٥): « لا يبعد أن يكون المراد منه كشف الحقائق العلمية وشهود المعارف العقلية، كشفا وشهودا لا يمكن البلوغ والوصول إلى نيله إلى تلك الغاية إلا في الدار الآخرة »

ويُنظر الرازي في تفسيره

---

(٤٧٣) قال الله تعالى (فصلت: ٣٠ـ ٣٢): (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)

وقال: (الشورى: ٢٢-٢٣): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ . ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...﴾

---

(٤٧٤) جاء في مجموعة فارسية باسم (تعليم و تربيت) ـ مجموعه آثار... ٧٢٨/٢٢ ـ أنه قال ـ ما ترجمته ـ : « ولكن هنا مسألة أخرى لا بد من ذكرها، وهي أنه قد يقول أحد: إن في الأديان وعلى الأقل في الإسلام ـ الذي هو محل بحثنا الآن ـ على الرغم من كونه دينا فيجب أن ينمي ويقوى فيه الميل إلى العبادة، ليس فيه أي اهتمام بهذا الميل . العبادة التي في الأديان ليس لها شغل بهذا الجانب، بل إما ترتبط بالطمع، الذي يجب محاربته، أو بالخوف، الذي يجب محاربته كذلك . العبادة في الأديان ليست إلا متاجرة، فإنها تجعل الناس يعبدون إما للجنة أو للهروب من جهنم. فما هي الجنة التي يصلي امرؤ لها؟ إنها المكان الذي فيه أنواع الملذات: حور، وقصور، جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، فواكه وأطعمة لذيذة، وخمور بلا سكر وصداع، وأنواع من لذّات لا يتخيلها الإنسان . إن تخلى أحد من ملذات الدنيا لملذات الآخرة فهو ليس فقط لا يعبد اللّه ولا يقوي حس العبادة في نفسه، بل نفعي أكثر من عبدة الدنيا، فإن هؤلاء قد قنعوا بهذه الملذات المادية المحدودة، ولكنه يرى أنه لا أهمية للتمتع بملذات الدنيا ثلاثين أو أربعين سنة من العمر، فإنها زائلة، ويقول: سأضغط على نفسي وأصبر هذه المدة لأنتقل إلى حيث أتنعم دائما بالملذات التي أتركها هنا، فمحركه في هذا الطمع فقط، وكذلك الذي لا (يعصي) فرارا من جهنم ...

فعلى هذا لم يُهتم في الأديان بحس العبادة في الإنسان . وهذا إشكال يورده النصارى خاصة على الإسلام كثيرا بأن القرآن قد اهتم بالنعم المادية جدا

لعلهم يقولون: إن القرآن إنما اهتم بالنعم المادية في الآخرة فحسب، فلم يهتم بحس العبادة ـ الذي يعرفه علم النفس كحس سامٍ ـ، وعلى العكس ركز على (حس) الطمع في الإنسان »

هذا، وردّ ذلك بأن العبادة درجات، إحداها ما كان طمعا أو خوفا ...

---

(٤٧٥) نقل الغزالي في الإحياء (٨٣/٣) عن سهل بن عبد اللّه التستري أنه قال: « اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد »

وفي كتاب [مفاتيح الغيب ص٧] قال صدر المتألهين: « فإن أدركك الموت في الخروج عن بيت نشأتك الأولى وحياتك الدنيا، إلى الفطرة الأخرى، فقد وقع أجرك على اللّه …

قال بعض الحكماء: من أراد الحكمة الإلهية فليستحدث لنفسه فطرة أخرى، …، وفي الحديث: إن اللّه يحب الشجاع ولو على قتل حية . وليست الحية مثل نفسك فاقتلها واخلص عن سمية عقائدها الباطلة، وآرائها الخبيثة … »

تقدم الكلام عن هذا في ملف (تساؤلات) من العرفان

---

(٤٧٦) في تفسير الميزان (١١/١٥٨): « … إنه سبحانه وتعالى يعبد بأحد طرق ثلاثة: الخوف والرجاء والحب…

وطباع الناس مختلفة في إيثار هذه الطرق الثلاثة واختيارها فبعضهم وهو الغالب يغلب على نفسه الخوف، وكلما فكر فيما أوعد اللّه الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعد لهم زاد في نفسه خوفا ولفرائصه ارتعادا ويساق بذلك إلى عبادته تعالى خوفا من عذابه

وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء وكلما فكر فيما وعده اللّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاء وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعا في المغفرة والجنة

وطائفة ثالثة وهم العلماء باللّه لا يعبدون اللّه خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه وإنما يعبدونه لأنه أهل للعبادة وذلك لأنهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العليا فعلموا أنه ربهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكل شيء غيرهم، ويدبر الأمر وحده وليسوا إلا عباد اللّه فحسب، وليس للعبد إلا أن يعبد ربه ويقدم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون اللّه ولا يريدون في شيء من أعمالهم فعلا أو تركا إلا وجهه، ولا يلتفتون فيها إلى عقاب يخوفهم، ولا إلى ثواب يرجيهم، وإن خافوا عذابه ورجوا رحمته، وإلى هذا يشير قوله عليه السلام: (ما عبدتك خوفا من نارك ولا رغبة في جنتك، بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك)

وهؤلاء لما خصوا رغباتهم المختلفة بابتغاء مرضات ربهم ومحضوا أعمالهم في طلب غاية هو ربهم تظهر في قلوبهم المحبة الإلهية وذلك أنهم يعرفون ربهم بما عرفهم به نفسه، وقد

سمى نفسه بأحسن الأسماء ووصف ذاته بكل صفة جميلة ومن خاصة النفس الإنسانية أن تنجذب إلى الجميل فكيف بالجميل على الإطلاق وقال تعالى: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) ... »

وتقدم قبل قليل ما قاله السيد الخوئي في هذا الصدد

---

(٤٧٧) قال ذلك في كتابه (مرآة العقول: ٢٣٦/٨) في شرح رواية أخرى، ولكنه أشار إليه في شرحه لرواية المتن بقوله: « ...، فالأوجه ما ذكرناه سابقا »

---

(٤٧٨) ويُنظر تفسير الميزان (١٥٦/٤ـ ١٦١)، بعنوان (كيف ظهرت الدعوة الإسلامية)

ويُنظر الآية ٤٣ من سورة النساء: في التفسير الأمثل ...

---

(٤٧٩) قال أبو بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن ٥٧/١، ط١ موسوعة الجامع الكبير الآلية): « قالوا (أي الذين يثبتون وجود السجع في القرآن):...، وأما ما جاء في القرآن من السجع فهو كثير لا يصح أن يتفق كله غير مقصود إليه . ويبنون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع، قال أهل اللغة: هو موالاة الكلام على وزن واحد . وقال ابن دريد: سجعت الحمامة: رددت صوتها ...

وهذا الذى يزعمونه غير صحيح، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال: هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز »

إلى أن قال: « والذي يقدرونه أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعا، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع، وليس كذلك ما أتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ وقع فيه تابعا للمعنى، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع

كان مستجلبا لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى »

---

(٤٨٠) الجناس في البديع: تشابه الكلمتين في اللفظ كله كـ(العين) بمعنى الباصرة، و(العين) بمعنى الجارية، أو بعضه

والالتفات هو الانتقال من طريقة إلى طريقة، كالانتقال من الغيبة إلى الخطاب كما في سورة الحمد، أو من مخاطب إلى آخر كما في قول اللّه تعالى (يوسف: ٢٩): ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

---

(٤٨١) قال أبو بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن ٦١/١): « وأما ما ذكروه فى تقديم موسى على هارون عليهما السلام فى موضع وتأخيره عنه فى موضع لأجل السجع وتساوى مقاطع الكلام فليس بصحيح، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة وتؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة وتتبين به البلاغة، وأعيد كثير من القصص فى مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة تنبيها بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا ... »

---

(٤٨٢) تكرر ويتكرر في هذه الأوراق الكلام عن الولاية ودورها باعتبارها الأساس الذي بني عليه الإسلام ...

---

(٤٨٣) قال الألوسي في (روح المعاني): « والمراد بها (أي بأم القرى) مكة المكرمة، وسميت بذلك لأنها قبلة أهل القرى وحجهم، وهم يتجمعون عندها تجمع الأولاد عند الأم المشفقة ويعظمونها أيضا تعظيم الأم، ونقل ذلك عن الزجاج والكسائي، ولأنها أعظم القرى شأنا فغيرها تبع لها كما يتبع الفرع الأصل . وقيل: لأن الأرض دحيت من تحتها، فكأنها خرجت من تحتها كما تخرج الأولاد من تحت الأم، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس، ونقل ذلك عن سدي ...

(وَمَن حَوْلَهَا): من أهل المدر والوبر في المشارق والمغارب لعموم بعثته صلى اللّه عليه وسلم الصادع بها القرآن في غير آية، واللفظ لا يأبى هذا الحمل، فلا متمسك بالآية لطائفة

من اليهود زعموا أنه صلى اللّه عليه وسلم مرسل للعرب خاصة

على أنه يمكن أن يقال: خص هؤلاء بالذكر لأنهم أحق بإنذاره عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) ...، ولذا أنزل كتاب كل رسول بلسان قومه »

ويُنظر ما نقلناه قبل هذا عن كل من الرازي، والتفسير الأمثل، والشيخ محمد الصادقي في (الفرقان)، و(في ظلال القرآن) ...

هذا، وقال السيد الطباطبائي: « فأم القرى هي مكة المشرفة، والمراد أهلها...، والمراد بما حولها سائر بلاد الأرض التي يحيط بها أو التي تجاورها كما قيل »، ولكنه لم يعتمد ذلك فقد قال في الميزان (٤/١٦١): ...

« بل كان من الواجب في الحكمة أن تبدأ الدعوة بالبعض وأن يكون ذلك البعض هو قوم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم يظهر بركوز الدين فيهم على غيرهم وهكذا كان...

وبالجملة أمره اللّه تعالى بعد القيام بأصل الدعوة أن يبدأ بعشيرته فقال: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) فامتثل أمره ...

ثم أمره اللّه سبحانه أن يوسع الدعوة لقومه على ما يظهر من قوله: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَها)، وقوله: (لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) وقوله: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)، وهذه الآية من الشواهد على أن الدعوة غير مقصورة عليهم، وإنما بدأ بهم حكمة ومصلحة

ثم أمره اللّه سبحانه بتوسعة الدعوة للدنيا من جميع المليين وغيرهم كما يدل عليه الآيات السابقة كقوله تعالى: ... »

---

(٤٨٤) في (مجمع البيان): « وإنما سماه أبا للجميع لأن حرمته على المسلمين كحرمة الوالد على الولد ...، وقيل: إن العرب من ولد إسماعيل وأكثر العجم من ولد إسحاق، وهما ابنا إبراهيم، فالغالب عليه أنهم أولاده »

وقال الرازي: « لِمَ قال: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ) ولم يدخل في الخطاب المؤمنون الذين كانوا في زمن الرسول صلى اللّه عليه وسلم ولم يكونوا من ولده؟ والجواب من وجهين: أحدهما لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك. وثانيهما، وهو قول الحسن،

أن اللّه تعالى جعل حرمة إبراهيم عليه السلام كحرمة الوالد على ولده ... »

وفي تفسير الميزان: « وإنما سمي إبراهيم أبا المسلمين لأنه عليه السلام أول من أسلم للّه كما قال: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ...، وقال حاكيا عنه عليه السلام: (فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي) ... فنسب أتباعه إلى نفسه ... »

وكذلك قال صدر المتألهين في تفسيره للآية ٢ من سورة الجمعة

وقال الزمخشري في الكشاف: « فإن قلت: لم يكن إبراهيم أبا للأمة كلها . قلت: هو أبو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فكان أبا لأمته، لأن أمة الرسول في حكم أولاده »

ويُنظر التفسير الأمثل وغيره

---

(٤٨٥) سيأتي كلام عن الشهادة في تعليق على فصل بعنوان **(مسائل وأفكار، أم هداية...)**

---

(٤٨٦) قال اللّه تعالى (آل عمران: ١٠٥): (... وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

وقد تقدمت الإشارة إلى أن (مِنْ) بيانية، لا تبعيضية...، وما أريد الإشارة إليه الآن هو أني لا أرى معنى (الأمر والنهي) و(المعروف والمنكر) ما ذكروه ...

---

(٤٨٧) أرى أن المراد بـ(الميزان) في الآية الكريمة هو (الولاية)، فإنه ـ كما تقدم ويأتي ـ بها وحدها توزن الأمور وتتحدد، وهي التي أنزلها اللّه عز وجل، وقرنت بالكتاب ...

هذا، وقد اختلف في معنى الميزان المذكور، ففي (مجمع البيان): « (وَالْمِيزَانَ) أي وأنزلنا معهم من السماء الميزان ذا الكفتين الذي يوزن به، عن ابن زيد والجبائي ومقاتل بن سليمان. وقيل: معناه أنزلنا صفة الميزان (لِيَقُومَ النَّاسُ) في معاملاتهم (بِالْقِسْطِ) أي بالعدل، والمراد: وأمرنا بالعدل كقوله: (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ)، عن قتادة ومقاتل بن حيان »

وفي تفسير الميزان: « وقوله: (وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) فسروا الميزان بذي الكفتين الذي يوزن به الأثقال وأخذوا قوله: (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) غاية متعلقة بإنزال الميزان، والمعنى:

وأنزلنا الميزان ليقوم الناس بالعدل في معاملاتهم فلا يخسروا باختلال الأوزان والنسب بين الأشياء فقوام حياة الإنسان بالاجتماع، وقوام الاجتماع بالمعاملات الدائرة بينهم والمبادلات في الأمتعة والسلع، وقوام المعاملات في ذوات الأوزان بحفظ النسب بينها وهو شأن الميزان

ولا يبعد ـ والله أعلم ـ أن يراد بالميزان الدين فإن الدين هو الذي يوزن به عقائد أشخاص الإنسان وأعمالهم وهو الذي به قوام حياة الناس السعيدة مجتمعين ومنفردين، وهذا المعنى أكثر ملائمة للسياق المتعرض لحال الناس من حيث خشوعهم وقسوة قلوبهم وجدهم ومساهلتهم في أمر الدين . وقيل: المراد بالميزان هنا العدل . وقيل: العقل »

وفي التفسير الأمثل: « وأمّا (الميزان) فيعني وسيلة للوزن والقياس، ومصداقها الحسّي هو الميزان الذي يقاس به وزن البضائع، ومن الواضح أنّ المقصود هو المصداق المعنوي، أي الشيء الذي نستطيع أن نقيس به كلّ أعمال الإنسان وهي الأحكام والقوانين الإلهيّة أو الأفكار والمفاهيم الرّبّانية، أو جميع هذه الأمور التي هي معيار لقياس الأعمال الصالحة والسيّئة »

وقال الألوسي في (روح المعاني): « وَالْمِيزَانَ: الآلة المعروفة بين الناس كما قال ابن زيد وغيره، وإنزاله إنزال أسبابه، ولو بعيدة، وأمر الناس باتخاذه مع تعليم كيفيته » ...

---

(٤٨٨) لعل إلى هذا يشير ما في الكافي (١٢/٥) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أن النبي صلى اللّه عليه وآله بعث بسرية، فلما رجعوا قال: مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر . قيل: يا رسول اللّه وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس

وفي وسائل الشيعة (١٦٣/١٥)، عن المجالس ومعاني الأخبار للصدوق، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر . قيل: يا رسول اللّه وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس . وقال: إن أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه

---

(٤٨٩) في تفسير قول اللّه تعالى: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) قال السيد الطباطبائي: « ...، فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس، كأنه شيء غليظ انجمد فثبت بعدما كان رقيقا سائلا مخشي الزوال بالسيلان . والعرض ما يطرأ على الشيء ويسرع فيه الزوال، ولذلك

سمي متاع الدنيا لدثوره وزواله عما قليل ... »

وأيضا في تفسير الميزان (١٦١/٤): « ...

بل كان من الواجب في الحكمة أن تبدأ الدعوة بالبعض وأن يكون ذلك البعض هو قوم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم يظهر بركوز الدين فيهم على غيرهم وهكذا كان... »

وأيضا في تفسير الميزان (٢٠٢/٣): « فقوله: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى أي استشعر واستظهر مِنْهُمُ أي من بني إسرائيل المذكور اسمهم في البشارة الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّه؟ وإنما أراد بهذا الاستفهام أن يتميز عدة من رجال قومه فيتمحضوا للحق فتستقر فيهم عدة الدين، وتتمركز فيهم قوته ثم تنتشر من عندهم دعوته، وهذا شأن كل قوة من القوى الطبيعية والاجتماعية وغيرها، أنها إذا شرعت في الفعل ونشر التأثير وبث العمل كان من اللازم أن تتخذ لنفسها كانونا تجتمع فيه وتعتمد عليه وتستمد منه، ولو لا ذلك لم تستقر على عمل، وذهبت سدى لا تجدي نفعا

ونظير ذلك في دعوة الإسلام بيعة العقبة وبيعة الشجرة أراد بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ركوز القدرة وتجمع القوة ليستقيم به أمر الدعوة »

ولا يخفى أن ما أراده السيد (ره) من ركوز الدين وثباته هو (القوة)، لا ما نراه من أن المقصود كان هو (البلاغ المبين) للرسالة الخاتمة بـ(حصول أمة خاصة تتجسد فيها السنة...)

---

(٤٩٠) سيأتي في القسم اللاحق الكلام عن التأسي بالنبي والاهتداء بهداه

---

(٤٩١) سيأتي في القسم اللاحق الحديث عن السنة ومعناها ...

---

(٤٩٢) سيأتي بعض الكلام عن الآية الكريمة تحت عنوان **(مشاكل مقلقة)**

---

(٤٩٣) لتوضيح هذا الأمر المهم يُنظر ما سيأتي بعنوان **(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ...)**

(٤٩٤) قال اللّه تعالى (آل عمران: ١٠٢-١٠٥): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

هذا، وإني أرى أن قوله: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ...) ليس أمرا بما ذكر كواجبات كفائية، بل أمرا بما يجب أن يكونوا عليه بعد أن أنعم عليهم بما يؤهلهم لذلك، فهو يشبه قول اللّه عز وجل: (البقرة: ١٤٣): (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...) . وقد تقدم بعض القول في هذا الصدد

---

(٤٩٥) لم أجد اهتماما من المفسرين بقوله تعالى: (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)، فحتى الرازي الذي من عادته التدقيق في كلمات القرآن الكريم اكتفى فيه بالقول: « أما قوله: (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ففيه قولان: الأول أن المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار، فقوله: (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) أي أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها، والثاني: أن قوله: (لِلنَّاسِ) من تمام قوله: (كُنتُمْ)، والتقدير: كنتم للناس خير أمة ... »

وأما السيد الطباطبائي فقد قال: « المراد بإخراج الأمة للناس (واللّه أعلم) إظهارها لهم، ومزية هذه اللفظة (الإخراج) أن فيها إشعارا بالحدوث والتكون ...، والخطاب للمؤمنين فيكون قرينة على المراد بالناس عامة البشر ...

فمعنى الآية أنكم معاشر المسلمين خير أمة أظهرها اللّه للناس بهدايتها لأنكم على الجماعة تؤمنون باللّه، وتأتون بفريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... »

وقال الألوسي في (روح المعاني): « (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) صفة لأمة أظهرت لأجلهم ومصلحتهم ونفعهم »

---

(٤٩٦) في تفسير الميزان: « ... فيئول المعنى إلى أنكم معاشر أمة الإسلام كنتم في أول ما تكونتم وظهرتم للناس خير أمة ظهرت لكونكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتعتصمون بحبل اللّه متفقين متحدين كنفس واحدة ... »

---

(٤٩٧) خلافا لما كنت أتصور سابقا ... يبدو لي أن إبراهيم عليه السلام كان استثناءا من هذه القاعدة، لذلك وصفه اللّه تعالى بأنه (كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ) ...

في تفسير الميزان: « ...، فقوله: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) قال في المفردات، وقوله: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ) أي قائما مقام جماعة في عبادة اللّه، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة، انتهى . وهو قريب مما نقل عن ابن عباس . وقيل: معناه الإمام المقتدى به، وقيل: إنه كان أمة منحصرة في واحد مدة من الزمان لم يكن على الأرض موحد يوحد اللّه غيره »

ويُنظر الرازي وغيره

---

(٤٩٨) **في مجمع البيان** (٦٧/٣): « ... لأن العاصي يأنس بالعاصي كما يأنس المطيع بالمطيع ويسكن الشكل إلى الشكل ويألف به ... »

وفي مثنوي (دفتر٢ الأبيات: ٨٢- ٨٣):

قسم باطل باطلان را مى كشند　　　باقيان از باقيان هم سر خوشند

ناريان مر ناريان را جاذب اند　　　نوريان مر نوريان را طالب اند

أهل الباطل يسحبون أصحاب الباطل، والباقون مسرورون بالباقين . الناريون يجذبون الناريين، والنوريون يطلبون النوريين

---

(٤٩٩) في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٣٠/١٤): « وشهد حلف الفضول رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وهو صغير، في دار ابن جدعان، وكان سببه أن رجلا من اليمن قدم مكة بمتاع، فاشتراه العاص بن وائل السهمي ومطله بالثمن حتى أتعبه، فقام بالحجر وناشد قريشا ظلامته، فاجتمع بنو هاشم وبنو اسد بن عبد العزى وبنو زهرة، وبنو تميم، في دار ابن جدعان، فتحالفوا، غمسوا أيديهم في ماء زمزم، بعد أن غسلوا به أركان البيت، أن ينصروا كل مظلوم بمكة، ويردوا عليه ظلامته، ويأخذوا على يد الظالم، وينهوا عن كل منكر، ما بل بحر صوفه، فسمى حلف الفضول لفضله

وقد ذكره رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله فقال: (شهدته وما أحب أن لي به حمر النعم، ولا يزيده الإسلام إلا شدة) »

ونقل ابن سعد في (الطبقات: ١/١٢٩) عن الواقدي أنه قال (عن حلف الفضول): وكان أشرف حلف كان قط »

---

(٥٠٠) قال محمد علي فروغي في كتابه (سير حكمت در اروپا: ٣/ ١٧٧، ط كتابفروشي زوار) ـ ما ترجمته ـ: « ومن كلمات (هربرت اسبنسر) أن أسمى هدف الأخيار أن يساهموا في بناء الإنسان وإن ظَلّ اهتمامهم مجهولا وغير محسوس »

و(Spencer, Herbert)، ١٨٢٠ـ ١٩٠٣، فيلسوف انكليزي معروف

---

(٥٠١) في تفسير الميزان: « وأما قوله: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ) فقد قيل: إن (من) للتبعيض بناء على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكذا الدعوة من الواجبات الكفائية

وربما قيل: إن (من) بيانية ...

والذي ينبغي أن يقال: أن البحث في كون من تبعيضية أو بيانية لا يرجع إلى ثمرة محصلة فإن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفائية إذ لا معنى للدعوة والأمر والنهي المذكورات بعد حصول الغرض فلو فرضت الأمة بأجمعهم داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف فالأمر قائم بالبعض على أي حال، والخطاب إن كان للبعض فهو ذاك، وإن كان للكل كان أيضا باعتبار البعض، وبعبارة أخرى المسئول بها الكل والمثاب بها البعض، ولذلك عقبه بقوله: (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فالظاهر أن من تبعيضية، وهو الظاهر من مثل هذا التركيب في لسان المحاورين ولا يصار إلى غيره إلا بدليل »

ولا يخفى ما في حمله (للفلاح) على (الثواب)

---

(٥٠٢) قال الصدوق في كتابه (التوحيد ص٣٥٨): « حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رحمه اللّه، قال: حدثنا محمد بن الحسن الصفار وسعد بن عبد اللّه جميعا قالا:

حدثنا أيوب بن نوح، عن محمد بن عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه تبارك وتعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) قال: « يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق »

ورواه البرقي في كتابه (المحاسن: ٧١/٢)

وفي نهج البلاغة (الخطبة: ١): « ثم نفخ فيه من روحه فمثلت إنسانا ذا أذهان... ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل »

وفي تفسير العياشي (٥٢/٢) ... عن أبي عبد اللّه عليه السلام ـ في قول اللّه عز وجل (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) ـ قال: هو أن يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده، أما إن هو غشي شيئًا بما يشتهيه فإنه لا يأتيه إلا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي، يعرف أن الحق ليس فيه

وفي التفسير الأمثل (٦٣٠/٢): « (المعروف) هو كل ما يعرف وهو مشتق من عرف، و(المنكر) كل ما ينكر وهو مشتق من الإنكار، وبهذا النحو وصفت الأعمال الصالحة بأنها أمور معروفة والأعمال السيئة والقبيحة أمور منكرة، لأن الفطرة الإنسانية الطاهرة تعرف القسم الأول وتنكر القسم الثاني »

---

(٥٠٣) اعتبر السيد الطباطبائي المعروف والمنكر في الآية بمعنى الخير والشر عند المسلمين حسبما كان قد علّمهم اللّه وعملوا به، فبعد أن قال في تفسير الآية: « ...، ولا نشك أن العلم والعمل متعاكسان في التأثير ...، وهذا الذي ذكر هو الذي يدعو المجتمع الصالح الذي عندهم العلم النافع والعمل الصالح أن يتحفظوا على معرفتهم وثقافتهم وأن يردوا المتخلف عن طريق الخير المعروف عندهم إليه، وأن لا يدعو المائل عن طريق الخير المعروف وهو الواقع في مهبط الشر المنكر عندهم أن يقع في مهلكة الشر وينهوه عنه

وهذه هي الدعوة بالتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي التي يذكرها اللّه في هذه الآية بقوله: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) » قال:

« ومن هنا يظهر السر في تعبيره تعالى عن الخير والشر بالمعروف والمنكر، فإن الكلام مبني على ما في الآية السابقة من قوله: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا إلخ)

ومن المعلوم أن المجتمع الذي هذا شأنه يكون المعروف فيه هو الخير، والمنكر فيه هو

الشر، ولولا العبرة بهذه النكتة لكان الوجه في تسمية الخير والشر بالمعروف والمنكر كون الخير والشر معروفا ومنكرا بحسب نظر الدين لا بحسب العمل الخارجي »

---

(٥٠٤) في الكافي (١/١٦٥) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « ...، فإن اللّه إذا أراد بعبد خير طيب روحه فلا يسمع معروفا إلا عرفه، ولا منكرا إلا أنكره، ثم يقذف في قلبه كلمة يجمع بها أمره »

شرحه المولى محمد صالح المازندراني في كتابه (شرح أصول الكافي: ٥/٧٠) بقوله: « ...، وقد يكون بواسطة رجوع النفس الأمارة الضالة إليه تعالى، وقتا ما، إذ ما من نفس إلا ولها رجعة إلى جناب الحق، فربما يدركه اللطف الإلهي حينئذ

(طيب روحه) عن خبائث العقائد الباطلة فيخرجه من الجهل المركب إلى الجهل البسيط »

---

(٥٠٥) في التفسير الأمثل (٢/٦٣٠): « يعتقد جماعة من علماء المسلمين أن وجوب هاتين الفريضتين لم يثبت إلا بالدليل النقلي، وأن العقل لا يحكم بوجوب النهي عن منكر لا يتعدى ضرره إلى غير فاعله

ولكن نظرا إلى العلاقات الاجتماعية، وما للمنكر من الآثار السيئة التي لا تنحصر في نقطة وقوعها، بل تتعداها إلى العلاقات الاجتماعية إذ يمكن سراية شرارته إلى كلّ نواحي المجتمع تتضح الأهمية العقلية لهاتين الوظيفتين

وبعبارة أخرى: ليس هناك في المجتمع ما يكون (ضررا فرديا) ينحصر نطاقه على الفرد خاصة، بل كلّ ضرر فردي يمكن أن ينقلب إلى (ضرر اجتماعي) ولهذا يؤكد العقل والمنطق السليم لأفراد المجتمع بأن لا يألوا جهدا في الإبقاء على سلامة البيئة الاجتماعية وطهارتها من كلّ دنس

وقد أشير إلى هذا في بعض الأحاديث ... »

---

(٥٠٦) وربما تشهد على ما أشير إليه كلمة (وَتُؤْمِنُونَ) في قول اللّه تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) ...

---

(٥٠٧) سيأتي في القسم التالي الكلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمثال لما عنون بـ(**إمامة الأئمة هدى للميول الفطرية**)

---

(٥٠٨) قال اللّه عز وجل (النصر): (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)

---

(٥٠٩) قال اللّه عز وجل (آل عمران: ١٤٤): (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

---

(٥١٠) سيأتي مفصلا في القسم اللاحق

---

(٥١١) في الكافي (١٦٨/١) عن منصور بن حازم أنه قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: إن اللّه أجلّ وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون باللّه، قال: صدقت . قلت: إن من عرف أن له ربًّا فقد ينبغي له أن يعرف أن لذلك الربّ رضا وسخطا وأنه لا يعرف رضاه وسخطه إلا بوحي أو رسول فمن لم يأته الوحي فينبغي له أن يطلب الرسل، **فإذا لقيهم عرف أنهم الحجة وأن لهم الطاعة المفترضة**

وفي كتاب الدر المنثور (٦٥/١): « وأخرج ....، والحاكم وصححه، ... عن الحرث ابن قيس أنه قال لابن مسعود: عند اللّه يحتسب ما سبقتمونا به يا أصحاب محمد من رؤية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم! فقال ابن مسعود: عند اللّه يحتسب إيمانكم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ولم تروه، **إن أمر محمد كان بينا لمن رآه**، والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه) إلى قوله: (المفلحون) »

ولا يخفى أن تعريض الكلمات مني

---

(٥١٢) قال اللّه تعالى (النساء: ٦٩): ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾

في البخاري، بأكثر من سند، منه في (كتاب الأدب / باب علامة الحب في اللّه / الحديث ٦١٦٩) أن رسول اللّه (ص) سئل عن رجل أحب قوما ولم يلحق بهم، فقال: « المرء مع من أحب »

وفي نهج البلاغة (الخطبة ١٢): لما أظفره اللّه بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلانا كان شاهدنا ليرى ما نصرك اللّه به على أعدائك، فقال عليه السلام: «أهوى أخيك معنا؟»، فقال: نعم . قال: «فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان»

---

(٥١٣) مما جربته أني حينما أقبل على شيء فإني لن أعامله بحياد، بل أندمج فيه وأتفاعل مع عناصره وأتعاطف معها إيجابا أو سلبا ...، وأرى أن هذا مما تعرفه وتمارسه جميع النفوس بلا استثناء...، ولولاه لم تنتشر القصص والأمثال، ولم يقص القرآن ما قصه من قصص، ولم يمكن الانتماء ...

وعلى أي حال ففي نهج البلاغة (الكتاب ٣١): « أي بني إني وإن لم أكن عُمِّرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم، بل كأني بما انتهى إليّ من أمورهم قد عُمِّرت مع أولهم إلى آخرهم »

---

(٥١٤) في نهج البلاغة (الخطبة: ٨٩): « أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الأمم واعتزام من الفتن وانتشار من الأمور، وتلظ من الحروب، والدنيا كاسفة النور ظاهرة الغرور، على حين اصفرار من ورقها وإياس من ثمرها واغورار من مائها، قد درست منار الهدى وظهرت أعلام الردى، فهي متجهمة لأهلها عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف ودثارها السيف »

ويُنظر الكافي (١/ ٦٠)

وأيضا في النهج (الخطبة: ٢): « وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور والكتاب المسطور والنور الساطع والضياء اللامع والأمر الصادع إزاحة للشبهات واحتجاجا بالبينات وتحذيرا بالآيات وتخويفا بالمثلات، والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين وتزعزعت سواري اليقين، واختلف النجر، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل

عصي الرحمن ونصر الشيطان، وخذل الإيمان فانهارت دعائمه وتنكرت معالمه ودرست سبله، وعفت شركه، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه وقام لواؤه

في فتن داستهم بأخفافها ووطئتهم بأظلافها وقامت على سنابكها، فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون . في خير دار وشر جيران . نومهم سهود وكحلهم دموع . بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرم »

وأيضا في النهج (الخطبة: ٢٦): « إن اللّه بعث محمدا صلّى اللّه عليه وآله نذيرا للعالمين وأمينا على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دين وفي شر دار، منيخون بين حجارة خشن وحيّات صم . تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم . الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة »

---

(٥١٥) قال اللّه تعالى (النمل: ٩١- ٩٢): (إِنَّمَا أُمِرْتُ ... وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ)

---

(٥١٦) قال اللّه تعالى (يونس: ٣١- ٣٢): (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ . فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

وقال تعالى (غافر: ٦١- ٦٨): (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ . ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) إلخ

---

[٥١٧] قال الشيخ المفيد في كتابه (الإرشاد: ١/١٥٨): « ولما عاد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله من تبوك إلى المدينة قدم عليه عمرو بن معدي كرب فقال له النبي صلى اللّه عليه وآله: أسلم يا عمرو يؤمنك اللّه من الفزع الأكبر، فقال: يا محمد، وما الفزع الأكبر، فإني لا أفزع؟ فقال: يا عمرو، إنه ليس مما تحسب وتظن، إن الناس يصاح بهم صيحة واحدة، فلا يبقى ميت إلا نشر ولاحيّ إلا مات إلا ما شاء اللّه، ثم يصاح بهم صيحة أخرى فينشر من مات ويصفون جميعا، وتنشق السماء وتهد الأرض وتخر الجبال، وتزفر النيران وترمي بمثل الجبال شررا، فلا يبقى ذو روح إلا انخلع قلبه وذكر ذنبه وشغل بنفسه إلا ما شاء اللّه، فاين أنت يا عمرو من هذا؟

قال: ألا إني أسمع أمرا عظيما ... »

---

[٥١٨] تقدمت الإشارة إلى هذا في بداية هذا القسم من المذكرات

---

[٥١٩] في الكافي (١/١٦٦) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « إن اللّه عز وجل إذا أراد بعبد خيرا نكت في قلبه نكتة من نور، وفتح مسامع قلبه، ووكل به ملكا يسدده ... »

وفي نهج البلاغة (القصار: ٥٩): « إن الإيمان يبدو لمظة في القلب كلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة »

---

[٥٢٠] أشير إلى هذا في القسم السابق، وسيشار إليه في القسم اللاحق، وكان قد فصل في

(قصة بشر ١)، ولا أجد مجالا هنا لتوضيحه

---

(٥٢١) قال اللّه تعالى (آل عمران: ١٥٩): (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ...)

وقال (التوبة: ١٢٨): (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

---

(٥٢٢) هذا مما لا يخفى على أحد، وعليه يدل قول اللّه تعالى (آل عمران: ٣١ـ ٣٢): (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)، وقوله تعالى (النساء: ٨٠): (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ...

وما قاله النبي صلى اللّه عليه وآله في خطبته يوم الغدير، على أنه كان إرشادا إلى حقيقة تعرفها النفوس، وبيانا لمصداقها، لا بيانا لحكم تكليفي ...

---

(٥٢٣) لعل مما يشهد على هذا ما نقله في البحار (٣٨٨/١٦) عن العلامة الحلي أنه قال في كتابه (التذكرة): « ... كان يحرم عليه ـ أي على النبي (ص) ـ خائنة الأعين، قال صلى اللّه عليه وآله: (ما كان لنبي أن يكون له خائنة الأعين)، وفسروها بالإيماء إلى مباح من ضرب أو قتل، على خلاف ما يظهر ويشعر به الحال ...، وبالجملة أن يظهر خلاف ما يضمر، وطرد بعض الفقهاء ذلك في مكايدة الحروب، وهو ضعيف ... »

---

(٥٢٤) قد يشير إلى هذا قول اللّه تبارك وتعالى (المؤمنون: ٦٩): (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ)، وقد تقدم الكلام عنه في أوائل هذه المذكرات

---

(٥٢٥) تقدم الكلام عن هذا في القسم السابق من هذه المذكرات، بعنوان (**لا بد من شهيد**) . وتحت عنوان (**لمحة عن الولاية**) ذكرت شواهد على أن الإنسان بحاجة نفسيا إلى من يستند

إليهم ...، وفيما يلي شيء مما ذكر هنالك:

أرى أن اللّه تعالى قد احتج على نبوة النبي صلى اللّه عليه وآله باستجابة المؤمنين له...، ويبدو لي أن إلى هذا يشير قوله تعالى (البقرة: ١٣): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ﴾، وقوله (النصر: ١ـ ٣): ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وما رواه في الكافي (٢/٤١١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « *المؤلّفة قلوبهم قوم وحّدوا اللّه وخلعوا عبادة من دون اللّه ولم تدخل المعرفة قلوبهم أن محمدا رسول اللّه، وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يتألفهم ويعرّفهم لكيما يعرفوا، ويعلّمهم* »، بتوضيح مر سابقا

ولا يخفى أن هذا باب يرفض (الإثباتيون) دخوله، بل ويستهجنونه ...، ويعكس هذا ما يلاحظ من الاضطراب في تفسيرهم لقول اللّه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، فمثلا في تفسير الميزان (١٨/٣٥ـ ٣٦): « الحجة هي القول الذي يقصد به إثبات شيء أو إبطاله، من الحج بمعنى القصد، والدحض البطلان والزوال

والمعنى: ـ على ما قيل ـ والذين يحاجون في اللّه أي يحتجون على نفي ربوبيته أو على إبطال دينه من بعدما استجاب الناس له ودخلوا في دينه لظهور الحجة ووضوح المحجة حجتهم باطلة زائلة عند ربهم وعليهم غضب منه تعالى ولهم عذاب شديد

والظاهر أن المراد بالاستجابة له ما هو حق الاستجابة وهو التلقي بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر إليه الفطرة الإنسانية السليمة، فإن الدين بما فيه من المعارف فطري تصدقه وتستجيب له الفطرة الحية ...

ومحصل الآية: على هذا أن الذين يحاجون فيه تعالى أو في دينه بعد استجابة الفطرة السليمة له، أو بعد استجابة الناس بفطرتهم السليمة له حجتهم باطلة زائلة عند ربهم وعليهم غضب منه ولهم عذاب شديد لا يقادر قدره ...

وقيل: ضمير (له) للرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم، والمستجيب أهل الكتاب، واستجابتهم له اعترافهم بورود أوصافه ونعوته في كتبهم، والمراد أن محاجتهم في اللّه بعد اعترافهم له بما اعترفوا حجتهم باطلة عند ربهم

وقيل: الضمير له صلى اللّه عليه وآله وسلم، والمستجيب هو اللّه تعالى حيث استجاب دعاءه على صناديد قريش فقتلهم يوم بدر، ودعاءه على أهل مكة فابتلاهم بالقحط والسنة، ودعاءه على المستضعفين حتى خلصهم اللّه من يد قريش إلى غير ذلك من معجزاته، والمعنيان بعيدان من السياق »

وفي التفسير الأمثل (١٥/٤٩٦): « وقد ذكر المفسرون تفاسير مختلفة حول المقصود من جملة: مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَه، فقالوا: إن المقصود بها استجابة عامة الناس من ذوي القلوب الطاهرة، والذين ليست لهم نوايا خبيثة، يستسلمون للحق ويخضعون له مستلهمين ذلك من الفطرة الإلهية ومشاهدة الوحي والمعاجز المختلفة للنبي الأكرم صلى اللّه عليه وآله وسلم

وقد يكون المقصود بها استجابة دعاء الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم ... »

فعلى هذا يمكن القول: إن ما كان يحتاجه المؤمن ويحصل به الإيمان بنبوة النبي في بدايتها غير ما يحتاجه ويحصل به الإيمان بها الآن، فمثلا لو كان ما يسمى (المعاجز) ضروريا في بدو النبوة فإنه لم يظل كذلك، لا لعدم توفرها، بل للاستغناء عنها بعدما أكمل اللّه الدين فأمكن معرفة الرسول (ص) والإيمان به (بالرسالة) ـ كما في رواية الكافي (١/٨٥) ـ ...، وأرى أن بهذا تزول الحاجة إلى (إثبات معاجز) للنبي غير القرآن الكريم الآن، الأمر الذي أخذ كثيرا من الجهد ...

ومن هذا الباب أرى أيضا أن ما جعل من أسلم في أواخر عهده (ص) مختلفا عن غيره هو أنه وجد أناسا كانوا قد آمنوا به (ص)، فكان ذلك يؤثر في قلقه وخوفه وحذره فلا يحس بالحاجة إلى خوارق وغيرها...

---

(٥٢٦) اليوم الآخر إنما هو ـ في حقيقته ـ عبارة عن يوم لقاء الناس لربهم، فهو من شؤون ربوبية اللّه سبحانه وتعالى، قال اللّه تعالى (السجدة: ١٠-١١): (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ . قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

---

(٥٢٧) قال اللّه تعالى (الرعد: ٢٧-٢٨): (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ

اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

---

(٥٢٨) قال اللّه تعالى (الزمر: ٨): (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ...)

---

(٥٢٩) قال اللّه عز وجل (غافر: ٦٤-٦٥): (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

---

(٥٣٠) تقدمت الإشارة إلى هذا في القسم السابق، بعنوان **(تضاد الغرائز)**

ويبدو لي أن هذا مما يمكن استفادته من قول اللّه تعالى (الكهف: ٢٨): (وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)، حيث أن الإفراط والتفريط (المتلازمان...) ينتُجان عن اتباع الهوى، واتباع الهوى من آثار الغفلة عن ذكر اللّه تعالى ...، و(أَمْرُه) مطلق يشمل ما كان خيرا ومحبوبا في الأصل كالعدل والإحسان مثلا ...

وللمقارنة أنقل فيما يلي بعض ما قالوه في تفسير الآية الكريمة:

في تفسير الميزان: « وقوله تعالى: (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) قال في المجمع: الفرط: التجاوز للحق والخروج عنه من قولهم: أفرط إفراطا إذا أسرف. انتهى، واتباع الهوى والإفراط من آثار غفلة القلب، ولذلك كان عطف الجملتين على قوله: (أَغْفَلْنَا) بمنزلة عطف التفسير »

وفي تفسير الرازي: « قوله: (وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) يدل على أن شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خاليا عن ذكر الحق ويكون مملوءا من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق

وتحقيق القول أن ذكر اللّه نور وذكر غيره ظلمة، لأن الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة، والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو اللّه، وما سوى اللّه فهو ممكن الوجود لذاته . والإمكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب إذا أشرق فيه ذكر اللّه فقد حصل فيه النور والضوء والإشراق، وإذا توجه القلب إلى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة

بل الظلمات، فلهذا السبب إذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة، فالإعراض عن الحق هو المراد بقوله: (أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) والإقبال على الخلق هو المراد بقوله: (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)

...، فقوله: (وكان أمره فرطا) معناه: أن الأمر الذي يلزمه الحفظ له والاهتمام به وهو أمر دينه يكون مخصوصا بإيقاع التفريط والتقصير فيه، وهذه الحالة صفة من لا ينظر لدينه وإنما عمله لدنياه . فبين تعالى من حال الغافلين عن ذكر الله التابعين لهواهم أنهم مقصرون في مهماتهم معرضون عما وجب عليهم من التدبر في الآيات والتحفظ بمهمات الدنيا والآخرة... »

---

(٥٣١) قال الله عز وجل (الحديد: ١٦): (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)

---

(٥٣٢) قال الله تعالى (الزمر: ٢٣): (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

---

(٥٣٣) قال الله تبارك وتعالى (النحل: ١٠٦ـ ١١٠): (مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

---

(٥٣٤) يُنظر مثلا موقف عثمان بن مظعون مع وليد بن المغيرة في (سيرة ابن هشام) وغيره

---

(٥٣٥) قال اللّه عز وجل (النساء: ٧٧): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

---

(٥٣٦) قال اللّه تعالى (البقرة: ٢١٤): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

في تفسير الميزان (١٥٩/٢): « قوله تعالى: متى نصر اللّه، الظاهر أنه مقول قول الرسول والذين آمنوا معه جميعا، ولا ضير في أن يتفوه الرسول بمثل هذا الكلام استدعاءا وطلبا للنصر الذي وعد به اللّه سبحانه رسله والمؤمنين بهم كما قال تعالى: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون) ...، وقال تعالى: (كتب اللّه لأغلبن أنا ورسلي) ...، وقد قال تعالى أيضا: (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا)...، وهو أشد لحنا من هذه الآية. والظاهر أيضا أن قوله تعالى: ألا إن نصر اللّه قريب مقول له تعالى لا تتمة لقول الرسول والذين آمنوا معه... والآية (كما مرت إليه الإشارة سابقا) تدل على دوام أمر الابتلاء والامتحان وجريانه في هذه الأمة كما جرى في الأمم السابقة . وتدل أيضا على اتحاد الوصف والمثل بتكرر الحوادث الماضية غابرا، وهو الذي يسمى بتكرر التاريخ وعوده »

---

(٥٣٧) قال اللّه عز وجل (المائدة: ٥٤): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

---

(٥٣٨) قال اللّه تبارك وتعالى (النور: ٥٥): ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ)

---

(٥٣٩) قال اللّه تبارك وتعالى (البقرة: ٢٥٩-٢٦٠): (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَـذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

---

(٥٤٠) في تفسير (مجمع البيان: ٢٦٧/٧): « واختلف في الآية، فقيل: إنها واردة في أصحاب النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم . وقيل: هي عامة في أمة محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم: عن ابن عباس، ومجاهد . والمروي عن أهل البيت عليهم السلام أنها في المهدي من آل محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم . وروى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قرأ الآية وقال: هم واللّه شيعتنا أهل البيت . يفعل اللّه ذلك بهم على يدي رجل منا، وهو مهدي هذه الأمة، وهو الذي قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول اللّه ذلك اليوم، حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا) . وروي مثل ذلك عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد اللّه عليه السلام

فعلى هذا يكون المراد ب(الذين آمنوا وعملوا الصالحات): النبي وأهل بيته، صلوات الرحمن عليهم . وتضمنت الآية البشارة لهم بالاستخلاف، والتمكن في البلاد، وارتفاع الخوف عنهم عند قيام المهدي عليه السلام منهم . ويكون المراد بقوله: (كما استخلف الذين من قبلهم) هو أن جعل الصالح للخلاف خليفة مثل آدم وداود وسليمان عليه السلام . ويدل على ذلك قوله: (إني جاعل في الأرض خليفة)، و(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض)، وقوله: (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناه ملكا عظيما) . وعلى هذا إجماع العترة الطاهرة، وإجماعهم حجة، لقول النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه، وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)

وأيضا فإن التمكين في الأرض على الإطلاق، لم يتفق فيما مضى، فهو منتظر لأن اللّه عز اسمه، لا يخلف وعده . (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) »

هذا، وفي تفسير القمي (١/ ٢٥): « وما وعد اللّه تبارك وتعالى الأئمة (ع) من الرجعة والنصرة فقال: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ - يا معشر الأئمة - وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) فهذا مما يكون إذا رجعوا إلى الدنيا وقوله: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)، فهذا كله مما يكون في الرجعة »

---

(٥٤١) قال الشيخ الطوسي في (التبيان: ٧/ ٤٠٢): « في هذه الآية وعد من اللّه تعالى للذين آمنوا من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وآله وعملوا الصالحات بأن يستخلفهم في الأرض، ومعناه: يورثهم أرض المشركين من العرب والعجم (كما استخلف الذين من قبلهم) يعني بني إسرائيل بأرض الشام بعد إهلاك الجبابرة بأن أورثهم ديارهم وجعلهم سكانها ... »

وقال (ص٤٠٣): « واستدل (الجبائي) ومن تابعه على إمامة الخلفاء الأربعة بأن قال: الاستخلاف المذكور في الآية لم يكن إلا لهؤلاء، لأن التمكين المذكور في الآية إنما حصل في أيام أبي بكر وعمر، لأن الفتوح كانت في أيامهم فأبو بكر فتح بلاد العرب وطرفا من بلاد العجم، وعمر فتح مداين كسرى إلى حد خراسان وسجستان وغيرهما، فإذا كان التمكين والاستخلاف ههنا ليس هو إلا لهؤلاء الأئمة الأربعة وأصحابهم علمنا أنهم محقون »

ورد (ره) عليه بقوله: « والكلام على ذلك من وجوه: أحدها أن الاستخلاف - ههنا - ليس هو الإمارة والخلافة . بل المعنى هو إبقاؤهم في أثر من مضى من القرون، وجعلهم عوضا منهم وخلفا، كما قال: (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض)، وقال: (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض)، وقال: (وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) ...

وإذا ثبت ذلك فالاستخلاف والتمكين الذي ذكره اللّه في الآية كانا في أيام النبي صلى اللّه عليه وآله حين قمع اللّه أعداءه وأعلا كلمته ونشر ولايته وأظهر دعوته وأكمل دينه، ونعوذ

باللّه أن نقول: لم يمكن اللّه دينه لنبيه في حياته حتى تلافى ذلك متلاف بعده، وليس ذلك التمكين كثرة الفتوح والغلبة على البلدان لأن ذلك يوجب أن دين اللّه لم يتمكن بعد إلى يومنا هذا لعلمنا ببقاء ممالك للكفر كثيرة لم يفتحها المسلمون ...

فإن قالوا: المفسرون ذكروا ذلك

قلنا: لم يذكر جميع المفسرين ذلك، فإن مجاهدا قال: هم أمة محمد صلى اللّه عليه وآله، وعن ابن عباس وغيره قريب من ذلك . وقال أهل البيت عليهم السلام: إن المراد بذلك المهدي عليه السلام، لأنه يظهر بعد الخوف ويتمكن بعد أن كان مغلوبا، فليس في ذلك إجماع المفسرين ... »

---

(٥٤٢) في التفسير الأمثل (١١/١٥٠): « هناك اختلاف بهذا الصدد بين المفسّرين: يرى البعض من المفسّرين أنّ الوعد بالاستخلاف خاصّ بأصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم الذين استخلفهم اللّه في الأرض في عصر النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم . (ولا يقصد بالأرض جميعها، بل هو مفهوم يطلق على الجزء والكل)

ويرى آخرون أنّه خاصّ بالخلفاء الأربعة الذين خلفوا الرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم

ويرى البعض أنّ مفهومه واسع يشمل جميع المسلمين الذين اتصفوا بهذه الصفات

ويرى آخرون أنه إشارة إلى حكومة المهدي (عج) الذي يخضع له الشرق والغرب في العالم، ويجري حكم الحقّ في عهده في جميع أرجاء العالم، ويزول الاضطراب والخوف والحرب وتتحقق للبشرية عبادة اللّه النقية من كلّ أنواع الشرك

ولا ريب في أنّ هذه الآية تشمل المسلمين الأوائل، كما أنّ حكومة المهدي (عج) مصداق لها، إذ يتفق المسلمون كافة من شيعة وسنة على أن المهدي (عج) يملأ الأرض عدلا وقسطا بعد أن ملئت جورا وظلما

ومع كل هذا لا مانع من تعميمها. وينتج من ذلك تثبيت أسس الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين في كلّ عصر وزمان، وأنّ لهم الغلبة والحكم ذا الأسس الثابتة

أمّا قول البعض: إنّ كلمة (الأرض) مطلقة وغير محددة، وتشمل كلّ الأرض، وبذلك تنحصر بحكومة المهدي (أرواحنا له الفداء)، فهو لا ينسجم مع عبارة كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ، لأن خلافة وحكومة السابقين بالتأكيد لم تشمل الأرض كلها

وإضافة إلى ذلك فإنّ سبب نزول هذه الآية يبيّن لنا ـ على أقلّ تقدير ـ وقوع مثل هذا الحكم في عصر النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم (رغم حدوثه في أواخر حياته صلّى اللّه عليه وآله وسلّم)

ونقولها ثانية: إنّ نتيجة جهود جميع الأنبياء والمرسلين حصول حكم يسوده التوحيد والأمن الكامل والعبادة الخالية من أيّ نوع من الشرك، وذلك حين ظهور المهدي (عج)، وهو من سلالة الأنبياء عليهم السّلام وحفيد النّبي الأكرم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، وهو المقصود في هذا الحديث الذي تناقله جميع المسلمين عن الرّسول صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل اللّه ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي، اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا)

وممّا يجدر ذكره هنا قول العلامة الطبرسي في تفسير هذه الآية: روي عن أهل بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم حول هذه الآية: (إنّها في المهدي من آل محمد)

وذكر تفسير (روح المعاني) وتفاسير عديدة لمؤلفين شيعة عن الإمام السجاد عليه السّلام في تفسير الآية موضع البحث أنه قال: (هم واللّه شيعتنا ـ أهل البيت ـ يفعل اللّه ذلك بهم على يدي رجل منّا، وهو مهدي هذه الأمة يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا، وهو الذي قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فيه لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ...)

وكما قلنا، لا تعني هذه التفاسير حصر معنى هذه الآية، بل بيان مصداقها التام، وممّا يؤسف له عدم انتباه بعض المفسّرين ـ كالآلوسي في روح البيان ـ إلى هذه المسألة، فرفضوا هذه الأحاديث »، انتهى ما أردنا نقله عن التفسير الأمثل

وقال السيد محمد الشيرازي في (تقريب القرآن إلى الأذهان: ٣/٧١٩): « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أيها المسلمون وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بأن صحّت عقيدتهم وعملهم ولعل الإتيان بلفظ (منكم) للتشريف بأن الوعد لهم وإلا فالوعد عام يشمل كل مؤمن عامل بالصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ، أي يجعلهم خلفاء لمن سبقهم، فيكونون سادة وملوكا عقب الكفار الذين ملكوا الأرض وسادوا البلاد (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كما جعل اللّه المؤمنين من الأمم السابقة خلفاء الكفار في سيادة البلاد، كما استخلف بني إسرائيل مكان الملوك الكافرة، وكما استخلف النصارى مكان اليهود، فصاروا سادة، وكذلك المسلمون إذا آمنوا إيمانا

صحيحا وعملوا الصالحات يستخلفهم اللّه سبحانه في مكان الكفار ليكونوا هم ملوك الأرض وسادتها عوض الكفار، وقد أنجز اللّه هذا الوعد ـ كما يدل على ذلك التاريخ الإسلامي ـ بل لقد رأينا أن من بركة أولئك المؤمنين العاملين للصالحات، وصل ملك الأرض إلى من كان في زي الإسلام، وإن كان الإسلام منه بمعزل

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ أي يمكنهم من إقامة دينهم الذي هو الإسلام، أو المراد يمكن دينهم بأن يجعل له مكنة وقوة ليظهر على جميع الأديان، ويغلب عليها، فتذهب الأديان وتضمحل ويأخذ هذا الدين مكانها، وارتضى لهم أي اختاره »

وفي تفسير الميزان (١٥/١٥٣ـ ١٥٥): « ...، وقد اشتد الخلاف بين المفسرين في الآية . فقيل إنها واردة في أصحاب النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وقد أنجز اللّه وعده لهم باستخلافهم في الأرض وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمنا بما أعز الإسلام بعد رحلة النبي في أيام الخلفاء الراشدين، والمراد باستخلافهم استخلاف الخلفاء الأربعة بعد النبي (ص) أو الثلاثة الأول منهم، ونسبة الاستخلاف إلى جميعهم مع اختصاصه ببعضهم وهم الأربعة أو الثلاثة من قبيل نسبة أمر البعض إلى الكل كقولهم: قتل بنو فلان وإنما قتل بعضهم

وقيل هي عامة لأمة محمد (ص)، والمراد باستخلافهم وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمنا إيراثهم الأرض كما أورثها اللّه الأمم الذين كانوا قبلهم، أو استخلاف الخلفاء بعد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، على اختلاف التقرير وتمكين الإسلام وانهزام أعداء الدين، وقد أنجز اللّه وعده بما نصر الإسلام والمسلمين بعد الرحلة ففتحوا الأمصار وسخروا الأقطار

وعلى القولين الآية من ملاحم القرآن حيث أخبر بأمر قبل أوان تحققه ولم يكن مرجوا ذلك يومئذ

وقيل إنها في المهدي الموعود عليه السلام الذي تواترت الأخبار على أنه سيظهر فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا وأن المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام

والذي يعطيه سياق الآية الكريمة على ما تقدم من البحث بالتحرز عن المسامحات التي ربما يرتكبها المفسرون في تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الأمة لا لجميعها ولا لأشخاص خاصة منهم، وهم الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات، فالآية نص في ذلك، ولا قرينة من لفظ أو عقل يدل على كونهم هم الصحابة أو النبي وأئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ولا

على أن المراد بالذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات جميع الأمة، وإنما صرف الوعد إلى طائفة خاصة منهم تشريفا لهم أو لمزيد العناية بهم، فهذا كله تحكم من غير وجه ... »

إلى أن قال (ص١٥٥): « والمتحصل من ذلك كله أن الله سبحانه يعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعا صالحا خالصا من وصمة الكفر والنفاق والفسق يرث الأرض لا يحكم في عقائد أفراده عامة ولا أعمالهم إلا الدين الحق، يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج، أحرارا من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكم المتحكمين

وهذا المجتمع الطيب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقق ولم ينعقد منذ بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا، وإن انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهدي عليه السلام على ما ورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له عليه السلام وحده ... »

إلى أن قال (ص١٥٦): « وأما تطبيق الآية على خلافة الخلفاء الراشدين أو الثلاثة الأول أو خصوص علي عليه السلام فلا سبيل إليه البتة »

---

(٥٤٣) روى الكافي في هذا الصدد حديثين: الأول في ج١ ص١٩٣ عن الحسين بن محمد عن معلى عن الوشاء عن عبد الله بن سنان أنه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله جل جلاله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)، قال: « هم الأئمة »

وأقول: عن النجاشي أن معلى ... مضطرب الحديث، ووثقه السيد الخوئي لوقوعه في سند كتاب (كامل الزيارات) ...

والثاني في ج١ ص٢٥٠ عن ...، عن الحسن بن العباس بن الحريش عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « ولقد قال الله عز وجل في كتابه لولاة الأمر من بعد محمد (ص) خاصة: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ)

وأقول: عن النجاشي أن الحسن بن العباس بن الحريش ضعيف جدا ...

(٥٤٤) في الكافي (٤٣١/٤) بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال ـ لمعاوية بن عمار ـ : « ...، وتقول: لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده ... »

---

(٥٤٥) سيأتي شرحه في القسم التالي إن شاء الله

---

(٥٤٦) يبدو للكاتب أن المقصود بـ(المؤمنين) في الآية الأولى جماعة المؤمنين...، وفي الآية الثانية الأفراد المؤمنون، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك (تُنظر ص٤٤٥)

---

(٥٤٧) في تفسير الميزان (٢٨٩/١٦): « والوعد الذي أشاروا إليه قيل: هو ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم، فلما شاهدوهم تبين أن ذلك هو الذي وعدهم

وقيل: إنهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى في سورة البقرة (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)... فتحققوا أنهم سيصيبهم ما أصاب الأنبياء والمؤمنين بهم من الشدة والمحنة التي تزلزل القلوب وتدهش النفوس، فلما رأوا الأحزاب أيقنوا أنه من الوعد الموعود وأن الله سينصرهم على عدوهم

والحق هو الجمع بين الوجهين نظرا إلى جمعهم بين الله ورسوله في الوعد إذ قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله »

---

(٥٤٨) قال الله عز وجل (النساء: ٧٥): (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا)

---

(٥٤٩) قال الله تعالى (الأنفال: ٣٩): (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ

انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

---

(٥٥٠) في الكافي (٨٠/٨) عن عبد الحميد الواسطي أن أبا جعفر (ع) قال له ـ في حديث عن القائم (ع) ـ : « أنتم يومئذ سنام الأرض وحكامها »

وفي البحار (٣٧٢/٥٢) ـ نقلا عن كتاب الاختصاص ـ عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « يكون شيعتنا في دولة القائم عليه السلام سنام الأرض وحكامها ... »

وفي تفسير مجمع البيان: « أي ليجعلنهم يخلفون من قبلهم، والمعنى ليورثنهم أرض الكافر من العرب والعجم فيجعلهم سكانها وملوكها »

أقول: ولا يخفى ما في تفسيره (الأرض) بأرض الكافر، وما في قوله: « فيجعلهم سكانها » ...

---

(٥٥١) في تفسير الميزان (١٣٢/٢): « وأما أن التعليم والتربية الدينيين الصادرين من مصدر النبوة والوحي يقدران على دفع هذا الاختلاف والفساد فأمر يصدقه البحث والتجربة معا: أما البحث فلأن الدين يدعو إلى حقائق المعارف وفواضل الأخلاق ومحاسن الأفعال فصلاح العالم الإنساني مفروض فيه

وأما التجربة: فالإسلام أثبت ذلك في اليسير من الزمان الذي كان الحاكم فيه على الاجتماع بين المسلمين هو الدين، وأثبت ذلك بتربية أفراد من الإنسان صلحت نفوسهم، وأصلحوا نفوس غيرهم من الناس، على أن جهات الكمال والعروق النابضة في هيكل الاجتماع المدني اليوم التي تضمن حياة الحضارة والرقي مرهونة التقدم الإسلامي وسريانه في العالم الدنيوي على ما يعطيه التجزية والتحليل من غير شك، وسنستوفي البحث عنه إن شاء اللّه في محل آخر أليق به »

ولا يخفى أن ما ذكره (ره) يختلف عما نراه من أن التجربة أساس في بيان الإسلام ليُعرف معرفة تدخل القلوب، ويبدو أن إلى هذا يشير ما رواه الكافي (٤١١/٢) بسنده عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « المؤلفة قلوبهم قوم وحّدوا اللّه وخلعوا عبادة من دون اللّه ولم تدخل المعرفة قلوبهم أن محمّدًا رسول اللّه، وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يتألّفهم ويعرّفهم لكيما

يعرفوا، ويعلّمهم »، بتوضيح مر سابقا

كما وأستظهر ذلك من قول اللّه عز وجل (النمل: ٩٣): (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)، وقوله (آل عمران: ١١٠): (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه)

هذا، وفي تفسير الميزان (١٥/٤٠٥): « وقوله: (سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها) إشارة إلى ما تقدم من قوله: (وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ) وما بعده، وظهور قوله: (آياتِهِ) في العموم دليل على شموله لجميع الآيات التي تضطرهم إلى قبول الحق مما يظهر لهم قبل قيام الساعة وبعده

وقوله: (وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) الخطاب للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو بمنزلة التعليل لما تقدمه أي إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شيء مما تقتضيه الحكمة قبال أعمالكم من الدعوة والهداية والإضلال وإراءة الآيات ثم جزاء المحسنين منكم والمسيئين يوم القيامة

وقرئ (عما يعملون) بياء الغيبة ولعلها أرجح ومفادها تهديد المكذبين وفي قوله: (رَبُّكَ) بإضافة الرب إلى الكاف تطييب لنفس النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وتقوية لجانبه »

وأما الرازي فقال: « (سَيُرِيكُمْ آياتِهِ - القاهرة - فَتَعْرِفُونَها) لكن حين لا ينفعكم الإيمان وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ لأنه من وراء جزاء العاملين، واللّه أعلم »

وفي التفسير الأمثل: « ... (سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها) وهذا التعبير إشارة إلى أنّه مع مرور الزمان وتقدم العلم والمعرفة، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، ويرفع ستار جديد عنها .. وستعرفون نعم اللّه وعظمة قدرته وعمق حكمته يوما بعد يوم .. وإراءة الآيات هذه مستمرّة دائما ولا تنقطع مدى عمر البشر

إلا أنّكم إذا واصلتم طريق الخلاف والانحراف، فلن يترككم اللّه سدى وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون »

وفي تفسير القمي: « الآيات أمير المؤمنين، والأئمة (عليهم السلام)، إذا رجعوا، يعرفهم أعداؤهم إذا رأوهم، والدليل على أن الآيات هم الأئمة قول أمير المؤمنين عليه السلام: واللّه ما للّه آية أكبر مني

فإذا رجعوا إلى الدنيا، يعرفهم أعداؤهم إذا رأوهم في الدنيا »

وفي تفسير التبيان: « (سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) يعني دلالاته التي ليس يمكنكم جحدها . وقال الحسن: معناه: يريكم آياته في الآخرة فتعرفون أنها على ما قال في الدنيا، وقيل: يريكم في الدنيا ما ترون من الآيات في السماء والأرض، فتعرفونها أنها حق، ذكره مجاهد »

هذا، وذكرت أقوال بعض المفسرين للمقارنة والاختيار ...

---

[٥٥٢] قال اللّه تعالى (الكهف: ٥٤): (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)

وقال تعالى (الزمر: ٢٧): (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

وقال تعالى (النور: ٣٤): (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)

وكمثال مما ضربه اللّه في القرآن من أمثال واقعية قوله (التحريم: ١١ـ ١٢): (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)

---

[٥٥٣] تُنظر في الكافي (٥/٣٤٠ـ ٣٤٣)

---

[٥٥٤] في الكافي (٥/٣٤٤) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله زوج مقداد بن الأسود ضباعة ابنة الزبير بن عبد المطلب، وإنما زوجه لتتضع المناكح، وليتأسوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وليعلموا أن أكرمهم عند اللّه أتقاهم »

وفي التهذيب (٧/٣٩٥) بسنده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله زوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب من مقداد بن الأسود، فتكلمت في ذلك بنو هاشم فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: إني إنما أردت أن تتضع المناكح »

هـذا، وقـال ابن حجـر في كتابه (الإصابة...: ٦/١٦٠): « ومن طريق يعقوب بن سليمان عن ثابت البناني قال: كان المقداد وعبد الرحمن بن عوف جالسين فقال له: مالك ألا تتزوج؟ قال: زوجني ابنتك! فغضب عبد الرحمن وأغلظ له، فشكا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: أنا أزوجك، فزوجه بنت عمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب »

ونقله ابن عساكر في كتابه (تاريخ مدينة دمشق: ٦٠/١٧٣) بتفصيل أكثر

---

(٥٥٥) قال اللّه تبارك وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

---

(٥٥٦) تاريخ الطبري (٢/٤٩١، ط دار المعارف بمصر، ١٩٦١)، و...

---

(٥٥٧) المغازي للواقدي، ونقله عنه البحار في ج١٩ ص٣٥٦

---

(٥٥٨) تاريخ الطبري (٢/٢٦٢)

---

(٥٥٩) في الكافي (٢/٧٣) عن الفضل بن يونس، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: أكثر من أن تقول: اللّهم لا تجعلني من المعارين ولا تخرجني من التقصير. قال: قلت:...، فما معنى لا تخرجني من التقصير؟ فقال: كل عمل تريد به اللّه عز وجل فكن فيه مقصرا عند نفسك، فإن الناس كلهم، في أعمالهم فيما بينهم وبين اللّه، مقصرون إلا من عصمه اللّه عز وجل

وأيضـا فـي الكافـي (٢/٧٢) عن جابرٍ أنه قال: قال لي أبو جعفرٍ عليه السلام: يا جابر لا أخرجك اللّه من النّقص و[لا] التّقصير

وفي كتاب (وسائل الشيعة: ١/٣٩) ـ نقلا عن علل الشرائع ـ عن أبي جعفر عليه السلام أنه

كان يقول: نية المؤمن أفضل من عمله، وذلك لأنه ينوي من الخير ما لا يدركه، ونية الكافر شر من عمله، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه

وقد مر كلام عما يرجع إلى هذا تحت عنوان (إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) في القسم السابق، وسيأتي في القسم اللاحق في فصل **(رضى مع انتظار)**

---

(٥٦٠) في الكافي (١٧٣/٢) بسنده عن سعيد بن الحسن، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: أيجيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟ فقلت: ما أعرف ذلك فينا، فقال أبو جعفر عليه السلام: فلا شيء إذن! قلت: فالهلاك إذن؟! فقال: إن القوم لم يعطوا أحلامهم بعد

---

(٥٦١) سيأتي توضيح هذا لاحقا إن شاء اللّه، بعنوان **(أربعة فروق)**

---

(٥٦٢) قال اللّه عز وجل (محمد: ٣٦ـ٣٨): (إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ . هَاأَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم)

---

(٥٦٣) قال اللّه عز وجل (النساء: ٣٧): (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)

وفي تفسير الميزان (٣٥٥/٤): « ...، والمراد بالكافرين: الساترون لنعمة اللّه التي أنعم بها، ومنه الكافر المعروف لستره على الحق بإنكاره »

---

(٥٦٤) قال اللّه تعالى (الحشر: ٩): (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

---

(٥٦٥) في ٢٠١٠/٣/١١ نقلت صحيفة (القبس) الكويتية عن (يو بي آي) ما يلي:

يقول مؤلفا كتاب (القوة المفاجئة لشبكاتنا الاجتماعية وكيف نشكل حياتنا) جيمس فاولر (من جامعة كاليفورنيا) ونيكولاس كريستاكيس (من كلية هارفرد للطب): إن تصرفات مثل الطيبة والكرم والتعاون تنتشر بسهولة تماما كما ينتشر أي تصرف سيّء . فعندما يستفيد أشخاص من الطيبة فهم (يردون) بمساعدة الآخرين مما يخلق حالة من تواتر التعاون الذي يؤثر في العشرات من شبكة اجتماعية

ويوضح فاولر وكريستاكيس أنه عندما يساعد شخص ما الآخرين بالمال في (لعبة جماعية) يتاح من خلالها للناس أن يتعاونوا مع بعضهم، يميل من يتلقون المال إلى تقديم مالهم الخاص إلى أشخاص آخرين في المستقبل، (مما يخلق مما يشبه تأثير الدومينو، بمعنى أن كرم شخص ينتقل بداية إلى ٣ أشخاص ومن ثم إلى ٩ وهكذا دواليك)

---

(٥٦٦) قال اللّه عز وجل (النساء: ١٢٨): (وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّح)

وفي تفسير الميزان (٥/٩٧): « الشح هو البخل، معناه: أن الشح من الغرائز النفسانية التي جبلها اللّه عليها لتحفظ به منافعها وتصونها عن الضيعة، فما لكل نفس من الشح هو حاضر عندها ... »

---

(٥٦٧) كتبت صحيفة (الأنباء) الكويتية في ٢٠١٢/٦/٣٠ ما يلي: وجد بحث جديد أن العطاء يسعد الأطفال أكثر من تلقيهم الهدايا

وذكر موقع (هلث داي نيوز) العلمي الأميركي أن الباحثين في جامعة كولومبيا البريطانية وجدوا أن الأطفال في سن يقل عن السنتين يسعدون أكثر عندما يقدمون الهدايا التي لديهم للآخرين

وأعطى الباحثون بعض الأطفال هدايا وطلبوا منهم بعد بضع دقائق إعطاء إحداها للدمية كما أعطوا هدية إضافية لتقديمها للدمية

وسجلت عبر الفيديو ردود فعل الأطفال ثم قيمت درجة سعادتهم، فتبين أنهم أظهروا سعادة أكبر عندما قدموا هديتهم الخاصة للدمية

وقالت الباحثة المسؤولة عن الدراسة لارا اكنين أن الأشخاص يميلون للاعتقاد أن الأطفال أنانيون بالطبع، لقد أظهرت هذه النتائج أن الأطفال يشعرون في الواقع بسعادة أكبر عند العطاء بدلا من التلقي

وقال العلماء إن هذه النتائج تظهر أن الشعور الجيد بشأن مساعدة الآخرين هو جزء متأصل بعمق في طبيعة البشر

---

(٥٦٨) قال اللّه تبارك وتعالى (إبراهيم: ٢٤ـ٢٧): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

هذا، وقال السيد الطباطبائي (٥١/١٢): « واختلفوا في الآية أولا في المراد من الكلمة الطيبة فقيل: هي شهادة أن لا إله إلا اللّه، وقيل: الإيمان، وقيل: القرآن، وقيل: مطلق التسبيح والتنزيه، وقيل: الثناء على اللّه مطلقا، وقيل: كل كلمة حسنة، وقيل: جميع الطاعات، وقيل: المؤمن

وثانيا في المراد من الشجرة الطيبة فقيل: النخلة وهو قول الأكثرين، وقيل: شجرة جوز الهند، وقيل: كل شجرة تثمر ثمرة طيبة كالتين والعنب والرمان، وقيل: شجرة صفتها ما وصفه اللّه وإن لم تكن موجودة بالفعل

ثم اختلفوا في المراد بالحين فقيل: شهران، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سنة كاملة، وقيل: كل غداة وعشي، وقيل: جميع الأوقات

والاشتغال بأمثال هذه المشاجرات مما يصرف الإنسان عما يهمه من البحث عن معارف كتاب اللّه والحصول على مقاصد الآيات الكريمة وأغراضها

والذي يعطيه التدبر في الآيات أن المراد بالكلمة الطيبة التي شبهت بشجرة طيبة من

صفتها كذا وكذا هو الاعتقاد الحق الثابت فإنه تعالى يقول بعد وهو كالنتيجة المأخوذة من التمثيل: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) الآية والقول هي الكلمة ولا كل كلمة بما هي لفظ بل بما هي معتمدة على اعتقاد وعزم يستقيم عليه الإنسان ولا يزيغ عنه عملا ... »

---

(٥٦٩) تقدم الكلام عن الحق الموجود في النفس في تعليق على كلام عن (الظن) واتّباعه ...

---

(٥٧٠) يُنظر ما تقدمت الإشارة إليه تحت عنوان **(وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا)**

---

(٥٧١) في تفسير الميزان: « وقوله: (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) في موضع الحال، والمراد بإحقاق الحق إظهاره وإثباته بترتيب آثاره عليه، وكلمات اللّه هي ما قضى به من نصرة أنبيائه وإظهار دينه الحق قال تعالى: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ...، وقال تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)...

وقرئ (بكلمته): وهو أوجه وأقرب، والدابر ما يأتي بعد الشيء مما يتعلق به ويتصل إليه، وقطع دابر الشيء كناية عن إفنائه واستئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرعة عليه المرتبطة به

ومعنى الآية: واذكروا ...، وأنتم تودون أن...، والحال أن اللّه يريد خلاف ذلك وهو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم ويظهر ما قضى ظهوره من الحق، ويستأصل الكافرين ويقطع دابرهم

قوله تعالى: (لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) ظاهر السياق أن اللام للغاية، وقوله: (لِيُحِقَّ) الآية متعلق بقوله: (يَعِدُكُمُ اللَّهُ) أي إنما وعدكم اللّه ذلك وهو لا يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق ويبطل الباطل ولو كان المجرمون يكرهونه ولا يريدونه

وبذلك يظهر أن قوله: (لِيُحِقَّ الْحَقَّ) الآية ليس تكرارا لقوله: (وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ

بِكَلِماتِهِ) وإن كان في معناه »

وفي تفسير الرازي: « ليحق الحق بكلماته، وفيه سؤالان: السؤال الأول: أليس أن قوله: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ) ثم قوله بعد ذلك: (لِيُحِقَّ الْحَقَّ) تكرير محض؟

والجواب: ليس هاهنا تكرير لأن المراد بالأول سبب ما وعد به في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء، والمراد بالثاني تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة، لأن الذي وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سببا لعزة الدين وقوته، ولهذا السبب قرنه بقوله: (وَيُبْطِلَ الْباطِلَ) الذي هو الشرك، وذلك في مقابلة الحق الذي هو الدين والإيمان

السؤال الثاني: الحق حق لذاته، والباطل باطل لذاته، وما ثبت للشيء لذاته فإنه يمتنع تحصيله بجعل جاعل وفعل فاعل فما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل؟

والجواب: المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل بإظهار كون ذلك الحق حقا وإظهار كون ذلك الباطل باطلا، وذلك تارة يكون بإظهار الدلائل والبينات، وتارة بتقوية رؤساء الحق وقهر رؤساء الباطل

واعلم أن أصحابنا تمسكوا في مسألة خلق الأفعال بقوله تعالى: (لِيُحِقَّ الْحَقَّ)، قالوا: وجب حمله على أنه يوجد الحق ويكوّنه، والحق ليس إلا الدين والاعتقاد، فدل هذا على أن الاعتقاد الحق لا يحصل إلا بتكوين اللّه تعالى . قالوا: ولا يمكن حمل تحقيق الحق على إظهار آثاره لأن ذلك الظهور حصل بفعل العباد، فامتنع أيضا إضافة ذلك الإظهار إلى اللّه تعالى، ولا يمكن أن يقال المراد من إظهاره وضع الدلائل عليها، لأن هذا المعنى حاصل بالنسبة إلى الكافر وإلى المسلم . وقبل هذه الواقعة، وبعدها فلا يحصل لتخصيص هذه الواقعة بهذا المعنى فائدة أصلا

واعلم أن المعتزلة أيضا تمسكوا بعين هذه الآية على صحة مذهبهم، فقالوا: هذه الآية تدل على أنه لا يريد تحقيق الباطل وإبطال الحق ألبتة، بل إنه تعالى أبدا يريد تحقيق الحق وإبطال الباطل، وذلك يبطل قول من يقول إنه لا باطل ولا كفر إلا واللّه تعالى مريد له

وأجاب أصحابنا بأنه ثبت في أصول الفقه أن المفرد المحلى بالألف واللام ينصرف إلى المعهود السابق، فهذه الآية دلت على أنه تعالى أراد تحقيق الحق وإبطال الباطل في هذه الصورة، فلم قلتم إن الأمر كذلك في جميع الصور؟ بل قد بينا بالدليل أن هذه الآية تدل على صحة قولنا

أما قوله: (وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ) فالدابر الآخر فاعل من دبر إذا أدبر، ومنه دابرة الطائر وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، والمراد أنكم تريدون العير للفوز بالمال، واللّٰه تعالى يريد أن تتوجهوا إلى النفير، لما فيه من إعلاء الدين الحق واستئصال الكافرين »

---

(٥٧٢) يبدو لي من موارد استعمال (الكلمة) في القرآن الكريم أنها لا تعني مجرد (اللفظ)، بل تعني ما يدل على مراد معتمد ثابت، إذ (لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)، فعلى هذا لا تطلق على آية منسوخة إلا مسامحة وتجوزا ...

---

(٥٧٣) قد يدل على هذا ما في الكافي (٣٨/٢) عن محمد بن مسلم عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: سألته عن الإيمان فقال: « شهادة أن لا إله إلا اللّه (وأن محمدا رسول اللّه) والإقرار بما جاء من عند اللّه وما استقر في القلوب من التصديق بذلك »، قال: قلت: الشهادة أليست عملا؟ قال: « بلى »، قلت: العمل من الإيمان؟ قال: « نعم الإيمان لا يكون إلا بعمل، والعمل منه ولا يثبت الإيمان إلا بعمل »

وما في نفس الصفحة عن جميل بن دراج أنه قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن الإيمان، فقال: « شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه »، قال: قلت: أليس هذا عمل؟ قال: « بلى »، قلت: فالعمل من الإيمان؟ قال: « لا يثبت له الإيمان إلا بالعمل والعمل منه »

---

(٥٧٤) قال اللّه تعالى (النحل: ٩٠): (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ...

وفي الكافي (١٤٧/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « العدل أحلى من الشهد وألين من الزبد وأطيب ريحا من المسك »

وأيضا في الكافي (١٤٨/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن، ما أوسع العدل إذا عدل فيه وإن قل »

وأيضا في الكافي (٥٦٨/٣) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « إن الناس يستغنون إذا عدل بينهم، وتنزل السماء رزقها وتخرج الأرض بركتها بإذن اللّه تعالى »

وفي كتاب مستدرك الوسائل (١١/٣١٧، ط نور الحديث الآلي) عن النبي صلى اللّه عليه وآله أنه قال: « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة: قيام ليلها وصيام نهارها »

---

(٥٧٥) قال اللّه عز وجل (الحديد: ٢٥): (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)، وسبق الحديث عن الآية تحت عنوان (**كانت الدعوة عامة**)

---

(٥٧٦) أقصد أن ما قد حققه اللّه من الحق والعدل في عهد النبي (ص)، وفي خلافة علي (ع) كاف للتدين بدين الحق شرط انتظار تحققه مستقبلا، وشرط الكون مع إمام من شؤونه التذكير بهما كما نجد ذلك ـ مثلا ـ في ما رواه الكافي (٣/٥٣٦) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال لبريد ـ في حديث ـ : ...، ولا عمل بكتاب اللّه ولا سنة نبيه في هذا العالم، ولا أقيم في هذا الخلق حد، منذ قبض اللّه أمير المؤمنين صلوات اللّه وسلامه عليه، ولا عمل بشيء من الحق إلى يوم الناس هذا

ثم قال: أما واللّه لا تذهب الأيام والليالي حتى يحيي اللّه الموتى ويميت الأحياء ويرد اللّه الحق إلى أهله ويقيم دينه الذي ارتضاه لنفسه ونبيه، فأبشروا، ثم أبشروا، ثم أبشروا، فواللّه ما الحق إلا في أيديكم

وسيأتي تفصيل هذا وتوضيحه في القسم اللاحق من هذه المذكرات

---

(٥٧٧) قال اللّه تعالى (الجمعة: ٢): (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

---

(٥٧٨) قال اللّه تعالى (الأنعام: ١٢٢): (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

---

(٥٧٩) سبق الكلام عن (الكتاب) في القسم السابق من هذه المذكرات

---

(٥٨٠) قال اللّه عز وجل (يوسف: ١٠٨): (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

---

(٥٨١) مثلا قال اللّه تعالى (الأنعام: ١٦١-١٦٣): (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

---

(٥٨٢) مثلا قال اللّه تعالى (آل عمران: ٣١- ٣٢): (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

وقال (الأعراف:١٥٧): (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

---

(٥٨٣) تقدم الكلام عن هذا في فصل (وجوه الآراء) في القسم السابق من هذه المذكرات

---

(٥٨٤) مرت الإشارة إلى هذا في الجزء السابق في فصل **(جميع الناس مؤتمون)**

---

(٥٨٥) قال اللّه عز وجل (الأنبياء: ٣٤-٣٥): (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

وقال (الزمر: ٣٠): (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)

هـذا، ومـن المعروف، ورواه البخاري (كتاب فضائل الصحابة/باب قول النبي: لو كنت متخذا .../ الح ٣٦٦٧) أن عمر أنكر موت النبي صلى اللّه عليه وآله إلى أن حضر أبو بكر فأعلن موته...

قال التفتازاني في (شرح المقاصد: ٢/٢٩٣): « قدحوا في إمامة عمر بوجوه، منها ...

ومنها: أنه لم يكن عالما بالقرآن حتى شك في موت النبي صلى اللّه عليه وسلم، ولم يسكن إليه حتى تلا عليه أبو بكر قوله: (إنك ميت وإنهم ميتون)، فقال: كأني لم أسمع هذه الآية

فالجواب: أن ذلك كان لتشوش البال واضطراب الحال والذهول عن جليات الأحوال، أو لأنه فهم من قوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)، وقوله: (ليستخلفنهم في الأرض) أنه يبقى إلى تمام هذه الأمور وظهورها غاية الظهور

وفي قوله: (كأني لم أسمع) دلالة على أنه سمعها وعلمها لكن ذهل عنها أو حملها على معنى آخر أي كأني لم أسمعها سماع اطلاع على هذا المعنى بل أنه يموت بعد تمام الأمور »

---

(٥٨٦) قال اللّه تبارك وتعالى (آل عمران: ١٠٠ـ ١٠١): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)، فإن ظاهره أن مما يصون المؤمنين عن أن يكفروا هو وجود النبي فيهم، لا الرجوع إليه (ص)...، فإن ذلك بحاجة إلى قرينة غير موجودة ...

وفي ما يلي بعض ما قيل تفسيرا لقوله: (وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُه): ففي تفسير الميزان (٣/٣٦٥): « وقوله تعالى: (وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ) أي يمكنكم أن تعتصموا بالحق الذي يظهر لكم بالإنصات إلى آيات اللّه والتدبر فيها ثم الرجوع فيما خفي عليكم منها لقلة التدبر، أو الرجوع ابتداء إلى رسوله الذي هو فيكم غير محتجب عنكم ولا بعيد منكم، واستظهار الحق بالرجوع إليه ثم إبطال شبه ألقتها اليهود إليكم والتمسك بآيات اللّه وبرسوله، والاعتصام بهما اعتصام باللّه، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

فالمراد بالكفر في قوله: وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ، الكفر بعد الإيمان، وقوله: وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ،

كناية من إمكان الاعتصام في الاجتناب عن الكفر بآيات الله وبرسوله، وقوله: يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ، بمنزلة الكبرى الكلية لذلك والمراد بالهداية إلى صراط مستقيم الاهتداء إلى إيمان ثابت وهو الصراط الذي لا يختلف ولا يتخلف أمره، ويجمع سالكيه في مستواه ولا يدعهم يخرجون عن الطريق فيضلوا ...

ويتبين من الآية أن الكتاب والسنة كافيان في الدلالة على كل حق يمكن أن يضل فيه »

وفي تفسير الرازي (٨/٣٠٩): « ثم قال تعالى: (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ) وكلمة (كيف) تعجب، والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب، وذلك على الله محال، والمراد منه المنع والتغليظ وذلك لأن تلاوة آيات الله عليهم حالا بعد حال مع كون الرسول فيهم الذي يزيل كل شبهة ويقرر كل حجة، كالمانع من وقوعهم في الكفر، فكان صدور الكفر على الذين كانوا بحضرة الرسول أبعد من هذا الوجه، فقوله: (إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) تنبيه على أن المقصد الأقصى لهؤلاء اليهود والمنافقين أن يردوا المسلمين عن الإسلام ثم أرشد المسلمين إلى أنه يجب أن لا يلتفتوا إلى قولهم، بل الواجب أن يرجعوا عند كل شبهة يسمعونها من هؤلاء اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى يكشف عنها ويزيل وجه الشبهة فيها »

وقال في تفسير قول الله تعالى (الحجرات: ٧): (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّه): « والذي يجوز أن يقال، وكأنه هو الأقوى، : إن الله تعالى لما قال: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) أي فتثبتوا واكشفوا قال بعده: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) أي الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه فيكم مبين مرشد، وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة: هذا الشيخ قاعد لا يريد بيان قعوده، وإنما يريد أمرهم بالمراجعة إليه، وذلك لأن المراد منه أنه لا يطيعكم في كثير من الأمر، وذلك لأن الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لا تطمئن قلوبهم بالرجوع إليه، أما إذا كان لا يذكر إلا من النقل الصحيح، ويقرره بالدليل القوي يراجعه كل أحد، فكذلك هاهنا قال: استرشدوه فإنه يعلم ولا يطيع أحدا فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف ... »

إلى أن قال: « المسألة الأولى: لو قال قائل إذا كان المراد بقوله: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) الرجوع إليه والاعتماد على قوله، فلم لم يقل بصريح اللفظ فتبينوا وراجعوا النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما الفائدة في العدول إلى هذا المجاز؟ نقول: الفائدة زيادة التأكيد وذلك لأن

قول القائل فيما ذكرنا من المثال: (هذا الشيخ قاعد) آكد في وجوب المراجعة إليه من قوله: (راجعوا شيخكم)، وذلك لأن القائل يجعل وجوب المراجعة إليه متفقا عليه، ويجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده، فكأنه يقول: إنكم لا تشكون في أن الكاشف هو الشيخ، وأن الواجب مراجعته فإن كنتم لا تعلمون قعوده فهو قاعد فيجعل حسن المراجعة أظهر من أمر القعود كأنه يقول خفي عليكم قعوده فتركتم مراجعته، ولا يخفى عليكم حسن مراجعته، فيجعل حسن مراجعته أظهر من الأمر الحسي، بخلاف ما لو قال: راجعوه، لأنه حينئذ يكون قائلا بأنكم ما علمتم أن مراجعته هو الطريق، وبين الكلامين بون بعيد، فكذلك قوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) يعني لا يخفى عليكم وجوب مراجعته، فإن كان خفي عليكم كونه فيكم فاعلموا أنه فيكم فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ في بيان كونه فيهم، وهذا من المعاني العزيزة التي توجد في المجازات ولا توجد في الصريح »

ويُنظر أيضا ما فسروا به قول اللّه تعالى (الحديد: ٨): (وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)، وقد نقلنا شيئا منه سابقا

هذا، ولو صح النص التالي فإنه يؤيد ما ذكرناه، على أن يكون (المعلق) بمعنى (المجمد) أو ما يقرب منه ...

روى الدر المنثور (١/٦٥) عن عمر بن الخطاب أنه قال: كنت جالسا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: أنبئوني بأفضل أهل الإيمان إيمانا . قالوا: يا رسول اللّه الملائكة . قال: هم كذلك ويحق لهم، وما يمنعهم وقد أنزلهم اللّه المنزلة التي أنزلهم بها؟ قالوا: يا رسول اللّه الأنبياء الذين أكرمهم اللّه برسالاته والنبوة. قال: هم كذلك، ويحق لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم اللّه المنزلة التي أنزلهم بها؟ قالوا: يا رسول اللّه الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء . قال: هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم وقد أكرمهم اللّه بالشهادة مع الأنبياء؟ بل غيرهم . قالوا: فمن يا رسول اللّه؟ قال: أقوام في أصلاب الرجال يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، ويصدقوني ولم يروني، يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانا

وقد صححه الحاكم، وضعفه الشوكاني في فتح القدير (١/٣٨)، وروي قريب منه عن ابن عباس خاليا من كلمة (الورق المعلق)

وفي تاريخ دمشق (٣٩/٢٤٤): لما نسخ عثمان المصاحف قال له أبو هريرة: أصبت ووفقت، أشهد لقد سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: إن أشد أمتي حبا لي قوم

يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، يعملون بما في الورق المعلق . فقلت: أي ورق؟ حتى رأيت المصاحف . فأعجب ذلك عثمان وأمر لأبي هريرة بعشرة آلاف ...

---

(٥٨٧) يرى الكاتب أن قول اللّه تبارك وتعالى (آل عمران: ١٤٤): (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...) كان موجها إلى الذين كانوا ينظرون إلى النبي صلى اللّه عليه وآله كشخص لا يمكن أن يقوم أحد مقامه، وبما أنهم كانوا يجدون أن الدين قائم به (ص) فكان من الطبيعي انقلابهم على أعقابهم ...

---

(٥٨٨) في تفسير الميزان (٤/٣٧): « فمحصل معنى الآية (١٤٤ من آل عمران) على ما فيها من سياق العتاب والتوبيخ: أن محمدا (ص) ليس إلا رسولا من اللّه مثل سائر الرسل، ليس شأنه إلا تبليغ رسالة ربه لا يملك من الأمر شيئا، وإنما الأمر للّه والدين دينه باق ببقائه، فما معنى اتكاء إيمانكم على حياته حيث يظهر منكم أن لو مات أو قتل تركتم القيام بالدين ورجعتم إلى أعقابكم القهقرى واتخذتم الغواية بعد الهداية؟ »

---

(٥٨٩) سيأتي الكلام عن الآية المباركة تحت عنوان (**عود إلى...**)

---

(٥٩٠) لا يفرق الأمر سواء أكان (نسخ آية) بمعنى إزالتها وتبديلها بآية أخرى، أو بمعنى (تبديل آية مكان آية)، أي تغيير مكانها ...

---

(٥٩١) هذا يناسب (الإنساء) سواء كان بمعنى إذهاب العلم، أم بمعنى التأخير ...

---

(٥٩٢) قال اللّه تبارك وتعالى (النحل: ١٠١-١٠٢): (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

أرى أن الآية الكريمة قابلة لأن تفهم كما أحاول توضيحه فيما يلي:

١ـ بما أنه لا تحضرني الآن عبارة أوضّح بها كلمة (التثبيت) فأفترضها واضحة، فأقول: أجد أن مما ساهم فيه تبديل اللّه العزيز آية مكان آية أن تحرر الذين آمنوا من الأحداث الطارئة الخارجية فأصبحوا مطمئنين أقوياء معتمدين على أنفسهم، قادرين على معرفة ثوابت الدين، أقوياء على المشي أسوياء على صراط مستقيم ...، بدلا من تأثرهم بالظروف والأحداث الخارجة عن ذواتهم فيكونوا كما قال اللّه عز وجل (الحج: ١١): (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

فتبديل الآيات (ونسخها) كان من الفتنة التي أشار إليها القرآن الكريم في أول سورة العنكبوت والتي كانت تعرض الناس للمتغيرات فبتغيرها يسقط فيها ويتوقف عن المشي الذين كانوا قد خروا على آيات اللّه صما وعميانا...، ويقوى بها الذين كانوا قد آمنوا، ويزدادون بصيرة ونورا ...

من مصاديق ذلك أن قدر المؤمنون على اعتماد فطرتهم الدافعة إلى اتباع الرسول (ص) حين تبدلت القبلة بدلا من اعتمادهم القبلة التي كانوا قد تعودوا عليها، والذي يتوقع أنهم قاموا بتبريرها بدرجة أو أخرى لتكون ركنا ثابتا يُرتكَن إليه ...

ومما ترتب على (تثبيت) المؤمنين أن أصبحوا قادرين على عبادة اللّه بـ(البداء) الذي ما بعث اللّه نبيا إلا بأن يقر به، كما في الكافي (١٤٨/١)، كما وأصبحوا قادرين على الإيمان بـ(التقية) والعمل بها ... (يُنظر القسم التالي من هذه المذكرات)

٢ـ إن لم يكن المقصود بـ(المسلمين) في الآية (المؤمنين)، كما أن ذلك هو الظاهر، فيكونوا الذين لم يدخل الإيمان (بعدُ) في قلوبهم، فكانوا يجدون في تبديل اللّه آية مكان آية ونسخها من موقعها تخفيفا عنهم فلا يحبطون، فيمكنهم الهدى، وكذلك بشرى لهم بأن ما يجدونه من الدين شاقا عليهم فقد يبدله اللّه وينسخه، أي أن تبديل اللّه عز وجل آية مكان آية ونسخها يثير في الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم الأمل بأن ما يستصعبونه قد يتبدل، فيكون (التبديل) بشرى لهم

فمثلا في حرب الأحزاب إذ قال اللّه تعالى (الأحزاب: ١١ـ ١٥): (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ـ كجماعة، لا كأفراد ... ـ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا

وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ...)

وعن المؤمنين ـ كأفراد ـ قال ـ عز من قائل ـ (الأحزاب: ٢٢ـ ٢٣): (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا. مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)، فما كان المؤمنون يرحبون به ويحبونه وينتظرونه فازدادوا به إيمانا وتسليما وقوة وثباتا، أقلق غيرهم فتمنوا أن لم يكن قد حدث، ومن المتوقع أنهم كانوا متفاوتين فيما حصل لهم، فمنهم المنافقون الذين جاهروا بنفاقهم، ومنهم من كانوا دون هؤلاء، وهم كذلك درجات فمنهم من كان مؤهلا لأن يؤمن، فلما انفرجت الشدة ـ كما قال اللّه تعالى (الأحزاب: ٢٥): (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) ـ أحس بأمان وإيمان وهدى، كما وجد فيه بشرى ورحمة

ومثال آخر:

من المعروف أن اللّه تعالى حيث علم في (بدر) أن في المسلمين ضعفا، وكان يريد (أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِين) فنصرهم وهم أذلة، فاعتبره كثير من المسلمين أمرا ثابتا دائما لن يتغير واتكلوا عليه، ولكن اللّه عز وجل كان يريد أن يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت بأن تكون كلمتهم (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)، لا كـ(كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ) ...، فلم ينصرهم في (أُحُد) كنصرته لهم ببدر ليقفوا على أقدامهم ويعتمدوا إيمانهم، لا الانتصار الظاهري المتقلب، فلا يوهنهم ويحزنهم شيء، فيتخذ اللّه منهم شهداء، و...، قال اللّه تعالى (آل عمران: ١٣٩ـ ١٤١): (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

معنى (الشهداء)

أرى مناسبا أن أشير إلى معنى كلمة (شُهَدَاءَ) المذكورة في الآية، فأقول: أجد صحيحا ما أفاد السيد الطباطبائي بقوله (الميزان: ٤/٢٩): « وأما الشهداء بمعنى المقتولين في معركة القتال

فلا يعهد استعماله في القرآن وإنما هو من الألفاظ المستحدثة الإسلامية »، لكنه ليس بمعنى (شهداء الأعمال)...، بل هو ـ كما يبدو لي ـ من (الشهود) بمعنى (الحضور) ...

أجل، إني أرى أن الحضور هو المعنى الحقيقي للشهود والشهادة، وهو المسوغ لاستعمال مشتقات هذه الكلمة في موارد قد تبدو مختلفة ظاهرا، وهو الأساس لإطلاق الشهيد على المقتول في سبيل اللّه، فإنه بذلك يصبح حاضرا بشدة في نفوس الساعين في ذلك السبيل، ويمدهم بالقوة على الصمود وتحمل البلاء الذي لا بد منه لسلوكه، وهذا مجرب لا ينبغي أن يخفى على أحد، فهو لكونه أشد حضورا في حياة المؤمنين وأعظم تأثيرا في سعيهم وجهادهم كان المصداق الأجلى للشهيد

ومن زاوية أخرى فبما أنه لا يمكن لإنسان أن لا تكون حياته متأثرة بالناس، فلولا أن يتخذ اللّه له شهداء ليحضروا نفسه ويؤثروا فيه ليصلح فإنه لا بد وأن يتأثر بأناس آخرين ويتخذهم شهداء لنفسه

فعلى هذا أرى أنه قد سها قلم السيد (ره) في قوله: « *وأما قوله: وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ، فالشهداء شهداء الأعمال، وأما الشهداء بمعنى المقتولين في معركة القتال فلا يعهد استعماله في القرآن، وإنما هو من الألفاظ المستحدثة الإسلامية ...، على أن قوله: وَيَتَّخِذَ أيضا لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين في المعركة كثير ملاءمة، فلا يقال: اتخذ اللّه مقتولا في سبيله وشهيدا كما يقال: اتخذ اللّه إبراهيم خليلا، واتخذ اللّه موسى كليما، واتخذ اللّه النبي شهيدا يشهد على أمته يوم القيامة ...* »

الناس في شهودهم نوعان

هذا، وأرى أن لكل إنسان حضورا في حياة الناس بدرجة أو أخرى...، إلا أن حضوره فيها تارة يكون حضور (إمعة) فلا يمنح حضوره الناس شيئا أكثر من تحسيسهم بـ(أنس) مثلا، وذلك كحضور الطفل في حياة أمه حيث لا يعطيها ذلك أزيد من الإحساس براحة غريزية...

وأخرى يكون حضوره في حياة الناس حضور ولاية وتعهد وأمر ونهي وإصلاح ...، ذلك كحضور الأم في حياة طفلها ـ مثلا ـ ...، وهكذا أصبح المؤمنون كما قال اللّه تعالى (البقرة: ١٤٣): (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)، ويبدو لي أن لذلك عُدّي (الشهود) بـ(على) ...

ومهما يكن من أمر فقد ذكرت هذا لتوضيح ما كان يترتب على تبديل اللّه آية مكان آية

ونسخ موقعها السابق

تنبيه:

ينبغي الانتباه إلى أن ما ذكرته كان مبنيا على أن يكون الضمير في (نَزَّلَهُ) راجعا إلى ما بدل به آية ...، كما يبدو لي ذلك، لا إذا كان المقصود به مطلق ما نزله اللّه تعالى

هذا، وفيما يلي بعض ما قيل في صدد الآية الكريمة:

في تفسير الرازي (٢٠/٢٧٠): « ...، أي أن جبريل نزل القرآن من ربك ليثبت الذين آمنوا، أي ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن اللّه حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب، (وَهُدًى وَبُشْرَى) مفعول لهما معطوف على محل ليثبت، والتقدير: تثبيتا لهم وإرشادا وبشارة »

وفي تفسير الميزان (١٢/٣٤٧): « وقوله: (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا) التثبيت تحكيم الثبات وتأكيده بإلقاء الثبات بعد الثبات عليهم كأنهم بأصل إيمانهم باللّه ورسوله واليوم الآخر ثبتوا على الحق وبتجدد الحكم حسب تجدد المصلحة يؤتون ثباتا على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول بالمضي على أعمال لا تطابق مصلحة الوقت فإن من الواضح أن من أمر بسلوك سبيل لمصلحة غاية فأخذ بسلوكه عن إيمان بالآمر الهادي فقطع قطعة منه على حسب ما يأمره به رعاية لمصلحة الغاية بسرعة أو بطء أو في ليل أو نهار ثم تغير نحو المصلحة فلو لم يغير الآمر الهادي نحو السلوك واستمر على أمره السابق لضعف إيمان السالك وانسلب أركانه لكن لو أمر بنحو جديد من السلوك يوافق المصلحة ويضمن السعادة زاد إيمانه ثباتا على ثبات

ففي تنزيل القرآن بالنسخ وتجديد الحكم حسب تجدد المصلحة تثبيت للذين آمنوا وإعطاء لهم ثباتا على ثبات

وقوله: (وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) وهم الذين يسلمون الحكم للّه من غير اعتراض فالآية الناسخة بالنسبة إليهم إراءة طريق وبشارة بالسعادة والجنة

وتفريق الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين والهدى والبشرى بالمسلمين إنما هو لما بين الإيمان والإسلام من الفرق فالإيمان للقلب ونصيبه التثبت في العلم والإذعان والإسلام في ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصيبها الاهتداء إلى واجب العمل، والبشرى بأن الغاية هي الجنة والسعادة »

وفي تفسير الأمثل (٨/٣٢٧) ـ بعد أن نقل الفقرة الأخيرة الآنفة عن تفسير الميزان ـ قال: « وعلى أيّة حال فلأجل تقوية الروح الإيمانية والسير في طريق الهدى والبشرى لا بدّ من برامج قصيرة الأمد ومؤقتة، وبالتدريج يحل البرنامج النهائي الثابت محلها، وهو سبب وجود الناسخ والمنسوخ في الآيات الإلهية »

---

(٥٩٣) يُنظر فصل (**الكتاب**) من القسم السابق

---

(٥٩٤) يُنظر ـ مثلا ـ الكافي (١/٦٢)، ونهج البلاغة (الخطبة ٢١٠)

وفي كتاب البخاري (كتاب العلم/ باب إثم من كذب على النبي/ الحديث: ١٠٦ـ١٠٩): « ... عن منصور قال: سمعت ربعي بن حراش يقول: سمعت عليا يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تكذبوا علي فإنه من كذب عليّ فليلج النار

حدثنا... عن عبد الله بن الزبير قال: قلت لأبي: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان!، قال: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار

حدثنا... قال أنس: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثا كثيرا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من تعمد عليّ كذبا فليتبوأ مقعده من النار

حدثنا ... عن سلمة بن الأكوع قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من يقل علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار »

---

(٥٩٥) في نهج البلاغة (الخطبة ٢١٠): « ...، ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذبا فهو في يديه ويرويه ويعمل به ويقول: أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله ... »

---

(٥٩٦) في نهج البلاغة (الخطبة ٢١٠): « وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان، فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله به ولا ما عنى

رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله ... »

هذا، وفي تفسير المنار في ج٧ ص١٧٢ ... نقل عن ... أمثلة لذلك

---

(٥٩٧) قال اللّه تعالى (الفرقان: ٢٧ـ ٢٩): (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا)

---

(٥٩٨) قال اللّه تعالى (النساء: ١١٥): (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)

---

(٥٩٩) تقدم ما يوضح هذا في فصل **(وجوه الآراء)** في القسم السابق

---

(٦٠٠) سيأتي في القسم اللاحق كلام عن هذا، في فصل **(إمامة بمظهرين)**

---

(٦٠١) قال اللّه عز وجل (آل عمران: ١٤٠ـ ١٤١): (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

---

(٦٠٢) قال اللّه تبارك وتعالى (الصف: ١٠ـ ١٣): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

وفي الكافي (٣٣٤/١) عن عمار الساباطي أنه قال ـ في حديث طويل ـ: قلت لأبي عبد اللّه

عليه السلام:... قلت: جعلت فداك فما ترى إذا أن نكون من أصحاب القائم ويظهر الحق ونحن اليوم في إمامتك وطاعتك أفضل أعمالا من أصحاب دولة الحق والعدل؟ فقال: سبحان اللّه أما تحبون أن يظهر اللّه تبارك وتعالى الحق والعدل في البلاد ...؟!

---

(٦٠٣) في كتاب (الفتن) من البخاري (الحديث ٧٠٤٨) عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: أنا على حوضي أنتظر من يرد علي فيؤخذ بناس من دوني فأقول: أمتي! فيقول: لا تدري مشوا على القهقرى . قال ابن أبي مليكة: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن

و(الحديث ٧٠٤٩) أنه قال النبي صلى اللّه عليه وسلم: أنا فرطكم على الحوض ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني فأقول: أي رب أصحابي! فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك

و(الحديث ٤٦٢٥) عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعد يقول: سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول: ...، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم . قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا فقال: هكذا سمعت سهلا؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه: قال: إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي

و(الحديث ٧٠٦٠) عن أسامة بن زيد رضي اللّه عنهما قال: أشرف النبي صلى اللّه عليه وسلم على أطم من آطام المدينة فقال: هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا، قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر

و(الحديث ٧٠٦٩)... عن هند بنت الحرث الفراسية أن أم سلمة زوج النبي صلى اللّه عليه وسلم قالت: استيقظ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليلة فزعا يقول: سبحان اللّه ماذا أنزل اللّه من الخزائن؟ وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات ـ يريد أزواجه ـ لكي يصلين؟ رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة

وفي صحيح مسلم (١٤٧٥/٣) ـ الحديث ١٨٤٧ ـ (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة) بسنده عن حذيفة ابن اليمان، يقول: كان الناس يسألون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول اللّه إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا اللّه

بهذا الخير فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: نعم، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها

فقلت: يا رسول اللّه صفهم لنا . قال: نعم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: يا رسول اللّه فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك

ورواه البخاري (المناقب/علامات النبوة/الحديث ٣٦٠٦)، و(الفتن/كيف الأمر/ الحديث ٧٠٨٤)

وقال ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة النبوية: ٣٢٥/١، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥ هـ): « ...، فقول أهل السنة خبر صادق وقول حكيم، وقول الرافضة خبر كاذب وقول سفيه، فأهل السنة يقولون: الأمير والإمام والخليفة ذو السلطان الموجود الذي له القدرة على عمل مقصود الولاية، كما أن إمام الصلاة هو الذي يصلي بالناس وهم يأتمون به، ليس إمام الصلاة من يستحق أن يكون إماما وهو لا يصلي بأحد لكن هذا ينبغي أن يكون إماما، والفرق بين الإمام وبين من ينبغي أن يكون هو الإمام لا يخفى إلا على الطغام

ويقولون: إنه يعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان ويطاع في طاعة اللّه دون معصيته، ولا يخرج عليه بالسيف، وأحاديث النبي صلى اللّه عليه وسلم إنما تدل على هذا كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه ليس أحد من الناس يخرج عن السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية، وفي لفظ أنه: من فارق الجماعة شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية، فجعل المحذور هو الخروج عن السلطان ومفارقة الجماعة، وأمر بالصبر على ما يكره من الأمير، لم يخص بذلك سلطانا معينا ولا أميرا معينا ولا جماعة معينة »

وذكر رواية (حذيفة) الآنفة فقال: « وهو صلى اللّه عليه وسلم قد أخبر أنه بعد ذلك يقوم أئمة لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته، وبقيام رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان الإنس، وأمر مع هذا بالسمع والطاعة للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فتبين أن الإمام الذي يطاع هو من كان له سلطان سواء كان عادلا أو ظالما »

هـذا وفـي (الكافـي: ٤٠٣/١) بسنده عن رجل من قريش من أهل مكة أنه قال: قال سفيان الثوري: اذهب بنا إلى جعفر بن محمد قال: فذهبت معه إليه فوجدناه قد ركب دابّته فقال له سفيان: يا أبا عبد اللّه حدِّثنا بحديث خطبة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في مسجد الخيف، قال: دعني حتى أذهب في حاجتي فإني قد ركبت فإذا جئت حدّثتُك فقال: أسألك بقرابتك من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله لمّا حدّثتني

قال: فنزل فقال له سفيان: مُرْ لي بدواة وقرطاس حتى أثبته، فدعا به، ثم قال: اكتب: بِسْمِ اللّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، خطبة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في مسجد الخيف: نضّر اللّه عبدا سمع مقالتي فوعاها وبلّغها من لم تبلغه، يا أيّها النّاس ليبلّغ الشّاهد الغائب، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل للّه والنّصيحة لأئمة المسلمين واللّزوم لجماعتهم، فإنّ دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون إخوة تتكافى دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمّتهم أدناهم

فكتبه سفيان ثمّ عرضه عليه وركب أبو عبد اللّه عليه السلام، وجئت أنا وسفيان، فلمّا كنا في بعض الطريق قال لي: كما أنت حتى أنظر في هذا الحديث، فقلت له: قد واللّه ألزم أبو عبد اللّه رقبتك شيئا لا يذهب من رقبتك أبدا! فقال: وأي شيء ذلك؟ فقلت له: ثَلاَثٌ لاَ يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ: (إخلاصُ الْعملِ للّه) قد عرفناه، (والنصيحة لأئمة المسلمين) من هؤلاء الأئمة الذين تجب علينا نصيحتهم؟ معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم، وكل من لا تجوز شهادته عندنا، ولا تجوز الصلاة خلفهم؟!

وقوله: (واللزوم لجماعتهم) فأي الجماعة؟ مُرْجِئ يقول: من لم يصلّ ولم يصم ولم يغتسل من جنابة وهدم الكعبة ونكح أمّه فهو على إيمان جبرئيل وميكائيل، أو قدري يقول: لا يكون ما شاء اللّه عزّ وجلّ ويكون ما شاء إبليس؟! أو حروري يتبرأ من علي بن أبي طالب وشهد عليه بالكفر؟ أو جهمي يقول: إنما هي معرفة اللّه وحده، ليس الإيمان شيء غيرها؟!

قال: ويحك! وأيّ شيء يقولون؟ فقلت: يقولون: إن علي بن أبي طالب عليه السلام واللّه الإمام الذي يجب نصيحته ولزوم جماعتهم: أهل بيته، قال: فأخذ الكتاب فخرقه، ثم قال: لا تخبر بها أحدا

(٦٠٤) يُنظر في القسم السابق من هذه المذكرات ما عُنون بـ(**قراءة خاصة ..**) و...

---

(٦٠٥) قال اللّه عز وجل (الطور: ٤٨): (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ...)

---

(٦٠٦) قال اللّه تبارك وتعالى (مريم: ٢-٩): (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)

وقال تعالى (الحجر: ٥١-٥٦): (وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ . قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ . قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ)

---

(٦٠٧) تقدم الكلام في القسم السابق عن (**العجلة**) وأنها من طبيعة الإنسان ...

---

(٦٠٨) قال اللّه تعالى (التوبة: ١٠١): (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)

---

(٦٠٩) قال اللّه تعالى (الأحزاب: ١٨-١٩): (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)

---

(٦١٠) قال اللّه عز وجل (الحجرات: ١٤-١٥): (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)

---

(٦١١) في الكافي (٣/٣٥٥) عن سماعة بن مهران أنه قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: من حفظ سهوه فأتمه فليس عليه سجدتا السهو، فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله صلى بالناس الظهر ركعتين ثم سها فسلم، فقال له ذو الشمالين: يا رسول اللّه أنزل في الصلاة شيء؟ فقال: وما ذاك؟ قال: إنما صليت ركعتين، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: أتقولون مثل قوله؟ قالوا: نعم، فقام صلى اللّه عليه وآله فأتم بهم الصلاة وسجد بهم سجدتي السهو...

وفي نفس الكتاب ص٣٥٧ عن الحسن بن صدقة أنه قال: قلت لأبي الحسن الأول عليه السلام: أسلّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في الركعتين الأولتين؟ فقال: نعم، قلت: وحاله حاله؟! قال: إنما أراد اللّه عز وجل أن يفقههم

وأيضا في نفس الصفحة من الكتاب عن سعيد الأعرج أنه قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: صلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ثم سلم في ركعتين، فسأله من خلفه: يا رسول اللّه أحدث في الصلاة شيء؟ قال: وما ذلك؟ قالوا: إنما صليت ركعتين، فقال: أكذلك يا ذا اليدين؟ - وكان يدعى ذا الشمالين - فقال: نعم، فبنى على صلاته، فأتم الصلاة أربعا وقال: إن اللّه هو الذي أنساه رحمة للأمة ...

وروى الصدوق في كتابه (من لا يحضره الفقيه: ٣٥٩/١ - الحديث ١٠٣١ -) عن سعيد الأعرج أنه قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: إن اللّه تبارك وتعالى ...، وأسهاه في صلاته فسلم في ركعتين، ثم وصف ما قاله ذو الشمالين، وإنما فعل ذلك به رحمة لهذه الأمة لئلا يعير الرجل المسلم إذا هو نام عن صلاته أو سها فيها فيقال: قد أصاب ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله

---

(٦١٢) قال السيد المرتضى في كتابه (تنزيه الأنبياء ص١٢١): « ... أن النبي صلى اللّه عليه وآله إنما لا يجوز عليه النسيان فيما يؤديه عن اللّه تعالى، أو في شرعه، أو في أمر يقتضي

التنفير عنه، فأما فيما هو خارج عما ذكرناه فلامانع من النسيان، ألا ترى أنه إذا نسي أو سهى في مأكله أو مشربه على وجه لا يستمر ولا يتصل فنسب إلى أنه مغفل، فإن ذلك غير ممتنع »

---

(٦١٣) قال الصدوق في كتابه (من لا يحضره الفقيه: ٣٥٩/١): « قال مصنف هذا الكتاب رحمه اللّه: إن الغلاة والمفوضة لعنهم اللّه ينكرون سهو النبي صلى اللّه عليه وآله ويقولون: لو جاز أن يسهو عليه السلام في الصلاة لجاز أن يسهو في التبليغ لأن الصلاة عليه فريضة كما أن التبليغ عليه فريضة، وهذا لا يلزمنا، وذلك لأن جميع الأحوال المشتركة يقع على النبي صلى اللّه عليه وآله فيها ما يقع على غيره، وهو متعبد بالصلاة كغيره ممن ليس بنبي، وليس كل من سواه بنبي كهو، فالحالة التي اختص بها هي النبوة والتبليغ من شرائطها، ولا يجوز أن يقع عليه في التبليغ ما يقع عليه في الصلاة، لأنها عبادة مخصوصة والصلاة عبادة مشتركة وبها تثبت له العبودية ...

وليس سهو النبي صلى اللّه عليه وآله كسهونا لأن سهوه من اللّه عز وجل، وإنما أسهاه ليعلم أنه بشر مخلوق فلا يتخذ ربا معبودا دونه، وليعلم الناس بسهوه حكم السهو متى سهوا ...

ويقول الدافعون لسهو النبي صلى اللّه عليه وآله: إنه لم يكن في الصحابة من يقال له ذو اليدين، وإنه لا أصل للرجل ولا للخبر، وكذبوا، لأن الرجل معروف وهو أبو محمد عمير بن عبد عمرو المعروف بذي اليدين ...

وكان شيخنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رحمه اللّه يقول: أول درجة في الغلو نفي السهو عن النبي صلى اللّه عليه وآله، ولو جاز أن ترد الأخبار الواردة في هذا المعنى لجاز أن ترد جميع الأخبار وفي ردها إبطال الدين والشريعة، وأنا أحتسب الأجر في تصنيف كتاب منفرد في إثبات سهو النبي صلى اللّه عليه وآله والرد على منكريه إن شاء اللّه تعالى »

---

(٦١٤) في الكافي (٢٦٦/١) عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول لبعض أصحاب قيس الماصر: إن اللّه عز وجل أدب نبيه فأحسن أدبه فلما أكمل له الأدب قال: (إنك لعلى خلق عظيم)، ثم فوض إليه أمر الدين والأمة ليسوس عباده فقال عز وجل: (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)، وإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله كان مسددا موفقا مؤيدا

بروح القدس، لا يزل ولا يخطئ في شيء مما يسوس به الخلق، فتأدب بآداب اللّه

ثم إن اللّه عز وجل فرض الصلاة ركعتين ركعتين: عشر ركعات، فأضاف رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله إلى الركعتين ركعتين، وإلى المغرب ركعة فصارت عديل الفريضة لا يجوز تركهن إلا في سفر، وأفرد الركعة في المغرب فتركها قائمة في السفر والحضر فأجاز اللّه عز وجل له ذلك فصارت الفريضة سبع عشرة ركعة

ثم سن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله النوافل أربعا وثلاثين ركعة مثلي الفريضة فأجاز اللّه عز وجل له ذلك، والفريضة والنافلة إحدى وخمسون ركعة، منها ركعتان بعد العتمة جالسا تعد بركعة مكان الوتر، وفرض اللّه في السنة صوم شهر رمضان، وسن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله صوم شعبان، وثلاث أيام في كل شهر مثلي الفريضة، فأجاز اللّه عز وجل له ذلك، وحرم اللّه عز وجل الخمر بعينها وحرم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله المسكر من كل شراب فأجاز اللّه له ذلك كله ...

فوافق أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله أمر اللّه عز وجل ونهيه نهي اللّه عز وجل، ووجب على العباد التسليم له كالتسليم للّه تبارك وتعالى

هذا، وبصدد الرواية المذكورة وما شابهها قال الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (كليات في علم الرجال ص٤٢٤): « أقول: إن مضمون الروايات يوجه بوجهين: الأول: إن اللّه سبحانه علم الرسول مصالح الأحكام ومفاسدها، وأوقفه على ملاكاتها ومناطاتها، ولما كانت الأحكام تابعة لمصالح ومفاسد كاملة في متعلقاتها، وكان النبي بتعليم منه سبحانه واقفا على المصالح والمفاسد على اختلاف درجاتها ومراتبها، كان له أن ينص على أحكامه سبحانه من طريق الوقوف على عللها وملاكاتها، ولا يكون الاهتداء إلى أحكامه سبحانه من طريق التعرف على عللها بأقصر من الطرق الأخر التي يقف بها النبي على حلاله وحرامه، وإلى هذا يشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: (عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل)

غير أن اهتداءه صلى اللّه عليه وآله إلى الأحكام وتنصيصه بها من هذا الطريق قليل جدا لا تتجاوز عما ذكرناه إلا بقليل، وبذلك يعلم حال الأئمة المعصومين عليهم السلام في هذا المورد

الثاني: إن عمل الرسول لم يكن في هاتيك الموارد سوى مجرد طلب، وقد أنفذ اللّه طلبه، لا أنه قام بنفسه بتشريع وتقنين، ويشير إلى ذلك بقوله: (فأجاز اللّه عز وجل له ذلك)، ولو

أن النبي كان يمتلك زمام التشريع وكان قد فوض إليه أمر التقنين على نحو ما تفيده كلمة التفويض، لما احتاج إلى إذنه وإجازته المجددة، ولما كان للجملة المذكورة أي معنى

فالحاصل أن ما صدر من النبي لم يكن بصورة التشريع القطعي، بل كان دعاء وطلبا من اللّه سبحانه لما وقف على مصالح في ما دعاه وقد استجاب دعاءه كما يفيده قوله في الحديث (فأجاز اللّه عز وجل له ذلك)

قال العلامة المجلسي: التفويض في أمر الدين يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون اللّه تعالى فوض إلى النبي والأئمة عموما أن يحلوا ما شاؤوا ويحرموا ما شاؤوا من غير وحي وإلهام، أو يغيروا ما أوحي إليهم بآرائهم، وهذا باطل لا يقول به عاقل فإن النبي كان ينتظر الوحي أياما كثيرة لجواب سائل ولا يجيبه من عنده وقد قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى)

وثانيهما: أنه تعالى لما أكمل نبيه بحيث لم يكن يختار من الأمور شيئا إلا ما يوافق الحق والصواب ولا يخطر بباله ما يخالف مشيئته تعالى في كل باب فوض إليه تعيين بعض الأمور كالزيادة في الصلاة وتعيين النوافل في الصلاة والصوم وطعمة الجد وغير ذلك مما مضى وسيأتي، إظهارا لشرفه وكرامته عنده، ولم يكن أصل التعيين إلا بالوحي، ولم يكن الاختيار إلا بالإلهام، ثم كان يؤكد ما اختاره بالوحي، ولا فساد في ذلك عقلا، وقد دلت النصوص المستفيضة عليه مما تقدم في هذا الباب وفي أبواب فضائل نبينا من المجلد السادس ... »

---

(٦١٥) في رسالة (عدم سهو النبي) ـ المطبوع في المجلد العاشر من مصنفات الشيخ المفيد، ط١ المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد ـ قال في ص٢٠ جوابا على سؤال: « وسألت أعزك اللّه بطاعته أن أثبت لك ما عندي فيما حكيته عن الرجل (أي الشيخ الصدوق)... »

إلى أن قال: « الحديث الذي روته الناصبة والمقلدة من الشيعة أن النبي صلى اللّه عليه وآله سها في صلاته ...، من أخبار الآحاد التي لا تثمر علما ولا توجب عملا، ومن عمل على شيء منها فعلى الظن يعتمد في عمله بها دون اليقين، وقد نهى اللّه تعالى عن العمل على الظن في الدين، وحذر من القول فيه بغير علم ويقين، فقال ...

وإذا كان الخبر بأن النبي صلى اللّه عليه وآله سها من أخبار الآحاد التي من عمل عليها كان بالظن عاملا حرم الاعتقاد بصحته ولم يجز القطع به، ووجب العدول عنه إلى ما يقتضيه

اليقين من كماله عليه السلام وعصمته وحراسة اللّه تعالى له من الخطأ في عمله والتوفيق له فيما قال وعمل به من شريعته، وفي هذا القدر كفاية في إبطال مذهب من حكم على النبي عليه السلام بالسهو في صلاته، وبيان غلطه فيما تعلق به من الشبهات في ضلالته »

وبعدما أورد المجلسي الأخبار وبعض الأقوال في مسألة سهو النبي صلى اللّه عليه وآله قال في البحار (١٧/١١٨): « فإذا أحطت خبرا بما تلونا عليك فاعلم أن هذه المسألة في غاية الإشكال لدلالة كثير من الآيات والأخبار على صدور السهو عنهم عليهم السلام نحو قوله تعالى: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما)، و...، وما أسلفنا من الأخبار وغيرها، وإطباق الأصحاب إلا ما شذ منهم على عدم جواز السهو عليهم ... »

وذكر كلام السيد المرتضى ـ الذي تقدم قبل قليل ـ ثم علق عليه قائلا في ص١٢٠: « ويظهر منه عدم انعقاد الإجماع من الشيعة على نفي مطلق السهو عن الأنبياء عليهم السلام ... »

---

(٦١٦) قال الشيخ الطوسي في (التبيان): « (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) هذا خطاب فيه بعض العتاب للنبي صلى اللّه عليه وآله في إذنه من استأذنه في التأخر فأذن له، فأخبر اللّه بأنه كان الأولى أن لا تأذن لهم وتلزمهم الخروج معك ...

وحقيقة العفو الصفح عن الذنب، ومثله الغفران، وهو ترك المؤاخذة على الإجرام . وقد كان يجوز أن يعفو اللّه عن جميع المعاصي كفرًا كان أو غيره، غير أنه أخبر أنه لا يعفو عن عقاب الكفر، لإجماع الأمة على ذلك، وما عداه من الفسق باق على ما كان عليه من الجواز

وإنما قال: (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) على غير لفظ المتكلم لأنه أفخم من الكناية لأن هذا الاسم من أسماء التعظيم كما أن قولك إن رأي الأمير أفخم من قولك إني رأيت

وقال أبو علي الجبائي: في الآية دلالة على أن النبي صلى اللّه عليه وآله كان وقع منه ذنب في هذا الإذن . قال: لأنه لا يجوز أن يقال: لم فعلت ما جعلت لك فعله؟ كما لا يجوز أن يقول: لم فعلت ما أمرتك بفعله

وهذا الذي ذكره غير صحيح، لأن قوله (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ) إنما هي كلمة عتاب له صلى اللّه عليه وآله لم فعل ما كان الأولى به أن لا يفعله لأنه وإن كان له فعله من حيث لم يكن محظورا

فإن الأولى أن لا يفعله كما يقول القائل لغيره إذا رآه يعاتب أخا له: لم عاتبته وكلمته بما يشق عليه؟ وإن كان له معاتبته وكلامه بما يثقل عليه . وكيف يكون ذلك معصية وقد قال اللّه في موضع آخر: (فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ)، وإنما أراد اللّه أنه كان ينبغي أن ينتظر تأكيد الوحي فيه . ومن قال هذا ناسخ لذلك فعليه الدلالة

وقوله: (لِمَ أَذِنْتَ) فالإذن رفع التبعة، عاتب اللّه تعالى نبيه صلى اللّه عليه وآله لم أذن لقوم من المتأخرين عن الخروج معه إلى تبوك وإن كان له إذنهم لكن كان الأولى أن لا يأذن (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ) حتى يظهر لك (الَّذِينَ صَدَقُوا) في قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم، لأنه كان فيهم من اعتل بالمرض والعجز وعدم الحمولة (وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) منهم في هذا القول »

وقال صدر المتألهين في تفسيره (١٢٣/٣): « وأمّا قوله: (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) تلطّف في الخطاب وعتاب على ترك الأفضل وإرشاد إلى تدبير الحرب والاحتياط »

وفي تفسير الميزان أن قوله: (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) ليس عتابا حقيقيا للنبي صلى اللّه عليه وآله...، وكذلك في (تنزيه الأنبياء) للسيد المرتضى، ولكنه قال في الأخير: « وأكثر ما يقتضيه، وغاية ما يمكن أن يدعى فيها أن تكون (أي الآية) دالة على أنه صلى اللّه عليه وآله ترك الأولى والأفضل، وقد بينا أن ترك الأولى ليس بذنب ... »

---

(٦١٧) قد يرشد إلى هذه الحقيقة ما في نهج البلاغة (الحِكم: ٣٢١) من أن أمير المؤمنين عليه السلام « قال لعبد اللّه بن العباس ـ وقد أشار عليه في شيء لم يوافق رأيه ـ : لك أن تشير علي وأرى، فإن عصيتك فأطعني »

---

(٦١٨) من هذا الباب ما نقل عن دريد ابن الصمة أنه قال:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

ونقل الشيخ المفيد في كتاب (الإرشاد: ٢٧٠/١) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال ـ فيما قال ـ للخوارج: وقد نهيتكم عما أتيتم فعصيتموني، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن (وذكر البيت)

وكذلك في تاريخ الطبري (٥٩/٥) عن أبي مخنف

ولكن في نهج البلاغة (الخطبة ٣٥) أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: « ...، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري...، فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة...، فكنت أنا وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد »

وأرى الصحيح هذا، وأن ما في الإرشاد نتج عن سبق قلم الشيخ ـ أو الناسخ ـ إلى البيت المذكور لكونه أكثر شهرة وشيوعا على الألسن من غيره من الأبيات المنقولة عن (دريد) ...

---

(٦١٩) يُنظر ـ مثلا ـ البخاري (كتاب المناقب/باب علامات النبوة/الحديث: ٣٦٢٣) و(كتاب الاستئذان/باب من ناجى.../ الحديث: ٦٢٨٥) ...

---

(٦٢٠) قال السيوطي في (شرح سنن ابن ماجة ج١ ص٢): « ... وهذا مشهور من سيرة ابن عمر رضي اللّه عنه أنه كان شديد الاتباع لآثار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، روى أحمد بسند صحيح عن مجاهد قال: كنت أسافر مع ابن عمر في سفر فمر بمكان فحاد عنه فسئل: لم فعلت؟ قال: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فعل هذا ففعلت، وروى البزار (هو أحمد بن عمر البصري المتوفى سنة ٢٩٢) عن ابن عمر أنه كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ويخبر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يفعل ذلك

وروى البزار بسند حسن عن زيد بن أسلم قال: رأيت ابن عمر محلول الإزار، وقال: رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم محلول الإزار »

وسيأتي هذا في القسم المقبل إن شاء اللّه

---

(٦٢١) لا يبعد أن يكون هذا معنى قوله تعالى (النساء: ١٥٠-١٥١): (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا) بأن يكون كفرهم باللّه لرفضهم طاعة رسله، فإن (مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)...، وبهذا عُدّ أهل الكتاب (غير مؤمنين باللّه) (يُنظر ما فسر به تفسير الميزان الآية ٢٩ من سورة التوبة)، ويبدو لي أن كفر

هؤلاء لم يكن صريحا واضحا فلذلك قال تعالى: (أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا)...

---

(٦٢٢) في سنن الدارمي (١٢٥/١) عن عبد اللّه بن عمرو (بن العاص) أنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ورسول اللّه بشر يتكلم في الغضب والرضا؟! ...

وفي كتاب (مسلم: ٩٥/٧) عن رافع بن خديج قال: قدم نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل يقولون يلقحون النخل فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه، قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا، فتركوه فنفضت، أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له فقال: إنما أنا بشر: إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر

وأيضا في كتاب مسلم (الحديث: ٦٥٦٦) عن عائشة قالت: دخل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلان فكلماه بشيء لا أدري ما هو فأغضباه فلعنهما وسبهما، فلما خرجا قلت: يا رسول اللّه من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان . قال: وما ذاك؟ قالت: قلت: لعنتهما وسببتهما . قال: أوما علمت ما شارطت عليه ربي؟ : قلت: اللهم إنما أنا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرا

وأيضا فيه (الحديث: ٦٥٧٤) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: اللهم إنما محمد بشر: يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه فأيما مؤمن آذيته أو سببته أوجلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة

هذا، وفي كتاب مسلم (الحديث: ٦٥٨٠) عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فتواريت خلف باب، قال: فجاء فحطأني حطأة وقال: اذهب وادع لي معاوية، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لي: اذهب فادع لي معاوية قال: فجئت فقلت: هو يأكل فقال: لا أشبع اللّه بطنه (الحطأة: الضرب بالكف بين الكتفين)

وقال النووي في شرحه: « وقد فهم مسلم رحمه اللّه من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقا للدعاء عليه، فلهذا أدخله في هذا الباب، وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه في الحقيقة يصير دعاء له »

وبعد أن نقل الحديث ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية: ١٢٧/٨) قال: « وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه، أما في دنياه فإنه لما صار إلى الشام أميرا كان يأكل في اليوم سبع مرات يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيرا ويقول: واللّه ما أشبع وإنما أعيا، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك . وأما في الآخرة فقد أتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الذي رواه البخاري وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: اللهم إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة، فركب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية، ولم يورد له غير ذلك »

وقال الذهبي في (سير أعلام النبلاء: ١٢٣/٣): « فسره بعض المحبين: قال: لا أشبع اللّه بطنه حتى لا يكون ممن يجوع يوم القيامة، لأن الخبر عنه أنه قال: أطول الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة

قلت: هذا ما صح، والتأويل ركيك، وأشبه منه قوله عليه السلام: اللهم من سببته أو شتمته من الأمة فاجعلها له رحمة، أو كما قال، وقد كان معاوية معدودا من الأكلة »

---

(٦٢٣) قال اللّه تعالى (الكهف: ٦٥ـ ٦٦): (... فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)

---

(٦٢٤) يُنظر الرازي وغيره

ولقد أحسن السيد الطباطبائي بإرجاع الضمير إلى المسلمين، وإن لم يوفَّق قلمه (ره) في وصفهم بـ(الضعفاء) واعتبار مقالهم (هفوة)، قال: « قوله تعالى: (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ) ـ إلى آخر الآية ـ جملتان أخريان من هفواتهم حكاهما اللّه تعالى عنهم، وأمر نبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يجيبهم عنهما ببيان حقيقة الأمر فيما يصيب الإنسان من حسنة وسيئة

واتصال السياق يقضي بكون الضعفاء المتقدم ذكرهم من المؤمنين هم القائلون ذلك قالوا ذلك بلسان حالهم أو مقالهم، ولا بِدع في ذلك فإن موسى أيضا جبه بمثل هذا المقال كما

حكى الله سبحانه ذلك بقوله: (فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) ...

وقد تمحل في الآيات أكثر المفسرين بجعلها نازلة في خصوص اليهود أو المنافقين أو الجميع من اليهود والمنافقين، وأنت ترى أن السياق يدفعه »

---

(٦٢٥) كقول الله تعالى (المائدة: ٩٩): (مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ)، وقوله (الكهف: ١١٠): (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلايُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)، وقوله تعالى (الأنعام: ٥٠): (قُل لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ)، وقوله (الأحقاف: ٩): (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) إلخ

---

(٦٢٦) قال الله عز وجل (محمد: ٢٤): (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)، وتقدم الكلام عن أن تدبر القرآن توجيهه وتصريفه إلى العاقبة التي يُسّر لها وهي القلب

---

(٦٢٧) قال الله عز وجل (هود: ١٢٣): (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

---

(٦٢٨) قال الله تعالى (الشورى: ٥٢-٥٣): (... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)

---

(٦٢٩) يُنظر القسم السابق، فصل (**الكتاب**)، وسيأتي الكلام عنه في القسم اللاحق

---

(٦٣٠) تقدمت الإشارة إلى هذا في القسم السابق، في فصل (**تفصيل الأفكار وتبويبها**)

---

(٦٣١) قال اللّه عز وجل (الأحزاب: ٦): (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِم ...)

وروى البخاري في كتاب الأيمان والنذور / باب(٣) ـ الحديث ٦٦٣٢ ـ عن عبد اللّه بن هشام قال: « كنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول اللّه لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلاّ من نفسي . فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال له عمر: فإنه الآن واللّه لأنت أحب إليَّ من نفسي . فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: الآن يا عمر »

وستتطرق إلى هذا في القسم اللاحق إن شاء اللّه

---

(٦٣٢) في كتاب (حماسه حسيني ـ الحماسة الحسينية ـ : ٢٩٢/٣) قال الشيخ مرتضى المطهري ـ ما ترجمته ـ : « فكلمة (عارفا بحقه) ... لأن فلسفة الإمامة هي (كون الإمام) أسوة ومثالا . الإمام: إنسان فائق، لا أنه فوق الإنسان، لذلك أمكنه أن يكون أسوة، ولو كان كذلك لم يكن أسوة أبدا، فلهذا كلما أضفينا على الشخصيات والوقائع صبغة الإعجاز والتفوق على الإنسان أخرجناهم عن دائرة الإمامة ... »

وفي كتاب (التأثير...) ـ ترجمة الدكتور سعد جلال (ص١٤٨، ط١، ١٩٨٨، دار الفكر العربي، القاهرة) ـ قال سيالديني: « ...، فنحن أكثر ميلا لاتباع قياد الفرد المماثل لنا وليس ذلك الذي لا يماثلنا »

وقال: « ويقدم لنا البحث العلمي الدليل الدامغ عن أهمية التماثل في تقرير ما إذا كنا سوف نقلد سلوك شخص آخر »

وستأتي الإشارة إلى هذا في القسم اللاحق في فصل **(لا إمامة حاضرة...)**

---

(٦٣٣) قال اللّه عز وجل (آل عمران: ٣١ـ ٣٢): (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

---

(٦٣٤) قال اللّه عز وجل (النساء: ٦٤): (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)

لكلمة (الإذن) المذكورة في الآية يتصور أربعة معاني: **الأول**: الأمر التكليفي، وهو ما فسرها به مفسرون، فمثلا قال الشيخ الطوسي في (التبيان): « وقوله: (بإذن اللّه) معناه بأمر اللّه الذي دل على وجوب طاعتهم، والإذن على وجوه: يكون بمعنى اللطف، كقوله: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ)، ومنها الأمر مثل هذه الآية . ومنها التخلية نحو (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بِإِذْنِ اللَّهِ) »

ويكفي إشكالا على هذا ما أورده الرازي بقوله: « ولا يمكن أن يكون المراد من هذا الإذن الأمر والتكليف، لأنه لا معنى لكونه رسولا إلا أن اللّه أمر بطاعته، فلو كان المراد من الإذن هو هذا لصار تقدير الآية: وما أذنا في طاعة من أرسلناه إلا بإذننا وهو تكرار قبيح »

والمعنى الثاني ما اختاره الرازي، قال: « ...، فوجب حمل الإذن على التوفيق والإعانة. وعلى هذا الوجه فيصير تقدير الآية: وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بتوفيقنا وإعانتنا، وهذا تصريح بأنه سبحانه ما أراد من الكل طاعة الرسول بل لايريد ذلك إلامن الذي وفقه اللّه لذلك وأعانه عليه وهم المؤمنون . وأما المحرومون من التوفيق والإعانة فاللّه تعالى ما أراد ذلك منهم

فثبت أن هذه الآية من أقوى الدلائل على مذهبنا »

والمعنى الثالث المتصور هو أن يكون المراد من (الإذن) إذن خاص في كل مورد يطاع فيه الرسول بأن يبين الرسول أن ما يأمر به إنما هو من عند اللّه وبإذنه

وهذا يعني التفريق بين طاعة اللّه وبين طاعة رسوله ...

والمعنى الرابع: أن يكون المقصود من الإذن (الإذن التكويني)، وهذا ما يترجح في نظر الكاتب، وقد أشير إليه وبيّن في القسم اللاحق من هذه المذكرات تحت عنوان **(لا تُنكر الولاية إلا جدلا)**

---

(٦٣٥) في تفسير قول اللّه عز وجل (هود: ٤٦): (فَلا تَسْأَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) قال السيد الطباطبائي: « ...، وإنما يفتقر النهي في صحة تعلقه بفعل ما أن يكون فعلا اختياريا يمكن أن يبتلي به المكلف، وما نهي عنه الأنبياء عليهم السلام على هذه الصفة وإن كانوا ذوي عصمة إلهية وتسديد غيبي، فإن من العصمة والتسديد أن يراقبهم اللّه سبحانه في أعمالهم وكلما اقتربوا مما من شأنه أن يزل فيه الإنسان نبههم على وجه الصواب ويدعوهم إلى السداد

والتزام طريق العبودية، قال تعالى: (وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلا إِذًا لأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) فأنبأ تعالى أنه هو الذي ثبته ولم يدعه يقترب من الركون إليهم فضلا عن نفس الركون

وقال تعالى: (وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) »

هذا، ولكاتب هذه الأوراق كلام عن (العصمة) سجله في فصل (الإمام الحسن عليه السلام) من ملف (الأئمة عليهم السلام)

---

(٦٣٦) مشهور جدا أن (حسنات الأبرار سيئات المقربين)

---

(٦٣٧) قال اللّه عز وجل (غافر: ٥٥): (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)، وقال السيد الطباطبائي: « أمره بالاستغفار لما يعد إليه ذنبا وإن لم يكن ذنبا بمعنى المخالفة للأمر المولوي لمكان عصمته ... »

وفي الكافي (٥٠٤/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: كان رسول اللّه يستغفر اللّه عز وجل في كل يوم سبعين مرة ويتوب إلى اللّه عز وجل سبعين مرة ...

---

(٦٣٨) قال اللّه تعالى (آل عمران: ١٣٩ـ ١٤١): (وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)

---

(٦٣٩) قال اللّه عز وجل (المؤمنون: ٣٣ـ ٣٤): (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ)

وقال عز من قائل (القمر: ٢٣ـ ٢٤): (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ . فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ

إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)

وسيأتي الكلام عن (بشرية الرسول، و...) في القسم اللاحق من هذه المذكرات

---

(٦٤٠) في تفسير قول اللّه تبارك وتعالى: (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ...) قال السيد الطباطبائي: « ...، وكيف كان فالآية تشهد بسياقها على أن المراد بالحسنة والسيئة ما يمكن أن يسند إلى اللّه سبحانه، وقد أسندوا قسما منه إلى اللّه تعالى وهو الحسنة، وقسما إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو السيئة، فهذه الحسنات والسيئات هي الحوادث التي كانت تستقبلهم بعدما أتاهم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأخذ في ترفيع مباني الدين ونشر دعوته صلى اللّه عليه وآله وسلميته بالجهاد، فهي الفتح والظفر والغنيمة فيما غلبوا فيه من الحروب والمغازي، والقتل والجرح والبلوى في غير ذلك، وإسنادهم السيئات إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في معنى التطير به أو نسبة ضعف الرأي ورداءة التدبير إليه

فأمر تعالى نبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم بأن يجيبهم بقوله (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) فإنها حوادث ونوازل ينظمها ناظم النظام الكوني، وهو اللّه وحده لا شريك له إذ الأشياء إنما تنقاد في وجودها وبقائها وجميع ما يستقبلها من الحوادث له تعالى لا غير . على ما يعطيه تعليم القرآن

ثم استفهم استفهام متعجب من جمود فهمهم وخمود فطنتهم من فقه هذه الحقيقة وفهمها فقال: (فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)

قوله تعالى: (ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)، لما ذكر أنهم لا يكادون يفقهون حديثا ثم أراد بيان حقيقة الأمر صرف الخطاب عنهم لسقوط فهمهم، ووجه وجه الكلام إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وبين حقيقة ما يصيبه من حسنة أو سيئة لذاك الشأن، وليس للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في نفسه خصوصية في هذه الحقيقة التي هي من الأحكام الوجودية الدائرة بين جميع الموجودات، ولا أقل بين جميع الأفراد من الإنسان من مؤمن أو كافر أو صالح أو طالح ونبي أو من دونه

فالحسنات وهي الأمور التي يستحسنها الإنسان بالطبع كالعافية والنعمة والأمن والرفاهية كل ذلك من اللّه سبحانه، والسيئات وهي الأمور التي تسوء الإنسان كالمرض والذلة والمسكنة والفتنة كل ذلك يعود إلى الإنسان لا إليه سبحانه فالآية قريبة مضمونا من قوله تعالى: (ذلِكَ

بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ولا ينافي ذلك رجوع جميع الحسنات والسيئات بنظر كلي آخر إليه تعالى كما سيجيء بيانه

قوله تعالى: (وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولا)، أي لا سمة لك من عندنا إلا أنك رسول وظيفتك البلاغ، وشأنك الرسالة لا شأن لك سواها وليس لك من الأمر شيء حتى تؤثر في ميمنة أو مشأمة، أو تجر إلى الناس السيئات، وتدفع عنهم الحسنات، وفيه رد تعريضي لقول أولئك المتطيرين في السيئات (هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ) تشؤما به صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم أيد ذلك بقوله: (وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) . قوله تعالى: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ)، استئناف فيه تأكيد وتثبيت لقوله في الآية السابقة (وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولا)، وبمنزلة التعليل لحكمه أي ما أنت إلا رسولا منا من يطعك بما أنت رسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا

ومن هنا يظهر أن قوله: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ) من قبيل وضع الصفة موضع الموصوف للإشعار بعلة الحكم نظير ما تقدم في قوله: (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا)، وعلى هذا فالسياق جار على استقامته من غير التفات من الخطاب في قوله: (وَأَرْسَلْناكَ)، إلى الغيبة في قوله (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ)، ثم إلى الخطاب في قوله (فَما أَرْسَلْناكَ) »

---

(٦٤١) في نهج البلاغة (الخطبة: ٨٨): « فيا عجبا! وما لي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها، لا يقتصون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب ولا يعِفّون عن عيب، يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه ... »

---

(٦٤٢) نقل ذلك عن بعض مشهوري الصحابة، فمثلا في البخاري (كتاب الزكاة/ باب قول اللّه تعالى: لا يسألون الناس.../ الحديث: ١٤٧٨) عن سعد (بن أبي وقاص) قال: أعطى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رهطا وأنا جالس فيهم، قال: فترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منهم رجلا لم يعطه وهو أعجبهم إلي، فقمت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فساررته فقلت: ما لك عن فلان؟ واللّه إني لأراه مؤمنا، قال: أو مسلما . قال: فسكتُّ قليلا، ثم غلبني ما أعلم فيه فقلت: يا رسول اللّه ما لك عن فلان؟ واللّه إني لأراه مؤمنا، قال: أو مسلما . قال:

فسكتُّ قليلا، ثم غلبني ما أعلم فيه فقلت: يا رسول اللّه ما لك عن فلان؟ واللّه إني لأراه مؤمنا، قال: أو مسلما يعني، فقال: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه

ورواه مسلم في (الإيمان: ١/١٨٢)

وفي البخاري (كتاب الوضوء/ باب خروج النساء.../ الحديث: ١٤٦) عن عائشة أن أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن...، فكان عمر يقول للنبي صلى اللّه عليه وسلم: احجب نساءك، فلم يكن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى اللّه عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة، حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل اللّه آية الحجاب

ونقله مسلم، وفيه: (قالت عائشة: فأنزل اللّه ...)

وأيضا في البخاري (كتاب التفسير/ الحديث: ٤٧٩٥) عن عائشة قالت: خرجت سودة ـ بعدما ضرب الحجاب ـ لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة أما واللّه ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين، فانكفأت راجعة، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عَرْق، فدخلت فقالت: يا رسول اللّه إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا . قالت: فأوحى اللّه إليه ثم رفع عنه وإن العرق بيده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكنّ أن تخرجن لحاجتكن

هذا، وفي البخاري (كتاب التفسير/ باب ما جاء في فاتحة الكتاب/ الحيث: ٤٤٨٣): « قال عمر: وافقت اللّه في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول اللّه لو اتخذت مقام ابراهيم مصلى

وقلت: يا رسول اللّه يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل اللّه آية الحجاب

وبلغني معاتبة النبي صلى اللّه عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن قلت: إن انتهيتن، أو ليبدِّلنّ اللّه رسوله خيرا منكن، حتى أتيت إحدى نسائه قالت: يا عمر أما في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل اللّه (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ) الآية »

وعلى أي حال ففي صحيح مسلم (كتاب الزكاة/ باب إعطاء من سأل بفحش../ لحديث ٢٣٨١): قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: قسم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قسما فقلت: واللّه يا رسول اللّه لغير هؤلاء كان أحق به منهم . قال: إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني فلست بباخل

وفي البخاري (كتاب المساقاة/ باب في الشرب/الحديث ٢٣٥٢) حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: حدثني أنس بن مالك رضي اللّه عنه أنها حلبت لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شاة داجن وهي في دار أنس بن مالك، وشيب لبنها بماء من البئر التي في دار أنس، فأعطى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم القدح فشرب منه، حتى إذا نزع القدح من فيه وعلى يساره أبو بكر وعن يمينه أعرابي، فقال عمر ـ وخاف أن يعطيه الأعرابي ـ : أعط أبا بكر يا رسول اللّه عندك، فأعطاه الأعرابي الذي على يمينه، ثم قال: الأيمن فالأيمن

وأخرجه أيضا عن أنس في (٢٠٢/٣) بشيء من الفرق

وأيضا في البخاري (كتاب الشركة/ الباب١/ الحديث ٢٤٨٤) بسنده عن سلمة رضي اللّه عنه قال: خفت أزواد القوم وأملقوا، فأتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم في نحر إبلهم فأذن لهم، فلقيهم عمر فأخبروه فقال: ما بقاؤكم بعد إبلكم؟! فدخل على النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه ما بقاؤهم بعد إبلهم؟! فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ناد في الناس فيأتون بفضل أزوادهم، فبسط لذلك نطع وجعلوه على النطع، فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فدعا وبرك عليه، ثم دعاهم بأوعيتهم فاحتثى الناس حتى فرغوا، ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه

وفي صحيح مسلم (كتاب الإيمان/ الباب ١٠/ الحديث: ١١١) عن أبي هريرة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ـ في قصة ـ « ... فقال: يا أبا هريرة ـ وأعطاني نعليه ـ : اذهب بنعليَّ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلاّ اللّه مستيقنا بها قلبه فبشّره بالجنة

فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ فقلت: هاتان نعلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعثني بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلاّ اللّه مستيقنا بها قلبه بشّرته بالجنة . فضرب عمر بيده بين ثدييَّ، فخررت لإستي، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأجهشت بكاء، وركبني عمر فإذا هو على أثري

فقال لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ما لك يا أبا هريرة؟ قلت: لقيت عمر فأخبرته

بالذي بعثتني به، فضرب بين ثديّ ضربة خررت لإستي . قال: ارجع . فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: يا عمر ما حملك على ما فعلتَ؟ قال:يا رسول اللّه بأبي أنت وأمّي أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلاّ اللّه مستيقنا بها قلبه بشّره بالجنة؟ قال: نعم . قال: فلا تفعل، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلّهم يعملون . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: فخلِّهم

وفي البخاري (كتاب الجزية../ الباب ١٨/ الحديث ٣١٨٢) عن سهل بن حنيف، قال: « ...، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعني الصلح الذي كان بين النبي صلى اللّه عليه وسلم والمشركين ـ ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، فقال: ففيم أعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم اللّه بيننا؟! فقال: يا ابن الخطاب إني رسول اللّه ولن يضيعني اللّه أبدا، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ولن يضيعه اللّه أبدا، فنزلت سورة الفتح »

وعلى أي حال فقد روى البخاري (كتاب التفسير/ الباب ١٢ –استغفر لهم أو لا تستغفر لهم.../ الحديث ٤٦٧٠): لما مات عبد اللّه بن أبي « ... فقام رسول صلى اللّه عليه وسلم ليصلي فقام عمر فأخذ بثوب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! ... »

---

(٦٤٣) تبريرا لموقف عمر في الحديبية قال النووي في شرح مسلم (١٢/١٤٠): « ...، قال العلماء: لم يكن سؤال عمر رضي اللّه عنه وكلامه المذكور شكا بل طلبا لكشف ما خفي عليه وحثا على إذلال الكفار وظهور الإسلام كما عرف من خلقه رضي اللّه عنه وقوته في نصرة الدين وإذلال المبطلين ... »

وقال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (١٠/١٨٠): « والظاهر أنه يرمز في قوله عليه السلام: (لم أرد على اللّه ولا على رسوله ساعة قط) إلى أمور وقعت من غيره، كما جرى يوم الحديبية عند سطر كتاب الصلح، فإن بعض الصحابة أنكر ذلك وقال: يا رسول اللّه ألسنا المسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا الكافرين؟ قال: بلى، قال: فكيف نعطى الدنية في ديننا! فقال صلى اللّه عليه وآله: (إنما أعمل بما أومر به) فقام فقال لقوم من الصحابة: ألم يكن

قد وعدنا بدخول مكة! وها نحن قد صددنا عنها ثم ننصرف بعد أن أعطينا الدنية في ديننا، واللّه لو أجد أعوانا لم أعط الدنية أبدا، فقال أبو بكر لهذا القائل: ويحك! الزم غرزه، فواللّه إنه لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وأن اللّه لا يضيعه . ثم قال له: أقال لك: إنه سيدخلها هذا العام؟ قال: لا، قال: فسيدخلها . فلما فتح النبي صلى اللّه عليه وآله مكة وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال: هذا الذى وعدتم به

واعلم أن هذا الخبر صحيح لا ريب فيه، والناس كلهم رووه، وليس عندي بقبيح ولا مستهجن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله عما سأله عنه على سبيل الاسترشاد والتماسا لطمأنينة النفس، فقد قال اللّه تعالى لخليله إبراهيم: (أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)

وقد كانت الصحابة تراجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في الأمور وتسأله عما يستبهم عليها وتقول له: أهذا منك أم من اللّه؟ وقال له السعدان (ابن معاذ وابن عبادة) رحمهما اللّه يوم الخندق ـ وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعض تمر المدينة ـ : أهذا من اللّه أم رأي رأيته من نفسك؟ قال: بل من نفسي، قالا: لا، واللّه لا نعطيهم منها تمرة واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا!

وقالت الأنصار له يوم بدر، وقد نزل بمنزل لم يستصلحوه، : أنزلت هذا المنزل عن رأي رأيت أم بوحي أوحي إليك؟ قال: بل عن رأي رأيته، قالوا: إنه ليس لنا بمنزل، ارحل عنه فانزل بموضع كذا .

وأما قول أبي بكر له: (الزم غرزه، فواللّه إنه لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم) فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه، ولا يدل ذلك على الشك، فقد قال اللّه تعالى لنبيه: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا)، وكل أحد لا يستغنى عن زيادة اليقين والطمأنينة

وقد كانت وقعت من هذا القائل أمور دون هذه القصة، كقوله: دعني أضرب عنق أبي سفيان . وقوله: دعني أضرب عنق عبد اللّه بن أبي، وقوله: دعني أضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة . ونهى النبي صلى اللّه عليه وآله عن التسرع إلى ذلك، وجذبه ثوب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله حين قام على جنازة ابن سلول يصلى وقوله: كيف تستغفر لرأس المنافقين! وليس في ذلك جميعه ما يدل على وقوع القبيح منه، وإنما الرجل كان مطبوعا على الشدة والشراسة

والخشونة، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجية التي طبع عليها . وعلى أي حال كان فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيرا كثيرا »

---

(٦٤٤) في البخاري (الجنائز/ باب ما يكره من الصلاة على ../ الحديث ١٣٦٦) عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أنه قال: لما مات عبد اللّه بن أبي ابن سلول دعي له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليصلي عليه، فلما قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وثبت إليه فقلت: يا رسول اللّه أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا، أعدد عليه قوله؟!، فتبسم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال: أخر عني يا عمر . فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها. قال: فصلى عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) إلى قوله: (وهم فاسقون) . قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يومئذ، واللّه ورسوله أعلم

هذا ولكن في الكافي (١٨٨/٣) عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن حماد بن عثمان، عن الحلبي، عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لما مات عبد اللّه بن أبي بن سلول حضر النبي صلّى اللّه عليه وآله جنازته، فقال عمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله: يا رسول اللّه ألم ينهك اللّه أن تقوم على قبره؟! فسكت، فقال: يا رسول اللّه ألم ينهك اللّه أن تقوم على قبره؟! فقال له: ويلك وما يدريك ما قلت؟! إني قلت: اللهم احش جوفه نارا، واملأ قبره نارا، وأصله نارا . قال أبو عبد اللّه عليه السلام: فأبدا من رسول اللّه ما كان يكره

---

(٦٤٥) قال ابن حجر في فتح الباري (٣٣٧/٨): « قوله: (فتبسم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال: أخر عني) أي كلامك . واستشكل الداودي تبسمه صلى اللّه عليه وسلم في تلك الحالة مع ما ثبت أن ضحكه صلى اللّه عليه وسلم كان تبسما، ولم يكن عند شهود الجنائز يستعمل ذلك

وجوابه: أنه عبر عن طلاقة وجهه بذلك تأنيسا لعمر وتطييبا لقلبه كالمعتذر عن ترك قبول كلامه ومشورته ...

قوله: (فعجبت بعد) بضم الدال (من جرأتي) بضم الجيم وسكون الراء بعدها همزة، أي

إقدامي عليه، وقد بينا توجيه ذلك

قوله: (واللّه ورسوله أعلم) ظاهره أنه قول عمر، ويحتمل أن يكون قول ابن عباس وقد روى الطبري من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس في نحو هذه القصة، قال ابن عباس: فاللّه أعلم أي صلاة كانت، وما خادع محمد أحدا قط

وقال بعض الشراح: يحتمل أن يكون عمر ظن أن النبي صلى اللّه عليه وسلم حين تقدم للصلاة على عبد اللّه بن أبي كان ناسيا لما صدر من عبد اللّه بن أبي وتعقب بما في السياق من تكرير المراجعة فهي دافعة لاحتمال النسيان، وقد صرح في حديث الباب بقوله: فلما أكثرت عليه قال فدل على أنه كان ذاكرا » (ويبدو أن الداودي هو أحمد بن نصر المالكي... ت ٣٠٧)

---

(٦٤٦) قال العضدي في كتابه (المواقف ـ شرح الجرجاني ـ ٨/٢٦٣ـ ٢٦٦): « أجمع أهل الملل والشرائع كلها على عصمتهم عن تعمد الكذب فيما دل المعجز على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن اللّه، وفي جواز صدوره عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف فمنعه الأستاذ (في الشرح: أبو إسحاق) وكثير من الأئمة لدلالة المعجزة على صدقهم، وجوزه القاضي (في الشرح: أبو بكر) مصيرا منه إلى عدم دخوله في التصديق المقصود بالمعجزة (في الشرح: فإن المعجزة إنما دلت على صدقه فيما هو متذكر له عامد إليه وأما ما كان من النسيان وفلتات اللسان فلا دلالة لها على الصدق فيه فلا يلزم من الكذب هناك نقض لدلالتها)

وأما سائر الذنوب فهي إما كفر أو غيره، وأما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه (في الشرح: قبل النبوة وبعدها ولا خلاف لأحد منهم في ذلك)، غير أن الأزارقة من الخوارج جوزوا عليهم الذنب، وكل ذنب عندهم كفر، وجوز الشيعة إظهاره تقية (كذا!)، وذلك يفضي إلى إخفاء الدعوة إذ أولى الأوقات بالتقية وقت الدعوة للضعف وكثرة المخالفين

وأما غير الكفر فإما كبائر أو صغائر وكل منهما إما عمدا وإما سهوا (في الشرح: ... وكل واحد منها إما قبل البعثة أو بعدها)، أما الكبائر فمنعه الجمهور، والأكثر على امتناعه سمعا (وفي الشرح: قال القاضي والمحققون من الأشاعرة: إن العصمة فيما وراء التبليغ غير واجبة عقلا إذ لا دلالة للمعجزة عليه، فامتناع الكبائر عنهم عمدا مستفاد من السمع وإجماع الأمة قبل ظهور المخالفين في ذلك)

وقالت المعتزلة ـ بناء على أصولهم ـ: يمتنع ذلك عقلا (في الشرح: لأن صدور الكبائر عنهم

عمدا يوجب سقوط هيبتهم عن القلوب وانحطاط رتبتهم في أعين الناس فيؤدي إلى النفرة عنهم وعدم الانقياد لهم، ويلزم منه إفساد الخلائق وترك استصلاحهم وهو خلاف مقتضى العقل والحكمة)، وأما سهوا (في الشرح: أو على سبيل الخطأ في التأويل) فجوزه الأكثرون (في الشرح: والمختار خلافه)، وأما الصغائر عمدا فجوزه الجمهور إلا الجبائي، وأما سهوا فهو جائز اتفاقا (في الشرح: بين أكثر أصحابنا وأكثر المعتزلة) لا الصغائر الخسيسة (في الشرح: وهي ما تلحق فاعلها بالأراذل والسفل والحكم عليه بالخسة ودناءة الهمة) كسرقة حبة أو لقمة (في الشرح: فإنها لا تجوز أصلا لا عمدا ولا سهوا والاتفاق المذكور إنما هو فيما ليس منهما كنظرة وكلمة سفه نادرة في خصام)، وقال الجاحظ: بشرط أن ينبهوا عليه فينتهوا عنه، وقد تبعه فيه كثير من المتأخرين، وبه نقول

هذا كله بعد الوحي، وأما قبله فقال الجمهور: لا يمتنع أن يصدر عنهم كبيرة إذ لا دلالة للمعجزة عليه، ولا حكم للعقل، وقال أكثر المعتزلة: تمتنع الكبيرة وإن تاب منها لأنه يوجب النفرة وهي تمنع عن اتّباعه فتفوت مصلحة البعثة، ومنهم من منع عما ينفر مطلقا كعهر الأمهات والفجور في الآباء والصغائر الخسيسة دون غيرها

وقالت الروافض: لا يجوز عليهم صغيرة ولا كبيرة، فكيف بعد الوحي

لنا وجوه: الأول لو صدر منهم الذنب لحرم اتباعهم، وأنه واجب للإجماع، ولقوله تعالى: قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني يحببكم اللّه

الثاني لو أذنبوا لردت شهادتهم إذ لا شهادة لفاسق بالإجماع، ولقوله تعالى: إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، واللازم باطل بالإجماع، ولأن من لا تقبل شهادته في القليل من متاع الدنيا كيف تسمع شهادته في الدين القيم إلى يوم القيامة؟!

الثالث: إن صدر عنهم وجب زجرهم لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإيذاؤهم حرام إجماعا، ولقوله: والذين يؤذون اللّه ورسوله، الآية ولدخلوا تحت: ومن يعص اللّه ورسوله فإن له نار جهنم، وقوله: ألا لعنة اللّه على الظالمين، وقوله ـ لوما ومذمة ـ : لم تقولون ما لا تفعلون، وأتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ...

الرابع ...

الخامس: ولم ينالوا عهده تعالى لقوله: (لا ينال عهدي الظالمين)، وأي عهد أعظم من النبوة ... »

إلى أن قال في ص٢٦٧: « فهذه حجج العصمة (في الشرح: أوردها الإمام الرازي في الأربعين وغيره من تصانيفه)، وأنت تعلم أن دلالتها في محل النزاع وهي عصمتهم عن الكبيرة سهوا وعن الصغيرة عمدا ليست بالقوية

واحتج المخالف بقصص الأنبياء التي توهم صدور الذنب عنهم

والجواب إجمالا ... »

وقال التفتازاني في كتابه (شرح المقاصد: ٦٠/٥، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٨): « وبالجملة فمسألة جواز الصغيرة عمدا على الأنبياء في معرض الاجتهاد لا قاطع فيها، لا نفيا ولا إثباتا

فإن قيل: ما بال زلة الأنبياء حكيت بحيث تقرأ بأعلى الصوت على وجه الزمان مع أن اللّه غفار ستار وقد أمرنا بالستر على من ارتكب ذنبا؟

قلنا: ليدل على صدق الأنبياء وكون ما يبلغون الشيء بأمر من اللّه من غير إخفاء لشيء، أو ليكون امتحانا للأمم كيف يفعلون بأنبيائهم بعد الاطلاع على زلاتهم، وليعلموا أن الأنبياء مع جلالة قدرهم وكثرة طاعاتهم كيف التجئوا إلى التضرع والاستغفار في أدنى زلة، وأن الصغيرة ليست مما يقدح في الولاية والإيمان البتة، أو تقع مكفرة لا محالة بحيث لا عتاب عليها ولا عقاب »

هذا، واستغربت إيراد صدر المتألهين الإشكال المذكور وجوابه في تفسيره، لا لأنه لم ينسبهما إلى مبدعهما... (يُنظر في ملفّي العرفان ما أورد عليه بهذا الشأن)، بل لأن الجواب لا يناسب القول بالعصمة المطلقة للأنبياء (ع)، وما فعله من تغيير بعض كلمات المنقول أو إقحام بعض الكلمات فيه لا فقط لم يغير شيئا بل وسبب إرباكا لا يخفى...، وعلى أي حال فقد قال في تفسيره (١٣٣/٤): « فظهر أنّ جواز الصغيرة على الأنبياء عليهم السلام عمدا ـ فضلا عن الكبيرة ـ ممّا لم يثبت بقاطع . وقد دلّت الدلائل على وجوب عصمتهم . وأما وقوعها عنهم سهوا أو نسيانا فهو موضع اجتهاد

فإن قيل: ما بال زلات الأنبياء عليهم السلام قد حكيت حيث يقرأ بأعلى الصوت على وجه الزمان، مع أنّ اللّه غفّار ستّار قد أمر بالستر على من ارتكب ذنبا؟

قلنا: ليدل على صدق الأنبياء عليهم السلام، وكون ما يتلقّون بأمر من اللّه، من غير إخفاء

لشيء، وليكون امتحانا للأمم كيف بأنبيائهم بعد الاطّلاع على زلاتهم

وليعلموا أنّ الأنبياء عليهم السلام مع جلالة أقدارهم وكثرة طاعاتهم كيف التجأوا إلى التضرّع والاستغفار في أدنى زلّة وأقلّ تقصير »

---

(٦٤٧) في نهج البلاغة (الخطبة الشقشقية): « فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشطرا ضرعيها (أي الخلافة) ... »

---

(٦٤٨) سورة النساء: ٦٥

أرى أن صعوبة فهم الآية الكريمة (يُنظر التفاسير) ناتجة عن قياس إيمان المؤمنين في حضور النبي (ص) على إيمان الناس الآن، حيث لا ولاية قائمة ...، وهذه مشكلة متشعبة جدا ...

---

(٦٤٩) يبدو لي أن إضافة (الدين) إلى المسلمين في قول اللّه تبارك وتعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا) يشير إلى أن الولاية هي التي جعلت الدين دين المسلمين، أي لو أمكن افتراض أن يشرع اللّه تعالى دينا مكتملا نظريا فيبعث نبيا ليبلغه إلى الناس ... فإنه لن يكون مما يتدين به إلا بولاية، فالولاية هي التي تجعل الدين (دينا للناس) ...

---

(٦٥٠) روى ابن أبي الحديد في شرح النهج (١/١٨٦) أن عمر بن الخطاب قال ذلك ـ فيما قال ـ لعلي عليه السلام

---

(٦٥١) في الكافي (١/٤٥٤) ... عن أسيد بن صفوان صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله قال: لما كان اليوم الذي قبض فيه أمير المؤمنين عليه السلام ارتج الموضع بالبكاء ودهش الناس كيوم قبض النبي صلى اللّه عليه وآله، وجاء رجل باكيا وهو مسرع مسترجع وهو يقول: اليوم انقطعت خلافة النبوة، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

رحمك اللّه يا أبا الحسن كنت أول القوم إسلاما وأخلصهم إيمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم

للّه وأعظمهم عناء، وأحوطهم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وآمنهم على أصحابه، وأفضلهم مناقب، وأكرمهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وأشبههم به هديا وخلقا وسمتا وفعلا، وأشرفهم منزلة، وأكرمهم عليه، فجزاك اللّه عن الإسلام وعن رسوله وعن المسلمين خيرا

قويت حين ضعف أصحابه وبرزت حين استكانوا، ونهضت حين وهنوا، ولزمت منهاج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله إذ هم أصحابه، كنت خليفته حقا ...

وكنت أخفضهم صوتا، وأعلاهم قنوتا وأقلهم كلاما، وأصوبهم نطقا، وأكبرهم رأيا، وأشجعهم قلبا، وأشدهم يقينا، وأحسنهم عملا، وأعرفهم بالأمور ...

كنت للمؤمنين أبا رحيما إذ صاروا عليك عيالا فحملت أثقال ما عنه ضعفوا، وحفظت ما أضاعوا، ورعيت ما أهملوا ...

لم يكن لأحد فيك مهمز، ولا لقائل فيك مغمز، ولا لأحد فيك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، الضعيف الذليل عندك قوي عزيز حتى تأخذ له بحقه، والقوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء، شأنك الحق والصدق والرفق، وقولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم فيما فعلت، وقد نهج السبيل، وسهل العسير، وأطفئت النيران، واعتدل بك الدين وقوي بك الإسلام فظهر أمر اللّه ولو كره الكافرون وثبت بك الإسلام والمؤمنون...

كنت للمؤمنين كهفا وحصنا، وقنة راسيا، وعلى الكافرين غلظة وغيظا ... »

ولا يخفى أني نقلت الكلام للاستيناس لا للاستناد إليه، فإن قائله مجهول، وكذلك السند إليه...

---

(٦٥٢) في البخاري (٤/١٨٣) عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله أنه قال لفاطمة عليها السلام: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين ...

---

(٦٥٣) الكافي (٨/ ١٠٧)

وفي صحيح مسلم (٧/١٢٠) بسنده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، قال: « أمر

معاوية ابن أبي سفيان سعدا فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول له، خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول اللّه خلفتني مع النساء والصبيان! فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي

وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلا يحب اللّه ورسوله ويحبه اللّه ورسوله، قال: فتطاولنا لها، فقال: ادعوا لي عليا، فأتي به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح اللّه عليه، ولما نزلت هذه الآية (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال: اللهم هؤلاء أهلي »

---

(٦٥٤) قال ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة النبوية: ١٠٧/٦، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥ هـ): « ...، وإذا كان جعفر أفضل بني هاشم بعد علي في حياته ثم مع هذا أمّر النبي صلى اللّه عليه وسلم زيد بن حارثة ـ وهو من كلب ـ عليه علم أن التقديم بفضيلة الإيمان والتقوى، وبحسب أمور أخر بحسب المصلحة، لا بالنسب، ولهذا قدم النبي صلى اللّه عليه وسلم أبا بكر وعمر على أقاربه، لأن رسول اللّه يأمر بأمر اللّه ليس من الملوك الذين يقدمون بأهوائهم لأقاربهم ومواليهم وأصدقائهم، وكذلك كان أبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما حتى قال عمر: من أمر رجلا لقرابة أو صداقة بينهما وهو يجد في المسلمين خيرا منهم فقد خان اللّه ورسوله وخان المؤمنين »

وأيضا قال في (منهاجه: ٢٤١/٦): « ولم يقل أحد قط إني أحق بهذا من أبي بكر ولا قاله أحد في أحد بعينه: إن فلانا أحق بهذا الأمر من أبي بكر، وإنما قال من فيه أثر جاهلية عربية أو فارسية: إن بيت الرسول أحق بالولاية، لكون العرب كانت في جاهليتها تقدم أهل بيت الرؤساء وكذلك الفرس يقدمون أهل بيت الملك ... »

ونقل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (٢٧٩/١٠) عن عمر أنه قال لعلي (ع) ـ في كلام طويل ـ: « ولقد قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم والأمر معبد مخيس (مذلل)، ليس لأحد فيه ملمس، لم يسير فيك قولا، ولم يستنزل لك قرآنا، ولم يجزم في شأنك حكما، لسنا في كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر ... »

---

[٦٥٥] في قول اللّه تعالى (الرعد: ٧): (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) قال الرازي: « في تفسير هذه الآية وجوه الأول: المراد أن الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم ولكل قوم من قبْلِه هاد ومنذر وداع وأنه تعالى سوى بين الكل في إظهار المعجزة إلا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لأجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول صلى اللّه عليه وسلم الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن، فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى، فهذا هو الذي قرره القاضي، وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظما

والوجه الثاني وهو أن المعنى أنهم لا يجحدون كون القرآن معجزا فلا يضيق قلبك بسببه إنما أنت منذر فما عليك إلا أن تنذر إلى أن يحصل الإيمان في صدورهم، ولست بقادر عليهم، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالتخليق وهو اللّه سبحانه وتعالى، فيكون المعنى ليس لك إلا الإنذار، وأما الهداية فمن اللّه تعالى

واعلم أن أهل الظاهر من المفسرين ذكروا ههنا أقوالا: الأول: المنذر والهادي شيء واحد والتقدير: إنما أنت منذر ولكل قوم منذر على حدة ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر

الثاني: المنذر محمد صلى اللّه عليه وسلم والهادي هو اللّه تعالى، روي ذلك عن ابن عباس رضي اللّه عنهما وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك.

والثالث: المنذر النبي، والهادي علي . قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: وضع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يده على صدره فقال: (أنا المنذر)، ثم أومأ إلى منكب علي رضي اللّه عنه وقال: (أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي) »

---

[٦٥٦] في تفسير الرازي (٦١/٤): « أما قوله تعالى: (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) ...

لِمَ خص ذريتهما بالدعاء، أليس أن هذا يجري مجرى البخل في الدعاء؟

والجواب: الذرية أحق بالشفقة والمصلحة، قال اللّه تعالى: (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نارًا)،

ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم وتابعهم على الخيرات ... »

هـذا، وفـي نهج البلاغة (الخطبة ١٩٧): « ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، أني لم أرد على اللّه ولا على رسوله ساعة قط، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخر الأقدام، نجدة أكرمني اللّه بها . ولقد قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وإن رأسه لعلى صدري، ولقد سالت نفسه في كفي، فأمررتها على وجهي . ولقد وليت غسله صلى اللّه عليه وآله وسلم والملائكة أعواني...، حتى واريناه في ضريحه فمن ذا أحق به مني حيا وميتا! فانفذوا على بصائركم، ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم، فوالذي لا إله إلا هو إني لعلى جادة الحق، وإنهم لعلى مزلة الباطل »

أقول: إن هـذه الحقيقة التي لا تكاد تخفى على عاقل منصف هي الدافع للتركيز على أن عائشة كانت الأقرب إلى النبي صلى اللّه عليه وآله، كما ـ مثلا ـ في كتاب البخاري (١٠٦/٢) ـ الحديث ١٣٢٣ ـ عن عروة عن عائشة أنها قالت: إن كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليتعذر في مرضه: أين أنا اليوم؟ أين أنا غدا؟ ـ استبطاء ليوم عائشة ـ، فلما كان يومي قبضه اللّه بين سحري ونحري ودفن في بيتي

وأيضا في البخاري (١٤٢/٥) ـ الحديث ١٦١٧ ـ عن عروة عن أبيه عن عائشة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يسأل في مرضه الذي مات فيه يقول: أين أنا غدا؟ أين أنا غدا؟ ـ يريد يوم عائشة ـ فأذن له أزواجه يكون حيث شاء فكان في بيت عائشة حتى مات عندها. قالت عائشة: فمات في اليوم الذي كان يدور علي فيه في بيتي، فقبضه اللّه وإن رأسه لبين نحري وسحري وخالط ريقه ريقي ...

وأيضا في البخاري (١٤١/٥) ـ الحديث ٤١٨٤ ـ عن ذكوان مولى عائشة أنها كانت تقول: إن من نعم اللّه علي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم توفي في بيتي ...

هذا، وبهذا الذي قالته عائشة ـ أو روي عنها ـ استدل ابن تيمية على فضلها، قال في (منهاج السنة: ١٣٩/٤، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥ هـ): « ...، وكان ـ أي النبي (ص) ـ في مرضه الذي مات فيه يقول: أين أنا اليوم ـ استبطاء ليوم عائشة ـ ثم استأذن نساءه أن يمرّض في بيت عائشة رضي اللّه عنها فمرّض فيه وفي بيتها توفي بين سحرها ونحرها وفي حجرها وجمع اللّه بين ريقه وريقها »

(٦٥٧) قال الرازي في تفسير الآيتان ٧، ٨ من سورة مريم بقوله: «...، والمختار أن المراد من الموالي الذين يخلفون بعده إما في السياسة أو في المال الذي كان له أو في القيام بأمر الدين، فقد كانت العادة جارية أن من كان إلى صاحب الشرع أقرب فإنه كان متعينا في الحياة»، وقد أخطأ في قوله: (فقد كانت العادة جارية)، فإن ذلك من طبيعة الإنسان دائما

---

(٦٥٨) قال في المثنوي (دفتر٢، الأبيات ٨١٥– ٨١٨):

پس بهر دوری ولیی قائمست — تا قیامت آزمایش دائمست
هر که را خوی نکو باشد برست — هر کسی کاو شیشه دل باشد شکست
پس امام حی قائم آن ولیست — خواه از نسل عمر خواه از علیست
مهدی وهادی ویست ای راه جو — هم نهان وهم نشسته رو برو

المعنى التقريبي للأبيات:... فيوجد ولي قائم في كل عصر إلى يوم القيامة. ... فهو الإمام الحي القائم سواء كان من نسل عمر أم من نسل علي، وهو المهدي الهادي الحاضر الغائب

وسيأتي مزيد من الكلام عن هذا في القسم اللاحق: فصل (**المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى**)

---

(٦٥٩) في كتاب منهاج الكرامة ص٧: « وعن عمرو ابن ميمون قال: لعلي عشر خصال ليست لغيره: قال له النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: لأبعثن رجلا لا يخزيه اللّه أبدا، يحب اللّه ورسوله، فاستشرف إليها من استشرف، قال: أين علي؟ قالوا: هو في الرحى يطحن، قال: وما كان أحدكم يطحن . قال: فجاء وهو أرمد لا يكاد أن يبصر، قال: فنفث في عينيه ثم هز الراية ثلاثا فأعطاه إياها فجاء بصفية بنت حيي

قال: ثم بعث أبا بكر بسورة التوبة فبعث عليا خلفه فأخذها منه وقال: لا يذهب بها إلا رجل هو مني وأنا منه

وقال لبني عمه: أيكم يواليني في الدنيا والآخرة، قال وعلي معهم جالس، فأبوا فقال علي: أنا أواليك في الدنيا والآخرة، قال: فتركه ثم أقبل على رجل رجل منهم فقال: أيكم يواليني في الدنيا والآخرة، فأبوا فقال علي: أنا أواليك في الدنيا والآخرة فقال: أنت وليي في الدنيا والآخرة

قال: وكان علي أول من أسلم من الناس بعد خديجة

قال: وأخذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثوبه فوضعه على علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال: إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

قال: وشرى علي نفسه ولبس ثوب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم نام مكانه وكان المشركون يرمونه بالحجارة

وخرج النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بالناس في غزاة تبوك فقال له علي: أأخرج معك؟ فقال: لا، فبكى علي فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست بنبي لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي

قال: وقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: أنت وليي في كل مؤمن بعدي

قال: وسد أبواب المسجد غير باب علي، قال: فيدخل المسجد جنبا وهو طريقه ليس له طريق غيره وقال له: من كنت مولاه فعلي مولاه

وعن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مرفوعا أنه بعث أبا بكر ببراءة إلى أهل مكة فسار بها ثلاثا ثم قال لعلي عليه السلام: الحقه فرده وبلغها أنت، ففعل، فلما قدم أبو بكر على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بكى وقال: يا رسول اللّه حدث في شيء؟ قال: لا ولكن أمرت أن لا يبلغها إلا أنا أو رجل مني ... »

---

(٦٦٠) قال في كتابه (في منهاج السنة: ١٩/٥): « قال الرافضي (ونقل النص الآنف)

والجواب أن هذا ليس مسندا، بل هو مرسل لو ثبت عن عمرو بن ميمون، وفيه ألفاظ هي كذب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كقوله: (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنك لست بنبي، لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي)، فإن النبي صلى اللّه عليه وسلم ذهب غير مرة وخليفته على المدينة غير علي، كما اعتمر عمرة الحديبية وعلي معه وخليفته غيره، وغزا بعد ذلك خيبر ومعه علي وخليفته بالمدينة غيره، وغزا غزوة الفتح وعلي معه وخليفته في المدينة غيره، وغزا حنينا والطائف وعلي معه وخليفته بالمدينة غيره، وحج حجة الوداع وعلي معه وخليفته بالمدينة غيره وغزا غزوة بدر ومعه علي وخليفته بالمدينة غيره

وكل هذا معلوم بالأسانيد الصحيحة وباتفاق أهل العلم بالحديث، وكان علي معه في غالب الغزوات وإن لم يكن فيها قتال

فإن قيل: استخلافه يدل على أنه لا يستخلف إلا الأفضل لزم أن يكون علي مفضولا في عامة الغزوات وفي عمرته وحجته لا سيما وكل مرة كان يكون الاستخلاف على رجال مؤمنين، وعام تبوك ما كان الاستخلاف إلا على النساء والصبيان ومن عذر الله وعلى الثلاثة الذين خلفوا أو متهم بالنفاق، وكانت المدينة آمنة لا يخاف على أهلها ولا يحتاج المستخلف إلى جهاد كما يحتاج في أكثر الاستخلافات

وكذلك قوله: (وسد الأبواب كلها إلا باب علي) فإن هذا مما وضعته الشيعة على طريق المقابلة، فإن الذي في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في مرضه الذي مات فيه: إن أمنّ الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر، ورواه ابن عباس أيضا في الصحيحين

ومثل قوله: (أنت وليي في كل مؤمن بعدي) فإن هذا موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، والذي فيه من الصحيح ليس هو من خصائص الأئمة بل ولا من خصائص علي، بل قد شاركه فيه غيره مثل كونه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ومثل استخلافه وكونه منه بمنزلة هارون من موسى، ومثل كون علي مولى مَن النبي صلى الله عليه وسلم مولاه فإن كل مؤمن موال لله ورسوله، ومثل كون براءة لا يبلغها إلا رجل من بني هاشم، فإن هذا يشترك فيه جميع الهاشميين، لما روي أن العادة كانت جارية بأن لا ينقض العهود ويحلها إلا رجل من قبيلة المطاع »

---

(٦٦١) بعد أن أشار (العضدي) إلى بعض ما ورد في فضل أمير المؤمنين عليه السلام قال في كتابه (المواقف) - الشرح: ٨/ ٣٧٢ - : « والجواب عن الكل أنه يدل على الفضيلة وأما الأفضلية فلا، كيف ومرجعها إلى أكثر الثواب، وذلك يعود إلى الاكتساب والإخلاص، وما يعود إلى نصرة الإسلام ...

واعلم أن مسألة الأفضلية لا مطمع فيها في الجزم واليقين، وليست مسألة يتعلق بها عمل فيكتفى فيها بالظن، والنصوص المذكورة من الطرفين بعد تعارضها لا تفيد القطع على ما لا يخفى على منصف، لكنا وجدنا السلف قالوا بأن الأفضل أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي وحسن ظنّنا بهم يقضي بأنهم لو لم يعرفوا ذلك لما أطبقوا عليه فوجب علينا اتباعهم في ذلك

وتفويض ما هو الحق فيه إلى اللّه »

---

(٦٦٢) قال ابن تيمية في (منهاج السنة النبوية: ١/٢٩٦ـ ٢٩٨): « قال ابن حامد: والدليل على إثبات ذلك بالنص أخبار، من ذلك ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم قال: أتت امرأة إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ ـ كأنها تريد الموت ـ قال: إن لم تجديني فأتي أبا بكر . وذكر له سياقا آخر وأحاديث أخر، قال: وذلك نص على إمامته

قال: وحديث سفيان عن عبد الملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر

قال: وأسند البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء اللّه، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعه ضعف، واللّه يغفر له، ثم استحالت غربا، فأخذها عمر ابن الخطاب فلم أر عبقريا يفري فرية حتى ضرب الناس بعطن . قال: وذلك نص في الإمامة

قال: ويدل عليه ما أخبرنا أبو بكر بن مالك وروى عن مسند أحمد عن حماد بن سلمة عن علي ابن زيد بن جدعان عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوما: أيكم رأى رؤيا؟ فقلت: أنا رأيت يا رسول اللّه: كأن ميزانا دلي من السماء فوزنت بأبي بكر فرجحت بأبي بكر، ثم وزن أبو بكر بعمر فرجح أبو بكر بعمر، ثم وزن عمر بعثمان فرجح عمر بعثمان، ثم رفع الميزان

فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: خلافة نبوة ثم يؤتي اللّه الملك لمن يشاء

قال: وأسند أبو داود عن جابر الأنصاري قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم (كذا)، ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر . قال جابر: فلما قمنا من عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قلنا: أما الرجل الصالح فرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وأما نوط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذي بعث اللّه به نبيه

قال: ومن ذلك حديث صالح بن كيسان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي اللّه

عنها قالت: دخل عليّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم اليوم الذي بدىء به فيه فقال: ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا . ثم قال: يأبى اللّه والمسلمون إلا أبا بكر . وفي لفظ: فلا يطمع في هذا الأمر طامع

وهذا الحديث في الصحيحين ورواه من طريق أبي داود الطيالسي عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: لما ثقل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال ادعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر لأكتب لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه الناس، ثم قال: معاذ اللّه أن يختلف المؤمنون في أبي بكر

وذكر أحاديث تقديمه في الصلاة، وأحاديث أخر لم أذكرها لكونها ليست مما يثبته أهل الحديث » انتهى ما أردت نقله من كلام ابن تيمية

ومما ينبغي التنبيه إليه هو أن ابن حزم عدّ الاحتجاج بما روي: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) تدليسا لكونه غير صحيح، وقال: « ويعيذنا اللّه من الاحتجاج بما لا يصح »، يُنظر كتابه (الفصل...: ٤/٨٧)

وابن حامد هو: الحسن بن حامد بن علي بن مروان البغدادي، أبو عبد اللّه إمام الحنابلة في زمانه ومدرسهم ومفتيهم، من أهل بغداد ...، توفي سنة ٤٠٣ . ذلك ما أورده الزركلي في الأعلام

هذا، وبصدد ما نقله عن مسند أحمد عن أبي بكرة فسيأتي أن معاوية هو الذي سأل أبا بكرة ليحدثه عن النبي (ص) فحدثه به، فطرده ...

وفي كتاب البخاري (١٢٦/٨) عن عائشة أنها قالت: قال النبي صلى اللّه عليه وآله: لقد هممت، أو أردت، أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون ...

ولكن في كتاب البخاري (١٢٦/٨) عن ابن عمر أنه قال: قيل لعمر: ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني: أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني: رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

وفي شرح مسلم (١٥٥/١٥) للنووي: « وأما قوله صلى اللّه عليه وسلم ... للمرأة حين قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ قال: فإن لم تجديني فأتي أبا بكر، فليس فيه نص على خلافته وأمر بها، بل هو إخبار بالغيب الذي أعلمه اللّه تعالى به . واللّه أعلم »

ويُنظر ما قاله ابن حزم في كتابه (الفصل ...: ٤/٨٧)، ونقله عنه ابن تيمية في منهاجه

(٤٩٣/١-) مستشهدا به، وفيه تخطئة لـ(عمر) في رأيه أن النبي (ص) لم يستخلف بأن ذلك كان قد خفي عنه، وكذلك لـ(عائشة) ...، وسيأتي في القسم اللاحق

---

(٦٦٣) في مجموع الفتاوى (٤/٣٩٨ـ ٤٠١): « وسئل (أي ابن تيمية) رحمه اللّه عن رجلين اختلفا فقال أحدهما: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي اللّه عنهما أعلم وأفقه من علي ابن أبي طالب رضي اللّه عنه، وقال الآخر: بل علي بن أبي طالب أعلم وأفقه من أبي بكر وعمر، فأي القولين أصوب؟ وهل هذان الحديثان وهما قوله: أقضاكم علي، وقوله: أنا مدينة العلم وعلي بابها صحيحان؟ وإذا كانا صحيحين فهل فيهما دليل (على) أن عليا أعلم وأفقه من أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهم أجمعين؟ وإذا ادعى مدع أن إجماع المسلمين على أن عليا رضي اللّه عنه أعلم وأفقه من أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهم أجمعين يكون محقا أو مخطئا؟

فأجاب: الحمد للّه لم يقل أحد من علماء المسلمين المعتبرين أن عليا أعلم وأفقه من أبي بكر وعمر، بل ولا من أبي بكر وحده، ومدعي الإجماع على ذلك من أجهل الناس وأكذبهم (!)، بل ذكر غير واحد من العلماء إجماع العلماء على أن أبا بكر الصديق أعلم من علي ...

وكيف وأبو بكر الصديق كان بحضرة النبي يفتي ويأمر وينهى ويقضي ويخطب، كما كان يفعل ذلك إذا خرج هو، وأبو بكر يدعو الناس إلى الإسلام، ولما هاجرا جميعا ويوم حنين وغير ذلك من المشاهد والنبي صلى اللّه عليه وسلم ساكت يقره على ذلك ويرضى بما يقول، ولم تكن هذه المرتبة لغيره

وكان النبي في مشاورته لأهل العلم والفقه والرأي من أصحابه يقدم في الشورى أبا بكر وعمر، فهما اللذان يتقدمان في الكلام والعلم بحضرة الرسول عليه السلام على سائر أصحابه مثل قصة مشاورته في أسرى بدر، فأول من تكلم في ذلك أبو بكر وعمر، وكذلك غير ذلك

وقد روي في الحديث أنه قال لهما: إذا اتفقتما على أمر لم أخالفكما، ولهذا كان قولهما حجة في أحد قولي العلماء، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وهذا بخلاف قول عثمان وعلي

وفي السنن عنه أنه قال: اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر، ولم يجعل هذا لغيرهما، بل ثبت عنه أنه قال: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة، فأمر باتباع سنة الخلفاء الراشدين، وهذا يتناول الأئمة الأربعة، وخص أبا بكر وعمر بالاقتداء بهما، ومرتبة المقتدى به

في أفعاله وفيما سنه للمسلمين فوق سنة المتبع فيما سنه فقط، وفي صحيح مسلم أن أصحاب النبي كانوا معه في سفر فقال: إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا

وقد ثبت عن ابن عباس أنه كان يفتي من كتاب اللّه، فإن لم يجد فبما سنه رسول اللّه، فإن لم يجد أفتى بقول أبي بكر وعمر، ولم يكن يفعل ذلك بعثمان وعلي، وابن عباس حبر الأمة وأعلم الصحابة وأفقههم في زمانه، وهو يفتي بقول أبي بكر وعمر، مقدما لقولهما على قول غيرهما من الصحابة وقد ثبت عن النبي أنه قال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل

وأيضا فأبو بكر وعمر كان اختصاصهما بالنبي فوق اختصاص غيرهما، وأبو بكر كان أكثر اختصاصا فإنه كان يسمر عنده عامة الليل يحدثه في العلم والدين ومصالح المسلمين كما روى أبو بكر بن أبي شيبة... عن عمر قال: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسمر عند أبي بكر في الأمر من أمور المسلمين وأنا معه

وفي الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن أصحاب الصفة كانوا ناسا فقراء، وأن النبي قال: من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، أو بسادس، وأن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق نبي اللّه بعشرة، وأن أبا بكر تعشى عند النبي ثم لبث حتى صليت العشاء، ثم رجع فلبث حتى نعس رسول اللّه فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء اللّه قالت امرأته: ما حبسك عن أضيافك؟ قال: أو ما عشيتهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء عرضوا عليهم العشاء فغلبوهم، وذكر الحديث

وفي رواية كان يتحدث إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى الليل

وفي سفر الهجرة لم يصحبه غير أبي بكر، ويوم بدر لم يبق معه في العريش غيره، وقال: إن أمنّ الناس علينا في صحبته وذات يده أبو بكر، ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، وهذا من أصح الأحاديث المستفيضة في الصحاح من وجوه كثيرة »

---

(٦٦٤) لم يسند كثيرا مما ادعاه، وما أسنده صادر دلالته على دعواه، فمثلا ما استند إليه بقوله: « *وقد روي في الحديث أنه قال لهما: إذا اتفقتما على أمر لم أخالفكما...* » لم يرد بهذه الصيغة، بل بصيغتين أخريين إحداهما ما علق عليه ابن حزم في كتابه (الإحكام... : ٨٠٥/٦) بقوله: « ...، وأما ما تعلقوا به بما روي عنه صلى اللّه عليه وسلم من قوله لأبي بكر وعمر: (لولا اختلافكما علي ما خالفتكما) فأول ذلك أن هذا خبر لا يصح، ولو صح لكان

حجة في إبطال تقليدهما، لأن الأمر الموجود فيهما منع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الأخذ برأيهما في أمور الدنيا، ففرض علينا اتباعه صلى اللّه عليه وسلم، وألا نأخذ بقولهما في أمور الشريعة، وهذا بين » ...

---

(٦٦٥) في البخاري (٢١٣/٥، الطبعة القديمة) عن ابن أبي مليكة أن عبد اللّه بن الزبير أخبرهم أنه قدم ركب من بني تميم على النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال أبو بكر: أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي اللّه ورسوله)...

وأيضا في البخاري (١٧١/٦) عن ابن أبي مليكة (عن ابن الزبير) أنه قال: كاد الخيران أن يهلكا: أبا بكر وعمر رضي اللّه عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي صلى اللّه عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر ـ قال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي!، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل اللّه يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم الآية

قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر

ولا يخفى ما في ادعاء ابن الزبير الأخير، ولم يبلغ تسعا وقت وفاة النبي (ص)

---

(٦٦٦) في نهج البلاغة (الخطبة: ٣٧): « وكنت أخفضهم صوتا وأعلاهم فوتا ... »

وأيضا في نهج البلاغة (الخطبة ١٩٧): « ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، أني لم أرد على اللّه ولا على رسوله ساعة قط ... »

وفي شرح نهج البلاغة (١٨٠/١٠) قال ابن أبي الحديد: « والظاهر أنه يرمز في قوله عليه السلام: (لم أرد على اللّه، ولا على رسوله ساعة قط) إلى أمور وقعت من غيره، كما جرى يوم

الحديبية عند سطر كتاب الصلح، فإن بعض الصحابة أنكر ذلك ... »

---

(٦٦٧) في أكثر من رواية ـ منها ما في الكافي (١/٢٠٦) ـ فسر (الملك العظيم) في قول اللّه تعالى: (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) بـ(الطاعة)

---

(٦٦٨) في مسند أحمد (١/٨٠): « قال علي رضي اللّه عنه: كان لي من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مدخلان بالليل والنهار ... »

وفي الكافي (١/٦٤) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال ـ في حديث ـ : « وليس كل أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله كان يسأله عن الشيء فيفهم، وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه حتى أن كانوا ليحبون أن يجيء الأعرابي والطاري فيسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله حتى يسمعوا

وقد كنت أدخل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله كل يوم دخلة، وكل ليلة دخلة فيخليني فيها أدور معه حيث دار

وقد علم أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، فربما كان في بيتي يأتيني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عني نسائه فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عني فاطمة ولا أحد من بني

وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكت عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها، ودعا اللّه أن يعطيني فهمها وحفظها فمانسيت آية من كتاب اللّه ولا علما أملاه علي وكتبته منذ دعا اللّه لي بما دعا

وما ترك شيئا علمه اللّه من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي كان أو يكون، ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته، فلم أنس حرفا واحدا

ثم وضع يده على صدري ودعا اللّه لي أن يملأ قلبي علما وفهما وحكما ونورا، فقلت: يا نبي اللّه بأبي أنت وأمي منذ دعوت اللّه لي بما دعوت لم أنس شيئا ولم يفتني شيء لم أكتبه

أفتتخوف علي النسيان فيما بعد؟ فقال: لا لست أتخوف عليك النسيان والجهل »

---

(٦٦٩) قال العضدي في كتاب المواقف (الشرح: ٨/٣٧٣): « في إمامة المفضول مع وجود الفاضل، منعه قوم لأنه قبيح عقلا فإن من ألزم الشافعي حضور درس بعض آحاد الفقهاء والعمل بفتواه عد سفيها قاضيا بغير قضية العقل، وجوزه الأكثرون، إذ لعله أصلح للإمامة من الفاضل، إذ المعتبر في ولاية كل أمر معرفة مصالحه ومفاسده وقوة القيام بلوازمه ورُبَّ مفضول في علمه وعمله هو بالزعامة أعرف وبشرائطها أقوم . وفصل قوم فقالوا: نصب الأفضل إن أثار فتنة لم يجب، وإلا وجب »

---

(٦٧٠) قال صاحب كتاب (المواقف) وشارحه (الشرح: ٨/ ٣٤٩): « حجة الخوارج (على عدم وجوبه ـ أي وجوب نصب الإمام ـ مطلقا) أن نصبه يثير الفتنة لأن الأهواء مختلفة فيدعي كل قوم إمامة شخص وصلوحه لها دون الآخر فيقع التشاجر والتناجز، والتجربة شاهدة بذلك

والجواب إنه يجب عندنا تقديم الأعلم، فإن تساويا فالأورع، وإن تساويا فالأسن، وبذلك تندفع الفتنة ... »

وقالا: « في شروط الإمامة: الجمهور على أن أهل الإمامة مجتهد في الأصول والفروع ليقوم بأمور الدين (متمكنا من إقامة الحجج وحل الشبه في العقائد الدينية مستقلا بالفتوى في النوازل والأحكام والوقائع نصا واستنباطا، لأن أهم مقاصد الإمامة حفظ العقائد وفصل الحكومات ورفع المخاصمات، ولن يتم ذلك بدون هذا الشرط) ذو رأي ليقوم بأمور الملك، شجاع ليقوى على الذب عن الحوزة

وقيل: لا يشترط هذه الصفات لأنها لا توجد فيكون اشتراطها عبثا أو تكليفا بما لا يطاق ومستلزما للمفاسد التي يمكن دفعها بنصب فاقدها

نعم يجب أن يكون عدلا لئلا يجور، عاقلا ليصلح للتصرفات، بالغا لقصور عقل الصبي، ذكرا إذ النساء ناقصات عقل ودين، حرا لئلا يشغله خدمة السيد، ولئلا يحتقر فيعصى

فهذه الصفات شروط بالإجماع، وههنا صفات في اشتراطها خلاف: الأولى أن يكون قرشيا (اشترطه الأشاعرة والجبائيان) ومنعه الخوارج وبعض المعتزلة

لنا: قوله عليه السلام: الأئمة من قريش، ثم إن الصحابة عملوا بمضمون هذا الحديث (فإن أبا بكر رضي اللّه عنه استدل به يوم السقيفة على الأنصار حين نازعوا في الإمامة بمحضر الصحابة فقبلوه) وأجمعوا عليه فصار قاطعا (يفيد اليقين باشتراط القرشية)

احتجوا (أي المانعون من اشتراطها) ...

الثانية: (من تلك الصفات) أن يكون هاشميا شرطه الشيعة

الثالثة: أن يكون عالما بجميع مسائل الدين، وقد شرطه الإمامية

الرابعة: ظهور المعجزة على يده، إذ به يعلم صدقه في دعوى الإمامة، والعصمة، وبه قال الغلاة

ويبطل الثلاثة إنا ندل على خلافة أبي بكر، ولا يجب له شيء مما ذكر

الخامسة: أن يكون معصوما، اشترطه الإمامية والإسماعيلية، ويبطله أن أبا بكر لا يجب عصمته اتفاقا »

يُنظر ما علق به الشيخ عبد الحسين الأميني على الاستدلال في كتابه الغدير (١٤٠/٧)

---

(٦٧١) قال الشيخ الأميني في كتابه (الغدير: ٣٦٥/١- ٣٦٦): « على فرض إرادة هذين المعنيين ـ أي المحب والناصر من كلمة (المولى) ـ لا يخلو إما أن يراد بالكلام حث الناس على محبته ونصرته بما أنه من المؤمنين به والذابين عنه أو أمره عليه السلام بمحبتهم ونصرتهم، وعلى كل فالجملة إما إخبارية أو إنشائية. فالاحتمال الأول وهو الإخبار بوجوب حبه على المؤمنين فمما لا طايل تحته، وليس بأمر مجهول عندهم لم يسبقه التبليغ حتى يأمر به في تلك الساعة ويناط التواني عنه بعدم تبليغ شيء من الرسالة كما في نص الذكر الحكيم فيحبس له الجماهير، ويعقد له ذلك المنتدى الرهيب، في موقف حرج لا قرار به، ثم يكمل به الدين، وتتم به النعمة، ويرضي الرب، كأنه قد أتى بشيء جديد، وشرع ما لم يكن وما لا يعلمه المسلمون، ثم يهنأه من هنأه بأصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، مؤذنا بحدوث أمر عظيم فيه لم يعلمه القائل قبل ذلك الحين، كيف وهم يتلون في آناء الليل وأطراف النهار قوله سبحانه: والمؤمنون (والمؤمنات) بعضهم أولياء بعض . وقوله تعالى: إنما المؤمنون إخوة . مشعرا بلزوم التوادد بينهم كما يكون بين الأخوين، نجل نبينا الأعظم عن تبليغ تافه مثله، ونقدس إلهنا

الحكيم عن عبث يشبهه

والثاني: وهو إنشاء وجوب حبه ونصرته بقوله ذلك، وهو لا يقل عن المحتمل الأول في التفاهة، فإنه لم يكن هناك أمر لم ينشأ وحكم لم يشرع حتى يحتاج إلى بيانه الإنشائي كما عرفت

على أن حق المقام على هذين الوجهين أن يقول صلى اللّه عليه وآله: من كان مولاي فهو مولى علي أي محبه وناصره، فهذان الاحتمالان خارجان عن مفاد اللفظ ...

على أن وجوب المحبة والمناصرة على هذين الوجهين غير مختص بأمير المؤمنين عليه السلام وإنما هو شرع سواء بين المسلمين أجمع، فما وجه تخصيصه به والاهتمام بأمره؟

وإن أريد محبة أو نصرة مخصوصة له تربو عن درجة الرعية كوجوب المتابعة، وامتثال الأوامر، والتسليم له، فهو معنى الحجية والإمامة، لا سيما بعد مقارنتها بما هو مثلها في النبي صلى اللّه عليه وآله بقوله: من كنت مولاه، والتفكيك بينهما في سياق واحد إبطال للكلام

والثالث: وهو إخباره بوجوب حبهم أو نصرتهم عليه، فكان الواجب عندئذ إخباره صلى اللّه عليه وآله عليا والتأكيد عليه بذلك لا إلقاء القول به على السامعين، وكذلك إنشاء الوجوب عليه وهو المحتمل الرابع، فكان صلى اللّه عليه وآله في غنى عن ذلك الاهتمام وإلقاء الخطبة واستسماع الناس والمناشدة في التبليغ، إلا أن يريد جلب عواطف الملأ وتشديد حبهم له عليه السلام إذا علموا أنه محبهم أو ناصرهم ليتبعوه، ولا يخالفوا له أمرا، ولا يردوا له قولا. وبتصديره صلى اللّه عليه وآله الكلام بقوله: (من كنت مولاه) نعلم أنه على هذا التقدير لا يريد من المحبة أو النصرة إلا ما هو على الحد الذي فيه صلى اللّه عليه وآله منهما، فإن حبه ونصرته لأمته ليس كمثلهما في أفراد المؤمنين، وإنما هو صلى اللّه عليه وآله يحب أمته فينصرهم بما أنه زعيم دينهم ودنياهم، ومالك أمرهم وكالئ حوزتهم، وحافظ كيانهم، وأولى بهم من أنفسهم، فإنه لو لم يفعل بهم ذلك لأجفلتهم الذئاب العادية، وانتأشتهم الوحوش الكواسر، ومدت إليه الأيدي من كل صوب وحدب، فمن غارات تشن، وأموال تباح، ونفوس تزهق، وحرمات تهتك، فينتقض غرض المولى من بث الدعوة، وبسط أديم الدين، ورفع كلمة اللّه العليا، بتفرق هاتيك الجامعة، فمن كان في المحبة والنصرة على هذا الحد فهو خليفة اللّه في أرضه وخليفة رسوله، والمعنى على هذا الفرض لا يحتمل غير ما قلناه... »

انتهى كلام (الغدير) ...

صورتـان

لتوضيح الأمر أقول: يأتي ببالي تصوران عما قام به النبي صلى اللّه عليه وآله يوم الغدير: الأول أن اللّه كان قد أمر نبيه (ص) بأن يبلغ الناس وجوب ولاية علي عليه السلام (أو يأمرهم بها)، وهو في هذه الصورة إنما كان تبليغا لأمر شرعي وإن كان مهما جدا ...

والصــورة الثانيــة: أن ما أُمر النبي صلى اللّه عليه وآله بإبلاغه الناس لم يكن (فرض) ولاية أمير المؤمنين عليه السلام و(وجوب) طاعته، كحكم تكليفي مباشر ...، بل بيان ما يتوقف عليه الدين وما لن يحصل الهدى من دونه، وهو أنه لا بد للإنسان من (مولى) ...، وهو ما كان (مؤمنو) المسلمين يعرفونه، وهو مما لن يخفى على عاقل ...، وهو ما رُكِّز عليه في هذه الأوراق ...، وفيما يلي بعض الإشارات إلى ذلك:

١ـ لو أراد النبي صلى اللّه عليه وآله بيان حكم شرعي (إخبارا أم إيجابا) لأطلق الحكم ولم يقيده بالمسلمين، أو بمن كان هو (ص) مولاهم، وهم المؤمنون، فإن وجوب طاعة النبي صلى اللّه عليه وآله لم يكن يقتصر على المؤمنين، بل كان يعم جميع الناس، فإن الكفار أيضا مكلفون حتى بالفروع (لاحظ ـ مثلا ـ مستمسك العروة: ٤٧/٩)، فكيف بطاعة النبي التي هي من أصول الدين ...

فقصر ولاية علي عليه السلام على المؤمنين الذين كان النبي صلى اللّه عليه وآله مولاهم يدل على أن ما أمر اللّه تعالى به النبي (ص) بإعلانه هو أن الإيمان لن يحصل لأحد إلا بأن يكون له (مولى) معين من اللّه عز وجل، فإن الإنسان الطالب للإيمان لن يؤمن إلا بمن عينه اللّه سبحانه...، والذي لا تتضارب ولايته مع رغباته الفطرية الأساسية، الأمر الذي تكرر الكلام عنه في هذه الأوراق (وسيأتي بصدده كلام مفصل في القسم اللاحق)

٢ـ ما أردت قوله هنا هو أن (الحب والنصرة) من ميول الإنسان الفطرية، فإنه محتاج إلى أن يحب وأن ينصر (بشرح لا مجال له الآن)، وكذلك بحاجة إلى محب وناصر، فلا يخفى على أحد أن الإنسان يحب أن يحبه الناس، وأن ينصروه ويدافعوا عنه فيما يقوم به، وأنه لا يشعر بالأمان بلا أن يحبه أو ينصره أحد، والذي قد يخفى على بعض الناس أن ذلك الحب ليس إلا لحاجته إليه في أصل خلقته أي أن اللّه عز وجل كان قد خلقه ليرغب في غيره ويطلب وده ونصرته

٣ـ على فرض أن ينال الإنسان بالارتياض المتكلف مقام الزهد التام في الناس، فيكون ما نقله الغزالي في الإحياء (٢٤٢/٣) عن (السري) أنه قال: « مارست كل شيء من أمر الزهد، فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس، فإني لم أبلغه ولم أطقه » تقصيرا منه أو قصورا فيه، فإنه خلاف الطبيعة الإنسانية، فلا يكون مطلوبا في الشرع ولو لم يَرد فيه شيء كالذي رواه ابن شعبة في (تحف العقول) عن أبي جعفر عليه السلام أن يوما قال رجل عنده: أللهم أغننا عن جميع خلقك . فقال عليه السلام: « لا تقل هكذا، ولكن قل: أللهم أغنني عن شرار خلقك، فإن المؤمن لا يستغني عن أخيه » . والذي رواه (الكافي: ٢٤٧/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « إن المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن الظمآن إلى الماء البارد » ...

٤ـ فليس هدف الدين (تبديل خلق اللّه) بل هداية ما يندفع إليه الإنسان بخلقته ...

٥ـ فبما أن الإنسان يحتاج في قرار ذاته إلى من يحبه وينصره ويدافع عنه، فلولا أن عين له اللّه عز وجل من يحبه وينصره ويهديه إليه، فإنه لا بد وأن يحتمي ببعض الناس ويتودد إليه...، فسوف يضل بذلك وإن كان معنيا بأمره وواعيا لنفسه، إذ لا أحد يهدي على الصراط المستقيم غير من اصطفاه اللّه عز وجل ...

٦ـ ليس معنى كون النبي صلى اللّه عليه وآله مولى المؤمنين، وبالتالي محبهم وناصرهم أنه كان ينصرهم ويحبهم بأشخاصهم، بل بما أنهم مؤمنون مجاهدون في سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم ...

هذا، وبصدد حاجة الإنسان إلى أن يحبه الناس قال الدكتور عبد العزيز القوصي في كتابه (علم النفس: أسسه و..) ص٢٦٣: « وأما الحاجة إلى أن يكون هو ـ أي الطفل ـ موضوع ميل أو يكون محبوبا من والديه وزملائه ورؤسائه ومواطنيه وغيرهم، فلا شك أيضا أنها حاجة أساسية قد تفسر (بالغريزة) الاجتماعية (وغريزة السيطرة) وما إلى ذلك »

ونقلت صحيفة (القبس) الكويتية في ٢٠١٠/١٠/١ عن (أ ف ب) ما يلي:

وبحسب دراسة مختصرة أعدتها جامعتا أمستردام ولايدن، طُلب من ٢٧ طالبا تراوح أعمارهم بين ١٨ و٢٥ عاما أن يسجلوا انطباعهم الأول تجاه طلاب آخرين قبل أن يقوم هؤلاء بدورهم بالأمر نفسه . وجهز الطلاب خلال إعطائهم إجاباتهم بكابلات وأجهزة استشعار، بهدف الحصول على صورة بيانية كهربائية للقلب . وكان معدل نبض قلب الطالب ينخفض عندما يبلغ بأن أحدهم لا يكنّ له شعورا طيبا

وهذا الإبطاء الذي يطلق عليه الباحثون اسم (القلب المحطم) كان أكثر وضوحا عندما يتعلق الأمر بصورة طالب يكنّ له الشخص الخاضع للاختبار شعورا طيبا. وخلصت هذه النتائج إلى أن (الرفض) الاجتماعي (يولد ردات فعل جسدية)

---

(٦٧٢) في كتاب (المنتظم: ٣/٣٦٠) لابن الجوزي: « ... عن علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، قال: فلما خرجوا وجد عليهم في شيء فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجمعوا حطبا، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها! قال: فهم القوم بدخولها . قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا النبي صلى الله عليه وسلم فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال لهم: لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا، إنما الطاعة بالمعروف

قال مؤلف الكتاب: أخرجاه في الصحيحين، وهذا الأمير الذي قال لهم عبد الله بن حذافة، وقول الراوي: رجل من الأنصار غلط، إنما هو من بني سهم »

وأقول: وروى البخاري تارة أنه أمرهم بذلك غضبا، وتارة أنه فعل ذلك (دعابة) ...

وعلى أي حال فإن هذا مما فصله جدا (روبرت سيالديني) في كتابه الذي ترجمه الدكتور سعد جلال باسم (التأثير: وسائل الإقناع)، وقد أورد فيه شواهد واقعية عديدة ...، منها دراسة معروفة كان قد قام بها أستاذ علم النفس (ستانلي ميلجرام)، ولأن ما نقله سيالديني طويل أكتفي باستنساخ شيء منه:

بعد أن ذكر (سيالديني) تجربة (ميلغرام)، وبعد أن قال: « كان أولئك الذين أجابوا على إعلان ميلجرام للاشتراك في تجربته عن (الذاكرة) يمثلون قطاعا مستعرضا مقننا لمستويات العمر والمستويات المهنية والتعليمية في مجتمعنا . وأكثر من ذلك، أنه ـ فيما بعد ـ بينت بطارية لموازين الشخصية أن أولئك الناس كانوا أسوياء تماما من الناحية النفسية ... إنهم كانوا ـ في الحقيقة ـ مثلي ومثلك تماما، أو أنهم كما كان ميلجرام يؤثر أن يطلق عليهم (أنت وأنا). فإذا كان على صواب في أن دراساته تدخلنا في نتائجها الرهيبة، فإن السؤال الذي لم يجب عنه بعد يصبح سؤالاً شخصيا لا يبعث على الراحة: (ما الذي يمكن أن يجعلنا نقوم بمثل هذه

الأشياء؟) » قال في (ص٢١٩- ٢٢٢، ط١ دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٨):

« إن ميلجرام متأكد أنه يعرف الإجابة . إنها تتعلق -كما يقول - بإحساس عميق بالواجب نحو السلطة متأصل فينا جميعا . فطبقا لميلجرام، فإن المجرم الحقيقي في تجاربه هو عجز مفحوصيه عن تحدي رغبات القائم على الدراسة أي الباحث ذي السترة الرمادية الذي كان يحث المفحوصين، ويوجههم - إذا اقتضى الأمر - لأداء واجباتهم، على الرغم من الإضرار الانفعالي والجسماني العمدي الذي كانوا يسببونه

إن الدليل الذي يدعم تفسير ميلجرام لطاعة السلطة دليل قوي . أولاً: من الواضح أنه لولا أوامر الباحث بالاستمرار، لكان المفحوصون قد أوقفوا التجربة سريعا . إنهم كانوا يكرهون ما كانوا يفعلون، وكانوا يئنون ألما من أنين ضحيتهم . إنهم كانوا يرجون الباحث أن يدعهم يتوقفون . فلما رفض، استمروا، إلا أنهم كانوا أثناء العملية يقشعرون، ويتدفق عرقهم، ويهتزون ويتلعثمون بالاحتجاجات وبمزيد من التوسلات من أجل إطلاق الضحية . لقد انغرست أظافرهم في لحمهم هم أنفسهم . وعضوا شفاههم حتى دميت، وأمسكوا رؤوسهم بأيديهم، واستسلم بعضهم لنوبات ضحك عصبي لا سيطرة لهم عليها، وكما كتب أحد الملاحظين الخارجيين للتجربة:

> شاهدت رجل أعمال ناضجا هادئا في البداية، يدخل المعمل مبتسما واثقا من نفسه. وفي خلال عشرين دقيقة انحط إلى حطام يتلوى ويتلعثم ويقترب سريعا من نقطة الانهيار العصبي .كان يشد باستمرار شحمة أذنه ويعصر يديه . وعند نقطة معينة، دفع بقبضته في جبهته وتمتم . « أوه، يا ربي، دعنا نوقف هذا الأمر » . ومع ذلك استمر في استجابته لكل كلمة من القائم بالتجربة وأطاع حتى النهاية

وبالإضافة إلى هذه المعاهدات، أمدنا ميلجرام بدليل أكثر إقناعا لتفسير سلوك مفحوصيه بالطاعة للسلطة . ففي دراسة تالية - مثلاً - جعل الباحث والضحية يتبادلان النصوص بحيث كان الباحث يطلب من المعلم التوقف عن إرسال الصدمات للضحية، بينما كان الضحية يصر بشجاعة أن يستمر المعلم. وكانت النتيجة في غاية الوضوح إذ رفض ١٠٠٪ من المفحوصات توجيه صدمة واحدة إضافية حينما كان الطالب لها مجرد زميل مفحوص . وقد ظهرت نتيجة سابقة في صيغة أخرى من التجربة حينما تبادل الباحث ومفحوص زميل الأدوار جيل كان الباحث هو الذي ربط في المقعد، وكان الزميل المفحوص هو الذي يأمر المعلم بالاستمرار رغم احتجاجات الباحث . ومرة أخرى لم يلمس مفحوص واحد أي ذراع أخرى للصدمات

تأكدت كذلك الدرجة المتطرفة التي كان فيها المفحوصون في موقف ميلجرام يقظين لرغبات السلطة، وذلك في صيغة أخرى للدراسة الأساسية . في هذه الحالة قدم ميلجرام للمعلم باحثين كانا يصدران أوامر متناقضة، فأحدهما كان يأمر المعلم بإنهاء الصدمات حينما يصيح الضحية طالبا إطلاق سراحه، بينما كان الآخر يتمسك بضرورة استمرار التجربة . وقد أبرزت هذه التعليمات المتناقضة، بوضوح ما يمكن أن يعتبر الفكاهة الوحيدة في المشروع . كان المفحوصون في حيرة تراجيدية كوميدية، تتحول أعينهم من باحث للآخر وهم يتضرعون لكليهما كي يتفقا على مطلب واحد يمكنهم اتباعه: « انتظرا، انتظرا، أيهما سوف ينفذ، واحد يقول توقف، والثاني يقول استمر . أيهما المطلوب!؟ » وحينما كان الباحثان يظلان على خلافهما، كان المفحوصون يحاولون باهتياج شديد تقرير أيهما الرئيس الأكبر . وعند فشل هذا الطريق نحو طاعة السلطة، كان كل من المفحوصين في النهاية يهتدي بغرائزه الأفضل وينهي الصدمات . وكما في الأشكال التجريبية الأخرى، كان من الصعب توقع مثل هذه النتيجة، لو أن دوافع المفحوصين كانت تتضمن أي شكل من السادية أو العدوان العُصابي

وفي رأي ميلجرام، أن ما تجمع لديه من بيانات يكشف ـ في تكرار ملح ـ عن ظاهرة تثير القشعريرة: « إن لب النتيجة الرئيسية للدراسة هو استعداد الكبار اللامحدود للذهاب إلى أبعد مدى في إذعانهم للسلطة » . وثمة مضامين مطمئنة لهذه النتيجة بالنسبة لأولئك الذين يهمهم قدرة شكل آخر من أشكال السلطة ـ الحكومة ـ على استخراج مستوى من الطاعة مفزعة، من المواطنين العاديين . هذا بالإضافة إلى أن النتيجة تحدثنا عما لضغوط السلطة من قوة مطلقة في التحكم في سلوكنا . فبعد مشاهدة مفحوصي ميلجرام وهم يتلقون ويعرقون ويعانون في أداء مهمتهم، هل يستطيع أحد الشك في مدى القوة التي قيدتهم هناك؟ »

وفي الهامش قال (سيالديني): « بدأ ميلجرام، في الحقيقة، بحوثه محاولا فهم أنه كان للمواطنين الألمان إسهام في إبادة معسكرات الاعتقال للملايين من الأبرياء في أثناء سنوات السيطرة النازية . إذ بعد أن قام باختيار إجراءاته التجريبية في الولايات المتحدة، كان قد خطط للانتقال بها إلى ألمانيا، وهي بلد كان متأكدًا أن سكانها سوف يمدونه بطاعة كافية لتحليل علمي كامل تمامًا للمفهوم . إلا أن هذه التجربة الأولى التي فتحت العين في نيوهافن . كونيتيكت، أوضحت أنه يستطيع توفير نقوده والبقاء بالقرب من موطنه . إذ قال: إني وجدت الكثير جدًا من الطاعة، فكان من الصعب أن أرى وجود حاجة لإنتقالي بالتجربة إلى ألمانيا

ولعل الدليل الأكثر إفصاحًا عن الاستعداد في الخُلق الأمريكي للخضوع لأمر سلطوي،

يأتي من دراسة مسحية قومية تمت بعد محاكمة الملازم وليم كالي الذي أمر جنوده بقتل السكان ـ من الرضع إلى الأطفال الذين يحبون إلى الوالدين إلى الأجداد ـ في بلدة ماي لاي في فيتنام . إذ استجابت نسبة ٥١٪ من الأمريكيين بأنهم إذا أمروا، في نفس الظروف، فإنهم بالمثل سوف يطلقون النار على كل سكان قرية فيتنامية . وانتهى القائمون بالاستفتاء إلى القول: إن بياناتنا توحي بأن كثيرًا من الأمريكيين يشعرون بأنه لا حق لهم في مقاومة المطالب السلطوية . وهم ينظرون إلى أفراد كالي في ماي لاي على أنها عادية، بل مرغوبة، لأنهم يرون أنه قام بها طاعة للسلطة الشرعية . (انظر كلمان ولورنس ... ١٩٧٢ لنتائج الدراسة المسحية بالكامل) »

هذا، وذكرت مواقع إلكترونية أن ستانلي ميلغرام كان قد قام بدراسته المشهورة المشار إليها في جامعة (يال) الأمريكية عام ١٩٦٣، وأنها مسجلة في فيلم وثائقي ...

وقد تكرر أن (روبرت سيالديني **Cialdini Robert**) بروفيسور مميز في مجال البحوث، يشغل حاليا أستاذ علم النفس في جامعة أريزونا ستيت

هذا، ونقلت وزارة القوى العاملة... المصرية في موقعها بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٢ عن قناة (CNN) الأمريكية ما يلي: « ماذا سيفعل الناس إذا طُلب منهم إطاعة الأوامر، والضغط على زر معيّن سيتسبب بصدمة كهربائية بقوة ٤٥٠ فولت، تترك آلاما وأوجاعا مبرحة لإنسان بريء؟

الإجابة هي أن معظمهم سيختار الضغط على هذا الزر، حتى وإن ظهرت آثار الألم على الضحية، أو قام بالصراخ، وطلب النجدة

هذا ما خرجت به دراسة ستنشر في يناير/كانون الثاني المقبل حول (سيكولوجيا الشر) وميل معظم البشر إلى إطاعة الأوامر دون نقاش، حتى وإن تركت آثارا مدمرة على الآخرين

وقال القيمون على الدراسة، إنهم تمكنوا بذلك من تحديد اللحظات التي تجعل بعض الأشخاص (وحوشا مفترسة)، وتجعل من آخرين أبطالا

ومن المقرر أن تُنشر الدراسة في مجلة (طبيب النفس الأمريكي)، وهي تعيد تأكيد صحة تجربة مماثلة أجراها عالم النفس المعروف، ستانلي ميلغرام، قبل عقود طويلة، حول كيفية تصرف البشر تحت ضغط الأوامر المباشرة ... »

(٦٧٣) في الكافي (٥/٤٩٤) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « جاءت امرأة عثمان ابن مظعون إلى النبي صلّى اللّه عليه وآله فقالت: يا رسول اللّه إن عثمان يصوم النهار ويقوم الليل، فخرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله مغضبا يحمل نعليه حتى جاء إلى عثمان، فوجده يصلي، فانصرف عثمان حين رأى رسول صلى اللّه عليه وآله، فقال له: يا عثمان لم يرسلني اللّه تعالى بالرهبانية، ولكن بعثني بالحنيفية السهلة السمحة: أصوم وأصلي وألمس أهلي، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي، وإن من سنتي النكاح »

وفي البخاري (٦/١١٩)...، عن سعيد بن المسيب أنه سمع سعد بن أبي وقاص يقول: « لقد رد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا »

ونقل الواحدي في كتابه (أسباب النزول ص٢٠٧) عن ابن عباس أن رجلا أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم وقال: إني إذا أكلت هذا اللحم انتشرت إلى النساء، وإني حرمت عليّ اللحم فنزلت: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ونزلت (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ)

وفيما يلي بعض الشواهد الأخرى: في البخاري (٤/٧٢) ـ في قصة حاطب بن أبي بلتعة ـ : « فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: يا حاطب ما هذا؟

قال: يا رسول اللّه لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقا في قريش، ولم أكن من أنفسها، ... فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرا ولا ارتدادا، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: لقد صدقكم

قال عمر: يا رسول اللّه دعني أضرب عنق هذا المنافق

قال: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل اللّه أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »

وأيضا في البخاري ـ الأدب ـ (٨/٤٧): عن أبي سعيد الخدري قال: « بينا النبي صلى اللّه عليه وسلم يقسم ذات يوم قسما فقال ذو الخويصرة ـ رجل من بني تميم ـ: يا رسول اللّه اعدل! قال: ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟! فقال عمر: ائذن لي فلأضرب عنقه، قال: لا ... »

وأيضا في البخاري / الجنائز (٢/١١٧): ـ في قصة ابن صياد ـ : « ...، فقال عمر رضي

اللّه عنه: دعني يا رسول اللّه أضرب عنقه، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: إن يكُنْه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله »

وأيضا في البخاري (١٩١/٦) ـ في قصة شجار المهاجري والأنصاري ـ : « ...، فسمع بذلك عبد اللّه بن أبي فقال: فعلوها؟! أما واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي صلى اللّه عليه وسلم، فقام عمر فقال: يا رسول اللّه دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه »

---

(٦٧٤) يبدو أنهم المقصودون بـ(المستحفظين) في ما نقله نهج البلاغة (الخطبة ١٩٧) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « ولقد علم المستحفِظون من أصحاب محمد صلى اللّه عليه وآله ... »، لا ما زعمه ابن أبي الحديد حيث قال ـ في شرح نهج البلاغة (١٠/١٨٠) ـ : « يمكن أن يعنى بالمستحفظين الخلفاء الذين تقدموا، لأنهم الذين استحفظوا الإسلام، أي جعلوا حافظين له، وحارسين لشريعته ولحوزته، ويجوز أن يعنى به العلماء والفضلاء من الصحابة، لأنهم استحفظوا الكتاب، أي كلفوا حفظه وحراسته »

---

(٦٧٥) في الكافي (٦٤/١) عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: « ...، وليس كل أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله يسأله عن الشيء فيفهم، وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه ... »

---

(٦٧٦) في الكافي (٢٤٥/٨) عن حنان، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى اللّه عليه وآله إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ فقال: المقداد ابن الأسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي رحمة اللّه وبركاته عليهم، ثم عرف أناس بعد يسير، وقال: هؤلاء الذين دارت عليهم الرحى وأبوا أن يبايعوا حتى جاؤوا بأمير المؤمنين عليه السلام مكرها فبايع، وذلك قول اللّه تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

---

(٦٧٧) في البحار (٢٢/ ٣٥٢) ـ نقلا عن الكشي ـ عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: ارتد الناس إلا ثلاثة: أبو ذر وسلمان والمقداد . قال: فقال أبو عبد اللّه عليه

السلام: فأين أبو ساسان وأبو عمرة الأنصاري؟

فعلق عليه العلامة المجلسي بقوله: « لعل السائل توهم أن الجميع مضوا على الردة ولم يرجعوا، فرد عليه وأخبر باللذين رجعا عن قريب »

وفي الكافي (٢٩٦/٨) عن عبد الرحيم القصير أنه قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن الناس يفزعون إذا قلنا: إن الناس ارتدوا فقال: يا عبد الرحيم إن الناس عادوا بعدما قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله أهل جاهلية، إن الأنصار اعتزلت فلم تعتزل بخير جعلوا يبايعون سعدا وهم يرتجزون ارتجاز الجاهلية: (يا سعد أنت المرجى، وشعرك المرجل، وفحلك المرجم)

---

(٦٧٨) في الكافي (٢٩٥/٨) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « إن الناس لما صنعوا ما صنعوا إذ بايعوا أبا بكر لم يمنع أمير المؤمنين عليه السلام من أن يدعو إلى نفسه إلا نظرا للناس وتخوفا عليهم أن يرتدوا عن الإسلام فيعبدوا الأوثان ولا يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وكان الأحب إليه أن يقرهم على ما صنعوا من أن يرتدوا عن جميع الإسلام، وإنما هلك الذين ركبوا ما ركبوا، فأما من لم يصنع ذلك ودخل فيما دخل فيه الناس على غير علم ولا عداوة لأمير المؤمنين عليه السلام فإن ذلك لا يكفره ولا يخرجه من الإسلام، ولذلك كتم علي عليه السلام أمره وبايع مكرها حيث لم يجد أعوانا »

وفي (علل الشرائع: ١٥٠/١): أبي رحمه اللّه قال: حدثنا سعد بن عبد اللّه، قال: حدثنا أحمد ابن محمد بن عيسى، عن العباس بن معروف، عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن بريد ابن معاوية، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن عليا عليه السلام لم يمنعه من أن يدعو الناس إلى نفسه إلا أنهم إن يكونوا ضلالا لا يرجعون عن الإسلام أحب إليه من أن يدعوهم فيأبوا عليه فيصيرون كفارا كلهم

ويُنظر نهج البلاغة: الكتاب ٦٢ ...

---

(٦٧٩) لا أقصد ما نقل من أن النبي صلى اللّه عليه وآله قد عمّم عليا (ع) بعمامة السحاب، باعتبار العمائم تيجان العرب (الغدير: ج١ ص٢٩٠...)، ولا أمْره (ص) الناس ببيعة أمير المؤمنين عليه السلام على الإمرة وتهنئته بها (الغدير: ج١ ص٢٦٩...)، ولا أمره (ص) المناهضين لإمرة أمير المؤمنين بالخروج في غزاة بإمرة (أسامة) ...، وإنما أقصد بالفرض العملي لإمرة أمير

المؤمنين (ع) نصبه إماما في الصلاة، وإيكال شؤون الحكم إليه ...

---

(٦٨٠) قد يشير إلى هذا ما في الكافي (٣٧٦/١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: قال اللّه تبارك وتعالى: لأعذّبنّ كلّ رعيّة في الإسلام دانت بولاية كلّ إمام جائر ليس من اللّه وإن كانت الرعية في أعمالها برّة تقيّة، ولأعفونّ عن كلّ رعيّة في الإسلام دانت بولاية كلّ إمام عادل من اللّه وإن كانت الرعية في أنفسها ظالمة مسيئة

---

(٦٨١) يُنظر كتاب (الإرشاد)، و(شرح نهج البلاغة: ٤٤/٢) لابن أبي الحديد

---

(٦٨٢) قال الدكتور عبد العزيز القوصي في كتابه (علم النفس:.. ص٣٨٣): « وقد أصبحت فكرة الفرد فكرة نظرية مجردة لا تدل على الواقع، فإذا وجد الفرد فهناك جماعة أو جماعات ينتمي إليها، وإذا وجدت الجماعة، فإنها تتكون من أفراد ... »

---

(٦٨٣) نقلنا في القسم السابق: هامش فصل (**لابد من إمام...**) بعض ما قيل في الآية الكريمة

---

(٦٨٤) هذا مما لا يكاد يخفى على باحث ...، ويُنظر تجربة (ستانلي ميلغرام) التي أورد قسما منها (روبرت سيالديني) في كتابه الذي ترجمه الدكتور سعد جلال باسم (التأثير: وسائل الإقناع)، وقد نقلناه قبل قليل

---

(٦٨٥) في المصباح: « ...، واليمين: القوّة والشدّة ... »

وفي مقاييس اللغة: « ... اليمين: القوّة ...، واليمين: الحلف، وكلّ ذلك من اليد اليمنى. وسمّي الحلف يمينا لأنّ المتحالفين كأنّ أحدهما يصفق بيمينه على يمين صاحبه »

وفي تفسير الميزان: « وقوله: (قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ) أي من جهة الخير والسعادة فاستعمال اليمين فيها شائع كثير كقوله: (وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ)...، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير والسعادة فتقطعون الطريق وتحولون بيننا وبين الخير

والسعادة وتضلوننا

وقيل: المراد باليمين الدين وهو قريب من الوجه السابق، وقيل: المراد باليمين القهر والقوة كما في قوله تعالى: (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) ...، ولا يخلو من وجه نظرا إلى جواب المتبوعين »

وفي تفسير قول الله تعالى: (قالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) قال الرازي: « وفي تفسير (اليمين) وجوه: الأول: أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات، وبيان كيفية هذه الاستعارة أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه أحدها اتفاق الكل على أن أشرف الجانبين هو اليمين

والثاني: لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل والشرب، وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى

الثالث: أنهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح

الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلّم كان يحب التيامن في كل شيء

الخامس: أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات، والأيسر لكاتب السيئات

السادس: أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه، والمسيء أن يؤتى كتابه بيساره، فثبت أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر، وإذا كان كذلك لا جرم استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات، فقوله: (إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) يعني أنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة الحق وتقوية الصدق

والوجه الثاني: في التأويل أنه يقال: (فلان يمين فلان) إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة، فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر: إنكم كنتم تخدعوننا وتوهمون لنا، أننا عندكم بمنزلة اليمين، أي بالمنزلة الحسنة، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم

الوجه الثالث: أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق، فوثقوا بإيمانهم وتمسكوا بعهودهم التي عهدوها لهم، فمعنى قوله: (كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) أي من ناحية المواثيق والأيمان التي قدمتموها لنا

الوجه الرابع: أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر، لأن اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتعيرونا عليه »

---

(٦٨٦) قال اللّه تعالى (محمد: ١٤): (أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم)

---

(٦٨٧) في الكافي (١٣٤/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: « كان أبو ذر رضي اللّه عنه يقول في خطبته: ...

يا مبتغي العلم قدّم لمقامك بين يدي اللّه عز وجل فإنك مثاب بعملك كما تدين تدان »

---

(٦٨٨) قال اللّه تعالى (الواقعة: ٩٠- ٩١): (وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِين)

---

(٦٨٩) قال اللّه عز وجل (الحاقة: ١٩- ٢٠): (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه . إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه)

---

(٦٩٠) كغرائز البحث عن الطعام عند الإحساس بالجوع، والبحث عن الشراب عند الشعور بالعطش، ودفع الخطر عند الإحساس به، ودفع الألم الشديد عند الإحساس به ...، فإن الإنسان يندفع إلى تلبيتها قبل أي شيء آخر، ولكن لا مطلقا بل إذا كانت شديدة مستفحلة

---

(٦٩١) قد يرشد إليه قول اللّه تعالى (فاطر: ١٨): (وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)، وقد خصه المفسرون بأن تزكي الإنسان لا ينفع اللّه تعالى فإنه الغني ...

وكذلك قد يرشد إليه قوله تعالى (الإسراء: ٧): (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) ...

وفـي تفسـير الميـزان (١٨٧/٦): « ... والإنسـان يرى بالفطرة أنه لا يأخذ شيئا ولا يترك شيئا إلا لنفع نفسـه »

ويُنظر السيد محمد باقر الصدر في كتابه (اقتصادنا) ص٣٠٩

هـذا، وليُنتبه إلى أن كثيرين يتصورون (ذات) الإنسـان نفسـه الأمارة بالسـوء فلذلـك يرون (حب الـذات) سيئا ...، وقد وقع في هـذا الخطأ حتى بعض المحققين من علماء النفس، يُنظر ـ مثلا ـ الـدكتور عبد العزيز القوصي في كتابـه (علم النفس: أسسـه وتطبيقاته) ص٢٨٥ ومـا بعدها

---

(٦٩٢) سبق في القسـم السـابق، فصل **(لارتاب المبطلون)**، معنى (الإبطال) في قول اللّه تعالى (العنكبوت: ٤٨): (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)

---

(٦٩٣) يُـنظر كلام ابن أبي الحديد في شرحـه (٣٩٠/٦) الخطبـة٨٩ من نهج البلاغة، وقـد نقلناه تحت عنوان **(ثـلاث خصائـص)** عند الحديث عن أن النـاس في عهد النبي كانوا يؤمنون به (ص) ...، أو لخاصية في قراءة النبي (ص) وتلاوته للقرآن، لا لكونهـا معجزة خارقة

---

(٦٩٤) في كتـاب (المواقف ـ الشرح: ٢١٨/٨ـ ٢٢٢) قـال (العضـدي): « وأمـا الفلاسـفة فقالوا: هو ـ أي النبي ـ من اجتمع فيه خواص ثلاث: إحداها أن يكون له اطلاع على المغيبات، ولا يستنكر لأن النفوس الإنسـانية مجردة ...

وثانيهـا: أن يظهر منه الأفعـال الخارقة للعـادة لكون هيولى عـالم العناصر مطيعة لـه منقـادة لتصرفـاته انقيـاد بدنه لنفسه، ولا يستنـكر لأن النفوس الإنسـانية وهي بتصوراتهـا مؤثرة في المواد (البدنية) كمـا تشـاهد من الاحمرار والاصفرار والتسـخن عند الخجل والوجل والغضـب، ومن السـقوط من المواضـع العالية القـليلة العرض يتصور السـقوط وإن كان ممشـاه في غيرهـا أقل عرضـا، فلا يبعـد أن تقوى نفس النبي حتى تحـدث بإرادتـه في الأرض رياح وزلازل وحرق وغرق وهـلاك أشـخاص ظالمـة وخراب مـدن فاسـدة ...

وثالثهـا: أن يرى الملائكة مصـورة ويسـمع كلامهم وحيا، ولا يستنـكر أن يحصـل لـه في

يقظته مثل ما يحصل للنائم في نومه لتجرد نفسه عن الشواغل البدنية وسهولة انجذابه إلى عالم القدس ...

قلنا هذا تلبيس وتستر لأنهم لا يقولون بملائكة يرون بل الملائكة عندهم نفوس مجردة ...

ثم إنهم قالوا: من اجتمعت فيه هذه الخواص انقادت له النفوس البشرية مع ما جبلت عليه من الإباء، وذلت له الهمم المتفاوتة على ما هي عليه من اختلاف الآراء فيصير سببا لقرار الشريعة التي بها يتم التعاون الضروري لنوع الإنسان من حيث إنه لا يستقل دون مشاركة من أبناء جنسه في المعاملات والمعاوضات، ولولا شريعة ينقاد لها الخاص والعام لاشرأبت كل نفس إلى ما يريده غيره وطمح عين كل إلى ما عند الآخر فحصل التنازع وأدى إلى التواثب والتشاجر والتقاتل والتناحر وشمل الهرج والمرج ... »

وليس خافيا أن تسويد الكلمات مني

---

(٦٩٥) سورة آل عمران: ١٥٩

وقد مر الكلام عن هذا في فصل عنون بـ(**واقع النبوة**)

---

(٦٩٦) تكرر هذا في القسم السابق . يُنظر ـ مثلا ـ فصل (**سورة الكوثر قرآن**)

---

(٦٩٧) إن شاء اللّه سيخصص فصل في القسم اللاحق للكلام عن (**السنة**)

---

(٦٩٨) قال السيد المرتضى في كتابه (تنزيه الأنبياء): « ...، قلنا: لا شبهة في أن من نجوز عليه كبائر المعاصي ولا نأمن منه الإقدام على الذنوب، لا تكون أنفسنا ساكنة إلى قبول قوله واستماع وعظه كسكونها إلى من لا نجوز عليه شيئا من ذلك ...

فإن قيل: أليس قد جوز كثير من الناس على الأنبياء عليهم السلام الكبائر مع أنهم لم ينفروا عن قبول أقوالهم والعمل بما شرعوه من الشرائع، وهذا ينقض قولكم: إن الكبائر منفرة؟

قلنا: هذا سؤال من لم يفهم ما أوردناه، لأنا لم نرد بالتنفير ارتفاع التصديق وأن لا يقع

امتثال الأمر جملة، وإنما أردنا ما فسرناه من أن سكون النفس إلى قبول قول من يجوز ذلك عليه لا يكون على حد سكونها إلى من لا يجوز ذلك عليه ... »

وقال ابن ميثم البحراني في كتابه (قواعد المرام): « ينبغي (كذا) أن يكون ـ أي النبي ـ منزها عن كل أمر تنفر عن قبوله، إما في خلقه ...، أو في نسبه ...، لأن جميع هذه الأمور صارف عن قبول قوله والنظر في معجزته، فكانت طهارته عنها من الألطاف التي فيها تقريب الخلق إلى طاعته واستمالة قلوبهم إليه »

---

(٦٩٩) مثلا، قال السيد الخميني في كتاب (الاجتهاد والتقليد ص٩): « ...، ثم بعد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كان الأئمة عليهم السلام ـ واحدا بعد واحد ـ سلطانا وحاكما على العباد ونافذا حكمهم من قبل نصب اللّه تعالى ونصب النبي بمقتضى الآية المتقدمة (أي الآية ٥٩ من سورة النساء) والروايات المتواترة بين الفريقين عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، وأصول المذهب »

---

(٧٠٠) في نهج البلاغة (الخطبة: ٣ ـ الشقشقية): « أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ اللّه على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ... »

وفي البحار (٤٩/١٤٦) ـ نقلا عن الإرشاد ـ : ...، ثم قال المأمون للرضا عليه السلام: اخطب الناس وتكلم فيهم . فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: « لنا عليكم حق برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ولكم علينا حق به، فإذا أنتم أديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم »، ولا يذكر عنه غير هذا في ذلك المجلس (أي مجلس البيعة)

---

(٧٠١) روى القوم عن النبي صلى اللّه عليه وآله أنه قال: « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا »، قال ابن الحجر في (فتح الباري: ٨/٦١): « أخرجه أحمد وأصحاب السنن، وصححه ابن حبان وغيره من حديث سفينة »، ونقله الشيخ الأميني (للاحتجاج) في كتابه الغدير (١٠/٤٠) عن المناوي في شرح حديث الجامع الصغير بصيغة: (الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة)، ولا يخفى أن في الحديث اعترافا بالخلافة ...

وعلى أي حال فأيضا رووا عنه (ص) أنه قال: « هلاك هذه الأمة على يدي أغيلمة من قريش » والذي أخرجه ـ مثلا ـ الحاكم في المستدرك (٤٧٩/٤) وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولهذا الحديث توابع وشواهد عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وصحابته الطاهرين والأئمة من التابعين لم يسعني إلا ذكرها ... »

---

(٧٠٢) قال سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن: ٨٢٨/٢) ـ بعد أن ذكر آيات منها قول اللّه تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ) ـ: « وهكذا تتبين القضية.. إله واحد. وخالق واحد . ومالك واحد .. وإذن فحاكم واحد. ومشرع واحد. ومتصرف واحد .. وإذن فشريعة واحدة، ومنهج واحد، وقانون واحد .. وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل اللّه، فهو إيمان وإسلام . أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل اللّه فهو كفر وظلم وفسوق.. وهذا هو الدين كما أخذ اللّه ميثاق العباد جميعا عليه، وكما جاء به كل الرسل من عنده .. أمة محمد والأمم قبلها على السواء ..

ولم يكن بد أن يكون (دين اللّه) هو الحكم بما أنزل اللّه دون سواه. فهذا هو مظهر سلطان اللّه . مظهر حاكمية اللّه. مظهر أن لا إله إلا اللّه

وهذه الحتمية: حتمية هذا التلازم بين (دين اللّه) و(الحكم بما أنزل اللّه) لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل اللّه خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع . فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية

وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي . إنما السبب الأول والرئيسي، والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي أن الحكم بما أنزل اللّه إقرار بألوهية اللّه، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه . وهذا هو (الإسلام) بمعناه اللغوي: (الاستسلام) وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان .. الإسلام للّه .. والتجرد عن ادعاء الألوهية معه وادعاء أخص خصائص الألوهية، وهي السلطان والحاكمية، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة والقانون ...

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات في سياق السورة: ...

.. ذلك أن الذين لا يحكمون بما أنزل اللّه يعلنون رفضهم لألوهية اللّه ـ سبحانه ـ ورفضهم لإفراد اللّه ـ سبحانه ـ بهذه الألوهية . يعلنون هذا الرفض بعملهم وواقعهم ولو لم يعلنوه بأفواههم

وألسنتهم . ولغة العمل والواقع أقوى وأكبر من لغة الفم واللسان . ومن ثم يصمهم القرآن بالكفر والظلم والفسق، أخذا من رفضهم لألوهية اللّه حين يرفضون حاكميته المطلقة وحين يجعلون لأنفسهم خاصة الألوهية الأولى فيشرعون للناس من عند أنفسهم ما لم يأذن به اللّه »

وفي تفسير الرازي (٣٦٧/١٢): « قالت الخوارج: كل من عصى اللَّه فهو كافر . وقال جمهور الأئمة: ليس الأمر كذلك، أما الخوارج فقد احتجوا بهذه الآية وقالوا: إنها نص في أن كل من حكم بغير ما أنزل اللَّه فهو كافر، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل اللَّه، فوجب أن يكون كافرا

وذكر المتكلمون والمفسرون أجوبة عن هذه الشبهة: الأول: أن هذه الآية نزلت في اليهود فتكون مختصة بهم، وهذا ضعيف لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومنهم من حاول دفع هذا السؤال فقال: المراد: ومن لم يحكم من هؤلاء الذين سبق ذكرهم بما أنزل اللَّه فأولئك هم الكافرون، وهذا أيضا ضعيف لأن قوله: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ) كلام أدخل فيه كلمة (مَن) في معرض الشرط، فيكون للعموم . وقول من يقول: المراد: ومن لم يحكم بما أنزل اللَّه من الذين سبق ذكرهم فهو زيادة في النص وذلك غير جائز

الثاني: قال عطاء: هو كفر دون كفر. وقال طاوس: ليس بكفر ينقل عن الملة كمن يكفر باللَّه واليوم الآخر، فكأنهم حملوا الآية على كفر النعمة لا على كفر الدين، وهو أيضا ضعيف لأن لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر في الدين

والثالث: قال ابن الأنباري: يجوز أن يكون المعنى: ومن لم يحكم بما أنزل اللَّه فقد فعل فعلا يضاهي أفعال الكفار، ويشبه من أجل ذلك الكافرين، وهذا ضعيف أيضا لأنه عدول عن الظاهر

والرابع: ...

والخامس: قال عكرمة: قوله: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ) إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أما من عرف بقلبه كونه حكم اللَّه وأقر بلسانه كونه حكم اللَّه إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل اللَّه تعالى، ولكنه تارك له، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية، وهذا هو الجواب الصحيح واللَّه أعلم »

وفي تفسير الميزان (٣٤٨/٥): « والآيات الثلاث أعني قوله: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ، فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ) آيات مطلقة لاتختص

بقوم دون قوم، وإن انطبقت على أهل الكتاب في هذا المقام

وقد اختلف المفسرون في معنى كفر من لم يحكم بما أنزل اللّه كالقاضي يقضي بغير ما أنزل اللّه، والحاكم يحكم على خلاف ما أنزل اللّه، والمبتدع يستن بغير السنة، وهي مسألة فقهية الحق فيها أن المخالفة لحكم شرعي أو لأي أمر ثابت في الدين في صورة العلم بثبوته والرد له توجب الكفر، وفي صورة العلم بثبوته مع عدم الرد له توجب الفسق، وفي صورة عدم العلم بثبوته مع الرد له لا توجب كفرا ولا فسقا لكونه قصورا يعذر فيه إلا أن يكون قصر في شيء من مقدماته، وليراجع في ذلك كتب الفقه »

---

(٧٠٣) في التفسير الأمثل (٨/٢٥): « إن حفظ القرآن منذ عصر ظهور الإسلام أصبح سنة حية في حياة المسلمين، من خلال ما أمر وأكد عليه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم (وهو ما تعضده الروايات الكثيرة)، وإلى هنا نعاود طرح السؤال: هل هناك مجال لاحتمال وجود التحريف في القرآن؟!

بالإضافة إلى ما تقدم تواجهنا مسألة (كتاب الوحي) وهم الأشخاص الذين أوكل إليهم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مهمة تسجيل الآيات القرآنية بعد نزولها، ويذكر أن عددهم كان بين ١٤ـ ٤٣ رجلا

يقول أبو عبد اللّه الزنجاني في كتابه القيم (تاريخ القرآن): (كان للنبي كتاب يكتبون الوحي وهم ثلاثة وأربعون، أشهرهم الخلفاء الأربعة، وكان ألزمهم للنبي زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب عليه السلام) فكيف لكتاب له كل هؤلاء الكتاب أن تمتد إليه يد التحريف؟! »

يقول كاتب هذه الأوراق: كان ينبغي التحقق من أنه كان للنبي (ص) كتاب وحي، ثم توثيقه...

---

(٧٠٤) يُنظر ما قد وجهه الباحثون الشيعة من الإشكال على الخلفاء في منعهم عن كتابة الحديث ...، فيُقرأ ـ مثلا ـ كتاب (معالم المدرستين: ٢/ ٤٠) للسيد مرتضى العسكري

وأرى أنه بغض النظر عما قصده الخلفاء من منعهم كتابة أحاديث النبي (ص) فإنه لم يبد لي أن المعصومين (ع) قاموا بكتابتها أو دفع الناس إليه، وهذا هو الأوفق بطريقتهم ...، وكتابة

علي عليه السلام ما أملاه عليه النبي (ص) لم يكن للنشر ...

بل ولم يثبت عن النبي (ص) أنه حث على كتابة الحديث، حتى لو ثبت أن قريشا نهت عبد اللّٰه ابن عمرو بن العاص عن كتابة كلام النبي (ص)، فقال له: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق (وقد أومأ بإصبعه إلى فيه)، فإن ذلك لا يدل على أنه (ص) كان يرغب في ذلك ويحث عليه ...

---

(٧٠٥) قال الرازي: « ...، المسألة الأولى: في الآية سؤال وهو أن قوله: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) يقتضي أن الدين كان ناقصا قبل ذلك، وذلك يوجب أن الدين الذي كان صلى اللّٰه عليه وسلم مواظبا عليه أكثر عمره كان ناقصا، وأنه إنما وجد الدين الكامل في آخر عمره مدة قليلة

واعلم أن المفسرين لأجل الاحتراز عن هذا الأشكال ذكروا وجوها: الأول: أن المراد من قوله: (أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) هو إزالة الخوف عنهم وإظهار القدرة لهم على أعدائهم، وهذا كما يقول الملك عندما يستولي على عدوه ويقهره قهرا كليا: اليوم كمل ملكنا

وهذا الجواب ضعيف لأن ملك ذلك الملك كان قبل قهر العدو ناقصا

الثاني: أن المراد إني أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكاليفكم من تعلم الحلال والحرام

وهذا أيضا ضعيف لأنه لو لم يكمل لهم قبل هذا اليوم ما كانوا محتاجين إليه من الشرائع كان ذلك تأخيرا للبيان عن وقت الحاجة، وأنه لا يجوز

الثالث: وهو الذي ذكره القفال وهو المختار: أن الدين ما كان ناقصا ألبتة، بل كان أبدا كاملا، يعني كانت الشرائع النازلة من عند اللّٰه في كل وقت كافية في ذلك الوقت، إلا أنه تعالى كان عالما في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه، فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيد بعد العدم، وأما في آخر زمان المبعث فأنزل اللّٰه شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبدا كان كاملا، إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص، والثاني كمال إلى يوم القيامة، فلأجل هذا المعنى قال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) ...

المسألة الثالثة: قال أصحابنا: هذه الآية دالة على بطلان قول الرافضة، وذلك لأنه تعالى

بيّن أن الذين كفروا يئسوا من تبديل الدين، وأكد ذلك بقوله: (فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ)، فلو كانت إمامة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه منصوصا عليها من قِبل اللّه تعالى وقبل رسول صلى اللّه عليه وسلم نصا واجب الطاعة لكان من أراد إخفاءه وتغييره آيسا من ذلك بمقتضى هذه الآية فكان يلزم أن لا يقدر أحد من الصحابة على إنكار ذلك النص وعلى تغييره وإخفائه، ولما لم يكن الأمر كذلك، بل لم يجر لهذا النص ذكر، ولا ظهر منه خبر ولا أثر علمنا أن ادعاء هذا النص كذب، وأن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ما كان منصوصا عليه بالإمامة

المسألة الرابعة: قال أصحاب الآثار: إنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يعمر بعد نزولها إلا أحدا وثمانين يوما أو اثنين وثمانين يوما، ولم يحصل في الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل ألبتة ... »

ويُنظر ما قاله في تفسير قول اللّه تبارك وتعالى (الحجر: ٩): (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

---

(٧٠٦) في البخاري (١٢٥/٢) عن أبي هريرة أنه قال: قال أبو بكر رضي اللّه عنه: واللّه لو منعوني عناقا كانوا يؤدونه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لقاتلتهم على منعها، قال عمر رضي اللّه عنه: فما هو إلا أن رأيت أن اللّه شرح صدر أبي بكر رضي اللّه عنه بالقتال فعرفت أنه الحق

وفي مسند أحمد (٥٢٨/٢) عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا اللّه، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على اللّه

قال: فلما قام أبو بكر وارتد من ارتد أراد أبو بكر قتالهم قال عمر: كيف تقاتل هؤلاء القوم وهم يصلون؟! قال فقال أبو بكر: واللّه لأقاتلن قوما ارتدوا عن الزكاة، واللّه لو منعوني عناقا مما فرض اللّه ورسوله لقاتلتهم، قال عمر: فلما رأيت اللّه شرح صدر أبي بكر لقتالهم عرفت أنه الحق

هذا، وفي البخاري (الحديث ٧٠٥٣) أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: من كره من أميره شيئا فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية

(٧٠٧) سيأتي في القسم اللاحق من هذه المذكرات، وقسم (الأئمة عليهم السلام) ...

---

(٧٠٨) في مسند ابن حنبل (١/١٤) أن أبا بكر قال في أوّل خطبة له خطبها: يا أيها الناس ولوددت أن هذا كفانيه غيري، ولئن أخذتموني سنة نبيكم صلى اللّه عليه وسلّم ما أطيقها، إن كان لمعصوما من الشيطان، وإن كان لينزل عليه الوحي من السماء

ونقل الشيخ الأميني في كتابه الغدير (٧/١١٨) عن الطبقات والطبري أن أبا بكر قال: « أما واللّه ما أنا بخيركم، ولقد كنت لمقامي هذا كارها، ولوددت أن فيكم من يكفيني، أفتظنون أني أعمل فيكم بسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ إذن لا أقوم بها، إن رسول اللّه كان يعصم بالوحي، وكان معه ملك، وإن لي شيطانا يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني أن لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم، ألا فراعوني فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني »

وفي لفظ ابن سعد: « ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني، فإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني، وإن رأيتموني غضبت فاجتنبوني لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم »

ونقل عن عمر بن الخطاب أنه قال: « أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول اللّه مصيبا لأن اللّه كان يريه، وإنما هو منا الظن والتكلف »

ورواه أبو داود في سننه (٢/١٦١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/١١٧) ...

---

(٧٠٩) سيأتي الكلام عنه في القسم اللاحق، وقسم (الأئمة عليهم السلام)

وفي نهج البلاغة (الخطبة ٩٧): « ... ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي ... »

---

(٧١٠) نقلنا ما استند إليه ابن تيمية بهذا الصدد في فصل عنونّاه بـ(**لئن وليتهم...**)

---

(٧١١) في كتاب البخاري (كتاب فضائل الصحابة، الحديث ٣٦٥٥) عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى اللّه عليه وسلم فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان

وفي نفس الكتاب (الحديث ٣٦٩٨) عن ابن عمر قال: كنا في زمن النبي صلى اللّه عليه وسلم لا نعدل بأبي بكر أحدا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم لا نفاضل بينهم

وأيضا في نفس الكتاب (الحديث ٣٦٧١) عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قال: أبو بكر . قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر. وخشيت أن يقول: عثمان قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين

وقال عبد الوهاب الشعراني في (اليواقيت ص٤٣٧): « المبحث ... في بيان أن أفضل الأولياء المحمديين بعد الأنبياء والمرسلين: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي اللّه عنهم

وهذا الترتيب بين هؤلاء الأربعة قطعي عند الشيخ أبي الحسن الأشعري ظني عند القاضي أبي بكر الباقلاني »

وقال أيضا: « دليل أهل السنة في تفضيل أبي بكر على علي رضي اللّه عنهما الحديث الصحيح: ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره، وهو نص صريح في أنه أفضلهم ... »

---

(٧١٢) ذلك معروف، وفي الكافي (٦٢/٨) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال ـ في كلام طويل ـ : « واللّه لقد أمرت الناس أن لا يجتمعوا في شهر رمضان إلا في فريضة، وأعلمتهم أن اجتماعهم في النوافل بدعة، فتنادى بعض أهل عسكري ممن يقاتل معي: يا أهل الإسلام غيرت سنة عمر: ينهانا عن الصلاة في شهر رمضان تطوعا »

---

(٧١٣) قال اللّه تعالى (الأنبياء: ١٠٥ـ ١٠٦): (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ)...، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا، وسيُتطرق إليه في القسم اللاحق بعنوان **(الانتظار حاجة أساسية)**

---

(٧١٤) قال المسعودي في كتابه (مروج الذهب: ١٩١/٣) ـ في قصة ـ أنه دخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز « فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجكم مخرجكم

هذا؟ وما نقمتم علينا؟ فتكلم الذي فيه حبشية فقال: واللّه ما نقمنا عليك في سيرتك، وإنك لتجري بالعدل والإحسان، ولكن بيننا وبينك أمر إن أنت أعطيتناه فنحن منك وأنت منا وإن منعتناه فلست منا ولسنا منك، فقال عمر: وما هو؟

قال: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها المظالم وسلكت غير سبيلهم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق

فتكلم عمر فقال: إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا، ولكن أردتم الآخرة وأخطأتم طريقها، وإني سائلكم عن أمور فباللّه لتصدقنني عنها، أرأيتما أبا بكر وعمر، أليسا من أسلافكم وممن تتولونهما وتشهدون لهما بالنجاة؟ قالا: بلى، قال: فهل علمتم أن أبا بكر حين قبض رسول اللّه وارتدَّت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسبي الذراري؟ قالا: نعم، قال: فهل علمتم أن عمر حين قام بعد أبي بكر ردّ تلك السبايا إلى أصحابها؟ قالا: نعم، قال: فهل برئ عمر من أبي بكر؟ قالا: لا

قال: أفرأيتم أهل النهروان ...

قال: فهل علمتم أن أهل البصرة ...

قال: أرأيتم الدين واحدا أم اثنين؟ قالا: بل واحدا، قال: فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني؟ قالا: لا، قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى أحدهما صاحبه، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة، وتولى بعضهم بعضا، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء في الدماء والفروج والأموال، ولا يسعني فيما زعمتم إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم؟ ...

قال الحبشي: ما سمعت كاليوم حجة أبين وأقرب مأخذا من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق، وأنا بريء ممن برئ منك ... »

وذكر القصة أيضا ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد)

---

(٧١٥) أقصد الصوفية مثلا . وسيأتي الكلام عن هذا مفصلا في القسم اللاحق إن شاء اللّه

---

(٧١٦) في نهج البلاغة (الخطبة: ١٣٨): « ...، ألا وفي غد ـ وسيأتي غد بما لا تعرفون ـ يأخذ الوالي من غيرها عمالها على مساوئ أعمالها، وتخرج له الأرض أفاليذ كبدها، وتلقي إليه

سلما مقاليدها فيريكم كيف عدل السيرة، ويحيي ميت الكتاب والسنة »، قد يكون معنى (من غيرها): مما يقوم به من (تغيير الولاية)

وأيضا في نهج البلاغة (القصار: ٢٠٩): « لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها، وتلا عقيب ذلك: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِين) » ...

---

(٧١٧) قال ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة النبوية: ٤/٩٥): « وأحاديث المهدي معروفة رواها الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، كحديث عبد اللّه بن مسعود عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل اللّه ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا من أهل بيتي يواطئ إسمه إسمي، وإسم أبيه إسم أبي، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا » . أقول: لم يذكر في سنن الترمذي (٦/٤١١) (واسم أبيه اسم أبي)

وفي كتاب المستدرك (٤/٦٠٠) أخرج الحاكم بسنده عن النبي (ص) أنه قال: « لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلما وجورا وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا » . هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

---

(٧١٨) سيأتي الكلام عن هذا في القسم اللاحق إن شاء اللّه

---

(٧١٩) سبقت الإشارة إلى أني أقصد بالإيقان لا اليقين، بل الرغبة فيه والعمل لترسيخه...، ويبدو لي أنه استعمل في القرآن بهذا المعني، حتى في الآية ١٢ من سورة السجدة، وقد تقدم توضيح هذا في القسم السابق ...

---

(٧٢٠) أقصد بـ(الإيمان) المعنى الحقيقي للإيمان، لا التصديق الذهني، وقد تقدم توضيح الفرق بين الأمرين في القسم السابق: فصل **معنى (الايمان)**

---

(٧٢١) من أمثلة قبول خروج المهدي بلا انتظاره ما في الكافي (٨/٢٠٩) عن سيف بن

عميرة قال: كنت عند أبي الدوانيق فسمعته يقول ـ ابتداء من نفسه ـ: يا سيف بن عميرة لا بد من مناد ينادي باسم رجل من ولد أبي طالب. قلت: يرويه أحد من الناس؟ قال: والذي نفسي بيده لسمعت أذني منه يقول: لا بد من مناد ينادي باسم رجل . قلت: يا أمير المؤمنين إن هذا الحديث ما سمعت بمثله قط . فقال لي: يا سيف إذا كان ذلك فنحن أول من يجيبه، أما إنه أحد بني عمنا . قلت: أي بني عمكم؟ قال: رجل من ولد فاطمة (ع)، ثم قال: يا سيف لولا أني سمعت أبا جعفر محمد بن علي يقوله ثم حدثني به أهل الأرض ما قبلته منهم، ولكنه محمد بن علي

---

(٧٢٢) قال الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء: ١١٦/٧): « قال إسحاق بن راهويه: إذا اجتمع الثوري والأوزاعي ومالك على أمر فهو سنة . قلت: بل السنة ما سنه النبي صلى اللّه عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده »

يقول كاتب هذه الأوراق: المعروف عند القوم أن الخلفاء الراشدين أربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي عليه السلام

ولكن في كتاب (سير أعلام النبلاء: ١٣٠/٥) للذهبي: « قال حرملة: سمعت الشافعي يقول: الخلفاء خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز . وفي رواية: الخلفاء الراشدون . وورد عن أبي بكر بن عياش نحوه، وروى عباد (بن) السماك عن الثوري مثله »

ونقل الخطيب البغدادي في تاريخه (١٧٠/٧) ـ ط دار الكتاب العربي، بيروت ـ عن قاضي البصرة ـ إبراهيم ابن محمد التيمي ـ أنه قال: « الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق: قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، وعمر بن عبد العزيز: رد مظالم بني أمية، والمتوكل: محا البدع وأظهر السنة »

وفي مسند أحمد (٥٠/٥) عن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال: « وفدنا إلى معاوية ...، فقال: يا أبا بكرة حدثنا بشيء سمعته من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يعجبه الرؤيا الحسنة ويسأل عنها فقال ذات يوم: أيكم رأى رؤيا؟ فقال رجل من القوم: أنا رأيت ميزانا دلي من السماء فوزنت فيه أنت وأبو بكر فرجحت بأبي بكر، ثم وزن فيه أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر بعمر، ثم وزن فيه عمر وعثمان فرجح عمر بعثمان، ثم رفع الميزان . فاستاء لها النبي صلى اللّه عليه وسلم، أي أوّلها، فقال: خلافة نبوة ثم يؤتى اللّه تبارك وتعالى الملك من يشاء . قال: فزخ في أقفائنا وأخرجنا، فلما كان من الغد

عدنا فقال: يا أبا بكرة حدثنا بشيء سمعته من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، قال: فبكعه به، فزخ في أقفائنا، فلما كان في اليوم الثالث عدنا فسأله أيضا، قال: فبكعه به، فقال معاوية: تقول: إنا ملوك؟ قد رضينا بالملك »

(زَخّ): دُفع، و(البكع): المجابهة بما يكره

ويُنظر أيضا ما في البخاري من رؤيا للنبي (ص) في (قليب عليها دلو ...)، وما في سنن أبي داود من رؤيا في نوط أبي بكر بالنبي (ص)، ونوط عمر بأبي بكر، ونوط عثمان بعمر، وقد أوردناهما سابقا

---

(٧٢٣) قال الشيخ الطوسي في كتابه (التبيان): « والآية فيها خطاب للنبي صلى اللّه عليه وآله وإيجاب عليه تبليغ ما أنزل إليه من ربه وتهديد له إن لم يفعل ... »

وفي تفسير الميزان: « والآية تكشف عن أمر قد أنزل على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم إما مجموع الدين أو بعض أجزائه وكان النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يخاف الناس من تبليغه ويؤخره إلى حين يناسبه، ولولا مخافته وإمساكه لم يحتج إلى تهديده بقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ كما وقع في آيات أول البعثة الخالية عن التهديد ... »، ولكنه في مورد آخر اعتبره (مثل) التهديد، وسيأتي قريبا

وفي كتاب (الغدير: ١/٢٨٣) « ... وفيها ـ أي في آية التبليغ ـ ما يشبه التهديد إن تأخر عن تبليغ ذلك النص الجلي حذار بوادر دهماء من هذه الأمة » . ويُنظر ص٣٦٤ من المصدر

ويُنظر تفسير الرازي، وسيأتي نص كلامه قريبا

هذا، وأنا وإن أرى في الآية الكريمة تشديدا ملفتا لكني لا أرى فيها تهديدا، ولا صورة تهديد أو شبهه...، بل أرى فيها بيانا لحقيقة، هي أنه إن لم يبلغ النبي صلى اللّه عليه وآله ما أنزل إليه فلم يبلغ رسالة اللّه مطلقا، أو الرسالة الخاصة التي قد أنزلت إليه، ولا أرى دليلا في قوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ على أنه (ص) لم يفعل ما كان قد أُمر به، أو كان مترددا في تنفيذ ذلك ...، فحاشا النبي (ص)، بل وأي نبي، أن يخالف حكم اللّه عز وجل

وما في الكافي (١/٢٨٩) و(١/٢٩٠)، وتفسير العياشي، وأمالي الصدوق ص٤٩٥، وغيرها قابل للحمل على حالة بشرية معروفة قد تمثلت في جدال إبراهيم (عليه السلام)

للملائكة، ومراجعة موسى (عليه السلام) ربه، وإيجاسه في نفسه خيفة من سحر السحرة، كما في قول اللّه عز وجل (طه: ٦٦ـ٦٨): (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى)، يُنظر تفسير الرازي وتفسير الميزان وغيرهما

فالحالة المذكورة من لوازم الاهتمام بالمسألة مثلما أفاد السيد الطباطبائي في تفسيره لقول اللّه تعالى (الأحزاب: ٣٧): (وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ...

هذا، وقال ابن طاوس في (إقبال الأعمال) ص٤٥٦: « اعلم أن موسى نبي اللّه راجع اللّه تعالى في إبلاغ رسالته وقال في مراجعته: (إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ)، وإنما كان قتل نفسا واحدة، وأما علي بن أبي طالب فإنه كان قد قتل من قريش وغيرهم من القبائل قتلى كل واحد منهم يحتمل مراجعة النبي صلى اللّه عليه وآله شفيقا على أمته كما وصفه اللّه جل جلاله، فأشفق عليهم من الامتحان بإظهار ولاية علي عليه السلام في أوان، ويحتمل أن يكون اللّه جل جلاله أذن للنبي عليه السلام في مراجعته لتظهر لأمته أنه ما آثره لمولانا علي عليه السلام، وإنما اللّه جل جلاله قال: (مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى) »

وقال الشيخ المفيد في كتابه (الإرشاد: ١/١٧٥): « وكان سبب نزوله في هذا المكان ـ أي في غدير خم ـ نزول القرآن عليه بنصبه أمير المؤمنين عليه السلام خليفة في الأمة من بعده، وقد كان تقدم الوحي إليه في ذلك من غير توقيت له، فأخره لحضور وقت يأمن فيه الاختلاف منهم عليه، وعلم اللّه سبحانه أنه إن تجاوز غدير خم انفصل عنه كثير من الناس إلى بلادهم وأماكنهم وبواديهم، فأراد اللّه تعالى أن يجمعهم لسماع النص على أمير المؤمنين عليه السلام تأكيدا للحجة عليهم فيه فأنزل جلت عظمته عليه (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) يعني في استخلاف علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام والنص بالإمامة عليه (وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) أكد به الفرض عليه بذلك وخوّفه من تأخير الأمر فيه وضمن له العصمة ومنع الناس منه . فنزل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله المكان الذي ذكرناه لما وصفناه من الأمر له بذلك وشرحناه »

---

(٧٢٤) قال اللّه تعالى (المائدة: ٦٧):(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

تُنظر خصائص الآية الكريمة في تفسير الميزان وغيره

---

(٧٢٥) الكافي ج٢ص١٨، وفي ص٢١: « لم يناد بشيء ما نودي بالولاية يوم الغدير »

---

(٧٢٦) في تفسير الميزان (٦/٤٥): « فظهر أن ليس هذا الأمر الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأكدت الآية تبليغه هو مجموع الدين أو أصله على جميع تقاديره المفروضة، فلنضع أنه بعض الدين، والمعنى: بلغ الحكم الذي أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته (إلخ)، ولازم هذا التقدير أن يكون المراد بالرسالة مجموع ما حمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الدين ورسالته، وإلا فالمحذور السابق وهو لزوم اللغو في الكلام على حاله إذ لو كان المراد بقوله: (رِسالَتَهُ) الرسالة الخاصة بهذا الحكم كان المعنى: بلغ هذا الحكم وإن لم تبلغه فما بلغته، وهو لغو ظاهر

فالمراد أن بلغ هذا الحكم وإن لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها، وهو معنى صحيح معقول ... »

---

(٧٢٧) يُنظر ما تقدم في القسم السابق من هذه المذكرات بعنوان (**الإنذار عام أم خاص؟**)

---

(٧٢٨) في تفسير الميزان (٦/٤٨): « وكون ولاية أمر الأمة مما لا غنى للدين عنه ظاهر لا ستر عليه، وكيف يسوغ لمتوهم أن يتوهم أن الدين الذي يقرر بسعته لعامة البشر في عامة الأعصار والأقطار جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية، والأصول الخلقية، والأحكام الفرعية العامة لجميع حركات الإنسان وسكناته، فرادى ومجتمعين على خلاف جميع القوانين العامة لا يحتاج إلى حافظ يحفظه حق الحفظ؟ أو أن الأمة الإسلامية والمجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانية مستغنية عن وال يتولى أمرها ومدبر يدبرها ومجر يجريها؟ وبأي عذر يمكن أن يعتذر إلى الباحث عن سيرة النبي الاجتماعية؟ حيث يرى أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا خرج إلى غزوة خلف مكانه رجلا يدير رحى المجتمع، وقد خلف عليا مكانه على المدينة عند مسيره إلى تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا

نبي بعدي؟

وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم ينصب الولاة الحكام في ما بيد المسلمين من البلاد كمكة والطائف واليمن وغيرها، ويؤمر رجالا على السرايا والجيوش التي يبعثها إلى الأطراف، وأي فرق بين زمان حياته وما بعد مماته دون أن الحاجة إلى ذلك بعد غيبته بالموت أشد، والضرورة إليه أمس ثم أمس ...

قوله تعالى: (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ) المراد بقوله: (رِسَالَتَهُ) وقرئ (رسالاته) كما تقدم مجموع رسالات اللّه سبحانه التي حملها رسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم، وقد تقدم أن الكلام يفيد أهمية هذا الحكم المرموز إليه، وأن له من المكانة ما لو لم يبلغه كأن لم يبلغ شيئا من الرسالات التي حملها

فالكلام موضوع في صورة التهديد، وحقيقته بيان أهمية الحكم، وأنه بحيث لو لم يصل إلى الناس، ولم يراع حقه كان كأن لم يراع حق شيء من أجزاء الدين ... »

ولا يخفى أني وضعت خطا تحت كلمة (كأن) في الموردين

وقال الشيخ في (التبيان): « فإن قيل: ... ولا يجوز أن يقول: إن لم تبلغ رسالته فما بلغتها، لأن ذلك معلوم لا فائدة فيه . قلنا: قال ابن عباس: معناه: إن كتمت آية مما أنزل إليك فما بلغت رسالته، والمعنى أن جريمته كجريمته لو لم يبلغ شيئا مما أنزل إليه في أنه يستحق العقوبة من ربه »

وفي تفسير مجمع البيان: « والمعنى: إن تركت تبليغ ما أنزل إليك وكتمته كنت كأنك لم تبلغ شيئا من رسالات ربك في استحقاق العقوبة »

هذا، وقال الرازي: « ثم قال تعالى: (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ) ...

لقائل أن يقول: إن قوله: (وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ) معناه: فإن لم تبلغ رسالته فما بلغت رسالته، فأي فائدة في هذا الكلام؟

أجاب جمهور المفسرين بأن المراد أنك إن لم تبلغ واحدا منها كنت كمن لم يبلغ شيئا منها، وهذا الجواب عندي ضعيف، لأن من أتى بالبعض وترك البعض لو قيل: إنه ترك الكل لكان كذبا، ولو قيل أيضا: إن مقدار الجرم في ترك البعض مثل مقدار الجرم في ترك الكل فهو أيضا محال ممتنع، فسقط هذا الجواب

والأصح عندي أن يقال: إن هذا خرج على قانون قوله: (أنا أبو النجم وشعري شعري)، ومعناه: أن شعري قد بلغ في الكمال والفصاحة إلى حيث متى قيل فيه: إنه شعري فقد انتهى مدحه إلى الغاية التي لا يمكن أن يزاد عليها، فهذا الكلام يفيد المبالغة التامة من هذا الوجه، فكذا هاهنا: فإن لم تبلغ رسالته فما بلغت رسالته، يعني أنه لا يمكن أن يوصف ترك التبليغ بتهديد أعظم من أنه ترك التبليغ، فكان ذلك تنبيها على غاية التهديد والوعيد . والله أعلم »

---

(٧٢٩) في تفسير الميزان (٦/٥٠): « وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فإن ظاهره أنها عصمة بمعنى الحفظ والوقاية من شر الناس المتوجه إلى نفس النبي الشريفة أو مقاصده الدينية أو نجاح تبليغه وفلاح سعيه، وبالجملة المعنى المناسب لساحته المقدسة ...

وكان تعليق العصمة بالناس من دون بيان أن العصمة من أي شأن من شئون الناس كتعدياتهم بالإيذاء في الجسم من قتل أو سم أو أي اغتيال، أو بالقول كالسب والافتراء، أو بغير ذلك كتقليب الأمور بنوع من المكر والخديعة والمكيدة، وبالجملة السكوت عن تشخيص ما يعصم منه لإفادة نوع من التعميم، ولكن الذي لا يعدو عنه السياق هو شرهم الذي يوجب انقلاب الأمر على النبي صلى الله عليه وآله بحيث يسقط بذلك ما رفعه من أعلام الدين ...

والمراد بعدم هدايته تعالى هؤلاء القوم الكافرين عدم هدايته إياهم في كيدهم ومكرهم، ومنعه الأسباب الجارية أن تنقاد لهم في سلوكهم إلى ما يرومونه من الشر والفساد نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ...، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ...

فتبين أن المراد بعدم هداية الكافرين عدم تخليتهم لينالوا ما يهمون به من إبطال كلمة الحق وإطفاء نور الحكم المنزل ...

وعلى هذا فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ تفسير قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ بالتصرف في سعة إطلاقه، ويكون المراد بالعصمة عصمته صلى الله عليه وآله وسلم من أن يناله الناس بسوء دون أن ينال بغيته في تبليغ هذا الحكم وتقريره بين الأمة كأن يقتلوه دون أن يبلغه، أو يثوروا عليه ويقلبوا عليه الأمور، أو يتهموه بما يرتد به المؤمنون عن دينه، أو يكيدوا كيدا يميت هذا الحكم ويقبره، بل الله يظهر كلمة الحق ويقيم الدين على ما شاء وأينما شاء ومتى ما شاء، وفيمن شاء قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ ... »

وأقول: لعل المقصود بقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ) أن الكافرين بكون الولاية أساس الدين لا يهديهم اللّه ليعلموا ما أمر اللّه نبيه بتبليغه، فلا يتصدون له ولا يقدرون على ذلك ...

---

(٧٣٠) رواه الكافي (١٨٥/١) في الصحيح عن أبي جعفر عليه السلام

---

(٧٣١) في تفسير الميزان (٤٠٠/٤) نقل إشكالا ... وهو: « أنا في زماننا هذا عاجزون عن الوصول إلى الإمام المعصوم وتعلم العلم والدين منه ... »

فرد عليه قائلا: « وفيه أن ذلك مستند إلى نفس الأمة في سوء فعالها وخيانتها على نفسها لا إلى اللّه ورسوله، فالتكليف غير مرتفع كما لو قتلت الأمة نبيها ثم اعتذرت أنها لا تقدر على طاعته

على أن الإشكال مقلوب عليه فإنا لا نقدر اليوم على أمة واحدة في الإسلام ينفذ فيها ما استصوبته لها أهل الحل والعقد منها »

---

(٧٣٢) سيأتي مزيد من التوضيح لهذه المسألة في القسم اللاحق من هذه المذكرات

---

(٧٣٣) قال اللّه تعالى (مريم: ٢٩– ٣٤): (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ .... ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ)

في الكافي (٣٢٢/١) بسنده عن الرضا عليه السلام أنه كان بخراسان فقال له قائل: يا سيدي إن كان كون فإلى من؟ قال: إلى أبي جعفر: ابني. فكأن القائل استصغر سن أبي جعفر عليه السلام فقال أبو الحسن عليه السلام: إن اللّه تبارك وتعالى بعث عيسى بن مريم رسولا نبيا صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر عليه السلام

وفي كتاب البحار ج٥٠ ص٩٩ – نقلا عن كتاب عيون المعجزات –: « لما قبض الرضا عليه السلام كان سن أبي جعفر عليه السلام نحو سبع سنين، فاختلفت الكلمة من الناس ببغداد

وفي الأمصار، واجتمع الريان بن الصلت، وصفوان بن يحيى، ومحمد بن حكيم، وعبد الرحمان بن الحجاج، ويونس ابن عبد الرحمان، وجماعة من وجوه الشيعة وثقاتهم في دار عبد الرحمان بن الحجاج في بركة زلول يبكون ويتوجعون من المصيبة، فقال لهم يونس بن عبد الرحمان: دعوا البكاء! من لهذا الأمر وإلى من نقصد بالمسائل إلى أن يكبر هذا؟ يعني أبا جعفر عليه السلام . فقام إليه الريان بن الصلت، ووضع يده في حلقه، ولم يزل يلطمه، ويقول له: أنت تظهر الإيمان لنا وتبطن الشك والشرك، إن كان أمره من اللّه جل وعلا فلو أنه كان ابن يوم واحد لكان بمنزلة الشيخ العالم وفوقه، وإن لم يكن من عند اللّه فلو عمر ألف سنة فهو واحد من الناس، هذا مما ينبغي أن يفكر فيه . فأقبلت العصابة عليه تعذله وتوبخه ... »

هذا، وفي صدد مؤلفات السيد المرتضى قال في البحار ج١ ص١٠: « وكتاب عيون المعجزات ينسب إليه ولم يثبت عندي، إلا أنه كتاب لطيف، عندنا منه نسخة قديمة، ولعله من مؤلفات بعض قدماء المحدثين ... »

---

(٧٣٤) في الكافي (٥٣٦/١) عن الحكم بن أبي نعيم، قال: أتيت أبا جعفر عليه السلام، وهو بالمدينة، فقلت له: علي نذر بين الركن والمقام إن أنا لقيتك أن لا أخرج من المدينة حتى أعلم أنك قائم آل محمد أم لا . فلم يجبني بشيء، فأقمت ثلاثين يوما ثم استقبلني في طريق فقال: يا حكم وإنك لهاهنا بعد؟! فقلت: نعم إني أخبرتك بما جعلت للّه علي فلم تأمرني ولم تنهني عن شيء ولم تجبني بشيء، فقال: بكر علي غدوة المنزل، فغدوت عليه فقال عليه السلام: سل عن حاجتك، فقلت: إني جعلت للّه علي نذرا وصياما وصدقة بين الركن والمقام إن أنا لقيتك أن لا أخرج من المدينة حتى أعلم أنك قائم آل محمد أم لا، فإن كنت أنت رابطتك وإن لم تكن أنت سرت في الأرض فطلبت المعاش

فقال: يا حكم كلنا قائم بأمر اللّه

قلت: فأنت المهدي؟

قال: كلنا نهدي إلى اللّه

قلت: فأنت صاحب السيف؟

قال: كلنا صاحب السيف ووارث السيف

قلت: فأنت الذي تقتل أعداء اللّه ويعز بك أولياء اللّه ويظهر بك دين اللّه؟

فقال: يا حكم كيف أكون أنا وقد بلغت خمسا وأربعين سنة، وإن صاحب هذا الأمر أقرب عهدا باللبن مني وأخف على ظهر الدابة

---

(٧٣٥) في الكافي (٢/٢٠) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال ـ في حديث ـ : وكانت الشيعة قبل أن يكون أبو جعفر وهم لا يعرفون مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم حتى كان أبو جعفر ففتح لهم وبين لهم مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم حتى صار الناس يحتاجون إليهم من بعد ما كانوا يحتاجون إلى الناس ...

---

(٧٣٦) في الكافي (١/٥٦) ـ عن محمد بن حكيم أنه قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: جعلت فداك، فُقهنا في الدين وأغنانا اللّه بكم من الناس، حتى إن الجماعة منا تكون في المجلس ما يسأل رجل صاحبه: يحضره المسألة ويحضره جوابها فيما من اللّه علينا بكم (الحديث)

سيأتي الكلام عن هذا في القسم اللاحق بعنوان (**مراحل**)، أي المراحل التي مرت عليها الإمامة

---

(٧٣٧) ومما يشير إلى أهمية دور الحكم في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ما رواه الكافي (٢/٤١١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: « المؤلفة قلوبهم قوم وحّدوا اللّه وخلعوا عبادة (من يعبد) من دون اللّه ولم تدخل المعرفة قلوبهم أن محمّدًا رسول اللّه وكان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله يتألّفهم ويعرّفهم لكيما يعرفوا، ويعلّمهم »، *على أن يكون معنى (تعريفهم ...) جعل الحق محسوسا لهم لكيما يحسوا به، ففي (المصباح المنير) للفيومي: « عرفته ... علمته بحاسة من الحواس الخمس »*

وقال اللّه عز وجل (المائدة: ٤٩ـ ٥٠): (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُون . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) بأن يكون معناه: أن نفوس الذين يسعون إلى اليقين، لا الكافرين بذلك، تستحسن

حكم اللّه تعالى المتمثل في حكم النبي (ص) أكثر من أي حكم آخر

---

(٧٣٨) يُنظر القسم السابق من هذه المذكرات

---

(٧٣٩) قال اللّه تعالى (النحل: ٨٩): (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)

---

(٧٤٠) قُدّمت (الأفعال) على (الأقوال) لما أرى من أن سنة النبي صلى اللّه عليه وآله هي في الأساس ما كان يفعله، وأما أقواله (ص) فهي عُدّت (سنة) لكونها مشيرة إلى أفعاله وداعية إلى العمل بها ...

---

(٧٤١) في نهج البلاغة (الخطبة ١١٠): « واقتدوا بهدى نبيكم فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن »

---

(٧٤٢) سورة المائدة: ٣

ولعل حينذاك نزل كذلك قول اللّه عز وجل (البقرة: ٢٥٦): (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، فيكون ـ خلافا لما هو مشهور ـ ناسخا لحكم القتال لا منسوخا به، بشرح يتطلب فتح كثير من ملفات مغلقة حساسة وبحثها من جديد، منها (جيش أسامة) وهل أنه كان للدفاع عن الذين وصفهم اللّه عز وجل بقوله (آل عمران: ١١٠): (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه)؟ ...

---

(٧٤٣) سيأتي الكلام عن التقية في القسم اللاحق

---

(٧٤٤) في الكافي (٣٧١/١) عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام

يقول: من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية، ومن مات وهو عارف لإمامه لم يضره تقدم هذا الأمر أو تأخر، ومن مات وهو عارف لإمامه كان كمن هو مع القائم في فسطاطه

هذا، وسيأتي في القسم اللاحق من هذه المذكرات أن انتظار حكم الإمام القائم عليه السلام مما لا بد منه في الإيمان

---

(٧٤٥) يُنظر فصل (**حاجة الكتاب إلى الولاية**) من القسم السابق

---

(٧٤٦) قال اللّه عز وجل (آل عمران: ٧): (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَايَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ)

---

(٧٤٧) قال اللّه تعالى (الجمعة: ٢): (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

---

(٧٤٨) ذلك لما أرى من أن تعليمه صلى اللّه عليه وآله للمسلمين الكتاب ـ وكذلك الحكمة ـ لم يكن نظريا بإلقاء دروس ومحاضرات، وإنما كان تعليما عمليا كتعليم العبد الصالح لموسى عليه السلام ...، ولا أظن هذا يخفى على الملم بسيرة النبي (ص)، على أن (الحكمة) ليست مما يمكن تعليمها نظريا ...

هذا، ويُنظر ما تقدم في فصل (**لم يكن التعليم عاما ...**)

---

(٧٤٩) قال اللّه عز وجل (الشورى: ٥٢ـ٥٣): (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)

---

(٧٥٠) في الكافي (١٩١/١) عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: « إن اللّه تبارك وتعالى ...، وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا »

---

(٧٥١) قال اللّه تعالى (الأنعام: ١٠٦): (اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

وقال (يونس: ١٠٨-١٠٩): (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) إلخ